واتخذ سبيله نحو الباب ، متمهلا لحظة على مقربة من السرير ليقول : « لقد كانت فتاة بهية الطلعة ، على أية حال . من أي بلد هي ؟ »

فأجابت المرأة العجوز : « لقد جيء بها الى هنا الليلة البارحة ، بناء على أمر الناظر . ولقد وُجدت طريحة في الشارع . كانت قد سارت مسافة ما ، ذلك بأن حذاءها كان قد تهرّأ وبلي . أما من أين اقبلت والى أين كانت ذاهبة فذلك ما لا يعرفه أحد . »

وانحنى الجراح فوق الجثة ، ورفع اليد اليسرى . وقال وهو يهز رأسه : « انها القصة القديمة دائماً ، لا خاتم زواج . لقد فهمتُ . آه ! طاب مساؤك ! »

ومضى رجل الطب لتناول طعام العشاء . أما الممرضة فانكبّت كرة أخرى على الزجاجة الخضراء ، حتى اذا تجرعت منها ما قُدر لها أن تتجرعه جلست على كرسي خفيض على مقربة من النار ، وشرعت تُلبس الطفل .

أي مثل رائع على سلطان الثياب كان اوليفر تويست ! لقد كان خليقاً بالمرء ان يُخدع عن نفسه حين لم يكن على جسد الطفل غير تلك البطانية ، فيحسبه ابن نبيل من النبلاء أو يحسبه ابن شحاذ من الشحاذين . ولقد كان عسيراً على أشد الأغراب تشامخاً أن يحدد مكانه الصحيح في المجتمع ، أما الآن وقد دُثر في الملابس القطنية البالية التي اصفرّت بتطاول الاستعمال لمثل هذا الغرض المتواتر فقد وُسم والصقت عليه بطاقة مميزة ، وأنزل في منزلته على التوّ : طفل من اطفال الاحسان ··· يتيم في ملجأ من الملاجيء ··· عبد رقيق مهين نصف جائع ··· مقدر عليه أن يسلخ العمر بين اللطمات والصفعات ··· يزدريه الجميع ولا يرثي له أحد .

وبكى أوليفر في قوة وعنف . ومن يدري ، فلعله لو عرف انه يتيم أسلم الى رحمة النظار ووكلاء الكنائس وعطفهم الرقيق اذن لرفع عقيرته بالبكاء على نحو أقوى وأعنف .

الفصل الثاني
وهو يعرض لنشأة اوليفر تويست وتعليمه وتغذيته

وطوال الثمانية الاشهر أو التسعة الاشهر التالية كان اوليفر ضحية سلسلة نظامية من ضروب الخيانة والخداع . لقد نُشّيء على زجاجة الرضاع وفي الوقت المناسب كتبت سلطات الملجأ الى سلطات الابرشية واصفة حال الغلام الجائع وما يقاسيه من بؤس . فما كان من سلطات الابرشية الا ان سألت سلطات الملجأ ، في كثير من الاحترام ، عما اذا كان بين نزلاء « البيت » آنذاك أيما أنثى مؤهلة لأن تقدّم الى اوليفر تويست ما هو في حاجة اليه من عزاء وغذاء . فأجابت سلطات الملجأ ، في كثير من الاتضاع ، أن ليس لديها مثل هذه الانثى . عندئذ قررت سلطات الابرشية، فيشهامة ورأفة، ان «تُلزّم» أوليفر ، وبكلمة ثانية ، أن تبعث به الى ملجأ فرعي واقع على مبعدة ثلاثة أميال ، حيث كان نحو عشرين أو ثلاثين من المنتهكين الأحداث لحرمة قوانين اسعاف الفقراء يتدحرجون على ارض المبنى ، طوال ساعات النهار ، من غير ان

يعوقهم عن ذلك افراط في المأكل او اسراف في الملبس ، تحت رعاية أبوية تغدقها عليهم انثى عجوز كانت تستقبل اولئك الجناة لقاء تعويض مقداره سبعة بنسات ونصف بنس لكل رأس من الرؤوس الصغيرة في الاسبوع . ان ما قيمته سبعة بنسات ونصف بنس من الطعام ليشكلُ غذاء صالحاً كاملا لطفل لمّا يشب بعد عن الطوق . ففي ميسور هذه السبعة البنسات ونصف البنس أن تكفل للطفل أشياء كثيرة ٠٠٠ كافية لأن ُتثقل معدته ، وتوفر له أسباب الرفاهية . وكانت الانثى العجوز امرأة ذات حكمة وخبرة : كانت تعرف ما الذي ينفع الاطفال ، وكانت تدرك ادراكاً جد دقيق ما الذي ينفعها هي . وهكذا سخرت القسط الأعظم من الجعل الاسبوعي لمصلحتها هي ، وأسلمت الجيل الابرشي الصاعد الى حياة أشد ضنكاً من تلك التي ُحددت له في الأصل ، موجدة بذلك وراء الدرك الأسفل دركاً أشد أمعاناً في السفلية ، ومقيمة الدليل على أنها فيلسوفة عملية من الطراز الأول .

والناس كلهم يعرفون قصة ذلك الفيلسوف العملي الآخر الذي كانت له فلسفة عظيمة تقول بأن في امكان الفرس ان تحيا من غير طعام ، والذي أثبت صحة فلسفته هذه بأن قصر غذاء الفرس على قشة واحدة في اليوم الواحد ، وكان خليقاً به من غير ريب أن يجعل من فرسه حيواناً مفعماً بالنشاط والحيوية من غير أن يقدّم اليها أي طعام البتة لو لم تمت قبل اربع وعشرين ساعة من تناولها أول جراية موفورة من الهواء النقيّ ُخصصت لها . ومن سوء طالع الفلسفة العملية الخاصة بتلك الانثى التي ُعهد بأوليفر تويست الى رعايتها الواقية أن تطبيق نظامها هي كانت تلازمه في العادة نتيجة مماثلة . اذ ما ان يناضل طفل للاحتفاظ برمقه ، في رعايتها ، على أصغر جزء ممكن من أهزل طعام ممكن و ُيوفق الى ذلك حتى يحدث ــ ويا للتمرد الجموح ! ــ في كل ثماني حالات ونصف من أصل عشر حالات ، واحد من أمرين : اما أن ُيلم به السقم بسبب من الحرمان والبرد ، أو يقع في النار بسبب من الاهمال ، أو يختنق نصف اختناق مصادفة واتفاقاً . وفي كل من هذه الحالات على تنوعها كان المخلوق الصغير البائس يدعى ، عادة ، الى عالم آخر لكي ُيجمع الى آبائه وأجداده الذين لم يعرفهم في هذه الدنيا البتة .

وأحياناً ، حين يتفق أن ُيجرى تحقيق لاهف ، أكثر من المألوف ، حول وفاة طفل من أيتام الابرشية بعد أن نسي عند قلب احد الفرش رأساً على عقب، أو بعد أن و ُبخ حتى الموت فيوم شاءت المصادفة أن يكون يوم استحمام ــ برغم أن هذه المصادفة كانت نادرة جداً ، على اعتبار ان أيما شيء متصل بالغسل والغسيل كان نادر الحدوث في الملجأ الفرعي ــكان يخطر للمحكمين ان يطرحوا اسئلة مزعجة والا ثار المواطنون وذيلوا بتواقيعهم احتجاجاً من الاحتجاجات . ولكن هذه الوقاحات سرعان ما كانت ُتكبح ببينة الطبيب الجرّاح ، وشهادة شمّاس الكنيسة : اذ كان الأول يعمد دائماً الى تشريح الجثة فلا يجد شيئاً في جوفها (وهو أمر محتمل جداً ، في الواقع) واذ كان الثاني مستعداً دائماً لأن ُيقسم اليمين على أيما شيء تريده الأبرشية ، وهو أمر ينمّ عن ولاء ذاتي الى أبعد الحدود . والى هذا فان لجنة الملجأ كانت تحجّ الى الملجأ الفرعي على نحو دوري ، وكان من دأبها دائماً أن تبعث بالشماس الى هناك ، قبل اربع وعشرين

ساعة ، ليعلن ان اللجنة آتية ، حتى اذا وفدت اللجنة كان الاطفال مرتبين ترتاح العين لنظافتهم . وما الذي يبتغيه القوم اكثر من ذلك ؟

وليس في امكان المرء ان يتوقع من نظام « التلزيم » هذا ان يُطلع أيما ثمرات ممتازة جداً أو ناضرة جداً . فاذا بعيد ميلاد اوليفر تويست التاسع يُلفيه طفلا مهزولا شاحباً ، قصير القامة بعض الشيء ، ضئيل الجسم من غير ريب ، ولكن الطبيعة أو الوراثة كانت قد غرست في صدر اوليفر روحاً متينة جَلدة ، وكان مجال الانتشار واسعاً أمام هذه الروح ، بفضل الغذاء الهزيل الذي اعتادت المؤسسة تقديمه الى الاطفال . ولعل في استطاعتنا ان نعزو الى هذه الواقعة فضلا آخر : هو ان أوليفر وُفق بشق النفس الى بلوغ شيء اسمه العام التاسع . وعلى أية حال ، فقد كان هذا هو عيد ميلاده التاسع ، وكان يحتفل به في قبو الفحم الحجري مع رهط مختار مؤلف من « سيدين » آخرين ناضري العود كانا قد حبسا ـ بعد أن شاركاه جلداً بالسياط عنيفاً ـ بسبب من ادّعائهما ، ويا للفظاعة ! ، أنهما جائعان ، عندما أجفلت مسز مان ، سيدة الملجأ الصالحة ، لدى رؤيتها مستر بامبل ، الشماس ، يناضل على نحو غير مرتقب لفتح خادعة* بوابة الحديقة الخارجية .

ـ « يا آلهي الطيب ! أهذا أنت ، مستر بامبل ، يا سيدي ؟ » كذلك قالت مسز مان مُطلة برأسها من النافذة في نشوة من الجذل بالغة الاصطناع والتكلف . « (سوزان ، خذي أوليفر والصبيين الآخرين الى الطابق الاعلى واغسلي وجوههم في الحال .) يا للسماء ! مستر بامبل ، لشد ما أنا سعيدة بأن أراك ، من غير ريب ! »

والواقع أن مستر بامبل كان رجلا بديناً ، صفراوي المزاج . وهكذا فأنه بدلا من أن يستجيب لهذا الترحيب الودّي بروح مماثلة، هز الخادعة الصغيرة هزة هائلة ، ثم أسبغ عليها رفسة ما كان في ميسورها ان تنبثق الا من قدم شماس .

فقالت مسز مان وهي تنطلق الى الخارج ـ ذلك بأن الصبية الثلاثة كانوا قد أخرجوا الآن من محبسهم ـ: « يا آلهي، بحسبك ان تفكر في هذا ... بحسبك ان تفكر اني نسيت ان البوابة موصدة بالمزلاج من داخل ، بسبب من اولئك الصغار الاعزاء ! ادخل ، يا سيدي . ادخل ، اتضرع اليك ، يا مستر بامبل ، ادخل يا سيدي . »

وعلى الرغم من أن هذه الدعوة أرفقت بانحناءة احترام كان خليقاً بها أن تعطف فؤاد وكيل كنيسة فانها لم تهدىء من ثائرة الشماس .

فتساءل مستر بامبل وهو يمسك بعصاه : « أتحسبين أن من السلوك الحَسن الراشح بالاحترام يا مسز مان ، أن يُبقى موظفو الأبرشية منتظرين بباب حديقتك كلما وفدوا الى هنا في مهمة أبرشية متصلة بالأيتام الأبرشانيين؟ هل تدركين ، يا مسز مان ، أنك ـ كما أجيز لنفسي ان اقول ـ مندوبة من مندوبات الابرشية وانك تتقاضين منها راتبا معلوماً ؟ »

فأجابته مسز مان في اتضاع عظيم : « أؤكد لك ، يا مستر بامبل ، اني كنت ـ بكل بساطة ـ أبلغ واحدا او اثنين من الصغار الأعزاء الشديدي الولوع

* الخادعة : الباب الصغير في الباب الكبير ، وهي تقابل لفظة wicket في اللغة الانكليزية .

بك أن الوافد عليهم ليس أحداً غيرك . »

وكان لمستر بامبل رأي حسن في مقدرته الخطابية وأهميته الشخصية وكان قد أظهر الأولى وأثبت الاخرى . فاسترخى ، وأجاب في لهجة أرق وأهدأ : « حسن ، حسن : يا مسز مان . قد يكون الامر كما تقولين ، قد يكون . تقدميني الى الدار ، يا مسز مان ، ذلك بأني وفدت في مهمة ، وان لدي شيئاً أقوله . »

وأدخلت مسز مان الشماس الى حجرة استقبال صغيرة مفروشة أرضها بالآجر ، وقدمت اليه كرسياً ، ووضعت عصاه وقبعته ذات القرنين ــ في شيء من التطفل ــ أمامه على الطاولة . فمسح مستر بامبل عن جبينه العرق الذي كان سيره قد فصّده منه ، ونظر في ارتياح ورضا الى قبعته ذات القرنين ، وتبسم . أجل ، تبسم . فالشمامسة هم على أية حال بشر من البشر : وتبسم مستر بامبل .

فلاحظت مسز مان في عذوبة آسرة : « أرجو أن لا يستبد بك الغضب لما سوف اقوله لك . لقد اجتزت مسافة طويلة وأنت تسير على قدميك، كما تعلم، والا لما أجزت لنفسي أن أوجه اليك هذا السؤال . هل لك في قطرة صغيرة من شيء ما ، يا مستر بامبل ؟ »

فقال مستر بامبل ، ملوحاً بيده اليمنى على نحو وقور ، ولكنه خلو من العنف :

ــ « ولا قطرة ! ولا قطرة ! »

فقالت مسز مان التي كانت قد لاحظت لهجة الرفض والايماءة التي رافقتها: « أحسب انك سوف تشرب . لن اقدم اليك غير قطرة صغيرة ، مع قليل من الماء البارد ، وقطعة سكر . »

فسعل مستر بامبل .

عندئذ قالت مسز مان في جرس مقنع : « أجل ، مجرد قطرة صغيرة . »

فسألها الشماس : « قطرة من أي شيء ؟ »

ــ « يا آلهي ! انها من ذلك الشراب الذي أجدني مضطرة الى الاحتفاظ بقليل منه في الدار لكي أضيفه الى شراب « دافي » * الذي أقدمه الى ملائكتي الصغار كلما ألمت بهم الاوجاع ، يا مستر بامبل » كذلك أجابت مسز مان وهي تفتح خواناً في زاوية من زوايا الحجرة ، وتخرج منه زجاجة وقدحاً. « انه شراب ال « جن » gin أنا لن أخدعك ، يا مستر بامبل . انه شراب ال « جن . »

فسألها بامبل متابعاً بعينيه عملية المزج الشيقة : « هل تقدمين شراب « دافي » الى الاولاد ، يا مسز مان ؟ »

فأجابت الممرضة : « آه ، فليباركهم الله ، هذا ما أفعله ، على الرغم من غلائه الشديد . أنا لا استطيع أن أراهم يتألمون تحت عيني رأسي ، كما تعلم ، يا سيدي . »

فقال مستر بامبل موافقاً : « لا ، لا ، انت لا تستطيعين . انت امرأة انسانية رقيقة القلب ، يا مسز مان . » (وهنا وضعت الكأس على المائدة)

* شراب اخترعه Daffy في القرن السابع عشر واكتسب شعبية كبيرة كشراب مسكن خلال قرنين كاملين .

سوف انتهز اول فرصة مناسبة للتنويه بذلك على مسامع اللجنة ، يا مسز مان . » (وأدنى القدح منه .) « أنت تكنين لهم عواطف أم ، يا مسز مان . » (ومزج « الجن » بالماء .) « سوف... سوف اشرب نخبك ، في بشر وابتهاج، يا مستز مان . » وأفرغ في حوفه محتويات الكأس .

ثم ان الشماس قال ، وهو يخرج مفكرة ذات غلاف جلـــدي : « والآن ، فلنتقدم الى عملنا ، ان الطفل الذي عُمد نصف تعميد باسم اوليفر تويست قد بلغ اليوم عامه التاسع . »

فاعترضته مسز مان قائلة وهي تُلهب عينها اليسرى بطرف مئزرها : « فليباركه الله ! »

فقال بامبل : « وعلى الرغم من مكافأة مقدارها عشرة جنيهات رُفعت في ما بعد الى عشرين جنيهاً ، وعلى الرغم من جهود الابرشية السامية الىأبعد مدى، بل من جهودها الخارقة للطبيعة ، فقد عجزنا عن أن نكتشف من هو أبوه ، ومن أي موطن وفدت أمه ، وما اسمها ، وما وضعها الاجتماعي . »

ورفعت مسز مان يدها في انشداه . ولكنها أضافت بعد لحظة مـــن التفكير : « كيف اتفق له ، اذن ، أن يحمل ايما اسم مهما يكن ؟ »

فتصدر الشماس في اعتزاز بالغ وقال : « لقد اخترعته أنا . »

ـ « أنت ، يا مستر بامبل ! »

ـ « أجل ، أنا ، يا مسز مان . اننا نسمي لقطاءنا وفقـاً للترتيـــب الابجدي . ولقد قضى هذا الترتيب بأن يكون اسم اللقيط الاخير مبتدئاً بحرف S ، فكان سوابل Swubble وكنت أنا الذي خلعت عليه هذا الاسم . وقضى الترتيب بأن يكون اسم هذا مبتدئـاً بحرف T ، فكان تويست Twist وكنت أنا الذي خلعت عليه هذا الاسم أيضاً. ولسوف يحمل اللقيط التالي اسم آنوين Unwin ، والذي بعده اسم فيلكينز Vilkins . لقد أعددت ، سلفاً ، لائحة بالاسماء حتى آخر حرف من حروف الابجدية ، ولائحة اخرى تبدأ بحرف الألف للافادة منها حين ننتهي الى حرف Z . »

فقالت مسز مان : « يا الهي ، ولكنك من غير ريب أديب بكل ما في الكلمة من معنى ، يا سيدي . »

فقال الشماس وقد ارتاح لهذا الاطراء ارتياحـاً واضحـــاً : « حسن ، حسن ، ربما كنت ، كما تقولين ، أديباً ؛ ربمـا كنت أديبـــاً ، يا مسز مان . » وتجرّع بقية « الجن والماء » ثم أضاف : « واذ أمسى اوليفر ، الآن ، أكبر سناً من أن يبقى هنا فقد قررت اللجنة اعادته الى الملجأ . ولقد وفدت بنفسي لأصحبه الى هناك . من أجل ذلك دعيني أراه في الحال . »

ـ « سوف آتيك به على التو . » كذلك قالت مسز مان ، وهي تغـــادر الحجرة لهذا الغرض ، واذ كان اوليفر قد تخلص الآن من طبقة القذر الخارجية التي تغلف وجهه ويديه ـ بقدر ما تستطيع غسلة واحدة أن تقشطه من تلـك الطبقة ـ فقد قادته الحامية الخيّرة الى الحجرة ، وقالت :

ـ « انحنِ احتراماً للسيد الماجد ، يا اوليفر . »

فانحنى أوليفر انحناءة احترام قسّمها بين الشماس القاعد على الكرسي والقبعة ذات القرنين المستوية على المائدة .

وهنا قال مستر بامبل ، في صوت وقور : « هل تريد أن تذهب معي ، يا أوليفر ؟ »

وكان أوليفر على وشك أن يقول انه راغب في الذهاب مع أيما امرىء في طواعية بالغة عندما رفع بصره فلمح مسز مان ، التي كانت قد اتخذت لها موقفاً خلف كرسي الشماس ، وراحت تهز قبضة يدها في وجهه وأمارات الضراوة بادية على وجهها . وأدرك اوليفر على التو ، مغزى ذلك التلميح ، ذلك بأن جمع تلك الكف كان قد انطبع على جسده مرات عديدة جعلت عدم انطباعه في ذاكرته على نحو عميق أمراً متعذراً .

وتساءل أوليفر المسكين : « هل ستذهب هي معي ؟ »

فأجابه مستر بامبل : « لا ، انها لا تستطيع . ولكنها سوف تجيء لتراك بين الفينة والاخرى . »

ولم يكن في ذلك كبير عزاء للطفل . بيد أنه ، برغم صغر سنه ، كان من الفطنة بحيث يتظاهر بالأسف العظيم لاضطراره الى الرحيل . ولم يكن جد عسير على الغلام أن يدعو العبرات الى عينيه . فالجوع وقرب العهد بالعسف والاضطهاد مسعفان عظيمان لمن يود أن ينفجر بالبكاء . ولقد انفجر أوليفر بالبكاء على نحو جد طبيعي حقاً . فما كان من مسز مان الا ان منحته ألف قبلة ، والا ان منحته ما كان هو في حاجة اليه أكثر بكثير : قطعة من خبز وزبدة ، خشية أن يبدو اشد جوعاً مما ينبغي لدن وصوله الى الملجأ . وهكذا اقتاد مستر بامبل فتاه ، وقطعة الخبز تلك في يده وقبعة الابرشية القماشية السمراء على رأسه ، مبتعداً به عن تلك الدار البائسة حيث لم تضيء قط ظلمة سنوات طفولته كلمة كريمة واحدة ، او نظرة كريمة واحدة . ومع ذلك فقد غمرته ، عندما أوصد باب الدار الصغيرة خلفه ، موجة عارمة من اسى طفلي ، فعلى الرغم من عظم بؤس اقرانه ورفاقه في الشقاء الذين كان على وشك ان يخلفهم وراءه فقد كانوا هم الاصدقاء الوحيدين الذين قدر له أن يعرفهم . ولأول مرة ران على فؤاد الغلام شعور بالوحشة في العالم الرحب العريض .

واتخذ مستر بامبل سبيله في خطى واسعة . فاغذ اوليفر السير الى جانبه ، متشبثاً بردن قميصه الموشى بخيوط ذهبية ، متسائلا عند نهاية كل ربع ميل ما اذا كانا « قد وصلا تقريباً . » وعن هذه الاسئلة كان مستر بامبل يجيب بأجوبة فظة شديدة الايجاز ، ذلك بأن الرقة المؤقتة التي يبعثها « الجن والماء » في بعض الصدور كانت الآن قد تبخرت . لقد عاد كرة اخرى شماس كنيسة .

ولم يكد ينقضي ربع ساعة على دخول اوليفر اسوار الملجأ ، ولم يكد يلتهم قطعة من الخبز جديدة حتى عاد مستر بامبل — وكان قد عهد بالغلام الى امرأة عجوز — ليعلمه ان لجنة الملجأ مجتمعة تلك الليلة ، وانها كانت قد أعلنت ان عليه ان يمثل بين يديها في الحال .

واذ لم تكن لأوليفر أيما فكرة واضحة المعالم الى حد بعيد عن ماهية اللجان وحقيقتها فقد أذهله ذلك النبأ ولم يدر على وجه التحقيق أيتعين عليه ان يضحك او ان يبكي . بيد انه لم يجد متسعاً من الوقت لتقليب الرأي في هذه المسألة ، ذلك بأن مستر بامبل نقره بالعصا على رأسه نقرة واحدة لكي

يوقظه من ذهوله وعلى قفاه نقرة اخرى لكي يبعث في نفسه الخفة والنشاط ثم انه أمره بأن يتبعه وقاده الى حجرة عريضة ، طُرشت جدرانها بالكلس ، حيث تحلق حول مائدة من الموائد ثمانية من السادة الأماجد ، أو عشرة ، كلهم سمين بدين · وعند رأس المائدة ، في كرسي ذي ذراعين أعلى بعض الشيء من سائر الكراسي ، جلس سيد ماجد يبزّ زملاءه سمناً وبدانة ، ذو وجه أحمر شديد الاستدارة ·

وقال مستر بامبل : « انحن احتراماً لأعضاء اللجنة ! »

فكفكف أوليفر عبرتين أو ثلاث عبرات كانت تترقرق في عينيه . واذ لم ير أيما شيء مؤنث* غير المائدة فقد انحنى لها هي ، لحسن الطالع ، دون غيرها ·

وقال السيد المستوي على الكرسي العالي : « ما اسمك ، أيها الغلام ؟ »

ورُوّع اوليفر لمشهد هذا العدد الكبير من الرجال الأماجد ، فارتعدت أوصاله : ونقره الشماس نقرة اخرى من خلاف ، فجرت الدموع من عينيه · والواقع ان هذين السببين جعلاه يجيب في صوت خفيض جداً ، متردد جداً · عندئذ قال سيد ماجد مرتد صدرة بيضاء انه أبله · فكان هذا القول وسيلة ممتازة لرفع معنوياته ولأيقاع الطمأنينة في نفسه ·

وقال السيد المستوي على الكرسي العالي : « أيها الغلام ، أصغ اليّ أنت تعلم ، في ما أحسب ، أنك يتيم ؟ »

فتساءل اوليفر البائس : « ما معنى ذلك ، يا سيدي ؟ »

فقال السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء : « الغلام أبله من غير ريب · لقد قدّرتُ ذلك منذ البدء · »

عندئذ قال السيد الماجد الذي تكلم أولا : « صه ! أنت تعلم انه ليس لك لا أب ولا أم ، وان الابرشية هي التي نشأتك ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب اوليفر باكياً بكاء مريراً : « نعم يا سيدي · »

ـ « ما الذي يدعوك الى البكاء ؟ » كذلك سأله الرجل الماجد ذو الصدرة البيضاء · والواقع ان أمر الغلام كان بالغ الغرابة · اذ ما الذي يمكن أن يدعو الغلام الى البكاء ؟

وقال رجل ماجد آخر في صوت أجشّ : « أرجو أن تكون مواظباً على أداء صلواتك كل ليلة ، مقيماً على الدعاء لمن يقدمون اليك الغذاء وينهضون بعبء العناية بك ··· مثل انسان مسيحي · »

فتلجلج الغلام قائلا : « نعم ، يا سيدي · » لقد أصاب السيد الذي تكلم أخيراً من غير أن يدري · فقد كان خليقاً باوليفر أن يتكشف عن انسان مسيحي جدّ صالح ، بل عن انسان مسيحي صالح الى حد أعجوبي أيضاً ، لو انه صلى من أجل اولئك الذين قدموا اليه الغذاء ونهضوا بعبء العناية به · ولكنه لم يفعل ، لأن أحداً من الناس لم يعلمه ذلك ·

فقال الرجل ذو الوجه الأحمر ، المستوي على الكرسي العالي : « حسناً ،

* ذلك بأن أوليفر لم يكن ليفهم ما معنى اللجنة واللجان ، فتوهم ان المقصود باللجنة هو المائدة · (المعرب)

لقد جئت الى هنا لكي 'تثقف، وتعلتم صناعة مفيدة • »

فما كان من الرجل الفظ ذي الصدرة البيضاء الا ان أضاف : « وهكذا فلسوف تبدأ جمع 'مشاقة الكتان صباح غد في الساعة السادسة • »

وتقديراً من أوليفر لجمع هاتين النعمتين في عملية « جمع مشاقة الكتان » المفردة فقد غالى في الانحناء احتراماً ، بعد أن أوعز اليه الشماس بذلك • ومن ثم اقتيد على جناح السرعة الى مهجع واسع ، حيث راح ينتحب ـ فوق سرير قاس خشن ـ حتى غلبه الرقاد فنام • يا له من شاهد جميل على انسانيـــة القوانين الانكليزية ! انها تجيز للفقراء أن يأووا الى النوم !

يا لأوليفر المسكين ! انه لم يخطر بباله قط ، فيما كان ينعم بالرقــاد غافلا عن كل ما حوله ، أن اللجنة كانت قـد انتهت في ذلك اليوم بالذات الى قرار سوف يكون له أعظم السلطان المادي على مستقبله كله • ولكن اللجنة كانت قد اتخذت ذلك القرار فعلا • واليك تفصيل ذلك :

لقد كان أعضاء هذه اللجنة فلاسفة ذوي نظر بعيد وحكمة بالغة • وحين اتفق لهم أن وجهوا عنايتهم الى الملجأ اكتشفوا على التو ما كان خليقاً بالعاديين من الناس ان لا يكتشفوه البتة : اكتشفوا ان الفقراء يحبون ذلك الملجأ ! لقد كان موطن مسرة جماعية حقيقية للطبقات الأشد امعاناً في الفاقة والعوز ، حانة لا تقتضي نزلاءها تعويضاً ما ، فهي 'تقدم اليهم على نحو مشترك فطوراً وغداء وشاياً وعشاء على مدار السنة وبالمجان ، جنة من آجر و ملاط حيث كل شيء عبث ولعب وحيث لا عمل البتة • وقال أعضاء اللجنة ، وقد بدت على وجوههم أمارات الفطنة وبعد النظر : « ها ، ها ! اننا نحن الذين سنقوّم هذا الاعوجاج! سوف نضع حدا لذلك كله ، بأسرع من لمح البصر ! » وهكذا سنّوا قانونـــاً يقول بأن على جميع الفقراء أن يتخيّروا احدى خطتــين (ذلك بأنهم ما كانــوا يؤمنون بسياسة الجــبر والاكراه ••• لا ، فليس ذلك من شيمتهم) اما أن يموتوا جوعاً ، على نحو بطيء ، في الملجأ ، واما ان يموتوا جوعاً ، على نحو سريع ، في خارجه • من أجل ذلك تعاقدوا مـــع مصلحة الميـــاه عـلى تزويد الملجـــأ بمقادير من الماء غير محدودة ، ومع أحد أصحاب المطاحن على تزويده بمقاديـــر دورية صغيرة من دقيق الشوفان ، وأصدروا أمرهم بتقديم ثلاث وجبات مــن الثريد الهزيل يومياً ، وبصلة مرتين كل اسبوع ، ونصف رغيف ليس غـــير كل يوم أحد • لقد وضعوا جمهرة كبيرة من الانظمة الانسانية الاخرى التي ترشح بالحكمة ، في ما يتصل بالسيدات ، لا نرى موجباً للنص عليها هنا • وتلطفوا فتولوا تطليق الزوجة الفقيرة من الزوج الفقير بسبب من ارتفـــاع نفقات المحاكمة في « مجلس الفقهاء »* وبدلا من ان 'يجبروا المرء على اعالة أسرته، كما سبق لهم ان فعلوا حتى ذلك الحين ، أقصوا أسرته عنه وجعلوا منه رجلا أعزب ! ولا جدال في أن عدد طالبي الأسعاف ، وفقاً لهذين البندين الاخيرين ، كان خليقاً به ان يتضخم تضخماً عظيماً في مختلف طبقات المجتمع لو لم يكـن

* « مجلس الفقهاء » Doctors' Commons محكمة دينية اكليركية كان لها صلاحية النظر في قضايا الطلاق والمصادقة على الوصايا ومسائل الحرم الخ • وقد وصف ديكنز هذه المحكمة وصفاً انتقادياً لاذعاً في روايته « دايفيد كوبرفيلد » •
(المعرب)

الاسعاف 'مردفاً بالملجأ ٠ولكن أعضاء اللجنة كانوا ذوي بصر بالعواقب ، فاحتاطوا لهذه المعضلة وحسبوا حسابها : لقد جعلوا الاسعاف رهناً بالملجأ وبالثريد ، فليس من سبيل الى فصله عنهما ، وكان في هذا ما أرعب الناس وروّعهم ٠

وخلال الشهور الستة الأولى التي انقضت على نقـــل اوليفر تويست الى الملجأ تمّ انفاذ النظام الجديد على نحو كامل ٠ ولكن ذلك كان باهظ النفقـــة بادىء الأمر ، بسبب التضخم الذي طرأ عـــلى فاتورة دفتان الموتى ، واضطرار اللجنة الى تبديل ثياب الفقراء جميعاً ، تلك الثياب التي انتهت الى ان تصبـح فضفاضة على أجسامهم المنكمشة المضناة ، بعد اسبوع او اسبوعين من العيش على الثريد ٠ ولكن عدد نزلاء الملجأ تقلّص كما تقلص عدد الفقراء ، فاستبد الجذل بنفوس أعضاء اللجنة ٠

وكانت الحجرة التي 'يقات فيها الصبية قاعة مبلّطة واسعة تقوم في أحد أطرافها قدر كبيرة كان طاهي الملجأ ، المرتدي مئزرا لهذا الغرض ، يغـــرف الثريد منها عندكل وجبة من وجبات الطعام تعاونه في ذلك امرأة او امرأتان. ومن هذا المركب السار كان كل صبي يصيب صَحفة ليس غير ، الا في مناسبات الابتهاج العمومية الكبرى حين كان كل صبي يحظى الى جانـــب الثريـــد بأوونستين وربع اوونسة من الخبز ٠ ولم تكن الصحاف لتحتاج أبد الدهـر الى غسل وتنظيف ٠ ذلك بأن الصبية كانوا يلمعونها بملاعقهم الى ان يعاودها الاشراق من جديد ٠ حتى اذا أتموا هذه العملية (التي ما كانت لتستغرق في ايما يوم من الايام فترة طويلة جداً ، باعتبار ان الملاعق كانت في مثل حجم الصحاف تقريباً) ، راحوا يحدقون الى القدر الكبيرة بعيون متحرقة باللهفة الى درجـة بدوا معها وكأنهم على استعداد لأن يلتهموا حتى الفخار الذي صنعت منـــه ، شاغلين أنفسهم في غضون ذلك بلعق أصابعهم ـ على نحو هو عنوان الكـــد والمواظبة ـ ابتغاء تلقف أيما رشاش ثريديّ اتفق أن أصاب تلك الأصابع ٠ ان للصبية ، عادة ، شهوة الى الطعام ممتازة ٠ ولقد قاسى اوليفر تويست ورفاقه عذاب المجاعة البطيئة طوال اشهر ثلاثة : وأخيراً انتهى بهم الجوع الى غاية من النهم والضراوة جعلت صبياً منهم كان فارع الطول بالنسبة الى سنه ولم يكن متعوداً ذلك الضرب من العذاب (ذلك بأن والده كان يملك مطعماً حقيراً) نقول انتهى بهم الجوع الى غاية من النهم والضراوة جعلت ذلك الصبي يلمع لرفاقـه الماعاً ملفعاً بالأسرار بقوله انه اذا لم يَفز بصحفة اضافية من الثريد ، يومياً، فقد يجد نفسه مضطرا ذات ليلة الى ان يأكل الصبي الذي ينام في محاذاته ، والذي اتفق ان كان غلاماً مهزولا طريّ العود ٠ كان ذا عين ضارية جائعة ، فصدقوه ولم يشكوا قط بوعيده وتهديده ٠ وتشاوروا في الامر ، فضربـــوا قرعة ليروا من الذي يتعيّن عليه ان يتقدّم نحو الطاهي ، بعد تناول العشاء تلك الليلة ، ويسأله مزيـــداً من الثريد ٠ ولقـــد وقعت القرعـــة عـــلى أوليفر تويست ٠

وهبط الليل ٠ واتخذ الصبية مقاعدهم ٠ وانتصب الطاهي ، في ثوبـــه الرسمي ، أمام القدر الكبيرة ، ووقفت مساعدتاه الفقيرتان خلفه ٠ ووزعـــت صحاف الثريد ، و'تليَت صلاة مائدة طويلة بين يدي هذا الطعام الهزيل ٠ واختفى الثريد ٠ وهمس بعض الصبية في آذان بعـــض ، وراحوا يتغامزون

بأوليفر ، في حين أنشأ جيرانــه الأدنــين يكزونــه بمرافقهم · والواقع أنه كان ــ على طراوة عوده ــ يانساً من أثر الجوع ، مغامراً من جراء البؤس ، فنهض عن المائدة ، وتقدم نحو الطاهي ، والصحفة والملعقة في يده ، وقال ، مروّعاً بعض الشيء لهذا التهور الذي غلب عليه :

ــ « أرجوك ، يا سيدي · أريد مزيداً من الثريد · »

وكان الطاهي رجلا بديناً مفعماً بالعافية · ومع ذلك فقد شحب وجهه ، لدن سماعه هذا الكلام ، شحوباً شديداً · لقد حدّق في دهش مشدوه ، طوال بضع ثوان ، الى ذلك المتمرد الصغير، ثم تمسّك بالقدر الكبيرة خشية أن يسقط على الارض مغشياً عليه · وُشلّت المساعدتان دهشاً وانشداهاً ، وشــل الصبية خوفاً وفزعاً ·

وأخيراً قال الطاهي في صوت واهن : « ماذا ؟! »

فأجابه اوليفر : « ارجوك ، يا سيدي · اريد مزيداً من الثريد ! »

فسدد الطاهي الى رأس اوليفر ضربة بالمغرفة ، وكتّفه بين ذراعيــه ، وصرخ منادياً شماس الكنيسة ·

وكانت اللجنة مختلية في اجتماع سري وقور ، عندما اقتحم مستر بامبل الحجرة في اهتياج عظيم ووجه الخطاب الى السيد الماجد المستوي على الكرسي العالي فقال :

ــ « مستر ليمبكينز ، اسألك العفو ، يا سيــدي ! لقد طلــب اوليفر تويست مزيداً من الثريد ! »

وأجفل أعضاء اللجنة جميعاً · وتبدّى الذعر على كل وجه ·

وقال مستر ليمبكينز : « مزيداً من الثريد ! هدىء من روعك ، يا بامبل، وأجبني في وضوح · هل أفهم من ذلك انه طلب مزيداً من الثريد بعد ان التهم نصيبه المخصص له من طعام العشاء ؟ »

فأجاب مستر بامبل : « أجل ، يا سيدي · »

فما كان من السيد الماجد ذي الصدرة البيضاء الا ان قال : « هذا الولد سوف يموت شنقاً · أنا على مثل اليقين من أن هذا الولد سوف يموت شنقاً · »

ولم يجادل أحد في راي السيد الماجد النبوئي. ودارت مناقشة مستحرّة. واصدرت اللجنة أمرها بأن يحبس أوليفر تويست في الحال · وصباح اليوم التالي الصق على البوابة الخارجية بيان يعرض مكافأة مقدارها خمسة جنيهات لكل امريء يريح الابرشية من أمر العناية بأوليفر تويست والأنفاق عليــه · وبكلمة اخرى ، أبدت اللجنة استعداداً لأن تقدّم جنيهــات خمسة وأوليفر تويست الى ايما امرىء ، رجلا كان او امرأة ، يريد غلاماً يمهّنه في أيما تجارة او صناعة او حرفة ·

وقال السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء فيما هو يقرع البوابة الخارجية ويقرأ البيان صباح اليوم التالي : « أنا لم اكن في ايما يوم من ايام حياتي مقتنعاً بشيء اكثر من اقتناعي بأن ذلك الصبي سوف تقوده قدماه ، في المستقبل ، الى المشنقة · »

واذ كنت أعتزم أن أبيّن ، في الفصول التالية ، هل كان السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء مصيباً أو غير مصيب فقد أفسدُ عنصرَ التشويــق في هــذه

الرواية (هذا اذا صح أنها تتمتع بشيء من ذلــك العنصر) ان أنا غامرت فألمعت ، منذ الآن ، الى حياة اوليفر تويست القابلة ، هل انتهت الى مثل تلك النهاية العنيفة أم لا ؟

الفصـل الثالـث
وهو يصف كيف كان أوليفر تويست عـلى قاب قوسين من الحصول عـلى وظيفة ليست من ذلك النوع الذي لا يقتضي المرء عمـلا موازيـاً للراتـب

وانقضى على ارتكاب أوليفر جريمته العقوق الكافرة ، جريمة التماس المزيد من الثريد ، اسبوع كامل قضاه سجيناً في الحجرة المظلمة الموحشة التي أسلمته اليها حكمة اللجنة ورأفتها . ويبدو للوهلة الأولى أنه ليس من غير المعقول ان نفترض انه لو كان أوليفر يكنّ كامل الاحترام اللائق لنبوءة السيد الماجد ذي الصدرة البيضاء اذن لعمد الى توكيد ما يتمتع به ذلك السيد من موهـبة في حقل التنبؤ ، مرة والى الأبد ، بربط أحد طرفي منديله بكلاب في الجدار وشدّ نفسه الى الطرف الآخر . بيد أن تنفيذ هذا الصنيع كانت تحول دونه عقبة ، هي ان مناديل الجيب ـ وقد اعتبرت من أدوات الترف، الى آخر الدهر ـ كانت قد نُزِعت عن أنوف الفقراء بقرار صريح اتخذته اللجنة في أحد اجتماعاتهـا ونشرته على الناس مقترناً في كثير من الجلال بتوقيع كل من أعضائها وختمه . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت ثمة عقبة أعظم ، تتمثـل في حداثـة سنّ اوليفر وصبيانيته . وهكذا اجتزأ بالبكاء المرير ، طوال ساعات النهار . حتى اذا هبط الليل الطويل الموحش بسط يديه أمام عينيه لكي يحجب عنهما الظلمة، وقبع في الزاوية محاولا أن ينام . وبين الفينة والفينة كان يستيقظ مجفلا مرتعداً، ويلتصق بالحائط أكثر فأكثر ، وكأن استشعار سطحه البارد القاسي نفسَه كان ضرباً من الحماية له وسط الظلمة والوحشة اللتين كانتا تكتنفانه .

ولا يحسبنّ أعداء « النظام » ان القوم قد أنكروا على أوليفر ـ خـلال فترة احتجازه الانفرادي ـ منافع الرياضة البدنيـة ، ومباهـج العشرة الاجتماعية ، ومحاسن السلوان الديني . فأما في ما يتصل بالرياضة البدنية فقد كان الجو جيلا بارداً ، ولقد أجيز له أن يغسل وجهه ويديه كل صبـاح تحت المضخّة ، في فناء مُبلّط ، في حضرة مستر بامبل الذي حال بينه وبيـن الاصابة بالزكام وأوقع في جسده كله شعوراً بالخَدَر ، من طريق اصطنـاع عصاه على نحو متكرر . وأما في ما يتصل بالعشرة الاجتماعية فقد كان أوليفر يُحمل مرة كل يومين الى الحجرة التي يتناول فيها الغلمان طعامهم ، ليُجلد هناك بالسياط على نحو اجتماعي لكي يكون في ذلك تحذير عمومي وعبرة جماعية . وأما السلوان الديني فقد كان القوم بالغي الحرص على اتاحته لأوليفر ، فكان يُرفس كل مساء ، في ميقات الصلاة ، الى الحجرة نفسها ، ويجاز له هناك ان

يصغي ، لكي يسرّي عن نفسه ، الى ابتهـــال عام يضرع الغلمان به الى الله ، مشتمل على فقرة خاصة أقحمَت ثمة بأمر من اللجنة ··· فقرة ابتهلوا فيها الى الخالق أن يجعلهم صالحين ، طاهرين ، قانعين ، مطيعين ، وأن 'ينجيهم من آثام اوليفر تويست ورذائله ، اوليفر تويست الذي نصّ الابتهال في وضوح بالغ ، على انه خاضع لرعاية قوى الشر وحمايتها المطلقتين ، وأنه أداة أقبلت مباشرة من مصنع أبليس نفسه ·

واتفق ذات صباح ، بينا كان اوليفر يتقلب في هذه الحال السعيـــدة الرخيّة ، أن اتخذ مستر غامفيلد ـ منظف المداخن ـ سبيله هابطاً « الشارع الكبير » وهو يقلّب الرأي في الأساليب والوسائل الخليق بها أن تمكنه من دفع بعض متأخرات أجرة بيته بعد أن ألحّ المؤجر في قضائها الحاحاً شديـــدا · والواقع ان تقدير مستر غامفيلد ، الأشد تفاؤلا ، لموارده المالية لم يستطع أن 'يضيّق الشقة ما بينها وبين المبلغ المطلوب تضييقاً يهبط بالعجز الى أقلّ من خمسة جنيهات كاملة· ولقد كان يقدح زناد فكره حيناً وينهال على حماره بالضرب حيناً ـ في نوع من اليأس الحسابيّ ـ عندما اجتاز بالملجأ فوقعت عيناه علـى البيان المعلق على البوابة الخارجية ·

وقال مستر غامفيلد مخاطباً حماره : « هش ··· هش ! »

وكان الحمار في حال من الذهول العميق ، ولعله كان يتساءل ما اذا كان صاحبه سوف 'يتحفه بجذع من الملفوف واحد أم بجذعين اثنين بعد أن يتخلص من كيسي السخام اللذين أثقلا ظهر العربة الصغيرة · وهكذا واصل تقدّمه الواهن البطيء من غير ان ينتبه الى كلمة الأمر التي أصدرها صاحبه ·

وزمجر مستر غامفيلد مطلقاً لعنة شملت شخص الحمار كله ، ولكنها انصبّت بخاصة على عينيه : وركض خلفه ، وسدد الى رأسه ضربـة كان خليقاً بها أن تحطم ، من غير ريب ، أيما جمجمة من الجماجم الا اذا كانت جمجمة حمار · ثم أنه أمسك بلجامه ، ولوى فكه في قسوة وعنف وكأنما أراد تذكيره ، في لطف ، بأنه لم يكن سيد نفسه · وبهذه الوسائل أكرهه على الاستدارة · وبعد ذلك سدّد الى رأسه ضربة ثانية ، لمجرد صعقه ريثما يرجع هو كرة أخرى · حتى اذا أتمّ هذه الترتيبات تقدّم نحو البوابة الخارجية ليقرأ البيان ·

كان السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء واقفاً لدى الباب ويداه خلـــف ظهره بعد أن أعتق نفسه من بعض المشاعر العميقة في حجرة اللجنة · واذ كان قد شهد النزاع الصغير بين مستر غامفيلد والحمار ، فقد ابتسم مبتهجاً عندما تقدم ذلك الشخص لقراءة البيان ، ذلك بأنه ادرك في الحال ان مستر غامفيلد هو ، على وجه الضبط ، « المعلّم » النموذجي الصالـــح لأوليفر تويست · وتبسّم مستر غامفيلد أيضاً ، فيما كان يتلو الوثيقة في روية وامعان · ذلك بأن الخمسة الجنيهات كانت هي ، تماماً ، المبلغ الذي تمناه · أما في ما يتصـــل بالغلام الذي كان الفوز بالجنيهات الخمسة رهناً بتمهينـــه فقد أيقن مستر غامفيلد ـ بحكم معرفته أي نوع من الغذاء يقدّمه الملجأ ـ أنه لا بد أن يكـون من قياس رائـــع صغـــير ، قياس مثالي للمواقد ذات الصفيحة المعدّلة لحجم الفتحة · وهكذا تهجّى البيان كرة اخرى ، من ألفه الى يائـــه · ثم انه مسّ قلنسوته المُفرّاة* ، اشارة الى اتضاعه ، ووجّه الخطاب الى السيد الماجد

* أي الموشحة بالفرو ·

ذي الصدرة البيضاء ، قائلا :
ـ « هذا الغلام الصغير ، يا سيدي ، الذي تريد الأبرشية ان تمهّنه ...»
فقال السيد ذو الصدرة البيضاء ، في ابتسامة متلطّفة : « أجل ، أيها الرجل ، ما شأنه ؟ »
فأجابه مستر غامفيلد : « اذا كانت الابرشية راغبة في تعليمه صناعة قريبة الى النفس حقاً ، في مؤسسة محترمة لتنظيف المداخن ، فأني أحتاج الى غلام ، واني لعلى استعداد لأن آخذه . »
فقال الرجل الماجد ذو الصدرة البيضاء : « ادخل اذن. »
وتخلّف مستر غامفيلد لحظات لكي يسدّد الى رأس الحمار ضربة جديدة، ويلوي فكّه كرة أخرى ، كتحذير له من الفرار أثناء غيابه ، ثم تبع السيد الماجد ذا الصدرة البيضاء الى الحجرة التي كان اوليفر قد رآه فيها للمرة الأولى .
وقال مستر ليمبكينز عندما عاود غامفيلد ابداء رغبته : « انها صناعة قذرة . »
وأضاف سيد ماجد اخر : « ولقد اختنق بعض الصبية الصغار في المداخن قبل اليوم . »
فقال مستر غامفيلد : « ذلك لأنهم قد بلّلوا القش قبل ان يشعلوه في المدخنة لكي 'يطلّب اليهم النزول . ان هذا لا ينتج الا دخاناً . انه لا يحدث أيما لهب . في حين ان الدخان لا يفيد البتة في حمل الصبية على النزول من المدخنة ، لأنه يغريهم بالنوم ليس غير ، وهذا هو ما يتوقون اليه . ان الصبية شديدو العناد ، مسرفون في الكسل ، أيها السادة الاماجد ، وليس ثمّة ما هو أفضل من اللهب المتقد لحملهم على النزول بأقصى السرعة . وهذا شيء انساني أيضاً ، أيها السادة الأماجد ، لأنهم حتى اذا ما علقوا في المدخنة فأن تحميص أقدامهم يجعلهم يناضلون للنجاة بأنفسهم . »
وبدا السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء وكأنه قد طرب لهذا التعليل . ولكن طربه ما لبث أن 'كبح بنظرة حدجه بها مستر ليمبكينز . ثم ان أعضاء اللجنة راحوا يتشاورون في ما بينهم ، طوال دقائق معدودات ، ولكن في صوت خفيض جداً بحيث ان هذه الكلمات « توفير النفقات » ، « درسنا الحسابات جيداً » ، « العمل على نشر تقرير مطبوع » كانت هي وحدها الكلمات المسموعة. والواقع ان هذه الكلمات لم 'تسمع ، اتفاقاً ، الا بسبب من تكرّرها على نحو شبه موصول ، وفي توكيد عظيم .
وأخيراً انقطع الهمس . واستعاد أعضاء اللجنة مقاعدهم ووقارهم ، ليقول مستر ليمبكينز :
ـ « لقد درسنا عَرضك . ونحن لا نقرّه . »
فقال السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء : « على الاطلاق . »
وأضاف الاعضاء الآخرون : « لا ، من غير ريب . »
واذ اتفق ان كان مستر غامفيلد يعمل في ظل تهمة طفيفة تقول بأنه قضى حتى الآن على حياة ثلاثة صبية أو اربعة صبية من طريق الرضّ والضرب العنيف فقد بدا له ان أعضاء اللجنة ربما خطر لهم ، بسبب من نزوة لا سبيل الى تفسيرها ، أن يدَعوا هذه الواقعة تؤثر في موقفهم من القضية . ولو قد صح ذلك اذن لكان هذا مغايراً كل المغايرة لطريقتهم المألوفة في عقد الصفقات.

ومع ذلك فقد اجتزأ ـ اذ لم تكن له رغبة خاصة في بعث تلك الشائعة ـ بفتل قلنسوته بين يديه ، وابتعد عن المائدة في تؤدة . حتى اذا انتهي الى البـــاب تمهل وقال :

ـ « واذن . فانتم لا تريدون ، أيها السادة ، أن تسلموه الي ؟ »

فأجابه مستر ليمبكينز : « لا . واننا نعتقد ـ على الاقل ـ باعتبارها صناعة قذرة ، ان عليك ان تأخذ شيئاً أقل من المكافاة التي عرضناها . »

فأشرق محيا مستر غامفيلد ، ورجع الى المائدة ، في خطى سريعة ، وقال :

ـ « كم تريدون أن تدفعوا ، أيها السادة ؟ رويدكم ! ولا تكونوا بالغي القسوة على رجل فقير . ما الذي تريدون ان تدفعوه ؟ »

فقال مستر ليمبكينز : « يخيل الي ان ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات سوف تكون أكثر من كافية . »

أما السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء فقال : « هذا أكثر مما ينبغي بعشرة شلنات . »

فقال غامفيلد : « هيا ! قولوا أربعة جنيهات ، أيها السادة . قولـــوا أربعة جنيهات وعندئذ تتخلصون منه الى الأبد . هيا ! »

فكرر مستر ليمبكينز في حزم : « ثلاثة جنيهات . »

فألح غامفيلد : « اسمعوا ! سوف أقسم الفرق بينـــنا ، أيها السادة . ثلاثة جنيهات وخمسة عشر شلناً . »

فجاءه جواب مستر ليمبكينز الحازم : « لن ندفع فلساً واحداً أكثر . »

فقال غامفيلد ، متمايلا : « انكم تقسون عـــلي قسوة بالغة ، أيهـــا السادة . »

فأجابه السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء : « بوه ! بوه ! هراء ! انـــه سوف يكون رخيصاً ولو لم تمنح على أخذه أية مكافأة . خذه ، أيها الرجـــل السخيف ! لقد خلق من اجلك . وهو محتاج الى العصا بين الفينة والأخرى : انها سوف تنفعه . أما تغذيته فلن تكون باهظة النفقة ، لأنه لم يعرف التخمة منذ الساعة التي ولد فيها . ها ! ها ! ها ! »

وألقى مستر غامفيلد نظرة ماكرة على وجوه الجالسين الى المائدة ، حتى اذا لاحظ البسمة عليها كلها أنشأ يبتسم هو الآخر . لقد تمت الصفقة . وفي الحال أبلغ مستر بامبل ان اوليفر تويست وعقده يجب ان يمثلا بين يـــدي القاضي ، للفوز بتوقيعه وموافقته ، في ذلك الأصيل بالذات .

وتنفيذاً لهذا القرار حرر اوليفر الصغير ـ ويا لدهشه البالغ ! ـ مـــن العبودية ، وأمر بأن يقحم نفسه في قميص نظيف . ولم يكد ينجز هـــــذا التمرين الرياضي غير المألوف الى أبعد الحدود حتى حمل اليه مستر بامبـــل ، بيديه هو ، صحفة ثريد ، وجراية العطلة المؤلفة من اوونستين وربع اوونسة من الخبز . ولدن وقعت عينا أوليفر على هذا المشهد الهائـــل ، شرع يبكي على نحو يتفطر له الفؤاد ، متوهماً ـ وليس ذلك مستغرباً أو غـــير طبيعي ـ أن أعضاء اللجنة لا بد قد عقدوا العزم على قتله لغرض نافع يجهله ، والا لمـــا أخذوا البتة بتسمينه على هذا النحو .

فقال مستر بامبل في نبرة ترشح بالتباهي المؤثر : « لا تدم عينيك ،

بل كل طعامك وكن شكورا . اننا سوف نجعل منك « غلاماً ممهّناً ، يا أوليفر . »

فلم يكن من الطفل الا أن قال ، مرتعداً : « غلام ممهّن ، يا سيدي ! »

فأجابه مستر بامبل : « أجل ، يا أوليفر . ان السادة الكرام المباركين الذين هم آباء لك متعددون ، يا أوليفر ، على حين أنك حرمت الأب الحقيقي ، يعتزمون أن يمهّنوك ، وأن يضعوك على طريق الحياة ، وأن يجعلوا منك رجلا ، على الرغم من أن ذلك سوف يكلف الأبرشية ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات !... ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات ، يا أوليفر !... أي سبعين شلناً ! مئة وأربعين قطعة من فئة البنسات الستة ! وكل ذلك من أجل يتيم خبيث لا يستطيع أحد أن يحبه . »

حتى اذا تمهّل مستر بامبل لكي يأخذ نفساً ، بعد أن ألقى هذا الخطاب في صوت رهيب ، تحدّرت العبرات على وجه الطفل الصغير ، ونشج على نحو مرير .

فقال مستر بامبل مخففاً من تفاخره بعض الشيء ، فقد أرضى مشاعره أن يلاحظ الأثر الذي خلفته فصاحته : « كفى ، كفى ، يا اوليفر ! كفكف عبراتك بردن سترتك ، ولا تبك فوق ثريدك . ان ذلك صنيع بالغ الحمق ، يا اوليفر . » ولقد كان ذلك صحيحاً من غير ريب ، فقد كان في الثريد قدر من الماء كاف وزيادة .

وفي الطريق الى القاضي قال مستر بامبل لأوليفر ان كل ما يتعيّن عليه أن يفعله هو أن يخلع على وجهه مظهر السعادة الغامرة ، وان يقول ، حين يسأله القاضي ما اذا كان راغباً في التمهّن على يدي منظف المداخن ، انه شديد الرغبة في ذلك حقاً ، فوعده اوليفر بتنفيذ هذين الأمرين جميعاً . خاصة وان مستر بامبل أشار من طرف خفيّ الى انه ان خالف أياً منهما فليس في ميسور أحد ان يحزر ما الذي سوف يحلّ به من جراء ذلك . حتى اذا بلغا مكتب القاضي عزل في حجرة صغيرة وأمره مستر بامبل بالبقاء هناك ريثما يعود هو لاصطحابه .

وهناك لبث الغلام ، واجف القلب ، نصف ساعة أقحم مستر بامبل ، عند انقضائها رأسه غير المزدان بالقبعة ذات القرنين ، من وراء الباب ، وقال في صوت مرتفع :

« والآن ، يا عزيزي اوليفر ، تعال وامثل بين يدي السيد الماجد . » ولم يكد ينطق بذلك حتى خلع على وجهه مسحة كالحة متوعدة ، واضاف في صوت خفيض : « تذكر ما قلته لك ، أيها النذل الصغير ! »

وحدّق اوليفر ــ لدن سماعه هذه اللهجة المناقضة ــ الى وجه مستر بامبل في كثير من البراءة ، ولكن ذلك السيد الماجد حال بينه وبين ابداء أيما ملاحظة حول هذا الانقلاب المفاجىء بأن قاده على التوّ الى حجرة مجاورة كان بابها مفتوحاً . لقد كانت حجرة عريضة ذات نافذة كبيرة ، جلس وراء مكتبها سيدان عجوزان نضح شعر رأسيهما بالذرور . كان أحد هذين السيدين يطالع الجريدة ، وكان الآخر يقرأ في روية وامعان ــ مستعيناً على ذلك بنظارتين من « الباغة » ــ وثيقة صغيرة منشورة أمامه . وكان مستر ليمبكينز واقفاً عند جانب من المكتب ، ومستر غامفيلد عند الجانب الآخر وقد غسل وجهه غسلا

جزئياً ، في حين كان رجلان او ثلاثة رجال دوو وجوه غليظة فظة يروحـــون ويجيئون حول المكتب منتعلين أحذية طويلة ٠

وشيئاً بعد شيء غفا الرجل ذو النظارتين فوق وثيقته الصغيرة ٠ وساد الصمت لحظة بعد أن اوقف، مستر بامبل الغلام ’قباله المكتب ٠

وقال مستر بامبل : « هذا هو الغلام ، يا صاحب الفضيلة ٠ »

فرفع السيد العجوز الذي كان يطالع الجريدة رأسه لحظة مـن زمـان ، وجذب السيد العجوز الآخر من كمه جذبة أيقظته من رقاده ٠

وقال السيد العجوز : « اوه ، أهذا هو الغلام ؟ »

فأجاب مستر بامبل : « انه هو ، يا سيدي ٠ انحنِ احتراماً للقاضي ، يا عزيزي ٠ »

فاستجمع أوليفر شتات وعيه وانحنى مقد ّماً أسمى آيات احترامـــه ٠ لقد كان يتساءل ، وعيناه مركزتان على شعر القاضيين المنضوح بالذرور ، ما اذا كان جميع أعضاء اللجان يولدون وتلك المادة البيضاء على رؤوسهم ، وما اذا كانوا يصبحون منذ ذلك الحين أعضاء لجان بسبب من هذه الظاهرة نفسها ٠

فقال السيد العجوز : « حسناً ، انا أحسب أنه مولع بتنظيف المداخن ؟ »

ـ « انه شديد الشغف به يا صاحب الفضيلة ٠ » كذلك أجـاب مستر بامبل ، وهو يقرص أوليفر قرصة خفيـــة لكي ’يفهمه أن من الخـير له أن لا يصرّح بنقيض ذلك ٠

فتساءل السيد العجوز : « وهو يودّ ، عن طيب خاطر ، ان يكون منظف مداخن ، أليس كذلك ؟ »

فكان جواب مستر بامبل : « لو حاولنا أن نكر ِهه’ على أيما صناعـــة أخرى ، غداً ، اذن لأطلق ساقيه للريح في اليوم نفسه هرباً منها ٠ »

فقال السيد العجوز . « وهذا الرجل الذي سوف يكون سيده ـ انت ، يا سيدي ـ انك ست’حسن معاملته ، وستغذّيـــه وتعنى بجميع أمره ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه مستر غامفيلد في شراسة : « حين اقول سوف أفعل شيئاً فانمـا أعني اني سأفعل ٠ »

ـ « أنت متحدث خشن ، يا صديقي ، ولكنك تبدو رجلا أميناً سلـــيم الطوية ٠ » كذلك قال السيد العجوز ، محوّلا نظارتيه صوب المرشح للفوز بمكافأة أوليفر ، والذي كان محياه الشرير بمثابة ايصال نظامي مذيّل بالطوابع ضماناً للقسوة والوحشية ٠ ولكن القاضي كان نصف أعمى ، نصف صبيانيّ ، ومن هنا ما كان للمرء أن يتوقع منه أن يرى ما يراه غيره من الناس ٠

وقال مستر غامفيلد غامزاً بعينه على نحو بشع : « أرجو ان اكون كمـا تقول ، يا سيدي ٠ »

فأجابه السيد العجوز ، مثبتاً نظارتيه على أنفه ، مجيلا طرفه في ما حوله بحثاً عن الدواة : « ليس عندي ريب في انك كما قلت ، يا صديقي ٠ »

كانت هي اللحظة الحاسمة في قدَر اوليفر ٠ فلو قد كانت الدواة حيـث ظنّ السيد العجوز أنها موجودة اذن لكان غمس ريشته فيها ووقّع العقــد ، واذن لكان خليقاً بأوليفر أن ’يخرَج من هناك عـــلى التوّ ٠ أما وقـد شاءت

المصادفة أن تكون تحت أنفه مباشرة فقد لزِم عن ذلك ، على نحو طبيعيّ ، أنه أجال بصره في أرجاء مكتبه كله من غير أن يجدها · واذ اتفق له ، خلال بحثه ذاك ، أن ينظر أمامهعلى خط مستقيم فقد وقع بصره على وجه اوليفر تويست الشاحب المروّع ، أوليفر تويست الذي كان ـ رغم جميع نظرات بامبل وقَرصاته التحذيرية ـ يحدّق الى محيّا سيده المقبل الكريه ، تحديقاً خلع على وجهه انطباعة كانت مزيجاً من رعب وخوف وكانت من الوضوح بحيث لا يعجز أيما أمرىء عن تبيّنها حتى ولو كان قاضياً نصف أعمى ·

وتوقف السيد العجوز ، واطرح ريشته ، ونقّل طَرفه من اوليفر الى مستر ليمبكينز ، الذي حاول أن يأخذ قَبصة سعوط متظاهراً بالبهجة واللامبالاة ·

ـ « اسمع ، يا ولدي ! » كذلك قال السيد العجوز ، منحنياً فوق المكتب · فأجفل اوليفر لدُن سماعه هذه الكلمات · ولعله ان يكون غير ملوم في ذلك · فقد كانت لهجة القاضي بالغة اللطف · ومن دأب اللهجة الغريبة أن تروّع المرء · وارتعد ارتعاداً عنيفاً ، وانفجر بالبكاء ·

وهنا أضاف السيد العجوز : « اسمع ، يا ولدي ! انت تبدو شاحب اللون مروّع الفؤاد · فما خطبك ؟ »

وقال القاضي الآخر ، واضعاً الصحيفة جانباً ، ومنحنياً الى أمام وعلى وجهه أمارات الاهتمام : « ابتعد عنه بعض الشيء ، أيها الشماس · والآن ، أيها الغلام ، حدّثنا ما المسألة · قل ولا تخف · »

فخرّ اوليفر على ركبتيه ، وشبّك يديه ، وتضرّع الى القاضي أن يعيده الى الحجرة المظلمة ··· أن يميته من الجوع ··· أن يضربه ··· أن يقتله اذا شاء ، فذلك كله خير من ارساله مع هذا الرجل الرهيب ·

فقال مستر بامبل ، رافعاً يديه وعينيه في جلال مؤثر الى أبعد حد : « حسناً ، حسناً ، انك يا اوليفر واحد من أوقح الأيتام المحتالين الماكرين الذين قُدّر لي أن أراهم في حياتي · »

ـ « أمسك لسانك ، أيها الشماس ! » كذلك قال السيد العجوز الثاني عندما أطلق مستر بامبل هذا النعت المُفرغ في صيغة اسم التفضيل ·

فقال مستر بامبل ، غير مصدّق أنه أحسَن السماع : « ألتمس عفوك ، يا صاحب الفضيلة · هل تحدثّت فضيلتك اليّ ؟ »

ـ « أجل · أمسك لسانك · »

وصعق مستر بامبل دهَشاً · أيُؤمر شماس بأن يمسك لسانه ؟! تلك اذن ثورة اخلاقية حقاً !

فنظر السيد العجوز ذو النظارتين المصنوعتين من « الباغة » الى رفيقه ، وهز رأسه هزة ذات مغزى ·

فقال السيد العجوز ، مزيحاً الوثيقة من أمامه فيما كان يتكلم : « نحن نرفض ان نوقع هذا العقد · »

فتلجلج مستر ليمبكينز قائلا : « أرجو ··· أرجو القاضيين أن لا يظنّا ـ بناء على شهادة لا يدعمها الدليل صادرة عن طفل صغير ـ أن سلطات الابرشية قد أذنبت وأساءت التصرّف ·· »

فقال السيد العجوز الثاني في لهجة جافة : « ان القضاة لم يُدعَوا لابداء أيما رأي في هذه المسألة · أرجع الصبي الى الملجأ ، وعامله في رفق · يبدو أنه في حاجة الى ذلك · »

وفي ذلك المساء عينه لم يؤكد السيد الماجد ذو السترة البيضاء توكيداً مغالياً في اليقينية والحزم أن اوليفر سوف ينتهي الى المشنقة في يوم من الايام ، فحسب ، بل عدا ذلك الى الجزم بأنه ، فوق هـــذا كـله ، سوف يُشَدّ الى الخيل في اتجاهات متعاكسة فتقسم جسده أقساماً أربعة · وهز مستر بامبل رأسه وقد بدت على وجهه أمارات انشداه كئيب ، وقال انه يرجو ان يوفـــق اوليفر الى سلوك السبيل القويم · فلم يكن من مستر غامفيلد الا أن أجـــاب عن ذلك بقوله انه يتمنى لو يعود اليه · وهي أمنية بدت ــ على الرغم من اتفاق غامفيلد مع شماس الكنيسة في معظم القضايا ــ ذات طبيعة متناقضة تناقضـاً كاملا مع أمنية بامبل ·

وفي صباح اليوم التالي أحيط الجمهور علماً ، كرة ثانيـــة ، بأن اوليفر تويست **معروض للايجار** ، وأن خمسة جنيهات سوف تُدفع الى أيما امرىء يبدي استعداده لاقتنائه ·

الفصل الرابع

أوليفر يدخـل الحياة العامة للمرة الاولى بعد أن عرضت عليه وظيفـة أخرى

من دأب الأسر الكبـــيرة حـــين تعجز ــ سـواء من طريـــق الثروة ، أو من طريق عودة الهبة الى الواهب ، أو انتقال الملكية اليه بعد وفاة شخص آخر ، أو ارتقاب الأرث ــ عن أن تضمن لفتيانها وظائف مريحة... أقول، من دأبها في هذه الحال أن تجعل منه ملاحاً · واقتداء بهذا المثل البالغ الحكمة والنفع ، تشاور أعضاء اللجنة في ضرورة ترحيل اوليفر تويست على متن أحد المراكب الصغيرة الشاخصة الى مرفأ صالح غير صحيّ · لقد تراءى لهم ان ذلك هو خير ما يمكن أن يُفعل به ، على اعتبار أن ربان السفينة سوف يعمـــد ، في أرجح الاحتمالات ، الى جلده بالسوط حتى الموت ، على سبيل المزاح ، ذات يوم من الأيام بعد تناول طعام العشاء ، او الى تطيير دماغه بقضيب حديدي ، خاصة وأن كلتا هاتين التسليتين ــ كما يعلم الناس جميعاً ــ أثيرة جداً شائعة جـــداً عند رجال تلك الطبقة · والواقع ان أعضاء اللجنة كانوا كلما درسوا هـــذه الفكرة ، من تلك الزاوية ، تعدّدت في نظرهم منافعها وتشعبت · وهكذا أجمع رأيهم ، آخر الأمر ، على أن الطريقة الوحيدة لاعالة أوليفر عـلى نحو فعّال هي اركابُه البحر في غير ابطاء ·

وكان مستر بامبل قد وُجّه للقيام بمختلف الاستطلاعات التمهيديـــة ، رجاة ان يجد رباناً ما ، راغباً في نادل صغير ليس له أهل ، وكان قد اتخـــذ سبيله عائداً الى الملجأ كي يُبلغ اللجنة نتيجة مسعاه ، عندما التقى على عتبة

الباب شخصية بارزة لم تكن غير مستر ساواربيري* ، دفّان الأبرشية ·
وكان مستر ساواربيري رجلا فارع الطول ، نحيلا ، بارز المفاصل ، يرتدي بذلة سوداء بالية ، وجوربين قطنيين مرفوّين سوداوين ، وحذاء متناغماً مع البذلة والجوربين · والحق ان الطبيعة لم تخلق محيّاه للابتسام ، ولكنه كان على العموم نزّاعاً للمزاح المحترف · كان خطوه رشيقاً وكان وجهه ينم عن مَرح باطني حين تقدّم نحو مستر بامبل وصافحه في ود بالغ ، قائلا :
ـ « لقد أخذتُ قياس المرأتين اللتين ماتتا الليلة البارحة ، يا مستر بامبل · »
ـ « سوف تكسب الثروة التي تطمع فيها ، يا مستر ساواربيري ! »
كذلك قال الشماس وهو يقحم ابهامه وسبابته في علبة السعوط التي دعاه الدفان الى تناول قبصة منها ، وكانت تلك العلبة نموذجاً عبقرياً مصغراً لتابوت مسجّل · وما لبث ان كرّر ، مربتاً بعصاه ، على كتف الدفان ، تربيتاً ودياً :
« اقول انك سوف تكسب الثروة التي تطمع فيها ، يا مستر ساواربيري ! »
ـ « أتظنّ ذلك ؟ » هكذا قال الدفان في لهجة نصف مسلّمة بامكان تحقق تلك النبوءة ، نصف منكرة لهذا الامكان · « ان الأسعار التي عيّنتها اللجنة ضئيلة جداً ، يا مستر بامبل · »
فأجابه الشماس ، مرسلا ضحكة أرادها أن لا تتجاوز حدود الضحكة الرسمية التي يجدر بموظف عظيم أن يلتزمها : « وكذلك حالُ التوابيت ! »
ودغدغت هذه الدعابة مستر ساواربيري وأرضتْه ارضاء بالغاً ، كما ينبغي لها أن تفعل ، فراح يضحك على نحو موصول · وأخيراً قال :
ـ « حسن ، حسن ، يا مستر بامبل · ان المرء لا يستطيع الا الاعتراف بأن التوابيت أمست ، منذ تطبيق نظام التغذية الجديد ، أضيق من ذي قبل بعض الشيء ، وأشد ضحولة مما كانت في الماضي · ولكن من حقنا أن نفوز بشيء من الربح ، يا مستر بامبل · فالخشب المجفّف جيداً سلعة غالية الثمن ، يا سيدي ، وجميع المقابض الحديدية تردُنا ، عبر القنال ، من بيرمنغهام · »
فقال مستر بامبل : « حسن ، حسن · ان لكل صناعة عيوبها · وليس ثمة ، طبعاً ، أيّ اعتراض على الربح العادل · »
فأجاب الدفان : « طبعاً ، طبعاً · واذا كنت لا أحقق ربحاً من هذه السلعة او من تلك فأنني أحققه من غير ريب في السياق الطويل ، كما ترى··· هيء ! هيء ! هيء ! »
فقال مستر بامبل : « تماماً · »
ولكن الدفّان أضاف مستأنفاً ملاحظاته التي كان الشماس قد اعترض سبيلها : « برغم انه يتعين عليّ القول ، يا مستر بامبل ، اني مضطر الى الكفاح ضد بلاء ضخم جداً ، وهو أن جميع أصحاب الأجسام البدينة يفارقون الحياة بأسرع مما يفارقها غيرهم · ان الناس الذين سبق لهم أن تقلّبوا في النعمة ودفعوا الضرائب طوال سنين عديدة هم أول من يصيبهم الوهن والخور حين يَفِدون الى الملجأ · ودعني أنبئك ، يا مستر بامبل ، أن زيادة ثلاثة

* SowerberrY وقد نحت دبكنز هذا الاسم من لفظتي Sower (حامض) و berry (توت) أي « التوت الحامض » (المعرب)

انشات او اربعة انشات على تقدير المرء تُحدث ثغرة كبيرة في أرباحه ، وخاصة حين يكون لدى المرء أسرة يتعيّن عليه أن يعيلها ، يا سيدي . »

ولما كان مستر ساواربيري قد قال هذه الكلمات بنبرة السخط الخليقة بامرىء يتظلّم من حيف أصابه ، ولما كان مستر بامبل قد استشعر أنها تنزع الى الغمز من شرف الأبرشية فقد بدا لهذا السيد الأخير أن من الحكمة أن يغيّر الموضوع . واذ كان اوليفر تويست هو شغله الشاغل آنذاك فقد جعله موضوع حديثه .

قال مستر بامبل : « بالمناسبة ، هل تعرف أيما امرىء محتاج الى صبي صغير ؟ الى غلام متمهّن من غلمان الأبرشية هو الآن عبء ثقيل — أو بالأحرى حجر رحى — حول عنق الابرشية ؟ الشروط سخية ، يا مستر ساواربيري ، الشروط سخيّة ! » ورفع مستر بامبل عصاه ، فيما هو يتكلم ، نحو البيان المعلق فوق رأسه ، وقرع بها هاتين الكلمتين « خمسة جنيهات » ، اللتين كانتا مطبوعتين هناك بأحرف رومانية هائلة الحجم ، ثلاث قرعات متميزة .

— « وحق الآله ! » كذلك قال الدفان ، وهو يمسك بمستر بامبل من طيئة سترته الرسمية المذّهبة الحاشية . « ذلك هو عين الشيء الذي أردت ان أتحدث اليك عنه . اوه ، أي زرّ مغرِق في الأناقة هو هـذا الزر ، يا مستر بامبل ! أنا لم ألمحه قط من قبل . »

فقال الشماس وهو يخفض بصره في اعتزاز نحو الأزرار النحاسية الضخمة التي زيّنت سترته : « أجل ، أحسب أنه جميل جداً . ان القالب هو عين قالب الختم الابرشيّ : السامري الصالح يضمد جراحات الرجل المريض المرضوض . لقد قدّمته اللجنة اليّ صباح رأس السنة ، يا مستر ساواربيري . ولقد علّقته للمرة الأولى ، في ما اذكر ، لكي أشهد التحقيق الذي أجري حول ذلك التاجر الذي ألمّ به الفقر ، والذي مات ، في منتصف الليل ، عند مدخل مبنى من المباني . »

فقال الدفان : « اذكر ذلك . ولقد حكم المحلفون بأنه مات من البرد ، ومن حاجته الى ضرورات الحياة البسيطة . أليس كذلك ؟ »

فهز مستر بامبل رأسه .

فقال الدفان : « ولقد أرادوا ان يلفتوا نظر العدالة ، في ما أحسب ، بأن أضافوا بضع كلمات تقول ما معناه انه لو أن المسؤول عن الأسعاف قد ... »

فقال الشماس : « تُش ! حماقة ! ولو أن أعضاء اللجنة فتحوا آذانهم لكل الهراء الذي ينطق به المحلفون الجاهلون لشغلهم ذلك عن كل عمل مفيد . »

فقال الدفان : « من غير ريب . هذا صحيح الى أبعد الحدود . »

وهنا قال مستر بامبل ، وهو يُحكم قبضته على عصاه ، كدأبه كلما استبدّ به الغيظ : المحلفون ... المحلفون مساكين خسيسون مبتذلون تعوزهم الثقافة . »

فقال الدفان : « انهم لكذلك حقاً . »

— « وهم لا يعرفون من الفلسفة ومن الاقتصاد السياسي غير هذا الهراء » كذلك قال الشماس وهو يفرقع أصابعه في ازدراء .

فوافق الدفان قائلا : « هم لا يعرفون غير ذلك . »
فقال الشماس وقد احتقن وجهه بالدم : « أنا أحتقرهم ! »
فأجابه الدفان : « وأنا أيضاً . »
– « ولست أتمنى الا أن تقضي هيئه محلفين ، من الطراز المستقل ، أسبوعاً او اسبوعين في الملجأ . وانا زعيم لك بأن قوانين اللجنة وأنظمتها سوف تفحمهم وشيكاً . »
– « فلندعهم وشأنهم ، اذن » قال الدفان ذلك وابتسم موافقاً ، لكي يهدىء الموظف الأبرشاني الساخط ويخفف من غيظه المتعاظم .
ورفع مستر بامبل قبعته ذات القرنين ، وأخرج من داخلها منديلا فمسح به العرق الذي كان الغيظ قد فصده من جبينه . ثم انه ثبّت القبعة ذات القرنين على رأسه ، كرة أخرى ، والتفت الى الدفان وقال في صوت أحفل بالهدوء :
– « حسن ، وما رأيك في مسألة الغلام ؟ »
فأجابه الدفان : « اوه ! ولكنك تعرف ، يا مستر بامبل ، أني أغذي صندوق اسعاف الفقراء بمبالغ كبيرة . »
فقال الشماس : « هممم . ثم ماذا ؟ »
فأجاب الدفان : « حسن ، لقد كنت أقول في ذات نفسي اني اذا دفعت من أجلهم هذه المقادير كلها فأن لي الحق في أن انتزع منهم كل ما أستطيع انتزاعه ، يا مستر بامبل . وهكذا ... وهكذا يخيل اليّ أني سوف آخذ أنا ذلك الغلام . »
وأمسك مستر بامبل بالدفان من ذراعه وقاده الى داخل المبني . وهناك طوّق أعضاء اللجنة مستر ساواربيري طوال دقائق خمس ، وتمّ الاتفاق على أن يمضي أوليفر معه ، تلك الليلة بالذات ، « على سبيل التجربة » – وهي عبارة تعني ، حين تصطنع بصدد غلام ممهتن من غلمان الابرشية ، انه اذا وجد « المعلم » بعد اختبار وجيز أن في استطاعته أن ينتزع من الغلام عملا كافياً من غير أن يفرغ في جسده مقداراً كبيراً من الطعام فعندئذ يحقّ له ان يحتفظ به عدة سنوات يفعل به خلالها ما يشاء .
وحين اقتيد اوليفر الصغير ، ذلك المساء ، للمثول بين أيدي « السادة الأماجد » ، وأحيط علماً بأن عليه ان يذهب تلك الليلة الى بيت صانع توابيت بوصفه خادماً مكلفاً بأداء مختلف ضروب العمل ، وانه اذا ما أبدى أيما شكوى من وظيفته تلك أو انقلب في أي يوم من الايام الى الابرشية فعندئذ يساق الى البحر لكي يغرق فيه أو يحطم رأسه تحطيماً ، تبعاً لما يقضي به الحال ، ... أقول عندما أحيط أوليفر الصغير علماً بذلك كله لم يبد من التأثر الا قدراً يسيراً جداً ، وهذا ما دعا أعضاء اللجنة الى الحكم بأنه وغد صغير متحجر الفؤاد ، وأصدروا أمرهم الى مستر بامبل بأن يرحّله في الحال .
والآن ، على الرغم من انه كان طبيعياً جداً ان تعصف بأعضاء اللجنة ، أكثر من أي جماعة اخرى في العالم ، موجة من الدهش والرعب الفاضلين لتكشّف أيما مخلوق بشري عن أقلّ أمارات اللاشعور ، فأن اولئك القوم كانوا مخطئين في هذه الحادثة بالذات . فالواقع أن اوليفر لم يكن أبعد الناس عن

فقدان الشعور فحسب ، بل كان يملك من الاحساس أكثر مما ينبغي أيضاً ، وأنه كان في سبيله الى أن ينتهي ، مدى الحياة ، الى حال من البلاهة والكآبة الوحشيتين بسبب من الظلم الذي أنزل به • لقد أصغى الى ما قرّرته اللجنة في شأنه بصمت مطلق • واذ كان يحمل أمتعته بيده (وهو أمر لم يكن عسيراً جداً ، اذ كانت كلها منطويه ضمن حدو.. رزمة ورقيه صفراء لا تزيد مساحتها على نصف قدم مربع ولا يزيد ارتفاعها على ثلاثة انشات) فقد انزل قلنسوته حتى عينيه • وكرة اخرى تعلق اوليفر برُدن سترة مستر بامبل ، فقاده ذلك الحبر الى موطن من مواطن العذاب جديد •

وطوال فترة ما ، جرّ مستر بامبل اوليفر من غير أن يوجه اليه أيما نظرة أو كلمة • ذلك بأن الشماس رفع رأسه عالياً جداً • كما يتعين على شمامسة الكنيسة أن يفعلوا • واذ كان ذلك اليوم عاصفاً فقد حُجب اوليفر الصغير حجباً كاملا بالأجزاء السفلية من ثوب مستر بامبل وقد أخذت الريح تعبث بها كاشفة على نحو مستحبّ عن سترته ذات الحواشي وعن بنطاله القصير المنتهي عند ركبتيه والمصنوع من قطيفة رديئة داكنة السمرة • حتى اذا اقتربا من المكان الذي كانا يقصدان اليه بدا لمستر بامبل ان من الملائم أن يخفض بصره ليستيقن من حسن مظهر الغلام قبل أن يتأمله معلمه الجديد تأمل الفاحص المتحرّي • وهو ما أقدم عليه فعلا ، وقد غلبت على وجهه سيماء لائقة وملائمة تنطق بالرعاية الكريمة ، فقال :

ــ « أوليفر ! »

فأجابه اوليفر في صوت خفيض مرتعد :

ــ « نعم ، يا سيدي • »

ــ « انزع تلك القلنسوة عن عينيك ، وارفع رأسك عالياً ، يا سيدي • »

وعلى الرغم من أن أوليفر صدع ، في الحال ، بما طُلِب اليه ، وأمرّ ظاهر يده غير المشغولة امراراً رشيقاً عبر عينيه فقد ترك فيهما ، عندما رفعهما الى قائده دمعة مترقرقة • حتى اذا حدّق اليه مستر بامبل تحديقاً كالحاً تحدرت على خده • وتبعت تلك الدمعة دمعة ثانية ، ثم ثالثة • وبذل الطفل جهداً جاهداً ، ولكنه كان جهداً مخفقاً • فسحب يده الاخرى من يد مستر بامبل ، وحجب وجهه بكلتا يديه ، وأنشأ يبكي حتى تفجرت العبرات من بين ذقنه وأصابعه المعروقة •

وصاح مستر بامبل وقد توقف فجاءة مُلقياً على وديعته الصغيرة نظرة راشحة بخبث بالغ : « حسن ! حسن ! لقد رأيت في حياتي كثيراً من الغلمان الناكرين للجميل ذوي المنازع الأشد امعاناً في السوء ، ولكنك من بينهم جميعاً ، يا أوليفر ، أكثرهم •••»

فنشج أوليفر ، متشبثاً باليد الممسكة بالعصا الشهيرة : « لا ، لا ، يا سيدي • سوف أكون ولداً طيباً من غير ريب • اجل ، اجل ، يا سيدي ، أؤكد لك ذلك ! أنا صبي صغير جداً ، يا سيدي • وأنا أحسّ بكثير من ••• بكثير من ••• »

فسأله مستر بامبل في ذهول : « بكثير من ماذا ؟ »

فصاح الطفل : « بكثير من الوحشة ، يا سيدي ! بكثير من الوحشة

الشديدة ! كل الناس يكرهونني · اوه ، يا سيدي ، أرجوك ··· ارجوك ان لا يأخذك الغضب عليّ ! » وضرب الطفل صدره بيده ، ونظر الى وجه رفيقه ، وفي عينيه عبرات من ألم صادق ·

وقابل مستر بامبل نظرة أوليفر اليائسة المؤثرة ، في شيء من الدهش ، طوال بضع ثوان ، وتنحنح ثلاث مرات او أربع مرات على نحو أجشّ · وبعد أن غمغم بشيء عن « ذلك السعال المزعج » أصدر أمره الى اوليفر بأن يكفكف دموعه ويكون ولداً صالحاً · ثم انه امسك بيده من جديد ، وواصل السير معه في صمت ·

وكان الدفان قد فرغ من اغلاق نوافذ دكانه ، بعد أن هبط الليل ، وشرع يدوّن بعض النَفدات في دفتر حسابه اليومي على ضوء شمعة كئيب منسجم مع جوّ صناعته أحسن انسجام عندما دخل مستر بامبل ·

فقال الدفان ، رافعاً بصره عن الدفتر ، منقطعاً عن الكتابة عند منتصف لفظة من الألفاظ : « آها ! أهذا أنت ، يا مستر بامبل ؟ »

فأجابه مستر بامبل : « أنا ، وليس أحد غيري · دونك الغلام ! لقد جئتك به · » وهنا انحنى اوليفر احتراماً ·

فقال الدفان ، رافعاً الشمعة فوق رأسه لكي يوفق الى رؤية اوليفر على نحو أفضل : « أوه ، هذا هو الغلام ، أليس كذلك ؟ مسز ساواربيري ، هل لك أن تتكرمي بالمجيء الى هنا لحظة ، يا عزيزتي ؟ »

عندئذ انبثقت مسز ساواربيري من الحجرة الصغيرة القائمة وراء الدكان، فتبدّت امرأة قصيرة ، نحيلة ، « مضغوطة » ، ذات محيّا هو الى الشراسة أميَل ·

وقال مستر ساواربيري في احترام : « عزيزتي ، هذا هو غلام الملجأ الذي حدثتك عنه · » فانحنى أوليفر احتراماً ، كرة اخرى ·

فقالت زوجة الدفان : « يا آلهي ! انه ضئيل الجسم الى حد بعيد » ·

فأجاب مستر بامبل ، ناظراً الى اوليفر وكأنما كان هو الملوم على ضآلة جسمه : « حق ما تقولين ، انه ضئيل الجسم من غير ريب · ليس في امكان المرء ان ينكر ذلك · ولكنه سوف ينمو ، يا مسز ساواربيري ··· انه سوف ينمو · »

فردت السيدة في شكاسة : « آه ، يخيل اليّ انه سوف ينمو على طعامنا وشرابنا · أنا لا أجد اي كسب في أطفال الملجأ · لا ، لست أنا من يجد فيهم خيراً ما · ذلك بأن نفقات اعالتهم تفوق قيمتهم الحقيقية دائماً · وأياً ما كان ، فالرجال يحسبون دائماً انهم اكثر منا ذكاء وعلماً · هيا ، اهبط الى الطابق السفلي ، يا كيس العظام الصغير ! » قالت زوجة الدفان ذلك وفتحت باباً جانبياً ودفعت اوليفر ، فوق سلم شديدة الانحدار ، نحو حجيرة معتّمة ، رطبة مظلمة ، كانت تشكل نوعاً من « غرفة انتظار » تفضي الى قبو الفحم ، ويطلقون عليها اسم « المطبخ » · وهناك جلست فتاة قذرة تنتعل حذاء انبرى عقباه وتلبس جورباً صوفياً أزرق أهمِل رفوُه اهمالا شديداً ·

وقالت مسز ساواربيري التي كانت قد تبعت اوليفر الى الطابق السفلي: « اسمعي يا شارلوت ، اعطِ هذا الغلام جزءاً من الفضلات التي أفردناها ل

« تريب »* • انه لم يرجع الى البيت منذ الصباح ، وهكذا ففي امكانـــه أن يستغني عنها • واني لاجرؤ على القول ان الغلام ليس نيتقاً ** الى درجة تجعله يأبى أكلها • هل أنت نيتق ، ايها الغلام ؟ »

فلم يكن من اوليفر ـ الذي التمعت عيناه لذكر اللحم والذي ارتعـد شوقاً الى التهامه ـ الا أن أجاب بالنفي • وهكذا وُضع أمامه ملء صحن مـن الفضلات الكريهة •

لشدّ ما أتمنى لو أن فيلسوفاً متخماً يتحول طعامه وشرابه ـ في أحشائه ـ الى صفراء ، فيلسوفاً دمه ثلج ، وقلبه حديد ••• أقول لشد ما أتمني لو ان مثل هذا الفيلسوف وُفّق الى رؤية اوليفر تويست وهو يتشبث باللحـــوم الشهية التي كان الكلب قد عافها • لشد ما أتمـــنى لو كان في ميسوره أن يشهد الشراهة الرهيبة التي مزّق اوليفر بها تلك الفضلات بكل ما ينطـوي عليه الجوع من ضراوة • ولكن ثمة شيئاً واحداً أتمناه أكثر ، وهو ان أرى ذلك الفيلسوف يأكل هو نفسه مثل ذلك الطعام ، مستطيباً اياه بقدر ما استطابه اوليفر •

وقالت زوجة الدفان عندما أنهى اوليفر عشاءه ، ذلك العشاء الـــذي راقبته في رعب صامت وفي هواجس رهيبة في ما يتصل بشهوته الى الطعام في الأيام القادمة : « والآن ، هل انتهيت ؟ »

واذ لم يبق في متناول أوليفر ما يؤكل ، فقد أجاب أن نعم •

فقالت مسز ساواربري ، متناولة مصباحاً قذراً باهت النور ، مرتقيـة السلم أمام الغلام : « اذن ، تعال معي • ان فراشك هو تحت المنضدة • وأنت لا تجد مانعاً في النوم بين التوابيت ، في ما أحسب ؟ ولكن كراهتك لذلك أو عدم كراهتك له لا يقدمان كثيراً ولا يؤخران ، اذ ليس في استطاعتك أن تنام في أي مكان آخر • تعال ، لا تُبقني هنا طول الليل ! »

وكفّ أوليفر عن التباطؤ ، وتبع سيدته الجديدة في وداعة •

٥

اوليفر يختلط برفاق جدد . حتى اذا شهـد للمرة الأولى مأتماً ، كوّن فكرة غير مشجعـة عن صناعة سيده

وحين غُودر اوليفر وحيداً في دكان الدفان وضع المصباح على مقعد أحد العمال ، وأجال طرفـــه في جزع في ما حولـه وقد عصف بـه شعور من الذعر والرعب لن يحار في فهمه كثير ممن هم أكبر منه بسنوات عديدة • كان ثمـة على حمارين خشبيين أسودين تابوت غير منجز • قائم في منتصف الدكـــان ،

* Trip اسم كلب •

** النيق : من يتجود في ملبسه ومطعمه ومن يصعب ارضاؤه • وهي لفظة جارية على السنة العامة أيضاً •
(المعرب)

وكان ذلك التابوت مأتمياً جنازّيا الى حد أوقع رعدة باردة في اوصال اوليفر كلما انعطفت عيناه نحو ذلك الشيء المشؤوم : لقد كاد يتوقع ان يرى كائناً رهيباً ما ، يرفع رأسه وئيداً من جوف التابوت لكي يذهب بعقله رعباً ورهباً. وازاء الجدار ُصفت ، في نَسق نظاميّ ، مجموعة كبيرة من ألواح شجر الدردار مقطوعة على تلك الشاكلة نفسها: لقد بدت في ذلك النور الباهت أشبه ما تكون بأشباح مرتفعة الاكتاف واضعة أيديها في جيوب بناطيلها القصيرة . وعلى الارض تناثرت صفائح التوابيت ، وشظايا الدردار ، ومسامير ملتمعة الرؤوس، ومِزق من جوخ أسود . أما الجدار القائم خلف المنضدة فكان مزداناً بلوحة حية تمثل نادبَين مستأجرين ـ تطوّق عنقيهما ربطتا رقبة بالغتا التيبّس ـ يؤديان مهمتهما لدى باب منزل كبير ، بينا تقدّمت من المدى البعيد عربة موتى تجرّها أربعة جياد سُود . كان الدكان موصداً وحاراً ، وكان الجو عابقاً برائحة التوابيت . ولقد بدت الفجوة التي تحت المنضدة ، حيث أقحِم فراشه المحشوّ بنُفاية الصوف ، وكأنها قبر من القبور .

ولكن هذه لم تكن هي المشاعر المشؤومة الوحيدة التي أوقعت الغم في نفس أوليفر . كان وحيداً في موطن غريب ، ونحن كلنا نعرف مبلغ القشعريرة والوحشة اللتين ُتلمان بنا حين نجد أنفسنا في مثل هذا الوضع . لم يكن لذلك الغلام أصدقاء يحبتهم أو يحبونه . ولم يكن في ذهنه أيما أسف طريّ لفراق هو به حديثُ عهد . ولم يكن غياب أيما وجه محبوب منقوش في الذاكرة ليُثقل فؤاده ويلفعه بالكآبة. ولكن فؤاده **كان** برغم ذلك، كئيباً. ولقد تمنّى، وهو يزحف الى فراشه الضيق ، لو ان ذلك الفراش كان تابوته ، ولو يتاح له أن ينعم برقاد هادىء ونهائي في ثرى الجبّانة والاعشاب الطويلة تتماوج فوق رأسه في رفق ، ورنين النافوس العميق العتيق ُيهدهده في رقاده .

وفي الصباح أوقظ أوليفر برفسة صارخة على ظاهر باب الدكان ، رفسة تكررت ، قبل أن ُيوفَّق الى ارتداء ملابسه كيفما اتفق ، نحواً من خمس وعشرين مرة على نحو غاضب عنيف . حتى اذا شرع يفكّ السلسلة كفت القدمان عن الرفس ، وجاء دور صوت من الاصوات في العمل .

ـ « افتح الباب ! هل تنوي أن تفتحه ؟ » كذلك صاح الصوت المنتسب الى تينك القدمين اللتين كانتا قد رفستا الباب .

فأجاب اوليفر وهو يفك السلسلة ويدير المفتاح : « سوف أفتحه في الحال ، يا سيدي . »

فقال الصوت من خلال ثقب الباب : « أحسب انك الغلام الجديد . ألست الغلام الجديد ؟ »

فأجاب أوليفر : « نعم ، يا سيدي . »

فسأله الصوت : « ما سنك ؟ »

فأجابه أوليفر : « عشر سنوات . »

عندئذ قال الصوت : « اذن فسوف أوسعك ضرباً عندما ادخل . وليس عليك الا أن ترى الآن هل سأقدم على ذلك ام لا . هذا كل ما هنالك ، أيها الغلام المُنَشتأ في ملجأ الايتام ! » حتي اذا أطلق هذا الوعد السخي شرع

الصوت يصفر .

وكان أوليفر قد أخضع ، أكثر مما ينبغي ، لتلك العملية التي ألمّ اليها ذلك الاصطلاح المعبّر الذي ذكرناه منذ لحظة ، فلم يكن في ميسوره ان يشكّ أقلّ شك في أن صاحب الصوت ، كائناً من كان ، سوف يفي بعهده أشرف ما يكون الوفاء . وردّ الرتاج بيد مرتعدة ، وفتح الباب .

وطوال ثانية أو ثانيتين رنا أوليفر الى أقصى الشارع ، ثم الى أدناه ، ثم نظر أمامه ، وقد أصبح على مثل اليقين من أن المجهول الذي خاطبه من ثقب الباب كان قد ابتعد بضع خطوات التماساً للدفء . ذلك بانه لم ير احداً غير صبي كبير يرتدي بزة تلميذ من تلاميذ المدارس الخيرية ، جالس على معلم تجاه المنزل ، يأكل شطيرة خبز وزبدة كان يقطعها أوتاداً ، في مثل حجم فمه ، بمطواة كبيرة ، ثم يلتهمها في رشاقة بالغة .

وأخيراً ، قال أوليفر وقد رأى ان ايما زائر آخر لم يبرز : « التمس عفوك ، يا سيدي ، أأنت الذي قرعت الباب ؟ »

فأجابه ربيب المدارس الخيرية : « أنا الذي رفست الباب . »

فسأله أوليفر في براءة : « أكنت تريد تابوتاً ، يا سيدي ؟ »

عندئذ غلبت على وجه ربيب المدارس الخيرية سيماء ضراوة رهيبة ، وقال ان أوليفر سوف يحتاج ، عما قريب ، الى تابوت اذا ما مازح رؤساءه على هذا النحو .

— « أنت لا تعرف من أنا ، في ما أحسب ، يا ربيب الملاجىء ؟ » كذلك قال ربيب المدارس الخيرية وهو يهبط من أعلى المَعلم في وقار مؤثر .

فأجاب أوليفر ، « لا ، يا سيدي . »

فقال ربيب المدارس الخيرية : « انا مستر نوح كلايبول ، وأنت تحت امرتي . أنزل مصاريع النوافذ ، أيها الوغد الصغير العاطل عن العمل . » وأتبع مستر كلايبول هذه الكلمات برفسة وجهها الى أوليفر ، ودخل الدكان في جلال أورثه شرفاً كبيراً . انه لمن العسير على شاب كبير الرأس صغير العينين ذي جسم ضخم أخرق وأسارير كئيبة ، أن يبدو جليلا في ايما حال . ولكن هذا العسر يتضاعف حين يضاف الى هذه المحاسن الشخصية أنف أحمر وبنطال قصير أصفر .

وانزل أوليفر المصاريع . وفيما هو يناضل متمايلاً تحت ثقل اولها اثناء نقله الى فناء صغير واقع الى جانب المنزل حيث كانت تحفظ خلال النهار كسر لوحاً من ألواح الزجاج ، فهرع نوح اليه وتكرم بمساعدته : لقد عزّاه بان أكد له أن جزاءه سوف يكون بضع جلدات ، حتى اذا تمّ له ذلك قبل ان يمد يد العون اليه . وسرعان ما هبط مستر ساواربيري الى الطابق السفلي . وما هي غير لحظات معدودات حتى اقبلت مسز ساواربيري ايضاً . وبعد ان جلس أوليفر ، تحقيقاً لنبوءة نوح ، تبع ذلك الشلب الى السرداب لتناول طعام الصباح .

وقالت شارلوت : « ادنُ من النار ، يا نوح . لقد احتفظت لك من فطور المعلم بقطعة صغيرة من لحم الخنزير المقدد . اغلق ذلك الباب خلف ظهر مستر نوح ، يا اوليفر وخذ الكِسَر التي أفردتها لك على غطاء وعاء الخبز . وهذا

هو شايك ، فاحمله الى ذلك الصندوق واشربه هناك ، وعجل ، لأنهم سوف يحتاجون اليك للنهوض بعبء العمل في الدكان • هل سمعت ؟ »

فقال نوح كلايبول : « هل سمعت ، يا ربيب الملاجىء ؟ »

وقالت شارلوت : « يا آلهي ! أيّ مخلوق غريب أنت ، يا نوح ! لماذا لا تدع الغلام وشأنه ؟ »

فأجاب نوح : « أدعُه وشأنه ! وكيف أفعل ذلك ولست أجد أحداً يبالي بأمره ؟ فلا أبوه ولا أمه يمكن أن يتدخلا ، أبد الدهر ، في شؤونه ، وجميع أنسبائه يتركونه ، أكثر مما ينبغي ، يسلك سبيله على هواه • اليس هذا صحيحاً ، يا شارلوت ؟ هيء ! هيء ! هيء ! »

ـ « اوه ، يا لك من روح عجيبة ! » كذلك قالت شارلوت ، منفجرة بضحكة قلبية شاركها نوح فيها • وبعد ذلك راحا ـ كلاهما ـ ينظران في ازدراء الى أوليفر تويست ، وقد جلس مرتعداً فوق الصندوق في أشد زوايا الحجرة برداً ، وانصرف الى ازدراد الكِسَر اليابسة التي حُفظت خصيصاً له •

لقد كان نوح غلاماً من غلمان المَدارس الخيرية ، ولكنه لم يكن يتيماً من أيتام الملاجىء • انه لم يكن لقيطاً ، اذ كان في ميسوره أن يُرجِع نسبه حتى ينتهي الى أبويه اللذين كانا يعيشان في موطن مجاور • فأما أمه فكانت غسالة ، وأما أبوه فكان جندياً سكيراً سُرِّح من الخدمة بعد أن حصل منها على رجل خشبية ومعاش يوميّ مقداره بنسان ونصف بنس وجزء من البنس متناهي الصغَر • وكان صبية الدكان قد تعوّدوا ، منذ عهد بعيد ، أن يلصقوا بنوح، في الشَوارع العامة ، مختلف النعوت الشائنة ، من مثل « الساقيّة* الجلدية » ، و « ابن الاحسان » وغيرهما • وكان من دأب نوح أن يحتمل ذلك من غير احتجاج • أما وقد ألقى الحظ في طريقه غلاماً يتيماً لا أسرة له ـ غلاماً يستطيع حتى أحقرُ الناس أن يشير اليه ببنان الازدراء ـ فقد راح يصبّ تلك النعوت الشائنة عليه ويلصقها به ، في كثير من الحماسة ، وكأنه كان يردّ بذلك على محقّريه جميعاً • وتلك ظاهرة تزوّد التأمل بغذاء فاتن • انها تُظهر لنا في أي قالَب جميل يمكننا ، أحياناً ، أن نُفرِغ الطبيعة البشرية • والى أي مدى من الحَيدة واللاتحيّز يمكن للخصال الحبيبة نفسها أن تُغرس في نفوس أعرق اللوردات في النعمة والترف وأقذر غلمان المَدارس الخيرية قذارة ، على حدّ سواء •

وكان أوليفر قد سلخ ثلاثة أسابيع أو شهراً كاملا في منزل الدفان ، وكان مستر ومسز ساواربيري يتناولان ـ اثر اغلاق الدكان ـ طعام العشاء ، عندما قال مستر ساواربيري بعد أن ألقى على زوجته عدة نظرات راشحة بالاحترام :

ـ « يا عزيزتي ••• » كان يعتزم أن يقول أكثر من ذلك ، ولكن مسز ساواربيري رفعت بصرها على نحو جدّ مشؤوم ، فامسك عن الكلام من غير أن يتمّ جملته •

فقالت مسز ساواربيري في نبرة جافة : « ماذا ؟ »

فقال مستر ساواربيري : « لا شيء ، يا عزيزتي ، لا شيء • »

فقالت مسز ساواربيري : « أفّ ! يا لك من بهيمة ! »

* الساقية ، بتضعيف الياء ، غطاء جلدي للساق •

فقال مستر ساواربيري في ضعة : « لا شيء على الاطلاق ، يا عزيزتي . لقد ظننت أنك لا تريدين ان تسمعي ، يا عزيزتي . كل ما كنت أريد ان أقوله ... »

فاعترضته مسز ساواربيري : « اوه ، لا تنبئني بما كنت تعتزم أن تقوله . أنا لست أحداً ، فلا تستشرني ، أرجوك . أنا لا أريد أن أتطفل على أسرارك . » قالت ذلك وأطلقت ضحكة هيستيرية كلها وعيد بالعواقب الوخيمة المرتقبة .

فقال مستر ساواربيري : « ولكني أريد ، يا عزيزتي ، أن ألتمس النصيحة عندك . »

فأجابت مسز ساواربيري في لهجة مؤثرة : « لا ، لا ، لا تلتمس النصيحة عندي . التمسها عند شخص آخر . » وهنا أطلقت ضحكة هيستيرية اخرى روّعت مستر ساواربيري ترويعاً كثيراً . وتلك معاملة زوجية تنعم بقدر من الشيوع والاستحسان عظيم ، وكثيراً ما تكون فعّالة الى حد بعيد . والواقع انها سرعان ما حملت مستر ساواربيري على أن يلتمس من زوجته منّة خاصة ، وهي ان يُجاز له أن يقول ما كانت هي شديدة التلهف على سماعه . وبعد مهاترة قصيرة لم تستغرق أكثر من ثلاثة ارباع الساعة تفضلت مسز ساواربيري ، في سماحة بالغة ، فمنحته تلك الأجازة .

وقال مستر ساواربيري : « انها تتصل بتويست الصغير ، ليس غير ، يا عزيزتي . انه غلام وسيم جداً ، يا عزيزتي . »

فلاحظت السيدة : « هذا طبيعي جداً ، لأنه يأكل ما فيه الكفاية . »

فاستأنف مستر ساواربيري كلامه قائلا : « ان على وجهه ، يا عزيزتي ، مسحة من الكآبة ممتعة الى حد بعيد . انه يصلح صلاحاً بعيداً للقيام بدور النادب المستأجَر ، يا مُنية القلب . »

فرفعت مسز ساواربيري بصرها ، وعلى وجهها سيماء دهش بالغ . ولاحظ مستر ساواربيري ذلك ، ومن غير أن يدع للسيدة الصالحة أيما مجال لأبداء أيما رأي ، واصل حديثه قائلا :

ـ « لست أعني دور النادب النظامي الذي يشهد جنائز الكبار ، يا عزيزتي ، ولكني عنيت ان في امكاننا الافادة منه في جنائز الاطفال . انه لطريف جداً أن يُؤتَى بنادب تتناسب سنه مع سن الميت ، يا عزيزتي . وفي استطاعتك أن تتأكدي ان ذلك سوف يُحدث أثراً مستحباً جداً . »

واعجبت مسز ساواربيري ـ وكان لها في صناعة الدفن ذوق رفيع ـ بجدّة تلك الفكرة اعجاباً عظيماً . ولكن لما كان أيما تعبير عن هذا الاعجاب خليقاً بأن يعرّض كرامتها للهوان فقد اكتفت ، في تلك الظروف القائمة ، بمجرد التساؤل ، في كثير من الجلافة ، لماذا لم يخطر مثلُ هذا الاقتراح البدهيّ لعقل زوجها من قبل ؟ وأوّل مستر ساواربيري هذا التساؤل تأويلا صادقاً ، فاعتبره نوعاً من الموافقة على اقتراحه . وهكذا انعقد رأيهما ، سريعاً ، على أن الواجب يقضي بتعريف اوليفر ، في الحال الى أسرار « الصناعة » ، ويقضي ـ ابتغاء تحقيق ذلك ـ بأن يرافق معلّمه عند أول مناسبة يُحتاج فيها الى خدماته .

وما عتمت تلك المناسبة ان نشأت . ففي صباح اليوم التالي ، بعد نصف ساعة من تناول الدفان فطوره ، دخل مستر بامبل الى الدكان . حتى اذا

أسند عصاه الى المنضدة ، أخرج حافظة أوراقه الجلدية الضخمة من جيبه ، واختار من بين محتوياتها قصاصة ورق وقدّمها الى ساواربيري ·

وقال الدفان ، وهو يتأملها في ابتهاج : « آها ! هذه الورقة تطلب مني اعداد تابوت ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب مستر بامبل وهو يوثق عروة حافظته الجلدية التي كانت مثل صاحبها بدينة جداً : « اعداد تابوت أولا ، ثم جنازة أبرشانية بعد ذلك · »

وقال الدفان وهو ينقل طرفه من قصاصة الورق الى مستر بامبل : « بايتون ؟ أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل · »

فهز بامبل رأسه وقال : « انهم قوم عنيدون ، يا مستر ساواربيري · عنيدون جداً · وفوق هذا فأنا أخشى أن يكونوا قوماً معتدّين بأنفسهم أيضاً يا سيدي · »

فهتف مستر ساواربيري في نبرة ساخرة : « معتدّون بأنفسهم ، ايه ؟ هذا كثير · »

فأجاب الشماس : « انه يثير التقزز · انه اثمديّ * ، يا مستر ساواربيري · »

فأقرّه الدفان قائلا : « لا ريب في ذلك · »

فقال الشماس : « انا لم نسمع بهذه الاسرة الا ليلة أمس الاول · ولقد كان خليقاً بنا ان لا نعرف عنها شيئاً لولا ان امرأة تقطن في البيت نفسه قدّمت استدعاء باسمهم الى اللجنة الابرشانية التمست فيه ارسال الطبيب الابرشاني لمعالجة امرأة اشتدّت عليها وطأة المرض · وكان الطبيب قد مضى لتناول طعام العشاء · ولكن غلامه المتمهّن على يديه (وهو فتى بارع جداً) أرسل الى القوم، على الفور ، دواء في علبة من علب تلميع الأحذية · »

فقال الدفان : « آه ، هذه سرعة خاطر · »

فأجابه الشماس : « سرعة خاطر حقاً · ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ أيّ مسلك منكر للجميل سلكه اولئك المتمردون ، يا سيدي ؟ لقد أرسل الزوج الينا بكلمة قال فيها ان الدواء لا يلائم مرض زوجته ، وهكذا فأنها لن تأخذه ··· أجل قال انها لن تأخذه ، يا سيدي ! دواء جيد ، قوي ونافع للصحة ، كالذي أعطي في كثير من النجاح الى عاملين ارلنديين وحمّال فحم ، منذ اسبوع واحد ليس غير ··· دواء أرسلناه اليه مجاناً ، وأرسلنا معه بالاضافة الى ذلك علبة من علب تلميع الأحذية فكان جزاؤنا على هذا كله كلمة ارسلها الينا يقول فيها ان زوجته لن تأخذ الدواء ، يا سيدي ! »

واذ تمثلت فظاعة هذا الاثم في عقل مستر بامبل أقوى ما يكون التمثّل فقد ضرب المنضدة بعصاه ضربة قوية ، وشاع دم السخط والحنق في وجهه ·

وقال الدفان : « حسناً ، أنا لم أعتقد ، في أيما يوم من الايام ، أن ··· »

فصرخ الشماس : « أنت لم تعتقد ··· يا سيدي ! لا ، ولم يقدّر لأيما امرىء أن يعتقد ··· ولكنها ماتت ، وان علينا ان ندفنها ، وهذا هو العنوان ·

* هكذا في الأصل antimonial . ولعل ديكنز كان يريد أن يقول « انه ينطوي على استخفاف بالاخلاق » antinomian ولكنه اراد أن يكشف عن مدى جهل الشماس اللغوي .
(المعرب)

وكلما أسرعنا في ذلك كان خيراً وأبقى • »

قال الشماس هذه الكلمات واعتمر بقبعته ذات القرنين واضعـاً اياها ، أول الأمر ، على نحو معكوس ـ فقد كانت تعصف به حمّى من الاهتياج الابرشي ـ وغادر الدكان مُغضَباً •

ـ « يا الهي ، لقد أخذ الغضب منه مأخذاً جعله ينسى حتى السؤال عن أحوالك ، يا أوليفر ! » كذلك قال مستر ساواربيري وهو يتبع الشماس نظره فيما كان يهبط الشارع في خطي واسعة •

فأجابه أوليفر : « نعم ، يا سيدي » وكان قد بذل قصارى جهده للتواري عن الانظار خلال المقابلة ، وارتعد من قمة رأسه الى أخمص قدميه لمجرد تذكّر جرس مستر بامبل • بيد أنه كان في الواقع ، في غنى ، عن تجشّم عنـاء الاحتجاب عن ناظري مستر بامبل ، ذلك بأن هـذا الموظف ، الذي كانت نبوءة السيد ذي السترة البيضاء قد خلّفت في نفسه انطباعة عميقة جداً ، بدا له ان من الافضل ـ بعد أن أخذ الدفان' أوليفر على سبيل التجربة ـ اجتناب هـذا الموضوع حتى ينتهي أجل التجربة وترتبط حياة الغلام بسيده ارتباطا لا تنفصم عراه الا بانقضاء سنوات سبع* ، وبذلك 'يقضى ، عملياً وقانونياً ، على كـل خوف من امكان عودته الى أحضان الابرشية •

وقال مستر ساواربيري وهو يرفع قبعته : « حسناً ، كلما أسرعنا في أداء هذه المهمة كان ذلك أفضل • كن أنت الرقيب على الدكان ، يا نوح • وأنت . يا أوليفر ، اعتمر بقلنسوتك واتبعني ! » فصدع أوليفر بالأمر ، ومضى عـلى اثر سيده في مهمته المهنية •

لقد سارا ، فترة من الزمان ، خلال جزء من المدينة كان أشد اجزائهـا ازدحاماً وأكثرها اكتظاظاً بالسكان • حتى اذا هبطا شارعـاً ضيقـاً أحفـل بالقذارة والبؤس من أيما شارع اجتازاه حتى ذلك الحين ، توقفا لكي يبحثا عن المنزل الذي كان موضوع سعيهما • كانت المنازل القائمة على جانبي الطريـق كبيرة عالية ، ولكنها عتيقة جداً ، وكانت آهلـة بأناس من أبناء الطبقة الأشد فقراً وهو ما دلّ عليه في كثير من الوضوح مظهرها المهمل حتى ولو لم تشهـد على ذلك ، شهادة مصاحبة ، قذارة اولئك الرجال والنساء القلائل الذين كانوا يتسكعون أحياناً ، هنا وهنـاك ، متصالبي الأذرع ، محنيّي الظهور • وكانت الدكاكين تؤلف واجهات عدد من تلك المنازل كبير ، ولكن هـذه كانت موصدة ايصاداً محكماً • وكان العفن يكسوها ، ذلك بأن الادوار العليا كانت وحدهـا آهلة بالسكان • والحق أن بعض المنازل التي أمست غير مأمونة بسبب مـن القدم والتهرؤ كانت قد 'منعت من الانهيـار في عرض الشارع بعوارض من الخشب هائلة ر فعت بأزاء الجدران و'غرست في الطريق غرساً ثابتاً • ولكن حتى هذه الجحور المتصدعـة بدت وكأنها اختيرت لتكون مأوى ليليـاً لبعض البؤساء الذين لا بيوت لهم ، ذلك بأن كثيراً من الألواح الخشبية التي قامـت مقام الابواب والنوافذ كانت قد انت'زعت من مواضعها ابتغاء احداث فتحـة

* تلك هي المدة التي 'حددت منذ عهد الملكة اليصابات الأولى لجميع عقود التمهين apprenticeship • الذي كان يسلم الفتية الصغار لرحمة أسيـاد كثرتهم العظمى من ذوي القلوب المتحجرة •

(المعرب)

كافية لمرور جسم من الاجسام البشرية · كان الوجار راكد المياه قذراً ، وكانت الجرذان المستلقية ههنا وهناك ، وقد فسدت في تعفنها ، شنيعة من اثر الجوع ·

لم يكن للباب المفتوح الذي وقف عنده اوليفر وسيده لا قارعة ولا مقبض جرس · وهكذا تلمس الدفان طريقه ، في حذر ، خلال المجاز المظلم ـ آمراً أوليفر بالالتصاق به وبأن لا يستسلم للخوف ـ وصعد الى أعلى الجزء الأول من السلم · حتى اذا تعثر بباب عند منبسط السلم ، قرعه بجمع يده ·

وفتحت له الباب فتاة في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة · وفي الحال رأى الدفان قدراً مما اشتملت عليه الغرفة كافياً لأن يجعله يوقن ان الشقة كانت هي تلك التي وجه اليها · فاجتاز العتبة ، وتبعه أوليفر على الاثر ·

ولم يكن في الغرفة نار، ولكن كان ثمة رجل قابع على نحو آلي عند موقد فارغ. وكانت امرأة عجوز قد أدنت ، أيضاً ، الى ذلك الموقد البارد كرسياً خفيضاً لا ظهر له ، وجلست الى جانبه · وفي زاوية اخرى ، قعد بضعة أولاد على جسومهم ملابس رثة بالية · وفي فجوة صغيرة ، تجاه الباب ، تمدد على الارض شيء مغطى ببطانية عتيقة · وارتعد أوليفر حين استقرت عيناه على تلك الفجوة ، وازداد التصاقاً ، على نحو غير ارادي ، بسيده الدفان ، اذ اعتقد الغلام ان ذلك الشيء كان برغم احتجابه بالبطانية ، جثة هامدة ·

كان وجه الرجل هزيلا شديد الشحوب · وكان شعر رأسه وشعر لحيته أشيبين ، وكانت عيناه محتقنتين · وكان وجه المرأة العجوز متغضناً ، وكانت سنتاها الباقيتان ناتئتين فوق شفتها السفلى ، وكانت عيناها لامعتين ثاقبتين · وخشي أوليفر ان ينظر اليها أو الى الرجل · لقد بدا له أنهما أشبه ما يكونان بالجرذان التي رآها في الخارج ·

وقال الرجل وهو ينتصب مجفلا اجفالا ضارياً عندما دنا الدفان من الفجوة : « حذار ان تقترب منها · ابتعد عنها ، عليك اللعنة ! ابتعد عنها اذا كانت لك حياة تخاف أن تفقدها ! » ·

فقال الدفان الذي كان متعوداً رؤية البؤس في أشكاله جميعاً : « هراء ! أيها الرجل الصالح ، هراء ! »

فأجابه الرجل ، متشنج اليدين ، ضارباً الارض بقدميه في غيظ محتدم : « أقول لك اني لن أسمح بدفنها في التراب · انها لن تنعم هناك بالراحة · ان الديدان سوف تزعجها ، ولا أقول تأكلها ، فهي رمة بالية · »

ولم يرد الدفان بأيما جواب على هذا الهذيان ، ولكنه أخرج من جيبه شريطاً وانحنى لحظة على مقربة من الجثة ·

وقال الرجل ، منفجراً بالبكاء ، ساجداً عند قدمي المرأة الميتة : « آه ! اركعوا ! اركعوا ! اركعوا حولها ، كلكم ، واشهدوا على ما أقول ! انا اقول انها جوعت حتى الموت · ولم أعرف قط مبلغ ما انتهت اليه من سوء الا بعد أن أصابتها الحمى ، وعندئذ نتأت عظامها من خلال جلدها · لم يكن ثمة لا نار ولا شمعة · لقد ماتت في الظلام ··· في الظلام ! انها لم تستطع أن ترى حتى وجوه أولادها ، برغم اننا سمعناها تلفظ اسماءهم في صوت لاهث · لقد استعطيت من أجلها في الشوارع ، فألقوني في غياهب السجن · حتى اذا انقلبت

الى هنا ألفيتُها تحتضر ، فجفَّ كل ما في قلبي من دم ، ذلك بأنهم جوعوهـا حتى الموت . أنا أقسم على هذا أمام الله الذي رأى ذلك ! لقد أماتوها جوعاً ! » ولوى يديه في شعره ، وتدحرج على الارض . مُكبّاً على وجهه . كانت عيناه شاخصتين ، وكان الزبَد يغطي شفتيه .

وبكى الاطفال المروَّعون بكاء مريراً . ولكن المرأة العجوز التي احتفظت حتى تلك اللحظة بهدوئها وكأنها لم تسمع أي حرف مما قيل دعتهم ، منـذرة متهدِّدة ، الى التزام الصمت . حتى اذا حلت عقدة رقبة الرجـل الذي كان لا يزال ممدَّدا على الارض تقدمت ، مترنحة ، نحو الدفان .

ــ « انها بنتي ! » كذلك قالت العجوز وهي تومىء برأسها في اتجاه الجثة متحدثة في تكشيرة بلهاء كانت أشد ترويعاً من هبوط الموت نفسه في مثل ذلك الموطن . « يا آلهي ! يا آلهي ! وانه لعجيب أن أكون أنا ــ أنا التي ولَدتهـا والتي كنت امرأة آنذاك ــ حية أرزَق الآن وأمرح ، وأن تكون هي ملقاة هناك باردة جداً ، متصلبة جداً ! يا آلهي ، يا آلهي ! أنا لا أستطيع التفكير في هذا . انه كوميديا حقيقية ... انه كوميديا حقيقية ! »

وبينا كانت المخلوقة البائسة تغمغم وتضحك في مرحها الرهيب استدار الدفان ليمضي في سبيله .

فقالت المرأة العجوز في همس مسموع : « قف ! قف ! هل ستدفن غداً ، أم بعد غد ، أم الليـلة ؟ لقد جهزْتها انا بنفسي ، وان علـيَّ أن أمشي ، كما تعرف . ابعث اليَّ بمعطف ضخم ، معطف يبعث في الجسد دفئاً عظيمـاً ، لأن البرد قارس جداً . ويتعين علينا أن نتناول شيئاً من الحلوى والنبيذ ، أيضاً ، قبل أن نمضي ! ولكن لا بأس ، أرسل الينا بشيء من الخبز ــ برغيف واحـد ليس غير ، وبكوب ماء . هل سننعم ببعض الخبز ، يا عزيزي ؟ » قالت ذلـك في لهفة ، وقد تشبثت بسترة الدفان عندما حاول أن يمضي كرة اخرى نحـو البـاب .

فقال الدفان : « نعم ، نعم ، طبعاً . كلَّ ما تريدين ! » وتملـَّـص من قبضة المرأة العجوز ، وولى على جناح السرعة ، جارّاً أوليفر خلفه .

وفي اليوم التالي (وكانت الأسرة قد أسعِفت في غضون ذلك برغيـف وزنه ليبرتان وبقطعة من جبن تركهما لها مستر بامبل نفسه) رجع أوليـفر وسيده الى المأوى الحقير ، وكان مستر بامبل قد سبقهما اليه يصحبه أربعـة رجال من الملجأ عُهِد اليهم في مهمة حمـل النعش . وكان معطفـان أسودان عتيقان قد طُرحا فوق أسمال المرأة العجوز وأسمال الرَّجل . وبعد أن أحكِم اقفال التابوت رُفع الى اكتاف الحاملين ، فساروا به الى الشارع .

وهمس ساوَاربيري في اذن المرأة العجـوز : « والآن يتعـين عليك أن تُغذي السير ، أيتها السيدة العجوز ! لقد تأخرنا بعض الشيء . وليس يجمل بنا أن نبقي القسَّ في انتظارنا . انطلقوا ، أيها الرجال ... انطلقوا بأسرع ما يشاء لكم الانطلاق . »

حتى اذا تلقى حاملو التابوت هذا التوجيه أوسعـوا الخطى تحت حملهم الخفيف . وبذل المشيعان الاثنان قصارى جهدهما لعدم التخلـف عنهم . ومشى مستر بامبل وساواربيري في مقدمة الموكب بخطى رشيقة . وراح أوليفر

ـ الذي لم تكن رجلاه في مثل طول رجلي سيده ـ يعدو الى جانب الموكب ·
بيد أنه لم تكن ثمة حاجـــة ماسة للاسراع بقـــدر مـا حسب مستر ساواربيري · ذلك بأنهم حين بلغوا الزاوية المظلمة من المقبرة ، حيث نبتت القرّاص وحيث كانت قبور الفقراء تحفر ، لم يكن القس قد وصل بعد · وبدا للقندلفت ، الذي كان يجلس مصطلياً بنار حجرة تغيير الملابس في الكنيسة ، أن ساعة أو نحوها قد انقضت ، في أغلب الظن ، قبل ان يصـــل · وهكـــذا وضعوا النعش على حافة القبر ، وراح المشيعان ينتظران في أناة فوق الطـــين الرطب ، وقد جادهما رذاذ بارد ، بينا كـــان الغلمان المعدمون الذين جذبهم المشهد الى المقبرة ، يلعبون في صخب لعبة الطمامة* بين القبور ، أو يثبون ـ على سبيل الاستطراد والتنويـــع ـ فوق التابوت ، جيئـــة وذهوبـــاً · واذ كان ساواربيري وبامبل صديقين شخصيين للقندلفت فقد جلسا معه على مقربة من النار ، وطالعا الصحيفة ·
وأخيراً ، وبعد انقضاء ساعة ونيف شوهد مستر بامبل ، وساواربيري ، والقندلفت يهرعون الى القبر · وما هي الا لحظة حتى برز القس ، مرتديـــاً حلته الكهنوتية البيضاء فيما هو يتقدم الى حيث سبقوه · وعندئذ انهال مستر بامبل بالضرب على ولد أو ولدين لكي يصون المظاهر · فما كان من القس الموقّر الا أن تلا من صلاة الجنازة كل ما استطاع ضغطه في أربـــع دقائـــق ، وأسلم حلته الكهنوتية الى القندلفت ، ومضى لسبيله ·
وقال ساواربيري لحفار القبور : « والآن ، يا بيل ، اطمر ! »
ولم تكن مهمة عسيرة جـــداً · ذلك بأن القبر كان من الامتـــلاء بحيث استوى التابوت الأعلى عندارتفاع لا يفصله عنسطح الارضغير بضعةأقدامقليلة جداً · وهال حفار القبور التراب بمسحاته ، ووطئه بقدميه وطأ رفيقاً · ثم انه تنكب مسحاته ، وانصرف يتبعه الغلمان الذين اطلقوا شكاوى صارخة لانقضاء الملهاة بمثل تلك السرعة البالغة ·
وقال بامبل ، مربتاً على ظهر الرجل : « هيّا ، يا رفيقي الطيب · انهم يريدون اغلاق المقبرة · »
وأجفل الرجل ـ ولم يكن قد تحرك قبل ذلك قط منذ أن استقر به المقام عند جانب القبر ـ ورفع رأسه ، وحدّق الى الشخص الذي خاطبه ، وتقـــدم بضع خطوات الى أمام ، وسقط مغشياً عليه · وكانت العجوز المخبولة في شغل شاغل بالانتحاب على معطفها (الذي كان الدفان قد استرده منها) فلم تولِه أيّ اهتمام · وهكذا نضحوه بصفيحة من المـــاء ، حتى اذا ثاب الى رشده ، واستيقنوا أنه غادر المقبرة في سلام ، أغلقوا البوابة الخارجية ، ومضـــوا في سُبلهم المختلفة ·
وقال ساواربيري ، في طريق العودة : « والآن ، يا أوليفر ، هل أعجبتك هذه الصناعة ؟ »
فأجاب أوليفر في تردد بالغ : « كثيراً · اشكرك ، يا سيـــدي ... ليس كثيراً ، يا سيدي · »

* Hide - and - seek ضرب من لعب الاطفـــال يختبىء احدهم ويبحث عنه الآخر .
(المعرب)

فقال ساواربيري : « آه ، انك سوف تالفها ، مع الأيام · وما ان تالفها حتى تصبح أمراً هيناً لا قيمة له ، يا ولدي · »

وتساءل أوليفر بينه وبين نفسه ما اذا كان مستر ساواربيري قد احتاج الى كثير من الوقت حتى يألف هذه الصناعة · ولكنه وجد أن من الخير له أن لا يطرح هذا السؤال · واتخذ سبيله عائداً الى الدكان ، متأملا في كل ما كان قد رأى وسمع ·

٦

سخريات نوح تثير حنق أوليفر فيهب للعمل ، على نحو أدهشه بعض الشيء

وانقضى شهر التجربة ، فمُهِّن أوليفر رسمياً · ولقد كان الموسم ، في تلك الفترة بالذات ، حافلا بالأمراض · وبالتعبـ[illegible] التجـار[illegible] : كانت سوق التوابيت رائجة · وفي خلال أسابيع معدودات اكتسب أوليفر قدراً من الاختبار عظيماً · والحق أن ابتكار مستر ساواربيري البارع نجح نجاحاً فاق حتى آماله الأشدّ تفاؤلا · ولم يتذكر الطاعنون في السن من أهل المنطقة عهداً من العهود تفشّى فيه داء الحصبة أو تعاظم خطره على حياة الأطفال أكثر من تفشّيـه وتعاظمه في تلك الفترة · وكثيرة هي المواكب الجنائزيـة التي سار أوليفر في طليعتها ، معتمراً بقبعة مطوّقة بعصابة سوداء تدلّت حتى ركبتيه على نحو أثار مشاعر جميع الأمهات في المدينة واستحوذ على اعجابهن استحواذاً لا سبيل الى وصفه · واذ كان أوليفر يرافق سيده في معظم جنائز البالغين ، أيضاً ، لكي يكتسب رباطة في الجأش وسيطرة تامة على الاعصاب لا يستغني عنهما دفّان متمرّس، فقدأتيحت له فرص عديدة لملاحظة الاستسلام والتجلدالجميلين اللذين كان بعض ذوي العقول الراجحة يحتملون بهما ما يلمّ بهم من محن وأرزاء ·

فحين كان ساواربيري يتلقى ، مثلا ، طلباً بدفن سيدة عجوز غنية ـ أو سيد عجوز غني ـ يحيط بها عدد كبير من أبناء الاخ والاخت او بنات الاخ او الاخت الذين كانوا خـلال مَرضتها الاخيرة محزونين عـلى نحو يجلّ عن التعزّي والذين كان أساهم ممتنعاً على الكبت امتناعاً كاملا حتى في المناسبات الحاشدة ··· أقول حين كان ساواربيري يتلقى طلباً بدفن سيدة كهذه أو سيد كهذا كان أوليفر يلاحظ أن من دأب القوم أن يبتهجوا بينهم وبين انفسهم كما يشاء لهم الابتهاج ، وان يغلب عليهم البِشر والرضا ، ويتجاذبـوا أطـراف الحديث في حرية بالغة وحبور غير يسير ، وكأن شيئاً مما يزعجهم لم يَحدث البتة · وكان الازواج ، أيضاً ، يحتملون 'مصابهم بزوجاتهم في هدوء بطوليّ حتى التطرّف · وكانت الزوجـات ، بدورهـن ، يلبسن السواد حداداً عـلى بعولتهنّ وكأنهن قد عقدن العزم ـ وهن أبعد ما يكنّ عن الابتئاس في ثـوب الأسى ـ على جعل ذلك الثوب لائقاً قدر المستطاع ، جذاباً جهد الطاقة · ولقد لاحظ أوليفر ، أيضاً ، ان السيدات والسادة ، الذين أفقدهم الحزن صوابهم

في أثناء الدفن كانوا يثوبون الى رشدهم ، أو يكادون ، حالما يصلون الى بيوتهم ، ويستردون رباطة جأشهم كاملة قبل انقضاء ساعة الشاي • وكان ذلك كله مشهداً فيه متعة كبيرة وعِبرة بالغة ، ولقد تأمله أوليفر في اعجاب عظيم •

هل كان في مسلك هؤلاء القوم الصالحين ما أغرى أوليفر تويست بالرضا والاستسلام ؟ ذلك شيء لا أستطيع توكيده ، بأيما درجة من اليقين ، برغم أني كاتبُ سيرته • ولكني أستطيع أن أقول ، في غير ما تردد البتة ، انه واصل – طوال أشهر عديدة – الاذعان في وداعة لضروب الاستبداد والاضطهاد التي أنزلها به « نوح كلايبول » : الذي راح يسومه سوء العذاب أكثر من ذي قبل ، بعد أن استثيرت غيرتُه برؤية الغلام الجديد يرقى الى مرتبة العصا السوداء وعصابة القبعة الحدادية ، بينا ظل هو ، الغلام العتيق ، مستمراً ضمن نطاق قبعته الشبيه شكلُها بشكل الفطيرة وساقيته* الجلدية • ولقد أساءت شارلوت معاملته ، لأن نوح دأب على هذه الاساءة • وكانت مسز ساواربيري عدوّه العنيد لأن مستر ساواربيري كان نزاعاً الى مصادقته • وهكذا ، بين هؤلاء الثلاثة من ناحية وبين تخمة من الجنائز من ناحية أخرى ، لم يكن أوليفر متمتعاً البتة بمثل الارتياح الذي تمتع به ذلك الخنزير الجائع عندما حُبِس ، خطأ ، في مخزن الحبوب من أحد مصانع الجعة •

وها أنا ذا أبلغ ، الآن ، فصلا هاماً جداً في حياة أوليفر • ذلك بأنه يتعين علي أن أسجل حادثة – ربما كانت ضئيلة الشأن ، قليلة الخطر ، في الظاهر – ولكنها أحدثت ، على نحو غير مباشر ، تغيراً ملموساً في مستقبله كله ومسالكه كلها •

فقد هبط أوليفر ونوح ، ذات يوم ، الى المطبخ في ساعة العشاء المألوفة لكي ينعما بشرحة صغيرة من لحم الضأن : أوقية ونصف من أسوأ جزء من الرقبة • واتفق ان دُعيت شارلوت الى مهمة تؤديها خارج المطبخ ، فعقبت غيابَها ذاك فترة وجيزة رأى نوح كلايبول – وكان آنذاك شديد الجوع نزّاعاً الى الشر – انه لا يستطيع بأية حال أن يكرّسها لايما غرض أجلّ من مناكدة أوليفر تويست الصغير ومكايدته •

واذ عقد نوح النية على الاستمتاع بهذا اللهو البريء فقد داس غطاء المائدة بقدميه ، وشدّ أوليفر من شعره ثم من أذنيه ، وأعلن عن رأيه فيه قائلا انه مُراء ، وعبر عن عزمه على المجيء ليرى اليه معلّقاً على أعواد المشنقة في أيما يوم يقدّر فيه لهذا الحدث السعيد أن يتحقق • وخاض في موضوعات اخرى مختلفة جديرة بغلام من غلمان المدارس الخيرية خبيث متجهم مثله • حتى اذا عجزت هذه السخريات كلها عن احداث ما قُصد بها اليه ، أعني اكراه أوليفر على البكاء ، اغرِيَ نوح بالأمعان في المزاح والاضحاك • وفي محاولته هذه لجأ الى ما يلجأ اليه أحياناً ، حتى في يوم الناس هذا ، كثير من أصحاب الدعابة الصغار المتمتعين بشهرة أعظم من شهرة نوح بكثير ، عندما يريدون أن يكونوا مضحكين • لقد ضرب على وتر الحياة الشخصية •

قال نوح : « كيف حال أمك ، يا ربيب الملاجيء ؟ »

* غطاء جلدي للساق •

فأجابه أوليفر : « لقد ماتت . لا تحدّثني بأيما شيء عنها ! »

وشاع الدم في وجهه وهو ينطق بهذه الكلمات . وأخــذ صدره يعلو ويهبط ، وارتعد فمه ومنخراه ارتعاداً غريباً تراءى لمستر كلايبول أنه لا بد أن يكون طليعة نوبــة عنيفــة من نوبـات البكاء . فعاود الهجوم ، متأثراً بهذه الانطباعة ، فقال :

ـ « من أيّ شيء ماتت ، يا ربيب الملاجيء ؟ »

فأجابه أوليفر ، وكأنه يتحدث الى نفسه لا الى نوح : « مـن الحـــزن وانكسار الفــــؤاد ، كذلك قالت لي بعض ممرضاتنا العجائز . وأحسب أني أعرف ما معنى أن يموت المرء بهذا البلاء . »

فقال نوح فيما كانت دمعة تنحدر على خد أوليفر : « ترالالا... ترالالا . يا ربيب الملجأ ! ما الذي جعلك تَشرق بالدمع الآن ؟ »

فأجابه أوليفر مكفكفاً عبرته في الحال : « ليس أنت ! لا تتوهَم ذلك ! »

فقال نوح ساخراً : « أوه ، ليس أنا ، ايه ! »

فأجابه أوليفر في حدّة : « لا . ليس أنت . والآن ، أقلِع عن هذا . لا تقل لي أيما كلمة أخرى عنها . من الخير لك أن لا تفعل ! »

فهتف نوح : « من الخير لي أن لا أفعل ! حسناً، من الخير لي أن لا أفعل! لا تكن سليطاً ، يا ربيب الملاجيء . وكلّ هذا من أجل أمك ، أيضاً ! لقد كانت امرأة فاضلة ، أجل لقد كانت . أوه ، يا آلهي ! » وهنا هز نـوح رأسه هزة معبِّرة ، وغضّن من أنفه الأحمر الصغير كل ما يستطيع الجهد العضـــلي أن يغضّنه في مثل هذه المناسبة .

وتابع نوح حديثه ، وقد شدّ من أزره صمتُ أوليفر وأنشأ يتكلم في لهجة ساخرة ترشح بالشفقة المتكلفة ، وهي أدعى الى الغيظ من أيــةَ لهجــة أخرى : « أنت تعلم ، يا ربيب الملاجيء ، انه لا حيلة لك في ذلك الآن ، ولم تكن لك طبعاً أيما حيلة فيه آنذاك . واني لشديد الأسف لذلك . وأنا واثق من أننا جميعاً آسفون لذلك ، واننا نشفق عليك كثيراً . ولكن عليك أن تعرف ، يـا ربيب الملاجيء ، ان أمك كانت بغيّاً حقيقية مئة بالمئة . »

فتساءل أوليفر ، وهو يرفع بصره في سرعة بالغة : « ماذا قلت ؟ »

فأجابه نوح في برود : « كانت بغيّاً حقيقية مئة بالمئة ، يا ربيب الملاجيء. ولقد أحسنت صنعاً ، يا ربيب الملاجيء ، بموتها في الميقات الذي ماتت فيه ، والا لكان خليقاً بها أن تكون الآن في برايدويل* مع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة، أو أن تكون قد رحلت من البلاد ، أو علقت عـــلى أعواد المشنقــــة . وهذا الاحتمال الاخير هو أرجحها جميعاً . أليس كذلك ؟ »

وأحال الغيظ وجه أوليفر الى مثل لون القرمز ، ووثب واقفاً ، وقلَـب الكرسي والطاولة ، وأخذ بخناق نوح ، وانشأ يهزّه ـ وقد استبد به حنــق عظيم ـ حتى لقد تصادمت أسنانه في رأسه . ثم أنه حشد قوّته كلها في ضربة صارعة طرحته أرضاً .

كان الغلام قد بدا ، قبل دقيقة واحدة ، ذلك المخلوق الوادع ، الدمث ، الكئيب الذي أحالته اليه المعاملة القاسية . ولكن روحه استثيرت آخر الامر .

* Bridewell مستشفى في لندن كان من قبل ملجأ واصلاحية للمجرمين . (المعرب)

ان الاهانة الوحشية التي وُجهت الى أمه الميتة كانت قد أضرمت النار في دمه . وجاش صدره ، وانتصبت قامته ، والتمعت عينه وقدحت شرراً ، وتغيّرت هيئته الخارجية كلها فيما كان يقف محدقاً الى المضطهِد الجبان الجاثم عند قدميه ، وتحدّاه في قوة لم يعرفها قط من قبل .

ونشج نوح قائلا : « انه سوف يقتلني ! شارلوت ! معلّمتي ! هو ذا الغلام الجديد يفتك بي ! النجدة ! النجدة ! لقد جُنّ جنون أوليفر ! شنار ... لوت ! »

واستجابت لصيحات نوح صرخة داوية من شارلوت ، وأخرى أشدّ دوياً من مسز ساواربيري . واندفعت الأولى الى المطبخ من خلال باب جانبيّ ، وتمهلت الثانية على السلم حتى استيقنت ان الامعان في النزول لا يتعارض مع الرغبة في الابقاء على الحياة البشرية .

وصاحت شارلوت ممسكة بأوليفر بأقصى قوّتها ، التي كانت تقارب قوة رجل معتدل الطاقة مدرّب تدريباً حسناً جداً : « أوه ، يا لك من صعلوك صغير ! أوه ، يا لك من وغد صغير ، رهيب ، فاتك ، ناكر للجميل ! وبعد كل مقطع من مقاطع هذه الكلمات كانت شارلوت توجّه الى أوليفر لكمة مشحونة بكامل قوّتها ، مُرفقة تلك اللكمة بصرخة أطلقتها لمصلحة الجماعة .

ولم يكن جُمع كف شارلوت رقيقاً بأية حال . ولكن مسز ساواربيري اقتحمت المطبخ ، خشية أن يكون ذلك الجمعُ أعجز من أن يهدىء غيظ أوليفر ، فساعدت على ذلك بأن أمسكت به بأحدى يديها وخدشت وجهه بالاخرى . وفي مثل هذا الوضع الملائم ، نهض نوح عن الارض وراح يلكمه من خلاف .

ولكن هذه التمرينات كانت أعنف بعض الشيء من أن تستمر طويلا . حتى اذا أوهن الارهاق عزائمهم جميعاً ، ولم يعد في مستطاعهم ان يمزقوا ويضربوا أكثر مما فعلوا ، أخذوا يجرّون أوليفر ــ وكان يقاوم ويصيح ، ولكن من غير أن يعصف به الفزع ــ الى قبو القمامة (الزبالة) ، ثم أوصدوا الباب عليه . حتى اذا تمّ لهم ذلك ارتمت مسز ساواربيري وانخرطت في البكاء .

وقالت شارلوت : « فليباركها الله ! لقد أغمي عليها ! نوح ، هات كأساً من الماء ، يا عزيزي . عجّل ! »

ــ « أوه ! شارلوت » كذلك قالت مسز ساواربيري باذلة أقصى جهدها للكلام على الرغم من ندرة النفس ووفرة الماء البارد الذي صبّه نوح على رأسها وكتفيها . « اوه ! شارلوت ، أية رحمة آلهية هي التي أنجتنا من الذبح في أسرّتنا ! »

فجاءها الجواب : « آه ، انها لرحمة آلهية حقاً ، يا سيدتي . وكل ما أرجوه هو ان يكون في هذا درس لسيدي فلا يؤوي بعد اليوم أحداً من هؤلاء الاوغاد المرعبين الذين وُلدوا ليكونوا ، وهم في المهد ، سفاكين ولصوصاً . يا لنوح المسكين ! كان على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما أقبلتُ . »

فقالت مسز ساواربيري ، وهي تنظر الى ربيب المدارس الخيرية نظرة اشفاق ورثاء : « يا له من فتى بائس ! »

وفرك نوح ــ الذي كان زر صدرته الأعلى ، تقريباً ، على مستوى قمة رأس أوليفر ــ أقول فرك نوح عينيه بباطن معصميه فيما كان هذا الحنو

'يغدق عليه ، وأرسل بعض العبرات والشخرات المؤثرة ٠
وصاحت مسز ساواربيري: « ما الذي يتعين علينا أن نفعله ؟ ان سيدكما ليس في البيت ، بل ليس ثمة أيما رجل في البيت ، ولن تنقضي عشر دقائق حتى يحطم الباب برفساته ٠ » والواقع أن حملات أوليفر العنيفة على قطعة الخشب المشار اليها جعلت هذا الحدث محتمل الوقوع احتمالا كبيراً ٠
وقالت شارلوت : « يا آلهي ، يا آلهي ! لست أدري ، يا سيدتي ٠٠ ولكن يخيل الي أن علينا أن نستدعي ضباط البوليس ! »
فاقترح مستر كلايبول قائلا : « أو رجال الجيش ! »
فقالت مسز ساواربيري ، متذكرة صديق أوليفر العجــوز : « لا ، لا ، اسرع الى مستر بامبل ، يا نوح ، وقل له أن يجيء الى هنا في الحال ، وأن لا يضيع دقيقة واحدة ٠ ليس من الضروري أن تعتمر بقلنسوتك ! عجل ! وفي ميسورك أن ترفع فوق عينك المتورمة ، وأنت تعدو ، مدية ما ، فان ذلك سوف يخفف من تورمها ٠ »
ولم يضع نوح أيما لحظة في الرد على مسز ساواربيري ، بل أطلق ساقيه للريح بأسرع ما استطاع ان يطلقهما ٠ ولقد دهش جميع الذين كانوا يتنزهون في الشارع دهشاً عظيماً اذ رأوا صبيــاً من صبيان المــدارس الخيرية يخترق الشوارع في سرعة واهتياج ، حاسر الراس وفوق عينه مطواة كبيرة ٠

٧
أوليفر يمعن في التمــــرد

انطلق نوح كلايبول يعدو في الشوارع ما وسعه العدو ، من غــــير أن يتوقف مرة لكي يأخذ نفساً ، حتى انتهى آخر الأمر الى بوابة الملجأ الخارجية٠ وبعد أن استراح هناك ، دقيقة أو نحوها ، لكي 'يعد' دفقاً زاخراً من التنهدات ويخلع على وجهه مسحة مؤثرة من الرعب والدموع ، قرع خادعة الباب قرعاً قوياً ، وأبدى للفقير العجوز الذي فتحه له وجهاً محزونا الى درجة جعلته ، وهو الذي لم ير حوله في أسعد الأوقات غير وجوه محزونة ، 'يجفل دهشاً وانشداهاً٠
وقال الفقير العجوز : « يا آلهي ؟ ما خطبك أيها الغلام ؟ »
ـ « مستر بامبل ! مستر بامبل ! » كذلك صاح نوح في رعب متكلف ، وفي نبرات كانت من الارتفاع والاهتياج بحيث أنها تناهت الى أذن مستر بامبل نفسه الذي اتفق ان كان على مقربة دانية ، بل بحيث أنها روعته ترويعاً حمله على الاندفاع نحو الفناء غير معتمر بقبعته ذات القرنين ـ وهي حادثة غريبــة جداً ، رائعة جداً ، اذ 'تظهر أن الشمامسة أنفسهم قد يفقدون موقتاً ، بتأثير من حافز مفاجيء قوي ، السيطرة على اعصابهم وينسون وقارهم الشخصي ٠
وقال نوح : « اوه ، مستر بامبل ، يا سيدي ! أوليفر ، يا سيدي ٠٠٠ أوليفر قد ٠٠٠ »
فقاطعه مستر بامبل، وفي عينيه المعدنيتين وميض ابتهاج : « ماذا ؟ ماذا ؟ لم يفر هارباً ٠ انه لم يفر هارباً ٠٠٠ هل فر ، يا نوح ؟ »

فأجابه نوح : « لا ، يا سيدي ، لا . انه لم يفر ، يا سيدي ، ولكنه تكشف عن غلام شرير . لقد حاول ان يفتك بي ، يا سيدي ، ثم حاول أن يفتك بشالوت ، ثم بسيدتي ، أوه ! يا له من ألم رهيب ! انه أشبه بسكرة الموت ، يا سيدي ! » وهنا لوى نوح جسده وفتله ليتخذ مجموعة كبيرة من الأوضاع الشبيهة بأوضاع ثعبان الماء ، محاولا أن يوقع في نفس مستر بامبل ، من طريق ذلك كله ، أن الهجمات العنيفة القاتلة التي شنها أوليفر تويست عليه قد أورثته أذى باطنياً قاسياً كان في تلك اللحظة نفسها يعاني من آثاره أشد العذاب .

حتى اذا لاحظ نوح ان الانباء التي حملها قد شلت مستر بامبل شللا كاملا عمد الى تعميق ذلك الأثر بالأعوال من جراء جراحه المخوفة في نبرة يبلغ ارتفاعها عشرة أضعاف ارتفاع نبراته السابقة . وحين بَصُر برجل ذي صدرة بيضاء يعبر الفناء أضفى على نواحه مسحة مأساتية أقوى ، مدركاً بحق أن من المستحسن جداً أن يلفت انتباه ذلك الرجل ويثير حنقه .

وسرعان ما لُفت انتباه الرجل ، اذ لم يكد يمشي ثلاث خطوات حتى استدار مغضَباً وتساءل علام كان ذلك الوغد الصغير يُعول وينتحب ، ولماذا لم يؤثره مستر بامبل بشيء يجعل سلسلة الهتافات الصوتية التي ألمعنا اليها ، عملية لا ارادية ؟

وأجابه مستر بامبل : « انه غلام من غلمان المدرسة الخيرية ، يا سيدي ، كاد أن يفتك به ــ أجل ان يفتك به ، يا سيدي ــ أوليفر تويست الصغير . »

فصاح السيد ذو الصدرة البيضاء ، متوقفاً على نحو مفاجىء : « يا آلهي! أنا أعلم ذلك جيداً ! لقد عرفت منذ البدء احساساً باطنياً انباني بأن ذلك الوحش الصغير الوقح لا بد ان يموت على المشنقة في يوم من الأيام ! »

فقال مستر بامبل ، في وجه رماديّ الشحوب : « ولقد حاول ، أيضاً ، أن يفتك بالخادمة يا سيدي . »

فقاطعه مستر كلايبول : « وبسيدته أيضاً . »

وهنا أضاف مستر بامبل : « وبسيده كذلك ، كما أخبرتني ، يا نوح ، على ما أظن . »

فأجاب نوح : « لا ، انه خارج البيت ، ولولا هذا اذن لفتك به أيضاً . لقد قال انه يعتزم ذلك . »

فتساءل السيد ذو الصدرة البيضاء : « آه ، لقد اعتزم ذلك ، أليس هذا صحيحاً يا ولدي ؟ »

فأجابه نوح : « نعم ، يا سيدي . وارجوك ، يا سيدي ، ان سيدتي تريد أن تعرف هل لدى مستر بامبل فائض من الوقت يمكنه من الذهاب الى هناك ، في الحال ، لكي يجلده بالسوط ... لأن سيدي خارج المنزل . »

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء ، متبسّماً تبسماً ينمّ عن الرأفة ، مربتاً على رأس نوح الذي كان أعلى من رأسه هو بنحو ثلاثة انشات : « طبعاً ، يا ولدي ، طبعاً . أنت فتى طيب ... فتى طيب جداً . دونك هذا البنس . بامبل ، امض على جناح السرعة الى بيت ساواربيري ، مصطحباً عصاك ، وانظر أيّ الطرق أجدي في معالجة الموقف . لا تأخذنك بالغلام رحمة ، يا بامبل . »

فأجاب الشماس ، مثبتاً الخيط المشمّع المفتول حول الجزء الادنى من عصاه لأغراض الجلد الابرشي : « أجل ، لن تأخذني به رحمة ما ، يا سيدي ».

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء : « وقل لساواربيري أن لا تأخذه به رحمة أيضاً . انهم لن يستطيعوا تأديبه اذا لم يجلدوه ويضربوه . »

فأجاب الشماس قائلا : « سوف أعنى بتنفيذ توجيهاتك ، يا سيدي . »

حتى اذا عُدّل وضع القبعة ذات القرنين وسوّيت العصا ذات الخيط المشمع على وجه ارتاح له صاحبهما ، انطلق مستر بامبل ونوح كلايبول — بأقصى سرعة ممكنة — الى دكان الدفان .

وهنا ، في دكان الدفان ، لم يكن الوضع قد تحسن البتة . كان مستر ساواربيري لا يزال خارج البيت ، وكان أوليفر يواصل رفس باب القبو في عزم لم يعرف الوهن . وكانت الانباء التي روتها مسز ساواربيري وشارلوت عن ضراوته ووحشيته مرعبة الى حد جعل مستر بامبل يرى أن من الحكمة أن يلجأ الى المفاوضة قبل فتح الباب . وهكذا رفس الباب من الجانب الآخر ، على سبيل الاستهلال . ثم وضع فمه على ثقب المفتاح وقال في جَرس عميق مؤثر :

— « أوليفر ! »

فأجاب أوليفر من الداخل : « هيا ، أطلق سراحي ! »

فقال مستر بامبل : « هل تعرف صاحب هذا الصوت ، يا أوليفر ؟ »

فأجاب أوليفر : « نعم » .

فقال مستر بامبل : « ألست خائفاً منه ، يا سيدي ؟ ألا ترتجف وأنا أتحدث ، يا سيدي ؟ »

فأجاب أوليفر في جسارة : « لا ! »

وكان خليقاً بذلك الجواب المختلف كل هذا الاختلاف عما توقع انتزاعه وعما تعود سماعه أن يصعق مستر بامبل الى حد غير يسير . فارتدّ عن ثقب المفتاح مجفلا ، واستقام منتصباً ، وراح ينقّل طرفَهُ من واحد من الثلاثة الواقفين على مقربة منه الى آخر ، وقد بدت على وجهه أمارات دهش أبكم .

وقالت مسز ساواربيري : « أوه ، يا مستر بامبل ، لا بدّ أنه قد جُن . ان أيما صبي فقَد نصف عقله لا يستطيع أن يغامر فيخاطبك بمثل هذه اللهجة . »

فأجابها مستر بامبل ، بعد بضع لحظات من التأمل العميق : ليس الجنون هو المسؤول . انه اللحم . »

فهتفت مسز ساواربيري : « ماذا ؟ »

فأجابها بامبل ، في توكيد صارم : « اللحم ، اللحم ، اللحم . لقد اسرفتِ في تغذيته يا سيدتي . لقد ربّيتِ فيه ، يا سيدتي ، نفساً وروحاً اصطناعيتين لا تتلاءمان مع من كان في مثل وضعه ، كما يجدر بأعضاء اللجنة ، وهم فلاسفة عمليون ، يا مسز ساواربيري ، ان ينبئوك . وما حاجة الفقراء والمعدمين الى نفس أو روح ؟ بحسبهم أننا ندعهم يملكون أجساداً من لحم ودم . ولو انكِ قصرتِ طعام الغلام على الثريد ، يا سيدتي ، اذن لما حدث هذا البتة . »

فهتفت مسز ساواربيري ، رافعة بصرها الى سقف المطبخ في ورع : « يا الهي ، يا الهي ! هذه هي نتيجة السخاء ! »

وكان سخاء مسز ساواربيري نحو أوليفر قد تمثّل في أنها أغدقت عليه جميع الفضلات القذرة التي يعاف أكلها ايما مخلوق آخر • وهكذا كان ثمة قدْر كبير من الوداعة وانكار الذات في قبولها ، عن رضا وطيب خاطر ، ما وجهه اليها مستر بامبل من اتهام خطير. وهواتهام –ونحن نقول ذلك انصافاً لها– كانت بريئة منه كل البراءة ، فكراً وقولا وعملا •

فقال مستر بامبل عندما خفضت السيدة عينيها ، من جديد نحو الارض • « آه ، ان الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نعمله الآن – بقدر ما أعلم – هو أن نتركه في القبو يوماً أو يومين حتى يستشعر الجوع بعض الشيء ، ثم ان نخرجه منه ونقصر طعامه على الثريد طوال مدة تمهينه • انه يتحدّر من أسرة رديئة ؛ أسرة سريعة الاهتياج ، يا مسز ساواربيري ! ولقد قال الطبيب والممرضة كلاهما ان أمه وصلت الى هنا ، في وجه مصاعب وآلام كان خليقاً بها أن تقضي ، قبل أسابيع ، على أيما امرأة رضيّة الطبع • »

عند هذه النقطة من حديث مستر بامبل وكان اوليفر قد سمع منه قَدْراً كافياً لأعلامه بأن قناةأمه قد غمِزت من جديد ، استأنف هذا الاخير رفسه في عنف جعل من المتعذر على القوم سماع أيّ صوت آخر • وفي تلك اللحظة انقلب ساواربيري الى داره ، وصوّرت له السيدتان جريمة اوليفر مصطنعتين ضروب المبالغات التي خيّل اليهما أنها قادرة اكثر من اي شيء آخر على اثارة غضبه • فما كان منه الا أن فتح باب القبو بمثل لمح البصر ، وجرّ غلامه المهمّن المتمرد الى خارجه ممسكاً به من طوق قميصه •

وكانت ملابس اوليفر قد مزِقت من جراء ما اخضع له من ضرب وصفع ، وكان وجهه متورماً مخدشاً ، وكان شعره مشعّثاً فوق جبينه • بيد أن حمرة الغضب لم تكن قد خمدت • وحين سحِب من سجنه قطّب في وجه نوح تقطيباً جسوراً ولم يبد عليه ايّ اثر من آثار الفزع البتة •

وقال ساواربيري ، وهو يهز اوليفر ويسدّد الى اذنه لكمة : « والآن ، ألا تزال تزعم انك فتىّ مهذب ؟ »

فأجابه اوليفر : « لقد أهان أمي • »

فقالت مسز ساواربيري : « حسناً وما ضرّ لو أهانها ، أيها الوغد الصغير الناكر للجميل ؟ انها تستحق ما قاله عنها ، وأسوأ »

فقال اوليفر : « هذا غير صحيح • »

فقالت مسز ساواربيري : « بل انه صحيح • »

فردّ اوليفر : « هذا كذب • »

وتفجّر من عيني مسز ساواربيري فيضٌ من الدموع •

هذا الفيض من الدموع لم يَدَع لمستر ساواربيري مجالا للاختيار • فلو

انه تردد لحظة واحدة في معاقبة اوليفر أقسي ما يكون العقاب اذن لاتضح من غير ما ريب لكل قارىء وافر الخبرة ـ وفقاً لكل سابقة من سابقات النزاعات الزوجية المقررة ـ أنه بهيمة من البهائم ··· زوج غير طبيعي ، مخلوق مُهين ، وتزييف دنيء لرجل ما ، وغير ذلك من الصفات المستحبثة التي يضيق هذا الفصل ، لتعدّدها البالغ ، عن استيعابها · وانصافاً له اقول انه كان ، ما أسعفتْهُ امكاناته ـ ولم تكن هذه وافرة جداً ـ نزّاعاً الى الرفق بالغلام ، ربما لأن مصلحته قضت بذلك ، وربما لأن زوجته كانت تبغض ذلك الغلام · بيد أن فيض الدموع لم يبقِ في يده حيلة · فانهال عليه ، في الحال ، بضرب مبرّح اقترن بارتياح مسز ساواربيري نفسها ، وجَعل اصطناع مستر بامبل عصاه الأبرشانية ، في ما بعد ، أمراً غير ضروري · وطوال ساعات النهار الباقية حُبس أوليفر في المطبخ الخلفي ، برفقة مضخّة وقطعة من خبز · حتى اذا هبط الليل أقبلت مسز ساواربيري لتطلق من وراء الباب مختلف الملاحظات التي ما كانت لتشرّف ذكرى أمه بأية حال ، ولتعمد بعد ذلك الى فتح ذلك الباب ، وتطلب الى اوليفر ـ وسط سخريات نوح وشارلوت واشاراتهما بالبنان ـ أن يرتقي السلم ليأوي الى فراشه الكئيب ·

ولم يستسلم أوليفر للمشاعر الخليق بالمعاملة التي أخضع لها ذلك النهار أن تولدّها في نفس طفل صغير الا عندما خُلِّف وحيداً في صمت دكان الدفاّن المظلمة وسكونها · كان قد أصغي لسخرياتهم في ازدراء ، وكان قد احتمل ضربات السوط من غير أن يطلق صيحة واحدة : ذلك بأنه كان قد استشعر أن فؤاده زاخر بكبرياء جدير بها أن تكبت أنينه حتى النهاية ، ولو انهم شووه على النار وهو حيّ ، أما الآن ، بعد أن لم يبق ثمة من يراه أو يسمعه ، فقد خرّ راكعاً على الارض وحجب وجهه بيديه وسفح عبراتٍ هي من المرارة بحيث نسأل الله ، حفاظاً على شرف الطبيعة البشرية أن لا يُحوج كثيراً من صغارنا الناضري العود الى سَفْحها أمامه !

وظل اوليفر ، برهةً طويلة ، على هذه الحال جامداً لا يريم · وكانت الشمعة تحترق خفيضةً في مِحْجرها عندما نهض واقفاً · وبعد أن أجال طرفه ، بكثير من الحذر ، في ما حوله ، وأصغى في انتباه ، رفع مزلاج الباب في رفق والقى نظرة على الخارج ·

كانت ليلة مظلمة باردة · وبدت النجوم ، في عيني الغلام ، أبعد عن الارض مما قُدّر له أن يراها في أيّ يوم من الايام · لم يكن ثمة ريح ، وكانت الظلال القاتمة التي القتها الاشجار على الارض تبدو ـ بسبب من سكونها المطلق ـ مأتمية يخيم عليها شبح الموت · وأعاد اغلاق الباب في تلطّف · حتى اذا أفاد من ضوء الشمعة المحتَضر لكي يضمّ ثيابه القليلة في منديل ، جلس على احد المقاعد الخشبية منتظرا بزوغ الفجر ·

ولم تكد خيوط الضياء الأولى تشق طريقها عبر فرجات المصاريع حتى نهض اوليفر ، ورفع مزلاج الباب كرة اخرى . ثم انه القى على ما حوله نظرة خائفة ، وتمهّل لحظة استبدّ به خلالها شيء من تردد ، وأوصد الباب خلفه ليجد نفسه في الشارع الطلق .

والتفت يمنة ويسرة ، غير دار في اي اتجاه يحسن به أن يفرّ . وتذكّر أنه كان قد رأى العربات ، عند مغادرتها البلدة تكدّ مصعّدة في الكثيب ، فسلك السبيل نفسها ، حتى اذا بلغ درباً ضيقاً ، عبر الحقول ـ دربا كان أوليفر يعرف انه يفضي بعد مسافة ما الى الطريق كرة اخرى ـ اندفع نحوه وراح يغذّ السير فيه .

وتذكّر اوليفر جيداً أنه كان قد أغذّ السير في ذلك الدرب نفسه ، برفقة مستر بامبل عندما قاده هذا الاخير ، أول ما قاده ، من الملجأ الفرعي الى الملجأ الرئيسي . كانت طريقه تنبسط تجاه البيت الصغير مباشرة . وتسارعت دقات قلبه عندما أدرك ذلك، وعقد النية نصف عقد على الانقلاب على عقبيه . ولكنه كان قد اجتاز الان مسافة غير يسيرة ولو قد نكص على عقبيه اذن لأضاع وقتاً كثيراً ، والى هذا ، فقد كان الصبح طفلا ما يزال ، ولم يكن ثمة كبير خوف من ان يراه احد ، وهكذا واصل سيره .

وانتهى الى الملجأ . ولم يكن نزلاؤه قد أفاقوا بعدُ ، في ما يبدو ، في تلك الساعة المبكرة ، وكفّ اوليفر عن السير ، واختلس النظر الى الحديقة . كان احد الاولاد يقتلع الاعشاب الضارة من مَرْهرٍ صغير . وفي الحال رفع الولد وجهه الشاحب فعرف اوليفر فيه واحداً من رفاقه القدماء . وسعد اوليفر بأن تكون عيناه قد وقعتا على ذلك الرفيق قبل مغادرته تلك الديار . اذ كان ذلك الولد ـ برغم انه احدث منه سناً ـ صديقه الصغير ورفيقه في اللعب . لقد ضُرِبا ، وجُوِّعا ، وحُبِسا معاً ، مرة ومرة ومرة .

وقال اوليفر ، فيما كان الولد يهرع الى البوابة الخارجية ويقحم ذراعه الهزيلة بين قضبانها لكي يرحب به : « هش ، يا « دِك» !! هل استيقظ احد ؟ »

فأجابه الولد : « لم يستيقظ احدٌ غيري » .

فقال اوليفر : « يجب أن لا تقول انك رأيتني ، يا « دك » . انا راكنٌ الى الفرار . انهم يضربونني ويسيئون معاملتي يا « دك » . انا ذاهب لألتمس الثروة في مكان قصيّ جداً . اين ؟ لست ادري . ولكن ما اشد شحوب وجهك ! »

فأجابه الولد في ابتسامة باهتة : « لقد سمعت الطبيب يقول لهم اني سوف أموت . انا جدُّ سعيد برؤيتك يا عزيزي ، ولكنْ لا تتوقف .. لا تتوقف ! »

فأجابه اوليفر : « بل سأتوقف ·· بل سأتوقف لكي اقول لك وداعاً· اني سوف أراك ثانية ، يا «دك» · انا على مثل اليقين من انني سوف اراك ! ولسوف تكون في خير وسعادة · »

فقال الولد : « ارجو ذلك · بعد أن انتقل من هذا العالم ، لا قبله ، أنا اعرف أن الطبيب لا بدّ ان يكون مصيباً ، يا اوليفر ، لأني كثيراً ما أرى في المنام الجنة والملائكة ووجوهاً كريمة لا أراها البتة وأنا يقظان ، قبّلني ، »

وتسلق الولد البوابة الخفيضة وطوّق بذراعيه الصغيرتين عنق أوليفر ، « وداعاً ، يا عزيزي ! فليباركك الله ! »

لقد صدرت هذه المباركة من بين شفتي ولد صغير ، ولكنها كانت اول مباركة 'قدّ' لأوليفر أن يحظى بها منذ أبصر النور · وخلال النضال والآلام والمتاعب والتغيرات التي حفلت بها صفحة حياته التالية لم ينسها اوليفر لحظة واحدة ·

٨

أوليفر يسير الى لندن · انه يلتقي على الطريق سيداً صغيراً من ضرب غريب

ووصل اوليفر الى السلم الخفيض الذي انتهى الدرب الجانبي عنده ، والفى نفسه ـ كرة اخرى ـ على الطريق الرئيسية · كانت الساعة قد أمست الثامنة الآن ، وعلى الرغم من ان خمسة اميال ، تقريباً ، كانت تفصله عن البلدة فقد ظل يراوح ما بين العَدْو حيناً والاختباء خلف الوشائع حيناً آخر ، حتى الظهر خشية ان يتعقبه احدٌ فيُدركه · وبعد ذلك جلس التماساً للراحة في محاذاة الصُوّة ، وشرع يتساءل ـ للمرة الاولى ـ الى أين يحسُن به أن يمضي ويحاول أن يكسب رزقه ·

وكانت الصُوّة التي جلس في محاذاتها تعلن ، بأحرف ضخمة ، أن لندن تقع على مبعدة سبعين ميلا ، تماماً ، عن تلك البقعة · وأثار ذلك الاسم سلسلة جديدة من الأفكار في ذهن الغلام · لندن ! ـ ذلك الموطن الضخم العريض ! ـ ان احداً ، حتى مستر بامبل نفسه لن يوفق الى العثور عليه هناك ! ولقد طالما سمع الشيوخ في الملجأ يقولون ، ايضاً ، انه ما من ولد ذي خفة ونشاط يمكن ان يجوع في لندن ، وان في تلك المدينة الواسعة طرائق لكسب الرزق ليس لدى الذي نُشّئوا في الريف أية فكرة عنها · لقد كانت هي المكان الاكثر ملاءمة لغلام من غير مأوى ·· مقدّر عليه أن يقضي نحبه في الشارع ان لم تمتدّ اليه يدٌ بعَوْن ، وفيما كانت هذه الخواطر تجول في ذهنه

وثب واقفاً ، واستأنف مسيره

وكان قد أنقص المسافة التي تفصل ما بين شخصه وبين لندن أربعة أميال أخرى عندما تذكر مبلغ الجهد الذي يتعين عليه احتماله قبل ان يرجو بلوغ طيّته . حتى اذا فرضت هذه الفكرة نفسها عليه خفف سيره بعض الشيء وأنشأ يستعرض وسائله التي سوف يستعين بها للوصول الى هناك . كان لديه ، في صرّته ، قطعة من خبز ، وقميص خلق ، وزوجان من الجوارب . وكان في جيبه بنس واحد ايضاً - منحة قدمها اليه ساواربيري اثر احدى الجنائز التي أدى فيها مهمته اداء حسناً أكثر من المعتاد . وقال أوليفر في ما بينه وبين نفسه : « حسنٌ جداً ان يملك الانسان قميصاً نظيفاً .. وحسنٌ جداً ايضاً ان يملك زوجين من الجوارب المرفوّة .. وبنساً واحداً . ولكن هذه كلها قليلة الغناء في رحلة تقتضي المرء أن يسير على قدميه خمسة وستين ميلا في أيام الشتاء .» ولكن افكار اوليفر ، كأفكار الكثرة الكاثرة منا ، عجزت - برغم نشاطها البالغ في اطلاعه على وجوه المصاعب التي تعترضه - عن ان ترشده الى أيما وسيلة عملية للتغلب على تلك المصاعب . وهكذا حوّل صرّته الصغيرة، بعد فترة من التفكير المتطاول، غير المجدي - الى المنكب الاخر، وراح يمشي مشياً مكدوداً .

لقد سار أوليفر عشرين ميلا ، ذلك اليوم . وطوال هذه الفترة لم يذق غير قطعة من الخبز اليابس التي كانت معه ، وغير بضع جرعات من ماء استجداها عند ابواب الاكواخ القائمة على جانب الطريق . حتى اذا هبط الليل ، انعطف نحو مرج من المروج . ثم انه دبّ على مقربة دانية من كومة تبن وعقد العزم على الاضطجاع هناك حتى منبلج الصباح . واستبدّ به الروع بادىء الامر، ذلك بأن الريح أنّت على نحو موحش فوق الحقول المهجورة : وكان يستشعر البرد والجوع والوحدة اكثر مما استشعرها في أيما وقت مضى . بيد أن السير كان قد هدّ قواه ، فاذا به يستسلم للرقاد وينسى متاعبه كلها .

وحين أفاق من رقاده في صباح اليوم التالي استشعر البرد وتصلّب الاوصال . وأمضّه الجوع الى حد اكرهه على ان يستبدل ببنسه الوحيد رغيفاً صغيراً في اول قرية بلغتها قدماه . ولم يكن قد اجتاز اكثر من اثني عشر ميلا عندما هبط الليل من جديد . كانت قدماه متقرحتين ، وكانت رجلاه من شدة الضعف بحيث اصطكتا تحته . وكان في سلخه ليلة اخرى في الهواء الرطب القارس ما زاد حاله سوءاً على سوء . حتى اذا استأنف رحلته صباح اليوم التالي لم يستطع جر قدميه الا بشق النفس.

وانتظر عند سفح كثيب شديد الانحدار حتى أقبلت مركبة عمومية ، فاستندى أكفّ المسافرين على سطحها ، ولكن قلة منهم التفتت اليه وشعرت بوجوده . وحتى هؤلاء سألوه ان ينتظر حتى يبلغوا أعلى الكثيب ، اذ يتسنى

لهم عندئذ ان يروا الى ايّ حدّ يستطيع أن يعـــدو التماساً لنصف بنس
وحاول اوليفر المسكين فترة قصيرة ، أن يجاري المركبة العمومية في انطلاقها، ولكنه لم يوفق الى ذلك ، بسبب من اعيائه وقدميه المتقرحتين · وعندما رأى المسافرون على سطحها عجزه عن اللحاق بهم أعادوا أنصاف بنساتهـــم الى جيوبهم ، معلنين أنه جروٌ كسول فهو لا يستحق شيئاً ما · وابتعدت المركبة مجلجلة ، مخلّفة وراءها سحابة من غبار ليس غير ·

وفي بعض القرى وقع بصر اوليفر على لوحات خشبية كبيرة تحذر الناس من الاستجداء في تلك المنطقة ، وتنذر من يفعل ذلك بعقوبة السجن · وروّع ذلك اوليفر ترويعاً كثيراً ، وجعله يسعد بالخروج من تلك القـــرى بأقصى سرعة ممكنة · وفي بعضها الآخر كان اوليفر يقف عند افنية الخانات ، ناظراً الى عابري السبيل جميعاً : وهو صنيعٌ كان ينتهي عادة بأمر تصدره صاحبة الخان الى احد حوذيي المركبة بطرد الغلام الغريب من المكان ، اذ كانت على مثل اليقين من انه جاء ليسرق شيئاً · اما اذا طرق باب أحد المزارعين مستعطياً فأن تسعة رجال من كل عشرة كانوا يهددونه بتحريض الكلب عليه · وحين اقحم أنفه في دكان من الدكاكين ألفى القوم يتحدثون عن الشماس ، فكاد فؤاده ان يثب الى فمه · وطوال ساعات عديدة كانت وثبة الفؤاد هذه هي كل ما فاز به هناك ·

والواقع انه لولا موظف طيب القلب من موظفي المكوس ولـــولا سيدة عجوز خيّرة اذن لكان خليقاً بمتاعب اوليفر ان ُتختَصَر بمثل الطريقة التي كانت قد وضعت حداً لمتاعب أمه · وبكلمة اخرى ، لكان خليقاً به من غير ريب ان يسقط ميتاً فوق الطريق الملكية · ولكن موظف المكوس قدّم اليه شيئـاً من خبز وجبن · والسيدة العجوز ، التي كان لها حفيد يتيه حافي القدمـين في بقعة قصية من الارض بعد أن حطمت الانواء مركبه ، اشفقت على اليتيـم البائس وأعطته كل ما أتاحت لها امكاناتها المحدودة أن تعطيـه ، بل وأكـثر من ذلك أيضاً ، مردفة عطاءها هذا بكلمات بالغة الرقة واللطف وبعبرات مفعمة بالعطف والحنان الى حد جعل ذكراها أرسخ في فؤادها من جيـــع الآلام التي ُقدّر له أن يقاسيها ·

وفي ساعة مبكرة من الصباح ، بعد سبع ليال انقضين على مغادرته مسقط رأسه دخل أوليفر ، ظالعاً ، بلدة بارنيت الصغيرة · كانت مصاريع النوافـذ موصدة ، وكان الشارع خالياً : ان ايما نفس لم تكن قد أفاقت للنهوض بأعباء النهار · وكانت الشمس تبزغ بكامل جمالها السنّيّ ، ولكن ضياءها لم يكن له من أثر غير اطلاع الغلام على وضعه المتوحد الموحش عندما قعد ، بقدمـين داميتين يعلوهما الغبار ، عند عتبة باب من الابواب ·

وشيئاً بعد شيء ُفتحت مصاريع النوافذ ، و ُرفعت شعرياتها ، وبـدا

الناس يروحون ويجيئون . وتمهـــل قليل منهم ليحدقـــوا الى أوليفر لحظة أو لحظتين ، او استداروا ليحملقوا فيه وهم ماضون في سبيلهم المُعْجِل ، ولكن أياً منهم لم يمدّ اليه يد العون أو يجشم نفسه عناء التساؤل كيف اتفق له أن وفَد الى هناك . انه لم يؤانس في نفسه الجرأة على استجداء الأكف . فأقـــام ثمة لا يريم .

وكان قد سلخ فترة من الزمان جالساً القرفصاء على تلك العتبة : متعجباً لهذا العدد الضخم من المقاهي (كان كل بيت من اثنين في بارنيت حانة ، كبيرة كانت او صغيرة) ، محدقاً في لا مبالاة الى المركبات العمومية المجتازة بالمكان ، متأملا في تعجب بالغ كيف استطاعت أن تقطع في يُسْر وفي ساعات قليلة مـا احتاج هو في سبيل قطعه الي اسبوع كامل من الشجاعة والعزم غير المتكافئين مع سنّه الفتيّة .. عندما لاحظ (وقد انتزعه ذلك من غمرة أحلام يقظته) أن أحد الغلمان الذين مرّوا به قبل بضع دقائق مرور الكرام انقلب على عقبيه وأخذ الآن يقلّب طرْفه فيه ، على نحو موصول من الجانب الآخر من الطريق . ولم يبال اوليفر ، بذلك بادىء الامر ، الا قليلا ، ولكن الغلام واصل تحديقه اليه مواصلة دعت اوليفر الى رفع رأسه ومبادلته النظرات الثابتة . عندئذ عبَر الغلام الشارع وتقدم حتى أمسى على مقربة دانية من اوليفر وقال :

ــ « هالو ، يا صغيري ! اية مهمّة عسيرة تشغل بالك ؟ »

وكان الغلام ، الذي طرح هذا السؤال على عابر السبيل الصغير ، في مثل سنه تقريباً ، ولكنه كان من أعجب الغلمان الذين قدّر لأوليفر أن يراهم عمره كله . كان صبياً أفطس الأنف ، مسطّح الجبين ، عاديّ الوجه الى حد بعيد ، وكان يمثل أقذر نموذج للغلمان يمكن للمرء أن يطمع في رؤيتـه ، ولكن ملامحـه وسِماته كانت اشبه بملامح الرجال وسماتهم . كان ضئيل الجسم بالنسبة الى سنه ، وكان ذا رجلين متقوستين بعض الشيء ، وعينين صغيرتين حادتـين بشعتين . وكانت قبعته جاثمة على قمة رأسه في غير احكام البتة ، فهي تنـذر بالسقوط كل لحظة ــ ولقد كان خليقاً بها أن تفعل غير مرة لو لم يتعـود صاحبها أن ينتر رأسه ، بين الفينة والفينة ، نترة مفاجئة كانت تعيدها الى موضعها كرة اخرى . وكان يرتدي سترة رجالية كادت تنتهي الى عقبيه . وكان قد قلب ردنيها الى عَضُديه لكي يحرر يديه من ذينك الردنين ، ولكي يكون في ميسوره بعدُ ــ في ما يبدو ــ أن يقحمهما في جيبي بنطاله المخيط من مخمل مضلّع ، اذ كان يحتفظ بهما هناك على نحو موصول . وعلى الجملة فقد كان فتى لم يسبق لأيما حذاء نصف مرتفع الساق ان حمل مخلوقاً طولـه اربعة اقدام وستة انشات ، او أقل ، أشد منه صخباً واكثر اختيالا .

ــ « هالو ، يا صغيري ! أية مهمة عسيرة تشغل بالك ؟ » كذلك قال هذا الشاب الغريب لأوليفر .

فأجابه اوليفر والدموع تترقرق في عينيه : « أنا جائع جداً ، متعب جداً . لقد سرت مسافة طويلة . لقد سلخت الايام السبعة الماضية وأنا أمشي»

فقال السيد الشاب : « سلخت اياماً سبعة وانت تمشي ؟ أوه ، لقد فهمت . أمرٌ صادر من « المنقار » ثم اضاف وقد رأى امارات الدهش على وجه أوليفر : « ولكني أحسب انك لا تعرف ما هو « المنقار » يا رفيقي المتشرد » .

فأجابه اوليفر في وداعة قائلا انه كان يسمع هذه اللفظة تصطنع . دائماً، عند الكلام على الطيور ، وانها تعني فم الطائر .

فهتف السيد الشاب : « يا سلام ! ما أعظم سذاجتك ! ألا تعرف ان المنقار هو القاضي ، واننا حين نسير بأمر من المنقار لا نسير في خط مستقيم ، ولكننا نصعد دائماً الى أعلى ثم لا ننزل بعد ذلك ابداً . ألم تذهب الى الطاحونة قط ؟ »

فتساءل اوليفر : « اية طاحونة ؟ »

ـ « اية طاحونة ! انها الطاحونة التي تحتل أصغر مكان ممكن حتى أنها تدور في داخل ابريق حجريّ * ، والتي تعمل دائماً بشكل أفضل عندما لا تكون الرياح مواتية للناس ، لا عندما تكون مواتية، اذ انهم لا يستطيعون ، في الحالة الاخيرة ، ان يجدوا عمالا .ولكن تعال . انت تريد بعض الطعام ، ولسوف تحظى به . أنا ايضاً مفلس ، ليس معي غير شلن وبنت سليطة . ولكني سوف أدفع ضمن هذه الحدود . والآن ، قف علي قدميك . هيّا ! »

وساعد السيد الشاب أوليفر على النهوض وقاده الى دكان سمّان مجاور ، حيث اشترى مقداراً كافيةً من لحم الخنزير المعالَج ورغيف وزنه ليبرتان اثنتان أو ، وفقاً لتعبيره هو ، « كتلة من نخالة بأربعة بنسات ! » . وكانت شرائح لحم الخنزير قد حُفِظت نظيفة ووُقِيَت من الغبار بفضل طريقة بارعة قوامها احداث فجوة في الرغيف بانتزاع جزء من اللب واقحامها هناك . وتأبط السيد الشاب رغيفه ، ودخل مقهى صغيراً وتقدّم رفيقَهُ متجهاً نحو مشرب (بار) قائم في مؤخرة المحل . وهنا جيء ، بناء على أمر من الشاب الملفع بالاسرار ، بزجاجة جعة . وشرع أوليفر يأكل ، نزولا عند رغبة صديقه الجديد ، وبأسراف ونهم ، فيما كان الفتى الغريب يراقبه ، بين الفينة والفينة ، في انتباه بالغ .

وقال الفتي الغريب عندما كفّ أوليفر ، آخر الأمر ، عن الأكل : « ذاهبٌ الى لندن ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « هل لديك مأوى ؟ »

ـ « لا . »

ـ « مال ؟ »

---

* Stone Jug ، والمراد بالابريق الحجري ، « السجن » .

ـ « لا • »

فصفر الفتى الغريب ، وأقحم يديه في جيبيه بقدر ما مكنته ردنا السترة الضخمة من اقحامهما •

وتساءل أوليفر : « هل تقيم في لندن ؟ »

فأجاب الفتى : « نعم ، أنا أقيم فيها عندما أكون بين أهلي وعشيرتي • وأحسب انك تريد مكاناً تبيت فيه هذه الليلة ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه أوليفر : « أنا أريد ذلك فعلا • اني لم أذق طعم النوم تحت سقف من السقوف منذ غادرت الريف • »

فقال السيد الشاب : « لا تدع القلق يستبد بك من جراء ذلك • ان علي أن أكون في لندن هذه الليلة • وأنا أعرف سيداً عجوزاً محترماً يقيم هنـــاك ، سيداً سوف يؤويك بالمجان ، ولن يتقاضاك اي أجر أبداً ••• أعني اذا مـــا قدمك اليه سيد من معارفه ، وأنا ، ألست من معارفه ؟ أوه ، لا ! لا ، بأيـــة حال ! على الاطلاق • اؤكد لك ذلك ! »

وابتسم السيد الشاب ، وكأنما أراد بهذه الابتسامة أن يوحي الى رفيقه بأن الاجزاء الاخيرة من الحديث لم تكن غير سخرية عابثة ، وأتي على آخر قطرة من الجعة كانت في كأسه •

وكان هذا العرض غير المتوقع ، عرض المبيت تحت سقف من السقوف ، أشد اغراء من أن يقاوم • وبخاصة بعد أن أتبع في الحال بالتوكيد على أن السيد العجوز المشار اليه سوف يسند الى أوليفر ، في غير ما ابطاء ، وظيفة مريحة • وقادهما هذا الى محاورة أحفل بالود والحميمية اكتشف أوليفر من خلالها أن صديقه يدعي جاك داوكنز ، وأنه كان الفتي الأثير عند العجوز المشار اليه آنفاً وصنيعته •

ولم يكن في مظهر مستر داوكنز أشياء كثيرة تنهض دليلا على الترف الذي يستطيع نفوذ سيده أن يكفله لاولئك الذين يصطفيهم ويظلهم برعايته • ولكنه لما كان ذا طريقة في الكلام طياشة فاسقة ، ولما كان قد اعترف فوق هـــذا بأنه اشتهر بين أصدقائه الأدنين بلقب « المراوغ الماكر » * ، فقد استنتج أوليفر انه كان قد أهمل حتى ذلك الحين ـ بسبب من نزعته الى الاستهتار واللامبالاة ـ تعاليم ولي نعمته الأخلاقية وطرحها وراءه ظهرياً • وتحت تأثير هذه الفكرة عقد العزم ، في ما بينه وبين نفسه ، على النظر الى العجوز ، في أسرع وقـــت ممكن ، نظرة احترام ، وعلى التخلي عن شرف اقامة علاقات أوثق مع « المراوغ الماكر » اذا ما وجده غير . قابل للاصلاح ، وهو شيء كان شبه متأكد منه •

واذ عارض جون داوكنز في دخولهما لندن قبل هبوط الليـــل فأنهما لم يصلا الى بوابـــة المكوس في آيلينغتون الا بعد الساعة الحادية عشرة • وعبرا

* the artfull dodger

ال « الأينجيل » الى طريق سانت جون ، وهبطا الشارع الصغيـــر المفضي الى مسرح « سادلرز ويلز » ، ومن ثم سلكا شارع ايكسماوث وشارع كوبيس ، وهبطا الفناء الصغير القائم في محاذاة الملجأ ، واجتازا البقعة العتيقة التي كانت تحمل في يوم من الايام اسم « هوكلاي ان ذي هول » ، منتقلَيـْن من هناك الى كثيب صافرون الصغير ، فكثيب صافرون الكبير ، حيث اندفع « المراوغ » في خطى عجلى ، طالباً الى أوليفر أن يسير في اثره وان لا يبتعد عنه قيد شعرة ·

والواقع ان اوليفر حرص على ابقاء عينيه مركـَّزتين على قائـــده ، وان حرصه هذا كان خليقاً به أن يشغله عن كل شيء · ومع ذلك فأنه لم يتمالك نفسه عن أن يلقي نظرات خاطفة على جانبي الطريق · كانت المنطقه التي اجتاز بها أقذر المناطق التي ُقدّر لعينيه أن تقعا عليها حتى ذلك الحين ، وأشدّهـــا بؤساً · فالطريق ضيقة جداً ، موحلة جداً ، والهواء مشبع بالروائح الكريهة · كان ثمة عدد غير يسير من الدكاكين الصغيرة ، ولكن البضاعة الوحيدة المعروضة فيها كانت في ما بدا له أكواماً من الاطفال الذين كانوا ، حتى في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، يلجون الابواب ويخرجون منها ، أو الذين كانوا يصيحون من ورائها · وكانت المقاهي هي المواطن الوحيـــدة التي بدت زاهرة وسط تصوّح المكان العام · وفيها كانت أشد طبقات الايرلنديين انحطاطاً تتشاجر ما وسعها التشاجر · وكانت الدروب والأفنية المسقوفة ، التي انفصلت هنا وهناك عن الشارع الرئيسي ، تكشف عن مجموعات صغيرة من المنازل ، حيث تمرّغ في القذر ــ بكل ما في التعبير من معني ــ رجال مخمورون ونسوة مخمورات· ومن كثير من الأبواب كان ينبثق ، في حذر بالغ رجال مريبون مكلـَّفون ــ على ما يستفاد من المظاهر جميعها ــ بأداء مهامّ ليست طاهرة جداً ولا بريئة مـــن الاذى الى حد بعيد ·

وكان أوليفر قد شرع يتساءل ، في تلك اللحظة بالذات ، أليس من الخير له أن يفرّ ناجياً بنفسه ، عندما وصلا الى سفح الكثيب · وهنا أمسك به قائده من ذراعه ، ودفع باب بيت قريب من « فيلد لاين » ففتحه · ثم انه قاده الى المجاز ، وأغلق الباب من ورائهما ·

وصاح صوت من أدنى ، جواباً على صفرة من « المراوغ » : « حسناً ، ماذا تريد ؟ »

فكان الرد : « ثروة واكتساح ! »

وبدا وكأن هاتين اللفظتين كانتا كلمة سرّ تفيـــد ان كل شيء قد جرى على ما يرام · ذلك بأن ضوء شمعة واهنة أومض على الجدار عند طرف المجـاز الأقصى · وفي احتراس أطل وجه رجل من مكان تهدّم عنده درابزون سلـَّم المطبخ العتيقة ·

فقال الرجل مبالغاً في دفع الشمعة الى أمام ، مظلـِّلا عينيه بيده : « أنتما

اثنان . فمن هو الشخص الآخر ؟ »

فأجابه جاك * داوكنز جاذباً أوليفر الى الأمام : « رفيق جديد » .

ـ « من أيّ بلد هو ؟ »

ـ « من غرينلند . هل فاجين في الطابق العلوي ؟ »

ـ « نعم . انه يصنّف المناديل . اصعدا ! » وسُحبت الشمعة ، واختفى الوجه .

وتلمّس أوليفر طريقه بأحدى يديه ـ في حين كان رفيقه ممسكاً باليد الأخرى ـ وارتقى بكثير من العسر السلم المظلمة المحطمة ، التي راح قائده يصعدها في يسر وسرعة أظهرا أنه كان يألفها منذ عهد بعيد . وفي عنف فتح باب حجرة خلفية ، وجذب أوليفر ، خلفه ، اليها .

كانت جدران الحجرة وسقفها سوداء فاحمة من جراء القِدم والقذر . وأمام نار الموقد كانت طاولة من خشب الشوح انتصبت فوقها شمعة مغروسة في زجاجة من زجاجات بيرة الزنجبيل ، وقدران أو ثلاث قدور من الصفيح ، وطبق . وكان شيء من اللقانق يَنْضَج في مقلاة موضوعة على النار ، ومشدودة الى رف الموقد بخيط قنّبي . وفوقها كان يقف ، وفي يده شوكة تحميص ، يهودي متغضّن الوجه طاعن في السن كان وجهه المنفّر الناضح بالشرّ محجوباً وراء كتلة من الشعر الاحمر المتلبّد . كان يرتدي مبذلا (روب دو شامبر) من الفلانلّة ، يكشف عن نَحْره ، وتشوبه بقعٌ من الدهن كثيرة . لقد بدا هذا اليهودي وكأنه يوزع انتباهه ما بين المقلاة وبين مشجب تدلّت منه جمهرة كبيرة من المناديل الحريرية . وعلى أرض الحجرة اختلطت فُرُش خشنة مصنوعة من أكياس دقيق عتيقة ، وتزاحمت جنباً الى جنب ، وحول الطاولة جلس أربعة غلمان أو خمسة غلمان ، ليس بينهم من هو أكبر سناً من « المراوغ » ، يدخنون بيبات فخارية طويلة ، ويعاقرون الخمرة وكأنهم رجال في خريف العمر . ولقد تحلّق هؤلاء كلهم حول رفيقهم عندما همس في اذن اليهودي ببضع كلمات ، ثم استداروا نحو أوليفر وابتسموا له ابتسامة عريضة . وكذلك فعل اليهودي نفسه ، وشوكة التحميص في يده .

وقال جاك داوكنز : « هذا هو ، يا فاجين ، صديقي أوليفر تويست . »

وابتسم اليهودي ابتسامة عريضة . وبعد أن انحنى لأوليفر انحناءة مغالى فيها ، امسك بيده وعبر عن أمله في أن يكون له شرف صداقته الحميمة . عندئذ تحلّق الشبان ذوو البيبات الفخارية حوله وهزوا كلتا يديه في حماسة بالغة ـ وبخاصة تلك اليد التي كان يحمل بها صرّته الصغيرة . وحرص واحد من أولئك الشبان حرصاً شديداً على أن يعلق له قبعته ، وبالغ شاب آخر في

---

* يلاحظ القارىء ان ديكنز يسمي « المراوغ » جون حيناً ، وجاك حيناً آخر . والواقع ان « جاك » ليس الا تصغير التحبب لـ « جون » . (المعرب)

التلطف فمد يديه الى جيوب اوليفر لكي لا يتجشم ـ وهو الذي هدّه التعب ـ عناء افراغها بنفسه حين يأوي الى الفراش · ولقد كان خليقاً بالقوم أن يغالوا في هذه المجاملات مغالاة اضافية لو لم يعمد اليهودي الى مداعبة رؤوسهم ومناكبهم ، في سخاء كثير ، بشوكة التحميص التي كان يحملها ·

وقال اليهودي : « نحن سعداء بأن نراك ، يا أوليفر · جدّ سعداء · أيها المراوغ ، ارفع اللقانق عن النار ، وقرّب الى الموقد قصعة من أجل أوليفر · آه ، انت تحدّق الى مناديل الجيب ! أليس كذلك ، يا عزيزي ؟ ان ثمة عدداً وافراً منها ، أليس هذا صحيحاً ؟ لقد انتقيناها منذ لحظة ليصار الى غسلها · هذا كل ما هنالك ، يا أوليفر · هذا كل ما هناك · ها ! ها ! ها ! »

واستُقبِل الجزء الاخير من هذه الخطبة بضجة صاخبة من جميع تلامذة العجوز المرح العامرة نفوسهم بالأمل · وفي غمرة من تلك الضجة قاموا لتناول العشاء ·

والتهم أوليفر نصيبه من الطعام ، ثم ان اليهودي مزج له كأساً من «جِنّ» وماء حارّ ، قائلا له ان عليه أن يتجرعها في الحال ، لأن ثمة سيداً آخر في حاجة الى القدح · وفعل أوليفر ما طُلب اليه أن يفعله · وما هي الا فترة يسيرة حتى استشعر انهم نقلوه ، في رفق ، الى أحد الاكياس* · وبعد ذلك استغرق في نوم عميق ·

٩

وهو يشتمل على تفصيلات اضافية عن العجوز اللطيف وعن تلامذته الذين يعمر الأمل نفوسهم

ولم يفق أوليفر من نومه العميق الطويل الا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي · ولم يكن في الحجرة أيما شخص آخر غير اليهودي العجوز الذي كان يغلي بعض القهوة في قُديرة ذات مقبض لتناولها مع الفطور ، ويصفر بينه وبين نفسه في رقة فيما كان يحرّك القهوة على نحو شبه موصول ، بملعقة حديدية · وبين الفينة والفينة كان يصغي كلما انبعث من الدور الأرضي أيما صوت ولو خافتاً الى أبعد حد · حتى اذا اطمأنت نفسه عاد سيرته الأولى ، فهو يصفر ويحرك القهوة كشأنه من قبل ·

وعلى الرغم من أن أوليفر كان قد أيقظ نفسه من الرقاد فأنه لم يكن

* يقصد الى أحد الفرش المصنوعة من أكياس الدقيق وقد سبقت الاشارة اليها في هذا الفصل · (المعرب)

يقظان مئة بالمئة . ان ثمة حالة وسنَى ، هي منزلةٌ متوسطة بين النوم واليقظة، حالةٌ يحلم فيها المرء خلال خمس دقائق وعيناه نصف مفتوحتين ونفسُه نصف واعية كلَّ ما يجري حوله ، أكثر مما يحلم في خمس ليال وعيناه مغمضتان في احكام وحواسه ملتحفة بلا وعي كامل . وفي لحظات كهذه يدرك المخلوق البشري مقداراً مما يفعله عقله كافياً في غير ما زيادة ولا نقصان لكي يكوّن فكرة باهتة عن قوى ذلك العقل الجبارة ، وطريقته في الوثوب من الارض وازدرائه الزمان والمكان عندما يتحرر من قيود رفيقه الجسدي .

لقد كان أوليفر في هذه الحال على وجه الضبط . لقد رأى اليهوديَّ بعينيه نصف المغمضتين ، وسمع صفيره الخفيض ، وعرف صوت الملعقة وهي تَصْرِف في احتكاكها بجوانب القُديرة ذات المقبض . ومع ذلك فقد كانت تلك الحواس نفسها مستغرقة عقلياً ــ في الوقت ذاته ــ في شغل شاغل مع كل من قدّر له أن يعرفه تقريباً .

حتى اذا أنجز اليهودي مهمته دفع القديرة ذات المقبض الى رف الموقد . وبعد أن وقف بضع دقائق في وضع متردد وكأنه لم يَدْرِ بأي شيء يحسن به أن يشغل نفسه استدار ونظر الى أوليفر ، وناداه باسمه . ولم يُجب أوليفر . لقد كان ــ على ما يُستدل من المظاهر كلها ــ مستسلما للرقاد .

حتى اذا اطمأن اليهودي من هذه الناحية تقدّم ، في رفق ، نحو الباب وأغلقه بالمزلاج . ثم انه أخرج من مخبأ في أرض الحجرة ــ على ما بدا لأوليفر ــ صندوقاً صغيراً ووضعه ، في كثير من التلطف ، على الطاولة . والتمعت عيناه وهو يرفع الغطاء ، وانشأ يحدق الى محتويات الصندوق الصغير حتى اذا جرّ الى الطاولة كرسياً عتيقاً ، استوى جالساً وأخرج من بينها ساعة ذهبية رائعة تتألق بالحجارة الكريمة .

وقال اليهودي ، وهو يهز كتفيه ويشوّه كل قسَمة من قسمات وجهه بابتسامة عريضة مروّعة : « آها ! يا للكلاب الماكرين ! يا للكلاب الماكرين ! لقد حفظوا السرّ حتى النهاية . فهم لم يخبروا القسيس العجوز أين كانوا قط . انهم لم يفضحوا فاجين العجوز ولم يكشفوا أمره للشرطة ! وما الذي يدعوهم الى فضحه والوشاية به ؟ انهم لو فعلوا لما حلّ ذلك العقدة أو أخرّ المشنقة دقيقة واحدة . لا ، لا ! يا لهم من فِتية رائعين ! يا لهم من فتية رائعين ! »

بهذه وبغيرها من الخواطر المماثلة غمغم اليهودي وأعاد الساعة الى حرزها الحريز . ثم انه أخرج من الصندوق نفسه نصف دزينة اخرى من الساعات ، على الاقل ، واحدة اثر واحدة ، وراح يتأملها في حبور مكافيء ، بالاضافة الى عدد من الخواتم ، ودبابيس الصدر المرصعة ، والأساور ومن المجوهرات الاخرى ذات المواد النفيسة والصياغة الغالية التي لم تكن لأوليفر فكرة حتى عن

اسمائها ٠

حتى اذا أعاد اليهودي هذه الحلي الى موضعها اخرج حلية اخرى كانت من الصغر بحيث استقرت في راحة يده ٠ لقد بدا وكأن عليها نقشاً بالغ الدقة ، ذلك بأن اليهودي بسطها على الطاولة ثم ظلّلها بيده وأنشأ ينعم النظر اليها في اهتمام بالغ ، انعاماً متطاولا ٠ وأخيراً أعادها الى الصندوق وكأنه يئس من النجاح ٠ وغمغم وهو يسترخي في كرسيه :

ـ « ما أروع عقوبة الاعدام ! ان الأموات لا يتوبون ٠ الأموات لا يكشفون الغطاء عن القصص الشائنة ٠ آه ! يا لها من اختراع هو في مصلحة صناعتنا ! لقد ُشنـِق خمسة منهم صَفاً واحداً ، فلم يبق أحد ليخون ، لينقلب الى جبان مخلوع الفؤاد ! »

وفيما اليهودي ينطق بهذه الكلمات وقعت عيناه السوداوان اللامعتان اللتان كانتا تحدقان أمامه على نحو ذاهل ٠٠٠ أقول وقعت عيناه على وجه أوليفر ٠ كانت عينا الغلام مسدَّدتين الى عيني اليهودي في فضول أبكم ٠ وعلى الرغم من ان نظراتهما لم تلتقِ الا لحظة واحدة ـ الا أقصر مدة يستطيع العقل أن يتصورها ـ فقد كان ذلك الالتقاء كافياً لاشعار الرجل العجوز أن أوليفر كان يراقبه ٠ وهكذا أطبق غطاء الصندوق في جلبة داوية ، ثم امسك بمدية خبز كانت على الطاولة ونهض عن كرسيه في ضراوة ٠ ومع هذا فقد كانت أوصاله ترتعد ارتعاداً شديداً ، ذلك بان أوليفر استطاع ـ حتى في غمرة من الرعب الذي استولى عليه ـ أن يلاحظ أن المدية كانت ترتعش في الهواء ٠

وقال اليهودي : « ما هذا ؟ لماذا تراقبني ؟ لماذا أفقت من نومك ؟ ما الذي رأيته ؟ تكلم ، أيها الغلام ! عجل ٠٠٠ عجل ٠٠٠ اذا شئت الاحتفاظ بحياتك ! »

فأجاب أوليفر في وداعة : « لم يكن في وسعي ان أنام أكثر مما فعلت ٠ واذا كنت قد ازعجتك فأن ذلك يؤسفني أشد الأسف ، يا سيدي ٠ »

فقال اليهودي ، مقطّباً في وجه الغلام تقطيباً ضارياً : « أنت لم تكن مستيقظاً منذ ساعة ، اليس كذلك ؟ »

فأجابه أوليفر : « لا ، لا ! أؤكد لك ذلك ! »

ـ « أواثق أنت مما تقول ؟ » كذلك صاح اليهودي راشقاً الغلام بنظرة أشد ضراوة حتى من نظرته السابقة ، متخذاً وضعاً مفعماً بالتهديد والوعيد ٠

فأجاب أوليفر في حماسة : « اقسم لك اني لم أكن مستيقظاً ، يا سيدي ٠ لا ، لم أكن مستيقظاً ، من غير ريب ، يا سيدي ٠ »

ـ « صه ، صه ، يا عزيزي ! » كذلك قال اليهودي مصطنعاً سيماءه القديمة ، على نحو مفاجيء ، متلاعباً بمديته لحظة قبل أن يضعها على الطاولة ، وكأنه يريد أن يوقع في نفس الغلام انه لم يمسك بها الا على سبيل العبث

والمزاح · « طبعاً ، أنا أعرف ذلك ، يا عزيزي ، لقد حاولت أن اروّعك ، ليس غير · انت غلام شجاع · ها ! ها ! انت غلام شجاع ، يا اوليفر ! » وفرك اليهودي يديه ضاحكاً في فتور ، ولكنه ألقى على الصندوق ، مع ذلك ، نظرة قلقة ·

وقال اليهودي واضعاً يده على الصندوق بعد صمت قصير : « هل رأيت أياً من هذه الاشياء البديعة ، يا عزيزي ؟ »

فأجابه أوليفر : « نعم ، يا سيدي · »

فقال اليهودي وقد شَحُب وجهه : « آه ! انها ··· انها لي ، يا اوليفر · هي ثروتي الصغيرة · انها كل ما يتعين علي أن أعيش عليه ، في شيخوختي · الناس يزعمون أني بخيل ، يا عزيزي · بخيل ليس غير · هذا كل ما هناك · »

وتراءى لاوليفر ان الرجل العجوز لا بد أن يكون بخيلا من البخلاء الأقحاح والا لما أقام في مثل هذا المأوى القذر ، على حين أنه يملك هذه الساعات كلها · ولكنه قال في ما بينه وبين نفسه أن هيامه « بالمراوغ » وبالصبية الآخرين ربما كلفه مقداراً من المال كبيراً ، ومن ثم اجتزأ بأن ألقي على اليهودي نظرة ترشح بالاحترام ، وسأله ما اذا كان في امكانه أن ينهض من فراشه ·

فأجابه السيد العجوز : « طبعاً ، يا عزيزي ، طبعا · على رسلك · هناك جرة ماء في الزاوية ، على مقربة من الباب · ايتِ بها الى هنا · ولسوف أعطيك طستاً لتغسل وجهك ، يا عزيزي · »

ونهض أوليفر ، ومشى عبر الحجرة ، وانحنى لحظة لكي يرفع الجرة · حتى اذا التفت مستديراً كان الصندوق قد ولّى ·

ولم يكد يغسل وجهه ويرتّب كل شيء ، بأفراغ الطست من خلال النافذة ، وفقاً لأوامر اليهودي وتوجيهاته ، حتى رجع « المراوغ » يصحبه صديق طريّ العود شديد المرح كان أوليفر قد رآه يدخن في الليلة البارحة··· صديقٌ قدّم اليه ، الآن ، رسمياً ، بوصفه تشارلي بايتس · وجلس الاربعة لتناول طعام الافطار ، وكان مؤلفاً من قهوة ومن بضعة أرغفة حارة وقليل من لحم فخذ الخنزير المملّح كان « المراوغ » قد حملها اليهم في قعر قبعته ·

وقال اليهودي ، ملقياً على أوليفر نظرةً خبيثة ، وموجهاً الخطاب في الوقت نفسه الى المراوغ : « حسناً ، أرجو أن تكونا قد انصرفتما للعمل في هذا الصباح ، يا عزيزيّ ؟ »

فأجاب « المراوغ » : « بنشاط عظيم · »

واضاف تشارلي بايتس : « وكأننا مسامير لا تعرف التعب · »

فقال اليهودي : « يا لكما من غلامين طيبين ! يا لكما من غلامين طيبين ! بأي صَيْد عدت اليوم ، أيها المراوغ ؟ »

فأجابه الفتى : « بمحفظتين · »

فتساءل اليهودي في لهفة : « محشوّتين ؟ »

ـ « حشواً لا بأس به · » وأخرج من جيبه محفظتين ، احداهما خضراء والأخرى حمراء ·

فقال اليهودي بعد أنْ نظر في اهتمام الى جوفيهما : « لقد كان في امكانهما أن تكونا أثقل من ذلك · ولكنهما أنيقتان بديعتا الصنع · ان صانعهما فنان بارع ، أليس كذلك يا اوليفر ؟ »

فأجاب أوليفر : « بارع جداً ، من غير ريب ، يا سيدي · »

وهنا أطلق مستر تشارلز بايتس ضحكة هادرة أثارت دهشاً بالغاً في نفس أوليفر ، الذي لم يجد في كل ما جرى ايما شيء يستدعي الضحك ·

وقال فاجين لتشارلي بايتس : « وأنت بماذا عدت ، يا عزيزي ؟ »

فأجاب المعلّم بايتس : « بمحارم » وأخرج من جيبه أربعة مناديل ·

فقال اليهودي وهو يتأملها عن كثب : « حسن · انها مناديل جيدة · جيدة جداً · ولكنك لم تجِد تطريزها ، يا تشارلي · وهكذا فأن هذه السِمات المطرّزة يجب أن تُنزع بأبرة ، ولسوف نعلّم أوليفر كيف يقوم بذلك · هل نعلّمك ذلك ، يا أوليفر ؟ ها ! ها ! ها ! »

فقال أوليفر : « اذا راق لك ذلك ، يا سيدي · »

فقال اليهودي : أتحبّ أن تعملِ المناديل بمثل السهولة التي يعملها بها تشارلي بايتس ، ألست تريد ذلك ، يا عزيزي ؟ »

فأجابه أوليفر : « حباً كثيراً ، من غير ريب ، اذا شئت ان تعلّمني ذلك·»

ووجد المعلّم بايتس في هذا الجواب شيئاً فكاهياً على نحو رائع الى حد جعله ينفجر في ضحكة جديدة · والتقت هذه الضحكة بالقهوة التي كان يحتسيها ، فأنزلتها في قناة مغلوطة فكادت أن تنتهي به الى الاختناق قبل الأوان ·

ـ « يا له من ساذج خفيف الروح الى حد بعيد ! » قال تشارلي ذلك عندما استردّ أنفاسه ، على سبيل الاعتذار للجماعة عن سلوكه غير المهذب ·

ولم يقل « المراوغ » شيئاً ، ولكنه ملّس شعر أوليفر فوق عينيه ، وقال ان الايام سوف تكسبه حكمة وبراعة ، على نحو تدريجي · واذ لاحظ السيد العجوز ان الدم قد شاع في وجه أوليفر ، عمد الى تغيير الموضوع بأن سأل هل شهد تنفيذ الاعدام ، ذلك الصباح ، خلقٌ كثير · وضاعف هذا من دهشِ أوليفر ، اذ اتضح له من أجوبة الغلامين أنهما كليهما شهدا حفلة الأعدام ، وعجب اوليفر ، بحكم الطبع ، كيف استطاعا أن يجدا متسعاً من الوقت للقيام بهذه الاعمال كلها ·

وعندما فرغوا من تناول طعام الصباح راح العجوز المرح والغلامان يلعبان لعبة غريبة جداً ، استثنائية جداً · وانما جرت تلك اللعبة على هذا النحو : لقد

وضع العجوز المرح علبة سعوط في أحد جيبيّ بنطاله ، ومحفظة نقـــود في الأخرى ، وأقحم في جيب صدرته ساعة ذات سلسلة تطوّق عنقه ، وغرز في صدر قميصه دبوساً ماسياً زائفاً ، وزرّر سترته تزريراً محكما ووضع علبة نظارتيه ومنديله في جيبيه ، وانشأ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا ، محاكياً في ذلك الطريقة التي يصطنعها الطاعنون في السن حين يمشون في الشوارع في أيما ساعة من ساعات اليوم . لقد توقّف عند المستوقد حيناً ، وعند الباب حيناً ، متظاهراً بأنه كان يحدّق بأقصى قدرته على الابصار الى واجهات الدكاكين . وفي مثل هذه الاحوال كان يجيل الطرف في ما حوله ، على نحو موصول ، حـــذر اللصوص ، ولا يكفّ عن التربيت على جيوبه جميعاً ، بالتتابع ، لكي يستيقن أنها لم تفقد شيئاً من محتوياتها ، وذلك على نحو مضحك جداً وطبيعي جداً الى حدّ أغرى أوليفر بالضحك حتى لقد تحدرت العبرات على خديه . وخلال هذا كله كان الغلامان يتبعانه حيثما اتجه ، متواريين عن بصره ، في رشاقة بالغة ، كلما التفت واستدار بحيث كان يتعذر على المرء أن يتعقب حركاتهما ، وأخيراً داس « المراوغ » على قدميه ، أو تعثّر بحذائه ، بينا صدمه تشارلي بايتس ـ مصادفة ـ من خلاف . وفي تلك اللحظة بالذات سلباه بأقصى سرعة ممكنة علبة السعوط ، ومحفظة الاوراق النقديـــة ، والساعـــة ، والسلسلة ، ودبوس الصدر ، والمنديل . وحتى علبة النظارات نفسها . وكلما اتفق للسيد العجوز أن يضع احدى يديه في جيب من جيوبه انطلقت من بين شفتيه صيحة ذعر . ومن ثم كانت اللعبة تستأنف من أولها .

حتى اذا كرّرت اللعبة مرات عديدة وفدت على السادة الشبان سيدتان شابتان ، احداهما تدعى « بتّ » والاخرى تدعى « نانسي » . كان لكل منهما شعر غزير ردّته رداً مشوّشاً الى الوراء ، وكانت ترتدي جورباً وتنتعل حذاء تعوزهما الاناقة والترتيب . ولعلهما لم تكونا وسيمتين بمعنى الوسامة المألوف ، ولكن دم الشباب كان يضرّج وجناتهما ، وكانتا تبدوان لعين الناظر قويّتي البنية موفورتَيْ العافية . واذ كانت حركاتهما تتسم بالطلاقة والعذوبة الى حد يلفت الانتباه فقد خيّل لاوليفر أنهما فتاتان جدّ لطيفتين حقاً . ولقد كانتا كذلك من غير ريب .

وتطاول مقام هاتين الوافدتين . وجيء بشيء من الخمر بعد أن تشكّت احدى السيدتين الشابتين برداً في باطنها ، واتخذ الحديث وجهة بهيجة جداً ، فيها عظة وعبرة . وأخيراً أعلن تشارلي بايتس عن اعتقاده بأن الاوان قد حان لخبط الأرض بالحوافر . وبدا لأوليفر أن هذا التعبـــير لا بـــد أن يكون هو الاصطلاح الفرنسي للانطلاق والرحيل . اذ لم تكد تنقضي لحظات معدودات حتى غادر « المراوغ » وتشارلي والسيدتان الشابتان الحجرة معاً ، بعد أن تكرّم

(٥)

اليهودي العجوز الحبيب الى النفس فزوّدهم بشيء من المال ينفقونه ·
وقال فاجين : « أرأيت ، يا عزيزي · انها حياة عذبة ، أليس كذلك ؟ لقد مضوا لقضاء ساعات النهار في النزهة والمرح · »

فتساءل أوليفر : « هل فرغوا من أعمالهم ، يا سيدي ؟ »

فقال اليهودي : « نعم · أعني اذا عَرض لهم ، خلال وجودهم خارج الدار ، عمل جديد · وهم لن يتوانوا – في مثل هذه الحال – عن ادائه · باستطاعتك أن تكون على ثقة من ذلك· اتخِذْ منهم قدوة تحتذيها ، يا عزيزي·

اتخذ منهم قدوة تحتذيها · » وضرب الموقد بمجرفة النار ليضيف الى كلماته قوة على قوة ، « افعَلْ كل ما يأمرونك بفعله ، واقبل نصيحتهم في جميع الشؤون –

وبخاصة نصيحة « المراوغ » ، يا عزيزي · انه هو نفسه سوف يصبح رجلا عظيماً ، ولسوف يجعل منك رجلا عظيماً أيضاً اذا ضربت على غراره · هل يتدلى منديلي من جيبي يا عزيزي ؟ » قال اليهودي ذلك وكفَّ عن الكلام فجأة ·

فأجاب اوليفر : « نعم ، يا سيدي · »
– « حاول أن تنشله من غير أن أحسّ بذلك ، كما رأيتَهم يفعلون عندما كنا نلعب هذا الصباح · »

وأمسك أوليفر بأدني الجيب بأحدى يديه ، كما سبق له ان رأى «المراوغ» يفعل ، وباليد الاخرى سحب المنديل منها في خفة ورشاقة ·
وصاح اليهودي : « هل اختفى ؟ »

فقال أوليفر وهو يريه اياه في يده : « ها هو ذا ، يا سيدي · »

– « انت غلام بارع ، يا عزيزي · » كذلك قال العجوز المولع بالمزاح ، مربتاً على راس أوليفر تربيتة الرضا والاستحسان · « أنا لم أر غلاماً أبرع منك قط · دونك هذا الشلن · انك اذا واصلت التقدم ، على هذا النحو ، أصبحت أعظم رجال العصر قاطبة · والآن ، تعال ، ولسوف أريك كيف تنزع السِّمات عن المناديل · »

وتساءل أوليفر عن العلاقة بين نشل جيب السيد العجوز على سبيل المزاح وبين امكانية صيرورته رجلا عظيماً · ولكنه – وقد حسِب ان اليهودي ، بوصفه أكبر منه سناً بكثير ، لا بد أن يكون أوسع منه علماً – سرعان ما تبع اليهودي ، في هدوء ، الى المائدة حيث استغرق في دراساته الجديدة ·

١٠

أوليفر يتعرف تعرفاً أفضل الى أخلاق رفاقه الجدد ، ويشتري الخبرة بثمن غال . ان هذا الفصل سوف يكون قصيرا ولكنه هام جداً بالنسبة الى هذه القصة .

وطوال أيام عديدة لزم أوليفر حجرة اليهودي ينزع السمات المطرزة عن مناديل الجيب (وقد حمل عدد كبير منها الى تلك الدار) ، ويشارك أحيانا في اللعبة التي وصفناها آنفاً : تلك اللعبة التي كان الغلامان واليهودي يلعبونها كل صباح في غير ما انقطاع . وأخيراً أخذ يتوق الى الهواء الطلق، واغتنم فرصاً كثيرة للتضرع الى السيد العجوز ، في لهفة بالغة ، أن يجيز له مغادرة الدار والعمل مع رفيقيه .

وكان الذي جعل أوليفر أشد حرصاً على المشاركة في العمل على نحو فعال ما رآه من اخلاقية السيد العجوز المتجهمة . فما يكاد « المراوغ » أو تشارلي بايتس يرجع الى البيت ، صفر اليدين ، حتى يسهب اليهودي في الكلام ، في حدة بالغة ، على بؤس اولئك الذين يغلب عليهم التواني والكسل، وحتى يشعر الغلامين ضرورة الحياة الناشطة الفعالة بأن يفرض عليهم المبيت على الطوى . والواقع انه ذهب في احدى المناسبات الى حد دحرجتهما معاً على جزء من السلم . ولكن هذا التطبيق لمعتقداته الفاضلة كان استثنائياً ومغالى فيه .

وأخيراً ، وفق أوليفر ، ذات صباح ، الى الفوز بالأذن الذي طالما التمسه في لهفة بالغة . كان يومان أو ثلاثة أيام قد تصرما من غير أن تحمل الى البيت أية مناديل يستطيع أوليفر أن يشغل نفسه بها ، وكان طعام العشاء قد أمسى هزيلا بعض الشيء . ولعل هاتين الواقعتين هما اللتان حملتا السيد العجوز على الموافقة . وسواء أصح هذا أم لم يصح فقد قال لأوليفر إن في امكانه أن يذهب ووضعه تحت وصاية تشارلي بايتس وصديقه « المراوغ » المشتركة .

وانطلق الغلمان الثلاثة . كان « المراوغ » مشمراً عن ساعديه ، رافعاً حواشي قبعته كالعادة . وكان المعلم بايتس يتهادى واضعاً يديه في جيبيه . وكان أوليفر يمشي بينهما ، متسائلا الى أين كانوا يمضون ، وبأي فرع من فروع الصناعة سوف يبصر بادىء الأمر .

وكانت خطاهم كسلى متوانية مريبة الى حد اوقع في نفس أوليفر

رشيكاً ، أن رفاقه يعتزمون أن يخدعوا السيد العجوز بالاحجام عن أداء ما كُلّفوا به من عمل . والى هذا فقد أبدى « المراوغ » نزوعاً شريراً الى نزع القلانس عن رؤوس الصبية الصغار والقذف بها الى أفنية البيوت . في حين تكشّف تشارلي بايتس عن فهم مشوّه لحقوق الملكية من طريق سرقته أشنات التفاح والبصل من « البَسْطات » المفروشة على جانبي البيوت الحقيرة واقحامها في جيوب مدهشة السعة الى حد بدت معه وكأنها تزرع ألغاماً تحت كل جانب من جوانب بذلته كلها . وبدت هذه الاشياء رديئة الى حد أثار قلق أوليفر اثارة بالغة حتى لقد كاد يعلن عن عزمه على العودة من حيث أتى ، بأسرع ما تمكّنه ساقاه من ذلك . ولكن أفكاره ما لبثت أن وجِّهت، فجاءة ، وجهة اخرى بفضل تغيّر موغلٍ في الغموض طرأ على سلوك «المراوغ» .

وتفصيل ذلك أنهم ما كادوا يبرزون من عطفة ضيقة غير بعيدة عن ساحة كلير كينويل التي لا تزال تدعى الى اليوم ، بضرب من تشويه المصطلحات غريب ، « المرج » ، حتى كفّ « المراوغ » عن السير على نحو مفاجىء ، وردَّ رفيقيه على أعقابهما — واضعاً اصبعه على شفتيه — بأقصى الحذر والاحتراس .

وتساءل أوليفر : « ما المسألة ؟ »

فأجابه « المراوغ » : « هل ترى ذلك الشخص العجوز الواقف أمام الكشك الخاص ببيع الكتب ؟ »

فقال أوليفر : « السيد العجوز الواقف على الجانب الآخر من الشارع ؟ نعم . انني أراه . »

فقال « المراوغ » : « انه موضوع صالح . »

ولاحظ المعلم تشارلي بايتس : « انه صيدٌ من الطراز الأول . »

ونقّل اوليفر طرْفه من « المراوغ » الى تشارلي ومن تشارلي الى « المراوغ » ، وقد استبدّ به أعظم الدهش ، ولكنهما لم يجيزا له أن يطرح أيَّ سؤال . ذلك بأن الغلامين عبرا الطريق خلسة وانسلا حتى أمسيا خلف السيد العجوز ، مباشرة ، بعد أن لفتا اليه نظر أوليفر . ومشى أوليفر في أثرهما بضع خطوات ، واذ لم يدرِ أيتعيَّن عليه أن يتقدم أو يتأخر فقد وقف في مكانه لا يريم وانشأ ينظر اليهما في انشداه صامت .

كان السيد العجوز شخصية تبدو عليه سيماء المهابة والوقار ، ذا شعر نضيح بالذرور ونظارتين ذهبيتين . كان يرتدي سترة خضراء غامقة ذات طوق مخملي أسود ، وبنطالا أبيض ، ويتأبط عصا خيزرانية أنيقة . وكان قد تناول من الكشك كتاباً ، ووقف ثمة يقرأ في استغراق وجِدّ وكأنه مستوٍ على كرسيه ذي الذراعين في مكتبه الخاص . ومن يدري ، فلعله أن يكون قد توهم نفسه هناك . اذ كان واضحاً ، من استغراقه البالغ ، أنه لم يكن يرى لا الكشك ولا

الشارع ولا الغلمان ٠٠٠ انه ، بكلمة موجزة ، لم يكن يرى غير الكتاب نفسه : وكان يقرأه قراءة موصولة ، قالباً الصفحة كلما انتهى الى آخر سطورها متابعاً التلاوة ابتداء من اول سطر في الصفحة التالية ، مواظباً على ذلك في غير انقطاع ، وبأعظم قدْر من الشوق واللهفة ٠

ما كان أعظم الرعب والذعر اللذين استبدا بأوليفر فيما كان يقف على مبعدة خطى معدودات ، فاتحاً أجفانه أوسع ما استطاع أن يفتحهما ، ليرى الى « المراوغ » يقحم يده في جيب السيد العجوز وينشل منها منديلا ، وليرى اليه يدفع هذا المنديل الى تشارلي بايتس ، وليراهما معاً ، آخر الأمر ، يطلقان سوقهما للريح ، متواريين خلف المنعطف !

وبأسرع من لمح البصر أطبق سرّ المناديل ، والساعات ، والمجوهرات كلها ، بل سر اليهودي نفسه ، على ذهن الغلام ٠ ووقف ، لحظة ، والدم يغلي في عروقه من الرعب حتى لقد استشعر وكأنه يشوى بنار موقدة ٠ ثم انه أطلق ساقيه للريح ، وقد غلب عليه الاضطراب والخوف ٠ واذ لم يدر ما يتعين عليه أن يفعله فقد لاذ بالفرار بأسرع ما حملته قدماه ٠

ولم يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة ٠ وفي اللحظة نفسها التي عمد فيها أوليفر الى الهرب افتقد السيد العجوز منديله في جيبه ، حتى اذا لم يجده استدار فجأة ، فلمح الغلام وهو ينطلق بمثل تلك السرعة البالغة ، فاستنتج بحكم الطبع أنه هو السالب المغير ، وراح يصيح بأعلى صوته « أوقفوا اللص ! » وقد اندفع يجري في اثره ، والكتاب في يده ٠

ولكن السيد العجوز لم يكن الشخص الوحيد الذي أطلق صيحة المطاردة ٠ ذلك بأن « المراوغ » والمعلم بايتس كانا قد اكتفيا ـ رغبة منهما في أن لا يلفتا انتباه الجمهور بالركض في الشارع العام ـ بمجرد الانسحاب الى اول مدخل وقعت عليه أعينهما عند زاوية الشارع ٠ فلم يكادا يسمعان الصيحة ويريان أوليفر مولياً فراراً حتى حزرا الوضع على وجه الضبط فانبثقا من مخبأهما في خفة عظيمة وراحا يصيحان « أوقفوا اللص ! » مشتركَيْن في الطّراد مثل المواطنين الصالحين ٠

وعلى الرغم من أن أوليفر كان قد نُشّئ على أيدي فلاسفة فانه لم يكن مُلماً ، من الوجهة النظرية ، بالحقيقة المقررة الجميلة التي تقول بأن حفظ الذات هو قانون الطبيعة الأول ٠ ولو قد كان مُلماً بتلك الحقيقة اذن لكان من الجائز أن يأخذ الأهبة لهذا الأمر ٠ والواقع أن عدم استعداده هذا قد زاده ذعراً على ذعر ، وهكذا انطلق انطلاق الريح ، والسيدُ العجوزُ والغلامان يهدرون خلفه ويصيحون ٠

ـ « أوقفوا اللص ! أوقفوا اللص ! » ان ثمة لسحراً في هذه الصيحة ٠

فاذا بالتاجر يغادر منضدته ، والحوذيّ عربتَه ، واذا بالجزار يطرح صينيته أرضاً ، وبالخباز ينبذ سلّته ، والحلاّب دلوه ، والساعي رُزمَه ، والتلميذ كُراتِه ، وراصف الشوارع مِعْوله ، والطفل مِضْربه الخاص بلعب الكرة انهم يهرعون وقد اختلط حابلهم بنابلهم وأخذوا يخبطون خبط عشواء ، مهتاجين ، صائحين ، صارخين ، صارعين عابري السبيل وهم ينعطفون حول الزوايا ، مثيرين الكلاب ، مذهلين الدجاج ، وان الشوارع والساحات والأفنية لترجّع صدى أصواتهم .

– « أوقفوا اللص ! أوقفوا اللص ! » وتتلقّف الصيحة مئاتُ الاصوات وتكرِرُها ، ويتعاظم الحشد عند كل عطفة . ويغذّون السير ، يخوّضين في الوحل ، مطقطقين بأحذيتهم على الارصفة : وترتفع مصاريع النوافذ الى فوق ، ويندفع الناس الى الخارج ، وتزحف الغوغاء الى الأمام ، وتهجر النظارة مسرحية الدمى الموسومة باسم « بانتش » والعقدةُ في أوج احتباكها ، وينضمّ أفرادها كلهم الى الحشد المندفع ، فيضخّمون الصراخ ، وينفخون في الصيحة عزماً جديداً : « أوقفوا اللص ! أوقفوا اللص ! »

– « أوقفوا اللص ! أوقفوا اللص ! ان ثمة في أعماق الصدر البشري رغبة في المطاردة ، في مطاردة أيّ شيء مهما يكن . طفل مسكين متقطّع الانفاس ، لاهث من اثر الاجهاد ، مروّع السِّمات ، راشح العينين بالألم المرير ، مبلل الوجه بحبات عَرق كبيرة ليُجْهِدُ كل عصب من أعصابه للنجاة من مطارديه . وفيما هم يتعقبونه ، مقتربين منه كل لحظة ، يطرون قوّته المتناقصة بصيحات أعلى ، ويهتفون ويصرخون في ابتهاج : « أوقفوا اللص ! » أجل ، أوقفوه اكراماً لله ، أوقفوه رحمة بنا على الاقل ! »

وأخيراً أوقفوه ! فقد كانت الضربة بارعة . لقد خرّ على الرصيف صريعاً ، ويتحلق الحشد حوله في اهتياج . ويتدافع الوافدون الجدد بالمناكب ويتشاجرون لكي يلقوا عليه نظرة . « قفوا جانباً ! » ، « دعوه يأخذ قليلا من الهواء . . ! » « هراء ! انه لا يستحق ذلك ! » ، « أين السيد الماجد ؟ » ، « ها هو ذا ، لقد وصل . » ، « أفسحوا مجالا للسيد الماجد ! » ، « أهذا هو الغلام ، يا سيدي ؟ » ، « نعم . »

وكان أوليفر طريح الأرض ، يكسوه الوحل والغبار ، ويقطر الدم من فمه ، ويجيل الطرف على نحو شارد في ركام الوجوه المحدقة به ، عندما عمد قادة المطاردة – في لهفة متطفلة لتقديم خدماتهم – الى جر السيد العجوز ودفعه الى وسط الحلقة .

وقال السيد الماجد : « نعم . هذا هو الغلام ، في ما أحسب . »

فغمغم الحشد : « في ما يحسب . هذه نادرة طريفة ! »

وأضاف السيد الماجد : « يا له من غلام مسكين ! لقد جرح نفسه . »

فقال فتى ضخمٌ مكسالٌ وهو يخطو الى أمام : « انا الذي جرحته ، يا سيدي . ولقد دفعت غالياً ثمن ذلك فجُرِحَتْ مفاصل أصابعي عندما صدمت فمه . اني أنا الذي أوقفته ، يا سيدي . »

ومسّ الفتى قبعته في ابتسامة عريضة ، متوقعاً ان يُثاب على ما بــذل من جهد بمكافاة ما . ولكن السيد العجوز حدجه بنظرة ترشح بالبغض ، ثم أجال بصره في ما حوله بقلق بالغ وكأنه كان يفكر هو الآخر في اطلاق ساقيه للريح، وهو صنيع كان من الجائز جداً أن يكون قد حاول القيام به ، متيحاً للقوم فرصــة التمتع بمطاردة اخرى ، لو لم يتقدم في تلك اللحظة بالذات ضابط شرطة (وهو آخر من يصل ، عادة ، في مثل هذه الاحوال) ويشق طريقه وسط الحشد ، ويأخذ بخناق أوليفر .

وقال هذا الرجل في جلافة : « هيا ، انهض ! »

ـ « لست أنا يا سيدي ... لست أنا يا سيدي ، صدّقني ! صدقني ! انهما غلامان آخران . » قال أوليفر ذلك ، شابكاً يديه في انفعال بالغ ، مجيلا الطرف في ما حوله . « وهما هنا في مكان ما . »

فقال الضابط : « أوه ، لا ، انهما ليسا هنا . » لقد أراد لهذه الملاحظة أن تكون تهكمية ، ولكنها كانت ـ بالاضافة الى هذا ـ صحيحة . ذلك بأن « المراوغ » وتشارلي بايتس كانا قد انسلا هابطين أول فِناء ملائم عَرض لهما . « هيا ، انهض ! »

وقال السيد العجوز ، في حنان : « لا تؤذوه ! »

ـ « اوه ، لا ، أنا لا أؤذيه ! » كذلك أجاب الضابط ، وهو يكاد ينتزع سترته عن ظهره ، اثباتا لكلامه . « هيّا ، أنا أعرفك . هذا لن يفيدك . هل تنوي أن تقف على رجليك ، أيها العفريت الصغير ؟ »

وبذل أوليفر ـ الذي ما كان قادراً على النهوض الا بشق النفس ـ غاية جهده للوقوف على قدميه ، ومن ثم سِيق في الحال ، من طوق سترته ، وفي خطى واسعة ، خلال الشوارع . ومشى السيد الماجد مع القوم ، الى جانــب الضابط . وتقدم الموكب بعض الشيء كلٌ من وُفّق الى ذلك من أفراد الحشد لكي يلتفت للوراء ويحدق الى أوليفر بين حين وآخر . وصاح الصِبْية صيحة الانتصار ، وواصل الموكب زحفه .

١١

وفيه كلام عن مستر فانغ، قاضي التحقيق، ونموذج صغير من طريقته في اقامة العدل

كانت الجريمة قد ارتكِبت ضمن المنطقة التابعة لسلطان قاضي تحقيق لندني سيء السمعة الى حد بعيد ، بل على مقربة مباشرة من ذلك القاضي · ولم يكن الحشد قد استمتع بأكثر من مواكبة أوليفر خلال شارعين أو ثلاثة شوارع ومن الهبوط معه موضعاً يدعى « موتون هيل » عندما أدخِل الغلام المسكين ، تحت قنطرة خفيضة ومروراً بزقاق قذر ، الى مستوصَف العدالة العَجْلى هذا ، من طريق المدخل الخلفي · وانما كان الفِناء الذي انعطفوا نحوه فِناء صغيراً معبّداً ، وهناك وجدوا رجلا ضخماً على جانبَيْ وجهه قبضة من شعر ، وفي يده قبضة من مفاتيح ·

وقال الرجل في لامبالاة : « ما المسألة ؟ »

فأجاب الرجل الذي ألقى القبض على أوليفر : « صيّاد صغير من صيادي المناديل الحريرية · »

وتساءل الرجل ذو المفاتيح : « هل أنت المسروق ، يا سيدي ؟ »

فأجاب السيد العجوز : « نعم · ولكني لست واثقاً من أن هذا الغلام هو الذي أخذ المنديل فعلا · واني ··· واني لأوثر حفظ القضية · »

فأجابه الرجل : « عليه أن يَمْثُل الآن بين يديْ القاضي ، يا سيدي · ان فضيلته سوف يفرغ له بعد نصف دقيقة · هيّا ، أيها الصغير المستحق حبل المشنقة ! »

وكانت هذه دعوة لأوليفر لكي يدخل الى زنزانة مبلّطة من طريق باب أغلقه الرجل وهو يتكلم · وهنا فُتّش · واذ لم يجدوا معه شيئاً فقد عمدوا الى احتجازه ·

كانت هذه الزنزانة أشبه ما تكون ، في شكلها وحجمها ، بقبو من أقبية الافنية المحيطة بالمنازل ، ولكنها أشد منه قتاماً · وكانت قذرة الى حد لا يطاق البتة ، اذ كان ذلك اليوم هو يوم الاثنين ، وكان قد نزلها ستة من السكارى حُبسوا في مكان آخر منذ ليل السبت · ولكن هذا ليس بشيء أيضاً · ففي مخافر شرطتنا يسجن كل ليلة رجال ونساء لأوهي التهم ــ وهذه الكلمة جديرة بالملاحظة ــ في محابس مظلمة تُعتبر زنزانات نيوغايت * ــ التي يحتلها أفظع

* سجن شهير بُني في عهد الملك هنري الأول حوالى عام ١٢٠٧ · ولم يُهدم هذا السجن الا عام ١٩٠٣ . (المعرب)

المجرمين بعد أن يحاكموا و'يدانوا و'يحكم عليهم بالموت ـ اذا قورنت بها قصوراً باذخة ، وليس على من يشك في قولي الا أن يقارن ما بين هذه وتلك ٠

وبدا السيد العجوز مغتماً ، كاغتمام أوليفر تقريباً ، عندما صرّ المفتاح في القفل ٠ وارتدّ متنهداً الى كتابه الذي كان ، من غير أن يحتسب ، سبب هذا البلاء كله ٠

ـ « ان ثمة شيئاً في وجه ذلك الغلام ! » كذلك قال السيد العجوز في ما بينه وبين نفسه وهو يمشي الهُوينا ، 'مربِّتاً على ذقنه بغلاف الكتاب ، بطريقة مستغرقة في التفكير ٠ « شيئاً يعطف فؤادي ويثير اهتمامي ٠ هل يمكن أن يكون بريئاً ؟ انه يبدو كذلك ٠ وبالمناسبة ٠٠٠ » ، وهنا هتف السيد العجوز وقد كفّ عن السير فجأة وأنشأ يحدق الى السماء ، « يا آلهي ! أين رأيت شيئاً مثل هذه الطلعة من قبل ؟ »

وبعد استغراق في التفكير طوال بضع دقائق تقدّم السيد العجوز ، وعلى وجهه تلك السيماء التأملية نفسها ، نحو حجرة انتظار خلفية تطلّ على الفِناء٠ وهناك انتحى زاوية وراح يستحضر أمام عينَيْ عقله جمهرة هائلة من الوجوه التي اسدِل عليها طوال سنوات عديدة ستارٌ من الظلمات ٠ ثم انه قال وهو يهز رأسه : « لا ٠ ليس من ريب في أن ذلك مجرد وهم ٠ »

وطوّف في ما بينها كرة اخرى ٠ كان قد استحضرها في ذاكرته ، ولم يكن من اليسير عليه أن يعاود نشر الغطاء الذي حجبها طوال تلك المدة كلها ، كانت ثمة وجوه أصدقاء ، وأعداء ، وكثيرين ممن كانوا أغراباً ، تقريباً ، فهم يبرزون من بين الحشد على نحو متطفل ٠ وكانت ثمة وجوه فتيات طريَّات العود ناضرات أمسين الآن نسوة عجائز٠ ووجوه غيَّرها القبر وأطبق عليها ولكن العقل ـ وهو أشدّ من القبر قوة ـ كان لا يزال يضفي عليها نَضْرتها وجمالها القديمين ، باعثاً التماع العينين ، وبهاء الابتسامة ، واشراق الروح عبر قناعها الصلصالي ، مغمغماً أنها جميلة وراء القبر ، وأنها لم تتغيَّر الا لتترفع و'يسمَى بها ، ولم 'تنتَزع من الأرض الا لتُجْعل مصابيح تسفح ضياء رقيقاً لطيفاً على السبيل المؤدية الى الجنة ٠

ولكن السيد العجوز لم يستطع أن يستحضر وجهاً واحداً تحمل أسارير أوليفر أيَّ أثر منه ٠ وهكذا تنهَّد متحسراً على الذكريات التي كان قد أيقظها ٠ واذ كان ـ لحسن طالعه ـ سيداً عجوزاً كثير الذهول فقد عاود دفن تلك الذكريات في صفحات الكتاب العفِن ٠

وأيقظته من استغراقه في التلاوة يدٌ مسَّت كتفه ، ودعوة من الرجل ذي المفاتيح تطلب اليه ان يتبعه الى المكتب ٠ فسارع الى طيّ كتابه ليَمْثُل على التوّ في حضرة مستر فانغ المهيبة ٠

كان المكتب قاعة أمامية ذات جدار مكسوٍّ بألواح خشبية . وكان مستر فانغ جالساً في أقصى القاعة الأعلى ، خلف حاجز خشبي . وعند جانب من الباب قام ضربٌ من الزريبة الخشبية كان أوليفر المسكين قد أوقِف فيها ، وقد أوقع هول المشهد في أوصاله رعدة مزلزلة .

كان مستر فانغ رجلا مهزولا ، متطاول الصدر ، متصلب العنق ، متوسط القامة ، خفيف الشعر . وكان ما يملكه من هذا الشعر نامياً على مؤخرة رأسه وجانبيه . أما وجهه فكان صارماً شديد التورّد . ولو لم يكن قد تعوّد ، فعلا ، أن يحتسي من الخمر أكثر بعض الشيء مما كان مناسباً له ، اذن لكان خليقاً به أن يقيم دعوى على محيّاه بتهمة التجديف ، واذن لعوّض عن كثير من الخسائر الباهظة .

وانحنى السيد العجوز في احترام ، وتقدم نحو منضدة قاضي التحقيق ، قائلا وهو يُتبع الكلام بالعمل : « هوذا اسمي وعنواني ، يا سيدي . » ثم انه ارتدّ خطوة أو خطوتين الى الوراء ، وحنى رأسه كرة اخرى في كياسة وتأدب ، وانتظر ريثما يُستجوب .

واتفق ان كان مستر فانغ يطالع في تلك اللحظة ، بكثير من الاهتمام ، مقالة افتتاحية في احدى صحف الصباح تعلّق على أحد أحكامه الأخيرة ، وتطري فضائله لافتة اليها ، للمرة الخمسين بعد الثلاثمئة ، أنظار وزير الداخلية وعنايته الخصوصية . كانت أعصابه متوترة ، ولقد رفع رأسه ملقياً على الرجل نظرةً غضبى .

وقال مستر فانغ : « من أنت ؟ »

فأشار السيد العجوز ، في شيء من الدهش ، الى بطاقته الشخصية .

فقال مستر فانغ ، قاذفاً بالبطاقة وبالجريدة معاً في ازدراء : « أيها الضابط ! مَنْ هذا الرجل ؟ »

فقال الرجل العجوز ، متحدثاً كما يتحدث الرجل الفاضل : « ان اسمي ، يا سيدي ، هو براونلو . فاسمح لي أن اسأل عن اسم القاضي الذي يوجّه ، من غير ما استفزاز مسوّغ ، وتحت راية القضاء وحمايته ، اهانة الى مواطن محترم ؟ » قال مستر براونلو ذلك واجال طرفه في المكتب وكأنه يبحث عن شخص يستطيع أن يجيبه عن سؤاله .

فقال مستر فانغ وهو ينحّي الجريدة جانباً : « أيها الضابط ! ما التهمة الموجهة الى هذا الرجل ؟ »

فأجابه الضابط : « انه غير متهم بشيء البتة ، يا صاحب الفضيلة . لقد اقبل ليدّعي على الغلام ، يا صاحب الفضيلة . »

كان صاحب الفضيلة يعرف ذلك أحسن المعرفة ، ولكنّ سؤاله ذاك كان

ينطوي على مضايقة صالحة ٠٠٠ ومأمونة أيضاً ٠ »

ـ « أقبل ليدعي على الغلام ، أليس هذا صحيحاً ؟ » كذلك قال فانغ وهو يستعرض مستر براونلو ، في ازدراء ، من قمة الرأس الى أخمص القدم ٠ « حلّفوه اليمين ! »

فقال مستر براونلو : « قبل أن أحلّف اليمين أرجو أن تأذن لي في كلمة أقولها ٠ وهي أنه ما كان في طوقي ان أصدّق البتة ، لو لم اختبر ذلك فعلياً ٠٠٠ »

فقاطعه مستر فانغ قائلا في لهجة حاسمة : « اعْقِل لسانك ! »

فأجابه السيد العجوز : « أنا لن أفعل ، يا سيدي ٠ »

فقال مستر فانغ : « اعقِلْ لسانك في هذه اللحظة ، والا طردتك من المكتب ٠ أنت شخص وقحٌ سليط ٠ كيف تجرؤ على تهديد قاض من القضاة ؟ »

فصاح السيد العجوز والدم يشيع في وجهه : « ماذا ؟! »

فقال مستر فانغ للكاتب : « حلّف هذا الشخص اليمين ٠ أنا لن أسمع أية كلمة اخرى ٠ حلّفه اليمين ٠ »

كان حنق مستر براونلو قد استثير استثارة بالغة ٠ ولكنه فكر في أغلب الظن أن اطلاقه العنان لحنقه هذا قد لا يفضي الا الى ايذاء الغلام والاضرار به ، فعمد الى كبت مشاعره وارتضى أن يُحلَّف اليمين في الحال ٠

وقال فانغ : « والآن ، ما التهمة الموجهة الى هذا الغلام ؟ ما الذي تريد أن تقوله ، يا سيدي ؟ »

فاستهل مستر براونلو كلامه قائلا : « كنت واقفاً عند كشك من أكشاك بيع الكتب ٠٠٠ »

فقال مستر فانغ : « اعقل لسانك ، يا سيدي ! ايها الشرطي ! أين الشرطي ؟ هيّا ، حلّفوا هذا الشرطي اليمين ٠ والآن ، أيها الشرطي ، ما المسألة ؟ »

وفي ضعة لائقة روى الشرطي كيف ألقى القبض على المتهم ، وكيف فتش أوليفر ، فلم يعثر لديه على شيء ، وأضاف قائلا ان هذا كان كل ما عرفه عن هذه المسألة ٠

فسأله مستر فانغ : « هل ثمة شهود ؟ »

فأجاب الشرطي : « لا ، ليس ثمة شاهد واحد ، يا صاحب الفضيلة ٠ »

واعتصم مستر فانغ بالصمت بضع دقائق ، ثم التفت الى المدعي وقال في غضب بلغ قمة الاحتدام : « أتعتزم أن تصرّح بشكواك ضد هذا الغلام ، أيها الرجل ، أم لا تعتزم ؟ لقد حُلّفت اليمين ٠ فاذا بقيت واقفاً هناك ، رافضاً أن تقدّم البيّنة ، فسأعاقبك بتهمة تحقير المحكمة ٠ أجل ، سوف أفعل ،

وحقّ ٠٠٠ »

بحق ماذا ، أو بحق منْ ، لا أحد يدري ٠٠ ذلك بأن الكاتب والسجان سعلا ، في اللحظة المناسبة تماماً ، سعالا عالياً جداً ٠ وسقط من يد الأول ، على الارض ، كتاب ثقيل ، وبذلك حال دون بلوغ تلك الكلمة آذان القوم ـ وهو أمرٌ لم يحدث الا مصادفة ، طبعاً ٠

وفي غمرة من المقاطعات الكثيرة والاهانات المتكررة حاول مستر براونلو أن يبسط قضيته ، معلناً انه ، تحت وطأة المفاجأة ، عدا في اثر الغلام لانه رآه يولي فراراً ، معبراً عن رجائه ـ اذا ما اضطُرّ القاضي الى اعتباره ، برغم انه ليس اللص الحقيقي ، شريكاً لبعض اللصوص ـ أن يعامله بأقصى قدْر من الرفق تجيزه العدالة ٠

وقال السيد العجوز في الختام : « لقد جُرِح خلال المطاردة » ثم أضاف ، في عزم شديد ، ناظراً نحو الحاجز الخشبي : « وأخشى ، في الواقع ، أن يكون مريضاً ٠ »

فقال مستر فانغ ساخراً : « أوه ، نعم ، يخيل اليّ ذلك ! هيا ، حذار أن تلجأ الى أيّ من حِيلك ، هنا ، أيها المتشرد الصغير ٠ فهي لن تفيدك ٠ ما اسمك ؟ »

وحاول أوليفر أن يجيب ، ولكن لسانه خذله ٠ كان شاحباً شحوب الموتى، ولقد بدا المكان كله ، في ناظريه ، وكأنه يدور ويدور ٠

فسأله مستر فانغ : « ما اسمك ، أيها الوغد المتحجر الفؤاد ؟ أيها الضابط ، ما اسمه ؟ »

وانما وُجِّه هذا السؤال الى عجوز جافي الطبع ـ ولكنه طيب القلب ـ ذي صدرة مخططة كان واقفاً على مقربة من الحاجز ، فمال على أوليفر ، وكرّر السؤال ٠ ولكنه لاحظ ان الغلام كان عاجزاً ، فعلا ، عن فهم السؤال ، واذ كان يعلم أن الاحجام عن الاجابة لن يزيد حنق القاضي الا احتداماً ولن يفضي الا الى جعل حكمه أشدّ صرامة وقسوة فقد غامر بجواب مبنيٍّ على مجرد الحدس :

ـ « هو يقول ان اسمه توم هوايت ، يا صاحب الفضيلة ، » كذلك قال صائد اللصوص ، الطيب القلب ، هذا ٠

فقال فانغ : « انه يأبى أن يتكلم ، أليس كذلك ؟ حسن جداً ، حسن جداً ٠ أين يقطن ؟ »

فأجابه الضابط متظاهراً كرة اخرى بأنه يتلقّى جواب أوليفر : « حيث يجد مأوى ٠ »

فسأله مستر فانغ : « أله أبوان ؟ »

فقال الضابط ، مغامراً باعطاء الجواب التقليدي : « هو يقول انهما ماتا

وهو بعدُ طفل · »

وعند هذه المرحلة من الاستجواب رفع أوليفر رأسه · وفيما هو يجيل عينيه المتوسلتين في ما حوله ، غمغم متضرعاً أن يأتوه بجرعة ماء ·

فقال مستر فانغ : « هراء ! لا تحاول أن تخدعني · »

فاعترض الضابط قائلا : « أعتقد أنه مريض حقاً ، يا صاحب الفضيلة · »

فقال مستر فانغ : « أنا أعقل من أن أصدق ذلك · »

عندئذ قال السيد العجوز ، رافعاً يديه على نحو غَرَزيّ : « اعتنِ به ، أيها الضابط · انه سوف يقع مغشياً عليه · »

فصاح فانغ : « تنحّ جانباً ، أيها الضابط · دعه يقع ، اذا كان ذلك يسرّه · »

وأفاد أوليفر من الاذن الكريم ، وخرّ على الارض مغشياً عليه · وتبادل موظفو المكتب النظرات ، ولكن أحداً لم يجرؤ على الحركة ·

ــ « لقد عرفت أنه كان يحاول خداعي ، » وكأن غيبة الغلام عن الوعي كانت برهاناً على هذه الحقيقة لا يقبل الجدل · « دعوه منطرحاً هناك · فلن يلبث حتى يملّ ذلك · »

فسأله الكاتب في صوت خفيض : « كيف تعتزم أن تنظر في هذه الدعوى ، يا سيدي ؟ »

فأجاب مستر فانغ : « على وجه الاستعجال · اني احكم عليه بالسجن ثلاثة شهور ··· مع الاشغال الشاقة طبعاً · أخلوا القاعة · »

وفُتح الباب لهذا الغرض · واستعد رجلان لنقل الغلام المغشيّ عليه الى زنزانته ، عندما اندفع الى المكتب رجل كهل ذو مظهر لائق ولكنه فقير ، تكسو جسده بذلة عتيقة سوداء ، وتقدم نحو القاضي ·

ــ « على رِسلكم ! على رسلكم ! لا تقودوه الى السجن ! تمهلوا لحظة واحدة ، اكراماً لله ! » كذلك صاح الوافد الجديد وهو يلهث من العجلة ·

وعلى الرغم من أن العباقرة المترئسين أمثال هذه القاعات يتمتعون بسلطان متعجّل واعتباطي على حريات رعايا صاحبة الجلالة ، وبخاصة اذا كانوا من أبناء الطبقة الاشد فقراً ، وعلى سمعتهم ، وصيتهم ، بل وعلى أرواحهم تقريباً ·· وعلى الرغم من ان المآسي الغريبة التي تمثّل كل يوم ، ضمن هذه الجدران ، كافية لأن تبكي الملائكة حتى يُكَفّ منها البصر ، فأن تلك القاعات موصدة في وجه الجمهور فهو لا يطّلع عليها الا من طريق الصحافة اليومية · ومن هنا فان السخط الذي استبد بمستر فانغ لم يكن باليسير عندما رأى مثل هذا الزائر الواغل يدخل القاعة على تلك الصورة اللانظامية الوقحة ·

وصاح مستر فانغ : « ما هذا ؟ من هذا ؟ اطردوا هذا الرجل ! أخلُوا

القاعة ! »

فصاح الرجل : « اني أريد أن أتكلم · أنا ارفض ان أطرد · لقد رأيت كلّ ما حدث · أنا أملاك كشك الكتب · أنا اطلب ان احلّف اليمين · ولن أرضى أن أكْره على الصمت · مستر فانغ ، ان عليك أن تسمع الى أقوالي · يتعيّن عليك أن لا ترفض ، يا سيدي · »

كان الرجل على حق ، وكانت امارات وجهه تنطق بالعزم والتصميم ، وكانت المسألة قد أخذت سبيلها الى ان تصبح أخطر من أن تُخْنق ·

فقال مستر فانغ ، على كُره منه شديد : « حلّفوا الرجل · والآن ، أيها الرجل ، بأيّ شيء تريد أن تدلي ؟ »

فقال الرجل : « بهذا : لقد رأيت ثلاثة غلمان ، الغلام المعتقل هنا واثنين آخرين ، يتسكعون على الجانب المقابل من الطريق ، عندما كان هذا السيد يقرأ · ان الذي ارتكب السرقة هو غلام آخر · لقد شهدتها وهي تُرتكب · ورأيت أن هذا الغلام ، الذي اعتقلتموه ، أصابه الذهول والانشداه عند حدوثها · » وهنا كان الكتبيّ الفاضل استردّ أنفاسه بعض الشيء ، فاسترسل في الكلام راوياً ، على نحو أكثر تماسكاً ووضوحاً ، ملابسات السرقة وظروفها الدقيقة ·

وقال مستر فانغ ، بعد صمت : « لماذا لم تأت الي هنا من قبل ؟ »

فأجاب الرجل : « لم أجدْ شخصاً واحداً أكِل اليه حراسة الكشك في غيابي · كان جميع القادرين على معاونتي قد شاركوا في عملية المطاردة · ولقد وفقت الى العثور على شخص ، منذ دقائق خمس ليس غير ، وعندئذ رحت أعدو الى هنا طول الطريق · »

فسأله مستر فانغ ، بعد فترة صمت أخرى : « لقد كان المدعي يقرأ ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب الرجل : « نعم · كان يقرأ هذا الكتاب عينه الذي يحمله الآن في يده · »

فقال فانغ : « أوه ، ذلك الكتاب ، أليس كذلك ؟ هل دفع ثمنه ؟ »

فأجابه الرجل ، في ابتسامة : « لا · لم يدفع ثمنه · »

فهتف الرجل العجوز الشارد الذهن ، في براءة : « يا آلهي · لقد نسيت ذلك بالكلية »

فقال فانغ ، وهو يبذل جهداً مضحكاً للظهور بمظهر الرجل الرؤوف : « شخص مؤهل تماماً للادعاء ضد غلام مسكين ! أنا اعتبر ، يا سيدي ، أنك أحرزت ذلك الكتاب في ظروف مريبة جداً ، شائنة جداً · وفي استطاعتك أن تعدّ نفسك جدّ محظوظ لاحجام صاحب السلعة عن الادّعاء عليك · فليكن هذا

دربساً لك ، أيها الرجل ، والا أدركك القانون يوماً · أطلقوا سراح الغلام ، وأخلوا القاعة ! »

فصاح السيد العجوز منفجراً بالغيظ الذي كان قد كبته طويلا : « لعنني الله ··· لعنني الله ، اذا لم ··· »

فقال القاضي : « أخلوا القاعة ! أيها الضباط ، هل تسمعون ؟ أخلوا القاعة ! »

وامتثلوا أمره · واقتيد مستر براونلو ، الساخط ، الى الخارج ، والكتاب في احدى يديه والعصا الخيزرانية في الاخرى ، وقد استبدت به سَوْرة من الغيظ والتحدي مسعورة · فلم يكد يبلغ فناء الدار حتى تلاشى غضبه في لحظة واحدة · كان أوليفر تويست الصغير منطرحاً على ظهره فوق الرصيف ، وقميصه غير مزرر ، وصدغاه سابحان في الماء · كان وجهه شاحباً شحوب الموت ، وكانت رعدة باردة تشنج جسده كله ·

فقال مستر براونلو ، وهو ينحني فوقه : « يا للغلام المسكين ! يا للغلام المسكين ! فليدعُ امرؤ عربة ما ، أرجوكم ، عجلوا ! »

وجيء بأحدى العربات · حتى اذا نُقِل اوليفر في عناية الى أحد مقعديها ، امتطى السيد العجوز متنها واحتل المقعد الآخر ·

وقال الكتبي وهو يقحم رأسه داخل العربة : « هل تأذن لي في مرافقتك؟»

فأجابه مستر براونلو في حرارة : « يا آلهي ، طبعاً ، طبعاً ، يا سيدي العزيز · لقد نسيتك · يا آلهي ! يا آلهي ! ان هذا الكتاب لا يزال في يدي ! اصعد بسرعة ! يا للغلام المسكين ! ليس لدينا وقت نضيعه · »

وامتطى الكتبي متن العربة ، فانطلقت بهم جميعاً ·

١٢

وفيه يحظى أوليفر بعناية لم يحظ بمثلها من قبل، وترتد القصة الى السيد العجوز المرح وأصدقائه الاحداث

ومضت العربة ، مجلجلة ، جارية فوق الطريق نفسها ، تقريباً ، التي كان أوليفر قد اجتازها عندما دخل لندن اول ما دخلها برفقة « المراوغ » · وبعد ان اتخذت سبيلا اخرى عندما بلغت ال « آينجل » عند آيلينغتون وقفت آخر الأمر أمام منزل أنيق قائم في شارع هادىء ظليل قرب بينتونفيل · وهنا أعِدَّ ، على جناح السرعة، سريرٌ مُدّد عليه أوليفر ، في عناية ورِقة، فاطمأنت نفس مستر

براونلو لسلامة وديعته الصغيرة . وهنا نعِم أوليفر بعطف وحنان لم يعرفا أيّ حد .

ولكن الغلام ظل ، طوال أيام عديدة ، غير واع شيئاً من طيبة اصدقائه الجدد واحسانهم . وبزغت الشمس وغربت ، ثم بزغت الشمس وغربت ، ودأبتْ على هذا مرات عديدة ، بعد ذلك ، والغلام لا يزال طريح فراشه ، قلقاً ، متضائلا تحت نار الحمّي المضنِية المصوّحة . ان الدودة لا تفعل فعلها في الرمة البالية بأكثر يقينيّة من تلك التي تفعل بها هذه النار البطيئة فعلها في الجسم الحيّ الذي تدبّ اليه .

وأخيراً أفاق ، واهناً هزيلا شاحباً ، مما بدا وكأنه حلم طويل مضطرب . واذ رفع نفسه في الفراش بعجز ، مسنداً رأسه الى ذراعه المرتجفة ، راح يجيل في ما حوله طرْفاً كئيباً قلقاً ، وقال :

ــ « ما هذه الغرفة ؟ الى أين اقتادوني ؟ هذا ليس هو المكان الذي كنت نائماً فيه . »

لقد نطق بهذه الكلمات في صوت واهن ، بسبب من الخور والضعف البالغين اللذين هدّا قواه . ومع ذلك فقد سُمِعت في الحال . وسرعان ما أزيحت الستارة القائمة عند رأس السرير ، واذا بسيدة عجوز حنون مرتدية ملابس محتشمة بالغة النظافة تنهض ــ فيما هي تزيحها ــ عن كرسي مجاور ذي ذراعين كانت مستوية عليه مستغرقة في شغل الابرة .

وقالت السيدة العجوز في رقة : « صه ، يا عزيزي . يتعين عليك أن تخلد الى السكينة ، والا عاودك المرض من جديد . ولقد كانت وطأة المرض شديدة عليك ... بل كانت على أشدّ ما يمكن لها أن تكون ، تقريباً . استلق في الفراش كرة اخرى ، أيها العزيز ! » قالت السيدة العجوز ذلك ووضعت رأس أوليفر ، في كثير من التلطّف ، على الوسادة . ثم انها أمرّت يدها على شعره ورفعته عن جبينه ، ونظرت الى وجهه في حنان ومحبة بالغين لم يتمالك معهما من وضع يده الصغيرة الذابلة في يدها ، وشدها الى عنقه .

وقالت السيدة العجوز والدموع تترقرق في عينيها : « يا آلهي ! يا له من غلام عزيز معترف بالجميل ! يا له من مخلوق وسيم ! أي شعور كان خليقاً به أن يراود أمه لو كانت تجلس الى جانبه كما أجلس ولو استطاعت ان تراه الآن ؟ »

فهمس أوليفر ، طاوياً ذراعيه معاً : « لعلها تراني . لعلها كانت جالسة قربي . أنا استشعر ، أو أكاد ، وكأنها كانت جالسة بقربي . »

فقالت السيدة العجوز في رفق : « لقد كان ذلك من اثر الحمي . »

فاجاب أوليفر : « هذا صحيح ، لأن الجنة نائية جداً ، والناس هناك أسعد من أن يهبطوا للقعود قرب سرير غلام بائس • ولكنها لو عرفت أني مريض اذن لأشفقت عليّ ، من غير ريب ، حتى هناك في الجنة ؛ ذلك أنها كانت هي نفسها مريضة جداً قبل أن تموت • وعلى أية حال ، فأنها لا تستطيع أن تعرف أيّ شيء عني • » وصمت أوليفر لحظة ثم اضاف : « لو رأتني أعذَّب وأُجرح اذن لأحزنها ذلك • ولقد بدا وجهها ، دائماً ، عذباً وسعيداً ، عندما رأيتها في المنام • »

ولم تجب السيدة العجوز بشيء • ولكنها مسحت عينيها أولا ، ونظارتيها الموضوعتين على اللحاف ثانياً ، وكأنهما كانتا جزءاً لا يتجزأ من تينك العينين ، ثم حملت الى أوليفر شراباً بارداً • وبعد ذلك ربتت على خده وقالت له ان عليه أن يعتصم بالسكينة المطلقة والا ألمّ به الداء من جديد •

وهكذا التزم أوليفر الهدوء الكامل ، أولا لأنه كان حريصاً على اطاعة السيدة العجوز الشفوق ، في كل شيء ، وثانياً – اذا أردنا أن نقول الحقيقة – لأن الكلمات التي سبق له أن فاه بها كانت قد أنهكته انهاكاً كلياً • وسرعان ما أخذته سِنَة من النوم أيقظه منها ضياء شمعة • وحين أُدْنِي الضياء الى السرير أبدي لناظريه وجه رجل يحمل في يده ساعة ذهبية ذات ضخامة بالغة وتكّات قوية •• رجل كان يجسّ نبضه ويقول انه أحسن جداً من ذي قبل •

وقال الرجل : « أنت أحسن مما كنت بكثير ، أليس كذلك يا عزيزي ؟ »

فأجابه أوليفر : « نعم ، أشكرك يا سيدي • »

فقال السيد : « أجل ، أنا أعرف ذلك • أنت جائع أيضاً ، ألست جائعاً ؟ »

فأجابه أوليفر : « لا ، يا سيدي • »

فقال السيد : « همْمْ ! لا ، أنا أعرف انك غير جائع • » ثم أضاف وهو يتخذ سيماء تنمّ عن حكمة بالغة : « انه غير جائع ، يا مسز بيدوين • »

فحنت السيّدة العجوز رأسها انحناءة احترام بدت وكأنها تقول انها تعتبر الطبيب رجلا عظيم البراعة • وبدا الطبيب وكأنه يشاركها الرأي نفسه مشاركة قوية •

وقال الطبيب : « أنت نعسان ، أليس كذلك يا عزيزي ؟ »

فأجابه أوليفر : « لا ، يا سيدي • »

فقال الطبيب في سيماء ثاقبة جداً ، راضية جداً : « أنت لست نعسان • ولست ظمآن أيضاً ، هل انت ظمآن ؟ »

فأجابه أوليفر : « نعم ، يا سيدي ، ظمآن بعض الشيء • »

فقال الطبيب : « كما توقعت ، تماماً ، يا مسز بيدوين • من الطبيعي جداً

(٦)

أن يكون طمآن . في استطاعتك أن تقدّمي اليه قليلا من الشاي ، يا سيدتي ، وبعض الخبز المحمّص من غير زبدة . لا تدفّئيه أكثر مما ينبغي يا سيدتي ، ولكن حاذري أن تدعيه يبرد أكثر مما ينبغي . هل تتلطفين بذلك ؟ »

فانحنت السيدة العجوز علامة الطاعة . وبعد أن تذوّق الطبيب الشراب البارد وعبّر عن موافقته عليه في تحفظ ، سارع الى مغادرة الحجرة : كان حذاؤه ذو العنق العالي يَصِرّ ، على نحو يؤذن بالعظمة والثراء ، فيما كان يهبط السلم .

وسرعان ما استسلم أوليفر ، بعد هذا ، لسِنة من النوم أخرى . حتى اذا استيقظ كانت الساعة قد أمست الثانية عشرة تقريباً . وبعيد ذلك تمنّت له السيدة العجوز ، في حنان ، ليلة طيبة ، وتركته في عهدة امرأة عجوز بدينة كانت قد أقبلت منذ لحظة حاملة معها ، في صُرّة صغيرة ، « كتاب صلاة » صغيراً وقلنسوة نوم ضخمة . حتى اذا وضعتِ الاخيرة على رأسها والأوّل على الطاولة ، وحتى اذا أنبأت أوليفر أنها أقبلت لتسهر على راحته أدْنَتِ المرأة البدينة كرسيها الى المستوقد واستغرقت في سلسلة من سِنات النوم القصيرة تخلّلتها في فترات متواترة أشتاتٌ من كبوات الرأس وضروبٌ من الزفرات والغُصَص . بيد ان هذه كلها لم تُحدِث من الآثار السيئة ما هو أبعد من حملها على حكّ أنفها في شدة ثم الاستغراق في النوم من جديد .

وهكذا تقضّى الليل وئيداً وئيداً . واستيقظ أوليفر فترة ما ، وراح يحصي حلقات الضوء الصغيرة التي ألقتها ظُلّة الشمع المغموس في الدهن على سقف الحجرة ، أو يتتبّع بعينيه الواهنتين أشكال ورق الجدار البالغة التعقيد . كانت الظلمة وسكون الحجرة العميق موحشين جداً . وإذْ اوقعتا في نفسه ان الموت كان يخيّم هناك ، منذ أيام وليال ، وأنه قد يملأ الحجرة ، بعدُ ، بظلمات وأهوال وجوده الرهيب ، فقد قلب وجهه على الوسادة وتضرّع للسماء بصلاة متقـدة .

وشيئاً بعد شيء استسلم لذلك النوم العميق الهادىء الذي لا يتيحه غير التحرر من عذاب قريب العهد ... لتلك الراحة الوادعة الآمنة التي يوجِـع المرء أن يُنتَزع منها . ومن الذي يتمنى ، اذا كان هذا هو الموت ، أن يوقـظ منه كرة اخرى ليواجه كل مجاهَدات الحياة واضطراباتها ، كل هموم الحاضر وقلق المستقبل ، بل ليواجه فوق هذا كله ذكريات الماضي المضنية ؟!

وكان الضحى قد ارتفع منذ ساعات عندما فتح أوليفر عينيه . لقـد استشعرَ أنه مبتهج سعيد : كان قد تخطى مرحلة المرض الحرجة في سلام ، وكان قد انقلب الى عالم الأحياء كرة اخرى .

ولم تنقض ثلاثة أيام حتى أمسى في ميسوره الجلوس على كرسي وثـير

مزوّد بالوسائد • واذ كان لا يزال أضعف من أن يمشي على قدميه فقد أصدرت مسز بيدوين أمرها بحمله والهبوط به الى حجرة مدبّرة المنزل ، وكانت حجرة صغيرة خاصة بها هي • حتى اذا أجلسته، العجوز الطيبة ، هنا ، على مقربة من نار المستوقد اتخذت هي لنفسها مكاناً على مقربة منها أيضاً • واذ أبهج نفسها أعظم الأبهاج أن تراه على مثل هذه الحال من التحسّن البالغ فقد انخرطت في بكاء مؤثر عنيف •

وقالت السيدة العجوز : « لا تقلق علي ، يا عزيزي • اني أسفح هذه العبرات لفرط سروري بك • انظر ، لقد انتهى كل شيء ، وها أنت تراني في أحسن حال • »

فقال أوليفر : « أنت تغمرينني بالعطف ، يا سيدتي • »

فقالت السيدة العجوز : « حسناً ، دع عنك هذا ، يا عزيزي • فليس لهذا أية علاقة بحسائك • ولقد آن لك أن تفوز به • ذلك بأن الطبيب أجاز لمستر براونلو آن يراك هذا الصباح ، وان علينا ان نبذل قصارى جهدنا للظهور بمظهر البهجة ، اذ كلما بدت على وجهَيْنا علائم البِشْر كان ذلك أدعى الى اغتباطه • » قالت السيدة العجوز هذا وشغلت نفسها بتسخين طبق مليء بالحساء ••• الحساء المركّز ، في ما خيّل لأوليفر ، الى درجة تكفي ، لو خفّفت الى النسبة النظامية ، لتمكين ذلك الغذاء من اقاتة ثلاثمئة وخمسين فقيراً على أقل تقدير •

ـ « هل أنت مولع بالصور الزيتية ، يا عزيزي ؟ » كذلك سألته السيدة العجوز عندما ركّز عينيه ، في كثير من الانتباه ، على لوحة زيتية معلقة على الجدار ، تجله كرسيه مباشرة •

فقال أوليفر من غير أن يصرف عينيه عن اللوحة : « لست أدري على وجه الضبط ، يا سيدتي • ان عدد الصور الزيتية التي رأيتها حتى الآن قليل الى درجة تجعلني لا أكاد أدري • ما أجمل وجه هذه السيدة وأعذبه ! »

فقالت السيدة العجوز : « آه ، ان الرسامين يعمدون دائماً الى ابراز السيدات على نحو أجمل من حقيقتهن ، والا لما طرق أبوابهم أيّ زبون من الزبائن ، أيها الطفل • لعل الرجل الذي اخترع الآلة المسجلة للصور* قد عرف أن اختراعه لن ينجح أبداً ، فهو صادق أكثر مما ينبغي بكثير ، بكثير • » كذلك كررت السيدة العجوز وهي تضحك من صميم قلبها لما تكشّفت عنه من نفاذ بصر •

فقال أوليفر : « هل ••• هل هذه صورة زيتية ، يا سيدتي ؟ »

فأجابت السيدة العجوز رافعة بصرها ، لحظة ، عن المرق : « نعم ، هذه

* اشارة الى التصوير الفوتوغرافي في أول مراحله • (المعرب)

صورة زيتية • »

فسألها أوليفر : « صورة من ، يا سيدتي ؟ »

فأجابت السيدة العجوز في بشاشة : « الواقع ، يا عزيزي ، اني لا أدري • انها ليست صورة أيما شخص تعرفه أنت أو أعرفه أنا ، في ما يخيل الي • يبدو لي انها قد أعجبتك كثيراً ، يا عزيزي • »

فقال أوليفر : « انها جميلة جداً • »

– « ولكن ، هل أنت واثق من انك غير خائف منها ؟ » كذلك قالت السيدة العجوز وقد لاحظت ، في كثير من الدهش ، نظرة الرعب التي كان يتأمل بها تلك اللوحة •

فسارع أوليفر الي القول : « أوه ، لا ، لا • ولكن عينيها محزونتان جداً في ما يبدو • حيث أجلس ، يخيَّل اليَّ أنهما مركَّزتان عليَّ • وصمت لحظة ثم أضاف في صوت خفيض : « انها تريد ضربات قلبي ، وكأنها على قيد الحياة •• ، وكأنها تريد أن تتحدث اليَّ ولكنها لا تستطيع • »

فهتفت السيدة العجوز مجفلة : « نجِّنا يا رب ! لا تتكلم على هذا النحو ، يا صغيري • لقد خرجت من مرضك ضعيفاً متوتر الأعصاب • دعني أدير كرسيك الى الجهة الأخرى ، وعندئذ لا تقع عيناك عليها • » وأتبعت السيدة العجوز القول بالعمل ثم أضافت : « لقد أصبحت ، الآن ، لا تراها على أية حال • »

ومع ذلك فقد رآها أوليفر بعين عقله وكأنه لم يغيِّر وضعه البتة • ولكنه اعتقد أن من الخير له أن لا يقلق بال العجوز الكريمة ، وهكذا ابتسم في لطف عندما نظرتْ اليه • حتى اذا اقتنعت مسز بيدوين بأنه استشعر قدراً من الطمأنينة أعظم ، انشأت تملِّح وتكسِّر الخبز المحمص قطعاً صغيرة وتلقيها في الحساء ، مُحْدثة أقصى الجلبة اللائقة بمثل هذا الاستعداد الجليل • وأتى أوليفر على طعامه في سرعة استثنائية • ولم يكد يزدرد الملعقة الاخيرة حتي قُرع الباب قرعاً رفيقاً • فقالت السيدة العجوز : « تفضل ! » فدخل مستر براونلو الحجرة •

وتقدم السيد العجوز بكامل الحيوية الجديرة به ، ولم يكد يرفع نظارتيه على جبينه ويقحم يديه خلف ذيل مبذله* ليلقي نظرة طويلة على أوليفر ، حتى اعترت محيَّاه صنوف كثيرة من الالتواءات الغريبة • لقد بدا أوليفر موهن القوى شديد الهزال من اثر المرض وقام بمحاولة مخفقة للوقوف ، احتراماً للسيد الذي أحسن اليه ، انتهت الى ارتمائه في كرسيه كرة أخرى • والواقع ، اذا تعيَّن علينا أن نقول الحقيقة كاملة ، ان فؤاد مستر براونلو ، وهو الفؤاد الكبير الذي يعدل

* المبذل : الروب دو شامبر •

قلوب ستة رجال عجائز عاديين انسانيي النزعة ، دفع الى عينيه مقداراً ضخما من الدموع بواسطة عملية هيدرولوجية *· ليس لنا من الكفاءة الفلسفية ما يؤهلنا لشرحها ·

وقال مستر براونلو وهو يتنحنح : « يا لك من غلام مسكين ! يا لك من غلام مسكين ! أنا مبحوح بعض الشيء هذا الصباح ، يا مسز بيدوين ، يخيَّل اليّ أني أصبت بزكام · »

فقالت مسز بيدوين : « أرجو أن لا يكون الأمر كذلك ، يا سيدي · لقد جُفِّفت اشياؤك كلها تجفيفاً حسناً ، يا سيدي · »

فقال مستر براونلو : « لست أدري ، يا بيدوين ، لست أدري · أنا أميل الى الاعتقاد بأن فوطة السفرة التي قدّمت اليّ أمس ، عند الغداء ، كانت رطبة ، ولكن لا بأس · كيف أنت الآن ، يا عزيزي ؟ »

فأجابه أوليفر : « أنا جد سعيد ، يا سيـــدي ، وجــدّ شاكر لك ، يا سيدي ، على ما أظهرته نحوي من عطف وحنان · »

فقال مستر براونلو في حزم : « أنت غلام طيب · هل قدّمت اليه أيُّ غذاء ، يا بيدوين ؟ بعض المرق ، في ما أظن ؟ »

فأجابت مسز بيدوين : « لقد التهم منذ لحظة طبقاً من الحساء المركـــز الممتاز ، يا سيدي» قالت ذلك متصدّرة بعض الشيء ، واضعة على الكلمة الاخيرة توكيداً قوياً لكي تُشعر مستر براونلو انه ليس بين المرق وبين الحساء الحسن التركيز أيما نسب أو علاقة مهما تكن ·

فقال مستر براونلو في رعدة طفيفة : « أوه ! لو أعطيته كأسين من خمر « بورت » لعاد ذلك عليه بفائدة أعظم بكثير · أليس كذلك ، يا توم هوايت ؟ »

فأجاب المريض الصغير وقد ارتسمت على وجهه امارات دهش عظيم : « ان اسمي هو أوليفر ، يا سيدي · »

فقال مستر براونلو : « أوليفر ــ أوليفر ماذا ؟ أوليفر هوايت ، أليس كذلك ؟ »

ــ « لا ، يا سيدي ، تويست · أوليفر تويست · »

فقال السيد العجوز : « اسم عجيب ؟ ما الذي جعلك تقول للقاضي ان اسمك هو هوايت ؟ »

فأجاب أوليفر في انشداه : « أنا لم أقل له ذلك قط ، يا سيدي · »

ووقع هذا الكلام في أذنَيْ السيد العجوز مثل موقع الكلام المكـذوب ، فحدّق في شيء من التجهم الى وجه أوليفر · ولكنْ كان من المتعذر عليه أن يشك في أمره · فقد كان ثمة صدقٌ في كل قسَمة من قسمات وجهه الهزيلة

* الهيدرولوجيا : علم خصائص المياه ونواميسها ·

الغائرة ·

ـ « هناك خطأ ما · » كذلك قال مستر براونلو · وعلى الرغم مُن ان رغبته في التحديق الموصول الى أوليفر كانت قد زالت فأن الفكرة القديمة القائلة بأن ثمة شبهاً بين ملامحه وبين وجه مألوف عنده ما لبثت أن راودته في قـوة جعلته عاجزا عن صَرْف نظراته عنه ·

وقال أوليفر ، رافعاً عينيه في ضراعة : « أرجو ان لا تكون غاضباً عليّ ، يا سيدي · »

فأجابه السيد العجوز : « لا ، لا · ولكن ، ما هذا ؟ بيدوين ، انظري الى هناك ! »

وفيما هو يتكلم أشار في سرعة الى الصورة المعلقة فوق رأس أوليفر ، ثم الى وجه الغلام · لقد كان ذلك الوجه نسخة حية عن تلك الصورة · فالعينان ، والرأس ، والفم كانت هي هي · والقسمات كلها كانت هي هي · وكانت السيماء ، في تلك اللحظة ، متماثلة في الصورة وعلى وجه الغلام بحيث بدت أدقّ الخطوط وكأنها منسوخة في دقة بالغة !

ولم يدر أوليفر سبب هذا التعجب المفاجىء · ذلك بأنه كان أعجز من أن يحتمل ما أوقعه في جسده من رعدة واجفال ، فغاب عن الوعي · وهذا الضعف من جانب الغلام يتيح لهذه الرواية فرصة لتحرير القارىء من الترقب والقلق في ما يتصل بمريديْ العجوز المرح الناضريْ العود ، وللنص على ···

··· أنه عندما ضمّ « المراوغ » وصديقه الموهوب المعلّم بايتس صوتيهما الى صيحة المطاردة التي أطلقت في أعقاب أوليفر بعد أن سلبا مستر براونلو بعض ممتلكاته الشخصية ، كما وصفنا من قبل ، غلب عليهما شعور بالاحترام لنفسيهما جدُّ محمود ولائق · ونظرا الى ان حرية المواطن والفرد هي واحـدة من أبرز المفاخر التي يعتز بها الانكليزي الحقّ فلست في حاجة الى أن أدعـو القارىء للتنبّه الى ان هذا الصنيع خليق به أن ينزع الى تعظيمهم في عين جميع الرجال الرسميين والوطنيين بقدْر يتكافأ تقريباً مع ما يستطيع هذا البرهـان القوي على تعلّقهم بالنجاة والسلامة أن يعزّز ويثبّت مجموعـة النواميس الصغيرة التي ذهب بعض الفلاسفة المشهود لهم بالعمق والتفكير السليم الى القول بأنها هي البواعث الأصلية ، لجميع أعمال الطبيعة وأفعالها : لقد جعـل هؤلاء الفلاسفة من أعمال السيدة الطيبة* مسألة بدهيات ونظريات ليس غير · وأطروا حكمتها وفهمها المجيدين اطراء وافراً جداً ، وبذلك طمسوا طمساً كلياً جميع اعتبارات القلب ، أو الدافع السخي والشعور الكريم · اذ أن هذه مسائل لا تليق البتة بمقام أنثى اعترف الخاص والعام بأنها فوق عيوب بنات جنسهـا

* يقصد : الطبيعة ·   (المعرب)

ومواطن ضعفهن الصغيرة المتعددة ·

ولو أردتُ أن ألتمس أيما برهان اضافي على الطبيعة الفلسفية ـ بكل ما في هذه الكلمة من معنى ـ التي اتسَم بها سلوك هذين السيدين في المأزق الحرج الذي كانا فيه اذن لتعين عليَّ أن أجدها في واقعة سبق لي أن دوّنتها في جزء سابق من هذه الرواية ، وهي أنهما كفا عن المطاردة حالما رُكِّز الانتباه العام على أوليفر ، وشخصا الى بيتهما ، في الحال ، من أقصر طريق ممكن · وعلى الرغم من اني لا أعتزم أن أؤكد أن من دأب مشاهير الحكماء المتبحرين في العلم أن يقصّروا الطريق الى أيما نتيجة خطيرة (الواقع ان طريقتهم تقضي ، على الأصح ، بتطويل المسافة بمختلف ضروب الدوران حول المعني والترنّحات المتقطعة الشبيهة بتلك التي ينزع السكارى الى الانغماس فيها تحت ضغط من تدفق الفكرات القوي الى أبعد الحدود) أقول : على الرغم من ذلك فأني أعتزم أن أؤكد ، واني لأؤكد في جلاء ووضوح ، ان من دأب كثير من الفلاسفة العظام ، عند وضع نظرياتهم ، أن يُظهروا كثيراً من الحكمة وبعد النظر في الاحتراز من أيما طارىء ممكن قد يظنون ان في امكانه ـ بأية حال من الاحوال ـ ان يمسَّهم شخصياً · وهكذا ، فلا جُناح عليك ، من أجل اداء خير عظيم ، ان أنت اقترفت شراً صغيراً ، وان في ميسورك أن تصطنع أيما وسيلة قد تبررها الغاية التي تسعى لبلوغها · باعتبار ان مقدار الخير ، أو مقدار الشر ، أو بالأحرى التمييز بينهما ، متروكٌ بالكلية الى الفيلسوف المعنيّ ، فهو الذي يقرره ويحدده من طريق نظراته الصافية ، الشاملة ، النزيهة ، الى الحالة الخاصة التي يواجهها ·

ولم يغامر الغلامان في الوقوف تحت بعض القناطر الخفيضة المظلمة الا بعد أن طوّفا ، بسرعة بالغة ، في متاهة من الازقة والدروب الضيقة ليس ثمة ما هو أشد منها تعقيداً · حتى اذا اعتصما ، هنالك ، بالصمت فترة كافية لاسترداد أنفاسهما ولاستعادة القدرة على الكلام ، أطلق المعلّم بايتس صيحة مرح وابتهاج · ثم انه انفجر بالضحك على نحو لا سبيل الى السيطرة عليه وطرح نفسه على عتبة أحد المنازل وراح يتدحرج على التراب وقد استبدت به عاصفة من طرب وحبور ·

وتساءل « المراوغ » : « ما بالك ؟ »

فهدر تشارلي بايتس : « ها ! ها ! ها ! »

فاحتج « المراوغ » ، ناظراً حوله في احتراس : « كفَّ عن احداث هذه الضجة ! أتريد ان يُقبض عليك ، أيها الأبله ؟ »

فقال تشارلي : « ليس لي في ذلك حيلة ! ليس لي في ذلك حيلة ! اني لا أتمالك نفسي عن الضحك كلما تمثّلته يفرّ بتلك الخطى الواسعة ، ويعدو منعطفاً حول الزوايا ، ويخرّ على الارض مصطدماً بالأعمدة ، ثم يندفع ثانية

وكأنه ، مثلها ، مصنوع من حديد ، وأنا أجري وراءه صائحا زاعقاً ٠ والمنديل في جيبي ٠٠٠ أوه ، يا آلهي ! » وكان للمعلم بايتس من خياله الخصب ما ساعده على تصوّر المشهد في ألوان صارخة الى أبعد مدى ٠ حتى اذا بلغ صيغة التعجب تلك تدحرج كرة ثانية على العتبة ، وانشأ يضحك ضحكاً مدوّياً أكثر من ذي قبل ٠

ــ « ما الذي سوف يقوله فاجين ؟ » كذلك سأله « المراوغ » منتهزاً ، لطرح هذا السؤال ٠ أول فرصة اضطر معها صديقه الى الاخلاد للصمت بسبب من انقطاع النَفس ٠

فكرر تشارلي بايتس : « ماذا ؟ »

فقال « المراوغ » : « أجل ، ماذا ؟ »

ــ « حسناً ، وما الذي تريده أن يقوله ؟ » كذلك تساءل تشارلي ، مقلعاً فجأة ، تقريبا ، عن مرحه وابتهاجه ٠ ذلك بأن لهجة « المراوغ » كانت مؤثّرة ٠ « ما الذي تريده أن يقوله ؟ »

وجعل مستر داوكنز يصفر طوال دقيقتين اثنتين ٠ ثم نزع قبعته ، وحك رأسه ، ثم هزه ثلاث مرات ٠

وقال تشارلي : « ماذا تعني ؟ »

فقال « المراوغ » وعلى محياه الذكي شيء من سخرية : « ترالا لا لا ، هذيان وألغاز ! »

كان في ذلك بعض الايضاح ، ولكنه لم يكن كافياً ٠ او هذا على الاقل ما خيّل الى المعلم بايتس ٠ فعاود طرح السؤال : « ماذا تعني ؟ »

ولم يجب « المراوغ » بشيء ٠ ثم أنه اعتمر بقبعته كرة أخرى ، وجمع ذيل سترته الطويلة تحت ذراعه ، وأقحم لسانه في خده ، ولطم قصبة أنفه نحواً من ست مرات بطريقة مألوفة ولكنها معبّرة ، واستدار على عقبيه ، وانسلّ في الزقاق ٠ فتبعه المعلم بايتس ، على الاثر ، وقد علت وجهه أمارات التأمل والتفكير ٠

وكان في وقع الاقدام على درجات السلم الصارّة ٠ بعد بضع دقائق من هذه المحاورة ، ما جفّل العجوز المرح القابع الى جوار المستوقد ، وفي يده اليسرى لقانقة مجففة ورغيف صغير ، وفي يده اليمنى مدية جيب ٠ كانت على احدى الاثافيّ أمامه قِدْر من صفيح ، وكانت على وجهه الشديد الشحوب ابتسامة ماكرة ٠ لقد القى من تحت حاجبيه الاحمرين الكثيفين نظرة حادة ، ومال بأذنه نحو الباب ، وانشأ يصغي ٠

وغمغم اليهودي ، مغيّراً سيماءه : « ولكن ، كيف ذلك ؟ اثنان منهم فقط ؟ أين ثالثهم ؟ أمن الجائز أن يكونوا قد تعرّضوا لبلاء ؟ فلأصغِ ! »

واقتربت الخطى أكثر فأكثر . وانتهيا الى منبسَط السلم . و'فتح الباب في أناة . ودخل « المراوغ » وتشارلي بايتس ' مغلقَيْن اياه خلفهما .

١٣

وفيه نقدم الى القارىء الذكي شخصيات جديدة ونروي أشتاتاً من الاشياء الطريفة المتعلقة بهم والمتصلة بهذه القصة .

– « أين أوليفر ؟ » كذلك قال اليهودي وهو ينهض في سيماء متوعدة ، أين الغلام ؟ »

وألقى اللصان الفتيَّان نظرة على حاميهما ، وكأنهما ر'وِّعا لما تكشَّف عنه من عنف . وتبادلا النظرات في قلق ، ولكنهما لم يجيبا بشيء .

وقال اليهودي آخذاً « بالمراوغ » من خناقه ومتوعداً اياه بأفظع الانتقام : « ما الذي حل بالغلام ؟ تكلم ، والا خنقتك خنقاً ! »

وكان وجه فاجين ينطق بالجد والعزم الى حد جعل تشارلي بايتس (الذي كان يرى ان من الحكمة في جميع الاحوال أن يقف على جادّة السلامة ، والذي بدا له الآن ان من المحتمل كثيراً ان دوره في الخنق سوف يجيء بعد دور « المراوغ » مباشرة) يجثو على ركبتيه ويطلق صيحة هادرة موصولة ... شيئاً بين خوار ثور مسعور وضجيج بوق لتقوية الصوت البشري .

– « هل تعتزم أن تتكلم ؟ » كذلك رعَد اليهودي هازّاً « المراوغ » في عنف بدا معه وكأن بقاءه في تلك السترة الكبيرة لحظة واحـــدة أمرٌ اعجوبيٌ بالكليّة .

وأخيراً قال « المراوغ » في نكد : « لقد قبض عليه رجال الشرطة ، هذا كل ما في الأمر . والآن ، خلِّ سبيلي ، هل لك أن تفعل ؟ » وبانتفاضة واحـــدة تملَّص من السترة الكبيرة التي خلّفها في يَدي' اليهودي ، واستولى عـــلى شوكة التحميص وسدّد طعنة الى صدرة العجوز المرح لو كان لها من أثر اذن لكان خليقاً بها أن تنتزع منها مقداراً من المرح أكبر من ذلك المقدار الذي يمكن استرداده في سهولة ويسر .

وأمام هذا الخطر الطارىء ارتد اليهودي الى الوراء في خفة لا يتوقع المـرء نظيرها من رجل في مثل شيخوخته الظاهرية . ثم انه اختطف القدر واستعد لقذفها على رأس مهاجمه . ولكن تشارلي بايتس لفت انتباهه ' في تلك اللحظة ، بصيحة رهيبة الى أبعد الحدود ، فغيَّر وجهة القـدر على نحو مفاجيء ، والقى

بكامل ثقلها على ذلك الشاب ٠

فزمجر صوت خفيض : « ما هذا الذي يجري هناك ؟ من الذي قذفني بهذا ؟ من حسن الحظ ان الذي أصابني هو الجعة وليس القِدر ، والا لصفَّيت الحساب مع شخص ما ٠ أنا أعلم أن أحداً لا يطيق الا اذا كان يهوديا عجوزاً جهنمياً غنيّاً سلاّباً رعّاداً ، أن يسفح أيما شراب غير الماء ٠٠٠ وحتى الماء نفسه فأنه لن يسفحه الا اذا غشّ « شركة النهر » وخدعها كل فصل من فصول السنة ٠ علام هذه الضجة كلها ، يا فاجين ؟ لعنـــني الله ان لم يكن منديلي قد بُطِّن بالجعة ! أدخل أيها البرغوث القذر ! لماذا تقف في الخارج وكأنك خجِلٌ من سيدك ! ادخل ! »

كان الرجل الذي هرّ بهذه الكلمات شابا قويُّ البنية في نحو الخامسة والثلاثين يرتدي سترة من مخمل قطنيّ أسود ، وبنطالا عسلياً قصيراً شديـد الاتساخ ، وحذاء نصف عالي العنق ذا سُيور ، وجورباً قطنياً رمادياً يشتمل على ساقين ضخمتين لهما ركْبتان كبيرتان منتفختان ٠٠٠ ساقين من ذلك الصنف الذي يبدو دائماً ، في مثل ذلك الزيّ ، وكأنه ناقصٌ لا سبيل الى تحققـــه بالكمال الا اذا زُيّن بالأصفاد ٠ كان يعتمر بقبعة بنيّة ، ويطوّق عنقه بمنديل تجشئ قذر راح يمسح الجعة عن وجهه ، فيما هو يتكلم ، بطرفيه الطويلـين المتهرئين ٠ ولقد تكشّف ، عندما تمّ له ذلك ، عن تقاطيع عريضة كئيبـــة تكسوها لحية لم تحلق منذ أيام ثلاثة ، وعن عينين متجهمتين ، نمّت احداهما عن أعراض مختلفة متعددة الألوان تشير الى أنها تعرضت منذ وقت قريب للطمة مؤذيـــة ٠

وزمجر هذا الوغد الفاتن : « ادخل ! هل تسمع ؟ »

فانسلّ الى الحجرة كلب أبيض أشعث ذو وجه مُخدش ومُزّق في عشرين موضعاً مختلفاً من مواضعه ٠

وقال الرجل : « لماذا لا تتقدم الى أمام ؟ لقد أمسيت أشدّ غروراً من أن تعترف بي أمام الناس ، أليس كذلك ٠ انطرح على الارض ! »

وأردف هذا الأمر برفسة طوّحت بالبهيمة الى الطرف الآخر من الحجرة ٠ بيد أنه بدا وكأنه كان يألف هذه المعاملة ، ذلك بأنه التفّ على نفسه ، في هدوء بالغ ، في احدى الزوايا ، من غير أن يطلق أيما صوت ٠ ثم ان عينيه المشؤومتين طرفتا بمعدل عشرين مرة في الدقيقة ، وبدا وكأنه يشغل نفسه باستعـــراض الحجرة وما فيها ٠

وقال الرجل وهو يجلس في أناة : « ما هذا الذي أراك منهمكاً فيـــه ؟ أتسيء معاملة الغلمان ، أيها اللص العجوز الجشع ، الشحيح ، الذي لا يشبع ؟ اني لأعجب لماذا لا يقتلونك ! لقد كان خليقاً بي أن أفعل ، لو كنت في مكانهم ٠

لو كنت غلاماً يعمل في خدمتك اذن لاقدمت على ذلك منذ عهد بعيد ٠٠٠ لا ، ولن يكون في ميسوري بعد ذلك أن أبيعك ، لأنك لا تصلح الا للوضع في زجاجة كنموذج نادر للبشاعة ، وأنا أحسب انهم لا يصنعون زجاجات على مثل هذه الضخامة ! »

فقال اليهودي مرتعداً : « صه ! صه ! يا مستر سايكس ٠ لا تتكلم بصوت عال الى هذا الحدّ ! »

فأجابه الوغد : « لا تكلف نفسك عناء مسترتي* ٠ ان نياتك تكون شريرة كلما فعلت ذلك ٠ انت تعرف اسمي ، فانطِقْ به ! أنا لن اجلّله بالخزي عندما يحين الأوان ! »

فقال اليهودي في خضوع خسيس : « حسناً ، حسناً ، كما تريد ٠٠٠ يا بيل سايكس ، يبدو أنك معكّر المزاج ، يا بيل ٠ »

فأجابه سايكس : « ربما كنت كذلك ٠ ويخيل اليّ انك مغضّب ، بعض الشيء ، أيضاً ، الا اذا كنت تقصد الى قليل من الاذى حين تقذف بالقدور الصفيحية هنا وهناك ، كما تفعل وأنت تثرثر و ٠٠٠ »

فقال اليهودي ممسكاً بالرجل من رُدنه ، ومشيراً بإصبعه الى الغلمان : « هل انت مجنون ؟ »

وأرضى مستر سايكس نفسَه بتشكيل عقدة خيالية تحت اذنه اليسرى ، ونشّر رأسه فوق الكنف اليمنى : وكان ذلك فصلا من التمثيل الأبكم بدا وكأن اليهودي فهمه أحسن فهم ٠ ثم انه طلب كأساً من الخمر مصطنعاً تعابير عامية كانت لغته كلها مزيّنة بها على نحو سخيّ ، ولكنها تعابير لو حاولنا ايرادها هنا اذن لاستغلق فهمها على القارىء استغلاقاً كاملا ٠

وأضاف مستر سايكس ، وهو يضع قبعته على الطاولة : « وحذار أن تدس السمّ فيها ٠ »

وانما قيلت هذه الجملة الأخيرة على سبيل المزاح ٠ بيد أنه لو قُدّر لقائلها أن يلمح الغمزة الشريرة التي عضّ بها اليهودي شفته الشاحبة وهو يستدير نحو الخزانة اذن لتراءى له ان التحذير لم يكن غير ضروري البتة ، أو (على الاقل) أن الرغبة في اجادة فن التقطير لم تكن بعيدة جداً عن قلب العجوز المرح ٠

وبعد أن تجرع كأسين أو ثلاث كؤوس من الخمر تنازل مستر سايكس فالتفت الى السادة الصغار ، وهو صنيعٌ كريمٌ قاد الى حديث فُصّل فيه سبب القبض على أوليفر والطريقة التي تمّ فيها ، تفصيلا كبيراً لم يخلُ من تعديل للحقيقة وتحسين لها وفْقَ ما بدا « للمراوغ » أنه الأنسب والأعقل

* اي مناداتي بلفظ « مستر » ٠

في تلك الظروف ٠

وقال اليهودي : « أخشى أن يقول شيئا قد يعرّضنا للمتاعب ٠ »

فأجاب سايكس في ابتسامة عريضة خبيثة : « هذا محتمل جداً ٠ لقد قضي عليك ، يا فاجين ٠ »

وأضاف اليهودي وكأنه لم يسمع ما قاله سايكس ، محدّقاً النظر الى هذا الأخير : « وأنا أخشى أيضا اذا وقعنا نحن في ورطة أن يقع كثيرٌ غيرنا في مثلها ٠ وأن يكون وضعك عندئذ اسوأ من وضعي ، يا عزيزي ٠ »

وأجفل الرجل ، وقطّب في وجه اليهودي على نحو عدائي ٠ ولكن كتفي السيد العجوز كانتا مرفوعتين حتى أذنيه ، وكانت عيناه تحدقان تحديقاً ذاهلا الى الجدار المقابل ٠

وران صمت طويل ٠ وبدا كل عضو من أعضاء الجماعة الموقرة مستغرقاً في تأملاته الخاصة ، لا نستثني من هذا الكلب نفسَه الذي بدا ، من طريق لعق شفتيه على نحو خبيث ، وكأنه يفكر في الانقضاض على رجلَيْ أول سيد ــ أو سيدة ــ قد يلتقيه في الشوارع حين يغادر المنزل ٠

ــ « يجب أن يستطلع شخص من الاشخاص ما حدث في المخفر ٠ » كذلك قال مستر سايكس بصوت أشدّ خفوتاً مما اصطنع منذ أن وفَد الى هناك ٠

فأعلن اليهودي موافقته على ذلك بهزة من رأسه ٠

وقال مستر سايكس : « اذا لم يشِ بنا ، وحُكِم عليه بالسجن ، فعندئذ لا يكون ثمة خوفٌ حتى يُطلق سراحُه ٠ أما بعد ذلك فيتعين علينا ان نتدبر أمره ٠ ان عليكم أن تقبضوا عليه بطريقة ما ٠ »

وهز اليهودي رأسه كرة أخرى ٠

والواقع أن الحكمة التي انطوى عليها أسلوب العمل ذاك كانت جليّة ، ولكنْ كان ثمة ، مع الاسف ، عقبة قوية جداً تحول دون اصطناعه ٠ وتتلخص تلك العقبة في ان « المراوغ » وتشارلي بايتس ، وفاجين ، ومستر وليم سايكس، اتفقَ ان كانوا كلهم يستشعرون ، في آن معاً ، كراهية عميقة الجذور لفكرة الدنوّ من مخافر الشرطة أياً ما كان السبب أو كانت الذريعة ٠

ومن العسير على المرء أن يحزر حتّام كان خليقاً بهم أن يلزموا مقاعدهم ويتبادلوا النظرات ، في حال من القلق ليست بأعذبِ الحالات التي هي من نوعها ٠ بيد أنه لا داعي الى التحزّر في هذا الموضوع ، لأن دخول السيدتين الصغيرتين اللتين كان أوليفر قد رآها في مناسبة سابقة ، دخولا مفاجئاً ، فجّرَ الحديث من جديد ٠

وقال اليهودي : « ها هي ذي ضالتنا المنشودة ! ان « بَتَ » سوف تذهب ٠ أليس كذلك ، يا عزيزتي ؟ »

فتساءلت السيدة الصغيرة : « الى أين ؟ »
فأجاب اليهودي في تملّق : « الى مخفر الشرطة ليس غير ، يا عزيزتي . »
ومن حق السيدة الصغيرة علينا أن نقول انها لم تؤكد على نـ ـر قطعيّ أنها لن تذهب ، بل اكتفت بمجرد التعبير عن رغبتها القوية الصادقة في أن يباركها الشيطان اذا ذهبَت . وهو تهرّب لطيف من اجابة اليهودي الى طلبه يُظهر أن تلك السيدة الصغيرة تتمتع بذلك التهذيب الفطري الرفيع الذي لا يطيق ايلام اخ لها في الانسانية بالرفض المباشر القاسي .
ورانت الكآبة على وجه اليهودي . وأشاح ببصره عن السيدة الصغيرة التي كانت ترتدي على نحو بهيج ، لكي لا نقول على نحو فخم ، ثوباً أحمر ، وحذاء أخضر طويل العنق ، وورقاً أصفر خاصاً بتجعيد الشعر . وحوّله الى الفتاة الاخرى .

وقال اليهودي في لهجة متملقة : « نانسي ، يا عزيزتي ، وما رأيك أنت ؟ »
فأجابت نانسي : « أنا لن أذهب أيضاً . وهكذا فلا فائدة من ايّ محاولة تبذلها لاقناعي ، يا فاجين . »
فقال مستر سايكس رافعاً بصره على نحو شكس فظّ : « ماذا تعنين بذلك ؟ »
فأجابت السيدة رابطة الجأش : « أنا أعني ما أقوله ، يا بيل . »
فقال مستر سايكس : « ولكنك انتِ الشخص المناسب لأداء هذه المهمة . ان أحداً لا يعرف شيئاً عنك في هذه البقعة . »

فأجابت نانسي بالطريقة الهادئة نفسها : « ولما كنت لا أريدهم أن يعرفوا شيئاً عني فأني أميل الى قول لا أكثر من ميلي الى قول نعم . »
فقال سايكس : « انها ستذهب ، يا فاجين . »
فقالت نانسي : « لا ، انها لن تذهب ، يا فاجين . »
فقال سايكس : « بل انها ستذهب ، يا فاجين . »

ولقد كان مستر سايكس مصيباً . فبفضل سلسلة من التهديدات والوعود والرشوات المتناوبة أقنعت السيدة التي نحن بصددها ، آخر الأمر ، بأداء تلك المهمة ، والواقع أنها لم تُعَق عن ذلك بنفس الاعتبارات التي عاقت صديقتها القريبة الى القلب . ذلك بأنها بعد أن نقِلت ، منذ قريب ، من ضاحية راتكليف النائية ولكن الأنيقة ، الى جوار « فيلد لاين » ، لم يساورها مثل ذلك الخوف من أن يتبيّنها أيّ من معارفها المتعددين .
وهكذا استعدت الآنسة نانسي للمضي لأداء الرسالة التي كُلّفت بها ، متذرعة بمئزر أبيض نظيف عقَدتْه فوق ثوبها وبورق لتجعيد الشعر مرفوع

تحت قلنسوة من قش – وقد استمد كل من المئزر وورق التجعيد من ذخيرة اليهودي التي لا تنضب ·

وصاح اليهودي مبرزاً سلة صغيرة ذات غطاء : « ففي دقيقة · احملي هذه بأحدى يديك · ان ذلك أدعى الى الاحترام ، يا عزيزتي · »

فقال سايكس : « أعطها مفتاحاً كبيراً لتحمله في اليد الاخرى ، يا فاجين · ان ذلك يضفي عليها مظهراً حقيقياً أصيلا · »

– « أجل ، أجل ، يا عزيزتي · هذا صحيح · » قال اليهودي ذلك وعلق مفتاحاً من مفاتيح الابواب الخارجية في سبّابة السيدة الصغيرة اليمنى · « والآن ، هذا حسن جداً ! حسن جداً ، من غير ريب ، يا عزيزتي · » وفرك اليهودي يديه وهو ينطق بهذه الكلمات ·

فصاحت نانسي ، وقد انفجرت بالبكاء ضاغطة على السلة الصغيرة وعلى المفتاح الضخم في كآبة وغم بالغين : « اوه ، ويلي على أخي ! ويلي على أخي الصغير ، البريء ، الحلو ، الحبيب ، البائس ! ما الذي حل به ؟ الى أين اقتادوه ؟ أوه ، قليلا من الرحمة ، وانبئوني ما الذي فُعِل بالغلام الحبيب أيها السادة ! أوه ، انبئوني أيها السادة ، أتوسل اليكم ! انبئوني ، اذا سمحتم ، أيها السادة ! »

حتى اذا لفظت هذه الكلمات في لهجة ليس أحفل منها بالأسى وانكسار الفؤاد – لهجة أثارت ابتهاج مستمعيها اثارة لا تعرف الحدود – كفت نانسي عن الكلام ، وغمزت الجماعة ، وحنت رأسها لكل من أعضائها انحناءة باسمة ، ثم توارت عن الانظار ·

– « آه ! انها فتاة بارعة ، يا أعزائي ! » كذلك قال اليهودي ، ملتفتاً الى أصدقائه الصغار ، هازاً رأسه في وقار وكأنه ينصحهم نصيحة صامتة بأن يتبّعوا المثل الرائع الذي شهدوه بأم أعينهم منذ لحظات يسيرة ·

وقال مستر سايكس مترعاً كأسه ، ضارباً الطاولة بجمع كفه الهائل : « انها مفخرة لبنات جنسها · ها أنا ذا أشرب نخبها ، وأتمنى لو كانوا كلهم مثلها ! »

وبينا كانت آيات الثناء هذه وكثير غيرها تُخلع على نانسي الموهوبة انطلقت هذه السيدة الصغيرة الى مخفر الشرطة بأسرع ما استطاعت أن تنطلق ، فبلغته بُعَيْد ذلك بسلام ، على الرغم من بعض الوجل الطبيعي الناشيء عن سيرها في الشوارع وحيدة ومن غير ما حراسة ·

حتى اذا دخلت المخفر من الباب الخلفي قرعت بالمفتاح احد أبواب الزنزانات قرعاً رفيقاً ، وانشأت تصغي · ولم ينطلق من الداخل أيما صوت ، وهكذا سعلت وانشأت تصغي من جديد · ومع ذلك فلم يكن ثمة جواب ما ،

وهكذا أخذت تتكلم ·

لقد غمغمت بصوت رفيق : « يا صغيري أوليفر ! يا صغيري أوليفر ! »

لم يكن في الداخل غير مجرم بائس حافي القدمين ألقي عليه القبض بتهمة العزف على الناي ، وحكم عليه مستر فانغ ، بعد أن أقيم الدليل الواضح على جريمته ضد المجتمع ، بالسجن شهراً واحداً في الاصلاحية · وقد ضمَّن حكمه هذه الملاحظة المناسبة والمسليّة وهي انه ما دام قادراً على الاستغناء عن هذه الأنفاس كلها فأن من الانفع للصحة أن ينفقها على آلة التعذيب المدارة بالدَّوْس بدلا من انفاقها على آلة من آلات الموسيقى · انه لم يردَّ على نانسي بشيء ، اذ كان مستغرقاً في النواح ـ ذهنياً ـ على نايه المفقود ··· نايه الذي صودر لمصلحة الأقليم · وهكذا انتقلت الى الزنزانة الاخرى ، وقرعت بابها ·

فصاح صوت خافت ضعيف : « من ؟ »

فتساءلت نانسي في نشيج تمهيدي : « هل يوجد هنا صبيٌ صغير ؟ »

فأجابها الصوت : « لا · لا سمح الله ! »

كان هذا صوت متشرد في الخامسة والستين حكم عليه لأنه لم يعزف على الناي · أو بكلمة اخرى لأنه استندى أكفّ المحسنين في الشوارع ولم يمارس أيما عمل يكسب به رزقه · وفي الزنزانة المحاذية كان رجل آخر سِيْقَ الى السجن نفسه لأنه كان يبيع ، بطريقة التجول والمناداة ، قدوراً صفيحية صغيرة ذات مقابض ، من غير اجازة رسمية · يعني لأنه كان يمارس عملا يكسب به رزقه ، متحدياً بذلك مكتب الأجازات ·

ولكن ، لما كان أيٌ من هذين الرجلين لم يرد عند مناداته باسم أوليفر ولم يعرف أيما شيء عنه فقد مضت نانسي مباشرة الى الضابط الفظّ ، ولكن الصادق الصريح ، ذي الصدرة المخططة · وبأدعى ضروب الاعوال والنحيب الى الرثاء ـ ضروب زادها تفطيراً للفؤاد اصطناعٌ فعّال عاجلٌ للمفتاح الكبير والسلة الصغيرة ـ طالبت بأخيها الحبيب ·

فقال الرجل العجوز : « انه ليس عندي ، يا عزيزتي · »

فصاحت نانسي على نحو ذاهل : « أين هو ؟ »

فأجابها الضابط : « لقد أخذه السيد · »

فهتفت نانسي : « أيّ سيد ؟ أوه ، أيتها السماء الخيّرة ! أيُ سيد ؟ »

وجواباً عن هذا الاستنطاق المتقطّع أنبأ الرجل العجوز الأخت المحزونة أعمق الحزن أن أوليفر سقط مغشياً عليه في المخفر ، وأن سراحه أطلِق بعد أن أثبت شاهدٌ أن السرقة ارتكبها صبيٌ آخر لم يقع في قبضة العدالة ، وأن المدعي اصطحبه معه ، وهو في حالة لا وعي ، الى بيته الذي لم يعرف عنه الضابط المتحدث شيئاً غير هذا : أنه يقع في مكان ما في بينتونفيل ، اذ سمع هذه الكلمة

تُلْفَظ عند اعطاء الأوامر الى الحوذي ٠

وفي حال رهيبة من الشك والقلق ترنحت الفتاة المعذّبة في طريقها نحو البوابة الخارجية ، ثم استبدلت بمشيتها المضطربة عَدْواً رشيقاً ، وانقلبت عائدة ــ من أشد الطرق التي استطاعت أن تفكر فيها التواء وتعقيداً ــ الى منزل اليهودي ٠

ولم يكد مستر بيل سايكس يسمع تقرير نانسي عن نتائج استطلاعها حتى عمد ، على جناح السرعة الخاطفة ، الى ايقاظ الكلب الابيض ٠ ثم انه اعتمر بقبعته وانصرف في خفة بالغة من غير أن يكرّس دقيقة واحدة لمجاملة الجماعة بكلمة وداع ٠

وقال اليهودي في انفعال عارم : « يجب أن نعرف أين هو ، يا أعزائي ٠ يتعيَّن علينا أن نعثر عليه ٠ تشارلي ، لا تفعل شيئاً غير التسكع هنا وهناك حتى تجيئنا بنبأ ما عنه ! نانسي ، يا عزيزتي ، ان عليّ أن أكتشف مكانه ٠ واني لأتكل في ذلك عليك ، يا عزيزتي ٠٠٠ عليك وعلى « المراوغ » البارع في كل شيء ٠ قفوا ! قفوا ! » كذلك أضاف اليهودي وهو يفتح أحد الأدراج بيد مرتعشة : « دونكم هذه الدراهم ، يا أعزائي ! سوف أغلق هذا الدكان الليلة ٠ ولسوف تعرفون أين تجدونني ! لا تتلكأوا هنا دقيقة واحدة ٠ بل لا تتلكأوا لحظة واحدة ، يا أعزائي ! »

قال هذه الكلمات ودفعهم الى خارج الغرفة ٠ ثم انه أوصد الباب خلفه ايصاداً مزدوجاً ودعَّمه بالمزلاج ، وأخرج الصندوق الذي كان قد أبداه لأوليفر ــ غير متعمِّد ــ من مخبأه ٠ وسارع الى اخفاء الساعات والجواهر تحت ثيابه ٠

وفي غمرة من انشغاله بذلك قُرِع الباب قرعاً أجفله ٠

وصاح في صوت حادّ : « مَن بالباب ؟ »

فأجابه صوت « المراوغ » من ثقب الباب : « أنا ! »

فصاح اليهودي نافد الصبر : « ما الذي تريد أن تقوله بعد ؟ »

فسأله « المراوغ » : « تريد نانسي أن تسألك هل نخطفه ونحمله الى الوكر الآخر ؟ »

فأجاب اليهودي : « نعم ٠ اذا ألقت القبض عليه في أيما مكان ٠ اكتشفوا مكانه ، هذا كل ما هنالك ! ولسوف أعرف ما الذي يتعين عليّ أن أفعله بعد ذلك ٠ لا تقلقوا البتة ! »

فغمغم الغلام بجواب ينمّ عن الموافقة ، وهبط السلم ، في سرعة ، لاحقاً برفاقه ٠

وقال اليهودي مستأنفاً عمله : « انه لم يشِ بنا حتى الآن ٠ واذا ما اعتزم أن ينمّ علينا بين أصدقائه الجدد فقد نستطيع أن نغلق فمه قبل أن يوفَّق الى ذلك ٠ »

الفصل الرابع عشر

ويشتمل على تفصيلات اضافية عن مقام أوليفر في منزل مستر براونلو مع النبوءة الرائعة التي أطلقها بشأنه ـ عندما مضى لأداء مهمة ما ـ رجل يدعى مستر غريمويغ*

ما ان ثاب أوليفر الى رشده من الاغماء الذي أغرقته فيه تلك الصيحة المفاجئة التي كان مستر براونلو قد أطلقها حتى اجتنب كلٌ من السيد العجوز ومسز بيدوين ، بكثير من الاحتراس ، موضوع الصورة الزيتية في الحديث الذي تجاذبا أطرافه بعد ذلك . والواقع ان هذا الحديث لم ينطوِ على أية اشارة الى تاريخ أوليفر أو مستقبله ، بل كان مقصوراً على موضوعات خليق بها أن تسليه من غير أن تهيجه ، وكان لا يزال أضعف من ان ينهض من فراشه لتناول طعام الصباح ، ولكنه حين هبط في اليوم التالي الى حجرة المدبِّرة كان أول عمل قام به هو القاؤه نظرة لاهفة على الجدار ، رجاة أن يرى كرة أخرى وجه السيدة الجميلة . بيد ان آماله ما لبثت أن خابت : كانت الصورة قد نزِعت عن الجدار .

وقالت مدبِّرة المنزل وهي تراقب الناحية التي اتجهت اليها عينا أوليفر : « آه ، لقد ذهبت كما ترى . »

فقال أوليفر : « هذا ما أراه ، يا سيدتي . لماذا نزعوها عن الجدار ؟ »

فأجابته السيدة العجوز : « لقد نُزِعت ، يا ولدي ، لأن مستر براونلو قال : ما دامت هذه الصورة تزعجه ، على ما يبدو ، فمن غير المستبعد أن تحول بينه وبين الشفاء . أفهمت ؟ »

فقال أوليفر : « أوه ، لا ، أؤكد لك . انها لم تزعجني ، يا سيدتي ، لقد أحببت أن أراها . لقد أحببتها حباً كثيراً . »

فقالت السيدة العجوز في بشاشة : « حسن ، حسن ، انك سوف تشفى على أسرع وجه تستطيعه ، يا عزيزي ، ولسوف تعاد الصورة الى موضعها من الجدار . اني أعِدُك بذلك ! والآن ، دعنا نتكلم عن شيء آخر . »

كان هذا كل ما استطاع أوليفر أن يطلع عليه ، حتى ذلك الحين ، من أمر الصورة الزيتية . واذ كانت السيدة العجوز شديدة الاحسان اليه خلال

* Crimwig ، أي « اللمة المستعارة الكالحة » . (المعرب)

مَرْضته فقد حاول ان لا يفكر ، مؤقتا ، في تلك المسألة · وهكذا أصغي في انتباه الى جمهرة كبيرة من الحكايات التي روتها على مسمعه عن بنت لها وسيمة حبيبة الى القلب تزوجت من رجل وسيم حبيب الى القلب ، وعاشت معه في الريف ، وعن ابن لها كان كاتباً عند تاجر في جزر الهند الغربية ، وكان أيضاً شاباً طيباً الى أبعد الحدود يكتب الى أمه ، أربع مرات في العام الواحد ، رسائل تنضح بالبر والحب الى درجة تجعل الدمع يترقرق في عينيها كلما تحدثت عنه · حتى اذا أسهبت السيدة العجوز فترة طويلة في التحدث عن فضائـــل أولادها ومزايا زوجها الصالح الكريم الذي انتقل الى رحمة ربه ، بلل الله ثراه برحمته ، منذ ست وعشرين سنة كاملة ، كانت ساعة الشاي قد حانت · وبعد تنـاول الشاي شرعت تلقن أوليفر لعبة الكريبج* ، فتعلمها بمثل ما وفقت اليـه من سرعة في تلقينه اياها · وراحا يلعبان تلك اللعبة ، في اهتمام ووقار عظيمين حتى آن للمريض أن يفوز بشيء من الخمر الممزوج بالماء الحار ، مع قطعة مـن الخبز المحمص من غير زبدة ليمضي بعد ذلك الى الفراش فينام نوماً هادئاً ·

كانت أياماً سعيدة تلك التي قضاها أوليفر في دور النقاهة · كان كل شي هادئاً جداً ، نظيفاً جداً ، ومنظماً جداً ، وكان كل امرىء كريماً ولطيفاً بحيث بدا لأوليفر ، بعد الضجيج والاضطراب اللذين عاش في غمرتهما دائمـاً ، أنه يحيا في الجنة نفسها · ولم يكد يستعيد عافيته الى حد يمكّنه من ارتداء ثيابه على نحو ملائم حتي أصدر مستر براونلو أمره بتزويده ببذلة كاملــة جديدة ، وقلنسوة جديدة ، وحذاء جديد · واذ قال القوم لأوليفر ان في ميسوره أن يتصرف بملابسه القديمة كما يحلو له فقد قدّمها الى خادم كانت قد بالغت في الاعتناء به ، وسألها أن تبيعها لرجل يهودي ، وتحتفظ بثمنها · وسرعان ما قامت الخادم بذلك · وفيما كان أوليفر يطل من نافذة حجرة الاستقبال ويرى الى اليهودي وهو يلف تلك الملابس ويدسّها في كيسه ويمضي لسبيلـــــه ، استشعر بهجة غامرة لمجرد التفكير في أنها قد ذهبت بسلام وفي أنه لم يبق ثمة أيما خوف محتمل من أن يضطر الى ارتدائها بعد اليوم · والحق انها كانت أسمالا بائسة ، ولم يكن أوليفر قد نعم قبل ذلك ببذلة جديدة قط ·

وذات مساء ، بعد اسبوع انقضى على حادثة اللوحة الزيتية ، وفيما كان أوليفر جالساً يتحدث الى مسز بيدوين ، جاءت رسالة من مستر براونلو مفادها أنه يرغب في استقبال اوليفر في مكتبه وفي التحدث اليه فترة قصيرة ، شرط أن يكون الغلام في حال صحية حسنة ·

فقالت مسز بيدوين : « نجّنا يا رب ! نجّنا يا رب ! اغسل يديك ، ودعني أفرق لك شعرك فرقاً حسناً ، يا صغيري · يا الهي ! لو عرفنا أنـه

* Cribbage لعبة من العاب الورق · (المعرب)

سوف يستدعيك اذن لألبسناك ياقة نظيفة ، ولجعلناك أنيقاً مثل قطعة نقدية جديدة من فئة البنسات الستة ! »

وفعل أوليفر ما أمرته السيدة العجوز بفعله • وعلى الرغم من أنها تشككت ، خلال ذلك ، من أنه ليس لديها متسع من الوقت حتى لتمويج الهدب الصغير المحيط بياقة قميصه ، فقد بدا من الاناقة والوسامة - برغم ذاك النقص المادي الهام - بحيث لم تتمالك نفسها عن القول ، عندما نظرت اليه في رضا شديد من قمة الرأس الى أخمص القدم ، انها في الحق لا تعتقد أنه كان في ميسورها ، لو أعطيت علماً قبل فترة كافية برغبة مستر براونلو في استقباله ، أن تزيد مظهره ذاك ، حسناً واناقة ، زيادة ملموسة •

وقرع أوليفر ، بعد أن زُوِّد بهذا التشجيع ، باب المكتب • حتى اذا دعاه مستر براونلو الى الدخول ألفي نفسه في حجرة خلفية صغيرة عاصة بالكتب ، ذات نافذة تطل على بعض الحدائق الصغيرة الجميلة • كانت تقوم أمام النافذة طاولة جلس اليها مستر براونلو وفي يده كتاب يقرأه • حتى اذا وقع بصره على أوليفر اطّرح كتابه ذاك ، وسأله ان يدنو من الطاولة ويجلس • وامتثل أوليفر الأمر ، متسائلا أين يمكن أن يوجد عددٌ من الناس كاف لقراءة هذا العدد الضخم من الكتب التي صُنِّفت ، في ما يبدو ، لجعل العالم أعقل وأوفر حكمة • وهو لغز يُعْجز ، حتى الاقوام الاكثر خبرة من أوليفر تويست ، كلَّ يوم من أيام حياتهم •

ـ « ان هنا عدداً ضخماً من الكتب ، أليس كذلك يا بُنيّ ؟ » كذلك قال مستر براونلو حين لاحظ الفضول الذي استعرض أوليفر به تلك الرفوف المرتفعة من أرض الحجرة حتى سقفها •

فأجابه أوليفر : « عدداً ضخماً جداً ، يا سيدي • أنا لم أرَ قط من قبل مثل هذا القدر كله من الكتب • »

فقال السيد العجوز في لطف : « سوف يكون من حقك أن تقرأها اذا كان سلوكك حسناً • ولسوف تحب ذلك أكثر من حبك النظر الى دفّاتها الجلدية ••• أعني في بعض الأحوال ، لأن هناك كتباً تعتبر الغلافات خير أجزائها على الاطلاق • »

ـ « أحسب انك تشير بذلك الى هذه الكتب الثقيلة ، يا سيدي ، » كذلك قال أوليفر وهو يومىء الى أسفار ضخام ، من قطع الربع ، تزهو دفاتها بقدْر وافر من مداد الذهب •

فقال السيد العجوز مربّتاً على راس أوليفر وهو يبتسم : « ليس دائماً • ان ثمة كتباً اخرى لا تقل عنها ثقلا ، وان تكن أصغر حجماً • هل تحب أن تصبح، عندما تكبر ، رجلا بارعاً وان تؤلف الكتب ؟ »

فأجابه أوليفر : « أحسب أني أفضّل أن اقرأها ، يا سيدي . »
فقال السيد العجوز : « ماذا ؟ ألا تحب أن تكون مؤلف كتب ؟ »
وفكّر أوليفر فترة يسيرة . وأخيراً قال انه يرى ان من الخير له أكثر أن يصبح كتبيّاً . عندئذ ضحك السيد العجوز من شغاف قلبه وأعلن أنه قال شيئاً جيداً جداً ، فسرّ أوليفر بذلك ، رغم أنه لم يعرف بأية حال ما هو ذلك الشيء .

وقال السيد العجوز مستعيداً ملامحه الجادّة : « حسن ، حسن ، لا تخف ! اننا لن نجعل منك كاتباً ، ما دام ثمة صناعات شريفة اخرى يمكن أن تتعلمها ، أو ما دام في استطاعتك أن تكسب رزقك من عمل الطوب والقرميد . »
فقال أوليفر : « أشكرك ، يا سيدي . »
وضحك السيد العجوز ، كرة اخرى ، للطريقة المتقدة التي أطلق بها هذا الجواب . وقال شيئاً عن غريزة غريبة ما ، لم يفهمه أوليفر ، ومن أجل ذلك لم يُوْلِهِ اهتماماً كبيراً جداً .

فقال مستر براونلو ، متحدثاً اذا كان ذلك ممكناً بلهجة ألطف ، ولكنها في الوقت نفسه أكثر جدّية ، من أيما لهجة قدّر لاوليفر أن يسمعه يتحدث بها : « والآن ، أريد منك ، يا بُنيّ ، ان تنتبه انتباهاً كثيراً لما أعتزم أن أقوله . سوف أتحدث اليك في غير تحفظ ، لأني واثق من انك قادر على فهمي كمثل قدرة كثير ممن هم أعلى منك سناً . »

فصاح أوليفر وقد روّعته النبرة الجادّة التي غلبت على كلمات السيد العجوز الاستهلالية : « أوه ، لا تقل لي انك سوف تخرجني من بيتك ، يا سيدي ، ارجوك . لا تطردني ... لا تدعني أهيم على وجهي في الشوارع كرة اخرى . دعني أبقى هنا ، كخادم من الخدم . لا ترجعني الى ذلك المكان البائس الذي جئت منه . أشفق ، يا سيدي ، على غلام شقيّ مسكين ! »
فقال السيد العجوز وقد تأثر بحرارة مناشدة أوليفر المفاجئة : « يا ولدي العزيز ، لا داعي لأن تخشى تخلّيّ عنك الا اذا أحوجتني الى ذلك . »
فقاطعه أوليفر : « لن أحوجك .. لن أحوجك أبداً ، يا سيدي . »
فقال السيد العجوز : « أرجو ذلك . أنا لا أحسب انك سوف تحوجني الى هذا في أيما يوم من الأيام . لقد خدعني ، من قبل ، كثير من الاشخاص الذين حاولت أن أنفعهم ، ولكنني مع ذلك أشعر بميل قوي الى الوثوق بك . واني لأجدني مهتماً بمصلحتك اهتماماً أعجز عن تفسيره حتى لنفسي . ان المخلوقات التي حبَوْتهم بأعظم حبي ليرقدون الآن في أجداثهم ، ولكن على الرغم من ان سعادة حياتي وبهجتها مدفونتان هناك أيضاً فأني لم أجعل من فؤادي نعشاً ولم أختمه حابساً فيه ، الى الابد ، أسمى عواطفي . ان الحزن العميق لم يزدها الا

قوة وصفاء . »

واذْ قال السيد العجوز قوله هذا في صوت خفيض ـ وكأنه يكلم نفسه أكثر مما يكلم مخاطبه ـ واذ اعتصم بالصمت فترة يسيرة بعد ذلك ، فقد لزم أوليفر الهدوء والسكينة .

وأخيراً قال السيد العجوز في لهجة أحفل بالبِشْر : « حسن ، حسن . أنا لا أقول هذا الا لأن لك فؤاداً غضّاً ، ولأن معرفتك بما قاسيت من ألم وأسى عظيمين ربما جعلتك تتورّع عن اصابتي بجراح جديدة . انت تقول انك يتيم لا صديق لك في هذا العالم ، والواقع أن جميع الاستطلاعات التي وفقت الى القيام بها تؤيد هذا القول . فدعني أسمع قصتك : قل لي من أي بلدة أنت ، ومن الذي تولى تنشئتك ، وكيف تم اتصالك بالجماعة التي وجدتك بينها . قل الحقيقة ، وعندئذ لن تبقى من غير صديق ما دمت أنا على قيد الحياة . »

وحالَ النشيج ، بضع دقائق ، بين أوليفر وبين الكلام . حتى اذا كان على وشك البدء في التحدث عن الطريقة التي نُشّىء بها في الملجأ الفرعي وكيف نقله مستر بامبل الى الملجأ الرئيسي قُرِع الباب الخارجي مرتين قرعاً مقتضباً نافد الصبر الى مدى بعيد . وارتقت الخادم السلّم الى الدور العلوي لتعلن عن تشريف مستر غريمويغ .

فسألها مستر براونلو : « هل يعتزم الصعود الى هنا ؟ »

فأجابته الخادم : « نعم ، يا سيدي . لقد سألني ما اذا كان عندنا بعض أقراص الحلوى ، وحين أجبته بالايجاب قال انه أقبل لتناول الشاي . »

وابتسم مستر براونلو . ثم انه التفت الى أوليفر وقال له ان مستر غريمويغ صديق من أصدقائه القدماء . وان عليه أن لا يبتئس اذا ما وجده على شيء من الفظاظة . ذلك بأنه ، في أعماقه ، رجل فاضل ـ وهو أمرٌ يملك مستر براونلو شواهد كثيرة عليه .

وتساءل أوليفر : « هل اهبط الى الدور الارضي ، يا سيدي ؟ »

فأجابه مستر براونلو : « لا . اني افضل ان تبقى هنا . »

وفي تلك اللحظة دخل الحجرة ، متوكئاً على عصا غليظة ، سيد عجوز ممتلىء الجسم ، أعرج بعض الشيء ، مُرْتد سترة زرقاء ، وصدرة مخططة ، وبنطالا وجرموقاً* أصفرين مصنوعين من قطن صينيّ ، ويعتمر بقبعة بيضاء عريضة الحافة ، خضراء الثّنْية . كان هدبُ قميص مُثَنّى تثْنيات دقيقة جداً ينبثق من تحت صدرته ، وكانت سلسلة ساعة فولاذية طويلة جداً ، ليس في طرفها الأدنى غير مفتاح ، تتدلى تحتها في حرية . وكان طرفا منديل عنقه الابيض معقودين على شكل كُرة بمثل حجم البرتقالة . وكانت صنوف الأشكال

* ضرب من الجوارب ، يعرف عند العامة بـ « الجيتر » . (المعرب)

التي اتخذها محيّاه المَلْويّ على نحو شائهٍ تتحدّى الوصف . وكان من دأبه أن يبرْم رأسه جانباً وهو يتكلم ، وأن يرسل النظرات في الوقت نفسه من عينيه ، على نحو يذكّر من يراه ، تذكيراً لا يقاوم ، بببغاء من الببغاوات . وعلى هذا الوضع ثبّتَ نفسه حالما دخل الحجرة ، وهتف في صوت ضار متبرّم ممسكاً بيده الممدودة الى أمام بقشرة برتقال صغيرة :

ـ « انظر ، هل ترى هذه ؟ أليس من أغرب الاشياء وأدعاها الى العجب أني لا أعمد الى زيارة بيت رجل من الرجال الا وأجد على السلم قطعة من « صديق الاطباء » الشقيّ هذا ؟ لقد أصِبْتُ بالعرج ، ذات يوم ، من جراء قشرة برتقال ، وانا أعرف ان قشر البرتقال هو الذي سيوردني حتفي آخر الامر . أجل ، يا سيدي : ان قشر البرتقال سوف يوردني حتفي ، والا رضيتُ بأن آكل رأسي نفسه ، يا سيدي ! »

ذلك كان هو العرض الذي تعوّد مستر غريمويغ أن يدعم ويثبّت به كل توكيداته تقريباً . وكان ذلك بالغ الغرابة الى أبعد حدّ في حالته هو ، لأن رأسه ـ حتى ولو سلّمنا جدلا بأن التقدم العلمي يمكن أن يقود ذات يوم الى وضع يمكّن المرء من ان يأكل رأسه اذا ما راق له ذلك ـ أقول كان ذلك بالغ الغرابة لأن رأس مستر غريمويغ كان ضخماً على نحو فريد بحيث لا يستطيع أكثر الأحياء تفاؤلا أن يطمع في التهامه ، الا بشقّ النفس ، في جلسة واحدة ـ هذا اذا لم ندخل في الحساب ، أيضاً ، طبقة من الذرور كثيفة جداً كانت تعلو ذلك الرأس .

وكرر مستر غريمويغ ، ضارباً الارض بعصاه : « سوف آكل رأسي يا سيدي . » ثم أضاف ، ناظراً الى اوليفر ، ومتراجعاً خطوة او خطوتين : « هالو ! ما هذا ؟ »

فقال مستر براونلو : « هذا أوليفر تويست الصغير الذي تحدثنا عنه . » فانحنى أوليفر انحناءة احترام .

وقال مستر غريمويغ وهو يغالي في الارتداد الى وراء : « أنت لا تقصد ان تقول لي انه ذلك الغلام الذي أصيب بالحمّى ؟.. انتظر دقيقة ! لا تتكلم ! انتظر ... » كذلك تابع مستر غريمويغ فجأة وقد تحرّر من خوف الحمى لدن وُفّق الى الانتصار في هذا الاكتشاف : « هذا هو الغلام الذي قشّر البرتقالة . اذا لم يكن هذا هو الغلام الذي قشر البرتقالة وطرح هذه القشرة على السلم أكلتُ رأسي وأكلت رأسه هو أيضاً . »

فقال مستر براونلو ضاحكاً : « لا ، لا ، انه لم يأكل اية برتقالة . هيّا ! انزع قبعتك ، وتحدّث الى صديقي الشاب . »

عندئذ قال السيد العجوز ، السريع الاهتياج ، وهو يخلع قفازيه : « أنا شديد الحساسية في هذا الموضوع . ان ثمة دائماً قليلا او كثيراً من قشور

البرتقال على رصيف شارعنا ، وأنا أعلم علم اليقين ان صبيّ الطبيب الذي في الزاوية هو الذي وضعها هناك • لقد زلت القدم بامرأة شابة ، الليلة الماضيه . بسبب من قشرة صغيرة ، فسقطت على درابزون حديقتي • ولم تكد تنهض من عثرتها حتى رأيتها تنظر نحو مصباحه الأحمر الخبيث ذي الضوء الباهت ، فناديتها من النافذة قائلا : « لا تذهبي الى عيادته • انه سفاح ! فخٌ بشري ! » وكذلك هو في الواقع • واذا لم يكن ••• » وهنا ضرب العجوز النزق الارض بعصاه ضربة عنيفة كان من دأب أصدقائه أن يعتبروها دائماً ضرباً من التعبير لضمنيّ عن عرْضِه المألوف ، كلما أحجم عن افراغِه في كلمات • ثم انه جلس ، وعصاه في يده لا تفارقها ، ولبس نظارة مزدوجةً معلقة بشريط عريض اسود وألقى نظرة على أوليفر ، الذي تضرّج وجهه ، حين الفى نفسه موضع المعاينة ، والذي سارع الى الانحناء – احتراماً – كرة اخرى •

وأخيراً قال مستر غريمويغ : « هذا هو الغلام ، أليس كذلك ؟ »
فأجابه مستر براونلو : « أجل ، هذا هو • »
فقال مستر غريمويغ : « كيف أنت ، يا بني ؟ »
فأجابه أوليفر : « أحسن بكثير • أشكرك ، يا سيدي • »

واذ خشي مستر براونلو ، في ما يبدو ، ان يكون صديقه الفريد على وشك أن يقول شيئاً بغيضاً ، فقد سأل أوليفر ان يهبط السلم وينبيء مسز بيدوين انهما على استعداد لتناول الشاي • وهو أمرٌ سارع الغلام الى تنفيده في ابتهاج عظيم بسبب من عدم ارتياحه الى موقف الزائر منه •
وقال مستر براونلو : « انه غلام بهيّ الطلعة ، أليس كذلك ؟ »
فأجابه مستر غريمويغ في نكد : « لست أدري • »

– « لست تدري ؟ »
– « لا • لست أدري • ان جميع الصبية عندي سواء • فأنا لا أعرف غير نوعين منهم : الصبية ذوي الوجوه الشاحبة ، والصبية ذوي الوجوه الناضرة • »
– « والى أي نوع ينتسب أوليفر ؟ »
– « الى الصبية ذوي الوجوه الشاحبة • أنا أعرف صديقاً له غلام منتفخ الوجه • غلام رائع كما يزعمون ، ذو وجه مستدير ، ووجنتين حماوين ، وعينين ملتهبتين • غلام رهيب ، ذو جسد وأطراف تبدو وكأنها تندلق من ثنايا ملابسه الزرقاء • غلام له صوت ربان ، وشهوة ذئب الى الطعام • انا أعرفه ، ذلك الصعلوك الحقير ! »
فقال مستر براونلو : « كفى ، كفى ، هذه ليست خصائص أوليفر تويست الشاب • ومن هنا فليس ثمة ما يدعوك الى النقمة عليه »
فأجابه مستر غريمويغ : « أجل ، انها ليست خصائصه • ولكنه قد يكون

ذا خصائص أسوأ . »

وهنا سعل مستر براونلو في صبر نافد بدا وكأنه أتاح لمستر غريمويغ فرصة الابتهاج الى حد مغالى فيه .

وكرّر مستر غريمويغ : « من أيّ بلدة هو ؟ ومن هو ؟ وما هو ؟ لقد أصيب بالحمى . وأي بأس في هذا ؟ ان الحميّات ليست وقفاً على الطيبين من الناس ... هل هي وقف عليهم ؟ الاشرار يصابون بالحمى أحياناً ... هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ أنا اعرف رجلا شنق في جامايكا لقتله سيده . لقد أصيب بالحمى ست مرات ؛ ولم يفكر أحدٌ في الاشفاق عليه بسبب من ذلك . بوه ! هراء ! »

والواقع ان مستر غريمويغ كان ، في أعمق أعماقه ، شديد الميل الى التسليم بأن مظهر أوليفر وسلوكه كانا فاتنين الى حد غير مألوف ، ولكنه كان عظيم الشهوة الى المتناقضات ، وهي شهوة زادها حدّة ، هذه المرة ، عثوره على قشرة البرتقال . واذ كان قد قرّر في ما بينه وبين نفسه أن لا يجيز لأحد أن يملي عليه ما اذا كان غلام ما بهيّ الطلعة أم لا ، فقد عقد العزم ، منذ البدء ، على أن يعارض صديقه . وحين سلّم مستر براونلو بأنه لم يستطع أن يفوز بأيما جواب ضمنيّ عن أيٍّ من النقاط التي سعى الى استطلاعها ، وأنه قد أرجأ كل تحقيق في تاريخ أوليفر الماضي الى أن يتبدّى له أن الغلام قد أمسى من القوة بحيث يقوى على احتمال ذلك ... أقول حين سلّم مستر براونلو بذلك ابتسم مستر غريمويغ في خبث وتساءل ، بسخرية ، ما اذا كان من عادة مدبِّرة المنزل أن تعدّ أدوات المائدة الفضية والذهبية عندما يهبط الليل ، لأنها ان لم تفتقد ملعقة أو ملعقتين ذات صباح مشرق كنت على استعداد لأن ... الخ . »

وعلى الرغم من أن مستر براونلو كان رجلا متهوراً بعض الشيء فقد احتمل هذا في رحابة صدر ، ذلك بأنه كان يعرف طِباع صديقه الغريبة . واذ كان مستر غريمويغ قد تلطّف ، خلال تناول الشاي ، فعبّر عن اعجابه الكليّ بأقراص الحلوى فقد جرى كل شيء على نحو سائغ . وأخذ أوليفر ، الذي كان واحداً من الشّرْب ، يستشعر اطمئنان النفس أكثر مما استشعره في أي لحظة مضت في حضرة ذلك العجوز الشرس .

ـ « ومتى تعتزم أن تسمع القصة الكاملة ، الصحيحة ، المحققة لحياة ومغامرات أوليفر تويست ؟ » كذلك قال غريمويغ لمستر براونلو عند الفراغ من تناول الشاي ، ناظراً بطرف عينه الى أوليفر فيما هو يستأنف الحديث عنه .

فأجابه مستر براونلو : « غدا صباحاً . واني لأوثر أن أخلو اليه عندئذ . اسعَ اليّ غداً صباحاً في الساعة العاشرة ، يا عزيزي . »

ـ « نعم ، يا سيدي » كذلك أجاب أوليفر . ولم يكن جوابه ذاك خالياً من

التردد ، لأن نظرات مستر غريمويغ المسدّدة اليه أربكته ·

فهمس ذلك السيد في اذن مستر براونلو : « أريد أن أقول لك شيئاً ، وهو أنه لن يسعى اليك غداً صباحاً · لقد رأيته يتردد · انه يخدعك ، يا صديقي العزيز · »

فقال مستر برانلو في حرارة : « سوف أقسم انه لا يخدعني · »

عندئذ قال مستر غريمويغ : « ان صح انه لا يخدعك رضيتُ بأن ... » وضرب الارض بعصاه ·

فقال مستر براونلو ضارباً الطاولة بجمع يده : « اذا لم يُثبِت الغد صدق هذا الغلام كنتُ مستعداً للتخلّي عن حياتي ! »

فأجابه مستر غريمويغ وهو يضرب الطاولة هو الآخر بجمع يده : « واذا لم يثبت الغد كذبه كنت مستعداً للتخلي عن رأسي ! »

فقال مستر براونلو ، كابحاً غضبه : « سنرى · »

فأجابه مستر غريمويغ ، في ابتسامة مستفِزّة : « أجل ، سنرى · »

وشاءت الاقدار أن تفِد مسز بيدوين ، في تلك اللحظة ، حاملة رزمة كتب صغيرة كان مستر براونلو قد اشتراها ذلك الصباح من ذلك الكتبيّ نفسه الذي سبق له أن لعب دورا في هذه القصة · حتى اذا وضعتها على الطاولة استعدّت لمغادرة الحجرة ·

فقال مستر براونلو : « أوقفي الصبي الذي جاء بالكتب ، يا مسز بيدوين ! ان هناك شيئا يجب أن يُعاد · »

فأجابته مسز بيدوين . « لقد ذهب ، يا سيدي · »

فقال مستر براونلو : « ناديه · هذا مهمّ · انه رجل فقير ، وهذه الكتب لم يُدْفع ثمنها · وهناك كتب يجب أن تعاد أيضاً · »

وفتح الباب المفضي الى الشارع ، وانطلق أوليفر في اتجاه وانطلقت الفتاة في اتجاه في حين وقفت مسز بيدوين على العتبة وصاحت منادية الصبيّ ، ولكن لم يكن ثمة على مدى البصر أيما صبيّ · وانقلب أوليفر والفتاة عائدين ، وهما يلهثان ، وأعلنا أنهما لم يعثرا له على أثر ·

فهتف مستر براونلو : « يا آلهي ! ما أعظم أسفي لهذا ! لقد كنت شديد الحرص على اعادة هذه الكتب الليلة · »

فقال مستر غريمويغ ، في ابتسامة ساخرة : « اعهَدْ الى اوليفر بنقلها · انه لا بد أن يوصلها بسلام ، كما تعلم · »

فلم يكن من أوليفر الا أن قال : « أجل ، دعني انقلها اليه ، اذا شئت ، يا سيدي · اني سوف أجتاز المسافة كلها عَدْواً ، يا سيدي · »

وكان السيد العجوز على وشك أن يقول ان اوليفر يجب ان لا يذهب أياً

ما كانت الذريعة ، عندما أطلق مستر غريمويغ سعالا بالغ الخبث حمله على تغيير رأيه ، وأقنعه بأن تكليفه العاجل بهذه المهمة خليق به أن يبدد شكوك ذلـك السيد الظالمة ، من هذه الناحية على الأقل ، في غير ما ابطاء ٠

فقال : « سوف تذهب ، يا عزيزي ٠ الكتب عـلى الكرسي المجـاور للطاولة ، جئني بها ٠ »

فسارع أوليفر الى الكرسي وتأبط الكتب ، مبتهجاً بأن يكون ذا غناء ، ووقف أمام السيد العجوز ، ممسكاً قلنسوته بيده ، منتظراً أن يسمع الرسالة التي كان عليه أن يؤديها ٠

وقال مستر براونلو ، ناظراً الى غريمويغ على نحو موصول : « يجب ان تقول انك جئت لأعادة هذه الكتب الى الرجل ، وأنك تريد ان تدفع الاربعة جنيهات ونصف التي له في ذمتي ٠ دونك ورقة الخمسة جنيهات هذه ، وهكذا يتعين عليك أن تعيد الي عشرة شلنات من أصلها ٠ »

ــ « لن أغيب غير عشر دقائق ، يا سيدي ٠ » قال أوليفر ـ في لهفه ٠ ثم انه زرّر جيب سترته على الورقة النقدية ، وتأبط الكتب في عناية ، وانحنى انحناءة احترام ، وغادر الحجرة ٠ وتبعته مسز بيدوين الى البـاب الخارجي ، وأعطته كثيراً من التعليمات عن الطريق الأقرب ، وعن اسم الكتـبي ، واسم الشارع ، فأعلن أوليفر أنه فهم ذلك كله فهماً واضحاً ٠ وبعد أن أوصته ، فوق هذا ، بأن يحاذر التعرّض للزكام أجازت له السيدة العجوز ، آخر الأمر ، أن ينصرف ٠

وقالت السيدة العجوز : « فليبارك الله وجهه الحلو ! انا لا أطيق ، بطريقة ما ، ان أدعه يغيب عن ناظري ٠ »

وفي تلك اللحظة أجال أوليفر طرفه في ما حوله ، في ابتهاج ، وحنى رأسه بالتحية قبل أن ينعطف عند الزاوية ٠ فردّت السيدة العجوز تحيته تلك في ابتسام ، ثم أوصدت الباب وانقلبت الى حجرتها الخاصة ٠

وقال مستر براونلو وهو يُخرج ساعته من جيبه ويضعها على الطاولة : « دعني أرى ٠ انه سوف يعود في مدى عشرين دقيقة ، على الاكثر ٠ ولسوف يكون الظلام قد هبط عندئذ ٠ »

فتساءل مستر غريمويغ : « أوه ! هل تعتقد حقاً أنه سيعود ؟ قل لي ! »

فسأله مستر براونلو : « ألا تعتقد ذلك ؟ »

وكانت روح التناقض قوية ، تلك اللحظة ، في صدر مستر غريمويغ ٠ ولقد زادتها ابتسامةُ صديقه الواثقة قوة على قوة ٠

وقال ضارباً الطاولة بجمع يده : « لا ٠ لا أعتقد ٠ ان على ظهر الغـلام بذلة جديدة ، وتحت ذراعه مجموعة من الكتب القيمة ، وفي جيبه ورقة من فئـة

الخمسة جنيهات . انه سوف يلتحق باللصوص أصدقائه القدماء ، ويسخر منك . واذا ما قدّر لذلك الغلام أن يرجع في أي يوم من الايام الى هذا البيت ، يا سيدي ، أكلت رأسي . »

ولم يكد يتمّ كلماته هذه حتى أدنى كرسيه الى الطاولة ادناء أشدّ . وهكذا جلس الصديقان ، في توقّع صامت ، والساعة بينهما .

وليس من غير المفيد أن نلاحظ ـ لكي نصور الاهمية التي نعلّقها على أحكامنا الخاصة والغرور الذي نطلق به أشد قراراتنا تهوراً واندفاعاً ـ انه على الرغم من ان مستر غريمويغ لم يكن بأية حال رجلا متحجر القلب وعلى الرغم من أن الأسى الصادق كان خليقاً به أن يوجع فؤاده لو ألفى صديقه المحترم ضحية خداع وتغرير ، فقد كان يرجو ، في تلك اللحظة ، بأقصى الحماسة والقوة ، لو تطول غيبة أوليفر تويست فلا يعود الى منزل مستر براونلو أبداً .

واشتد الظلام حتى لقد أمست الارقام المرسومة على وجه الساعة لا تُرى الا بشق النفس . ومع ذلك ، ظل السيدان العجوزان جالسين ، في صمت ، والساعة بينهما .

الفصل الخامس عشر

وهو يظهر مدى ولوع اليهودي العجوز المرح والآنسة نانسي بأوليفر تويست

في حجرة الاستقبال القاتمة من احدى الحانات الخفيضة ، في أقذر جزء من « كثيب صافرون الصغير » ـ وهو وكر مظلم كان مصباح غازيّ متلجلج ينيره طوال ساعات النهار في أيام الشتاء ، وكان أيما شعاع من أشعة الشمس لا ينفذ اليه في أيام الصيف ـ جلس رجلٌ مستغرق في التفكير أمام مكيال صفيحيّ صغير وكأس صغيرة ... رجل تفوح منه رائحة الخمر ، مرتد سترة من مخمل قطنيّ وبنطالا قصيراً عسليّ اللون ، وجورباً وحذاء نصف عالي الساق ، لم يكن أيما شرطي متمرس ليشك لحظة ـ حتى على ضوء ذلك النور الباهت ـ انه مستر وليم سايكس . وعند قدميه ، قبع كلب أبيض الفروة أحمر العينين شغل نفسه ، على نحو متناوب ، بغمز سيده بعينيه الاثنتين في وقت واحد ، وبلَعْق جرح جديد بليغ في جانب من فمه بدا وكأنه ثمرة صراع حديث العهد .

ـ « الزم الهدوء ، أيها الكلب القذر ! الزم الهدوء ! » كذلك قال مستر سايكس قاطعاً الصمت فجأة . فهل كانت تأملاته من العمق بحيث تفسدها غمزات الكلب ؟ أم هل كانت تلك التأملات قد أرهقت أعصابه الى حد جعلها محتاجة الى كامل الارتياح المستمدّ من رفْس حيوان لم يسيء اليه لكي يلطّف

من توترها ؟ الواقع ان هذه مسألة تحتمل الجدل والتفكير · وأياً ما كان السبب فأن النتيجة كانت رفسة ولعنة أسبْغتا على الكلب في آن معاً ·

ان الكلاب لا تنزع ، عادة ، الى الاثئـــار لنفسها من المظالم التي ينزلها أصحابها بها · ولكن كلب مستر سايكس ـ وهو الذي يشارك صاحبه بعض شوائب الخُلق والذي كان يرزح في تلك اللحظة تحت وطأة ثقيلة من الشعور بالظلم ـ لم يضع وقته في أيما جلبة او لغط بل سارع الى غرز أسنانه في فردة من الحذاء نصف عالي الساق · حتى اذا هزّها هزة عنيفة انسحب ، وهـــو يعوي ، تحت مقعد خشبي ، ناجياً بذلك من المكيـــال الصفيحيّ الذي سدّده مستر سايكس الى رأسه ·

ـ « آه ، هكذا اذن ! » كذلك قال سايكس ، ممسكاً بمحراك النار بأحدى يديه ، وفاتحاً بالأخرى في كثير من الأناة مطواة كبيرة أخرجها من جيبه · « تعال الى هنا ، أيها الشيطان المتجسِّد ! تعال الي هنا ! هل تسمع ؟ »

ولقد سمع الكلب من غير ريب ، لأن مستر سايكس تكلم بأخشن طبقة من طبقات صوت بالغ الخشونة · ولكنه بدا وكأنه يضمر اعتراضاً لا تفسير له على احتزاز عنقه ، فظلّ في موضعه لا يريم ، وراح يعوي على نحو أحفل بالضراوة من ذي قبل ، ممسكاً بطرف المحراك ـ في الوقت نفسه ـ بين أسنانه ، عاضاً عليه مثل وحش مفترس ·

هذه المقاومة لم تزد مستر سايكس الا هياجاً على هياج ، فجثا على الارض وحمل على البهيمة بأقسى ما استطاع من ضراوة · ووثب الكلب من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، ناهشاً ، عاراً ، نابحاً · وطعن الرجلُ ولعن ، وضرب وجدّف · وكان الصراع قد أوشك أن يبلغ المرحلة الاشدّ حرجاً ، بالنسبة الى هذا الفريق أو الى ذاك ، عندما فُتح الباب فجأة ، فاندفع الكلب الى الخارج ، مخلّفاً بيل سايكس وفي يديه محراك النار والمطواة الكبيرة ·

يقول المثل القديم : لا بد لكل نزاع من فريقين اثنين · واذ حُرم مستر سايكس من مشاركة الكلب فقد حوّل حصتّه في النزاع ـ على التوّ ـ الى الوافد الجـديـــد ·

وقال سايكس في ايماءة ضارية : « ما الذي جعلـــك ، بحق الشيطان ، تقحم أنفك بيني وبين كلبي ؟ »

ـ « لم أدرِ ، يا عزيزي ، لم أدر ! » كذلك أجابه فاجين في تذلل · ذلك بأن اليهودي العجوز كان هو الوافد الجديد ·

فعرّ سايكس : « لم تدرِ ، أيها اللص المخلوع الفؤاد ! ألم يكن في امكانك أن تسمع الضجة ؟ »

فأجابه اليهودي : « لم أسمع أدنى ضجة · في استطاعتك ان تثق من ذلك

ثقتك من أني حيّ أرزق ٠ »

فقال سايكس في سخرية ضارية : « أوه ، لا ! انت لا تسمع شيئاً البتة ٠ أنت تنسلّ دائماً الى داخل الجدران والى خارجها بحيث لا ينتبه اليك المرء وأنت تدخل أو تخرج ! لشد ما أتمنى لو كنت أنت الكلب ، يا فاجين ، قبل نصف دقيقة ليس غير ٠ »

فسأله اليهودي في ابتسامة متكلفة : « لماذا ؟ »

فأجابه سايكس ، وهو يغلق المطواة الكبيرة ويحدج اليهودي بنظـــرة معبّرة : « لان الحكومة ، التي تُعْنى بحياة أمثالك من الرجال الذين لا يملكون نصف ما يملكه الكلاب من جرأة واقدام ، تدع المرء يقتل كلبه كما يحلو له ! هذا هو السبب ! »

وفرك اليهودي يديه ، وجلس الى الطاولة ضاحكاً ، على نحو متكلّف ، لمزاح صديقه ٠ بيد انه كان ، من غير ريب ، مضطرب النفس اضطراباً شديداً ٠

فقال سايكس ، معيداً محراك النـــار الى موضعه ، ناظراً الى اليهودي في ازدراء : « اضحك ٠٠٠ اضحك ما شئت ٠ فلست أنت من يسخر مني ، الا اذا كان ذلك في المنام ٠ اني أنا صاحب اليد العليا عليك ، يا فاجين ، واقسم لك اني لن أتخلى عن تفوقي هذا ٠ انتبه ! اذا قضي عليّ أنا قضي عليك أنت ! وهكذا يحسن بك أن تأخذ حذرك ! »

فقال اليهودي : « حسن ، حسن ، يا عزيزي ٠ انا أعرف هــذا كله ٠ ان ٠٠٠ أن مصلحة مشتركة تجمع ما بيننا ، يا بيل ٠ أجل ٠٠٠ مصلحة مشتركة ٠ »

فقال سايكس ، وكأنه يعتقد أن تلك المصلحة لم تكن متكافئة وان نصيب اليهودي منها كان أعظم من نصيبـــه : « كفى ، كفى ٠ ما الذي تريـــد أن تقوله لي ؟ »

فأجابه فاجين : « لقد انقضى كل شيء بسلام ٠ وهذه هي حصتك ٠ انها أعظم بعض الشيء مما ينبغي أن تكون ، يا عزيزي ٠ ولكني واثق من انك سوف تردّ لي الجميل في مناسبة اخرى ٠ و ٠٠٠ »

فقاطعه اللص بنفاد صبر: « اقلع عن هذا الهراء ! أين هي؟ ادفعها اليّ !»

فأجابه اليهودي ، في لهجة متملقة : « أجل ، أجل ، يا بيل ٠ أمهلني قليلا ! امهلني قليلا ! ها هي ذي ! خذها كاملة غير منقوصة ! » قال ذلـــك وأخرج من صدره منديلا قطنياً عتيقاً ، ثم حلّ عقدة كبيرة في احدى زواياه ، وأبرز منه رزمة ورقية سمراء صغيرة ٠ فلم يكن من سايكس الا ان اختطـــف الرزمة منه ، وفتحها على عجل ، وأنشأ يعدّ ما اشتملت عليه من جنيهات ذهبية٠

وسأله سايكس : « هذا كل شيء ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه اليهودي : « أجل ، كل شيء . »

فسأله سايكس في ارتياب : « أنت لم تفتح الرزمة وتبلع ، وأنت في طريقك الي ، واحداً أو اثنين منها ، أليس كذلك ؟ لا تتظاهر بأن سؤالي هذا قد جرح كبرياءك ، فقد أقدمت على مثل ذلك مرات عديدة . رُجّ الجلجل ! »

وانما تعني ، هاتان اللفظتان ، باللسان الانكليزي الصريح : « اقــرع الجرس ! » فاذا بيهودي آخر يلبي النداء : يهودي أصغر سناً من فاجين ، ولكنه لا يقلّ عنه دناءة وبشاعة مظهر .

واكتفى بيل سايكس بالايماء الى المكيال الفارغ . وفهم اليهودي ذلــك التلميح أحسن فهم ، فانسحب لكي يملأه ، ولكن بعد أن تبادل نظرة غريبــة مع فاجين ، الذي رفع بصره لحظة ، وكأنه كان يتوقعها ، وهزّ رأسه جواباً عنها ، على نحو طفيف الى درجة كادت تخفي تلك الحركة عن عين أيما شخص ثالــث يراقبهما . ومهما يكن من أمر ، فقد فاتت سايكس ، الذي كان منحنياً ، في تلك اللحظة ، يعقد شريط حذائه الذي مزقه الكلب . ومن يدري ؟ فلعله لو لاحظ تبادل النظر الخاطف ذاك ، اذن لخيّل اليه أنه لا يبشّره بشيء من الخير .

ــ « هل يوجد أحد هنا ، يا بارني ؟ » كذلك تساءل فاجين من غير أن يرفع عينيه عن الارض بعد أن أخذ سايكس ينظر اليه .

فأجابه بارني : « ليس يوجد أي مخلوق » . وسواء أصدرت هذه الكلمات من القلب أم لم تصدر فأنها اتخذت سبيلها عبر الأنف على أية حال .

ــ « لا أحد ؟ » كذلك تساءل فاجين في لهجة متعجبة ، ربما عنت ان في امكان بارني أن يقول الحقيقة من غير أن يحتاط أو يتحفظ .

فأجابه بارني : « لا أحد غير الآنسة نانسي . »

فهتف سايكس : « نانسي ؟ أين هي ؟ فلأصَبْ بالعمي اذا كنت لا اقدّر تلك الفتاة لمواهبها الفطرية . »

فأجاب بارني : « كانت تأكل طبقاً من لحم البقر في المشرب . »

ــ « جئني بها الى هنا ! » قال سايكس ذلك وهو يترع كأسه . « جئني بها الى هنا . »

ونظر بارني الى فاجين ، في وجل ، وكأنه يلتمس عنده الأذن بذلك . واذ ظل اليهودي صامتاً وغير رافع عينيه عن الارض ، انسحب بارني ثم عاد في الحال وادخَل نانسي ، التي كانت مزدانة بالقلنسوة ، والمئزر ، والسلة . والمفتاح الضخم جميعاً .

ــ « أنتِ لا تزالين تقصّين الأثر ، أليس هذا صحيحاً يا نانسي ؟ » كذلك سألها سايكس ، وقدّم اليها كأساً .

فأجابته السيدة الصغيرة وهي تأتي على آخر قطرة في الكأس : « أجل ، لا

أزال ، يا بيل • ولقد سئمت هذه المهمة سأما عظيماً • كان الغلام الصغير مريضاً ، ولقد فرضوا عليه أن يلتزم السرير • و ••• »

فقال فاجين ، رافعاً بصره : « آه ، يا عزيزتي نانسي ! »

وقد يكون في ذلك التقلص الغريب الذي طرأ على حاجبَيْ اليهودي الأحمرين ، وفي اغماض عينيه الغائرتين نصف اغماضة ، ما نبّه الآنسة نانسي الى ان لسانها يكاد يسرف في الافضاء بأشياء يجب أن تظل طيّ الكتمان • ولكن هذا لا يهمنا كثيراً • ان كل ما ينبغي أن نعنَى به هنا هو الوقائع • وانه لمن الوقائع التي لا ريب فيها أن نانسي كبحت جماح نفسها فجأة ، وحوّلت الحديث الى موضوعات اخرى بعد أن غمرت سايكس بفيض من ابتساماتها الكريمة • وبعد عشر دقائق تقريباً استبدّت بمستر فاجين نوبة من سعال • فلم يكن من نانسي الا ان شدّت شالها فوق كتفيها ، وأعلنت أن ميعاد انصرافها قد حان • واذ وجد مستر سايكس ان عليه هو نفسه أن يسلك جزءاً من طريقها ذاتها فقد عبر عن عزمه على مرافقتها • وانطلقا معاً ، يتبعهما على مَبْعدة دانية الكلبُ الذي انسلّ من فِناءٍ خلفيّ حالما غاب سيده عن الأنظار •

وأطل اليهودي برأسه من وراء باب الحجرة عندما غادرها سايكس • وأتبعَهُ بصرهُ فيما كان يمضي في المجاز المظلم ، وهزّ جُمْع كفه ، مغمغماً بلعنة عميقة • ثم انه عاود الجلوس الى الطاولة ، مطلقاً بسمة عريضة رهيبة ، وسرعان ما استغرق في مطالعة « مجلة البوليس » الشائقة •

وفي غضون ذلك كان أوليفر تويست في طريقه الى كشك الكتب من غير أن يخطر له ببال أنه على مثل تلك المسافة القصيرة من العجوز المرح • حتى اذا بلغ كليركينويل انعطف ، مصادفة ، نحو زقاق لم يكن جزءاً من طريقه على وجه الضبط • ولم يكتشف خطأه الا بعد ان اجتاز نصف ذلك الزقاق ، ولكنه كان واثقاً من أنه لا بد أن يفضي آخر الأمر الى الاتجاه الصحيح فلم يَرَ ان يجشم نفسه عناء النكوص على عقبيه • وهكذا واصل سيره ، بأسرع ما استطاع ان يواصله ، والكتب تحت ابطه •

وكان يُغذّ الخطى ، متأملا في مختلف الأسباب التي توجب عليه ان يستشعر أعظم السعادة والرضا ، وفي مقدار استعداده للتخلي عن الكثير الكثير من أجل القاء نظرة واحدة على « دِك » الصغير البائس الذي ربما كان في تلك اللحظة بالذات يسفح الدمع المرير من اثر التجويع والضرب المبرّح ••• أقول كان يغذ السير على هذا النحو عندما أجفل لدن سماعه امرأة شابة تصرخ بصوت عال: « أوه ، يا اخي الحبيب ! » ولم يكد يرفع بصره ليرى ما المسألة حتى أوقفته ذراعان طوّقتا عنقه تطويقاً محكماً •

فصاح أوليفر محاولا التملص من تينك الذراعين : « اتركني ! دعني امضي

في سبيلي · من أنت ؟ علام توقفني ؟ »

وكان الجواب الوحيد عن هذا كله عدداً كبيراً من ضروب الانتحاب والعويل أطلقتها المرأة الشابة التي كانت قد عانقته والتي كانت تحمل في يدها سلة صغيرة ومفتاحاً ضخماً ·

وقالت المرأة الشابة : « أوه ، يا آلهي ! لقد وجدته ! اوه ! أوليفر ! أوليفر ! أوه أيها الغلام الخبيث ، كيف ترضى أن تحمّلني هذا الأسى كله من أجلك ! عد الى البيت ، يا عزيزي ، عد · اوه ، لقد وجدته ! حمداً للعناية الآلهية ، لقد وجدته ! » وفي غمرة من هذه الصيحات المتقطعة انفجرت المرأة الشابة في نوبة جديدة من البكاء واستبدت بها هستيريا رهيبة الى درجة حملت امرأتين اثنتين اقبلتا في تلك اللحظة على أن تسألا صبيّ جزار ذا شعرٍ لمّاع من اثر المسح بالدهن كان يتابع المشهد هو الآخر ، ألا يظن ان من الخير أن يعدو ويستدعي الطبيب · فما كان من صبي الجزار ذاك ، الذي كان في ما يبدو ذا مزاج بليد ، لكي لا نقول عديم الأحساس ، الا ان أجاب قائلا انه لا يظن ذلك ·

وقالت المرأة الشابة ، ممسكة بيد أوليفر : « أوه ، لا ، لا ، ليس هناك ايّ داع للقلق · أنا الآن أحسن حالا · عد الى البيت في الحال ، أيها الغلام القاسي ! عد ! »

وتساءلت احدى المرأتين : « ما المسألة· يا سيدتي ؟ »

فأجابتها المرأة الشابة : « أوه ، يا سيدتي ، لقد فرّ ، منذ شهر تقريباً ، من أبويه وهما مخلوقان جليلان كادحان ، والتحق بجماعة من اللصوص والاشرار ، مفطّراً بذلك فؤاد أمه · »

فقالت احدى المرأتين : « يا لك من صعلوك صغير ! »

وقالت الاخرى : « عد الى البيت ، عد ، أيها الوحش الصغير ! »

فأجاب أوليفر مروّعاً ترويعاً بالغاً : « هذا غير صحيح ! أنا لا أعرفها ! ليس لي أخت ، بل ليس لي أب وأم · أنا يتيم · أنا أقيم في بينتونفيل · »

فصاحت المرأة الشابة : « حسبكم ان تصغوا اليه اذن ، اذا كانت لديه الجرأة الكافية ! »

ـ « ولكن هذه نانسي ! » كذلك هتف أوليفر ، وكان قد رأى الآن وجهها للمرة الاولى · وارتد الى الوراء مجفلا ، في دهش لا سبيل الى كبحه ·

فصاحت نانسي ، مُشهِدة النظارة : « أرأيتم انه يعرفني ! انه لا يستطيع أن يساعد نفسه · احملوه على العودة الى البيت ، والا قضى أبوه وأمه نحبهما ، وفطّر قلبي أنا حزناً عليه · »

وقال رجل اندفع في تلك اللحظة منطلقاً من احدى الحانات وفي أثره كلب أبيض : « ما هذا ؟ أوليفر الصغير ! عد الى أمك البائسة ، أيها الجرو ! عد

الى البيت في الحال ! »

فصاح أوليفر مناضلا للتخلص من قبضة الرجل القوية : « أنا لست منهم ! أنا لا أعرفهم ! النجدة ! النجدة ! »

فكرر الرجل : « النجدة ! أجل ، أنا الذي سوف أنجدك ، أيها الوغد الصغير ! ما هذه الكتب ؟ لقد سرقتها ، أليس كذلك ؟ أعطني اياها ! » قال ذلك وانتزع المجلدات من قبضته وضربه على أم رأسه ·

فصاح أحد النظارة من نافذة احدى العلالي : « أحسنت ! تلك هي الطريقة الوحيدة لاعادته الى صوابه ! »

– « من غير ريب ! » كذلك صاح نجار وسنان ، وهو يلقي على نافذة العليّة نظرة ترشح بالرضا والموافقة ·

وقالت المرأتان : « ان تلك الضربة سوف تعود عليه بفائدة كبيرة · »

فقال الرجل وهو يسدّد الى أوليفر ضربة أخرى ويأخذ بخناقه : « آه ، ولسوف يتلقّاها أيضاً ! هيا ، أيها النذل الصغير ! والآن ، يا « عين الثور* » ، تولَّ أمره ! تولَّ أمره ! »

ما الذي يستطيع أن يفعله في مثل هذه الحال طفل بائس هدّت قواه مَرْضةٌ حديثة العهد ، وروّعه عواء الكلب الضاري ووحشية الرجل ، وقهره اقتناع النظارة بأنه كان فعلا ذلك الوغد الصغير المتحجر الفؤاد كما حاول خصماه أن يصوّراه ؟ وكانت العتمة قد هبطت ، وكان الحيّ نائياً مهجوراً · لم يكن ثمة من ينجده ، وكانت المقاومة عبثاً لا طائل تحته · فما هي غير لحظة ، حتى سيق الى متاهة من الازقة الضيقة المظلمة ، وأكرِهَ على اجتيازها في سرعة جعلت الصيحات القليلة التي تجرّأ على اطلاقها غير بيِّنة ولا مفهومة · وحتى لو كانت تلك الصيحات بينة او مفهومة اذن لما أغنت عنه شيئاً · اذ لم يكن ثمة من يلقي اليها بالا ·

* * *

كانت مصابيح الطرق الغازيّة قد أضيئت · وكانت مسز بيدوين تنتظر في قلق أمام الباب المفتوح على مصراعيه · وكانت الخادم قد ذرعت الشارع راكضة عشرين مرة متوالية علّها تجد لاوليفر أثراً · وكان السيدان العجوزان لا يزالان جالسين ، على نحو مثابر ، في حجرة الاستقبال القاتمة · والساعةُ بينهما !

---

* يقصد كلبه · (المعرب)

الفصل السادس عشر
وفيه نرى ما حل بأوليفر تويست بعد أن ادعته نانسي

وأخيراً أفضت الازقة الضيقة الى ساحة واسعة مكشوفة تناثرت فيها زرائب البهائم وغيرها من القرائن التي تدل على سوق من أسواق الماشية ٠ وعند هذه البقعة خفف سايكس من سرعة الانطلاق التي كانا قد اصطنعاها حتى ذلك الحين ، بعد أن أمست الفتاة غير قادرة بالكلية على الاحتمال أكثر مما فعلت ٠ ثم انه التفت الى أوليفر وأمره ، في خشونة ، بأن يمسك بيد نانسي ٠

حتي اذا تردد أوليفر عرّ سايكس قائلا : « هل تسمع ؟ » وأجال بصره في ما حوله ٠

كانوا الآن قد بلغوا زاوية مظلمة ، بعيدة كل البعد عن أقدام السابلة ٠ وأدرك أوليفر ادراكاً لا يرقي اليه الشك ان المقاومة لن تجديه شيئاً ، فبسط يده فأمسكت نانسي بها في احكام ٠

– « أعطني يدك الأخرى ! » قال سايكس ذلك وأمسك بيد أوليفر الشاغرة ٠ « اسمع ، يا عين الثور ! »

فرفع الكلب بصره وانشأ يهرّ ٠

وقال سايكس واضعاً يده الأخرى على عنق أوليفر ، مخاطباً الكلب : « انظر هنا ، أيها الغلام ! اذا نطق بكلمة واحدة ، ولو همساً ، سارِعْ الى الانقضاض عليه ٠ مفهوم ؟ »

فهرّ الكلب كرة اخرى٠ وراح يحدج أوليفر بنظرة قاسية ، لاعقاً شفتيه ، وكأنه متلهف لأن يمسك بقصبة رئته في غير ابطاء ٠

– « انه شديد الحماسة مثل رجلٍ مسيحي ٠٠٠ فلأصب بالعمى ان لم يكن كما أقول » ، كذلك قال سايكس ناظراً الى الكلب في ضرب من الموافقة الكالحة الضارية ٠ « والآن انت تدري ما الذي ينتظرك ، أيها المعلّم٠ وهكذا فأن في امكانك ان تطلق صيحات النجدة بأسرع ما يحلو لك ، ولسوف يتولى الكلب في الحال وضع حد لهذه اللعبة ٠ تقدّم ، يا صغيري ! »

وبصبص « عين الثور » بذنبه تعبيراً عن اعترافه بجميل سيده الذي تلطّف فخاطبه بهذه اللهجة التودّدية غير المألوفة ٠ ثم انه أطلق عواء انذارياً آخر موجهاً الى أوليفر ، وتقدّم ليسير على رأس الموكب ٠

كانوا يجتازون الآن حيّ سميثفيلد ٠ ومن يدري ، فلعلهم كانوا يجتازون ساحة غروسفينور ، فقد التبس الأمر على أوليفر فهو لا يميز ما بين شارع وشارع ٠ وكان الليل دامساً مُضبّباً ٠ ولم توفق أضواء الدكاكين ، الا بشق

النفس ، الى اختراق الضباب الكثيف الذي كان يتعاظم لحظة بعد لحظة ، والذي لفَّ الشوارع والبيوت بغطاء من الظلام ، زاد المكان في عيني أوليفر غرابة على غرابة ، وجعل شكلَه أشدّ ايحاشاً وأدعى الى الغم ٠

وكانوا قد مشوا بضع خطي حثيثة عندما قُرِع ناقوس احدى الكنائس معلناً الساعة في جرْس عميق ٠ ولم يكد قائدا أوليفر يسمعان أولى دقـات الناقوس حتى كفّا عن السير والتفتا الى الجهة التي انبعث منها الصوت ٠

وقالت نانسي عندما صمت الجرس : « الساعة الثامنة ، يا بيل ٠ »

فاجابها سايكس : « ما الفائدة من انبائي بهذا ؟ ان في امكاني أن أسمعه ٠ أليس في امكاني ذلك ؟ »

فقالت نانسي : « اني لاتساءل : ترى هل يستطيعون هم أن يسمعوه ؟ »

فأجابها سايكس : « انهم يستطيعون ذلك من غير ريب ٠ لقد كان معرض بارتليمي قائماً عندما احتجزوني ٠ ولم يكن في المعرض بوق صغير واحد ، اذ أني لم أسمع زعيقه البتة ٠ وبعد أن حُبِست تلك الليلة ، أدّى الضجيج المنبعث من الخارج الى اغراق السجن العتيق الراعد في بحر من الصمت اغراني بأن أنطح برأسي صفائح الباب الحديدية ٠ »

فقالت نانسي ، وكانت لا تزال ترهف الاذن نحو مُنْطلَـقِ دقـات الناقوس : « يا لهم من فتية بائسين ! اوه ، يا بيـل ، ما أروعهم من غلمان حسان ! »

فأجابها سايكس : « أجل ، هذا ما تفكرن بـه ، أنتن معشر النساء ، كلّكن ٠ غلمان حسان ! حسن ، انهم أموات او كالاموات ، وهكـذا فأنهم لا يقدّمون ، في المسألة ، ولا يؤخرون ٠ »

بهذا الضرب من العزاء حاول مستر سايكس ، في ما يبدو ، أن يكبح جماح غَيْرة كانت على وشك أن تثور في ذات نفسه ٠ ثم انه ضغط على معصم أوليفر ضغطاً أشد احكاماً ، وأمره بالسير من جديد ٠

فقالت الفتاة : « انتظر دقيقة ! أنا لن أغذّ السير حتى ولو كنت أنـت الذي ستعلَّق على أعواد المشنقة عندما تدق الساعةُ الثامنة كرة اخرى ، يا بيل ٠ اني افضل ان أطوف بالمكان وأطوف حتى أسقط على الارض ، ولو كانت مكسوة بالثلج وليس لديّ شالٌ أتدثر به ٠ »

فتساءل مستر سايكس المتحجر العاطفة : « وأية فائدة تجنينها من ذلك ؟ انكِ ان لم تعثري على مبرد وعشرين ياردة من الحبال القوية الغليظة فقد تحسنين صنعاً بالتنزه على مبعدة خمسين ميلا ، أو بعدم التنزه البتة ، لما يعود به ذلك عليّ من خير ٠ الى الامام ، ولا تقفي هنا للتبشير والوعظ ! »

فانفجرت الفتاة بالضحك ، وأحكمت شدّ الشال حول كتفيها ، وانطلقوا

في سبيلهم ، ولكن أوليفر أحس بيدها ترتعش ، واذ رفع بصره ليرى الى وجهها عندما مرّوا بأحد المصابيح الغازيّة لمح انه كان قد استحال شاحباً شحوب الموت ٠

وواصلوا سيرهم ، مجتازين طرقاً مهجورة قذرة ، طوال ثلاثين دقيقة كاملات ، غير مُلتقين الا قلة قليلة من الناس ـ قلة قليلة بدت وكأنها تحتل في الهيئة الاجتماعية مثل المركز الذي كان مستر سايكس نفسه يحتله ٠ وأخيراً انعطفوا نحو زقاق بالغ القذارة يكاد يغصّ بدكاكين بيع الملابس العتيقة ٠ وبعد أن انطلق الكلب يعدو أمامهم ، وكأنه وعى أنه لم تبق ثمة حاجة لالتزام الحذر والاحتراس ، وقف تجاه باب دكان كان موصداً وكان في ما يبدو شاغراً غير مستأجَر ٠ كان المنزل متداعياً الى السقوط ، وعلى الباب سُمّرت لوحة من الورق المقوى تفيد أنه برسم الايجار ٠٠ لوحة بدت وكأنها عُلّقت هناك منذ سنوات عديدة ٠

وصاح سايكس ، وهو يجيل طرفه في ما حوله باحتراس : « لا بأس »

وانحنت نانسي تحت مصاريع النوافذ ، وسمع أوليفر رنين جرس ٠ وانتقلوا الى الجانب الآخر من الطريق ، ووقفوا بضع لحظات تحت مصباح ٠ وسُمِعت ضجة شبيهة بضجة نافذة مؤطَّرة تُرفع في رفق ٠ عندئذ أخذ مستر سايكس ، من غير ما كياسة البتة ، بخناق الغلام المروَّع ٠ وسرعان ما أمسى الثلاثة داخل جدران المنزل ٠

كان المجاز مظلماً بالكلية ٠ وانتظروا ريثما عمد الشخص الذي فتح لهم الباب الى ايصاده بالسلسلة والمزلاج ٠

وتساءل سايكس : « هل يوجد أحد هنا ؟ »

ـ « لا ! » كذلك أجابه صوت خُيِّل لأوليفر أنه سمعه من قبل ٠

وسأل اللص : « هل العجوز هنا ؟ »

فأجابه الصوت : « نعم ، ولقد كان قلقاً مضطرب الافكار الى أبعد الحدود ٠ ولشدّ ما سوف يسرّ برؤيتكم ٠ »

وبدا أسلوب هذا الجواب ، والصوتُ الذي نطق به ، مألوفَيْن في أذني أوليفر ٠ بيد أنه كان من المتعذر عليه أن يتبيَّن حتى شكل المتحدث في الظلام ٠

فقال سايكس : « ايتنا بمصباح ، والا دُقّت أعناقنا أو دُسْنا الكلب ٠ وفي مثل هذه الحال يحسن بكم أن تصونوا أرجلكم من الأذى ! »

ـ « قفوا لحظة ، ولسوف آتيكم بمصباح ، » كذلك أجاب الصوت ٠ وسُمِعت خطى المتكلم المتراجعة ، وما هي غير دقيقة واحدة حتى برز شخص مستر جون داوكنز ، الملقب ب « المراوغ الماكر » ٠ كان يحمل بيده اليمنى شمعة من الشحم مغروسة في طرف عصا مشقوقة ٠

ولم يتمهل السيد الشاب ليوجه الى اوليفر أيا أمارة من الامارات المؤذنة بأنه يعرفه ، باستثناء بسمة ساخرة افترت عنها شفتاه · ولكنه انعطف وأخذ يهبط درجات السلم ، داعياً زائريه الى اللحاق به · وعبروا مطبخاً فارغاً · حتى اذا فتحوا باب حجرة خفيضة تفوح منها رائحة الرطوبة البالغة ، حجرة بـدت وكأنها بنيت في فناء خلفي صغير ، استقبلتهم عاصفة من الضحك ·

وصاح المعلم تشارلز بايتس ، الذي انبثق ذلك الضحك من رئتيه : « أوه ، يا شعري المستعار ، يا شعري المستعار! ها هو ذا ! أوه ، ها هو ذا ! أوه ، يا فاجين ، انظر اليه ! فاجين أتوسل اليك أن تنظر اليه ! أنا لا أحتمل ذلك ! انها لصيدة ظريفة حقا · أنا لا أستطيع احتمال ذلك · فليسندني واحدٌ منكم ريثما أنفّس عن ذاتي بشيء من الضحك · »

وأطلق المعلم بايتس العنان لفورة مرحه التي لا تُكبح ، فانطرح متمدداً على الارض ، وراح يرفسها بقدميه طوال خمس دقائق رفساً تشنجياً ، في نشوة من الابتهاج والطرب · ثم انه انتصب واقفاً على قدميه ، وانتزع العصا المشقوقة من يد « المراوغ » وتقدم نحو أوليفر وأنشأ يتأمله من أطرافه جميعاً ، في حين نزع اليهودي قلنسوة نومه ، وانحني للغلام المشدوه انحناءات خفيضة لا تكاد تحصى · وفي غضون ذلك راح « المراوغ الماكر » ، الذي كان أميل الى الكآبـة والذي نادراً ما كان يستسلم للمرح حين تكون المسألة مسألة عمل ، أقول وفي غضون ذلك راح « المراوغ الماكر » ينهب جيوب أوليفر في مثابرة لا تعرف الكلل ·

وقال تشارلي ، مقرباً المصباح الى سترة أوليفر الجديدة تقريباً كاد ان يضرم فيها النار : « انظر الى ملابسه ، يا فاجين ! انظر الى ملابسه ! انها مخيطة من جوخ ممتاز ، وان تفصيلها غاية في الاناقة · أوه ، يا سلام ! يا له من صيد سمين ! » وهو يحمل كتباً أيضاً · ان الناظر اليه ليحسبه « جنتلمان » حقيقياً ، يا فاجين ! »

فقال اليهودي منحنياً في اتضاع مصطنع : « أنا سعيد بأن أراك حسن البزة الى هذا الحد ، يا عزيزي · ان « المراوغ » سوف يعطيك بذلة اخرى ، يا عزيزي ، خشية أن تفسد بذلة الأحد هذه · لماذا لم تكتب اليّ ، يا عزيزي ، وتخبرني انك قادم ؟ انك لو فعلت لأعددنا لك عشاء ساخناً · »

وهنا ضجّ المعلم بايتس بضحك هادر ··· هادر الى درجة جعلت اليهودي يسترخي ، وجعلت « المراوغ » نفسه يبتسم · ولكن لما كان « المراوغ » قد أخرج في تلك اللحظة بالذات ورقة الخمسة جنيهات فأن من حقنا أن نتساءل ما الذي أيقظ مرحه في الواقع : نكتة اليهودي ام اكتشاف الورقة النقدية ؟

وقال سايكس وهو يثب الى أمام عندما اختطف اليهودي تلك الورقة : « هالو ! ما هذا ؟ هذه لي ، يا فاجين · »

فقال اليهودي : « لا ، لا ، يا عزيزي ٠ انها لي ، يا بيل ، انها لي ٠ أما أنت فستكون الكتب نصيبك ٠ »

فقال بيل سايكس معتمراً قبعته في سيماء العازم المصمم : « اذا لم تكن لي ٠٠٠ اعني اذا لم تكن لي ولنانسي فسوف أعيد الغلام الى حيث كان ٠ »

وهنا أجفل اليهودي ٠ وأجفل أوليفر أيضاً ، ولكن لسبب مختلف جداً ٠ ذلك بأن الأمل راوده مصوّراً له ان النزاع قد يفضي فعلا الى اعادته من جديد ٠

وقال سايكس : « هيّا ! أرْجِع الورقة النقدية اليّ ، ارجعها بسرعة ! »

فتساءل اليهودي : « هذا بعيد جدا عن العدل ، يا بيل ، بعيد جداً عن العدل ، أليس كذلك يا نانسي ؟ »

فأجابه سايكس : « أرجِعْها اليّ ، أقول لك : سواء أكان هذا عدلا أم لم يكن ٠ هل تحسب أنني ونانسي ليس لدينا من عمل غير انفاق وقتنا الثمين في مطاردة واختطاف كل غلام صغير يُلتقط بواسطتك ؟ اعطني اياها ، أيها الهيكل العظمي العجوز الطماع ! أعطني اياها ! »

بهذا الاحتجاج الرقيق اختطف مستر سايكس الورقة النقدية من بين سبابة اليهودي وابهامه ٠ ثم انه طواها عدة مرات ، ناظراً الى العجوز في وجهه ببرود ، وعقد منديله عليها ٠

فقال سايكس : « هذه الورقة بمثابة تعويض عما تحمّلناه من متاعب ، وهي لا تفي بنصفه ، على أية حال ٠ في امكانك انت ان تحتفظ بالكتب ، اذا كنت مولعاً بالمطالعة ٠ واذا لم تكن ، فليس عليك الا أن تبيعها ٠ »

ــ « انها قيّمة جداً ، » كذلك قال تشارلي بايتس ، الذي كان يتظاهر بقراءة واحد من تلك المجلدات ، محرّفاً معالم وجهه تحريفات شتى ٠ « انها مفرغة في اسلوب جميل ، أليس كذلك ، يا اوليفر ؟ » واذ لمح النظرات المذعورة التي وجهها أوليفر الى معذّبيه استغرق المعلم بايتس ــ الذي كان يتمتع بحس مرهف لكل ما هو فكاهيّ ــ في نشوة من الابتهاج اخرى ، أشد صخباً من نشوته الأولى ٠

وهنا قال أوليفر وهو يعتصر يديه : « انها للسيد العجوز ٠ للسيد العجوز الصالح ، الكريم ، الذي آواني ومرّضني عندما كنت على وشك الموت من الحمّى ٠ اوه ، أرجوكم ان تعيدوها اليه ٠٠٠ أعيدوا اليه الكتب والمال ٠ أبقوني هنا طوال عمري ، ولكن أرجوكم ٠٠٠ أرجوكم أن تعيدوا هذه الاشياء كلها اليه ٠ انه سوف يظن انني سرقتها ٠ والسيدة العجوز ، وجميع الذين أحسنوا اليّ ، سوف يظنون انني سرقتها ٠ أوه ، اشفقوا عليّ ، وأعيدوها اليه ! »

قال أوليفر هذه الكلمات بكل ما ينطوي عليه الأسى المشبوب من قوة ،

وجثا عند قدمي اليهودي ، وراح يضرب احدى يديه بالأخرى في يأس عظيم ٠

وأعلن فاجين وهو يختلس النظر الى ما حوله ، عاقداً حاجبيه الكثيفين في كتلة واحدة قاسية : « الغلام على حق ٠ انت على حق ، يا أوليفر ، أنت على حق ٠ انهم سوف يظنون انك سرقتها ٠ ها ! ها ! » وضحك اليهودي في فتور ، فاركاً يديه ٠ ان ذلك ما كان ليحدث على نحو أفضل لو أننا اخترنا نحن ميقات حدوثه ! »

فأجابه سايكس : « أجل ، انه ما كان ليحدث على نحو أفضل ٠ لقد عرفت ذلك ، حالما رأيته يصل الى كليركينويل ، متأبطاً تلك الكتب ٠ كل هذا حسن ٠ انهم قوم أصحاب قلوب رقيقة ، والا لما آووه البتة ، وهم لن يطرحوا أي سؤال عن مكان وجوده ، خشية ان يكرههم ذلك على الادعاء ، وان يعرّضه الادعاء لخطر السجن مع الاشغال الشاقة ٠ ان في امكانكم ان تطمئنوا الى أنه آمنٌ الى حدّ بعيد ٠ »

وكان أوليفر قد نقّل بصره من واحد الى آخر ، بينا كان ذلك الحوار دائراً ، وكأن الانشداه قد غلب عليه ، ولم يكد يفهم شيئاً مما جرى ٠ ولكن ما ان ختم بيل سايكس كلامه حتى انتصب أوليفر واقفاً وغادر الغرفة في اهتياج ضار ، مرسلا صيحات استنجاد تردّد صداها في ارجاء البيت العتيق العاري حتى بلغ السقف نفسه ٠

وصاحت نانسي ، واثبة أمام الباب ، مغلقة اياه بعد أن اندفع اليهودي وتلميذاه في اثر الغلام : « اكبح جماح الكلب ، يا بيل ! اكبح جماح الكلب ! انه سوف يمزق الغلام ارباً ٠ »

وصاح سايكس باذلا أقصى جهده للافلات من قبضة الفتاة : « ان ذلك سوف يعطيه درساً مفيداً ٠ حيدي عن طريقي ، والا ضربت رأسك بالجدار ففلقتُه ٠ »

فصاحت الفتاة مصارعة الرجل في عنف : « لست أبالي بذلك ، يا بيل ! لست أبالي بذلك ! ان الكلب لن يمزق ذلك الغلام الا اذا قتلتَني أولا ٠ »

فقال سايكس وهو يحكم اطباق أسنانه : « تقولين لن يمزقه ؟! سوف أفعل ذلك في الحال اذا لم تحيدي عن طريقي ٠ »

وأبعد اللص الفتاة بعيداً عنه قاذفاً بها الى أقصى الحجرة عندما رجع اليهودي والغلامان جارّاً أوليفر بينهما ٠

وقال فاجين مجيلا الطرف في ما حوله : « ما المسألة هنا ؟ »

فأجابه سايكس في وحشية : « لقد أصاب الفتاة مسٌ من جنون ٠ »

فقالت نانسي شاحبة الوجه منقطعة النفَس من اثر الصراع : « لا ، لم يصبها مسٌ من الجنون ٠ لا ، لم يصبها ، يا فاجين ٠ لا تصدّق ذلك ٠ »

فقال اليهودي حادجاً اياها بنظرة متوعدة : « اذن فالزمي الهدوء · هل لك أن تلزمي الهدوء ؟ »

فأجابت نانسي متكلمة بصوت مرتفع جداً : « لا · ولن أفعل ذلك أيضاً · هيه ! ما رأيك في ذلك ؟ »

وكان فاجين يألف عادات هذه الجماعة البشرية الغريبة التي تنتسب اليها نانسي ألفة كافية لجعله على مثل اليقين من أن اطالة المناقشة معها ، في الوقت الحاضر ، أمرٌ غير مأمون · وهكذا التفت الى أوليفر ، ابتغاء تحويل أنظار الجماعة ، وقال له رافعاً قضيباً مشقوقاً ذا عُقَد كان مطروحاً في زاوية المستوقد :

ــ « وهكذا أردت أن تفرّ ، يا عزيزي ، أليس كذلك ؟ »

فلم يُجب أوليفر بشيء · ولكنه راقب حركات اليهودي ، وأنشأ يلهث ·

وتابع اليهودي كلامه في نبرة ساخرة ممسكاً بالغلام من ذراعه : « أردتَ أن تلتمس النجدة ··· ان تدعو رجال الشرطة ، أليس كذلك ؟ اننا سوف نشفيك من ذلك ، يا معلمي الصغير · »

وسدّد اليهودي الى كتفي أوليفر ضربة بالقضيب عنيفة · ولم يكد يرفعه ليسدد اليهما ضربة اخرى ، حتى اندفعت الفتاة الى الأمام وانتزعته من يده ، وقذفت به الى النار في قوة جعلت بعض الجمرات المتوهجة تتدحرج وسط الحجرة ·

وصاحت الفتاة : « أنا لن أقف من أعمالك هذه مكتوفة اليدين ، يا فاجين ! لقد فزت بالغلام ·· فما الذي تطمع فيه بعدُ ؟ دعه وشأنه ··· دعه وشأنه ··· والا تركت على جسد بعضكم تلك الآثار التي يجدر بها أن تسوقني الى المشنقة قبل أن يجيء دوري · »

وضربت الارض بقدمها ، وهي تطلق هذا الوعيد ، ضربة عنيفة · وراحت تنظر الي اليهودي حيناً والى اللص الآخر حيناً ، وهي مطبقَة الشفتين ، مقبوضة اليدين · كان وجهها شاحباً شحوب الموت من اثر الغيظ الذي استبدّ بها شيئاً بعد شيء ·

وقال اليهودي ، في لهجة مهدّئة : « كفي ، كفي ، يا نانسي ! وبعد صمت يسير تبادل خلاله هو ومستر سايكس نظرات حادة مرتبكة أضاف: « أنتِ ··· انت الليلة أبرع منكِ في أيما وقت مضى · ها ! ها ! يا عزيزتي · أنتِ تمثلين دورك على نحو رائع ! »

فقالت الفتاة : « صحيح ؟ حذار أن تكرهني على تجاوز كل حدّ ! انك ان فعلت كنت انت الجاني على نفسك ، يا فاجين · وهكذا أقول لك ، قبل فوات الاوان ، أن تجتنب غضبي ! »

ان لدى المرأة المستثارة (وبخاصة اذا أضافت الى جميع عواطفها العنيفة الأخرى حافزيْ التهور واليأس الضاريَيْن) شيئاً لا يرغب في تحدّيه غير قلة قليلة من الرجال . ورأى اليهودي ان من العبث الذي لا طائل تحته أن يمعن في تجاهل حقيقة الثورة التي عصفت بالآنسة نانسي ، فارتد — على نحو لا شعوري — بضع خطوات الى الوراء ، وسدّد الى سايكس نظرة نصف متوسلة ونصف مذعورة ، وكأنما كان يريد أن يفهمه من طرف خفي انه هو الشخص الأكثر أهلية لمتابعة هذا الحوار .

ولم يكد مستر سايكس يتلقى هذا التوسل الابكم — ولعله استشعر في الوقت نفسه ان غروره ونفوذه الشخصيين يفرضان عليه أن يُعْنى بأعادة الآنسة نانسي الى جادة الصواب — حتى أطلق بضع عشرات من اللعنات والتهديدات التي كان في تعاقبها السريع ما أعطى فكرة مشرّفة عن خصب ملكة الخيال عنده . واذ لم تحدِث هذه أيما أثر في نفس الشخص الذي استهدفته فقد لجأ الى حجج أشد بلاغة وقوة .

— « ماذا تعنين بهذا كله ؟ » كذلك قال سايكس ، مُرْدفاً تساؤله بلعنة تتصل بأجمل جزء من أجزاء الطلعة البشرية* ، لعنة لو سُمِعت في السماء مرة واحدة من أصل كل خمسين الف مرة من جريان الألسنة بها هنا في الارض اذن لأمسى العمى بلاء لا يقل تفشياً عن الحصبة . « ماذا تعنين بهذا كله ؟ أحرقوا جسدي ! هل تعلمين من أنت ، وما أنت ؟ »

— « أجل ، أنا أعلم كل شيء عن هذا ، » كذلك أجابت الفتاة وهي تضحك على نحو هستيري ، هازّة رأسها يمنة ويسرة في محاولة يائسة للتظاهر باللامبالاة .

فأجابها سايكس ، وهو يهرّ هريراً شبيهاً بذلك الذي كان من عادته أن يصطنعه كلما خاطب كلبه : « حسن ، فالزمي الهدوء اذن ، والا عمدت أنا الى الزامك اياه دهراً طويلا . »

فضحكت الفتاة من جديد . ولكن على نحو أقلّ اطمئناناً من ذي قبل ثم انها القت نظرة خاطفة على سايكس ، وأشاحت بوجهها عنه ، وعضت على شفتها حتى أسالت منها الدم .

وأضاف سايكس وهو ينظر اليها في ازدراء : « أنت أجدر من يتخذ مظهر المخلوق اللطيف الرقيق القلب ! انك النموذج الصالح الذي يستطيع هذا الطفل ، كما تسمّينه ، أن يتخذ منه صديقاً ! »

فصاحت الفتاة في انفعال مشبوب : « اني لكذلك ، وليساعدني الرب الكليّ القدرة ! واني لآسفة لأني لم أسقط في الشارع جثة هامدة ، ولم أتبادل

* يقصد انه اردف سؤاله بقوله : « فلاصب بالعمى ! » (المعرب)

الاماكن مع اولئك الذين مررنا على مقربة دانية منهم هذه الليـــلة ، قبل أن أشارك في سَوْقِهِ الى هنا · لقد أمسى ، منذ الليلة ، لصاً ، وكذاباً ، وشيطاناً ، وكل ما هو سيء · أليس في هذا ما يكفي النذل العجـوز حتي يضيف اليـه الضرب والصفع ؟ »

ــ « كفي ، كفى ، يا سايكس ، » كذلك قال اليهودي في لهجة معاتبة ، وهو يومىء الى الغلامين اللذين كانا يراقبـــان كل ما يجري في اهتمام بالـغ · « يتعين علينا أن نصطنع كلمات مهذبة ، كلمات مهذبة يا بيل · »

فصاحت الفتاة التي كان غضبها رهيباً في عين الناظر : « كلمات مهذبة ! كلمات مهذبة ، أيها النذل ! أجل ، أنت تستحق مني هذه الكلمات · لقد سرقت لحسابك وأنا بعدُ طفلة لم أبلغ من العمر نصف ما بلغه هذا ! » وأشارت الى أوليفر · « ومنذ ذلك الحين سلخت في هذه الصناعة نفسها ، وفي هذه الخدمـة نفسها ، اثني عشر عاماً · ألا تعرف ذلك ؟ تكلم ! ألا تعرف ذلك ؟ »

فأجابها اليهودي محاولا تهدئتها : « حسن ، حسن · وعلى أية حال ، فهذا هو مورد رزقك ! »

فقالت الفتاة ، غير متكلمة ولكنْ مفرغة الكلمات في صيحة واحدة موصولة عنيفة : « أجل ، هذا صحيح · انه مورد رزقي · وان الشوارع القذرة الرطبة الباردة هي مأواي · وانك انت ذلك الوغد الذي ساقني اليها منذ عهد طويل ، والذي سوف يكرهني على البقاء فيها ، ليل نهار ، وليل نهار ، حتى أموت ! »

فقاطعها اليهودي وقد استفزه ذلك التعنيف : « سوف أنزل بك بـــلاء اسوأ من ذلك ، اذا اسرفت في الكلام أكثر مما فعلت ! »

ولم تقل الفتاة أيما شيء بعد ذلك · ولكنها راحت تشدّ شعرها وتمـزق ثيابها في سَورة من الانفعال وانقضّت على اليهودي انقضاضاً كان خليقاً به أن يخلف في جسده آثاراً جليّة تنمّ عن انتقامها ، لو لم يمسك سايكس بمعصميها في اللحظة المناسبة · وعندئذ ناضلت ، فترة يسيرة ، للتملص من بين يديه ولكنها لم توفق الى ذلك ، وسقطت مغشيّاً عليها ·

وقال سايكس بعد ان حملها ومدّدها في احدى الزوايا : « انها الآن بخير وان ذراعيها قويتان جداً حين تثور على هذه الصورة · »

ومسح اليهودي جبينه : وابتسم ، وكأن انقضاء ذلك الشغَب قد أوقع الطمأنينة في نفسه · ولكن لا هو ، ولا سايكس ، ولا الكلب ، ولا الغلامان بدا على وجوههم ما يفيد انهم اعتبروا ما وقع أكثر من حادث عاديّ مألـــوف في حياتهم المهنية ·

وقال اليهودي وهو يعيد هراوته الى مكانها : « اسوأ ما يصاب به الأنسان أن يجد نفسه مضطراً الى التعامل مع النساء · ولكنهن بارعات ، وليس في

ميسورنا ، في صناعتنا هذه ، أن نتقدم خطوة واحدة بدونهن · تشارلي ، اذهب بأوليفر الي فراشه · »

وتساءل تشارلي بايتس : « أعتقد ان من الخير ان لا يرتدي ملابسه الفضلى غدا ، يا فاجين ، أليس كذلك ؟ »

– « من غير ريب ، » كذلك أجابه اليهودي راداً على الابتسامة العريضة التي أفرغ تشارلي سؤاله فيها بابتسامة مثلها ·

وأخذ المعلم بايتس ، الذي بدا شديد الابتهاج بالمهمة التي كُلّف اداءها ، وقاد أوليفر الى مطبخ متاخم حيث كان سريران أو ثلاثة سرر من تلك التي سبق له أن نام فيها · وهناك عمد ، في كثير من نوبات الضحك المتنعة على الكبح ، الى اخراج تلك البذلة العتيقة ذاتها التي كان أوليفر قد هنأ نفسه كثيراً على تركها في منزل مستر براونلو ، والتي كان عرضها على فاجين ، مصادفة ، من قِبل اليهودي الذي اشتراها هو الدليل الأول الذي أرشد العصابة الى مقرّ أوليفر ·

وقال تشارلي : « اخلع ملابسك الأنيقة · ولسوف ادفعها الى فاجين لكي يُعنى بها · يا لها من مهزلة ! »

وامتثل أوليفر المسكين أمره على كره · وطوى المعلم بايتس الملابس الجديدة وتأبطها ، ثم غادر الحجرة تاركاً أوليفر في الظلام ، مغلقاً الباب خلفه بالمفتاح ·

وكان خليقاً بدويّ ضحِك تشارلي ، وبصوت الآنسة بتسي التي وصلت في الوقت المناسب لكي تنضح الماء على وجه صديقها وتقوم بالمهام الانثوية الاخرى التي تعجل في استعادته وعيَه ، ان يذودا النوم عن أعين أناس كثيرين في ظروف أسعد من تلك التي أحيط بها اوليفر · ولكنه كان مريضاً مرهقاً ، وسرعان ما استغرق في نوم عميق ·

الفصل السابع عشر
قدر أوليفر لا يزال مشؤوماً ، وهو يقود الى لندن رجلا عظيماً ليسيء الى سمعته

تقضي العادة المألوفة في المسرح ، في جميع التمثيليات الميلودرامية الدامية الجيدة ، بأن تقدّم المشاهد التراجيدية والكوميدية في تعاقب نظاميّ أشبه بتعاقب الطبقات الحمراء والبيضاء في قطعة من لحم الخنزير المملّح المعرّق · فبينما ينطرح البطل ، في بعض المشاهد ، فوق فراشه القشّي مثقلا بأصفاده وبلاياه

يعمد خادمه الأمين ، ولكنْ غير المطَّلع على حقيقة الأمور ، الى اتحاف النظارة بأغنية هزلية · اننا نرى ، بقلوب واجفة ، الى البطلة في قبضة بارون متكبر قاسي الفؤاد ، وقد تعرضت عفتها وحياتها معاً لخطر شديد ، واستلت خنجرها لتصون احداهما على حساب الأخرى · ولا تكاد مخاوفنا تبلغ ذروتها حتى نسمع صفرة مفاجئة ، وحتى نُنْقَل على التو الى قاعة القصر الكبرى حيث ينشد رئيس خدم أشيب انشودة فكاهية بالاشتراك مع مجموعة من الارقاء أشد اثارة للضحك ، لها حق الدخول الى مختلف المواطن ابتداء من سراديب الكنائس حتى أروقة القصور ، وحيث يروحون ويجيئون معاً مطلقين الاغاني المرحة على نحو موصول ·

وقد تبدو هذه التغيرات أمراً غير معقول ، ولكنها ليست مناقضة للطبيعة بقدر ما تتراءى لنا للوهلة الأولى · والانتقالات في الحياة الواقعية من موائد الطعام الفخمة الى فُرُش الاحتضار ، ومن ثياب الحداد الى ملابس العيد ليست أقلّ ترويعاً البتة ، ولكن ثمة فارقاً واحداً هو اننا في هذه الحالة الأخيرة ممثلون منهمكون في أداء أدوارنا لا مجرد نظارة سلبيين ··· وهو فارق يغير الصورة تغييراً كبيراً · ان الممثلين في حياة المسرح المبنية على المحاكاة ليعْمَوْن عن التحولات العنيفة المفاجئة في العاطفة او الشعور ، تلك التحولات التي لا تكاد تَعرض أمام أعين النظارة حتى يحكموا عليها بقولهم انها فاضحة مُحالة ·

ولما كان تغيير المشهد على نحو مفاجىء والانتقال السريع من زمان الى زمان ومن مكان الى مكان أموراً جائزة في الأدب بحكم العرف وتطاول الاصطناع جيلا بعد جيل ، ولما كان كثير من النقاد يعدّونهما ـ فوق ذلك غاية الغايات في الفن القصصي (على اعتبار انهم يقيسون براعة الكاتب ، في المقام الأول ، بمقياس المآزق التي يترك فيها شخوص روايته عند نهاية كل فصل) فقد تُعتبر هذه المقدمة الوجيزة التي نتوج بها هذا الفصل غير ضرورية البتة · فاذا كان ذلك كذلك فلتُعْتبَر الماعاً رقيقاً ، من جانب القاص ، الى انه سوف يرجع الى البلدة التي ولد فيها أوليفر ، وفي ميسور القارىء أن يكون على أتم اليقين من أن ثمة أسباباً وجيهة وجوهرية للقيام بهذه الرحلة ، والا لما دُعِي الى تجشّم عنائها ·

اجتاز مستر بامبل ، ذات صباح باكر ، بوابة الملجأ الخارجية وراح يصعّد في الطريق العام في مشية وقورة وخطى مهيبة · كان في ذروة نضارة الشماس وازدهائه ؛ وكانت قبعته ذات القرنين وسترته تلتمعان تحت شمس الصباح ، ولقد أمسك بعصاه بمثل تشبُّث العافية والقوة · وانما كان من دأب مستر بامبل ، دائماً ، ان يرفع رأسه عالياً ، ولكنه رفعه هذا الصباح أعلى من مألوف عادته · كان ثمة شرود في عينيه ، وجلالٌ على محيّاه خليق بهما أن ينبِّها الغريب ذا الملاحظة الدقيقة الى ان بعض الافكار كانت تراود عقل الشماس ، وأنها

كانت أجلّ وأعظم من أن يعبّر عنها ·

ولم يتوقف مستر بامبل ليتجاذب أطراف الحديث مع أصحاب الدكاكين الصغيرة وغيرهم ممن خاطبوه ، في احترام ، وهو ماض في سبيله · لقد اجتزأ بأن ردّ تحياتهم بالتلويح بيده ، ولم يخفف من صرامة مشيته الوقور الا بعد أن بلغ الملجأ الفرعي حيث أسبغت مسز مانّ على الفقراء الاطفال عنايتها الابرشانية ·

وقالت مسز مان وقد تناهت الى سمعها هزّة باب الحديقة المشهورة : « ألا لعنة الله على ذلك الشماس ! اني اراهن انه هو القادم ، وفي مثل هذه الساعة من الصباح الباكر ! يا آلهي ، أمن الممكن أن تكون انت القادم ، يا مستر بامبل ؟ حسناً ، وحقّ ربي ، اني لجد سعيدة بتشريفك ! تفضل الى حجرة الاستقبال ، يا سيدي ، أرجوك · »

لقد وُجهت الجملة الأولى الى سوزان · أما هتافات الابتهاج فقد وجّهتها السيدة الصالحة الى مستر بامبل وهي تفتح له باب الحديقة وتقوده الى الدار في كثير من الاحتفال والاحترام ·

ـ « مسز مان ! » كذلك قال مستر بامبل غير جالس أو طارح نفسه على مقعد كما يجدر بأيما رجل تافه متكلف للعظمة أن يفعل · ولكنه استوى في أناة وتؤدة على أحد الكراسي · ثم أضاف : « مسز مان ، سيدتي ، طاب صباحك · »

فأجابت مسز مان في ابتسامات متلاحقة : « أهلا ، وطاب صباحك أنت أيضاً ، يا سيدي ! وأرجو أن تكون في خير ، يا سيدي ! »

فأجابها الشماس : « بين بين ، يا مسز مان · ان الحياة الابرشانية ليست فراشاً من ورود ، يا مسز مان · »

ـ « آه ، هذا صحيح من غير ريب ، يا مستر بامبل · » كذلك أجابت السيدة · ولو قد سمع الاطفال الفقراء جوابها ذاك اذن لكان من الجائز أن يردّدوه كلهم ، على اثرها ، في أدب بالغ ·

وتابع مستر بامبل ، ضارباً الطاولة بعصاه : « الحياة الابرشانية ، يا سيدتي ، حياة قلق ومضايقة ومشقة · ولكن جميع العاملين في الحقل العام يجب ، في ما أرى ، أن يحتملوا متاعب المواظبة · »

واذ لم تفهم مسز مان ما عناه الشماس فهماً حسناً جداً فقد رفعت يديها ، وعلى محياها سيماء المشاركة الوجدانية ، وتنهّدت ·

فقال الشماس : « آه ، ان من حقك أن تتنهدي ، يا مسز مان ! »

وحين وجدت مسز مان أنها أحسنت صنعاً تنهدت كرة اخرى ، على نحو أرضى ، من غير ريب ، الرجل العامل في الحقل العام : الذي كبح بسمة ارتياح مغرور بأن حدّق الى قبعته ذات القرنين تحديقاً متجهماً ، وأعلن قائلا .

ـ « مسز مان ، أنا مرتحلٌ الى لندن • »

فصاحت مسز مان مجفلة : « ماذا تقول ، يا مستر بامبل ! »

فاستأنف الشماس العنيد كلامه قائلا : « الى لندن ، يا سيدتي ، في مركبة من المركبات • انا واثنين من الفقراء ، يا مسز بامبل • ان القضاء سوف ينظر قريباً في دعوى متصلة بحق الانفاق على المعوزين • ولقد عهدت اليّ لجنة الملجأ ـ اليّ أنا ، يا مسز بامبل ـ في أن أدلي بشهادتي في تلك الدعوى أمام محكمة كليركينويل الفصلية • واني لأتساءل تساؤلا شديداً ••• » كذلك أضاف مستر بامبل وهو يتصدر ازدهاء ، « ما اذا كان أعضاء محكمة كليركينويل الفصلية سوف يجدون أنفسهم في وضع حرج قبل أن يفرغوا مني• »

فقالت مسز مان في لهجة ملاطفة : « اوه ! يجب ان لا تقسو عليهم أكثر مما ينبغي ، يا سيدي • »

فأجاب مستر بامبل : « ان أعضاء محكمة كليركينويل هم الذين جنوا على أنفسهم • واذا ما وجدوا غداً انهم انتهوا الي اسوأ بعض الشيء مما توقعوه فلا يلومنّ الا أنفسهم • »

وكان في اللهجة المتوعدة التي أفرغ فيها مستر بامبل هذه الكلمات قدرٌ عظيم من التصميم وصدق العزم حتى لقد بدت مسز مان وكأنها قد رُوّعت بها ترويعاً بالغاً • وأخيراً قالت :

ـ « أنت مرتحل في مركبة من المركبات ، يا سيدي ؟ لقد كنت أحسب ان العادة جرت ، دائماً ، بارسال أولئك الفقراء على متن عربة من عربات النقل • »

فقال الشماس : « انما يتم ذلك حين يكونون منحرفي الصحة • اننا نضع المرضى من الفقراء في عربات نقل مكشوفة حين تسوء الاحوال الجوية لكي نحول بينهم وبين الاصابة بالزكام • »

فقالت مسز مان : « أوه ! »

وقال مستر بامبل : « ان مركبة الشركة الجديدة هي التي ستنقل هذين الفقيرين تنفيذاً لعقد موقّع بيننا وبينها ، وهي تفعل ذلك بثمن بخس أيضاً • انهما كليهما في حال من الوهن الشديد ، وقد أجرينا حساباً تبيّن لنا منه اننا اذا نقلناهما ، بدلا من أن ندفنهما ، نقتصد جنيهين اثنين • أعني اذا استطعنا أن نلقيهما على عاتق أبرشية اخرى ، وهو شيء يتراءى لي أننا سنوفّق اليه ، الا اذا ماتا على الطريق ابتغاء اغاظتنا • ها ! ها ! ها ! »

حتى اذا استرسل مستر بامبل في الضحك فترة يسيرة ، وقعت عيناه كرة أخرى على القبعة ذات القرنين ، فاستعاد سيماءه الصارمة •

وقال : « لقد كدنا ننسى أعمالنا ، يا سيدتي • هوذا راتبك الابرشانيّ الشهري • »

وأخرج مستر بامبل من حافظة نقوده بعض القطع الفضية الملفوفة بورقة ، وسأل السيدة مان أن توقع له ايصالا ، ففعلت •

فقالت منشِّئة الاطفال : « انه مليء بالبُقَع ، ولكنْ يخيَّل اليّ انه رسميّ الى حد كاف ، شكراً لك ، يا سيدي مستر بامبل • اني واثقة من اني مدينة لمعروفك كثيراً ، وكثيراً جداً • »

فهز مستر بامبل رأسه ، في لطف ، رداً على مجاملة مسز مان • ثم سألها كيف حال الاطفال •

فقالت مسز مان في انفعال : « فليبارك الله قلوبهم الصغيرة الحبيبة ! انهم ، فديتهم بنفسي ، في أحسن حال يستطيعون أن يكونوا فيها ! طبعاً ، باستثناء الاثنين اللذين ماتا في الاسبوع الماضي • و « دِك » الصغير • »

فتساءل مستر بامبل : « ألم تتحسن صحة ذلك الغلام البتة ؟ »

فهزت مسز مان رأسها •

فقال مستر بامبل مغضَباً : « انه طفل أبرشاني خبيث ، فاسد ، سيء النية • أين هو ؟ »

ـ « سوف آتيك به في دقيقة واحدة ، يا سيدي• » كذلك أجابت مسز مان • « هاي ، تعال يا دِك ! »

وبعد بضعة نداءات اكتُشِف مكان « دِك » • حتى اذا وُضع رأسه تحت المضخة ونُشِّف فوق ثوب مسز مان اقتيد الى حجرة الاستقبال ليمثل في حضرة مستر بامبل ، الشُماس ، الرهيبة •

وكان الطفل شاحباً مهزولا ، وكان خداه غائرين ، وكانت عيناه واسعتين متألقتين • لقد تهدّل الثوب الأبرشاني الضئيل ـ كسوة بؤسه الخاصة ـ فضفاضاً على جسده الواهن ، وفارقت النضارة أوصاله الفتيَّة ، فهي أشبه بأوصال رجل طاعن في السن •

تلك كانت حال ذلك المخلوق الصغير الذي وقف مرتعداً تحت نظرات مستر بامبل ، غير متجاسر على أن يرفع عينيه عن الأرض ، بل خائفاً أن يسمع صوت الشماس نفسَه •

وقالت مسز مان : « ألا تستطيع أن تنظر الى السيد الماجد ، أيها الغلام العنيد ؟ »

فرفع الطفل عينيه في وداعة ، فالتقتا عينَيْ مستر بامبل •

وسأله مستر بامبل في مزاح حسن التوقيت : « ما بك ، يا دِك الأبرشاني ؟ »

فأجابه الطفل في صوت واهن : « لا شيء ، يا سيدي • »

فقالت مسز مان التي استغرقت في الضحك ، طبعاً ، لنكتة مستر بامبل :

« أحسب ذلك . فليس يعوزك شيء ... انا واثقة من هذا ! »

فغمغم الطفل : « أتمنى ... »

فقاطعته مسز مان : « عجباً ! أحسب انك تريد ان تقول لنا انك محتاج الى شيء ما ، الآن ... يا لك من صعلوك صغير !... »

فقال الشماس ، رافعاً يده في تظاهر بالسلطان : « كفي عن ذلك ، يا مسز مان ، كفي عن ذلك . تتمنى ماذا ، يا سيدي ؟ »

فتلعثم الطفل بالقول : « أتمني لو أجد شخصاً يستطيع أن يكتب ، فيخطّ لي بضع كلمات على ورقة ثم يطويها ويختمها ويحتفظ لي بها ، بعد أن أمدّد في القبر . »

ـ « ولكن ما الذي يعنيه الغلام ؟ » كذلك هتف مستر بامبل الذي كانت لهجة الطفل الصادقة ووجهه الشاحب قد تركا في نفسه أثراً ما ، على الرغم من ألفته الشديدة لهذه المشاهد . « ما الذي تعنيه ، يا سيدي ؟ »

فقال الطفل : « أحب أن أترك رسالة حب لأوليفر تويست المسكين ، وأن أخبره كم من مرة خلوت الى نفسي وبكيت كلما فكرتُ في هيامه على وجهه في الليالي المظلمة وليس ثمة من ينجده . وأحب أن أخبره » ، كذلك أضاف الطفل ضاغطاً احدى يديه الصغيرتين على الاخرى ، ومتكلماً في حماسة بالغــة ، « اني كنت سعيداً بأن أموت وأنا بعدُ صبيّ صغير ، لأني خشيت ـ اذا ما امتدّ بي العمر لأصبح شاباً ثم شيخاً طاعناً في السن ـ أن تنساني اختي الصغيرة في السماء ، أو أن تمسي مخلوقاً مختلفاً عني . وخليق بنا أن نكون أسعد بكثير اذا ما كنا كلانا هناك طفلين مترافقين . »

واستعرض مستر بامبل المتكلم الصغير من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، في دهش ممتنع على الوصف . ثم انه التفت الى رفيقته ، وقال : « انهم كلهم من طينة واحدة ، يا مسز مان . ان أوليفر الخليع ذاك قد أفسد أخلاقهم كلهم ! »

فقالت مسز مان رافعة يديها ، ناظرة الى « دِك » في حقد : « أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك ، يا سيدي ! انا لم أر قط مثل هذا الصعلوك الصغير المتحجر القلب ! »

عندئذ قال مستر بامبل في لهجة آمرة : « أخرجيه من هنا ، يا سيدتي ! هذه الحادثة يجب أن ترفع الى لجنة الملجأ ، يا مسز مان . »

فقالت مسز مان ناشجة على نحو مؤثر : « أرجو أن يفهم السادة الأماجد ان الغلطة ليست غلطتي يا سيدي . »

فقال مستر بامبل : « انهم سوف يفهمون ذلك ، يا سيدتي . انهم سوف يحاطون علماً بحقيقة ما جرى . هيا ، اخرجيه من هنا . أنا لا أطيق رؤيته . »

وأخرج « دِك » في الحال ، وحُبِس في قبــو الفحم . وما هي إلا فترة

يسيرة حتى غادر مستر بامبل الحجرة لكي يستعد للقيام برحلته ·
وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ـ بعد أن استبدل مستر بامبل بقبعته ذات القرنين قبعة مستديرة وغلّف نفسه في معطف أزرق ذي دثار للكتفين ـ اتخذ مقعده على ظاهر المركبة يرافقه المجرمان اللذان كانت مسألـــة اعالتهما والانفاق عليهما موضع نزاع ، واللذان وصل معهما في نهاية المطـاف الى لندن ، ولم يواجه في طريقه أية محنة ، غير تلك التي نشأت عن سوء سلوك الفقيرين اللذين لم يكفّا لحظة عن الارتعاد وعن تشكّي البرد ، على نحو جعل أسنان مستر بامبل ، كما أعلن هو نفسه ، تصطك في رأسه ، وأورثه انزعاجاً شديداً ، برغم أنه كان يرتدي معطفاً ·

حتى اذا تخلص من هذين الشخصين الشريرين ، طوال ساعات الليل على الاقل ، نزل مستر بامبل في الفندق الذي وقفت عنده المركبة ، وتناول عشاء معتدلا مؤلفاً من شرائح لحم بقر ، وصلصة المحار ، وجعة من صنف دون · وبعد أن وضع كأساً مترعة بشراب الـ « جن » الساخن على رف المدفأة قرّب كرسيه الى النار ، مستغرقاً في تأملات اخلاقية شتى حول رذيلة السخـــط والتشكي المتفشية أكثر مما ينبغي ، وتأهب لقراءة الجريدة ·
وكانت اول فقرة وقعت عليها عينا مستر بامبل هي الأعلان التالي :

مكافأة مقدارها خمسة جنيهـــات

« هرب صبي صغير ، يدعى أوليفر تويست ، من بيته في بينتونفيل ، أو أغري بالهرب منه ، مساء يوم الخميس الماضي ، ثم لم يعثر له بعد ذلك على أثر · ان المكافأة المذكورة أعلاه سوف تدفع الى أيما شخص يقدّم معلومات تفضي الى اكتشاف مكان أوليفر تويست المشار اليه ، أو تنزع الى القاء أيما ضوء عـــلى ماضيه ، هذا الماضي الذي يوليه المعلن ، لاسباب كثيرة ، عناية بالغة · »

ثم تلا ذلك وصف ضاف لملابس أوليفر ، وهيئته ، ومظهره ، وظـروف اختفائه ، بالاضافة الى اسم مستر براونلو وعنوانه الكامل ·
وفتح مستر بامبل عينيه ، وقرأ الاعلان في اناة وروية ، مثنى وثلاث · وما هي غير خمس دقائق ونيف حتى كان في طريقه الى بينتونفيل ، بعد أن جعله اهتياجه البالغ يترك كأس الـ « جن » الحار مترعة كما هي لم تُذق ·
وسأل مستر بامبل الفتاة التي فتحت له الباب : « هل مستر براونلو هنا ؟ »

وعن هذا السؤال أجابت الفتاة بالجواب غير النادر ، ولكن المراوغ بعض الشيء ، الذي يقول : « لست أدري · من أين أنت قادم ؟ »

ولم يكد مستر بامبل يلفظ اسم اوليفر ، توضيحاً لمهمته ، حتى هرعت مسز بيدوين ، التي كانت تصغي عند باب حجرة الاستقبال ، الى المجاز على نحو لاهث ·

وقالت السيدة العجوز : « ادخل ! ادخل ! كنت أعلم أننا لا بد أن نسمع شيئاً من أخباره · يا للحبيب المسكين ! أجل كنت أعلم أننا لا بد أن نسمع شيئاً من أخباره ! بل ، لقد كنت واثقة من ذلك · فليبارك الله قلبه ! لقد عبرت عن رأيي هذا طيلة الايام الماضية · »

حتى اذا قالت السيدة الجليلة هذا ، انقلبت مسرعة الى حجرة القعود كرة اخرى ، وهناك انطرحت على احدى الأرائك ، وانفجرت بالبكاء · أما الفتاة ، ولم تكن على مثل هذه الحساسية كلها ، فكانت قد صعدت في غضون ذلك الى الدور العلوي ، ثم رجعت من ثمة لتسأل مستر بامبل أن يتبعها على التو · ففعل ·

لقد أدخل الى المكتب الخلفي الصغير حيث جلس مستر براونلو وصديقه مستر غريمويغ وأمامهما زجاجات وأقداح · وفي الحال انفجر السيد الاخير بالهتاف :

ــ « شماس ! اذا لم يكن هذا شماس ابرشية أكلت رأسي ! »

فقال مستر براونلو : « أرجوك ان لا تقاطعني في هذه اللحظة · تفضل واجلس · »

فجلس مستر بامبل ، وقد أربكته غرابة موقف مستر غريمويغ ارباكاً عظيماً · وغير مستر براونلو موضع المصباح لكي يوفق الى تأمل محيّا الشماس على نحو لا يعكّر صفوه شيء · ثم قال في شيء من نفاد الصبر :

ــ « واذن ، يا سيدي ، فقد أقبلت بعد اطلاعك على الاعلان ؟ »

فقال الشماس : « نعم ، يا سيدي · »

وسأل مستر غريمويغ : « وأنت شماس حقاً ، أليس كذلك يا سيدي ؟ »

فأجابه مستر بامبل في اعتزاز : « أنا شماس أبرشاني ، أيها السيدان · »

فهمس مستر غريمويغ في اذن صديقه : « طبعاً · لقد عرفت انه كذلك · شماس حتى رؤوس أصابعه ! »

عندئذ هز مستر براونلو رأسه في رفق لكي يفرض على صديقه الصمت ، ثم استأنف كلامه قائلا :

ــ « هل تعرف أين مقر ذلك الغلام البائس ، الآن ؟ »

فأجابه الشماس :« أنا لا أعرف عن ذلك أكثر مما يعرفه اي امرىء آخر · »

فسأله السيد العجوز : « حسن ، وما الذي تعرفه عنه ؟ تكلم بصراحة ،

إذا كان لديك ما تقوله ؟ ما الذي تعرفه عنه ؟ »

ـ « أنت لا تعرف ، بحكم المصادفة ، أيما شيء صالح عنه ، أليس هذا صحيحاً ؟ » قال مستر غريمويغ ذلك في سخرية ، بعد أن أمعن النظر في أسارير مستر بامبل ·

فهز مستر بامبل رأسه ـ وقد ابتهج بالفرصة التي أتاحها السؤال له ـ في وقار منذر بالسوء ·

وقال مستر غريمويغ ناظراً الى مستر براونلو نظرة المنتصر : « أرأيت ؟ »

ونظر مستر براونلو ، في هلع ، الى وجه مستر بامبل المكفهّر ، وسأله أن يفضي بما يعرفه عن أوليفر في أقل قدر ممكن من الكلمات ·

ووضع مستر بامبل قبعته أمامه ، وفك أزرار سترته ، وطوى ذراعيه ، وحنى رأسه كمن يستعرض الماضي ويتأمله ، وبعد بضع لحظات من التفكير أخذ يروي قصته ·

وخليق بتلك القصة أن تكون مضجرة اذا ما رُويت بلغة الشماس ، اذ استغرقت روايتها ـ على لسانه ـ نحواً من عشرين دقيقة · ولكن زبدتها كانت أن أوليفر لقيط ، متحدر من أبوين وضيعين أثيمين · وأنه لم يتكشف منذ ولادته عن أيما صفات غير الغدر ، والخبث ، ونكران الجميل · وانه ختم حياته القصيرة في مسقط رأسه بهجوم دمويّ جبان شنه على صبيٍّ وديع ، وبالفرار تحت جنح الظلام من بيت سيده · ولكي يقيم الدليل على أنه هو فعلا الشخص الذي يمثّله وضع مستر بامبل على الطاولة تلك الاوراق التي كان قد حملها الى البلدة · ثم انه طوى ذراعيه من جديد ، وأنشأ ينتظر ملاحظات مستر براونلو ·

وقال السيد العجوز في أسى ، بعد أن قلّب النظر في الأوراق : « أخشى أن يكون كل ذلك صحيحاً أكثر مما ينبغي · وليس هذا بمستكثر على ذكائك · بيد أنه كان خليقاً بي أن أهبَك ثلاثة أضعاف المال لو كانت روايتك في مصلحة الغلام · »

ومن يدري فلعله كان خليقاً بمستر بامبل ، لو عرف هذه الحقيقة قبل تلك المقابلة ، أن يضفي على قصته القصيرة لوناً مختلفاً جداً · وعلى أية حال فقد كان الاوان قد فات الآن · وهكذا هز رأسه في كآبة ، ودسّ الجنيهات الخمسة في جيبه ، وانسحب ·

وأنشأ مستر براونلو يذرع الحجرة جيئة وذهوباً طوال بضع دقائق ، وقد اقلقته قصة الشماس ، من غير ريب ، اقلاقاً بالغاً جعل مستر غريمويغ نفسه يمسك عن اغاظته أكثر مما فعل ·

وأخيراً توقف وقرع الجرس في عنف ·

وقال مستر براونلو عندما برزت مدبِّرة المنزل : « مسز بيدوين ، ان ذلك الغلام ــ أوليفر ــ هو محتال • »

فقالت السيدة العجوز في قوة : « هذا مستحيل ، يا سيدي ! هــــذا مستحيل ! »

فعاد السيد العجوز يؤكد : « أقول لك انه محتال • ماذا تعنين بقولــك ان هذا مستحيل ؟ لقد سمعنا ، اللحظة ، رواية كاملة عنه صوّرت حياته منذ ولادته • ولقد تجلى لنا أنه كان طوال عمره نذلا صغيراً كاملا • »

فأجابته السيدة العجوز في حزم : « أنا لن أصدق ذلك أبداً ، يا سيدي • أبــــداً ! »

فهَرّ مستر غريمويغ : « أنتن معشر النسوة العجائز لا تصدّقن شيئــاً غير الدجالين من الاطباء ، وغير الكتب القصصية المحشوّة بالأكاذيب • لقد كنت دائماً على ثقة من ذلك • لماذا لم تقبلي نصيحتي منذ البدء • ولعلك كنت تقبلينها لو لم يُصَبْ بالحمَّى ، في ما أظن ، أليس كذلك ؟ لقد كان ممتعاً ، أليس هذا صحيحاً ؟ كان ممتعاً ! بوه ! » وراح مستر غريمويغ يثير نار الموقد بقضيب •

فلم يكن من مسز بيدوين الا أن قالت في حنق : « لقد كان غلاماً لطيفاً ، قريباً الى القلب ، معترفاً بالجميل ، يا سيدي • أنا أعرف الأطفال ، يا سيدي • • • ولقد عرفتهم طوال السنوات الأربعين الأخيرة • هذا هو رأيي ! »

وكانت هذه ضربة قاسية وُجِّهت الى مستر غريمويغ ، وكان أعزب • واذ لم تنتزع من ذلك السيد الماجد غير ابتسامة فقد ردّت السيدة العجوز رأسها الى الوراء ، وسوّت مئزرها استعداداً لالقاء خطبة اخرى ، ولكن مستر براونلو صدها عن سبيلها فجاة •

فقد قال السيد العجوز ، متظاهراً بغضب كان جدّ بعيد عن الاحساس به : « لا تدعيني اسمع اسم ذلك الغلام بعد اليوم • لقد قرعت الجرس لكي أقول لك ذلك • لا ، لا تدعيني اسمع اسمه أبداً ، أبداً ، مهما يكن السبب ، أفهمت ؟ في استطاعتك أن تغادري الحجرة الآن ، يا مسز بيدوين • تذكري ! أنا جادّ في ما اقول ! »

لقد كانت في منزل مستر براونلو ، تلك الليلة ، قلوبٌ محزونة •

وغار فؤاد أوليفر في صدره عندما فكّر في أصدقائه الكرام الطيبين • ولقد كان من حسن طالعه أن يكون عاجزاً عن معرفة ما رُوي على مسامعهم ، والا لكان من الجائز أن يتفطّر قلبه في الحال •

الفصل الثامن عشر
كيف قضى أوليفر وقته في مجتمع أصدقائه الحميدي السمعة ، ذلك المجتمع الذي يغري بالاتعاظ والاعتبار

وحوالى الظهيرة من اليوم التالي ، بعد أن انطلق « المراوغ » والمعلم بايتس ابتغاء اداء مهامهما المعتادة ، انتهز مستر فاجين الفرصة وانشأ يلقي على أوليفر محاضرة طويلة حول خطيئة نكران الجميل ، الفظيعة ، هذه الخطيئة التي أظهر أوليفر في وضوح أنه لم يكن منها براء ، البتة ، عندما نأى بنفسه عامداً متعمداً عن مجتمع أصدقائه القلقين عليه ، وعندما حاول ، فوق ذلك ، أن ينجو بنفسه منهم بعد الذي بذلوه من جهد عظيم ومال وافر في سبيل استرداده . ووضع مستر فاجين توكيداً شديداً على هذه الحقيقة ، وهي أنه آوى أوليفر ، ودلّله يوم أوشك — لو لم يمدّ اليه يد العون في الوقت المناسب — على الموت جوعاً . وقصّ عليه قصة محزنة مؤثرة عن فتى صغير كان قد أنقذه اليهودي ، مدفوعاً بحبه البالغ للاحسان الى البشر ، في ظروف مماثلة ، ولكنه أثبت عدم جدارته بتلك الثقة بأن أظهر رغبةً في الاتصال برجال الشرطة ، فانتهى به الأمر ، ويا لسوء الطالع ! الى الموت ، ذات صباح ، على أعواد المشنقة في أولد بايلي* . ولم ينزع مستر فاجين الى اخفاء الدور الذي مثّله في هذه الكارثة ولكنه قال متحسّراً ، والدموع تترقرق في عينيه ، ان مسلك الفتى المتسم بالعناد والخيانة قد أوجب ان يذهب ضحية شهادة تدينه بالجريمة ، وهي شهادة قد لا تكون صحيحة مئة بالمئة ولكنها كانت ضرورية ، على نحو لا مناص منه ، لسلامته هو (مستر فاجين) وسلامة نفر من أصدقائه المختارين . وختم مستر فاجين محاضرته برسم صورة بغيضة بعض الشيء لمكارهِ الشنق ، وعبرّ في لهجة راشحة بالود والكياسة عن أمله العظيم ان لا يضطر أبداً الى اخضاع أوليفر تويست لتلك العملية الكريهة .

وجرى الدم مثلوجاً في عروق أوليفر تويست وهو يصغي الى كلمات اليهودي ، وفهم على نحو غير واضح ما اشتملت عليه من تهديدات قاتمة . لقد سبق له ان عرف أن من الجائز ، حتى للعدالة نفسها ، أن تخلط ما بين البريء والمذنب حين يتفق لهما أن يترافقا مصادفة . وبدا له ان من المحتمل جداً أن يكون اليهودي العجوز قد رسم فعلا ونفّذ ، غير مرة ، خططاً سرّية بارعة للقضاء على بعض الاشخاص المطلعين على أشياء لا تشرّف أو على بعض الاشخاص

* Old Bailey هي المحكمة الجنائية الرئيسية في لندن . (المعرب)

النزاعين الى الافضاء بما يعلمون ··· عندما تذكَّر الصفة العامة التي غلبت على المهاترات الناشبة بين ذلك السيد الماجد ومستر سايكس ، والتي كانت تشير ، في ما يبدو ، الى مؤامرة من هذا الضرب حيكت في الايام السالفة · حتى اذا رفع عينيه في وجل فالتقتا نظرات اليهودي الثاقبة ، استشعر ان وجهه الشاحب وأوصاله المرتعدة لم تفت ذلك العجوز اليقظ وأنها أوقعت في نفسه مسرّة واضحة ·

وابتسم اليهودي ابتسامة رهيبة ، وربّت على رأس أوليفر ، وقال انه اذا ما التزم السكينة وأخذ نفسه باتقان « الصناعة » فليس ثمة ما يحول حتى الآن ، في ما يخيَّل اليه ، دون ارتباطهما برباط الصداقة · ثم انه اعتمر بقبعته وغطى نفسه بمعطف عتيق مرقّع ، وانصرف وأقفل باب الحجرة وراءه ·

وهكذا ظل أوليفر طوال ذلك اليوم ، والجزء الاعظم من أيام كثيرة تالية ، لا يرى أحداً — من الصباح الباكر حتى منتصف الليل — فليس له من رفيق يحاوره خلال تلك الساعات الطويلة غير أفكاره · وهي أفكار كانت لا تفتأ ترتد الى أصدقائه الكرام والى الفكرة السيئة التي لا بد انهم قد كوّنوها عنه منذ فترة طويلة · ومن هنا كانت أفكاراً حزينة حقاً ·

وبعد انقضاء اسبوع أو نحوه ترك اليهودي باب الحجرة غير مقفل · فكان لأوليفر ملء الحرية في أن يطوّف في ارجاء البيت ·

كان منزلا قذراً جداً · وكانت للحجرات في الدور العلوي أبواب عريضة ومواقد ضخمة عالية تحيط بها أطرٌ خشبية ، وكانت ذات جدران مكسوّة بألواح من خشب وسقوف مزدانة بأفاريز ··· أفاريز كانت برغم اسودادها من جراء الاهمال والغبار مزخرفة بطرائق مختلفات · ومن هذه الأمارات كلها استنتج أوليفر أن ذلك البيت كان منذ عهد بعيد ، وقبل ان يولد اليهودي العجوز ، مِلْكاً لأناس أفضل ، ومن يدري فلعله كان موطناً جميلا جداً وبهيجاً جداً برغم كل ما يكتنفه الآن من اكفهرار ووحشة ·

كانت العناكب قد نسجت بيوتها في زوايا الجدران والسقوف · وكانت الجرذان تولي هاربة ، كلما اجتاز أوليفر احدى الحجرات في خطى وئيدة ، وترتد الى أجحارها مذعورة مروّعة · وباستثناء ذلك لم يكن ثمة ما يُشعر العين او الاذن بوجود أي كائن حي · وكثيراً ما كان أوليفر يجثم — بعد أن يهبط الليل ويستبد به السأم من الطواف من حجرة الى حجرة — في زاوية المجاز عند الباب المفضي الى الشارع ، لكي يكون على مقربة من الاحياء ما استطاع الى ذلك سبيلا· وكان من دأبه ان يلبث هناك ، مرهفاً السمع مُحْصياً الساعات ، حتى يرجع اليهودي او يرجع الغلمان ·

وفي جميع الحجرات كانت مصاريع النوافذ العفنة محكمة الأيصاد ، وكانت

القضبان الحديدية التي تدعمها مثبّتة تثبيتاً مكيناً . وكان النور الوحيد الذي تمكّن من النفاذ يتسرّب خلال ثقوب مستديرة في أعلى الحجرات ، مما جعلها أشد ظلمة وملأها بظلال عجيبة . وكان في مؤخرة المنزل عليّة ذات نافذة تحيط بها من الخارج قضبان حديدية صدئة ، ولم يكن لتلك النافذة مصراع ما . ومن خلالها كان أوليفر يسرّح الطرف ، بوجه كئيب ، طوال ساعات موصولة . بيد أنه ما كان ليطّلع منها الا على كتلة من رؤوس المنازل مزدحمة مشوّشة ، والا على مداخن مُسْوَدّة وقمم سقوف هرمية . صحيح ان رأساً أشيب كان يُرى ، في بعض الاحيان ، وهو يطل من وراء سور مُقام فوق سطح أحد البيوت النائية ، ولكن هذا الرأس كان لا يلبث أن يتوارى . واذْ كانت نافذة مَرْقب أوليفر مسمَّرة غبّشها المطر ودخان السنين المتعاقبة ، فقد كان ذلك كل ما استطاع أن يفعله ليتبيّن أشكال الاشياء المختلفة القائمة وراءها من غير ان يأتي بأيما عمل يمكّن أحداً من رؤيته أو سماعه — وهو أمرٌ كان ممكن الحدوث الى أبعد حد ، فكأن أوليفر كان يحيا ضمن برج كاتدرائية القديس بولس .

وذات أصيل ، وكان قد عُهِد « للمراوغ » وللمعلم بايتس في مهمة يقومان بها خارج البيت ، خطر لأول هذين الفتيَيْن أن يولي مظهره الخارجي شيئاً من العناية (ويقتضينا الانصاف ان نقول ان ذلك لم يكن بأية حال موطناً مألوفاً من مواطن الضعف عنده) . وهكذا تنازل فأصدر أمره الى أوليفر بأن يساعده في اتخاذ زينته على التوّ .

وسُرّ أوليفر أعظم السرور بأن يجد نفسَهُ في وضع يمكّنه من اسداء خدمة ما ، وبأن تتاح له وجوه يستطيع أن ينظر اليها ، مهما تكن تلك الوجوه شريرة . وكان شديد التوق الى استرضاء مَنْ حوله ما دام قادراً على ذلك من غير أن يقترف اثماً ، ومن هنا لم يقدّم ايما اعتراض على ذلك الطلب ، بل عمد في الحال الى التعبير عن استعداده لأداء تلك المهمة ، وركع على الارض — بينا جلس « المراوغ » على الطاولة بحيث يكون في ميسوره أن يريح قدمه على ركبة أوليفر — وباشر عملية وَصَفَها مستر داوكنز بأنها عملية « صقل غلافيْ رجله » . وهي عبارة تعني ، اذا ما ترجمت الى انكليزية واضحة ، تنظيف حذائه العالي الساقين .

وسواء أكان الاحساس بالحرية والاستقلال الذي يُفترض في الحيوان العاقل أن يستشعره حين يجلس مسترخياً على طاولة وهو يدخن غليوناً ويؤرجح احدى رجليه في لا مبالاة الى أمام والى وراء بينا يقوم شخص آخر بتنظيف حذائه على نحو موصول من غير أن تكدر تأملاته لا ذكرى ألم اصابه عند نزعهما في الماضي ولا شقاءُ التفكير في انتعالهما في المستقبل ... أقول سواء أكان هذا هو الذي رقق مشاعر « المراوغ » ونطّف أفكاره أم كان الذي رققها ولطّفها هو جودة

التبغ أو سلاسة الجعة فالشيء الذي لا ريب فيه أن صبغة من الحماسة الرومانسية قد غلبت عليه ، في تلك اللحظات ، وهي صبغة غريبة عن طبيعته العامة • لقد خفض بصره ، وقد بدت أمارات التفكير على محياه ، نحو أوليفر الصغير ، وانشأ يتأمله فترة يسيرة • ثم انه رفع رأسه بعد ذلك ، وأطلق زفرة رقيقة وقال نصف ذاهل ونصف مخاطب المعلم بايتس :

ــ « أليس مما يؤسف له أشد الأسف أن لا يكون طويل اليد ؟ »

فقال المعلم تشارلز بايتس : « آه ، انه لا يعرف مصلحته • »

وأطلق « المراوغ » زفرة اخرى واستأنف تدخين غليونه ، وكذلك فعل تشارلي بايتس • لقد دخنا ، كلاهما ، في صمت ، طوال بضع ثوان • ثم قال المراوغ في لهجة فاجعة :

ــ « أحسب انك لا تعرف حتى معنى « طويل اليد » ؟ »

فأجاب أوليفر ، رافعاً بصره : « احسب اني أعرف ذلك • انه يعني من كانت مهنته اللص ••• » وكبح نفسه ثم أضاف متسائلا : « أنت طويل اليد ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه « المراوغ » : « نعم • وجدير بي أن ازدري نفسي لو كنت أي شيء آخر » • حتى اذا أطلق مستر داوكنز هذا التصريح ، ردّ قبعته الى الوراء على نحو ضار ، ونظر الى المعلم بايتس وكأنه يقول ان مما يسعده أن يسمع صديقه يصرّح بنقيض ذلك •

وكرر « المراوغ » : « أنا طويل اليد • وكذلك حال تشارلي • وكذلك حال فاجين • وكذلك حال سايكس • وكذلك حال نانسي • وكذلك حال بت • أجل ، كذلك نحن جميعاً ، بما فينا الكلب • انه هو أشد أعضاء العصابة خبثاً ومكراً • »

فأضاف تشارلي بايتس : « وأقلهم نزوعاً الى التبشير ! »

فقال « المراوغ » : « انه يمتنع حتى عن العواء في قفص الشهود خشية أن يبدر منه أيّا شيء يورّطه في المتاعب • لا ، انه يمتنع عن ذلك حتى ولو أوثقته في أحد تلك الاقفاص وحرمته الطعام طوال اسبوعين • »

فأعلن تشارلي : « أجل ، انه لا ينطق بشيء البتة • »

وتابع « المراوغ » حديثه : « هو كلب غريب • ألم تره كيف ينظر في ضراوة الى كل شخص غريب يضحك أو يغني حين يكون منطلقاً في رفقتنا ؟! ألم تره كيف يمسك عن العواء كلما سمع عزفاً على الكمان ؟! وكيف انه لا يكره الكلاب الاخرى التي لا تتحدر من سلالته ؟! »

فقال تشارلي : « انه مسيحي مئة بالمئة • »

وقد قُصد بهذا الحكم الى أن يكون مدحاً خالصاً لمواهب الكلب ، ولكنها

كانت ملاحظة ملائمة بمعنى آخر ، على الرغم من ان المعلم بايتس لم يفطن لهذا المعنى • ذلك بأن ثمة عدداً كبيراً جداً من السيدات والسادة الذين يزعمون انهم مسيحيون مئة بالمئة والذين تجمع ما بينهم وبين كلب مستر سايكس وجوه شبه قوية وفريدة •

ـ « حسن ، حسن ، » كذلك قال « المراوغ » مرتداً الى الموضوع الذي كان قد انحرف عنه ، بمثل الاهتمام البالغ الجدير بصناعته والذي كان يسيطر على تصرفاته جميعاً • « ليس لذاك أية علاقة بصديقنا الساذج الصغير هذا • »

فقال تشارلي : « ذلك صحيح • لماذا لا تضع نفسك في خدمة فاجين ، يا أوليفر ؟ »

وأضاف « المراوغ » في ابتسامة عريضة : « وتكوّن ثروتك في غير ابطاء ؟ »

فقال تشارلي بايتس : « وبذلك تصبح قادراً على الانسحاب الى أملاكك ، وتحيا حياة مترفة أنيقة ، كما أعتزم أنا أن أفعل عند أول سنة كبيسة تحلّ بعد ان تنقضي قبلها أربعٌ من ذلك النوع من السنوات ، وفي الخميس الثاني والاربعين من اسبوع الثالوث الاقدس • »

فأجاب أوليفر في استحياء : « أنا لا أحب ذلك • اني أتمنى لو يدعونني أذهب • أنا ••• أنا أفضل الذهاب على أي شيء آخر • »

فردّ تشارلي : « أما فاجين فيفضل ان لا تفعل • »

وكان أوليفر يعلم ذلك علم اليقين ، ولكنه اعتقد ان الاسراف في التعبير عن مشاعره قد يعرّضه للخطر ، فاكتفى بزفرة أطلقها وواصل تنظيف الحذاء •

وهتف « المراوغ » : « اذهَبْ ! ولكن ، أليس لك من الآمال شيء أكثر من الذهاب ؟ ألا تستشعر ايّ اعتزاز بالنفس ؟ أتريد ان تذهب وتحيا عالة على أصدقائك ؟ »

فقال المعلم بايتس ، مخرجاً من جيبه منديلين حريريين أو ثلاثة مناديل حريرية ، وقاذفاً بها الى احدى الخزائن : « أوه ، يا للشيطان ! ذلك عملٌ حقير جداً • »

وقال « المراوغ » في تقزّز متشامخ : « أنا لا أستطيع ان أطيق شيئاً مثل هذا ! »

فقال أوليفر بنصف ابتسامة : « ومع ذلك فأنت تستطيع أن تتخلى عن أصدقائك وتدعهم يعاقَبون على ما جنتْهُ يداك • »

فأجاب « المراوغ » ملوّحاً بغليونه : « لقد كان ذلك حرصاً مني على سلامة فاجين ليس غير • لأن رجال الشرطة يعرفون أننا نعمل معاً ، ولقد كان من الجائز أن يقع هو في بلاء لو لم نولِّ الأدبار • كان هذا هو الحافز ، أليس كذلك

يا تشارلي ؟ »
فهز المعلم بايتس رأسه هزة تدل على الموافقة ، واستعد للكلام · ولكن ذكرى هروب أوليفر تمثّلت له تمثلا مفاجئاً الى درجة جعلت الدخان الذي كان يتنشّقه آنذاك يتشابك مع احدى الضحكات ، فيصعد عالياً الى رأسه ويهبط نازلا الى حنجرته ، لتكون ثمرة ذلك نوبة سعال وضرب للارض بالقدمين استمرت نحواً من خمس دقائق ·

وقال « المراوغ » مخرجاً حفنة من الشلنات وأنصاف البنسات : « أنظر ! هذه حياةٌ طروب ! وهل يضيرها أن تكون قد جاءت من هذه الطريق أو تلك ؟ هيّا ، أغرف · فلا يزال في المكان الذي أخذت منه مقدار وافر · أنت تأبى ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ اوه ، أيها الأحمق النفيس ! »
فتساءل تشارلي بايتس : « هذا اثم ، أليس كذلك يا أوليفر ؟ ان أنفاسه سوف تُخْمد ، أليس كذلك ؟ »
فقال أوليفر : « لست أفهم ما تقول · »

فقال تشارلي : « شيء مثل هذا ، أيها الحاطب العجوز » وأمسك المعلم بايتس بطرف منديله ، ورفعه في الهواء على نحو مستقيم ، وأسقط رأسه على كتفه ، وأطلق من بين أسنانه صوتاً غريباً ، ملمعاً بذلك ، من طريق التمثيل الصامت المعبّر ، الى ان اخماد الانفاس والشنق شيء واحد ·
وقال تشارلي : « هذا ما أعنيه · انظر كيف يحدّق ، يا جاك ! أنا لم أر قط من قبل رفيقاً ممتازاً مثل هذا الغلام · انه سوف يُميتني من الضحك ··· أنا واثق من ذلك · » وبعد أن أطلق المعلم تشارلز بايتس ضحكة صادرة من القلب ، استأنف تدخين غليونه والدموع تترقرق في عينيه ·

وهنا قال « المراوغ » ، وهو يتأمل حذاءه ذا الساق العالي ، في كثير من الارتياح ، عندما أتمّ أوليفر صقله : « انك لم تفز بثقافة جيدة ، ومع ذلك فان فاجين سوف يجعل منك شيئاً ذا شأن ، والا كنت أول من وقع بين يديه وأثبتت الايام أنه عنصر لا فائدة فيه · من الخير لك أن تبدأ في الحال ، لأنك سوف تمارس الصناعة في وقت أبكر مما تظن بكثير · أنت تضيع وقتك ليس غير ، يا اوليفر · »
وأردف المعلم بايتس هذه النصيحة بمواعظ اخلاقية شتّى من عنديّاته · حتى اذا استبد به الارهاق اندفع هو وصديقه مستر داوكنز الى رسم صورة وهاجة للمسرات المتعددة التي تصاحب ، عادة ، ذلك الضرب من الحياة التي يعيشانها ··· صورة موشحة بصنوف من التلميح لاوليفر بأن خير ما يستطيع أن يعمله هو التماس رضا فاجين في غير ابطاء ، وذلك بسلوك الطريق التي سلكاها هما لاكتساب رضاه ·

وقال « المراوغ » عندما سمع اليهوديَّ يفتح الباب في الدور العلوي : « وعليك دائماً أن تضع هذا في غليونك ، يا نولـّي ، اذا أبيت أن تأخذ المحارم والتكّاكات ... »

فقاطعه المعلم بايتس : « ما الفائدة من الكلام بهذه الطريقة ؟ انه لا يعرف ماذا تعني . »

فلم يكن من « المراوغ » الا ان قال ، منحدراً بحديثه الى مستوى مقدرة أوليفر على الفهم : « اذا أبيت أن تأخذ المناديل الحريرية والساعات أخذهـا شخص آخر . وهكذا يصبح الذين يخسرونها في حال سيئة ، وتصبح أنت في حال أسوأ ، ولا يربح من هذا الوضع أحد غير الذين يشترونها ... ولا تنس ان حقك فيها لا يقل عن حقهم ! »

ــ « من غير شك ! من غير شك ! » كذلك قال اليهودي الذي كان قد دخل الحجرة من غير أن يراه أوليفر . « لقد قيلت تلك الحقيقة بأقل قدر من الكلمات ، يا عزيزي ، بأقل قدر من الكلمات ! في استطاعتك أن تثق بما قاله « المراوغ » . ها ! ها ! ها ! انه يفهم أسرار صناعته ويحفظها عن ظهر قلب . »

وفرك العجوز يديه في جذل ، وهو يؤيد منطق « المراوغ » على هذا النحو . وضحك في فتور ابتهاجاً بما تكشـَّف عنه تلميذه من مهارة بالغة .

ووقف الحديث عند هذا الحد ، موقتاً . ذلك بأن اليهودي كان قد رجـع الى البيت برفقة الآنسة بتسي وشخص آخر لم يسبق لاوليفر ان رآه من قبل ، ولكنه سمع « المراوغ » يخاطبه باسم « توم تشيتلينغ » ... شخص كان قد تلكأ على السلـّم بعض الشيء ليتبادل بضع كلمات غزلية مع السيدة ، ثـم ظهر للعيان .

وكان مستر تشيتلينغ أكبر من « المراوغ » سناً ، اذ كان قد بلغ ، في ما يبدو ، شتاءه الثامن عشر . بيد أنه كان في مواقفه من ذلك السيد الفـتى قـَدْرٌ من الاحترام يؤذن بأنه يعي نحوه دونيـّة طفيفة من ناحية العبقريـة والبراعة المهنية . كانت له عينان صغيرتان متألقتان ، ووجه مجدور . وكان يرتدي قلنسوة فـرْوية ، وسترة داكنة من مخمل مضلـّع ، وبنطالا قطنياً ذا وبر انتشرت فيه البقع الدهنية ، ومئزراً . كانت ملابسه ، في الحق ، خلـَقة بالية الى حدّ بعيد ، ولكنه اعتذر عن ذلك للجماعة بقوله ان « مدّته » انقضت منذ ساعة ليس غير ، وان اضطراره الى ارتداء كسوة السجن الرسمية طوال الاسابيـع الستة الماضية لم يدع له متسعاً من الوقت للعناية بملابسه الشخصية . وأضاف مستر تشيتلينغ ، في اهتياج بالغ ، قائلا ان الطريقة الجديدة المصطنعة ، هناك ، في تطهير الملابس من طريق التبخير طريقة جهنمية تتنافى مع الدستور ، ذلك بأنها كانت تحدث فيها ثقوباً ، ولم يكن ثمة سبيل لطلب التعويـض من سلطات

الأقليم . وذهب الى ان الملاحظة نفسها تنطبق على الاسلوب المتبع هناك في حلاقة شعر الرأس ، وهو أسلوب أكد مستر تشيتلينغ أنه غير قانوني قولا واحداً . ثم انه ختم ملاحظاته بالنص على انه لم يذق قطرة من أي شيء منذ اثنين وأربعين يوماً طويلا مميتاً مثقلا بالاشغال الشاقة ، وانه « مستعد لأن يُنْسَف ان لم يكن جاف الحلق مثل سلة ليمون حامض . »

وتساءل اليهودي ، في ابتسامة عريضة ، بينا كان الغلمان الآخرون يضعون زجاجة من خمر على المائدة : « من أين تحسب هذا الرجل آتياً ، يا أوليفر ؟ »

فأجابه أوليفر : « أنا ... أنا ... لا أدري ، يا سيدي . »

وتساءل توم تشيتلينغ وهو يلقي على أوليفر نظرة ترشح بالازدراء : « من هذا ؟ » .

فأجابه اليهودي : « صديقٌ لي صغير ، يا عزيزي . »

فقال الشاب وهو ينظر الى فاجين نظرة ذات مغزى : « انه محظوظ ، اذن . لا تشغل بالك بمعرفة المكان الذي أقبلتُ منه ، أيها الفتى . انك سوف تشق طريقك الى هناك ، في يوم قريب جداً . اني أراهنك على ريال ! »

وضحك الغلمان لهذه النكتة . وبعد نكات اخرى في الموضوع نفسه تبادلوا مع فاجين بضع همسات ، وانسحبوا .

حتى اذا تحدث الوافد الأخير وفاجين ، على انفراد ، حديثاً موجزاً ، قرّبا كرسيَّيْهما الى المدفأة . وبعد أن طلب اليهودي الى أوليفر أن يتقدم ويجلس على مقربة منه وجّه الحديث نحو الموضوعات المراد بها أن تثير اهتمام مستمعيه أكثر ما تكون الاثارة . وكانت تلك الموضوعات هي حسنات « الصناعة » العظيمة ، ومواهب « المراوغ » ، وظَرْف تشارلي بايتس ، وسخاء اليهودي نفسه : وأخيراً تكشّفت تلك الموضوعات عن أمارات تؤذن بأنها قد استُنْفِدت استنفاداً كاملا ، وتكشّف مستر تشيتلينغ عن الشيء نفسه ، ذلك بأن اصلاحية المجرمين تصبح مُرْهِقة بعد اسبوع أو أسبوعين . وهكذا انسحبت الآنسة بتسي ، وتركت الجماعة الصغيرة تخلد للراحة .

ومنذ ذلك اليوم أمسى أوليفر لا يُتْرك وحده الا نادراً . لقد وُضِع على اتصال يكاد يكون غير منقطع البتة مع الغلامين اللذين كانا يلعبان مع اليهودي ، كل يوم ، لعبتهما القديمة . وليس يدري أحد غير اليهودي هل فعلا ذلك التماساً لمزيد من البراعة في تلك الصناعة أم تبصيراً لأوليفر بأسرارها . وفي أحيان أخرى كان من دأب العجوز أن يروي لهم قصصاً عن سرقات ارتكبها في صباه الأول ، ومزج تلك القصص بكثير من الاشياء المضحكة والغريبة حتى لقد تعذر على أوليفر ان يتمالك نفسه عن الضحك ، وعن الظهور بمظهر المستمتع الطرب

برغم مشاعره الفضلى كلها ٠

وبكلمة موجزة ، فقد أخضع اليهودي العجوزُ المكّارُ ذلك الغلام الصغير لسلطان سحره ٠ حتى اذا هيأ ذهنه ، من طريق العزلة والكآبة ، لتفضيل أيما رفقة على رفقة أفكاره الحزينة في مثل ذلك الموطن الموحش ، راح الآن يَقْطُر في روحه السمَّ الذي كان يرجو أن يُسَوِّدها ، وان يغيِّر صبغتها الى الابد ٠

الفصــل التاســع عشر
وفيه تدرس خطــة هامــة ويتم الاتفاق عليها

كانت ليلة باردة ، رطبة ، عاصفة تلك التي غادر فيها اليهودي وكره ، بعد ان أحكم تزرير معطفه حول جسمه المتغضن ، ورفع قبَّته حتى أذنيه لكي تخفي الجزء الأدني من وجهه اخفاء كاملا ٠ وتمهَّل لحظة على العتبة بينا كان الباب يُقفل خلْفَهُ ويدعَّم بالسلاسل ٠ حتي اذا أصغى ريثما اتخذ الغلمان مختلف التدابير التي تكفل لهم الأمن والسلامة ، والي ان أمسى من المتعذر عليه سماع وقع أقدامهم المتراجعة ، انسلَّ هابطاً الشارع على أسرع وجه استطاعه ٠

وكان المنزل الذي سبق لأوليفر أن نُقِل اليه يقوم على مقربة من حيّ هوايتشابل ، ووقف اليهودي لحظة عند زاوية الشارع ٠ وبعد أن أجال طرفه في ما حوله على نحو مريب عبر الطريق ، وانطلق في اتجاه سبيتالفيلدز ٠

كان الوحل كثيفاً على حصباء الشوارع ، وكان الضباب الأسود يتدلّى فوقها ٠ وهطل المطر على نحو متوان ، وكان كل شيء بارد الملمس دبِقاً ٠ لقد بدت تلك الليلةُ وكأنها أكثر الليالي ملاءمة لخروج مخلوق كاليهودي العجوز من بيته ٠ وفيما كان العجوز البشع ينسل خلسة الى أمام ، زاحفاً في محاذاة الجدران والأبواب ، بدا أشبه شيء بزحّافة كريهة انبثقت من الوحل والظلمات التي كان يخوض فيها ٠٠٠ زحافة أخذت تدب في الظلام بحثاً عن قاذورة عامرة تصيب منها عشاءها ٠

وواصل سيره ، خلال كثير من الأزقة الملتوية الضيقة ، حتى بلغ « بيثنال غرين » ٠ ثم انه انعطف فجأة نحو اليسار ، فاذا به يغوص وسط متاهة من الطرق الحقيرة القذرة التي تكثر في ذلك الحيّ الكثيف السكان ٠

كان واضحاً أن اليهودي يعرف البقعة التي اجتازها معرفة جعلته أبعد ما يكون عن أن يضل سبيله من جراء ظلمة الليل الدامسة أو من جراء تعقــد الطريق ٠ لقد أغذّ السير خلال كثير من الازقة والشوارع ، وأخيراً انتهى الى شارع لم يكن ينيره غير مصباح فَرْد منصوب في طرفه الأقصى ٠ وفي ذلــك الشارع وقف عند أحد المنازل وقرع بابه ٠ وبعد أن تبادل بضع كلمات مهمو.. ة

مع الشخص الذي فتح له ارتقي السلّم صاعداً الى الطابق الأول ·

وهرّ كلبٌ عندما مسّ مقبض باب من أبواب الغرف · وتساءل صوت رجل : « مَنْ هناك ؟ »

فقال اليهودي مطلا برأسه من وراء الباب : « أنا ، يا بيل · أنا وليس أحداً غيري ، يا عزيزي · »

عندئذ قال سايكس : « أدْخِل جسدك اذن · الزم الارض ، ايها الوحشي الأبله · ألست تعرف الشيطان حين يرتدي معطفاً ؟ »

ويبدو أن الكلب كان قد خُدع بعض الشيء بثوب مستر فاجين الخارجي اذ لم يكد اليهودي يفك أزرار معطفه ويلقيه على ظهر أحد الكراسي حتى ارتدّ الى الزاوية التي كان قد فارقها ، مُبَصْبِصاً بذنبه طوال الطريق ، لكي يُظهر انه كان راضياً بقدر ما تجيز له طبيعته ان يرضى ·

وقال سايكس : « حسناً ؟ »

فأجابه اليهودي : « خير ، يا عزيزي ··· آه ! نانسي ! »

وانما أطلِقت هذه التحية الأخيرة في ارتباك كاف لأن يجعله يشك في انها قد سُمِعت · ذلك بأن مستر فاجين وصديقته الفتيّة لم يكونا قد اجتمعا منذ ذلك اليوم الذي انتصرت فيه لأوليفر · ولكن سلوك السيدة الصغيرة ما لبث أن بدّد جميع شكوكه في الموضوع ، ان صحّ أنه عرف مثل تلك الشكوك · فقد أنزلت قدميها عن حاجز نار الموقد ، وردّت كرسيها الى وراء ، وسألت فاجين أن يُدني كرسيه من غير أن تنبس بأية كلمة اخرى : ذلك بأن الليلة كانت باردة ، ما في هذا ريب ·

فقال اليهودي وهو يدفيء يديه المعروقتين فوق النار : « الليلة باردة حقاً ، يا عزيزتي نانسي · » ثم أضاف وهو يمسّ أحد جنبيه : « ويبدو لي وكأنّ البرد يخترق جسم المرء اختراقاً · »

فقال مستر سايكس : « اذا استطاع أن يشق طريقه الى فؤادك فمعنى ذلك أنه بردٌ ثاقبٌ الى حد بعيد · أعطِه شيئاً من الشراب ، يا نانسي · يا للشيطان ، عجلي ! ان مجرد النظر الى جثته المهزولة العجوز ترتعد على هذا النحو ، وكأنها شبح بشع خَرج من القبر منذ لحظات ، كاف لنقل المرء من عالم الاصحاء الى عالم المرضى · »

وسارعت نانسي فجاءت بزجاجة من خزانة حافلة بالزجاجات · وكانت هذه الزجاجات ـ اذا كان لنا أن نحكم على أساس من تنوّع مظهرها ـ ملأى بضروب من السوائل مختلفة · وصبّ سايكس « البراندي » في قدح ، وسأل اليهوديَّ أن يحتسيه ·

ـ « هذا كاف ، كاف وزيادة · شكراً ، يا بيل · » كذلك قال اليهودي ، وهو يضع الكأس على الطاولة بعد أن مسّها بشفتيه مجرد مسّ ·

فتساءل سايكس ، مسدداً نظراته الى اليهودي : « ماذا ؟! أنت تخشى أن تغلبك ، أليس كذلك ؟ »

ونخر سايكس نخرة ازدراء ، واختطف الكأس ، وأفرغ بقية محتوياتها في الرماد كأجراء تمهيدي لاعادة ملئها لنفسه . وهو ما فعله في الحال .

وأجال اليهودي بصره في ما حوله ، بينما التهم رفيقه الكأس الثانية . ولم يفعل اليهودي ذلك بدافع من الفضول ، اذ كان قد رأى الحجرة من قبل غير مرة ، ولكنه فعل ذلك في قلق وارتياب وفقاً لمألوف عادته . كانت حجرة حقيرة الأثاث ، ليس فيها مما يوحي بأن شاغلها أكثر من عامل من العمال شيء غير محتويات الخزانة ، وليس فيها من الأدوات المريبة الظاهرة للعيان شيء غير هراوتين أو ثلاث هراوات غليظة قائمة في احدى الزوايا ، وغير عصا قصيرة في رأسها رصاص معلقة فوق اطار المدفأة .

وقال سايكس متمطقاً بشفتيه : « هيا ! أنا مستعد الآن ! »

فسأله اليهودي : « للعمل ؟ »

فأجابه سايكس : « للعمل . قل ، اذن ، ما تريد أن تقوله . »

فقال اليهودي ساحباً كرسيه الى أمام ، متحدثاً في صوت خفيض جداً : « عن البيت الحقير الذي في تشيرتسي ، يا بيل ؟ »

فسأله سايكس : « نعم . وماذا عنه ؟ »

فقال اليهودي : « آه ! أنت تعرف ما أعني ، يا عزيزي . انه يعرف ما أعني ، يا نانسي ، أليس كذلك ؟ »

فقال سايكس ، ساخراً : « لا ، انه لا يعرف . او انه لا يريد أن يعرف ، ولا فرق بين الحالين . تكلم بصراحة ، وسم الاشياء بمسمياتها . لا تجلس هناك ، غامزاً مختلساً النظر ، وتتحدث الي بلغة التلميح الخفي وكأنك لم تكن أول من فكر في الاقدام على تلك السرقة . ما الذي تعنيه ؟ »

فقال اليهودي الذي كان قد حاول ، على غير طائل ، أن يوقف ثورة الحنق تلك : « هش ، يا بيل ، هش . قد يسمعنا بعض الناس ، يا عزيزي . ان بعض الناس قد يسمعوننا . »

فقال سايكس : « دعهم يسمعون ! انا لا أبالي بذلك ! » ولكن لما كان مستر سايكس يبالي بذلك في الواقع ، فقد أستنسب بعد شيء من التفكير في الأمر ، ان يخفض صوته عند النطق بهذه الكلمات ، وأن يهدىء من ثورته بعض الشيء .

فقال اليهودي بلهجة متملقة : « حسن ، حسن ، لقد أردت ان اصطنع الحذر ، على مألوف عادتي ، ليس غير . والآن ، يا عزيزي ، فلنعد الى ذلك البيت الحقير الذي في تشيرتسي . متى سيصار الى التنفيذ ، يا بيل ، متى سيصار

الى التنفيذ ؟ يا لها من آنية مائدة نفيسة ، يا عزيزي ، يا لها من آنية مائدة نفيسة ! » وفرك اليهودي يديه ، ورفع حاجبيه في موجة غامرة من التوقع البهيج ·

فأجابه سايكس في برود : « ان ذلك لن يتم أبداً · »

فكرر اليهودي بمثل رجع الصدى : « لن يتم أبداً ! » وارتد الى الوراء مسنداً ظهره الى ظهر كرسيه ·

فعاد سايكس الى القول : « لا ، لن يتم أبداً · انه لن يكون ، على الأقل ، عملية سهلة كما توقعنا · »

فقال اليهودي وقد شحب وجهه من شدة الغضب : « واذن فمعنى ذلك انكم لم تحسنوا التأتي للأمر · لا تقل لي ذلك ! »

فأجابه سايكس : « بل سأقوله لك · ومن أنت حتى لا يقال لك ذلك ؟ سوف أقول لك أن توبي كراكيت قد حام حول المنزل طوال اسبوعين فلم يستطع أن يقنع أحد الخادمين بالتعاون معه · »

فقال اليهودي ملطفاً لهجته بعد ان رأى الحدّة تغلب على سايكس : « هل تقصد أن تقول لي ، يا بيل ، ان من المتعذر أن نذلل أياً من الرجلين اللذين في ذلك البيت ؟ »

فأجابه سايكس : « أجل ، أنا اقصد ان اقول لك ذلك · لقد استخدمتهما السيدة العجوز منذ عشرين سنة · ولو انك أعطيتهما خمسمئة جنيه لما وُفّقت الى استمالتهما · »

فاحتج اليهودي قائلا : « ولكن هل تريد أن تقول لي ، يا عزيزي ، أنه لا سبيل الى التغلب على النساء ؟ »

فأجابه سايكس : « أجل ، لا سبيل الى ذلك البتة · »

فقال اليهودي غير مصدّق : « ولو عهدنا الى توبي كراكيت المرح بهذه المهمة ؟ فكّر قليلا في طبيعة النساء ، يا بيل · »

فأجابه بيل : « لا · حتى ولو عهدنا بذلك الي توبي كراكيت المرح · لقد قال انه اصطنع سالفين زائفين ، وصدرة صفراء زاهية طوال ذلك الوقت الذي سلخه في التسكع هناك · ولكن هذا كله لم يكن ذا جدوى · »

فقال اليهودي : « كان يتعين عليه أن يجرب اصطناع شاربين زائفين وبنطال عسكري ، يا عزيزي · »

فأجابه سايكس : « لقد جرب ذلك أيضاً · فلم تكن تلك الحيلة أكثر نجاحاً من الحيلة الأولى · »

فغلب الشحوب على اليهودي لدن سماعه هذا النبأ · وبعد ان استغرق في التأمل بضع دقائق وذقنه غائرة في صدره ، رفع راسه وقال ، وهو يطلق زفرة

عميقة : « اذا كان توبي كراكيت المرح صادقاً في الذي رواه فعندئذ تكون اللعبة، في ما يخيّل اليّ ، قد خُتِمت . »

فقال الرجل العجوز وهو يرخي يديه على ركبتيه : « ومع ذلك ، فمن المحزن ، يا عزيزي ، أن نخسر هذا كله بعد أن علّلنا قلوبنا به . »

فقال سايكس : « هذا صحيح . حظ سيء . »

وتلت ذلك فترة صمت طويلة ، استغرق اليهودي خلالها في تفكير عميق ، وقد تغضّن وجهه في انطباعة تنم عن لؤم عفريتيّ كامل . وأخذ سايكس يختلس النظر اليه بين الفينة والفينة . أما نانسي ، وكانت في ما يبدو تخشى أن تثير غضب لصّ المنازل ، فقد جلست وعيناها مركّزتان على النار وكأن بها صمماً عن كل ما يجري .

ثم ان سايكس قال قاطعاً ، فجاءة ، ذلك السكون السائد : « فاجين ، هل تستحق هذه المسألة خمسين لطمة اضافية تزرقّ منها العين اذا ما استطعنا أن ننفّذها من الخارج بنجاح ؟ »

فقال اليهودي وهو يتصدّر في جلسته فجأة : « نعم ، تستحق ! »

فتساءل سايكس : « أهي صفقة رابحة ؟ »

— « نعم ، يا عزيزي ، نعم ! » كذلك أجاب اليهودي ، وقد تألقت عيناه وارتعدت كل عضلة من عضلات وجهه من جراء الاهتياج الذي أثاره ذلك السؤال .

وقال سايكس وهو يردّ يد اليهودي في شيء من ازدراء : « اذن فلنقم بذلك ساعة تشاء . لقد تسلّقت أنا و « توبي » سور الحديقة الليلة التي قبل البارحة ، لنسبر غور ألواح الباب ومصاريع النوافذ . ان ذلك البيت مدعّم ، في الليل ، بالمزاليج مثل سجن من السجون . ولكن ثمة نقطة نستطيع أن نحطّمها في رفق ومن غير خطر . »

فسأله اليهودي في لهفة : « وأين تقع تلك النقطة ، يا بيل ؟ »

فهمس سايكس : « أرأيت وأنت تعبر المرج ... »

— « نعم ؟ » كذلك قال اليهودي ، حانياً رأسه الى أمام ، وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما .

— « أفّ ! » هكذا صاح سايكس ، وكفّ عن الكلام ، عندما نظرت الفتاة فجأة الى ما حولها ، من غير ان تحرك رأسها تقريباً ، وأشارت لحظة الى وجه اليهودي . « لا داعي لأن تعرف أين تقع تلك النقطة . أنا أعرف جيداً انك لا تستطيع القيام بهذه العملية بدوني . ولكن من الافضل للمرء أن يلزم الجانب الآمن حين يتعامل معك . »

فأجابه اليهودي : « كما تحبّ ، يا عزيزي ، كما تحب . الن نحتاج الى

معونة أحد غيرك وغير توبي ؟ »

فقال سايكس : « لا · باستثناء مثقاب نجّار ، وغلام · فأما الأول فموجود عندنا كلينا ، وأما الثاني فيتعين عليك أنت أن تأتينا به · »

فهتف اليهودي : « غلام ! واذن فهي صفيحة خشبية صغيرة ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه سايكس : « لا تشغل نفسك بماهيتّها · أنا أريد غلاماً ، وهذا الغلام يجب أن لا يكون كبيراً · » وهنا غلبت على محيّاه سيماء الاستغراق في التفكير : « يا الهي ! ليتني أستطيع الاستعانة بغلام « نيد » الصغير ، غلام منظّف المداخن ! لقد أبقاه هزيلا ، عن عمد ، وكان يؤجره بطريقة الالتزام والمقاولة · ولكن ها هو الأب يُحكم عليه بالاشغال الشاقة ، ثم تجيء « جمعية العناية بالغلمان الآثمين » ، وتنتزع الفتى من الصناعة التي كان يكسب منها المال ، وتعلمه القراءة والكتابة لتجعل منه بعد ذلك غلاماً ممهنّاً · وهكذا دواليك · » وهنا استبد الغيظ بمستر سايكس لدن تذكّره ضروب الظلم المُنْزلَة به ، « وهكذا دواليك · ولو كان لديهم مال كاف (ولكن العناية الآلهية تشاء أن يكون الواقع غير ذلك) اذن لما تركوا لصناعتنا غير نصف دزينة من الغلمان في مدى عام أو عامين · »

ـ « هذا صحيح كل الصحة » كذلك أقرّه اليهودي على ما ذهب اليه ، وكان مستغرقاً في التفكير خلال ذلك الحديث فلم يسمع غير الجملة الاخيرة ·

« بيل ! »

فسأله سايكس : « ماذا ؟ »

فأومأ اليهودي برأسه نحو نانسي ، التي كانت لا تزال تحدق الى نار المدفأة · والمع ، بأشارة ما ، الى انه يتمنى لو يُطلب اليها مغادرة الحجرة · فهز سايكس كتفيه في نفاد صبر ، وكأنه اعتبر ان لا ضرورة لذلك الحذر البتة · ومع ذلك فقد استجاب لرغبة اليهودي وسأل الآنسة نانسي أن تأتيه بأبريق جعة ·

ـ « أنت في غير حاجة الى شيء من الجعة ! » كذلك قالت نانسي ، طاوية ذراعيها ، لازمة مقعدها في رباطة جاش بالغة ·

فأجابها سايكس : « قلت لك ايتيني بأبريق جعة ! »

فردّت الفتاة في برود : « هراء ! تابع كلامك ، يا فاجين · انا اعرف ما يريد أن يقوله ، يا بيل · فلا داعي لأن يزعجه وجودي · »

وظل اليهودي متردداً · ونقّل سايكس بصره من أحدهما الى الآخر في شيء من الدهش ·

وأخيراً سأله : « ولكني احسب ان وجود الفتاة العجوز لا يزعجك · لقد عرفتها منذ عهد طويل معرفة كافية لحملك على الثقة بها ، وحق الشيطان ! انها

ليست فتاة من ذلك النوع الذي يشي بأصحابه · ألست كذلك ، يا نانسي ؟ »
فأجابت السيدة الصغيرة ، مُدنية كرسيها حتى الطاولة ، مسندة مرفقيها اليها : « يخيّل اليّ انى لست من ذلك النوع ! »
فقال اليهودي : « لا ، لا ، يا عزيزتي · أنا واثق من ذلك · ولكن ··· » وأمسك العجوز كرة اخرى عن الكلام ·
فسأله سايكس : « ولكن ماذا ؟ »
فأجابه اليهودي : « أنا أخشى ان تخرج عن طورها ، أفهمت ؟ ، يا عزيزي ، مثلما فعلت تلك الليلة · »
عند هذا الاعتراف انفجرت الآنسة نانسي في ضحك مدوٍّ · ثم انها التهمت كأساً من البراندي وهزّت رأسها في سيما من التحدي ، وراحت تطلق هتافات شتى من مثل « تابع اللعبة ! » و « لا تستسلم ! » وغيرها · وبدا وكأن تلك الهتافات قد أعادت الطمأنينة الى قلبَي السيدين الماجدين · ذلك بأن اليهودي انشأ يهز رأسه في ارتياح ، وعاود الاستواء في مقعده · وكذلك فعل مستر سايكس ·

وقالت نانسي : « والآن ، يا فاجين ، حدّث بيل ، في الحال ، عن أوليفر ! »
فقال اليهودي ، مربّتاً على عنقها : « ها ! أنت فتاة بارعة ، يا عزيزتي ! أنت أبرع فتاة رأيتها في حياتي ! لقد كنت أعتزم أن أتحدث فعلا عن اوليفر هذا شيء لا ريب فيه · ها ! ها ! ها ! »
فسأله سايكس : « ما باله ؟ »
ــ « انه الغلام الذي تبحث عنه ، يا عزيزي ! » كذلك أجابه اليهودي في صوت أجشّ ، واضعاً أصبعه على جانب أنفه ، وضاحكاً على نحو رهيب · »
فصاح سايكس : « هو ! »

فقالت نانسي : « خذه ، يا بيل · لو كنت في مكانك لأخذته ! انه قد لا يتمتع بمثل كفاءة أيٍّ من الآخرين ، ولكنْ ليس هذا ما تريد ، ان كان كل الذي تريده هو أن يفتح لك باباً · ثِق انه غلامٌ مأمون ، يا بيل · »
فقال فاجين : « أنا أعرف ذلك . لقد نَعِم بتدريب حسن خلال الاسابيع القليلة الماضية · ولقد آن له أن يشتغل من أجل الفوز بخبزه اليومي والى هذا ، فجميع الآخرين أكبر جسماً مما ينبغي · »
فقال مستر سايكس مستغرقاً في التفكير : « حسن ، ان حجمه هو عين الحجم الذي أريد · »

فقاطعه اليهودي : « ولسوف يفعل أيما شيء تريده ، يا عزيزي بيل ! انه أعجز من أن يفعل غير ذلك · أعني اذا روّعته ترويعاً كافياً · »
فكرّر سايكس : « اذا روّعتُه ! انتبه ، انه لن يكون ترويعاً كاذباً · اذا

ما تكشّف عن أيما شيء غريب بمجرد مباشرتنا العمل ! ان عليه أن يُتمّ ما أكلفه به حالما يشرع في ذلك ، والا فلن تراه محتفظاً بحياته ، يا فاجين · فكّر في هذا قبل أن ترسله · انتبه جيداً لما أقول ! » كذلك قال اللص وهو يوازن مُخلا كان قد سحبه من تحت السرير ·

فقال اليهودي في حزم : « لقد فكرت في ذلك كله · لقد ··· لقد راقبته عن كثب ، يا عزيزي ، عن كثب · فلنُشعِرْه مرة انه واحد منا ، فلنملأ ذهنه بهذه الفكرة وهي انه ارتكب سرقة ، وعندئذ يصبح مِلْكنا · يصبح مِلْكنا طوال حياته · هوه هوه ! أنا ما كنت أطمع في أن تجري الأمور على نحو أفضل ! » وصالب العجوز ذراعيه على صدره ، ثم جمع رأسه وكتفيه في كتلة واحدة واهتز طرباً بالمعنى الحرفي للتعبير ·

وقال سايكس : « مِلْكنا ! أنت تعني مِلْكك ، يا فاجين ! »

فقال اليهودي مرسلا ضحكة حادة : « ربما عنيتُ ذلك ، يا عزيزي · حسناً ، ملكي أنا ، اذا شئت ، يا بيل · »

فقال سايكس مقطباً بضراوة في وجه صديقه القريب الى القلب : « وما الذي يجعلك تهتم هذا الاهتمام كله بغلام شاحب الوجه في حين انك تعلم ان هناك خمسين غلاماً يتسكعون حول « كومون غاردن » كل يوم ، أجل خمسين غلاماً تستطيع أن تختار منهم من تشاء ؟ »

فأجابه اليهودي في شيء من الاضطراب : « لأنهم لا يفيدونني ، يا عزيزي · انهم لا يستحقون عناء أخذهم · ان لهم وجوهاً تدينهم عندما يقعون في متاعب ، وعندئذ أخسرهم كلهم · أما من طريق هذا الغلام ، اذا ما دُرّب كما ينبغي له أن يدرّب ، ففي استطاعتي يا عزيزي أن أفعل ما لا أستطيع أن أفعله من طريق عشرين من أولئك · والى هذا ، » وهنا استرد اليهودي رباطة جأشه ، « فأنه يملكنا الآن اذا ما استطاع أن يهرب من جديد ، وأن عليه أن يكون معنا في قارب واحد · وليس ينبغي أن نتساءل كثيراً عن الطريقة التي اصطنعتها لربط مصيره بمصيرنا ، فحسبي سلطاناً عليه أني وُفقت الى حمله على الاشتراك في هذه الغارة · ذلك كل ما أريده · والآن أليس هذا أفضل ألف مرة من اضطرارنا الى ازاحة الغلام الصغير البائس من الطريق ـ ولا تنس انذلك شيء خطِر ـ وأنه يعود علينا بالخسارة · »

ـ « ومتى ستقومون بهذه الغارة ؟ » كذلك تساءلت نانسي ، مقاطعة صيحة هائلة أطلقها مستر سايكس تعبيراً عن الاشمئزاز الذي استقبل به تظاهر فاجين بالعطف على الانسانية ·

فقال اليهودي : « آه ، من غير ريب ، متى سيتم القيام بهذه الغارة ، يا بيل ؟ »

فأجابه سايكس ، في صوت فظ : « لقد تفاهمت مع توبي على أن يتم ذلك بعد غد ليلا ، اذا لم أبعث اليه أمراً مخالفاً · »

فقال اليهودي : « حسن · سوف تكون ليلة غير قمراء · »

فأجابه سايكس : « هذا صحيح · »

فسأله اليهودي : « لقد اتُخِذت جميع الترتيبات لأجل نقل البضائع المسروقة ، أليس كذلك ؟ »

فهز سايكس رأسه أن نعم ·

ـ « ولأجل ··· »

فقال سايكس مقاطعاً اياه : « اوه ، نعم ، لقد اتُخِذت جميع الترتيبات · دعنا الآن من التفاصيل · من الافضل لك أن تجيء بالغلام الى هنا ليل غد · ولسوف أغادر البيت بعد ساعة من شروق الشمس · وعندئذ يتعيَّن عليك أن تمسك لسانك ، وتُعِدّ البوتقة · هذا كل ما يجب عليك أن تفعله · »

وبعد مناقشة وجيزة اشترك فيها ثلاثتهم اشتراكاً فعلياً تم الاتفاق على أن تذهب نانسي الى منزل اليهودي مساء اليوم التالي ، بعد أن يهبط الليل ، وتعود من ثمّ مُصطحبة أوليفر · وكان فاجين قد لاحظ ، في كثير من المكر ، ان اوليفر خليقٌ به ـ اذا ما أبدى معارضة للاشتراك في الغارة ـ أن يأنس الى رفقة الفتاة التي انتصرت له منذ قريب أكثر من أنسه الى اي امرىء آخر · وقد تم الاتفاق أيضاً ، في وقار وجلال ، على أن يُعهد بأوليفر المسكين ـ ابتغاء انجاح الغارة المبيَّتة ـ الى عناية مستر سايكس ورعايته في غير ما تحفُّظ ولا احتياط · وفوق هذا ، فقد كان على سايكس المذكور أن يعامله بالطريقة التي يراها مناسبة ، من غير أن يكون مسؤولا تجاه اليهودي عن أيما مصيبة او شر قد يحلان به ، أو عن أيما عقوبة قد تقضي الضرورة بأنزالها به · شريطة أن يكون مفهوماً ، لجعل أحكام هذا العقد مُلزِمة من هذه الناحية ، أن جميع المزاعم التي قد يتقدم بها سايكس بدوْره يجب أن تؤيَّد وتُعزَّز ، في النقاط الهامة كلها ، بشهادة من توبي كراكيت المرح ·

حتى اذا سُوِّيت هذه المسائل التمهيدية راح مستر سايكس يحتسي البراندي في سرعة ضارية ، ويلوّح بالمِخْل تلويحاً خطيراً · مترنماً في الوقت نفسه بمقاطع من بعض الاغاني ليس ثمة ما هو أكثر منها نشازاً ، مازجاً تلك المقاطع بشتائم رهيبة · وأخيراً أصرّ ، في نوبة من حماسة مهنية ، على اخراج صندوق أدواته الخاصة باقتحام المنازل · فلم يكد يحمله مترنحاً في مشيته ويفتحه لشرح طبيعة الأدوات المختلفة التي اشتمل عليها وخصائصها ، وجمالات تكوينها الخاصة ، حتى سقط على الارض ، فوق صندوقه ، واستغرق في النوم حيث سقط ·

وقال اليهودي ، ملتفعاً بردائه شأنَه' من قبـــل : « طــاب مساؤك ، يا نانسي • »

ــ « طاب مساؤك • »

والتقت نظراتهما • ودرس اليهودي وجه الفتاة في كثير من التدقيق ، فلم يجد فيه ما يبعث على الريبة • لقد كانت جادّة في تلك المسألة راغبة في نجاحها بقدر ما كان خليقاً بتوبي كراكيت نفسه أن يكون •

وتمنى لها اليهودي ، كرة اخرى ، ليلة' طيبة • ثم انه هبط السلم متلمساً طريقه فوق درجاتها ، بعد أن رفس جسد مستر سايكس المطروح على الارض ــ فيما كانت نانسي مديرة ظهرها ــ رفسة خفيّة •

وغمغم اليهودي بينه وبين نفسه وهو يتخذ سبيله الى منزله : « تلك هي الحال دائماً • اسوأ ما في النساء هو ان حادثاً صغيراً يكفي لايقاظ بعض مشاعرهن الهاجعة منذ عهد بعيد• وخير ما فيهن هو أنذلك لا يدوم البتة•• ها ! ها ! الرجل ضد الطفل ، في سبيل كيس من الذهب ! »

وهكذا تلهّى مستر فاجين بهذه التأملات المستعذبة وهو يتابع طريقه ، خلال الوحل والطين ، الى مأواه المظلم حيث كان « المراوغ » ساهراً ، منتظــراً عودته بفروغ صبر •

ــ « هل نام أوليفر ؟ أريد أن أتحدث اليه ! » تلك كانت الكلمات الأولى التي فاه بها وهما يهبطان السلم •

فأجابه « المراوغ » وهو يفتح أحد الأبواب بحركة رشيقة : « منذ عــدة ساعات • ها هو ذا • »

كان الغلام مستغرقاً في الرقاد فوق فراش خشن ممدّد على الارض • وكان القلق والحزن وضيق المحبس قد أحالا لونه الى شحوب يشبه صُفرة الموت • لا الموت كما يظهر في الكفن والتابوت ، ولكن في القناع الذي يلبسه حين تفارق الحياة الجسد ••• عندما تكون الروح الفتية اللطيفة قد فرّت منذ لحظة ليس غير الى السماء ، وقبل أن يجد هواء هذا العالم الفظ' متسعاً من الوقت لأذواء التراب الفاني الذي كرّسته تلك الروح بحلولها فيه •

وقال اليهودي ، وهو يبتعد عنه في رفق : « ليس الآن • غداً • غداً • »

الفصـــل العشرون
وفيه يسلم أوليفر الى مستر ولـيم سايكس

حتى اذا استيقظ أوليفر صباحاً خامره دهش عظيم اذ وجد الى جانب فراشه حذاء جديداً ذا نعل متين كثيف ، واذ وجد أن حذاءه العتيق قد اختفى •

وأبهجه الاكتشاف بادئ الأمر ، ذلك بأنه رجا ان يكون هذا ايذاناً بوشك اطلاق سراحه . ولكن تلك الافكار سرعان ما بُدّدت ، عندما جلس لتناول طعام الصباح مع اليهودي الذي أنبأه ، في لهجة زادت في أساه ، أنه سوف يُنقل تلك الليلة الى مقر بيل سايكس .

وسأله أوليفر في قلق : « لكي ... لكي ... أبقى هناك ، يا سيدي ؟ »

فأجابه اليهودي : « لا . لا ، يا عزيزي . لا لكي تبقى هناك . نحن لا نحب أن نخسرك . لا تخف ، يا أوليفر ، فلسوف ترجع الينا كرة اخرى . ها ! ها ! ها ! اننا لن نكون من القسوة بحيث نطردك ، يا عزيزي . اوه ، لا ، لا ! »

وأجال العجوز ـ الذي كان منحنياً فوق النار يحمّص قطعة من خبز ـ بصره في ما حوله ، وهو يسخر من أوليفر على ذلك النحو . وضحك ضحكة فاترة وكأنه أراد أن يُظهر تأكده من ان الغلام لا يزال يأمل في الفرار اذا ما وجد الى ذلك سبيلا .

وقال اليهودي مركّزاً عينيه على أوليفر : « أحسب أنك تريد أن تعرف لايّ غرض ستذهب الى منزل سايكس ... أليس كذلك ، يا عزيزي ؟ »

فتضرّج وجه أوليفر ، على نحو لا ارادي ، اذ اكتشف ان اللص العجوز كان يقرأ أفكاره . ولكنه قال ، في جسارة : « نعم ، أريد أن أعرف . »

فسأله فاجين متفادياً الجواب : « ماذا تظن أنت ؟ »

فأجابه أوليفر : « الواقع أني لا أعلم ، يا سيدي . »

ـ « باه ! » كذلك قال اليهودي وهو يشيح بوجه مُخيّب الرجاء بعد أن أنعم النظر في ملامح الغلام : « انتظر ، اذن ، حتى يخبرك بيل . »

وبدا اليهودي جدّ مَغيظ لعدم تكشُّف أوليفر عن قدر من القلق أعظم ، حول هذا الموضوع . ولكن الواقع أن أوليفر كان ، برغم قلقه البالغ ، مرتبكاً أشد الارتباك من جراء ملامح فاجين الراشحة بأمكر المكر ومن جراء تأملاته الخاصة ، فلم يكن في ميسوره ، آنذاك ، أن يوجه أيما سؤال اضافي . ولم تتح له ، بعدُ ، أية فرصة اخرى . ذلك بأن اليهودي ظل مسرفاً في العبوس والصمت ، حتى هبوط العتمة . وعندئذ أخذ الاهبة لمغادرة مأواه .

ـ « في امكانك ان تضيء شمعة » قال اليهودي ذلك وهو يضع واحدة على الطاولة . « وهو ذا كتاب تستطيع ان تقرأه ، ريثما يأتون لأخذك . طاب مساؤك ! »

فأجاب أوليفر في رقة : « طاب مساؤك ! »

ومضى اليهودي الى الباب ، وهو ينظر من فوق كتفه الى الغلام . وفجأة كفّ عن السير ، وناداه باسمه .

ورفع أوليفر بصره . فاشار اليهودي الى الشمعة آمراً اياه بأن يضيئها . وامتثل أوليفر أمره ، وفيما هو يضع الشمعدان على الطاولة لاحظ ان اليهودي كان يحدّق اليه على نحو موصول ، وقد انخفض حاجباه وتقلّصا ، من طرف الحجرة المظلم .

ــ « خذ حذرك ، يا أوليفر ! خذ حذرك ! » كذلك قال العجوز وهو يهز يده اليمنى أمامه على نحو انذاريّ . « انه رجل فظ ، وهو لا يبالي البتة بالدم ، حين يعلو دمه هو في دماغه . لا تقل شيئاً ، مهما حدث ، وافعل ما يأمرك به . انتبه ! » ووضع توكيداً قوياً على اللفظة الأخيرة ، وأجاز لأساريره ان تحلّ عقدتها ، تدريجياً ، لتتخذ شكل ابتسامة رهيبة . ثم انه هز رأسه ، وغادر الحجرة .

وأسند أوليفر رأسه الى يده عندما توارى الرجل العجوز ، وأنشأ يفكر ، بقلب واجف ، في الكلمات التي سمعها منذ لحظة . وكلما أنعم التفكير في تحذير اليهودي ازداد ارتيابه في حقيقة غرضه ومعناه . انه لم يستطع أن يفكر في أيما غرض شرير يمكن تحقيقه بارساله الى سايكس على نحو أفضل من تحقيقه بابقائه في بيت فاجين . وبعد تأمل دام فترة طويلة خَلَص الى الاعتقاد بأنه اختير لأداء بعض الخدمات العادية الحقيرة لسارق البيوت ، ريثما يوفق الى استخدام غلام آخر أليق بأداء تلك المهام . كان قد أَلِفَ العذاب أكثر مما ينبغي . وكان قد قاسى من ضروب العذاب ، حيث هو ، شيئاً كثيراً ، فليس في ميسوره ، بعدُ ، أن يخشى أيّ تغيّر مفاجىء ، خشية عنيفة جداً . وظل بضع دقائق حائراً شارد الفكر ، ثم أطلق زفرة عميقة ، وأطفأ الشمعة ، وتناول الكتاب الذي دفعه اليهودي اليه ، وانشأ يقرأ .

لقد قلّب الصفحات . في غير مبالاة باديء الأمر . حتى اذا وقع نظره على فقرة اجتذبت انتباهه آنكبّ في الحال على مطالعة ذلك المجلد . كان قصة حياة ومحاكمات عدد من المجرمين الكبار ، وكانت الصفحات متسخة ملوّثة الاطراف بالأصابع من جراء طول الاستعمال . وهنا قرأ كلاماً يدور على جرائم رهيبة تجعل الدم يجري بارداً في العروق . على أعمال قتل سرّية آرتُكبت في بعض الطرق المقفرة . على جثث حُجِبت عن عين الانسان في حفر وآبار عميقة أبت أن تحتفظ بها في قعرها ، على الرغم من عمقها البالغ ، فلفظَتْها آخر الأمر ، بعد سنين عديدة ، مثيرة جنون القتلة بمشهدها حتى لقد اقرّوا بجريمتهم ، وزعقوا متوسلين أن تضع المشنقة حداً لآلامهم . وهنا ، أيضاً ، قرأ كلاماً يدور على رجال كانوا مستلقين في فُرُشهم ، في جوف الليل البهيم ، فسوّلت لهم أنفسهم الأثم (هكذا زعموا) وقادتهم أفكارهم الشريرة نفسُها الى سفك للدماء تقشعر لهوله الأبدان ، وترتعد الأوصال . وكانت الاوصاف الرهيبة واقعية نابضة

بالحياة الى درجة جعلت الصفحات الشاحبة تبدو وكأنها قد تضرجت بالدم · وجعلت الكلمات المسطورة عليها تتردد في أذنيه وكأن أرواح القتلى كانت تهمس بها في وشوشات غائرة ·

وفي نوبة ذعر طوى الغلام الكتاب ، وطرحه بعيداً عنه · ثم انه جثا على ركبتيه وتضرّع الى السماء أن تعصمه عن القيام بأمثال تلك الاعمال ، وأن تقدّر له أن يموت في الحال بدلا من أن يبقى على قيد الحياة لارتكاب جرائم رهيبة مرعبة الى ذلك الحد · وشيئاً بعد شيء ، استعاد هدوءه ، وتضرع الى الله ، في صوت خفيض منكسر ، أن ينقذه من الافكار التي كانت تحدق به آنذاك . راجياً ـ إذا ما كان لأيما عون أن يُسْدى الى غلام بائس منبوذ لم يعرف قط حب الاصدقاء أو الانسباء ـ ان يُسْدي اليه هو ، الآن ، اذ يقف وحده ، من غير ما نصير ، وسط الاثم والجريمة ·

وكان قد ختم صلاته ، ولكن رأسه كان لا يزال دفيناً بين يديه ، عندما أيقظته من استغراقه ضجة مدوّية ·

ـ « ما هذا ؟ » كذلك صاح وهو يثب مجفلا ، لامحاً شبحاً على مقربة من الباب · « من هناك ؟ »

فأجابه صوت متهدج : « أنا · وليس أحداً غيري · »

ورفع أوليفر الشمعة فوق رأسه ، ونظر نحو الباب · كانت هي نانسي ·

وقالت الفتاة مشيحة بوجهها : « اخفِض الضوء ! انه يؤذي عينيّ · »

ولاحظ أوليفر انها كانت شديدة الشحوب ، وسألها في لطف هل تشكو مرضاً · فارتمت الفتاة على أحد الكراسي ، مولّية اياه ظهرها ، وأنشأت تعتصر يديها في توجُّع ، ولكنها لم تجب بشيء ·

وصاحت بعد برهة : « فليغفر الله لي ! أنا لم أفكر بذلك قط » ·

وتساءل أوليفر : « هل حدث شيء ؟ هل أستطيع أن أساعدك ؟ سوف أفعل اذا استطعت · سوف أفعل ، من غير ريب · »

فهزت جسدها الى أمام والى وراء ، وأمسكتْ بخنجرتها · ثم انها أطلقت صوتاً أشبه بخرير الماء ، وأنشأت تلهث ·

فصاح أوليفر : « نانسي ! ما بالك ؟ »

وراحت الفتاة تضرب ركبتيها بيديها ، وتضرب الارض بقدميها · وفجأة ، كفَّت عن ذلك ، وأحكمت شدّ شالها حول كتفيها ، وارتعدت من شدة البرد ·

وأثار أوليفر نار الموقد · فأدنت كرسيها اليها ، وقعدت هناك ، برهة قصيرة ، من غير أن تنطق بكلمة · بيد أنها رفعت رأسها ، آخر الأمر ، وأجالت طرفها في ما حولها ·

وقالت ، متشاغلة بتسوية ثوبها : « لست أدري ما الذي يُلمّ بي في

بعض الأحيان • انها هذه الحجرة القذرة ، الرطبة ، في ما أعتقد • والآن ، يا عزيزي نوللي ، أمستعدٌ أنت ؟ »

فسألها أوليفر : « أمن المفروض فيّ أن أذهب معك ؟ »

فأجابته الفتاة : « نعم • لقد أقبلت من بيت بيل • وان عليك ان تذهب معي • »

فسألها أوليفر مجفلا : « ولأيّ غرض ؟ »

فكررت الفتاة ، رافعة عينيها ، ثم مشيحة بهما عن وجه الغلام من جديد لحظة وقعتا عليه : « لأي غرض ؟ أوه ، لغرض غير شرير • »

فقال أوليفر ، وكان قد راقبها عن كثب : « لست أصدّق ذلك • »

فأجابته الفتاة متكلفة الضحك : « كما تشاء • لغرض غير صالح ، اذن • »

وكان في ميسور أوليفر أن يرى أنه كانت له بعض السيطرة على مشاعر الفتاة الفضلى ، فبدا له لحظة ان يفزعَ الى اشفاقها على وضعه البائس • ولكنه سرعان ما تذكّر أن الساعة لم تكد تبلغ الحادية عشرة ، وان كثيراً من النـاس لا يزالون في الشوارع ، وأنه لا بدّ واجدٌ بينهم نفراً يصدّقون حكايته • ولم تكد هذه الفكرة تخطر له حتى وثب الى أمام ، وقال — في شيء من الاهتياج — انه على استعداد للذهاب •

ولم يخفَ تفكيرُهُ الخاطف ، ولا مفادُ ذلك التفكير ، على رفيقته • لقد حدجته بعين ثاقبة ، فيما كان يتكلم ، ووجهت اليه نظرة ذكية أظهرت اظهـاراً واضحاً أنها حزرت ما كان يدور في خَلَده •

وقالت الفتاة وهي تميل على الغلام وتشير الى الباب فيما هي تجيل البصر حولها في حذر : « هش ! انت أعجز من أن تفعل شيئاً للنجاة بنفسك • لقـد بذلت قصارى جهدي في سبيلك ، ولكنّ محاولاتي ذهبت كلها أدراج الرياح • أنت مطوّق من نواحيك جميعاً • واذا كان لا بدّ لك ذات يوم من الفرار من هنا فليس هذا ، على أية حال ، هو الوقت المناسب لذلك • »

وأذهلته قوة لهجتها ، فراح ينظر الى وجهها في دهش عظيم • لقد بـدت وكأنها تنطق بالحقيقة • كان محياها شاحباً مهتاجاً ، وكانت أوصالها ترتعـد ارتعاداً صادقاً الى أبعد الحدود •

وتابعت الفتاة كلامها في صوت عال : « لقد أنقذتـك من سوء العـذاب ، يوماً ، ولسوف أنقذك كرة اخرى ، واني لأفعل ذلك الآن ، لأن أولئك الذيـن كان من المتوقع أن يجيئوا لأخذك ، لو لم أجيء أنا بنفسي ، كان خليقاً بهم أن يكونوا أقسى مني بكثير • لقد تعهدت لهم بأنك سوف تلزم السكينة والصمت • فان لم تفعل جلبت على نفسك الاذى وجلبته عليّ أنا أيضاً • ومن يدري ، فقد يفضي صنيعك الى موتي • اسمع اذن ! لقد تحملت هذه كلها من أجلك ، وفي

استطاعتك أن تثق بصحة قولي ثقتك بأن الله يراني وأنا أكشف عنها ٠ »
واشارت ، في تعجُل ، الى آثار بعض اللطمات المزرقّة على عنقها وذراعيها٠ ثم تابعت كلامها في سرعة بالغة :

ـ « تذكّر هذا ! ولا تدعني أقاسي من أجلك أكثر مما قاسيت ، مؤقتاً على الاقل ٠ لو كان في ميسوري أن أساعدك ، لفعلت ٠ ولكني لا أملك القوة على ذلك ٠ انهم لا يعتزمون ايقاع الاذى بك ٠ وأياً ما كان العمل الذي يكرهونك على أدائه فأن الذنب ليس ذنبك ٠ هش ! ان كل كلمة تنطق بها هي طعنة لي ٠ أعطني يدك ٠ عجّل ! أعطني يدك ! »

وأمسكت باليد التي وضعها أوليفر ، على نحو غَرزيّ ، في يدها ٠ وأطفأت الشمعة ، وجرّته خلفها وهي ترتقي درجات السلم ٠ وسرعان ما فتح الباب شخص متلفّع برداء الظلمة ، ثم أوصد على عجل بعد أن أمسوا خارج الدار ٠ كانت مركبة أجرة في انتظارهم ٠ وبمثل العنف الذي تكشّفت عنه في مخاطبتها أوليفر ، حملته الفتاة على امتطاء متن المركبة الى جانبها ، وأحكمت اسدال الستارة ٠ ولم يكن الحوذي في حاجة الى أية تعليمات ، فألهب جواده بالسوط فانطلق بأقصى سرعته ، غير مُضيع لحظة واحدة ٠

وظلت الفتاة ممسكة بيد أوليفر امساكاً قوياً، وواصلتْ صبَّ التحذيرات والتوكيدات ـ التي سبق لها أن أبلغته اياها ـ في أذنه ٠ وكان كل شيء متّسماً بالسرعة والتعجُل البالغين ، فلم يكد يجد متسعاً من الوقت لتذكُر المكان الذي انتهوا اليه ، أو لتذكُر الطريقة التي جيء به اليه ٠ حتى وقفت المركبة عند البيت الذي سبق لقدميْ اليهودي ان قادتاه اليه الليلة البارحة ٠
وألقى أوليفر نظرة خاطفة على الشارع ، وكادت أن تنطلق من بين شفتيه صيحة استنجاد ٠ ولكن صوت الفتاة تردد في اذنه ، متوسلا اليه في نبرة الم مبرّح أن يتذكرّها ، فاذا به عاجز عن ارسال تلك الصيحة ٠ وفيما هو يتردّد في اتجاه موقف بعينه ، أفلتت الفرصة من يديه ٠ كان قد أمسى ضمن جدران المنزل ، وكان الباب قد أوصد ٠
وقالت الفتاة وهي تفلت يد أوليفر للمرة الأولى : « مَنْ هنا ٠ بيل ! »
ـ « هالو ! » كذلك أجاب سايكس ، وقد ظهر عند رأس السلم حاملا شمعة : « أوه ، أهلا وسهلا ، ادخلي ! »
وكان هذا ، من رجل في مثل مزاج مستر سايكس ، تعبيراً قوياً عن الرضا ، وترحيباً قلبياً غير مألوف ٠ وسُرّت نانسي ، في ما يبدو ، بهذه الحفاوة سروراً عظيماً ، فحيّته تحية حارّة ٠
ـ « لقد رجع « عين الثور » الى البيت مع توم » كذلك أعلن سايكس وهو ينير لهما السلم ٠ « ولو بقي هنا لضايقنا ٠ »

فأجابته نانسي : « هذا صحيح • »

وقال سايكس عندما بلغوا الحجرة ، موصداً الباب وهو يتكلم : « وهكذا فقد جئت بالغلام • »

فأجابته نانسي : « نعم ، ها هو ذا • »

فسألها سايكس : « هل أقبل في وداعة ؟ »

فأجابته نانسي : « مثل حمل من الحملان • »

فقال سايكس وهو ينظر الى أوليفر في عبوس : « يسرني أن أسمع ذلك • من أجل جثته الصغيرة ، اذ لو لم يفعل اذن لحمَّلها ما لا تطيق • تعال ، أيها الغلام • ودعني أسمعك محاضرة ••• محاضرة يحسن أن ألقيها في الحال • »

وجَّه مستر سايكس هذه الكلمات الى تلميذه الجديد ونزع قبعة أوليفر عن رأسه وقذف بها الى احدى الزوايا • ثم انه أمسك به من كتفه وجلس على مقربة من الطاولة ، وأوقف الغلام تجاهه •

وسأله سايكس وهو يتناول غدارة جيب كانت على الطاولة : « والآن ، قبل كل شيء ، هل تعرف ما هذه ؟ »

فأجابه أوليفر : « نعم » •

وتابع سايكس : « حسن ، اذن ، انظر ! هذا بارود ! وهذه رصاصة ! وهذه قطعة صغيرة من قبعة عتيقة لكي تقوم مقام الحشوة للعيار الناري • »

وغمغم أوليفر معبراً عن معرفته بمختلف الأدوات المشار اليها • وباشر مستر سايكس شحنْ الغدارة في عناية بالغة وروية مغالى فيها •

وقال مستر سايكس حين أنجز ذلك : « والآن ، لقد أمست مشحونة • »

فأجابه أوليفر : « أجل • أنا أرى أنها كذلك ، يا سيدي • »

ـ « حسن ، » هكذا قال اللص ، ممسكاً بمعصم أوليفر ، مدنياً أنبوب الغدارة الى صدغه ادناء جعلهما يتماسَّان • وعندئذ لم يتمالك الغلام من الاجفال • « اذا نطقت بكلمة واحدة عندما تخرج معي ، الا حين أوجِّه اليك الخطاب ، افرِغ هذه الشحنة في رأسك من غير انذار • وهكذا ، فليس عليك ، اذا عقدت العزم على الكلام من غير اذن ، الا ان تتلو صلواتك الاخيرة أولا • »

حتى اذا ألقى على أوليفر نظرة ضارية ، ليضاعف من اثر التهديد في نفسه، تابع مستر سايكس حديثه :

ـ « وعلى قدْر ما أعلم فليس ثمة أي شخص مستعد للمغامرة بالسؤال عن مصيرك ، اذا ما قضيتُ عليك • من أجل ذلك لا أجد أيما داع لأن أتجشم عناء شرح الاشياء لك • واذا كنت أفعل هذا فلمصلحتك ليس غير • أسمعت ؟ »

فقالت نانسي ، متكلمة في حدة بالغة ، عابسة بعض الشيء في وجه أوليفر وكأنها تدعوه الى ايلاء كلماتها اهتماماً عظيماً: «زبدة ما تعنيه وخلاصته أنه اذا ما وضع لك العصي في الدواليب عند القيام بهذه المهمة التي تتأهب لها فعندئذ ستعمد الى منعه من الافضاء بعد ذلك بمختلف القصص والحكايات بأن تسدد الى رأسه رصاصة تقتله ، وهكذا تعرّض نفسك لخطر الموت على أعواد المشنقة كما تعرّضها من أجل أشياء كثيرة ، في صناعتك هذه ، كل شهر من شهور حياتك • »

فقال سايكس موافقاً اياها على هذا التفسير : « تماماً ! النسوة قادرات دائماً على قول الاشياء بأقل عدد من الكلمات • الا اذا ثارت ثائرتهن ، فعندئذ يعمدن الى مطّها وتطويلها • والآن وقد أدرك كل شيء ادراكاً كاملا فلنتناول بعض العشاء ، ولنغف غفوة قصيرة قبل الانطلاق • »

ونزولا عند هذه الرغبة سارعت نانسي الى نشر غطاء الطاولة ، ثم غابت بضع دقائق لتعود بعدها حاملة ابريقاً من الجعة الدون وطبقاً عليه رؤوس خرفان ، وهو ما أتاح لمستر سايكس فرصة لاطلاق عدد من النكات المستملحة المبنيّة على مصادفة فريدة ، وهي أن لفظة JEMMY التي تُطلق على تلك الرؤوس عادة كانت تطلق أيضاً على أداة بارعة كثيرة الاصطناع في مهنته* • والواقع ان هذا الرجل الفاضل ـ ولعل مردّ ذلك الى ارتقابه مباشرة الخدمة الفعلية بعد لحظات يسيرة ـ كان آنذاك عظيم المرح شديد الطرب • وقد يكون من الخير أن نلاحظ هنا ، اثباتاً لذلك ، انه أتى على الجعة كلها في جرعة واحدة ، على نحو مضحك ، وأنه لم يطلق ، ونحن نقدّر ذلك مجرد تقدير تقريبيّ ، أكثر من ثمانين شتيمة خلال فترة العشاء بطولها •

حتى اذا فرغوا من العشاء ـ ويستطيع المرء أن يتصور في سهولة ويسر ان شهوة أوليفر الى الطعام لم تكن قوية ـ التهم مستر سايكس كأسين من خمر وماء ، وارتمى على السرير ، آمراً نانسي بأن توقظه في الساعة الخامسة تماماً ، مغرقاً اياها بضروب اللعنات والشتائم ان فاتها أن تفعل ذلك • وتمدّد أوليفر بثيابه ، بأمر من تلك السلطة نفسها ، على حَشيّة مبسوطة فوق الارض • أما الفتاة فأذكت النار الخامدة وجلست تجاهها لكي تكون على استعداد لأيقاظهما في الميقات المعيّن •

وظل أوليفر يقظان فترة طويلة ، قائلا في ما بينه وبين نفسه انه من غير المتعذر أن تغتنم نانسي تلك الفرصة لتهمس في اذنه نصيحة اضافية • ولكن الفتاة انحنت فوق النار مستغرقة في التفكير ، غير متحركة الا بين الفينة والفينة

---

* من معاني JEMMY أيضاً ، في الانكليزية : المخل أو العتلة • (المعرب)

لكي تشذّب فتيل الشمعة • حتى اذا أرهقه السهر والقلق استسلم آخر الأمر للرقاد••

وحين أفاق من رقاده ألفي المائدة مغطاة بآنيـــة الشاي ، وألفى سايكس يقحم أشياء مختلفة في جيوب معطفه ، الذي تدلّى فوق ظهر كرسي من الكراسي• وكانت نانسي منهمكة في اعداد الفطور • لم يكن الصبح قد تنفّس بعد ، اذ كانت الشمعة لا تزال مضاءة ، وكانت الظلمة الدامسة تخيّم خارج المنزل • وكان مطر غزير يضرب ، أيضاً ، بحبّاته الكبيرة زجاج النوافذ وبدت السماء سوداء غائمة •

وهرّ سايكس عندما نهض أوليفر بغتة : « والآن •• والآن ••• الساعة الخامسة والنصف ! عجّل ، والا حُرِمت الفطور • لقد تأخرنا على أية حال • »

ولم يقضِ أوليفر وقتاً طويلا في غسل وجهه وتسريح شعره • حتى اذا تناول بضع لُقَيمات أجاب عن سؤال فظ وجّهه اليه سايكس بقوله انه على أتم الاستعداد •

وقذفت نانسي الى الغلام ، من غير أن تنظر اليه تقريباً ، منديلا يطوّق به عنقه • وأعطاه سايكس دثاراً كبيراً خشناً لكي يزرّره فوق كتفيه • حتى إذا اتخذ هذا الزيّ ، بسط يده الى اللص الذي أمسك بها في احكام مكتفياً بالتمهّل لحظة ليُري أوليفر بإيماءة متوعدة ان تلك الغدارة نفسها قابعة في جيب جانبيّ من جيوب معطفه • ثم ان اللص تبادل مع نانسي كلمات الوداع ، واتخذ سبيله وهو يسوق الغلام سوقاً •

والتفت أوليفر ، لحظة ، عندما انتهى الى الباب ، رجاة أن تلتقي عينـاه نظرة من نظرات الفتاة • ولكنها كانت قد انقلبت الى مقعدها القديم تجاه النار ، وقعدت هناك من غير حراك البتة •

الفصـــل الحادي والعشرون

الحمـلة

كان الصباح قد تنفّس ، كئيباً ، عندما انطلقا الى الشارع • كانت الريح تهب في قوة وكان المطر يهطل في عنف ، وكانت السحب تبدو قاتمة عاصفة • لقد هطلت خلال الليل أمطار غزيرة ، فحفلت الطرق ببرك من الماء واسعة ، وفاضت القنوات ، وتراءت في السماء أشعة واهنة تؤذن بوشك طلوع النهار ، ولكنها ضاعفت قتام المشهد بدلا من ان تخفف منه : ذلك بأن تلك الأشعة لم توفّق الى أكثر من ابهات تلك التي أرسلتها مصابيح الطرق ، من غير أن تسفع أية صبغة أحفل بالحرارة ، أو بالاشراق ، على رؤوس المنازل الندية والشوارع الموحشة •

لقد بدأ وكأن أحداً لمّا ينهض من فراشه في ذلك الحي : كانت نوافذ المنازل كلها محكمة الاغلاق ، وكانت الشوارع التي سلكاها ساكنة خاوية ٠

ولم يكادا ينعطفان الى طريق « بيثنال غرين » حتى كان النهار قد ارتفع ٠ كان عدد كبير من مصابيح الشوارع قد انطفأ ، وكانت بضع عربات ريفية تكدح ، في تؤدة ، متجهة نحو لندن ٠ وبين الفينة والفينة كانت مركبة سفر عمومية يكسوها الوحل تجتاز الشارع في سرعة ، محدثة جلبة بالغة ٠ وكان حوذيّها يلهب بسوطه ، على سبيل التحذير ، سائق العربة البطيء الذي عرّضه ـ بالتزامه الجانب المغلوط من الطريق ـ للتأخر ربع دقيقة عن ميقات وصوله الى المحطة ٠ وكانت المقاهي ، وقد أضيئت مصابيح الغاز في داخلها ، قد فتحت٠ وشيئاً بعد شيء بدأت الدكاكين الاخرى تُشْرِع أبوابها ، وأصبح في ميسور المرء أن يلتقي نفراً من السابلة المتناثرين هنا وهناك ، وبعد ذلك برزت جماعات من الرجال والنساء على رؤوسهم سلال السمك ، وعربات تجرها الحمير مثقلةً بالخُضَر ، وعربات من ذوات الدولابين ملأى بالمواشي أو بأجساد الحيوانات المذبوحة للبيع في سوق اللحم ، وبائعات لبن يحملن دلاءهن : سيلٌ غير منقطع من الناس ، الآخذين سبيلهم في وهَن وبطء ـ مزوّدين بمختلف ضروب المؤن ـ نحو ضواحي المدينة الشرقية ٠ حتى اذا اقتربا من لندن ، تعاظمت الضجة واشتدت حركة المرور شيئاً بعد شيء ٠ ولم يكادا يشقان طريقهما في الشوارع القائمة بين شورديتش وسميثفيلد حتى استحالت الضجة الى هدير واستحالت الحركة الى صخب ٠ كان نور النهار على مثل ما ينبغي له أن يكون ريثما يهبط الليل من جديد ، وكان الصباح الناشط قد بدأ بالنسبة الى نصف سكان لندن ٠

وانعطفا نحو « صَنْ ستريت » و « كراون ستريت » ، ثم عبرا ساحة فينزبوري ٠ وهنا اندفع سايكس ، مجتازاً شارع تشيزويل ، الى باربيكان ، ومن ثم الى « لونغ لين » وبعد ذلك الى سميثفيلد حيث انبثقت جلَبة من أصوات متنافرة ملأت نفس اوليفر تويست بالدهش والذهول ٠

كان صباح يوم من أيام الاسواق الاسبوعية ٠ وكانت الارض مغطاة ، حتى الركبة تقريباً ، بالقذر والوحل ٠ وكان الهواء مثقلا ببخار كثيف ينطلق على نحو موصول من أجساد الماشية النتنة ويمتزج بالضباب الذي بدا وكأنه استقر على رؤوس المداخن ٠ كانت جميع الزرائب التي في وسط البقعة الكبيرة ، وجميع الزرائب الموقتة التي استطاع القوم حشرها في الرقعة الشاغرة ، ملأى بالخراف ٠ وعلى طول الساقية كانت صفوف طويلة من الثيران وغيرها من البهائم ـ تبلغ عدّتها ثلاثة صفوف أو أربعة صفوف ـ مشدودة الى بعض الاعمدة ٠ وتمازج القرويون ، والجزارون ، والرعاة ، والباعة المتجولون ، والغلمان

واللصوص ، المتبطلون ، والمتشردون من أحط الدرجات وأدناها ، في كتلة واحدة · وكان صفير الرعاة ، ونباح الكلاب ، وخوار الثيران ونترها رؤوسها ، وثغاء الغنم ، وقباع الخنازير وزعيقها ، وصيحات الباعة المتجولين ، والنداءات ، والشتائم ، والمشاجرات من كل صوب ، وقرع الاجراس وهدير الاصوات المنبعثة من جميع المقاهي ، والازدحام والتدافع والسوق وضرب السياط والهتاف والصراخ ، والضوضاء الرهيبة المتنافرة المنطلقة من كل زاوية من زوايا السوق ، والوجوه القذرة غير المغسولة وغير الحليقة المندفعة جيئة وذهوباً على نحو موصول والمقحمة نفسها وسط الحشد والمنبثقة من خلاله في خفة ··· كان كل أولئك قد جعل المشهد مذهلا صاعقاً الى حد يُربك الحواس ويبلبلها ·

وشق مستر سايكس طريقه ، جاراً أوليفر خلفه ، خلال الحشود الاشد كثافة ، غير مبال الا قليلا بمختلف المشاهد والاصوات التي أدهشت الغلام ادهاشاً بالغاً · لقد حنى رأسه بالتحية ، مرتين أو ثلاث مرات ، لصديق من عابري السبيل · واذ اعتذر عن تلبية كثير من الدعوات لاحتساء كأس صباحية صغيرة أغذ الخطى في غير توان حتى خلصا بنفسيهما من الهرج والمرج ، وشقا طريقهما خلال « هوزير لين » الى هولبورن ·

وقال سايكس ، ناظراً الى ساعة كنيسة القديس اندراوس : « والآن ، أيها الغلام ، لقد كادت الساعة تصبح السابعة ! يجب أن توسع الخطى · هيّا ، لا تتلكأ منذ الآن ، يا ذا الرجلين الكسولين ! »

وأرفق مستر سايكس هذا الخطاب بنترة لمعصم رفيقه الصغير · فلم يكن من أوليفر الا ان أغذ السير مصطنعاً ضرباً من التقريب* ، وهو وسط بين السير السريع وبين العدو ، وبذلك ساير خطوات اللص السريعة على أحسن وجه استطاعه ·

وتابعا سبيلهما على هذه السرعة حتى اجتازا زاوية هايد بارك ، وأمسيا في طريقهما الى كينينغستون: حيث خفف سايكس من سرعة خطوته ريثما أقبلت عربة فارغة كانت تجري خلفهما على مبعدة يسيرة · واذ وجد هذه اللفظة HOUNSLOW مسطورة عليها سأل الحوذي بأكبر قدر من الكياسة وُفّق الى اصطناعه ما اذا كان في ميسوره أن يقلّهما حتى آيلوورث ·

فقال الرجل : « اصعد بسرعة · أهذا ولدك ؟ »

ـ « نعم ، هذا ولدي ، » كذلك أجابه سايكس ، وهو يحدق النظر الى أوليفر ، ويضع يده ـ من غير أن يفكر بذلك ـ في الجيب المشتمل على الغدارة · وسأل الحوذي الغلام وقد رآه يلهث : « ان والدك يمشي في سرعة تجعلك

* في المعاجم : التقريب ضرب من العدو دون الاسراع · وقد اصطنعناها هنا مقابل لفظة TROT في الاصل الانكليزي · (المعرب)

عاجزاً عن اللحاق به ، أليس كذلك ، يا بني ؟ »

فأجابه سايكس مقاطعاً : « لا ، لا على الاطلاق ، انه متعود هذه السرعة . هات يدك ، يا « نيد » . واصعد الى العربة . »

وجه الى أوليفر هذه الكلمات ، وساعده على امتطاء متن العربة . فلم يكن من الحوذي الا أن أشار الى ركام من الأكياس وسأله أن يتمدد فوقها ويأخذ نصيبه من الراحة .

وفيما هم يمرون بمختلف الصوى والمعالم تساءل أوليفر ، أكثر فأكثر ، الى أين اعتزم رفيقه أن يأخذه . لقد اجتازوا بكينسنغتون ، وهامر سميث ، وتشيزويك ، وكيو بريدج ، وبرينتفورد كلها . ومع ذلك فقد تابعا رحلتهما في غير انقطاع وكأنهما لم يستهلاها الا منذ لحظة . وأخيراً انتهيا الى حانة تدعى « العربة وخيولها » ، وعلى مسافة يسيرة وراءها بدا وكأن طريقاً اخرى قد انعطفت . وهناك كفت العربة عن الجري .

وترجل سايكس في سرعة بالغة ، من غير أن يفلت يد أوليفر لحظة واحدة . حتى اذا أنزله من العربة في الحال سدد اليه نظرة ضارية ، ولطم جيبه الجانبي بجمع كفه ، لطمة ذات مغزى .

وقال الرجل : « الى اللقاء ، أيها الغلام . »

فأجابه سايكس وهو يهز أوليفر : « أنه نكد الطبع . جرو من الجراء ! لا تلمه على ذلك ! »

ـ « لا ، لست أنا من يلومه ! » كذلك قال الحوذي ، ممتطياً متن عربته . « الجو جميل اليوم ، على أية حال . » وانطلق في سبيله .

وتريث سايكس حتى توارت العربة عن الانظار . ثم انه قال لاوليفر ان في امكانه أن يجيل الطرف في ما حوله اذا شاء ، وانشأ يجره من جديد مستأنفاً رحلته .

وانعطفا الى اليسار ، بعيد اجتيازهما بالحانة ، ثم انهما سلكا طريقاً قائمة الى يمينهما ، وواصلا السير فترة طويلة من الزمان ، مارين بكثير من الحدائق الواسعة ومنازل الاثرياء على جانبي الطريق كليهما ، غير متوقفين لشيء سوى قليل من الجعة ، حتى بلغا بلدة ما . وهنا ، على جدار أحد البيوت ، رأى أوليفر هذا الاسم « هامبتون » مكتوباً بأحرف كبيرة جداً . وتسكعا ، بضع ساعات ، في الحقول ، وأخيراً انقلبا عائدين الى البلدة . ثم انعطفا فدخلا حانة عتيقة ذات لافتة امحت كلماتها ، وطلبا طعاماً يصيبانه على مقربة من نار المطبخ .

وكان المطبخ حجرة عتيقة ذات سقف خفيض تعترض وسطه عارضة خشبية ضخمة ، وقد انتثرت فيها ـ على مقربة من نار المستوقد ـ مقاعد عالية الظهور ، كان يستوي عليها عدة رجال جفاة مرتدين قمصانا فضفاضة ، رجال

انكبوا على الشراب والتدخين ٠ ولم يلقوا أيّ بال الى اوليفر ، في حين ألقوا بالا يسيراً الى سايكس ٠ ولم يولهم سايكس غير اهتمام ضئيل جداً ، وقعد هو ورفيقه الصغير في زاوية دانية منهم من غير أن تزعجه صحبتهم ازعاجاً كثيراً٠

وأصابا بعض اللحم البارد على سبيل العشاء ، وأطالا القعود بعده ــ وقد انغمس سايكس خلال ذلك في تدخين ثلاث بيبات أو أربع بيبات ــ اطالة بات أوليفر موقناً معها أقوى ما يكون اليقين من أنهما لن يمضيا الى أبعد مما فعلا ٠ واذ أضناه طول السير ، وهو الذي نهض من فراشه في ساعة جد مبكرة ، فقد غلبه النعاس بادىء الامر ٠ وبعد ذلك قهرَه الاعياء وأدخنة التبغ ، فاستسلم للرقاد ٠

وكان الظلام دامساً عندما أيقظته وكزةٌ من سايكس ٠ ونفض النعاس عن عينيه نفضاً مكّنه من أن يجلس ويجيّل الطرف في ما حوله ، فألفى ذلك الرجل الفاضل يتبادل حديثاً حميماً مع عامل من العمال ، وقد جلسا الى زجاجة من جعة ٠

وسأله سايكس: «اذن فأنت منطلق الى «لاور هاليفورد» ، أليس كذلك؟ »

فأجابه الرجل ، الذي بدا وكأن الشراب قد أنعشه بعض الشيء ، أو ربما أخمد نشاطه بعض الشيء : « ولن تتّسم رحلتي بالبطء أيضاً ٠ فلن يكون خلف فرسي في طريق العودة حملٌ ثقيل كالذي تعين عليه أن يجرّه في طريق الذهاب ، هذا الصّباح ٠ ولن يقتضيه الوصول الى هناك وقتاً طويلا ٠ ذلك من حسن حظه ! وحقّ الشيطان ! انه فرس طيب ! »

ــ « هل تستطيع أن تنقلني وتنقل ولدي حتى ذلك المكان ؟ » كذلك تساءل سايكس ، وهو يدفع الجعة نحو صديقه الجديد ٠

فأجابه الرجل ناظراً من فوق أبريق الجعة : « اذا كنت منطلقاً على التوّ ، استطعت ذلك ٠ أذاهب أنت الى هاليفورد ؟ »

فقال سايكس : « أنا ذاهب الى أبعد من ذلك ، الى شيبرتون ٠ »

فأجابه الرجل : « سوف أكون في خدمتك حين أبلغ المكان الذي اقصده ٠ هل دُفِع كل شيء ، يا بيكي ؟ »

فأجابت الفتاة : « نعم ، ان السيد الآخر قد دفع ٠ »

فقال الرجل ، في وقار الثمِل : « ولكن ٠٠٠ هذا لا يجوز ، كما تعلم ٠ »

فردّ سايكس بقوله : « ولم لا ؟ انك سوف تسدي الينا خدمة ٠ فعلام تحاول أن تحرمني متعة دعوتك ، مقابل ذلك ، الى كأس من الجعة ؟ »

وفكر الغريب في تلك الحجة تفكيراً عميقاً ، حتى اذا تم له ذلك امسك بيد سايكس ، وأعلن انه صديق طيب حقــاً ٠ فلم يكن من مستر سايكس الا ان أجاب بقوله انه كان يمزح ٠ وهو شيء كان من حق المرء أن يفترضه لو كان ذلك الرجل الفاضل صاحياً غير سكران ٠

وبعد أن تبادل الرجلان بضع مجاملات أخرى ، تمنيا للجماعة ليلة طيبة ، ومضيا لسبيلهما . عندئذ جمعت الفتاة الاباريق والكؤوس ، ومضت متباطئة نحو الباب لكي تودّعهما .

وكان الفرس ، الذي شُرِب نخبُه في غيابه ، ينتظر خارج الحانة ، وقد شُدّ الى العربة . وامتطى أوليفر وسايكس متنها في بساطة بالغة ، على حين تلكأ الحوذي دقيقة أو دقيقتين « لكي يستنهض همة » الفرس ، ولكي يتحدى سائس الخيل والعالم أجمع أن يأتوا بمثله . حتى اذا تم له ذلك امتطي بدوره متن العربة . ثم ان الحوذي أمر سائس الخيل بأن يطلق العنان للفرس ، فلم يكد يفعل حتي أساء ذلك الحيوان اصطناع الحرية التي مُنِحها ، بأن أخذ ينتر رأسه في الهواء ، في ازدراء عظيم ، ويثب الى نوافذ حجرة الاستقبال من البيت المحاذي له . وبعد أن أنجز الفرس هذه المآثر الحميدة ، وانتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين برهة قصيرة ، انطلق في سرعة خاطفة ، وفصَل عن البلدة* ، في صخب وجلال .

كان الليل حالكاً جداً . ومن النهر ومن الارض السبخة المجاورة ارتفع ضباب رطب وانتشر فوق الحقول الموحشة . وكان البرد لاذعاً ، أيضاً . وكل شيء كان أسود مظلماً . ولم يَنْطق بأيما كلمة . ذلك بأن النعاس كان قد استبد بالحوذي ، ولم يكن سايكس آنذاك على مزاج يغريه بحمل الحوذي على الخوض في حديث ما . أما أوليفر فتجمَّع على نفسه في زاوية من العربة ، وقد أذهله التوجس والرعب ، وتوهم أنه يرى أشياء غريبة في الاشجار المهزولة التي تمايلت أغصانها جيئة وذهوباً على نحو كالح ، وكأنها مبتهجة ابتهاجاً غريباً بالوحشة التي غلبت على المشهد .

وفيما هم يجتازون بكنيسة صانبوري أعلنت الساعةُ السابعة مساء . كان ثمة ضوء في النافذة المقابلة من بيت صاحب المِصَدّات ، ضوء تدفق عبر الطريق ، فغمر احدى شجرات السدر الجبلية السوداء القائم تحتها بعض القبور بظلٍّ أشدّ قتاماً . لقد كان ثمة ، على مقربة دانية ، صوت خافت منبعث من مَسْقط من مساقط المياه ، وحفيفٌ رفيقٌ منبعث من أوراق الشجرة العتيقة المتمايلة مع ريح المساء . لقد بدا هذان أشبه شيء بموسيقى هادئة تَعزف لراحة نفوس الموتى .

واجتازوا صانبوري ، فانتهوا من جديد الى الطريق الموحشة . وبعد ميلين آخرين أو ثلاثة أميال اخرى كفّت العربة عن الجري . وترجّل سايكس ، وأمسك بيد أوليفر ، واستأنفا السير من جديد .

وفي شيبرتون لم يدخلا ايّ منزل من المنازل ، كما توقّع الطفل المرهق ، ولكنهما واصلا السير ، في الوحل والدجنّة ، وخلال الأزقة المظلمة وعبر الارض

* فصل عن البلدة : خرج منها .

الفضاء ، حتى بدت لهما أضواء بلدة غير قصيّة • وحدّق أوليفر النظر أمامه ، فرأى ان الماء كان تحتهما مباشرة ، وانهما كانا قد بلغا رأس جسر من الجسور •

وتابع سايكس سبيله حتى شارفا الجسر • ثم انهما انعطفا ، فجـــأة ، هابطين الضفة اليسرى •

وقال أوليفر في ما بينه وبين نفسه ، وقد هدّ الذعر قواه : « الماء ! لقد ساقني الى هذا المكان الموحش لكي يقتلني ! »

وكان على وشك أن ينطرح على الارض ، وأن يخوض صراعاً موجزاً لانقاذ حياته الغضة ، عندما رأى انهما توقفا أمام منزل معزول متداع الى السقوط • كان ثمة نافذة في كل جانب من جانبي المدخل المقوّض • ودورٌ واحدٌ فوقه • ولكن العين لم تلمح أيَّ ضوء • كان المنزل مظلماً ، مجرداً من مقوّمات المنازل كلها • وكان ـ على ما يُستفاد من جميع الدلائل ـ غير آهل •

وفي رفق تقدّم سايكس ، ويدُ أوليفر لا تزال في يده ، نحو المدخـــل الخفيض ، ورفع المزلاج • وأذعن الباب للضغط ، فدخلا المنزل معاً •

الفصـــل الثاني والعشرون

السطـو

ـ « هالو ! » كذلك صاح صوت عال أجشّ ، لحظة وطئا الرواق •

فقال سايكس وهو يحكم اغلاق الباب بالرتاج : « لا تُحْدث مثل هذه الضجة • أضيء شمعة ، يا توبي ! »

فصاح الصوت نفسه : « آها ، أيها الزميل ! شمعة ، يا بارني ، شمعة ! أدخلِ السيد ، يا بارني • استيقِظْ أولا ، اذا كان هذا لا يضايقك ! »

وبدا المتحدث وكأنه رشق مخاطبَه بخالعة أحذية* ، أو بأداة مماثـــلة ، ليوقظه من رقاده • ذلك بأن صوت جسم خشبي ، ساقط في عنف ، سرعان ما سُمِع • وعلى الأثر سُمِعت غمغمة مبهمة ، أشبه بغمغمة رجل يترجَّح بـين النوم واليقظة •

وصاح الصوت نفسه : « هل تسمع ؟ بيل في الرواق وليس ثمة من يقوم بواجب الترحيب به ، وأنت تنام هناك ، وكأنك تناولت مع وجبة طعامك صبغة الأفيون ، وليس شيئاً أقوى • ألست أدنى الى الصحو الآن ، أم تريد أن آتي بالشمعدان الحديدي لكي أوقظك ايقاظاً كاملا ؟ »

وما أن طُرح هذا السؤال حتى دلفت** قدمان منتعلان حـذاء قصـيراً عبر

* اداة لخلع الاحذية من الارجل ، وقد اصطنعنا هذا التعبير مقابـــل : BOOT — JACK في الاصل • (المعرب)

** دلف : مشى مشية المقيد • (المعرب)

أرضية الحجرة الجرداء · وبعد ذلك انبثقت من الباب الأيمن ، أولا ، شمعة واهنه ثم خيال ذلك الشخص عينه الذي وُصِف من قبلُ بأنه يتكلم من أنفه ، والذي رأيناه يعمل نادلا في الحانة القائمة في « كثيب صافرون »* ·

وهتف بارني ، في ابتهاج صادق أو زائف : « المعلم سايكس ! ادخل ، يا سيدي ، أدخل ! »

فقال سايكس ، وهو يُدْخل اوليفر قبله : « هيًّا ! أسرِع أكثر ، والا دسْتَ على عقبيك ! »

وشتمه سايكس لتمهّلِه ، ودفعه أمامه · فدخلا حجرة خفيضة مظلمة حيث وجَدا ناراً داخنة وكرسيين أو ثلاثة كراسيّ محطمة ، وطاولة ، ومتَّكأ عتيقاً جداً تمدَّد عليه ــ ورجلاه أعلى من رأسه بكثير ــ رجلٌ مسترخ يدخِّن بيبة فخارية طويلة · كان يرتدي سترة أنيقة التفصيل سُعوطيّة اللون ذات أزرار نحاسية ضخمة ، ومنديل عنق برتقالياً ، وصدرة خشنة منتصبة الوبر مزدانة برسوم كالتي تميِّز الشالات عادة ، وبنطالا عسلياً قصيراً · ولم يكن لمستر كراكيت (فقد كان صاحبنا هذا هو مستر كراكيت نفسه) شعر غزير ، لا في رأسه ولا في وجهه · ولكن ذلك النزر اليسيرِ من الشعر الذي نعِم به كان ذا صبغة ضاربة الى الحمرة ، وكان معقوصاً على شكل حُلَيقات طويلة شبيهة بالمبرام اللولبيّ الخاص بنزع فلّين الزجاجات ، فهو يقحم فيه بين الفينة والفينة بعض أصابعه القذرة الى أبعد حد ، والمزدانة بخواتم كبيرة رخيصة · كان أميل الى الطول شيئاً ما ، وكان مهزول الساقين ، في ما يبدو ، بعض الشيء ، ولكن هذه الواقعة لم تنتقص من اعجابه الشخصي بحذائه العالي الساق ، ذلك الحذاء الذي راح صاحبنا يتأمله ــ وكان كما قلنا في وضع جعله أعلى من رأسه بكثير ــ في ارتياح غامر ·

وقال هذا الشخص ، ملتفتاً نحو الباب : « بيل ، يا بنيّ ! أنا سعيد بأن أراك · لقد كدْتُ أعتقد انك تخليت عن المشروع · وفي مثل هذه الحال يتعين عليّ أن أقوم بمغامرة شخصية · هالو ! »

أطلق مستر توبي كراكيت هذا الهتاف ، في لهجة راشحة بالدهش العظيم عندما وقعت عينه على أوليفر ، ثم استوى جالساً ، وتساءل : « من هذا ؟ »

فاجابه سايكس مُدنياً أحد الكراسي الى النار : « الغلام ! الغلام ليس غير ! »

فهتف بارني في ابتسامة عريضة : « أحد أولاد مستر فاجين · »

فصاح توبي ، ناظراً الى أوليفر : « فاجين ، آه ! ايّ غلام نفيس سوف يكون بالنسبة الى جيوب السيدات العجائز المعتكفات في الكنائس ! ان وجهه هو ثروة له · »

---

* راجع الفصل الخامس عشر من الرواية · (المعرب)

« كفى ، كفى ! » كذلك قاطعه سايكس في صبر نافذ • ثم انه مال على صديقه المتكىء ، وهمس في أذنه بضع كلمات ، ضحك لها مستر كراكيت ضحكا مدوّياً وشرّف أوليفر بتحديقة دهش طويلة •

– « والآن ، » كذلك قال سايكس وهو يعاود الجلوس ، « اذا قدمت الينا شيئاً نأكله ونشربه خلال انتظارنا تنفخ فينا بعض الشجاعة ، أو فيّ أنا على أية حال • أجلس قرب النار ، أيها الصغير ، وخذ راحتك ، لأن عليك أن تنطلق معنا الليلة أيضاً ، ولكن رحلتنا لن تكون هذه المرة طويلة جداً • »

ونظر أوليفر الى سايكس في دهش أبكم خجول • ثم أدنى الى النار مقعداً خفيضاً لا ظهر له ، وجلس منكّساً رأسه الموْجع بين يديه ، وهو لا يكاد يدري أين كان ، او ما الذي كان يجري من حوله •

فقال توبي ، فيما كان اليهودي الصغير يضع على المائدة بعض فضلات الطعام وزجاجة : « هيّا ، فلنشرب نخب نجاح عملية السطو ! » ونهض على شرف النخب • وبعد أن وضع بيبته الفارغة ، بتؤدة واحتراس ، في احدى الزوايا تقدم الى المائدة وملأ احدى الكؤوس خمراً وأفرغ محتواها في جوفه دفعة واحدة • وفعل مستر سايكس مثلما فعل •

وقال توبي ، وهو يملأ نصف كأس خمراً : « جرعة للغلام • فلتسقط البراءة ! »

فقال أوليفر ، وهو يرفع بصره الى وجه الرجل على نحو يدعو للرثاء : « الواقع ••• الواقع اني ••• »

فكرر توبي : « فلتسقط البراءة ! أتحسب اني لا أعلم ما الذي يفيدك ؟ قل له أن يشربها ، يا بيل ! »

فقال سايكس ، وهو يلطم جيبه بيده : « هذا أفضل له ! احرقوا جسدي آن لم يكن أكثر ازعاجاً من أسرة كاملة من « المراوغين » • اشربها ، أيها الشيطان الصغير العنيد ، اشربها ! »

واذ رُوّع أوليفر بايماءات الرجلين المتوعدة ، فقد سارع الى ابتلاع محتويات الكأس • واستبدت به ، على التوّ ، نوبة عنيفة من سعال أبهجت توبي كراكيت وبارني ، بل انتزعت بسمة من مستر سايكس الفظ نفسه •

حتى اذا تمّ ذلك ، وأشبع سايكس شهوته الى الطعام (لم يستطع أوليفر أن يأكل غير كسرة من خبز أكرهوه على ازدرادها) استوى الرجلان في كرسيين ليأخذا سِنَةً من النوم • ولزم أوليفر كرسيه الخفيض على مقربة من النار ، أما بارني فتلفّع ببطانية ، وتمدّد على الارض ، في محاذاة حاجز الموقد مباشرة •

وناموا ، أو تظاهروا بالنوم ، فترة من الزمان • ولم يتحرك ايّ منهم غير بارني ، الذي نهض مرة او مرتين لكي يذكي النار ببعض الفحم • وكان أوليفر قد استسلم لرقاد عميق ، وقد تخيّل نفسه تائهاً في الازقة المظلمة أو مطوّفاً في

الجبّانة القاتمة ، أو مستحضراً في ذاكرته هذا المشهد أو ذاك من مشاهد اليوم السابق ، عندما أيقظه وثوب توبي كراكيت واعلانه ان الساعة أمست الواحدة والنصف ·

وما هي غير لحظة حتى نهض الآخران واقفين على اقدامهما · وشُغِـل القوم كلهم باستعدادات ناشطة · ولفَّ سايكس ورفيقه عنقيهما وذقنيهما بشالين عريضين داكنين ، ولبسا معطفيهما · وفتح بارني خزانة وأخرج منـها أدوات متعددة ، وسارع الى حَشْرها في الجيوب ·

وقال توبي كِراكيت : « النبّاحتان لي ، يا بارني · »

— « ها هما ! » كذلك أجاب بارني ، مخرجاً من جيبه غدّارتين اثنتين · « لقد شحنتهما بنفسك · »

فقال توبي وهو يدسهما في بعض جيوبه : « حسن ! والمُقْنِعات ؟ »

فأجاب سايكس : « انها معي · »

— « والكريب الاسود ، والمفاتيح ، والمثاقيب* والمصابيح القاتمـة ؟ ألم تَنْسَ شيئاً ؟ » كذلك تساءل توبي مثبِّتاً مُخْلا صغيراً في عروة بأدنى معطفه ·

فقال رفيقه : « حسن جداً · ايتِ بقطع الخشب هذا ممتاز ! »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى تناول عصا غليظة من يديْ بارني ، الذي تشاغل — بعد أن قدّم عصا أخرى الى توبي — بتثبيت دثار أوليفر على كتفيه ·

وقال سايكس ، باسطاً يده : « تفضّل ! »

وكان أوليفر قد شُدِهَ انشداهاً كاملا بهذه الاستعدادات غير المألوفة ، وبتلك السيماء الغريبة ، وبالشراب الذي حُمِل على احتسائه حملا ، فوضـع يده — على نحو آليّ — في تلك التي بسطها سايكس لهذا الغرض ·

فقال سايكس : « أمسك بيده الاخرى ، يا توبي · ألقِ نظرة ، يا بارني · »

فمضى الرجل الى الباب ، ثم عاد ليعلن ان كل شيء هادىء · فانطلـق اللصان وهما يتوسّطان أوليفر · وبعد أن أحكم بارني ايصاد كل شيء ، تدثّر بالبطانية واستغرق في النوم من جديد ·

كان الظلام قد أمسى ، الآن ، حالكاً الى أبعد مدى وكان الضباب أكثـف مما بدا في الهزيع الأول من الليل · وكان الجو بالـغ الرطوبة حتى لقد تصلب شعر أوليفر وحاجباه من النداوة نصف المنجمدة الطافية حوله — على الرغم من أن شيئاً من المطر لم يهطل — خلال الدقائق القليلة التي انقضت على مغادرته البيت · وعبروا الجسر ، ومضوا في اتجاه الأضواء التي كان قد رآها من قبل · انها لم تكن على مَبْعدة نائية ، واذ كانوا يغـذّون الخطى فأنهم سرعان ما بلغـوا تشيرتسي ·

وهمس سايكس : « فلنندفع عبر البلدة مباشرة · لن يكون في الطريق ،

* جمع مثقاب ، وهو آلة الثقب ·

هذه الليلة ، مخلوق واحد يستطيع أن يرانا · »

ونزل توبي عند رغبته ، وأوسعوا الخطى خلال شارع البلدة الرئيسي ، الذي كان مهجوراً بالكلية في تلك الساعة المتأخرة من الليل · كان ضوء باهت يومض بين الفينة والفينة من نافذة مَهْجَــع ما ، وكان نباح الكلاب الأجشّ يعكّر أحياناً سكينة الليل · ولكن لم يكن في الشوارع أحد · كان القوم قد أخلوْا البلدة عندما قرع ناقوس الكنيسة معلناً الساعة الثانية ·

وانعطفوا يساراً نحو احدى الطرق وهم يزيدون خطاهم سرعة على سرعة · وبعد أن اجتازوا نحواً من ربع ميل وقفوا تجاه بيت معزول يطوّقــه سور ، تسلّقه توبي كراكيت ، من غير أن يتمهل حتى يأخذ نفَساً ، فانتهى الى ذروته بمثل لمح البصر ·

وقال توبي: « والآن جاء دور الغلام · ارفعْه · اني سوف أتناوله منك · »

وقبل أن يجد أوليفر متسعاً من الوقت للنظر في ما حوله كان سايكس قد أمسك به من ابطيه · وما هي غير ثوان ثلاث أو أربـــع حتى كان هو وتوبي مستلقيين عي العشب في الجانب الآخر من السور · وتبعهما سايكس على الأثر · وانسلّوا في احتراس نحو المنزل ·

والآن ، وللمرة الأولى ، أدرك أوليفر – وقد ذهب الأسى والرعب بعقله أو كادا – ان السطو والسرقة ، ان لم يكن القتل ، كانا هدفَيْ تلك الحمـــلة · فشبك يديه ، وأطلق على نحو لا اراديّ صيحة ذعر مكبوحة · ورانت على عينيه غشاوة · وتفصّد العرق البارد من وجهه الرماديّ الشحوب · وخانته قدماه ، فخرّ على ركبتيه ·

وغمغم سايكس ، مرتعداً من شدة الغيظ ، ساحباً غدارتــه من جيبه : « انهض ، والا نثرتُ دماغك على العشب · »

فصاح أوليفر : « أوه ! دعني ارجع اكراماً لله ! دعني أفرّ وأمــوت في الحقول · أنا لن اقترب من لندن ، أبداً ، أبداً ! أوه ، أتوسل اليك أن ترحمني ، وان لا تكرهني على السرقة ! استحلفك بجميع الملائكة البهية المستقرة في السماء أن ترحمني ! »

فلم يكن من الرجل الذي وجّه اليه هذا التوسل الا أن أطلق شتيمـــة رهيبة ، ورفع زند الغدارة · ولكن توبي سارع الى انتزاعها من قبضتــه ، ثم وضع يده على فم الغلام وجرّه الى المنزل ·

وصاح الرجل : « هش ! لا فائدة ، هنا ، من المقاومة · انطِقْ بكلمـة أخرى أسارعْ الى تصفية حسابك بضربة على أمّ رأسك · ان هذا لا يُحْـدث ضجة ، وهو مكفولُ النتيجة مثل رصاص الغدارة ، وأكثر رقة وتهذيباً · والآن، فلنخلع مصراع النافذة · أن الشجاعة لن تعوزه الآن ، أؤكد لك · لقد رأيـت غلماناً آخرين في مثل سنّهِ يسلكون مسلكه ، طوال دقيقة أو دقيقتـين ، في

الليالي الباردة . »

وأنزل سايكس شتائم رهيبة على رأس فاجين لارساله أوليفر في هذه المهمة ، واصطنع مُخله في قوة ، ولكنْ في قليل من الضجة . وما هي الا فترة يسيرة ، وبعد مساعدة ما من توبي ، انفتح المصراع المذكور على مِفْصلاتِه .

كانت نافذةً صغيرةً ذات شعرية في مؤخرة البيت ، يبلغ ارتفاعها عن الارض نحواً من خمسة أقدام ونصف ، نافذة مطبخ خلفيّ ، او موضع صغير لتخمير الجعة ، قائم عند أقصى المجاز . كانت فتحة صغيرة الى درجة جعلت أصحاب البيت يعتبرونها ، في ما يبدو ، غير جديرة بأن تُدعَّم تدعيماً أشد احكاماً . ولكنها كانت تتسع مع ذلك لدخول غلام في مثل حجم أوليفر . فلم يكد سايكس يصطنع فنَّه في الكسر والخلع حتى تغلب على مقاومة الشعرية ، وسرعان ما انفتحت هي الأخرى بدوْرها .

وهمس سايكس ، مخرجاً من جيبه مصباحاً قاتماً ومُلقياً كامل شعاعه على وجه أوليفر : « والآن ، اسمع ايها النصاب الصغير . سوف أدْخِلك الى هناك . خذ هذا المصباح . اصعد درجات السلم التي أمامك في هدوء ، واجتَزْ الرواق الصغير الى الباب المطلّ على الشارع . ارفع مزلاجه ، وافتحه لنا . »

فقاطعه توبي : « يوجد مزلاج في أعلى الباب لن تستطيع بلوغه . قف على أحد كراسي الرواق . هناك ثلاثة منها ، يا بيل ، تعلوها أفراس مقرَّنة زرقاء ضخمة ظريفة ، ومَذارِ مذهبة . تلك هي كرآسي السيدة العجوز . »

فقال سايكس ، وهو يحدج رفيقه بنظرة متوعدة : « الزم الهدوء ، ألا تستطيع ؟ باب الغرفة مفتوح ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه توبي ، بعد أن ألقى نظرة على الداخل زيادة في التأكد : « على مصراعيه . المضحك في المسألة هو انهم يتركونه مفتوحاً ، بعد أن يثبِّتوه بقطعة خشب ، لكي يكون في ميسور الكلب ــ الذي ينام هنا ــ أن يذرع المجاز جيئة وذهوباً حين يستبدّ به الأرق . ها ! ها ! لقد أقصاه بارني ، هذه الليلة ، عن مقره . هكذا هكذا يكون الشغل ! »

وعلى الرغم من ان مستر كراكيت تكلم في همس لا يكاد يُسْمع ، وضحك ضحكة مكبوتة ، فقد أمره سايكس بلهجة ذي السلطان أن يصمت وينصرف الى العمل . وامتثل توبي فأخرج باديء الامر مصباحه فوضعه على الارض ، ثم أقحم نفسه في قوة متسْنداً رأسه الى الجدار تحت النافذة واضعاً يديه على ركبتيه بحيث يجعل من ظهره مَوْطئاً . ولم يكد يفعل ذلك حتى امتطى سايكس متنه ، وأدخل اوليفر في تؤدة ، من خلال النافذة ، مبتدئاً بقدميه . ثم أقامه سالماً ، على الارضية الداخلية ، من غير أن يرخي قبضته عن قبة قميصه .

وقال سايكس ، وهو ينظر الى الغرفة : « خذ هذا المصباح . هل ترى السلم التي أمامك ؟ »

فلهث أوليفر ، وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة : « نعم • » وعندئـذ أشار سايكس بأنبوب غدارته الى الباب المطلّ على الشارع ، ونصحه في ايجاز أن يتذكر أنه سوف يكون دائماً على مدى طلقة نارية من غدارته ، وانه اذا ما تردد أرداه قتيلا في الحال •

وأضاف سايكس بتلك النبرة المهموسة نفسها : « لن يقتضيك القيـام بذلك غير دقيقة واحدة • ان عليك أن تبادر الى العمل حالما أفلِتُك • أسامع أنت ؟ »

فهمس الرجل الآخر : « ما هذا ؟ »

وأرهفا السمع •

وقال سايكس وهو يُفلت أوليفر : « لا شيء • امضِ ! »

وخلال الفترة الوجيزة التي أتيحت له لاستجماع حواسه كان الغلام قد عقد العزم ، سواء أقضى نحبه في هذه المحاولة أم لم يقضِ ، على أن يبذل جهداً مُفرداً يُمكّنه ، لحظة بلوغه الرواق ، من أن يرتقي السلم بأقصى السرعة ويوقظ الأسرة النائمة • فلم يكن منه ، وقد استحوذت عليه تلك الفكرة ، الا أن تقدّم في الحال ، ولكن في خطي مُختَلسة •

فصاح سايكس فجأة بصوت عال : « ارجع ! ارجع ! »

ورُوّع أوليفر بهذا التعكير المفاجىء لسكينة البيت المطلقة ، وبصيحـة عالية عقبَتْه ، فهوى المصباح من يده ، ولم يدرِ أيتعيّن عليه أن يتقدم أم أن يطلق ساقيه للريح •

وتكررت الصيحة ••• وبرز ضوء ••• وطاف أمام ناظريه على نحو مُبْهم مشهد رجلين مروَّعين نصف عاريين عند أعلى السلم ••• وتلا ذلك وميض ••• وضجة مُدوّية ••• ودخان ••• وقرقعة في مكان ما ، ولكنه لم يدرِ أين • وارتدّ أوليفر على عقبيه مترنحاً •

وكان سايكس قد اختفي لحظة ، ولكنه سرعان ما نهض من جديد ، وأمسك به من قبة قميصه قبل أن يتبدّد الدخان • وأطلق نار غدّارتيه في أعقاب الرجلين اللذين كانا قد ارتدّا منسحبَيْن ، ورفع الغلام ثم سحبه من خلال النافذة •

وقال سايكس وهو يفعل ذلك : « اضغط على ذراعك ضغطـاً أشدّ • أعطني شالا • لقد أصابوه • عجِّل ! ما أغزر الدماء التي تنزف من الغلام ! »

وتلا ذلك رنينُ جرس داو امتزج بضجيج الأسلحة النارية ، وصيحاتُ رجال : وشعورٌ بأنه يحمل فوق أرض وعرة في خطى حثيثة • ثم ان الابهـام والاختلاط غلبا على تلك الأصوات في المدى البعيد ، ودبّ الى فؤاد الغلام احساس ببرودة قاتلة ، ولم يعد يرى شيئاً ، أو يسمع شيئاً •

الفصـــل الثـالــث والعشرون
وهو يشتمل على مادة حديث عذب دار بين مستر بامبل واحدى السيدات • ويظهر أن الشمامسة أنفسهم قد يكونـون سريعي التأثر في بعض الامور •

كان الليل قارس البرد • وكان الثلج يكسر الأرض مُتجمـــداً في قشرة قاسية كثيفة جعلت أكداسه التي سيقت الى الزوايا والطرق الفرعية تتأثر هي وحدها بالريح العاتية التي زارت خارج الابواب • تلك الريح التي بدت وكأن حنقها تعاظم فصبَّته على الفرائس القليلة الماثلة أمامها ، ممسكة بخناقهـا في وحشية قاذفة بها الى السحب ، محيلة اياها الى الف من الدرادير الملتّفعـــة بالضباب ، ناثرة تلك الدرادير بعد ذلك في الهواء • وفي مثل هــذه الليالي العاصفة ، الدامسة ، القارسة ، لا يجد المتخمـــون من نزلاء البيـوت المزوّدة بأسباب الراحة ما يفعلونه خيراً من التحلّق حول نار الموقد وازجاء الشكر لله على نعمة المبيت في منازلهم ، ولا يجد البؤساء من المشردين الجائعين ما يفعلونه خيراً من الانطراح على الأرض ارتقاباً للموت • ان كثـيراً من المنبوذين الذيـن أبلاهم الجوع ليغمضون أعينهم في شوارعنا العارية ، في أمثال هذه المناسبات • وهم ، مهما تكن الجرائم التي اقترفوها ، أعجز من أن يفتحوها على عالم أشدّ قسوة وغلظة •

تلك كانت هي الحال في الخارج عندما قعدت مسز كورني ــ مديرة الملجـأ الذي سبق لنا أن قدّمناه الى قرائنا بوصفه مسقط راس اوليفر تويست ــ أمام نار بهيجة في حجرتها الصغيرة ، وانشأت تنظر ، في قَدْر من الرضا غير يسير ، الى مائدة صغيرة مستديرة ، استقرت عليها صينية ذات حجم مماثل حفلـت بتجميع المواد الضرورية لتأليف وجبة من أشهى وجبـات الطعـام التي تؤثرها المديرات • والواقع أن مسز كورني كانت على وشك أن تتسلى عن همومهـــا بكوب من الشاي • حتى اذا نقلت طرْفها من المائدة الى المستوقَد ، حيث كانت أصغر ركوة بين جميع الركّاء الممكنة تغنّي أغنية صغيرة في صوت واهن ، تعاظم ارتياحها الباطني على نحو واضح • اجل ، على نحو واضح الى درجة أن مسز كورني نفسها لم تتمالك عن الابتسام •

وقالت المديرة ، وهي تُسند مرفقها الى المائدة ، وترنو الى النار مستغرقة في التفكير : « حسن ! انا واثقة من أن لدينا كلنا أسبابـــاً تدعونا الى الرضا وازجاء الشكر ! بل ان لدينا أسباباً كثيرة ، لو كنا نعلم ذلك ليس غير • آه ! »
وهزت مسز كورني رأسها على نحو فاجع ، وكأنها تأسَى للعمى العقلي

الذي يتكشف عنه أولئك الفقراء الذين لا يعرفون هذه الحقيقة • ثم انها أقحمت ملعقة فضية (من ممتلكاتها الخاصة) في أحمق أعماق علبة صفيحية من علب الشاي التي تزن أوقيتين اثنتين ، وشرعت في اعداد الشاي •

ولكن ما أضأل الاشياء التي تفسد رصانة عقولنا الهشّة ! فقد فاضت الركوة السوداء الصغيرة، السهلة الامتلاء، بينما كانت مسزكورني مستغرقة في التأمل في شؤون الاخلاق • وأحرق الماء يد مسز كورني احراقاً طفيفاً •

ـ « ألا لعنة الله على الركوة ! » كذلك قالت المديرة الفاضلة ، مسارعة الى وضعها على رف الموقد • « شيء صغير أبله لا يتسع لأكثر من كوبين اثنين ! أيّ فائدة تُرتَجى منه لأي انسان ! » وتمهلت مسز كورني لحظة ثم أضافت : « الا اذا كان مخلوقة مسكينة كئيبة مثلي • أوه ، واحسرتاه ! »

نطقت المديرة بهذه الكلمات وارتمت على كرسيّها • ثم انها أسندت مرفقها الى المائدة كرة اخرى ، وأنشأت تفكر في قَدَرها المعزول • كانت الركوة الصغيرة والكوب المفرد قد أيقظا في ذهنها ذكريات حزينة عن مستر كورني (الذي توفي منذ خمس وعشرين سنة ونيف) و كانت الكآبة قد غلبت عليها •

ـ « أنا لن أفوز أبداً بآخر ! » كذلك قالت مسز كورني في نكد : « أنا لن أفوز أبداً برجل آخر ••• مثله • »

ولسنا نعلم علم اليقين من الذي قصدته مسز كورني بهذه الملاحظة : زوجها أم ابريق الشاي • ومن الجائز أن يكون الأبريق هو المقصود • ذلك بأن مسز كورني نظرت اليه وهي تتكلم ، ثم رفعته بعد ذلك • ولم تكد تذوق كوبها الأول حتى أزعجت بنقرة رفيقة على باب الحجرة •

فقالت مسز كورني في حدّة : « أوه ، أدخل عليك اللعنة ! أحسب ان احدى النسوة العجائز تُحتَضر • انهن لا يمتن الا حين أفرغ لتناول الطعام ! لا تقف هناك ، تاركاً الهواء البارد يتسرب الى الحجرة ! هل من مشكلة جديدة ؟ »

فأجابها صوت رجل : « لا ، ليس ثمة شيء البتة ، يا سيدتي ! »

فهتفت المديرة في لهجة أرق بكثير من لهجتها السابقة : « يا ا~لهي ! أهذا مستر بامبل ؟ »

ـ « في خدمتك ، يا سيدتي ! » كذلك قال مستر بامبل ، الذي كان واقفاً بالباب لكي ينظف حذاءه وينفض الثلج عن معطفه ، والذي ما لبث ان دخل عليها حاملا القبعة ذات القرنين بأحدى يديه ، ورزمة ما بالأخرى • « هل أوصد الباب ، يا سيدتي ؟ »

فترددت السيدة ، باستحياء ، في الاجابة عن هذا السؤال ، خشية أن يكون ثمة أيّ حرج في الاجتماع الى مستر بامبل في حجرة مقفلة • وأفاد مستر بامبل من هذا التردد ، واذ كان هو نفسه يستشعر لذع البرد فقد أوصد الباب من غير اذن •

وقالت المديرة : « الجوّ رديء ، يا مستر بامبل . »
فأجابها الشماس : « رديء ، حقاً ، يا سيدتي . هذا جوّ غير أبرشاني ، يا سيدتي . لقد وزعنا ، يا مسز كورني ، لقد وزّعنا نحواً من عشرين رغيفاً وزن كل منها اربعُ ليبرات ، وقالب ونصف قالب من الجبن في هذا الأصيل المبارك ، ومع ذلك فالفقراء غير راضين . »
ـ « هذا شيء طبيعي جداً . وما الذي يستطيع أن يرضيهم ، يا مستر بامبل ؟ » كذلك قالت المديرة ، وهي ترشف شايها .
فأجابها مستر بامبل : « أجل ، ما الذي يستطيع أن يرضيهم ، يا سيدتي؟ اسمعي ، هناك رجل تلقّى ، بسبب من زوجته وأسرته الكبيرة ، رغيفاً وزنه أربع ليبرات ورطلا كاملا من الجبن ، ومع ذلك فهل تحسبينه شاكراً ، يا سيدتي ؟ هل تحسبينه شاكراً ؟ لا ، ولا مثقال ذرة . وما الذي يفعله غير المطالبة ببضع قطع من الفحم الحجري ... ولو ملء منديل جيب من هذا الفحم ، كما يقول ! فحم حجري ! وما الذي سوف يفعله بالفحم الحجري ؟ يحمّص الجبن عليه ، ثم يعود ليطالب بقدْر اضافي . تلك هي حالنا ، مع هؤلاء الناس ، يا سيدتي . أعطيهم اليوم ملء مئزر من الفحم الحجري يرجعوا اليكِ بعد يومين طالبين مقداراً مماثلا ، في وقاحة كوقاحة الرخام المعرّق . »
وعبرت المديرة عن موافقتها التامة على هذا التشبيه الجليّ . وتابع الشماس حديثه قائلا :

ـ « أنا لم أر قط في حياتي شيئاً في مثل فظاعة ما يحدث الآن . أمس الأول جاء رجل ـ لقد كنتِ امرأة متزوجة ، يا سيدتي ، فلست أجد حرجاً في أن أروي ذلك لك ـ رجل ليس على ظهره غير أسمال بالية (وهنا خفضت مسز كورني بصرها الى الارض) وطرق باب ناظِرنا ، وكان قد دعا نفراً من الاصدقاء الى العشاء ، وقال ان عليه أن يدّ اليه يد الاسعاف ، يا مسز كورني . حتى اذا أبى أن ينصرف ، وروّع الضيف ترويعاً بالغاً ، بعث اليه الناظر برطل من البطاطا وربع ليتر من دقيق الشوفان . فقال الوغد العقوق : « يا آلهي ! وأي فائدة أستطيع أن اجنيها من هذا ؟ لكأنك تعطيني نظارتين حديديتين ! » فقال ناظرنا ، وهو يستردّ ما وهبه : « حسن جداً . اننا لن نعطيك ، هنا ، اي شيء آخر ! » فقال المتشرد : « اذن ، فسوف أموت في الشوارع ! » فقال ناظرنا : « اوه ، لا ، انك لن تفعل ! »
فقاطعته المديرة : « ها ! ها ! لقد كان ذلك كلاماً بليغاً ! انك لتجد فيه روح مستر غرانيت كلها ، أليس كذلك ؟ حسن ، ثم ماذا ، يا مستر بامبل ؟ »
فأجابها الشماس : « حسن ، يا سيدتي ، لقد انصرف . ولقد مات ، فعلا ، في الشوارع . كان شحاذاً عنيداً الى أبعد الحدود ! »
فلاحظت المديرة في قوة : « هذا يفوق ايما شيء استطعت أن أتخيله . ولكن

ألا تعتقد أن هذا النوع من الاسعاف خارج الملاجىء هو شيء رديء جداً على أية حال ، يا مستر بامبل ؟ أنت رجلُ خبرة ، ولا بد انك تعلم · قل · »

فقال الشماس ، متبسماً كما يتبسّم الرجال الذين يَعُون أنهم أوسع علماً من غيرهم : « مسز كورني ، ان آلاسعاف خارج الملاجيء اذا ما أحسنَّا تدبيره ، أقول اذا ما أحسنّا تدبيره يا سيدتي ، ينطوي على وقاية للجنة الابرشانية · والمبدأ الاساسي الذي يقوم عليه الاسعاف خارج الملاجيء هو اعطاء الفقراء ــ على وجه الضبط ــ ما لا يحتاجون اليه ، وعندئذ يسأمون المجيء والالحاف في الطلب · »

فهتفت مسز كورني : « يا آلهي ! حسن ، وهذا كلام بليغ أيضاً ! »

فقال مستر بامبل : « أجل ، بيني وبينك يا سيدتي ، هذا هو المبدأ الاساسي · وهذا هو السبب الذي من أجله ــ اذا نظرتِ الى بعض القضايا التي تتسرّب الى هذه الصحف الوقحة ــ تجدين دائماً ان العائلات المريضة قد أسعِفت برقاقات من الجبن · تلك هي القاعدة الآن ، يا مسز كورني ، في طول البلاد وعرضها · ولكن مهما يكن من أمر ·· » وهنا كف الشماس عن الكلام ليحلّ عقدة رزمته ، « فهذه أسرار رسمية ، يا سيدتي ، لا يجوز التحدث عنها الا ، اذا جاز لي أن أقول ذلك ، بين الموظفين الابرشانيين ، من أمثالنا نحن · هذه هي ، يا سيدتي خمر « بورت » التي أمرت اللجنة بارسالها الى الملجأ · انها خمر بورت حقيقية ، جديدة ، أصيلة · لم تستخرج من البرميل الا هذا الأصيل · وهي صافية مثل عين الديك ، وليس فيها رواسب · »

حتى اذا رفع مستر بامبل الزجاجة الأولى نحو الضوء ، وخضّها جيداً انباتاً لجودتها الفائقة وضع كلتا الزجاجتين فوق خزانة ذات أدراج ، وطوى المنديل الذي كان يغلّفهما ، ثم دسّه في جيبه برفق بالغ ، وتناول قبعته وكأنه يهمّ بالانصراف ·

فقالت المديرة : « سوف تستشعر البرد القارس في طريق عودتك ، يا مستر بامبل · »

فأجابها الشماس وهو يرفع قبة معطفه : « الريح تعصف ، يا سيدتي ، على نحو يصلِمُ اذنَيْ المرء صلْماً · »

وَنقلت المديرة بصرها من الركوة الصغيرة الى الشماس . الذي كان يمضي نحو الباب · ولم يكد الشماس يسعل ، استعداداً لتوديعها ، حتى سألته في استحياء ما اذا كان يحب أن يحتسي كوباً من الشاي ·

فلم يكن من مستر بامبل الا ان ردّ قبة معطفه الى وضعها الأول ، ووضع قبعته وعصاه على أحد الكراسي ، وأدنى كرسياً آخر الى المائدة · وفيما هو يجلس في تؤدة ، رنا الى السيدة · فركّزت عينيها على ركوة الشاي الصغيرة وسعل مستر بامبل من جديد ، وابتسم ابتسامة ضئيلة ·

ونهضت مسز كورني لتأتي من الخزانــة بكــوب وصحن كوب آخرين ٠ وفيما هي تعاود الجلوس التقت عيناها عيني الشماس الشهم ٠ وشاع الدم في وجهها ، وانكبَّت على اعداد الشاي له ٠ وسعل مستر بامبل كرة اخرى ٠٠٠ وكان سعاله هذه المرة أقوى من سعاله في المرتين السابقتين ٠

ـ « أتحبُّه حلواً ، يا مستر بامبل ؟ » كذلك سألته المديرة ، وهي ترفع السكرية ٠

فأجابها مستر بامبل : « أحبه حلواً جدا ، يا سيدتي ٠ » وثبَّت عينيه على مسز كورني فيما كان ينطق بتلك الكلمات ٠ ولو قد قُدِّر لشماس ما أن يبدو في أيّ يوم من الأيام رخصاً رقيق السمات اذن لكان مستر بامبل هو ذلــك الشماس في تلك اللحظة ٠

وأنجِز اعداد الشاي ، وقدِّم في صمت ٠ حتى اذا نشر مستر بامبل فوق ركبتيه منديلا يحول بين فُتات الخبز وبين تلويث بهاء بنطاله القصــير ، شرع يأكل ويشرب ، موشِّحاً هاتين المتعتين بين الفينة والفينة بأطلاق زفرة عميقة لم تفسد عليه ـ بأية حال ـ شهوته الي الطعام ، بل بدت ـ على عكس ذلــك ـ وكأنها تيسِّر نشاطه في حقل الشاي والخبز المحمص ٠

ـ « ان عندك هرة ، يا سيدتي ، في ما أرى ٠ » هكذا قال مستر بامبل ، وهو يرنو الى هرة كانت تصطلي بالنار وسْــط أفراد أسرتها ٠ « واعجبا ! وعندكِ هريرات أيضاً ! »

فأجابته المديرة : « أنا مولعة بها ، يا مستر بامبل ، الى درجة يتعذر عليكِ أن تتخيَّلها ٠ انها من السعادة ، والظرف ، والبهجة بحيث اتخذت منها رفاقاً بكل ما في الكلمة من معنى ٠ »

فأجابها مستر بامبل بلهجة ترشح بالموافقة : « انها حيوانات ظريفة جداً ، يا سيدتي ٠ انها مستأنسة الى أبعد الحدود ٠ »

فقالت المديرة في حماسة : « أوه ، نعم ! وهي مولعة ببيتها أيضاً الى درجة تجعل العيش معها متعة بالغة ، أؤكد لك ! »

فقال مستر بامبــل ، في تــؤدة ، وهــو يحــدث بملعقــة الشاي بعض الايقاعات الموسيقية : « مسز كورني ، أريد ان اقول لك شيئــاً ، يــا سيدتي ٠ وهو أن أيما هرة ، أو هـُريرة ، تعيش معك ، يا سيدتي ، ولا تـُوْلعُ ببيتها لا بدّ أن تكون حماراً ، يا سيدتي ٠ »

فصاحت مسز كورني : « أوه ، يا مستر بامبل ! »

فقال مستر بامبل ، موازناً ملعقة الشاي في ضرب من الوقار الغـَزِل زاده جلالا على جلال ٠ « من العبث الذي لا طائل تحته أن نخفي الحقائق ، يا سيدتي ٠ اني لأتوق الى اغراق مثل هذا الحيوان بيديّ الاثنتين ، وفي سرور بالغ ٠ »

فقالت المديرة في حرارة ، وهي تبسط يدها لكي تتناول كوب الشماس :

« واذن فأنت رجل قاس ، والى هذا فأنت رجل متحجر القلب أيضاً ٠ »

فقال مستر بامبل : « متحجر القلب ، يا سيدتي ؟ متحجر ؟ » وأفلت مستر بامبل كوبه من غير أن ينطق بأية كلمة اضافية ٠ وضغط على خنصر مسز كورني فيما كانت تتناول الكوب منه ٠ وبعد أن ربَّت براحة يده على صدرته الموشاة تربيتتين اثنتين أطلق زفرة عميقة ، وأبعد كرسيه عن نار المستوقد بعض الشيء ٠

كانت مائدة مستديرة ٠ واذْ كانت مسز كورني ومستر بامبل جالسين على نحو متقابل وليست تفصل بينهما غير شِقة يسيرة ، واذ كان مجلِسهما على مقربة من النار ففي ميسور القارىء ان يرى ان مستر بامبل ، في ابتعاده عن النار ولكن من غير ان يفارق المائدة ، انما وسَّع الشقة الفاصلة بينه وبين مسز كورني ٠ وهو صنيع لا بدّ أن يميل بعض القرآء المتميزين بالحصافة الى الاعجاب به واعتباره عملا ينطوي على بطولة عظيمة من جانب مستر بامبل : الذي ألفى نفسه مُغْرى على نحو ما ، بحكم الزمان والمكان والفرصة المتاحة ، بأن ينطق ببعض السفاسف الرقيقة التي مهما تكن لائقة بشفاه الخُلَعاء الطياشين فأنها تبدو متنافرة مع وقار القضاة ، وأعضاء البرلمان ، ووزراء الدولة ، ومحافظي المدن، وغيرهم من كبار الرجال الرسميين ، وتبدو أشدّ تنافراً على نحو أخص مع مهابة الشمامسة ورزانتهم ، الشمامسة الذين يتعين عليهم (كما هو معروف) أن يكونوا أكثر أولئك الرجال تجهُماً وحُروناً ٠

بيد أنه أياً ما كانت نيات مستر بامبل (وليس من ريب في أنها كانت من الضرب الأفضل) فقد اتفق لسوء الطالع ، كما لاحظنا مرتين من قبل ، إن المائدة كانت مستديرة ٠ وهكذا فأن مستر بامبل ، بأقصائه كرسيَّه شيئاً فشيئاً ، سرعان ما بدأ في تقصير المسافة الفاصلة بينه وبين المديرة ٠ واذْ واصَل الرحلة حول حافة الدائرة الخارجية فقد انتهى بكرسيه آخر الأمر الى مقربة دانية من تلك التي استوت عليها المديرة ٠ والواقع ان الكرسيين تماسَّا ٠ حتى اذا تمَّ ذلك كفَّ مستر بامبل عن الدوران ٠

والآن ، لو ان المديرة اتجهت بكرسيها يمنة اذن للذعتها النار ٠ ولو أنها اتجهت به يسرة اذن لسقطت في ذراعي مستر بامبل ٠ وهكذا (ولما كانت مديرة حصيفة ، ولما كانت قد أدركت ، بثاقب رأيها ، هذه العواقب ، للوهلة الاولى) فقد لزمت مكانها لا تريم ، وقدمت الى مستر بامبل كوب شاي آخر ٠

ــ « متحجر القلب ، يا مسز كورني ؟ » قال مستر بامبل ذلك ، وهو يحرك الشاي ويرنو الى وجه المديرة ٠ « هل أنتِ متحجرة القلب ، يا مسز كورني ؟ »

فهتفت المديرة : « يا ا ٓلهي ! يا له من سؤالٍ جدّ غريب من رجل عَزَب ! لماذا تريد أن تعرف ، يا مستر بامبل ؟ »

وشرب الشماس شايَه حتى الثمالة • وأتى على قطعة من الخبز المحمّص • ونفض الفتات عن ركبتيه • ومسح شفتيه • وفي كثير من الروية ، قبّل المديرة •

– « مستر بامبل ! » كذلك قالت السيدة الحصيفة ، في نبرة مهموسة • فقد كان الذعر الذي استبد بها عظيماً الى حدّ غـار معه صوتها فهو لا يكاد يُسْمع • « مستر بامبل ، سوف أصرخ ! » ولم يُجِب مستر بامبل بشيء ، بل طوّق خصر المديرة بذراعه ، على نحو متّئد مفعم بالوقار •

واذ كانت السيدة قد عبّرت عن اعتزامها أن تفزع للصراخ ، فقد كان خليقاً بها طبعاً ان تصرخ ازاء هذه الوقاحة الاضافية ، ولكن قرعاً متعجلا على الباب سرعان ما جعل ذلك الجهد أمراً غير ضروري البتة • والواقـع ان مستر بامبل لم يكد يسمع ذلك القرع حتى وثب في خفة بالغة الى زجاجـتي الخمر ، وشرع ينفض عنهما الغبار في عنف بالغ ، بينا تساءلت المديرة في صوت حادّ : « مَنْ بالباب ؟ » وجديرٌ بالملاحظة ، كمثل ماديّ غريب على فعالية المباغتـة العنيفة في الحدّ من آثار الخوف المتطرف وموازنتها ، أن صوت مسز كورني كان قد استعاد كامل خشونته الرسمية استعادة تامة •

وقالت فقيرة عجوز ذاوية ، ذات وجه يشع الى حد مخيف ، وهي تطـل برأسها من وراء الباب : « عفواً يا سيدتي • ان « سالي » العجوز تسير نحو الموت في خطى حثيثة • »

فسألتها المديرة في غضب : « حسن ، وما علاقتي بذلك ؟ أنا لا أستطيع ابقاءها على قيد الحياة ، هل أستطيع ؟ »

فأجابتها العجوز : « لا ، لا ، يا سيدتي • ليس في مستطاع أحد ان يفعل ذلك • لقد فات أوان اسداء العون اليها • اني قد رأيت كثيراً من الناس يموتون – وفيهم أطفال صغار ورجال كبار أشدّاء – وانا أعرف متى يدنو الموت معرفة جيدة • ولكنها مهتاجة النفس • وحين تزايلها النوبات – وهو أمرٌ نادر جداً ، لأن الموت يجور عليها في قسوة – تقول ان لديها شيئاً تريـد أن تفضي بـه ، ويجب أن تسمعيه انت • انها لن تموت مطمئنة النفس ما لم تذهبي لسماع ما ترغب في قوله ، يا سيدتي • »

وبعد هذا النبأ ، أطلقت مسز كورني الفاضلة ، في غمغمة مبهمة ، صنوفاً من الشتائم الموجهة الى أولئك النسوة العجائز اللواتي لا يستطعن أن يمـتن ، أجل أن يمتن ، من غير أن يزعجوا ، عامدين متعمدين ، مَنْ يفوقونهم قـدْراً ومكانة • ثم انها تدثرت بشال غليظ تناولته في تعجّل بالـغ ، وسألت مستر بامبل ، في ايجاز ، أن يلبث ريثما تعود ، خشية أن يحدث أيما شيء استثنائيّ • وأصدرت أمرها الى المرأة العجوز بأن توسع الخطى ، وأن لا تتعثر طوال الليل فوق درجات السلم ، وغادرت الحجرة خلفها ، مكفهرة الوجه ، وهي تدمدم معنِّفة على نحو موصول •

والواقع ان سلوك مستر بامبل لدن خلـّف وحيداً ممتنع على التفسير أو يكاد • لقد فتح الخزانة ، وعدّ ملاعق الشاي ، ووزن ملاقط السكّر ، وأنعم النظر في آنية حليب فضية ليستوثق انها مصنوعة من المعدن الأصيل • حتى اذا أشبع فضوله في ما يتصل بهذه الأشياء ، اعتمر بقبعته المقرنة اعتماراً منحرفاً بعض الشيء ، ورقص حول المائدة ، في كثير من الوقار ، مطوّفاً بها أربع مرات متميِّزات • وبعد أن تم له اداء هذا الصنيع الاستثنائي الى أبعد الحدود ، نزع قبعته المقرّنة من جديد ، واضطجع على مقربة من النار ، مولّياً اياها ظهره ، وبدا وكأنه مستغرق ، عقلياً ، في القيام بجرْد دقيق لأثاث الحجرة •

الفصل الرابع والعشرون
وهو يعالج موضوعاً هزيلا جداً . ولكنه فصل قصير ، وقد يجده القارىء ذا شأن في هذه القصة

ان المرأة التي عكّرت صفو حجرة المديرة لم تكن نعيّاً* غير مؤهلة لأداء هذه الرسالة • كان ظهرها محنياً بالشيخوخة ، وكانت أوصالها ترتعد بالفالج الجزئي ، وكان وجهها ـ الملتوي بابتسامة بلهاء مُتمتمة ـ يشبه صورة من الصور القبيحة المرسومة بريشة تائهة أكثر مما يشبه وجهاً من صنع يد الطبيعة •

وأسفا ! ما أندر وجوه البشر الطبيعية التي تُترك وشأنها لكي تبهجنا بجمالها ! ان هموم العالم وأحزانه وأتواقه* لتغيّرها كما تغيّر الافئدة • ولا تنجاب هذه السحائب المضطربة الكدِرة لينجلي وجه السماء الا بعد ان ترقد تلك الانفعالات وتفقد سلطانها الى الأبد • وانه لمن عادة أسارير الموتى ، حتى في تلك الحالة الثابتة المتصلبة ، ان تستعيد انطباعة الطفولة الغافية ، هذه الانطباعة المنسية منذ عهد بعيد ، وتستقرّ على طلْعة الصبا الأول • انها تعود من جديد هادئة جداً ، وادعة جداً ، بحيث لا يتمالك أولئك الذين عرفوها في طفولتها السعيدة عن الركوع الى جانب النعش في ذعر ، متوهمين أنهم يرون الملاك على الارض نفسها •

واتخذت العجوز سبيلها ، مترنحة ، عبر الاروقة ، وفوق درجات السلم ، مغمغمة بردود مبهمة على تعنيفات رفيقتها • حتى اذا اضطرت آخر الأمر الى

* النعي : من ياتي بخبر الموت •

* جمع توق ، وهو الميل والنزوع •

التريث ريثما تسترد أنفاسها ، ناولتها الشمعة وتخلفت لتعاود اللحاق بها عندما تقوى على ذلك • في حين مضت تلك الرفيقة الاسمى منها مكانة ، والأرشق خطى ، الى الحجرة التي اضطجعت فيها المرأة المحتضرة •

كانت تلك الحجرة عِلّية عارية ، أضيء في طرفها الأقصى مصباحٌ باهت النور • وكانت عجوز اخرى تحيي الليل الى جانب السرير • على حين كان غلام الصيدلية الابرشانية المهمَّن يقف على مقربة من النار ، وفي يده ريشة طير كبيرة راح يصنع منها عوداً لنكش الاسنان •

ـ « انها ليلة باردة ، يا مسز كورني ، » كذلك قال هذا السيد الشاب عندما وفدت المديرة •

فأجابته رئيسة الملجأ بلهجتها الأشد كياسة ، وهي تحني رأسها في احترام : « انها جدّ باردة ، حقاً ، يا سيدي • »

وقال ممثل الصيدلية ، كاسراً بالمحراك الصدىء جمرة كانت في أعلى النار : « يتعين عليكم أن تطلبوا من متعهّديكم فحماً حجرياً أفضل • ان هذا النوع من الفحم لا يصلح البتة لهذه الليالي الباردة • »

فأجابت المديرة : « ان اللجنة هي التي اختارته • ان أقل ما يستطيع هؤلاء السادة أن يفعلوه هو أن يتيحوا لنا تدفئة حسنة ، لأن جوّ اقليمنا قاس جداً • »

وهنا قطعت المرأة المحتضرة ذلك الحديث بأنّة أطلقتها •

وقال الفتى ملتفتاً نحو السرير ، وكأنه كان قد نسي المريضة نسياناً كاملا : « اوه ! لقد انتهى كل شيء ، هنا ، يا مسز كورني ! »

فسألته المديرة : « أحقّ ما تقول ، يا سيديّ ؟ »

فقال غلام الصيدلية المهمّن ، وهو يحدّق الى رأس عوْد الاسنان : « إذا عاشت ساعتين اخريين فعندئذ يكون من حقي أن أدهش • ذلك انهيارٌ للجهاز برمّته • هل هي نائمة ، أيتها السيدة العجوز ؟ »

فانحنت العجوز الملازِمة للمحتضَرة فوق السرير لكي تتأكد من ذلك • ثم هزت رأسها بالايجاب •

فقال الشاب : « أذن ، فربما لفظت أنفاسها على هذا النحو ، اذا لم تُحْدِثا أية ضجة • ضعي المصباح على الارض • انها لن تراه هناك • »

وفعلت العجوز الملازِمةُ ما أمرتْ به ، هازّة رأسها خلال ذلك وكأنها تلمع الى أن المرأة لن تموت بمثل هذه السهولة كلها • حتى اذا تمّ لها ذلك استعادت مقعدها الى جانب المرضة الأخرى التي كانت الآن قد عادت • أما رئيسة الملجأ فتدثرت بشالها ، وعلى وجهها أمارات الضيق ونفاد الصبر ، وقعدت عند قدم السرير •

حتى اذا أنجز غلام الصيدلية المهمّن صنع عود الاسنان تَمرْكز تجاه

النار ، وأفاد من تلك الأداة افادة صالحة دامت عشر دقائق أو نحوها • وعندما داخلَه السأم ، في ما يبدو ، بعض الشيء ، تمنى لمسز كورني الاستمتاع بهمتها ، وانسحب على رؤوس أصابعه •

وبعد أن قعدت العجوزان معتصمتين بالصمت فترة من الزمان نهضتا ونأتا بنفسيهما عن السرير ، وجثمتا فوق نار المستوقد ، ثم بسطتا أيديهما الذاوية التماساً للحرارة • وألقت النار على وجهيهما المتغضنين سيماء شبَحية ، وجعلت بشاعتَهما رهيبة المظهر ، بينا راحتا ـ وهما في ذلك الوضع ـ تتحادثان في صوت خفيض •

وسألتها العجوز التي حملت الرسالة الى مسز كورني : « هل قالت شيئاً اضافياً ، يا عزيزتي آني ، في أثناء غيابي ؟ »

فأجابتها الأخرى : « لم تقل أية كلمة • لقد خدشت ذراعيها وحاولت تمزيقهما فترة قصيرة من الزمان • ولكني أمسكت بيديها ، وسرعان ما أخلدت الى السكينة • انها خائرة القوى ، وهكذا استطعت السيطرة عليها في سهولة • أنا لست أضعف من أن أتغلب على امرأة عجوز ، برغم اني اعيش على جراية الابريشية • لا ، لا • »

فسألتها الاولى : « هل شَربت الخمر الحارة التي قال الطبيب ان عليها أن تعالج بها ؟ »

فأجابتها الأخرى : « لقد حاولتُ أن أجرّعها اياها • ولكن أسنانها كانت مُحْكَمة الاطباق ، ولقد تشبَّثت بالكوز بيد متشنجة تشبثاً شديداً الى درجة اضطررتُ معها الى افراغ كامل قوتي لانتزاعه منها • وهكذا كرعت أنا تلك الخمر • ولقد عادت عليّ بفائدة كبيرة ! »

وبعد أن أجالت الشمطاوان بصريهما في ما حولهما ، باحتراس وحذر ، لكي تستوثقا أن أحداً لم يسمعهما ، اقتربتا من نار المستوقد أكثر فأكثر ، وضحكتا من صميم القلب ضحكاً مكبوتاً •

وقالت المتكلمة الأولى : « أنا أذكر ذلك العهد الذي كانت ، في أثنائه ، تفعل الشيء نفسه ، ثم تسترسل في الضحك ساخرة • »

فقالت الأخرى : « آه ، هذا صحيح • لقد كانت ذات فؤاد مرح • وما أكثر الجثث الجميلة التي كفَّنتها ، فخرجت من بين يديها رائعة أنيقة مثل دمى من شمع • لقد رأت عيناي العجوزان تلك الجثث ••• أجل ، ولقد لمستها هاتان اليدان العجوزان أيضاً • ذلك أني ساعدتها عشرات المرات • »

وفيما كانت تلك المخلوقة العجوز تتحدث بسطت أصابعها المرتعشة وهزتها أمام وجهها في ابتهاج وتهلل • ثم بحثت في بعض جيوبها وأخرجت علبة سعوط صفيحية عتيقة غيَّر تقادم العهد لونَها ، وأخذت منها قبْصة وضعتها في راحة رفيقتها المبسوطة ، وقبصة اخرى وضعتها في راحتها هي • وبينا كانتا

منهمكتين في ذلك عادت المديرة ـ التي كانت تنتظر بفارغ صبر ريثما تفيق المرأة المحتضَرة من سباتها ـ فالتحقت بهنَّ ، على مقربة من النار ، وسألت في حدّة حتّام يتعيّن عليها أن تنتظر .

فأجابتها المرأة الثانية وهي ترفع بصرها الى وجهها : « فترة قصيرة ليس غير ، أيتها الرئيسة . ان أياً منا لن ينتظر الموت طويلا . صبرا ! صبراً ! انه سوف يفِدُ الى هنا ، وشيكاً ، لزيارتنا جميعاً . »

فقالت المديرة في تجهم : « اخرسي ، أيتها البلهاء الخرِفة ! ولكن قولي لي أنتِ ، يا مارتا ، هل ألمّ بها شيء مثل هذا السبات من قبل ؟ »

فأجابتها المرأة الأولى : « أجل ، مرات عديدة . »

فأضافت الاخرى : « ولكنه لن يلمّ بها كرة اخرى أبداً . يعني انها لن تفيق غير مرة واحدة ... وانتبهي ، أيتها الرئيسة ، ان ذلك لن يدوم طويلا ! »

فقالت المديرة في فظاظة : « سواء أدام ذلك طويلا أم قصيراً فأنها لن تجدني هنا عندما تفيق . ولتحاذر كل منكما بعد اليوم أن تزعجني لغير ما داع . فليس جزءاً من واجبي أن أشهد وفاة جميع عجائز الملجأ ، وفوق هذا فأني ارفض ذلك . أسمعتما ما أقول ، أيتها الشمطاوان الشريرتان الوقحتان ؟ اذا حاولتما أن تخدعاني بعد اليوم سارعت الى شفائكما من هذا الداء . كونا من ذلك على ثقة . »

وكانت تَطْفر مغادرة الحجرة عندما أطلقت المرأتان اللتان كانتا قد ارتدّتا نحو السرير ، صيحة دعَتْها الى الالتفات . كانت المحتضرة قد انتصبت جالسة في سريرها ، وكانت تبسط ذراعيها نحوهما .

لقد صاحت ، في صوت غائر : « مَنْ هذه ؟ »

فقالت احدى المرأتين ، وقد انحنت فوقها : « هش ! هش ! اضطجعي ، اضطجعي ! »

فقالت المرأة مناضلة : « أنا لن أضطجع بعدُ ، كرة أخرى ، وأنا على قيد الحياة ! اني أريد أن أخبرها ! تعاليْ الى هنا ! اقتربي أكثر ! دعيني أهمس في في أذنك . »

وأنشبت أصابعها في ذراع المديرة ، وأكرهتها على الاستواء في كرسي على مقربة من السرير . وكانت على وشك أن تتكلم عندما أجالت طرفها في ما حولها فلمحت العجوزين الاثنتين منحنيتين في وضع كوضع من يرْهف السمع .

وقالت المرأة على نحو ناعس : « اخرجيهما من هنا ! عجلّي ! عجلّي ! »

وشرعت الشمطاوان تصبّان ، في صوت واحد ، ضروباً من كلمات اللوم المؤثّرة ، قائلتين أن العزيزة المسكينة كانت في حال من الذهول جعلتها أجْهَل من أن تعرف صديقاتها الفضليات . وكانتا تطلقان شتّى الاحتجاجات زاعمتين أنهما لن تفارقاها البتة عندما دفعتهما الرئيسة الى خارج الحجرة ، وأوصدت

الباب ، وانقلبت الى جانب السرير · وحين وجدت العجوزان انهما أبعدتا ، غيّرت كلتاهما لهجتها ، وصاحت من ثقب الباب قائلة ان « سالي » العجوز نشوى · وهو شيء لم يكن في الواقع بعيد الاحتمال · اذ بالاضافة الى جرعة معتدلة من الافيون وصفَها لها الصيدلي ، كانت رازحة تحت آثار جرعة نهائية من شراب ال « جِن » قدّمتها اليها العجوزان الفاضلتان ، سرّاً ، بدافع من سلامة نيّتهما ·

وقالت المرأة المحتضرة ، في صوت عال ، وكأنها تبذل جهداً كبيراً لنفخ الحياة في شرارة من الطاقة كامنة : « والآن ، اصغي اليّ · في هذه الحجرة بالذات ··· في هذا السرير بالذات ··· مرّضت مرة مخلوقة صغيرة بهية الطلعة جيء بها ذات يوم الى الملجأ وقد تقرحت قدماها وجُرحتا من طول المشي ، ولُوّث جسدها كله بالدم والغبار · لقد وضعت غلاماً ثم أسلمت الروح · دعيني أفكّر ··· في أيّ عام كان ذلك ؟ »

فقالت المستمعة النافدة الصبر : « لا تشغلي نفسك بتذكّر السنة · ماذا تريدين أن تخبريني عن تلك المخلوقة ؟ »

فغمغمت المرأة المحتضرة ، عائدة سيرتها الأولى المتسمة بالنعاس والخدر : « آي ، ماذا أريد أن أخبرك عنها ؟ ماذا ··· أنا أدري » وهنا صاحت ، وقد وثبت في ضراوة ، وشاع الدم في وجهها وكادت عيناها تخرجان من محجريهما : « لقد سلَبْتُها ··· أجل سلبتها ! ولم تكن قد أمست جثة هامدة ··· اقول لك انها لم تكن قد أمست جثة هامدة ، عندما سرقت ذلك الشيء منها ! »

فصاحت المديرة ، وهي تومىء ايماءة من يعتزم ان يلتمس النجدة : « سرقتِ ماذا ؟ ·· قولي اكراماً لله ! »

ــ « ذلك الشيء ! » هكذا أجابت المرأة ، واضعة يدها على فم الأخرى : « الشيء الوحيد الذي كانت تملكه · لقد أرادت ثياباً تدفئها ، وطعاماً تأكله · ولكنها حرصت على الاحتفاظ بذلك الشيء ··· على الاحتفاظ به في صدرها · لقد كان من ذهب ، أقول لك ! من ذهب خالص كان خليقاً به أن ينقذ حياتها ! »

ــ « ذهب ! » كذلك كررت المديرة منحنية في لهفة فوق المرأة التي استلقت على ظهرها · « تابعي ··· تابعي ··· نعم ... ثم ماذا ؟ من كانت الأم ؟ متى كان ذلك ؟ »

فأجابت المرأة وهي تطلق أنّة : « لقد عهدت اليّ في المحافظة عليها ، ووثقت بي بوصفي المرأة الوحيدة التي وجدتها حولها · ولكني سرقتها بعقلي عندما أرتني اياها متدلية من عنقها · ومن يدري ، فلعلي مسؤولة بالاضافة الى ذلك عن موت الطفل ! لقد كان خليقاً بهم أن يعاملوه معاملة أفضل ، لو انهم عرفوا كل شيء ! »

فسألتها الاخرى : « لو عرفوا ماذا ؟ تكلمي ! »

فاسترسلت المرأة في حديثها ، من غير أن تنتبه للسؤال : « وترعرع الطفل مُشبّهاً أمه شبهاً بعيداً الى درجة جعلتني عاجزة عن أن أنساها كلما رأيت وجهه · يا للفتاة البائسة ! يا للفتاة البائسة ! لقد كانت ناضرة العود ، أيضاً ! كانت حملا وديعاً الى أبعد الحدود ! انتظري ، عندي مزيد من القول · أنا لم أخبرك بكل شيء ، أليس كذلك ؟ »

ـ « لا ، لا · » هكذا أجابت المديرة وهي تحني رأسها لكي تتلقف الكلمات ، فيما كانت تنطلق من شفتي المحتضَرة على نحو أشدّ ضعفاً ووهناً · « عجلّي ، والا فات الاوان ! »

فقالت المرأة باذلة جهداً أعنف من ذي قبل : « ان الأم ··· ان الأم همست في اذني ـ عندما عانت أولى سكرات الموت ـ قائلة لي : « اذا قُدّر لطفلي أن يولد حياً ، وأن يعيش فقد يأتي يومٌ لن يستشعر فيه كثيراً من الخزي والعار كلما سمع اسم أمه الفتيّة البائسة · » ثم أضافت طاوية ذراعيها المهزولتين : « أوه ، أيتها السماء الكريمة ! سواء أكان صبياً أم بنتاً احيطيه ببعض الاصدقاء في هذا العالم المضطرب ، ولتأخذكِ الرأفة بطفل متوحّد بائس أسلمته الاقدار لرحمة ذلك العالم ! »

فسألتها المديرة : « وما آسم الغلام ؟ »

فأجابتها المرأة في وهن : « لقد سمّوه أوليفر · ان الحلية الذهبية التي سرقتُها كانت ··· »

فصاحت الاخرى : « أجل ، أجل ، كانت ماذا ؟ »

كانت قد مالت على المرأة ، في لهفة بالغة ، لكي تسمع جوابها · ولكنها انكفأت على نحو غريزيّ ، عندما نهضت المحتضرة من جديد ، نهوضاً بطيئاً متصلباً ، وآتخذت وضْعاً قاعداً ، ثم تشبثت بغطاء السرير بكلتا يديها ، وغمغمت بأصوات مبهمة تردّدت في حنجرتها ، وسقطت على الفراش ميتة ·

* * *

وقالت احدى العجوزين وقد هرعتا حالما فُتح الباب : « جثة هامدة ! »

فلم يكن من المديرة الا أن قالت وهي تنصرف في غير مبالاة : « ولم يكن لديها ما تقوله ، على أية حال · »

وكانت الشمطاوان منهمكتين ، في ما يبدو ، في الاستعداد لواجباتهما الرهيبة ، فلم تجيبا بأية كلمة · وهكذا خلّفتا وحدهما ، وانشأتا تحومان حول الجثمان ·

الفصل الخامس والعشرون
حيث ترتد هذه القصة الى مستر فاجين وجماعته

فيما كانت هذه الأحداث تجري في الملجأ الريفي ، جلس مستر فاجين في

الوكر العتيق ـ ذلك الوكر نفسه الذي سبق للفتاة ان نقلت أوليفر منه ـ وراح يتأمل بازاء نار كليلة داخنة · كان قد وضع على ركبته منفاخاً حاول به ، في ما يبدو ، أن يذكي تلك النار · ولكنه كان قد استغرق في تفكير عميق : لقد طوى ذراعيه فوق المنفاخ · مسنداً ذقنه الى ابهامَيْه ، وثبّت عينيه ـ في ذهول ـ على قضبان الموقد الصدئة ·

والى مائدة خلفه جلس « المراوغ الماكر » ، والمعلم تشارلز بايتس ، ومستر تشيتلينغ ، منكبّين على الورق يلعبون « الهويست »* · وكان « المراوغ الماكر » يلعب بالاشتراك مع زميل له موهوم ضد المعلم بايتس ومستر تشيتلينغ · وكان محيّا السيد الذي نصَصْنا على اسمه أولا ـ وهو محيّا يتسم دائماً بذكاء فريد ـ قد اكتسب مزيداً من الجاذبية بسبب من استغراقه البالغ في اللعبة ، ومراقبته الواعية ليد مستر تشيتلينغ ، هذه اليد التي راح يلقي عليها بين الفينة والفينة، تبعاً للفرصة المتاحة ، ضروباً من النظرات الثاقبة ، معدّلا لعبَه على أساس من ملاحظاته الخاصة بأوراق جاره · واذ كانت الليلة قارسة ، فقد اعتمر « المراوغ » بقبعته ، جرياً على مألوف عادته داخل جدران المنزل · وكان فوق هذا يضغط بأسنانه على بيبة خزفية لم يكن ينزعها من موضعها ذاك الا ريثما يبسط يده ـ كلما وجد ذلك ضرورياً ـ الى حُقّ مليء بشراب ال « جن » موضوع على المائدة ابتغاء الترفيه عن الجماعة ·

وكان المعلم بايتس يولي اللعبة عنايته أيضاً · بيد أنه كان ذا مزاج أشدّ حدة من صديقه الموهوب ، ومن هنا كان في ميسور المرء أن يلاحظ أن لجوءه الى الشراب تواتَر على نحو بزّ فيه ذلك الصديق ، وأنه كثيراً ما كان يعمد الى ارسال النكات والملاحظات غير المتصلة بموضوع اللعب ، وكلها أشياء لا تليق بسارق متمرس بقواعد الصناعة · والواقع أن « المراوغ الماكر » اغتنم الفرصة غير مرة ـ استناداً الى ما بينهما من موّدة وثيقة ـ فناقش صديقَه محتجاً على هذه الاعمال غير اللائقة · فكان المعلم بايتس يتلقى هذه الاحتجاجات كلها في ارتياح وطيب نفس ، مكتفياً بمجرد دعوة صديقه للذهاب الى حيث « يُطيِّر » دماغه من رأسه ، أو لوضع ذلك الرأس في كيس · أو كان يردّ عليها بمُلَح مماثلة مصوغة في قالب أنيق ··· مُلح كان اصطناعها البهيج يثير في نفس مستر تشيتلينغ اعجاباً عظيماً. ومن الطريف أن نلاحظ ان مستر تشيتلينغ هذا وشريكه خسرا على نحو موصول · ولم تُغْضب هذه الواقعة المعلم بايتس ، بل بدت وكأنها تزوّده بمتعة ما بعدها متعة ، اذ كان ينفجر في ضحك مدوّ عند نهاية كل دور ، ويعلن أنه لم يشهد ـ طول الأيام التي عاشها حتى تلك اللحظة ـ لعباً أدعى الى ابهاج النفس من هذا اللعب ·

وأخيراً أعلن مستر تشيتلينغ ، مكفهرّ الوجه ، هزيمته ، وأخرج من جيب

* وهي لعبة من العاب الورق يشترك فيها فريقان ، كل فريق مؤلف من لاعبين اثنين · (المعرب)

صدرته نصف ريال ، وقال : « أنا لم أر في حياتي فتى مثلك ، يا جاك · انت تكسب كل شيء · وحتى حين يكون معي ومع تشارلي ورق جيد فأننا نعجز عن الافادة منه · »

وابتهج تشارلي بايتس بهذه الملاحظة ــ سواء أكان مردّ ذلك الى مادتها أو الى لهجتها ــ ابتهاجاً بالغاً الى درجة جعلت انفجاره التالي بالضحك يُوقظ اليهودي من شروده الذهني ، وأغرته بالتساؤل عما يجري ·

فصاح تشارلي : « ما يجري ، يا فاجين ؟! لشدّ ما أتمنى لو استطعت أن تشاهد اللعب · ان تومي تشيتلينغ لم يكسب نقطة واحدة ، وكنت أنا شريكه في اللعب ضد « المراوغ » وشريك موهوم · »

فقال اليهودي ، في ابتسامة عريضة أظهرت في وضوح أنه لم يَغْفل عن فهم السبب : « أجل ، أجل ! جرّب كرة اخرى ، يا توم ، جرّب كرة اخرى · »

فأجابه مستر تشيتلينغ : « أما أنا فلن أجرب كرة اخرى · أقول ذلك مع تقديم شكري اليك ، يا فاجين · لقد لعبت لعباً كافياً · ان هذا « المراوغ » يملك من الحظ السعيد ما يجعل الصمود في وجهه أمراً مستحيلا · »

فقال اليهودي : « ها ! ها ! يا عزيزي · ان عليك ان تفيق في ساعة جِدّ مبكرة من الصباح لكي تغلب المراوغ · »

فقال تشارلي بايتس : « الصباح ! ان عليك ان تنتعل حذاءك العالي الساق طوال الليل ، وتزوّد كل عين من عينيك بتلسكوب ، وتضع منظاراً أوبّرا بين كتفيك اذا أردت أن تغلبه · »

وتلقى مستر داوكنز هذا المديح السخي في كثير من الفلسفة ، وأعلن أفرادَ الجماعة انه مستعد لملاعبتهم لعبة تمكّن كل من يسحب أول ورقة مصوّرة من الفوز في كل مرة بشلن واحد · ولم يقبل أحدٌ هذا التحدي · واذ كان قد استهلك ، الآن ، تبغ بيبته كله فقد راح يسلّي نفسه برسم مخطط أرضي لسجن نيو غايت على الطاولة ، بقطعة الطباشير التي كانت قد خدمته بدلا من العدّادات ، صافراً في غضون ذلك بمرح فريد ·

ــ « ما أروع الكآبة التي ترين على وجهك ، يا تومي ! » كذلك قال « المراوغ » منقطعاً عن رسمه وصفيره فجأة بعد أن ساد صمت طويل ، وموجهاً الخطاب الى مستر تشيتلينغ · « بأي شيء تحسبه يفكر ، يا فاجين ؟ »

فاجابه اليهودي ، ملتفتاً من غير أن يكف عن اعمال المنفاخ : « ومن أين لي أن أعلم ، يا عزيزي ؟ لعله يفكر في خسائره ، أو في الخلوة الريفية الصغيرة التي فارقها منذ قريب ، ايه ؟ ها ! ها ! أليس هذا صحيحاً ، يا عزيزي ؟ »

ــ « لا ، ليس فيه ذرة من الصحة ، » كذلك أجابه « المراوغ » وغيّر موضوع الحديث فجأة ، فيما كان مستر تشيتلينغ على وشك ان يجيب · « ما قولك أنت ، يا تشارلي ؟ »

فأجابه المعلم بايتس في ابتسامة عريضة : « أنــا أقــول انــه مغــرم ب « بيتسي » • انظر الى وجهه كيف يشيع الدم فيــه ! أوه ، يا آلهي ! ههنا متسكّع مرح هائم على وجهه ! تصوّرْ تومي تشيتلينغ وقد تيّمه الحب ! اوه ، يا فاجين ، هذا مضحك حقاً ! »

ولم يستطع المعلم بايتس أن يتصور مستر تشيتلينغ ضحية عواطــف رقيقة فاستبدت به نوبة من الضحك جعلته يستلقي في كرسيه في عنف عظيم أفقده توازنه فانطرح على الارض ، حيث تمدّد (من غير أن ينقص ذلك الحادث من مرحه مثقال ذرة) على طوله حتى خمدت نوبة ضحكِه ، وحيث استعاد وضعه السابق واستغرق في الضحك من جديد •

وقال اليهودي وهو يغمز مستر داوكنز وينقر المعلم بايتس نقرة تأنيبية بخطْم منفاخه : « لا تأبه لما يقول ، يا عزيزي • بيتسي فتاة رائعة • فتعلّق بها ، يا توم ! تعلّق بها ! »

فأجابه مستر تشيتلينغ وقد تضرج وجهه بالدم : « ما أريد أن أقوله ، يا فاجين ، هو أن هذا كلام لا يصدقه أحدٌ هنا • »

فقال اليهودي : « تلك هي الحقيقة بعينها • ان تشارلي فتي ثرثار • فلا تأبه لما يقول • بيتسي فتاة رائعة • افعل ما تأمرك به ، يا توم ، تصبــح ذا ثروة طائلة • »

فأجابه مستر تشيتلينغ : « واني لأفعل كل ما تؤمرني به حقاً • لقد كان خليقاً بي أن لا أدخل السجن لو تصاممت عن نصائحها • ولكن ذلــك كان في صالحك آخر الأمر ، أليس كذلك يا فاجين ! وأية قيمة لأسابيع ستة يقضيهــا المرء في السجن ؟ لقد كانت أمراً محتوماً ان لم يقع اليوم وقع غداً ، فلم لا يكون ذلك في فصل الشتاء حين يكره الواحد منا الاسراف في الانطــلاق الى الشوارع والتسكع فيها • أليس كذلك ، يا فاجين ؟ »

فأجابه اليهودي : « آه ، من غير ريب ، يا عزيزي • »

فسأله « المراوغ » غامزاً تشارلي واليهودي : « وانت لن تجد في ذلك اي بأس ، يا توم ، اذا ما حدث كرة اخرى ، وكانت « بيت » راضية عنك ؟ »

فأجابه توم مغضباً : « تماماً ، أنا أريد ان أعلن اني لن أجد في ذلــك اي بأس • ثم ماذا ؟ اني أحب ان اعرف من منكم يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف ، يا فاجين ! »

فأجابه اليهودي : « ليس فيهم من يقف مثل موقفك ذاك ، يا عزيزي • أقول لك ، يا توم ، اني لا أعرف ان فيهم من يقف مثل هذا الموقف غيرك • كن على ثقة من هذا ، يا عزيزي • »

فتابع الفتى الغِر الأبله المسكين كلامه مغضباً : « لقد كان خليقاً بي أن أنقذ نفسي لو خنتُ عهدها ، أليس كذلك يا فاجين ؟ كلمة واحدة مني كانــت

كافية لذلك ، اليس هذا صحيحاً يا فاجين ؟ »

فأجابه اليهودي : « انه صحيح من غير ريب ، يا عزيزي . »

فسأله توم ، مردفاً السؤال بالسؤال في ذلاقة لسان بالغة : « ولكنني لم أش بها ، أليس كذلك يا فاجين ؟ »

فأجابه اليهودي : « لا ، لا ، من غير ريب ، لقد كان فؤادك مفعماً بالشجاعة الى حدّ لم يسمح لك بذلك . أجل ، كان مفعماً بالشجاعة أكثر مما ينبغي ، يا عزيزي ! »

فقال توم مجيلا طرفه في ما حوله : « ربما كنت كذلك . وحتى لو صحّ هذا فهل تجد فيه ما يدعو الى الضحك ، يا فاجين ؟ »

كان اليهودي قد لاحظ ان الحنق استبدّ بمستر تشيتلينغ استبداداً غير يسير ، فراح يؤكد له ، في غير ابطاء ، ان أحداً لم يكن يضحك . ولكي يقيم الدليل على وقار الجماعة التمس شهادة المعلم بايتس ، المذنب الرئيسي . ومن أسف ان تشارلي لم يكد يفتح فمه ليقول ان الجِد لم يغلب عليه أكثر مما غلب في تلك اللحظات حتى عجز عن كبح جماح ضحكة هادرة انطلقت من بين شفتيه ، فاذا بمستر تشيتلينغ المضطهد يندفع عبر الحجرة ، على نحو مباغت بالكلّية ، ويسدّد لكمة الى المجرم . ولكن هذا الاخير ، وكان بارعاً في فن التملص ، حتى رأسه ليجتنبها . والواقع انه اختار أنسب اللحظات المساعدة على تحقيق غايته تلك فاستقرت اللكمة على صدر العجوز المرح فارتدّ مترنّحاً حتى الجدار ، حيث وقف لاهثاً لهاثاً شديداً ، فيما كان مستر تشيتلينغ يرى الى هذا المشهد في ذعر شديد .

فصاح « المراوغ » في تلك اللحظة : « هش ! لقد سمعت صوت الجرس . » وأمسك بالشمعة ورفعها عالياً ، ثم انسلّ مرتقياً السلم في رفق .

وقُرع الجرس كرة اخرى ، في شيء من نفاد الصبر ، فيما كانت الجماعة في غمرة من الظلام . وبعد فترة قصيرة ، رجع « المراوغ » ، وهمس في اذن اليهودي في سرّية بالغة .

فصاح اليهودي : « ماذا ! وحده ؟ »

وهزّ « المراوغ » رأسه أن نعم . ثم ظلل ضوء الشمعة بيده ، وألمع الى تشارلي بايتس الماعة خصوصية ، من طريق الايماء الأبكم ، أن من الخير له ان يكفّ عن المزاح الآن على الاقل . حتى اذا أدّى هذه المهمة الودية ركّز عينيه على وجه اليهودي ، وانتظر أوامره وتعليماته .

وعض العجوز أصابعه الصفر واستغرق في التفكير بضع لحظات . كان وجهه يرتعد ، من جراء الاهتياج ، على نحو موصول ، وكأنه خشي شيئاً وخاف أن يعرف الأسوأ . وأخيراً رفع رأسه وسأل : « أين هو ؟ »

فأشار « المراوغ » الى الطابق العلوي ، وأومأ ايماءة تساءل بها ، في ما

يبدو ، هل في استطاعته أن يغادر الحجرة ٠

فقال اليهودي ، جواباً على السؤال الأبكم : « نعم ، انزله الى هنا ٠ هش ، الزم الهدوء يا تشارلي ! برفق ، يا توم ! اذْهبا ! اذْهبا ! »

وسرعان ما نُفِّذ هذا الامر الموجه الى تشارلي بايتس والى خصمه السابق ، في هدوء بالغ ٠ ولم يكن ثمة ايما صوت ينمّ عن مكانهما عندما هبط « المراوغ » السلم ، حاملا الشمعة في يده ، يتبعه رجل مُرتد قميصاً قطنياً فضفاضاً خشناً ٠٠٠ رجلٌ لم يكد يلقي نظرة عجلى حول الحجرة حتى نزع شالا ضخماً كان يخفي الجزء الادنى من وجهه ، كاشفاً عن ملامح شاحبة ، وسخة ، غير محلوقة ٠٠٠ هي ملامح توبي كراكيت بالذات ٠

وقال هذا الفاضل وهو ينحني احتراماً لليهودي : « كيف حالك ، يا فاجي ؟ أرهُنْ ، أيها « المراوغ » هذا الشال في قبعتي المصنوعة من جلد السمُّور ، لكي أعرف اين اجده حين أغيب ٠ هذا رائع ! سوف تصبح لصاً صغيراً حاذقاً ، ولسوف تتفوق على الماكر العجوز في يوم من الايام ٠ »

قال هذا ورفع ذيل قميصه القطني الفضفاض ، وعقده حول خصره ، ثم استوى في كرسي على مقربة من النار ، ووضع قدميه على رف الموقد ٠

ــ « انظر ، يا فاجي ، » كذلك قال وهو يشير في اكتئاب الى حذائه العالي الساق ٠ « انه لم يذق قطرة واحدة من دهن التلميع منذ اليوم الذي تعرف ، ولم يعرف ذرة من الصقل، وحق الرب! ولكنْ لا تنظر اليّ هكذا ، أيها الرجل. لكل شيء أوانه ٠ أنا لا أستطيع أن أتحدث عن شؤون العمل الا بعد أن آكل وأشرب ٠ أيتني ، اذن ، بالغداء ، ودعني املأ معدتي بالطعام٠، في كثير من الهدوء ، للمرة الأولى خلال هذه الايام الثلاثة ٠ »

وأومأ اليهودي الى « المراوغ » بأن يضع على المائدة ما لديه من أشياء صالحة للأكل ، وقعد قبالة سارق البيوت ، وانتظره حتى يفرغ ٠

ولم يكن توبي ــ على ما يُستفاد من المظاهر كلها ــ راغباً في استهلال الحديث على جناح السرعة ٠ واجتزأ اليهودي بادىء الأمر بتأمُّل وجهه ، وكأنه أراد أن يستطلع من انطباعاته ماهيّة النبأ الذي كان يحمله ٠ ولكن محاولته تلك كانت عبثاً لا طائل تحته ٠ لقد بدا متعباً منهوك القوى ، ولكن ملامحه آتّسمت بتلك الرصانة اللطيفة التي غلبت عليها دائماً ٠ ومن خلال الوسخ ، واللحية ، والسالفين اشرقت ابتسامة توبي كراكيت ، المرح ، المعهودة الراضية نفسُها ، سليمة لم تُصَب بأذى ٠ عندئذ أخذ اليهودي ، وقد مزقه نفاد الصبر ، يراقب كل لقمة اقحمها فمَهُ ، وهو يذرع الحجرة في غضون ذلك جيئة وذهوباً باهتياج ممتنع على الكبح ٠ ولكن ذلك كله لم يجده شيئاً ، فقد واصل توبي الأكل في لامبالاة كليّة ظاهرة حتى اتّخِم ٠ وعندئذ أمر « المراوغ » بمغادرة الحجرة ، وأوصد الباب ، ومزج شيئاً من الماء والخمر ، وتأهب للكلام ٠

وقال توبي : « قبل كل شيء يا فاجي ٠٠٠ »
فقاطعه اليهودي وهو يُدني كرسيه : « أجل ! أجل ! »
وكفّ مستر كراكيت عن الكلام ليأخذ جرعة من الخمر ، وليعلن ان ال « جن » كان ممتازاً ٠ ثم أسند قدميه الى رف المدفأة الخفيض ، بحيث رفع حذاءه الى مستوى عينيه ، واستأنف حديثه في هدوء :
ــ « قبل كل شيء ، يا فاجي ، كيف بيل ؟ »
فصاح اليهودي واثباً من كرسيه : « ماذا ؟ »
وقال توبي وقد ران الشحوب على وجهه : « ولكنك لا تقصد ان تقول٠٠٠ »
ــ « ان اقول مــاذا ؟ » كذلك صاح اليهودي وهو يضرب الارض بقدمه في ضراوة ٠« أين هما ؟ سايكس والغلام ؟ أين هما ؟ أين كانا ؟ أين يختبئان ؟ لماذا لم يرجعا الى هنا ؟ »
فقال توبي في وهن : « لقد أخفقت عملية السطو ٠ »
فأجابه اليهودي ، وهو ينتزع من جيبه جريدة ويشير اليها : « أنا أعرف ذلك ٠ وماذا بعد ؟ »
ــ « لقد أطلقوا النار فأصابوا الغلام ٠ واجتزنا الحقول الواقعة خلــف البيت ، وهو يجري بيننا ــ في خط مستقيم ــ عبر الوشائع والحُفَر ٠ لقــد تعقّبونا ٠ يا للشيطان ! واستفاق أهــل المنطقــة كلهم ، وأطلقــوا الكلاب في أعقابنا ٠ »
ــ « والغلام ؟ »
ــ « لقد حمله بيل على ظهره ، وانطلق انطلاق الريح ٠ ووقفنا لكي نحمله بين كتفينا نحن الاثنين ، وكان رأسه متدلياً ، وكان جسده كله بارداً ٠ وكان المطاردون قد اقتربوا منا ، كلٌ لمصلحته الشخصية ، وكلٌ من أجل المشنقة ! وانفصلت عن بيل ، وتركنا الغلام ملقى في حفرة ٠ أهو حيّ أم ميت ؟ ذلك ما لا أدريه ٠ »
ولم ينتظر اليهودي لكي يسمع شيئاً أضافياً ٠ بل اطلق صيحة مدوّية ، وراح يشد شعره بيديه ، ثم اندفع كالمجنون مغادراً الحجرة والبيت جميعاً ٠

الفصــــل السادس والعشرون
وفيه تظهر عــلى المسرح شخصيــــــة تكتنفــها الاسرار ، وتـــتم أشيــاء وتنجز أعمال ذات صـــلة وثيقــة بهــذه القصة ٠

كان الرجل العجوز قد بلغ زاوية الشارع قبل أن يشرع في التحرر من الاثر الذي خلّفه في نفسه حديث توبي كراكيت ٠ ولم يكن قد خفف سرعته الاستثنائية البتة ، بل كان يواصل اندفاعه ، على النحو المجنون المضطــرب

نفسه ، عندما مرّت به ــ فجأة ــ عربة منطلقه بأقصى سرعتها · ورأى المشاة الخطر المحدق به ، فأرسلوا صيحة صاخبة ردّته الى الرصيف · لقد اجتنب ، جهد طاقته ، الشوارع الرئيسية ، وراح ينسلّ خلال الازقة والطرق الفرعية ليس غير ، فانتهي آخر الامر الى « سنو هيل » · وهنا أغذّ السير ، في خطى أوسع حتى من خطواته السابقة ، ولم يتمهل الا بعد ان انعطف نحو زقاق ضيق · لكأنه استشعر أنه أمسى الآن في بيئته الذاتية ، فعاود السير بخطاه المتثاقلة المألوفة ، وبدا وكأنه يتنفس في حرية أعظم ·

وعلى مقربة من البقعة التي يلتقي عندها « سنو هيل » و « هولبورن هيل » يمتد على يمينك وأنت خارج من لندن زقاق ضيق موحش يفضي الى « صافرون هيل » · هناك في الدكاكين القذرة تعرض للبيع رزم ضخمة من المناديل الحريرية المستعملة من مختلف القياسات والأنماط · فثمة كان يقيم التجار الذين يشترونها من النشالين · كانت مئات من هذه المناديل تتدلى من أوتاد قائمة خارج الواجهات أو تعْرض في وقاحة على جوانب الابواب ، وكانت مئات اخرى مكدّسة على الرفوف في داخل الدكاكين · وعلى الرغم من ضيق مساحة « فيلد لين » فقد كان له حلاقُه ، ومقهاه ، وحانتُه ، ودكانه الخاص ببيع السمك المقلوّ · انه مستعمرة تجارية مستقلة بذاتها ، وبكلمة اخرى سوقٌ للسلع الصغيرة المسروقة يقصدها في الصباح الباكر وعند هبوط العتمة تجار صامتون يبيعون ويشترون في حجرات خلفية مظلمة ، وينصرفون على نحو مريب كما أقبلوا · هنا يعرض بائع الاقمشة ، والاسكاف ، وتاجر الخرق بضائعهم لكي يلفتوا انتباه اللصوص الصغار · وهنا كانت أكداس من الحديد العتيق والعظام العتيقة ، وأكوام من مِزق المنسوجات الصوفية والكتانية العفِنة تصدأ وتفسُدُ في الأقبية القذرة ·

الى هذا الموطن انعطف اليهودي · ولقد كان معروفاً لدى قاطني ذلك الزقاق الشاحبي الوجوه ، بدليل ان كثيراً من أولئك القاطنين المترصدين لكل بائع أو مشتر حنوا رؤوسهم تحية له ، في ألفة ، عندما مرّ بهم ، فردّ لهم تحياتهم بمثلها ، ولكنه لم يَجُدْ بمزيد من آيات المجاملة الدالّة على معرفة أوثق الا عندما بلغ الطرف الأقصى من الزقاق ، حيث وقف ليخاطب تاجراً قصير القامة كان قد حشر من جسمه في كرسيّ أطفال كل ما استطاع الكرسي أن يستوعبه ، وكان يدخن البيبة عند باب دكانه ·

ــ « الواقع ان رؤيتك ، يا مستر فاجين ، لتشفي الرمد ! » كذلك أجاب هذا التاجر الجليل على سبيل ازجاء الشكر لليهودي الذي سأله عن صحته ·

فقال فاجين رافعاً عينيه ، ومصالباً يديه على كتفيه : « لقد كان الجو في حيكم حاراً أكثر مما ينبغي بعض الشيء ، يا لايفلي · »

فأجاب التاجر : « حسناً ، لقد سمعت هذه الشكوى من الجو مرة أو

مرتين من قبل · ولكنه سرعان ما يأخذ في الطراوة · ألست تجده كذلك ؟ »

وهزّ فاجين رأسه أن نعم · ثم انه أشار الى ناحية « صافرون هيـــل » وتساءل ما اذا كان أحد مستيقظا ، هناك ، الليلة ·

فسأله الرجل : « في حانة المُقْعدين ؟ »

فهزّ اليهودي رأسه بالايجاب ·

فتابع الرجل ، متفكراً : « دعني أرى · أجل ، لقد دخل نصف دزينـة منهم تقريباً · هذا ما أعرفه · أنا لا أظن ان صاحبك هناك · »

فسأله اليهودي مكفهر الوجه : « وسايكس ليس هناك ، في ما أظن ؟ »

— « مجهول محل الاقامة ، كما يقول المحامون » هكذا أجاب الرجل القصير ، هازاً رأسه ، وقد بدت أمارات المكر على وجهه الى حدّ مذهل · هل عنـــدك ، الليلة ، شيء من الاصناف التي اشتغل بها ؟ »

فأجابه اليهودي وهو يعرض وينـأى بجانبـه : « لا ، ليس عندي شيء الليـــلة · »

فصاح الرجل القصير ، منادياً اياه : « أذاهب أنت الى « حانة المُقْعدين » ، يا فاجين ؟ قف ، اني لا اعترض على ترطيب جوفي بقطرة من الخمر أشربها معك ! »

ولكن اليهودي لوّح بيده ، وهو يلتفت الى الوراء ، وكأنه يقول انه يؤثر الذهاب وحده · واذْ عجز الرجل القصير ، فوق ذلك ، عن التملص من كرسيه في كثير من اليُسْر فقد حُرِمت لافتة « حانة المُقْعدين » ، مؤقتاً ، من تشريف مستر لايفلي · وما ان نهض على قدميه ، حتي كان اليهودي قد توارى عن النظر · وهكذا ، بعد أن وقف على رؤوس أصابعه في غير ما عَناء ، رجاة أن يُدركـــه ببصره عاود اقحام نفسه في الكرسي الصغير ، ثم تبادل هزّة رأس مع سيدة في الدكان المقابل — هزة رأس امتزج فيها الشك وسوء الظن امتزاجاً واضحاً — واستأنف تدخين بيبته في سيِما كئيبة ·

وكانت حانة « المقعدين الثلاثة » ، أو بالأحرى « حانة المقعدين » — وهـو الاسم الذي اشتهرت به تلك المؤسسة عند زبائنها — هي الحانة التيسبق لنا أن رأينا فيها مستر سايكس وكلبه · وتقدّم فاجين نحو السلّم مباشرة ، مجتزئاً بايماءة وجّهها الى المشربي* ، ثم فتح باب احدى الحجرات ، وتسلّل اليها ، وراح يجيل طرفه في ارجائها ، مظللا ناظريه بيده ، وكأنه يبحث عن شخص بعَيْنِـهِ ·

كانت الحجرة مضاءة بمصباحين من مصابيح الغاز · وكانت المصاريـــع المدعّمة بمزاليج ، والستائر الحمراء الناصلة المُسْدلة اسدالا محكماً ، تحول دون تسرّب ذلك الضوء الى الخارج فليس في ميسور أحد ان يراه من هناك · وكان السقف قد دُهن بلون أسود لكي يصان من التلوث بلهب المصابيـــح · وكان المكان مفعماً بدخان تبغ كثيف الى درجة تجعل الرائي لا يكاد يتبيّن ، بادىء

* أي رجل المشرب ، أو « البارمان »

الأمر ، أيما شيء آخر • حتى اذا تسرّب بعض ذلك الدخان من خلال البــــاب المفتوح ، أمسى في امكانه ، شيئاً بعد شيء ، ان يلمح مجموعة من الرؤوس ، مختلطة اختلاط الاصوات التي تستقبل اذنيه • وبعد ان تألف العين ذلك المشهد ألفة أكبر يصبح في ميسور الرائي ان يعي ، على نحو تدريجي ، وجود جماعة من الذكور والأناث تحلّقت حول مائدة طويلة ، جلس عند أقصاها الاعلى رئيس يحمل في يده مطرقة لحفظ النظام ، بينا كان فنان ذو انف ضارب الى الزرقة ، ووجه معصوب اكراماً لألم ضرس ، جالساً الى بيان مُجلْجِل في زاوية قصيّة •

ولم يكد فاجين يطأ أرض الحجرة في رفق حتى أمر الفنان أصابعه على مفاتيح البيان ، على سبيل الاستهلال ، وأطلق صيحة نظام عامة ايذاناً بأن أغنية سوف تُنْشَد • حتى اذا خمدت تلك الصيحـــة شرعت سيدة غضة الاهاب تطرب الجماعة بأغنية قصصية ذات أربعة مقاطع ، كان مُصاحبها على البيان يعزف ، بين المقطع والمقطع ، اللحن من أوله الى آخره ، وبأعلى نبرة وُفّق اليها • وحين تمّ ذلك شرب الرئيس نخباً تطوّع الفنانون الجالسون الى يمين الرئيس وشماله لغناء انشودة من ذلك الضرب الذي ينشده فريقان ، ولقد فعلا ذلك بنجاح كبـــير •

وكان من الطريف ان يلاحظ المرء بعض تلك الوجوه التي برزت على نحو يلفت النظر بين تلك الجماعة • كان ثمة الرئيس نفسه (صاحب المؤسسة) وهو رجل ضخم الجثة جلْفٌ خشنٌ كان يدير عينيه ، خلال الغناء ، ههنا وهناك • وعلى الرغم من استسلامه الظاهريّ للهو والمرح فقد كانت عينـــه تراقـــب كل ما يُصْنَع ، وأذنه تتلقّف كل ما يقال ـ وعلى نحو ثاقب ومرهف أيضاً • وعلى مقربة منه كان المغنون ، الذين كانوا يتلقّون في لامبالاة حِرفية آيات الاعجاب التي أغدقتها الجماعة عليهم ، وينكبّون ـ كل بدوره ـ على دزينة من كـؤوس الخمر قدّمها اليهم أشدّ المعجبين بهم صخباً ، أولئك الذين كانت أساريرهم تنم عن كل رذيلة تقريباً ، في كل درجة من درجاتها تقريباً ، فهي تلفت النظر على نحو لا يقاوم ، بمظهرها المنفّر نفسه • كان المكر ، والشراسة ، والثّمـــل ماثلة هناك ، بمختلف مراحلها ، وفي أقوى مظاهرها • وكانت النسوة ـ وبعضهن لا يزلن يتمتعن بآخر أثرٍ متلبّث من آثار نضارتهن الأولى ، وهو أثر يكاد يتلاشى حالما تقع عليه العين ، وبعضهن مُحِيَت من وجوههن كل أمارات جنسهن محواً كاملا فهن لا يُبْدين غير فراغ كريه من الفسوق والجريمة ، وبعضهن مجـــرد فتيات ، وبعضهن مجرد نساء صغيرات ، وكلهن لم يتجاوزن ربيع الحياة ـ أقول ان هاته النسوة كنّ يشكّلن أشد أجزاء هذه الصورة الكئيبة قتاماً وأدعاها الى الرثاء •

ونقّل فاجين ، غير المُزْعَج بأيّ انفعال جدّي ، طرْفه في لهفة من وجه الى وجه فيما كانت تلك الاعمال قائمة على قدم وساق ، ولكن من غير أن يعثر

ـ في ما يبدو ـ على مَنْ كان يبحث عنه • حتى اذا وفّق آخر الأمر الى لفت انتباه الرجل المستوي في كرسي الرئاسة اومأ اليه ايماءة طفيفة ، وغادر الحجرة بمثل الهدوء الذي غلب عليه عند دخولها •

وسأله الرجل وهو يتبعه الى مُنْبَسط السلم : « هل إستطيع ان أقدم اليك خدمة ما ، يا مستر فاجين ؟ ألن تنضمّ الينا ؟ ان ذلك سوف يبهجهم ، سوف يُبهج كل واحد منهم • »

وهز اليهودي رأسه في نفاد صبر ، وقال هامساً : « أهُو هنا ؟ »

فأجابه الرجل : « لا • »

فسأله اليهودي : « وليس ثمة أنباء عن بارني ؟ »

فأجاب صاحب « حانة المقعدين » ، اذ كان المتحدث هو صاحبها : « على الاطلاق • انه لن يتحرك حتى يزول كل أثر للخطر • وفي استطاعتك أن تثق انهم يتعقبونه في غير هوادة ، وانه اذا تحرك فلا بد أن يبوح بالسرّ في الحال • لا داعي للقلق عليه ، على بارني أعني ، والا لجاءتني عنه بعض الانباء • في استطاعتي أن أؤكد لك ان بارني يتصرف تصرّفاً حسناً • ومن أجل ذلك نستطيع ان ندعه وشأنه • »

ـ « هل سيجيء الى هنا الليلة ؟ » كذلك سأله اليهودي ، واضعاً على الضمير توكيداً مماثلا للذي وضعه عليه من قبل •

فسأله صاحب الحانة ، في تردد : « انت تعني مونكس ، أليس كذلك ؟ »

فقال اليهودي : « هش ! أجل ! »

فأجابه الرجل وهو يسحب من جيب صدرته ساعة ذهبية : « من غير شك • لقد توقعت أن يجيء منذ فترة • واذا انتظرت عشر دقائق فسوف ••• »

ـ « لا ، لا ، » كذلك قال اليهودي متعجلا • وكأنه ، على الرغم من رغبته البالغة في رؤية الرجلِ موضوعِ الحديث ، قد اطمأن لغيابه وارتاح • « قل له اني جئت الى هنا لأراه ، وان عليه ان يهبط عليّ الليلة • لا ، قل له ان يفد عليّ غداً • ان ذلك سوف يتيح له وقتاً كافياً ، ما دام غير موجود هنا • »

فقال الرجل : « حسن • هل هناك شيء آخر ؟ »

فأجابه اليهودي ، وهو يهبط السلم : « هذا كل شيء في الوقت الحاضر • »

فقال الآخر ، مطلا من وراء الدرابزون ، ومتكلماً في همس اجشّ : « أقول ما أنسبه من وقت للمكر والخديعة • ان عندي « فيل باركر » • وهو ثملٌ بحيث يستطيع غلام أن يتغلب عليه • »

فقال اليهودي رافعاً بصره : « آها ! ولكن ساعة « فيل » لم تحن بعد • فلا تزال ثمة أشياء يتعيّن على « فيل » ان يؤديها قبل أن يكون في وسعنا أن نتخلى عنه • فارجع الى الجماعة ، يا عزيزي ، وقل لهم ان يحيوا حياة مرحة ••• ما

داموا على قيد الحياة . ها ! ها ! ها ! »

وشاركه صاحب الحانة ضحكته ، وانقلب الى ضيوفه . وما ان خلّف اليهودي وحيداً حتى استعاد وجهه سيماه السابقة الراشحة بالقلق والتفكير. وبعد لحظة من التردد استدعى عربة أجرة وأمر الحوذي بأن يقوده الى « بيثنال غرين » . ثم انه صرفه عندما أمسى على مبعدة ربع ميل تقريباً من مقر مستر سايكس ، واجتاز المسافة القصيرة الباقية سيراً على القدمين .

وغمغم اليهودي وهو يقرع الباب : « والآن ، اذا كان وراء المسألة اي سرّ دفين ، فسوف انتزعه منك ، يا فتاتي ، على الرغم من مكرك كله ! »

وقالت له امرأة ان نانسي في حجرتها . فارتقى فاجين السلم في خطى محترسة ، ودخل في غير استئذان . كانت الفتاة وحدها ، وكان رأسها مُسنَداً الى الطاولة ، وقد غطّاه شعرها الأشعث .

وقال اليهودي لنفسه في برود : « كانت تشرب الخمر ، أو لعلها تستشعر الغمّ والشقاء ليس غير . »

وفيما كان الرجل العجوز يفكر في ذلك استدار لكي يوصد الباب ، فأدّت الصجة التي أحدثها الى ايقاظ الفتاة . وحدّقت النظر الى وجهه الماكر ، متساءلة عما يحمل من أنباء ، ومصغية الى روايته لقصة توبي كراكيت . حتى اذا انتهى الى خاتمتها اتخذت وضعها السابق كرة اخرى ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة . لقد دفعت الشمعة جانباً ، في نفاد صبر ، ومرة أو مرتين غيرت جلستها تغييراً محموماً ، وعدّلت وضع قدميها على الارض ، ولكنها لم تذهب الى أبعد من ذلك .

وخلال فترة الصمت أجال اليهودي بصره في الحجرة على نحو قلق ، وكأنه يريد أن يستيقن من انعدام ايما دليل يشير الى ان سايكس قد عاد خلسة . حتى اذا ارتاح ، ظاهرياً ، لنتائج استطلاعه سعل مثنى وثلاث ، وبذل محاولات عديدة للخوض في حديث ما . ولكن الفتاة لم توليه من الانتباه أكثر مما كان خليقاً بها أن توليه منه لو انها كانت مقدودة من صخر . وأخيراً بذل محاولة اخرى ، وفرك يديه وقال في نبرة تفيض بالاسترضاء :

ـ « وأين بيل الآن ، في ما تظنين ، يا عزيزتي ؟ »

وأنّت الفتاة مجيبة بكلام لا يكاد يُفهم أرادت أن تقول به انها لا تدري . وبدا ، من الاصوات المخنوقة التي عجزت عن كبحها ، أنها كانت تبكي .

وقال اليهودي ، مُجهداً عينيه لكي يلمح وجهها : « والغلام أيضاً . يا له من غلام صغير مسكين ! لقد تُرك في حفرة ، يا نانسْ ! حَسْبك أن تفكري في ذلك ! »

فقالت الفتاة وهي ترفع بصرها فجأة : « الطفل ؟ لأن يكون حيث هو خيرٌ له من أن يكون بيننا . واذا لم يَعُدْ ذلك على « بيل » بأي أذى فأني أرجو أن يكون الآن ميتاً في تلك الحفرة ، وأن تفنى عظامه الطرية هناك . »

فصاح اليهودي في انشداه : « ماذا ؟ »

فأجابت الفتاة وهي تنظر اليه في وجهه : « أجل ، انا أعني ما أقول · اني لأتمنى أن لا تقع عيناي عليه بعد اليوم ، وأن أعلم انه نجا مما هو اسوأ · أنا لا أطيق أن أراه من حولي · فمجرد النظر اليه يثير نقمتي على نفسي ، وعليكم جميعاً · »

— « بوه ! » كذلك قال اليهودي في ازدراء : « أنت نشوى ! »

فصاحت الفتاة في مرارة : « أأنا نشوى حقاً ؟ وعلى أية حال ، فليس الذنب ذنبك ان لم أكن نشوى ! ولو تُرك الأمر لك لما رضيت لي حالا غير هذه الحال ··· الا هذه الليلة · ان المزاج المرح لا يلائمك هذه الليلة ، أليس كذلك ؟ »

فأجابها اليهودي في ضراوة : « لا · انه لا يلائمني · »

فقالت الفتاة ، وهي ترسل ضحكة : « غيِّره ، اذن ! »

فصاح اليهودي وقد غاظه عنادُ رفيقته غير المتوقع ، ومضايقاتُ تلك الليلة غيظاً تجاوز كل حد : « تريدين أن أغيِّره ؟ سوف أعمد الى تغييره فعلا ! أصغي اليّ ، أيتها البغي ! اصغي اليّ أنا ، اذ في استطاعتي بستٍ كلمات ليس غير أن أسوق سايكس الى المشنقة سوقاً لا ريب فيه وكأنني أمسك الآن بأصابعي هذه حنجرته الشبيهة بحناجر الثيران · لو رجع سايكس ، وخلّف الغلام وراءه ··· لو نجا بنفسه ولم يردّ اليّ الغلام حياً كان أو ميتاً فاقتليه بنفسك · اذا كنت راغبة في أن لا تريْ وجه المشنقة · وافعلي ذلك حالما تطأ قدماه هذه الحجرة ، والا — أسامعة أنت ؟ — يكون الأوان قد فات ! »

فصاحت الفتاة على نحو غير ارادي : « ماذا تعني بهذا كله ؟ »

فتابع فاجين وقد ذهب الغيظ بصوابه : « ماذا أعني بهذا كله ؟ حين يساوي الغلام ، عندي ، مئات من الجنيهات فهل تنتظرين مني أن أخسر ما أتاحت لي المصادفة امكانية ربحه ، بسبب من أهواء عصابة من السكيرين أستطيع أن أقضي على حياة كل فرد من أفرادها في غير ما عناء ؟! أنا ، أنا المُوثَق الى عفريت نفريت يملك جميع الوسائل ، ولا تنقصه غير الارادة ، التي تؤدي الى ··· الى ··· »

وتلعثم العجوز ، لاهثاً ، فيما كان يبحث عن كلمة · وفي تلك اللحظة كبَحَ جماح غيظه وغيَّر مسلكه تغييراً كاملا · قبل لحظة ، كانت أصابعه المتشنجة تقبض على الهواء ، وكانت عيناه قد اتّسعتا ، وكان وجهه قد شحب من اثر الانفعال · أما الآن ، فقد انكمش في كرسي ، وتجمَّع على نفسه ، وانشأ يرتعد خشية ان يكون هو نفسه قد كشف عن سرّ لعين · وبعد صمت قصير ، غامر بالالتفات الى رفيقته · وعاودته الطمأنينة ، بعض الشيء ، في ما يبدو ، عندما رأى أنها لا تزال مستسلمة لبلادتها التي حاول ايقاظها منها بادىء الامر ·

ونعب اليهودي بصوته المألوف : « يا عزيزتي نانسي ! هل كنت تصغين الي ، يا عزيزتي ؟ »

– « دعني وشأني الآن ، يا فاجين ! » كذلك أجابت الفتاة ، رافعة رأسها في وهن . « اذا كان التوفيق قد خان « بيل » هذه المرة فلا ريب في أنه سيحالفه في مرة قادمة . لقد أدّى لك حتى الآن خدمات كثيرة ، ولسوف يؤدي لك خدمات كثيرة اخرى حين يقدر على ذلك . فأن لم يقدر لم يفعل . فلنكف ، اذن ، عن الخوض في هذا الموضوع . »

فقال اليهودي وهو يفرك راحتيه في عصبية : « في موضوع هذا الغلام ، يا عزيزتي ؟ »

فقاطعته نانسي متعجّلة : « على الغلام أن يتعرض للاخطار مع الآخرين . وكرة اخرى أقول اني لأرجو أن يكون قد مات ، وان يكون قد تنكّب طريق الاذى ، وطريقك أيضاً ... أعني اذا لم يُصْب « بيل » بأيّ أذى . واذا كان توبي قد نجا بنفسه فلا ريب في ان « بيل » في أمان . لأن « بيل » يساوي على أية حال اثنين من مثل توبي . »

فلاحظ اليهودي ، مركّزاً عينيه الملتمعتين على وجهها : « وفي ما يتصل بالذي كنت أقوله لك ، يا عزيزتي ؟ »

فأجابت نانسي : « يتعين عليك أن تعيد ما قلته من أوله الى آخره ، اذا كان ثمة ما تريد أن تكلفني القيام به . وفي مثل هذه الحال يكون من الخير لك أن تنتظر حتى غد . لقد أثرت غضبي لحظة . ولكني عدتُ الآن الى خبَلي . »

وطرح فاجين عدة اسئلة اخرى ، وكلها تهدف الى غرض واحد ، هو التأكد من أن الفتاة انتفعت بتلميحاته غير المتحفظة . ولكنها أجابت عن تلك الاسئلة في غير تردد ، وكانت برغم ذلك كله ممتنعة على التأثر بنظراته الفاحصة، الى درجة أكدّت انطباعته السابقة ، وهي أنها كانت نشوى على نحو مغالى فيه . والواقع ان نانسي لم تكن مبرّأة من نقيصة جدّ متفشّية بين تلميذات اليهودي العجوز ، وهي نقيصة كُنّ يشجّعْن عليها ، في سنواتهن الأشدّ غضارة ، بدلا من أن يُنْهَيْن عنها . كان مظهرها الاشعث ، وروائح عطر جنيف القوية الفائحة في الحجرة ، تزكّي نظرية اليهودي وتؤيدها . حتى اذا هدأت – بعد تلك الثورة المؤقتة التي عصفت بها – واستسلمت للفتور ، ثم لمزيج من المشاعر دفعتها حيناً الى سفح الدموع ، وحيناً الى اطلاق هتافات مختلفة من مثل « لا تقنط ! » وغيرها من العبارات التي تعني : أية أهمية لهذا أو ذاك ما دامت المرأة ، أو الرجل ، سعيدة ... أقول حتى اذا تم لها ذلك أدرك مستر فاجين في رضا بالغ ، وكان قد خبر هذه الامور في زمانه خبرة واسعة ، ان السكر كان قد تعتعها فعلا .

وبعد أن أراح باله بهذا الاكتشاف ، وأتمّ أداء رسالته الأخيرة – اعني

ابلاغ الفتاة ما كان قد سمعه تلك الليلة . والمتيقن بعيني رأسه أن سايكس لم يعد – وجه مستر فاجين وجهه نحو البيت كرة اخرى . تاركا صديقته الصغيرة مستسلمة للرقاد . ورأسها منكّس فوق الطاولة .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . واذ كان الجو غائماً والبرد لاذعا فلم يجد ما يغريه بالتلكؤ والتباطؤ . كانت الريح التي زادت الشوارع قد أخلتها من السابلة . كما أخلتها من الغبار والوحل ، اذ لم يكن ثمة غير نفر قليل من الناس ، وكانوا كلهم ، في ما يبدو ، يستعجلون العودة الى بيوتهم . بيد أنها هبّت من الناحية الملائمة ، بالنسبة الى اليهودي ، فمضى في سبيله تدفعه الريح من خلاف . مرتعدا مرتجفاً كلما سافنه عَصفةٌ منها جديدةٌ نحو غايته .

وكان قد بلغ زاوية الشارع الذي يقع فيه بيته ، وكان قد شرع يبحث في جيبه عن مفتاح الباب الخارجي ، عندما انبثق من مدخل ناتيء قائم في ظل كثيف وجهٌ قاتم ، وعبر الطريق وانسلّ نحوه خلسة .

وهمس في أذنه صوت : « فاجين ! »

– « آه ! » كذلك قال اليهودي وهو يستدير في سرعة : « أهذا ... »

فقاطعه الغريب : « نعم ! لقد سلخت هاتين الساعتين وأنا أتسكع هنا . أين كنت أنت ، بحق الشيطان ؟ »

– « كنت منهمكاً في أشغالك ، يا عزيزي » ، هكذا أجاب اليهودي ، وهو ينظر الى رفيقه في شيء من قلق ، ويخفف من سرعة خطوه في أثناء الكلام . « كنت منهمكا في أشغالك طوال الليل . »

فقال الغريب في سخرية : « أوه ، طبعاً ! حسناً ، وعمّ أسفر نشاطك ؟ »

فقال اليهودي : « لم يسفر عن أي شيء حسن . »

– « وعن لا شيء رديء ، في ما أرجو ؟ » كذلك قال الغريب ، وهو يكفّ فجأة عن السير ، ويلقي على رفيقه نظرة جازعة .

فهز اليهودي رأسه ، وكان على وشك أن يتكلم ، عندما قاطعه الغريب وأوما الى البيت الذي كانا الآن قد بلغاه ، قائلا ان من الخير له أن يقول ما يريد ان يقوله تحت سقف المنزل ، لأن دمه كان قد تجمّد بسبب من وقوفه هناك ، في مهبّ الريح ، فترة طويلة .

وبدا فاجين وكأنه راغب في الاعتذار عن الترحيب في بيته بأيما زائر يفِدُ اليه في تلك الساعة غير الملائمة . ولقد غمغم ، في الحق ، بكلام ما عن خلوّ بيته من النار . ولكن رفيقه كرر طلبه على نحو حاسم ، فاضطر الى فتح الباب ، وسأله ان يغلقه خلفه في رفق ، ريثما يلتمس هو شمعة .

فقال الرجل وهو يتلمّس طريقه متقدماً بضع خطوات ليس غير : « هذه ظلمة أشبه بظلمة القبر . عجّلْ ! »

ـ « اغلق الباب ! » كذلك همس فاجين من أقصى الرواق • وفيما هـو يتحدث انغلق الباب محدثاً ضجة مدوّية •

فقال الرجل الآخر متلمّساً طريقه تلمّساً : « هذه ليست غلطتي • لقد صفقته الريح ، أو أنه انغلق من تلقاء ذاته ، ولا ثالث لهذين الاحتمالين • أيت بالشمعة على عجل ، والا تحطم رأسي نتيجة للارتطام بشيء ما في هـذا الجُحر اللعين • »

وهبط فاجين سلم المطبخ خلسة • وبعد صمت وجيز ، عاد حاملا شمعة مضاءة ، وأعلن ان توبي كراكيت يرقد تحت ، في الحجرة الخلفية ، وان الغلمان يرقدون في الحجرة الأمامية • ثم أنه أشار الى الرجل بأن يتبعه ، وارتقى السلم الى فوق •

وقال اليهودي وهو يفتح باباً في الـدور الأول : « في استطاعتـــنا ، يا عزيزي ، أن نقول هنا تلك الكلمات القليلة التي نرغب في قولها • ولما كانت مصاريع النوافذ ملأى بالثقوب ، ولما كنا نحاذر دائماً أن يرى جيراننا اي ضوء من أضوائنا فسوف نضع الشمعة على السلم • »

نطق اليهودي بهـذه الكلمات وانحنى ، ووضع الشمعة فوق جزء مرتفـع من أجزاء السلم • تجاه باب الحجرة مباشرة • حتى اذا تم له ذلك تقدّم رفيقُه الى تلك الحجرة التي كانت عاطلة من الاثاث ، باستثناء كرسي محطم ذي ذراعين ، وأريكة أو مُتكأ عتيق لا غطاء له قائم خلف الباب • على قطعة الاثاث هذه جلس الغريب جلسة الرجل المرهق ، في حين وضع اليهودي الكرسي ذا الذراعـين قبالتَه ، فجلسا وجهاً لوجه • لم يكن الظلام دامساً • وكان الباب مفتوحاً على نحو جزئيّ • وألقت الشمعة التي في الخارج ظلا ضعيفاً على الجدار المقابل •

وتحدثا فترة حديثاً مهموساً • وعلى الرغم من أن أيما شيء من كلامهما ـ ما خلا بضع كلمات متناثرة ههنا وههناك ـ لم يكن ليُسْمع أو يُفْهم فقد كان في ميسور المصغي اليهما ان يلاحظ ، في سهولة ، أن فاجين بدا وكأنه يدافع عن نفسه محاولا دحض ملاحظات الرجل الغريب ، وان هذا الأخير كان في حال من الانفعال شديدة • ولعلهما كانا قد سلخا في التحدث على هذا النحو ربع ساعة أو أكثر عندما قال مونكس ـ وهو الاسم الذي خلعه اليهودي على الرجل الغريب مرات عديدة خلال هذه المحاورة ـ رافعاً صوته بعض الشيء : « أقول لك كرة اخرى ان العملية خططت على نحو رديء • لماذا لم تُبْقِه هنا مع سائر الغلمان، وتجعل منه في الحال نشالا مرائياً بكّاء ؟ »

فهتف اليهودي وهو يهز كتفيه : « ليس ثمة ما هو أسهل من الكلام ! »

فسأله مونكس في تجهم : « أتريد أن تفهمني أنه لم يكن في ميسورك أن تفعل هذا لو قصدت ؟ ألم تعمله عشرات المرات مع فتية آخرين ؟ لو تذرعت بالصبر اثني عشر شهراً على الأقل أما كان في امكانك أن تنتهي به الى المحكمة

حيث يُدأن ، ويُبعد في هدوء الى خارج المملكة ، وربما مدى الحياة ؟ »

فسأله اليهودي في تذلل : « وهل يخدم هذا أغراض أحد ؟ »

فأجابه مونكس : « انه يخدم أغراضي أنا . »

فقال اليهودي في صغار : « ولكنه لا يخدم أغراضي أنا . انه قد يصبح ذا نفع لي . وعندما يتنازع فريقان حول صفقة ما ، يكون من المعقول أن تؤخذ مصالح الفريقين بعين الاعتبار . أليس هذا صحيحاً ، يا صديقي الطيب ؟ »

فسأله مونكس : « ثم ماذا ؟ »

فأجابه اليهودي : « لم يكن من اليسير عليّ أن أمرّسه بالصناعة . انه لم يكن مثل الغلمان الآخرين الذين تكتنفهم ظروف شبيهه بظروفه . »

فغمغم الرجل : « لا ، لم يكن مثلهم عليه اللعنة ! والا لأصبح لصاً منذ عهد بعيد . »

فتابع اليهودي كلامه ، مراقباً سيماء رفيقه في قلق : « لم يكن لي سلطان عليه يمكّنني من أن أحيله الى اسوأ . فهو لم يشارك في أية عملية من عملياتنا . ولم يكن لديّ ما أخيفه به ، وهو ما يتعيَّن علينا دائماً أن نملكه في أول الأمر ، والا ذهبت جهودنا كلها أدراج الرياح . واحترت ماذا أفعل . أأبعث به مع « المراوغ » وتشارلي ؟ لقد تحملنا من مغبة ذلك ، بادىء الأمر ، ما فيه الكفاية يا عزيزي . وارتعدت بالنيابة عنا جميعاً . »

فلاحظ مونكس : « لم تكن تلك الغلطة غلطتي . »

فقال اليهودي : « لا ، لا ، يا عزيزي . وأنا لا أعترض على هذا الآن . اذ لو لم يحدث ذلك اذن لكان من الجائز ان لا تقع عيناك على الغلام البتة ، ولما اكتشفت أنه هو الشخص الذي تبحث عنه . حسناً ، لقد أعدتُه اليك بواسطة الفتاة . وها هي ذي قد شرعت تحابيه وتنتصر له . »

فقال مونكس في صبر نافد : اشنُقْ تلك الفتاة ! »

فأجابه اليهودي باسماً : « ولكننا لا نستطيع الذهاب الى هذا الحد ، في الوقت الحاضر على الاقل ، يا عزيزي . وفوق هذا ، فذلك النوع من العمل لا يقع ضمن نطاق اختصاصنا . وعلى أية حال ، فقد يسعدني في يوم من الايام أن أوعز بالاقدام على ذلك . أنا أعرف هاته الفتيات جيداً ، يا مونكس . فما ان يأخذ قلب الغلام في التحجر حتى يقلعن عن التفكير فيه ، فهنّ بعدُ لا يبالين به أكثر مما يبالين بقطعة ضخمة من الحطب . أنت تريد أن أجعل منه لصاً . اذا كان لا يزال حياً ، استطعت ان اجعله ذلك اللص منذ هذه الساعة . واذا ... واذا ... » وهنا أدنى اليهودي كرسيه الى مخاطبه وأضاف : « انه احتمال ضعيف ، كما ينبغي أن تلاحظ ، ولكن اذا بلغت الامور غاية الغايات من الرداءة والسوء ، واذا اتفق أن مات ... »

فقاطعه الرجل الآخر ، وقد عصف الذعر بوجهه وأمسك بذراع اليهودي

بيدين مرتعدتين : « ليست الغلطة غلطتي ان مات ... انتبه الى ذلك جيداً يا فاجين ! فلم تكن لي في تلك المسألة يد · لقد قلت لك منذ البدء : كل شيء ما عدا الموت · أنا لا أحب اراقة الدم · فذلك أمرٌ لا بد أن يُكتشف في النهاية، والي هذا فمرتكب جريمة كهذه يظل دائماً فريسة الخوف · اذا كانوا قد أردوه قتيلا فلست أنا السبب · هل تسمعني ؟ فليأخذ الشيطان هذا الجحر الجهنمي! ما هذا ؟ »

فصاح اليهودي وهو يطوّق جسد الجبان بذراعيه الاثنتين بعد ان رآه يثب واقفاً على قدميه : « ماذا ؟ أين ؟ »

فأجابه الرجل محدّقاً الى الجدار المقابل : « هناك ! الظل ! لقد رأيت ظل امرأة ، في معطف وقلنسوة ، يمرّ عبر الاخشاب التي تكسو الجدار في مثل سرعة النَفس ! »

وأرخى اليهودي ذراعيه المطوّقتين جسد مونكس ، واندفعا الى خارج الحجرة في اضطراب بالغ · كانت الشمعة لا تزال قائمة حيث وُضعت ، ولكن التيار الهوائي كان قد أتى عليها كلها ، فلم تُنِرْ لهما غير السلم الفارغة وغير وجهيهما الشاحبين نفسيهما · وأرهفا السمع : كان صمت عميق يسود المنزل كله ·

وقال اليهودي وهو يرفع الشمعة ويستدير نحو رفيقه : « ان الوهم هو الذي صوّر لك ذلك · »

فقال مونكس مرتعداً : « أقسم لك اني رأيتها · كانت منحنية الى أمام عندما رأيتها بادىء الأمر · وعندما تكلمتُ فرّت هاربة · »

ونظر اليهودي في ازدراء ، الى وجه رفيقه الشاحب · ثم انه قال له ان في استطاعته أن يتبعه اذا شاء ، وأنشأ يرتقي السلم · وبحثا في جميع الغرف : كانت باردة ، عارية ، خالية · وهبطا الى الرواق ، ومن ثم الى الاقبية · كانت الرطوبة الخضراء تتدلى من الجدران الخفيضة ، وكانت آثار الحلازين والبزاق تلتمع في ضوء الشمعة ، ولكن كل شيء كان ساكناً كالموت ·

وقال اليهودي عندما انقلبا الى الرواق كرة اخرى : « ما رأيك الآن ؟ ليس في هذا البيت ، بالاضافة الينا ، ايّ مخلوق غير توبي والغلمان · وهؤلاء ليس منهم خطر · انظر ! »

واثباتاً لهذه الواقعة أخرج اليهودي من جيبه مفتاحين · وأوضح قائلا انه حين هبط السلم أول مرة أقفل الباب عليهم لكي يحول دون كل تطفّل على الاجتماع الذي عقداه هناك ·

وأذهلت هذه البيّنات المتراكمة مستر مونكس · وكانت اعتراضاته قد أمست شيئاً فشيئاً أقل حدة ، بعد أن طافا في الغرف باحثَيْن من غير أن يكتشفا أيما شيء · فاذا به يطلق الآن ضحكات متعددة جدّ متجهمة ،

واعترف بأن خياله المضطرب هو الذي صوّر له ذلك ، من غير ريب • وأياً ما كان ، فقد أبى ان يستأنف الحديث ، تلك الليلة ، اذ تذكّر فجأة ان الساعة كانت قد تجاوزت الواحدة • وهكذا افترق الرفيقان الظريفان •

الفصل السابع والعشرون
وفيه تكفير عن قلة لياقة فصل سابق كان قد تخلى عن احدى السيدات تخلياً تعوزه الكياسة الى أبعد الحدود •

لما كان من غير الجميل بمؤلف متواضع أن يبقي شخصية بارزة جداً كشخصية شماس كنيسة في حالة انتظار وظهره الى النار ، وذيول معطفه مرفوعة تحت ذراعيه حتى اللحظة التي يحلو له فيها أن يحرّره ، ولما كان مما لا يتفق ومنزلته الاجتماعية وشهامته ، أكثر من ذلك أيضاً ، أن يتورّط في اثم الاهمال نفسه لسيدة كان قد نظر اليها ذلك الشماس بعين العطف والمحبة ، وهمس في أذنها بعض الكلمات العذبة الخليق بها ، وقد انبعثت من مثل ذلك المقام الرفيع ، أن تثلج صدر عذراء أو مديرة أياً كانت مرتبتها ، فأن المؤرخ الذي يدون قلمه هذه الكلمات (يقيناً منه أنه يعرف حده ، ويكنّ احتراماً غير يسير لاولئك الذين أنيطت بهم في هذه الارض سلطة سامية وخطيرة) ليسارع الآن الى احاطتهم بذلك الاحترام الذي يقتضيه مركزهم ، والى معاملتهم بكامل الكياسة البارّة التي يفرضها عليه مقامهم الرفيع (وبالتالي) فضائلهم العظيمة• والواقع انه كان قد اعتزم ، تحقيقاً لهذا الغرض ، أن يورد ـ هنا ـ بحثاً في حق الشمامسة الآلهي يوضح المبدأ القائل بأن الشماس لا يمكن أن يخطيء ـ وهو بحث خليق به من غير ريب أن يكون ممتعاً ومفيداً للقارىء الحصيف • ولكنه اضطر مع الاسف ، بسبب من ضيق الوقت والمجال ، ان يرجيء ذلك الى فرصة أكثر ملائمة ، فرصة ما آن تسنح في المستقبل حتى يجد نفسه مستعداً لأن يُظهر أن الشمامسة ذوي التكوين الصحيح ، يعني الشمامسة الابرشانيين ، الملحقين بملجأ ابرشاني ، والناهضين بمختلف المهام الرسمية في كنيسة الابرشية يتمتعون بفضل مناصبهم بجميع كمالات الجنس البشري وخصاله الفضلى ، وهي صفات لا يستطيع أن يدّعي أياً منها ، مهما يكن ذلك الادعاء مخالفاً للواقع ، الشمامسة العاديون الملحقون بالشركات أو بالمحاكم او حتى شمامسة الكنائس المساعِدة (باستثناء هؤلاء الأخيرين ، ربما ، والى درجة أضعف بكثير وأدنى بكثير) •

***

كان مستر بامبل قد أعاد احصاء ملاعق الشاي ، وأعاد وزن ملاقط السكر ، وفحص ابريق الحليب فحصاً أدقّ ، واستوثق استيثاقاً دقيقاً من حالة الأثاث على حقيقتها ، ذاهباً في ذلك الى حد التأمل في هُلْب* مساند الكراسي ، وكان قد كرر كلا من هذه العمليات ست مرات كاملات قبل ان يشرع في التفكير في ان أوان عودة مسز كورني قد آن · والتفكير يولّد التفكير · واذ لم تنبعث أية ضجة مُؤذنة بدنوّ مسز كورني فقد خطر لمستر بامبل أن يشبع فضوله أكثر فأكثر بطريقة أخرى بريئة وفاضلة ·· فاختار أن يلقي نظرة خاطفة على الجزء الداخلي من خزانة ملابس مسز كورني ذات الأدراج ·

وبعد أن وضع اذنه على ثقب الباب لكي يستيقن أن أحداً لم يكن في سبيله الى الحجرة ، انقلب مستر بامبل الى تلك الخزانة وشرع يتعرّف ، مبتدئاً من الأسفل ، الى محتويات الادراج الثلاثة الطويلة ، التي استطاعت ـ بوصفها مليئة بمختلف الملابس الحسنة الزيّ والنسيج ، والمصونة في عناية بين طبقتين من الجرائد العتيقة ، والمنثور عليها ذرات من الخزامي العطرية المجففة ـ أن توقع في نفسه ، على ما بدا ، ارتياحاً بالغاً · حتى اذا انتهى آخر الأمر الى الدرج الواقع عند الزاوية اليمنى (والذي كان فيه مفتاحه) ، ووقع نظره ثمة على صندوق صغير مقفل لم يكد يهزه حتى انبعث منه صوت بهيج ، كرنين القطع النقدية ، رجع مستر بامبل في خطى مهيبة الى المستوقد · وبعد أن استعاد وضعه السابق ، قال في نبرة رزينة مصمِّمة : « سوف أقدم على ذلك ! » ثم انه أتبع هذا التصريح الرائع بهزة رأس مضحكة استمرت عشر دقائق ، وكأنه يؤنب نفسه على هذا المرح الشديد الذي يغلب عليه · وبعد ذلك القى نظرة على رجليه ، في مظهرهما الجانبي ، وكانت نظرته تلك مفعمة بالبشر والاهتمام ·

وكان لا يزال منهمكاً ، على نحو وادع ، في هذا الاستعراض الأخير عندما هرعت مسز كورني الى الحجرة ، وارتمت لاهثة منقطعة النَفس ، على كرسي قائم على مقربة من المستوقد ، وحجبت عينيها بيد ، ووضعت الاخرى على قلبها ، وأنشأت تشهق ·

وقال مستر بامبل وقد انحنى فوق المديرة : « مسز كورني ! ما بالك ، يا سيدتي ؟ هل حدث شيء ، يا سيدتي ؟ اجيبيني ، أتوسل اليك ! أنا على ··· على ··· » ولم يوفق مستر بامبل ، وهو في تلك الحال من الرعب ، الى العثور على عبارة « أحرّ من الجمر » ، وهكذا قال : « زجاجات محطمة ! »

فصاحت السيدة : « أوه ، يا مسرتر بامبل ، لقد أقلِقْتُ اقلاقاً رهيباً ! »

فهتف مستر بامبل : « اقلِقْتِ ، يا سيدتي ! ومن الذي جرؤ على أن ··· ؟ أدري ! » كذلك قال مستر بامبل كابحاً نفسه في جلال فطريّ : « اولئك هم الفقراء الاشرار ! »

* الهلب : الشعر او ما غلظ منه ·

فقالت السيدة وهي ترتعد : « من الرهيب أن أفكر في ذلك ! »

فقال مستر بامبل : « اذن لا تفكري فيه ، يا سيدتي . »

فنشجت السيدة قائلة : « لست أتمالك نفسي عن ذلك . »

فقال مستر بامبل في لهجة مهدئة : « اذن تناولي شيئاً ، يا سيدتي . هل ترغبين في قليل من الخمر ؟ »

فأجابته مسز كورني : « بأي ثمن ! أنا لم أستطع ... اوه ! على الرف الاعلى في الزاوية اليمنى ... أوه ! » وفيما كانت السيدة الصالحة تنطق بهذه الكلمات ، اومأت الى الخزانة في شرود ، واعترتها هزة من تشنجات باطنية . وأندفع مستر بامبل الى الخزانة ، وانتزع من الرف المشار اليه على ذلك النحو غير الواضح زجاجة خضراء تتسع لنصف ليتر تقريباً . وملأ بمحتوياتها كوباً من أكواب الشاي وأدناه الى شفتي السيدة .

ـ « أنا الآن أفضل من ذي قبل ، » كذلك قالت مسز كورني ، مسترخية في كرسيها ، بعد أن شربت نصف ذلك الكوب .

ورفع مستر بامبل عينيه الى السقف في شكران ورع . ثم أنه خفضهما من جديد نحو حافة الكوب ، ورفعه الى أنفه .

وهتفت مسز كورني ، في صوت واهن مبتسمة للشماس ابتسامة لطيفة فيما كانت تتكلم : « روح النعناع . جربه ! ان فيه قليلا ... قليلا من شيء آخر . »

وذاق مستر بامبل الدواء في ارتياب ، وتمطق . وأخذ جرعة اخرى ، ثم وضع الكوب على المائدة فارغاً .

وقالت مسز كورني : « انه منعش جداً . »

ـ « منعش الى حد بعيد ، حقاً ، يا سيدتي . » كذلك قال الشماس . وفيما هو يتكلم أدنى أحد الكراسي الى المديرة ، وسألها في رقة ما الذي حدث فأورثها هذا البلاء كله ؟

فأجابته مسز كورني : « لا شيء . انا مخلوقة ضعيفة ، حمقاء ، سريعة الاهتياج . »

ـ « لست ضعيفة ، يا سيدتي . » كذلك قال مستر بامبل وهو يدني كرسيه ادناء أشد . « أأنت مخلوقة ضعيفة ، يا مسز كورني ؟ »

فقالت مسز كورني واضعة مبدءاً عاماً : « نحن كلنا مخلوقات ضعيفة . »

فقال الشماس : « أجل ، هكذا نحن . »

ولم ينبس أي منهما ، بعد ذلك ، ببنت شفة طوال دقيقة أو دقيقتين . حتى اذا انقضت تلك الفترة ، أوضح مستر بامبل صحة هذا المبدأ بأن رفع يده اليسرى عن ظهر كرسي مسز كورني ، حيث استقرت من قبل ، ليضعها على زنار مئزر مسز كورني . وما هي غير لحظات حتى طوقت خصرها شيئاً بعد شيء .

وقال الشماس : « نحن كلنا مخلوقات ضعيفة ٠ »
وتنهدت مسز كورني ٠
فقال مستر بامبل : « لا تتنهدي ، يا مسز كورني ! »
- « لست أتمالك نفسي عن ذلك ! » قالت مسز كورني هذا ، وتنهدت كرة اخرى ٠

وقال مستر بامبل وهو يجيل طرفه في ما حوله : « هذه حجرة جدّ مريحة ، يا سيدتي ٠ ولو ضمّت اليها حجرة أخرى ، يا سيدتي ، اذن لتكوّن منهما شيء يتسم بالكمال ٠ »

فغمغمت السيدة : « ولكن ذلك خليق به أن يكون أكثر مما ينبغي لشخص واحد ٠ »

فأجاب مستر بامبل في نبرات رقيقة : « ولكنْ ليس لشخصين اثنين ٠ ألا ترين ذلك ، يا مسز كورني ؟ »

وخفضت مسز كورني رأسها حين قال الشماس ذلك كما خفض الشماس رأسه أيضاً لكي يستطيع أن يرى الى وجه مسز كورني ٠ وأشاحت مسز كورني بوجهها في كثير من الاحتشام ، وحرّرت يدها لكي تتناول منديلها من جيبها ٠ ولكنها عادت فوضعتها ، على نحو لا شعوريّ ، في يد مستر بامبل ٠

وسألها الشماس ، وهو يضغط على يدها في محبة : « ان اللجنة تزوّدك بالفحم الحجري ، أليس كذلك يا مسز كورني ؟ »

فأجابت مسز كورني وهي تردّ على ذلك الضغط بضغط واهن : « وبالشموع أيضاً ٠ »

فقال مستر بامبل : « فحم حجري ، وشموع ، ومسكن مجاني ! اوه ، يا مسز كورني ، أيّ ملاك أنت ! »

ولم يكن للسيدة قِبَلٌ بالامتناع عن التأثر ازاء هذه العاطفة المتفجرة ٠ فارتمت بين ذراعي مستر بامبل ٠ وفي غمرة من الاهتياج طبع ذلك السيد الماجد قبلة ملتهبة على أنفها الطاهر ٠

وهتف مستر بامبل في ابتهاج غامر : « يا للكمال الابرشاني ! هل تعلمين ، يا فاتنتي ، ان مستر سلاوت هو الليلة اسوأ حالا ؟ »

فاجابت مسز كورني في استحياء : « نعم ٠ »

وتابع مستر بامبل قائلا : « انه لن يعيش أكثر من اسبوع ، على ما يقول الاطباء ٠ وهو رئيس هذه المؤسسة ٠ ولا ريب في ان موته سوف يُحدث فراغاً ٠ وهذا الفراغ يجب ان يُملأ ٠ أوه ، يا مسز كورني ، ايّ أمل سوف ينفسح نتيجة لذلك ! اية فرصة سوف تتاح لنا لتوحيد قلبينا وميزانيتينا البيتيَّتين ! »

وتنهدت مسز كورني ٠

وأضاف مستر بامبل : « والكلمة الصغيرة ؟ قولي الكلمة الصغيرة ، الصغيرة ، الصغيرة ، يا كورني الحبيبة ! »

فزفرت المديرة : « ن ٠٠٠ ن ٠٠٠ نعم ! »

وتابع الشماس : « كلمة أخرى ٠ هدئي مشاعرك العزيزة لكي تقولي كلمة أخرى ليس غير ٠ متي سيتمّ ذلك ؟ »

ومرتين حاولت مسز كورني أن تتكلم ، ومرتين عجزت عن الكلام ٠ وأخيراً استجمعت شجاعتها وطوّقت عنق مستر بامبل بذراعيها ، وقالت ان ذلك سوف يتم على أسرع وجه يريده ، وأنه « محبوب لا سبيل الى مقاومته » ٠

حتي اذا سُوّي الامر على هذا النحو الودي المرضي أقِرّ العقد ، في كثير من المهابة ، بكوب آخر من خمر النعناع ، وهو اجراء قوّى الحاجة اليه ما غلب على السيدة من أضطراب واهتياج ٠ وفيما هما يحتسيان الشراب ، أعلمت مستر بامبل بوفاة المرأة العجوز ٠

وقال ذلك السيد الماجد ، وهو يأخذ جرعة صغيرة من خمر النعناع : « حسن جداً ٠ سوف أمرّ في طريق عودتي ببيت مستر ساواربيري ، وأطلب اليه أن يبعث شخصاً من قِبله صباح غد ٠ هل كان هذا هو الذي روّعك ، يا حبيبتي ؟ »

فقالت السيدة في تملّص : « لم يكن في ذلك ايّ شيء خصوصي ، يا عزيزي ٠ »

فألحف مستر بامبل : « لا بدّ أن يكون في ذلك شيء ، أيتها الحبيبة ٠ ألن تفضي بحقيقة الأمر الى « ب » ، حبيبك ؟ »

فأجابته السيدة : « ليس الآن ٠ سوف أخبرك بذلك في يوم من الأيام ٠ بعد أن نتزوج ، يا عزيزي ٠ »

فصاح مستر بامبل . « بعد أن نتزوج ؟ هل كان ما روّعك وقاحة بدرت من أحد أولئك الفقراء الذكور ٠٠٠ ؟ »

فقاطعته السيدة متعجّلة : « لا ، لا ، يا حبيبي ! »

فتابع مستر بامبل : « اذا اعتقدتُ ان ذلك هو السبب ٠٠٠ اذا اعتقدتُ ان أياً منهم قد رفع عينيه المبتذلتين الى هذا المحيّا الحلو ٠٠٠ »

فأجابته السيدة : « انهم لا يجرؤون على مثل هذا ، أيها الحبيب ! »

فقال مستر بامبل جامعاً أصابعهُ على نحو تشنجي : « من الخير لهم أن لا يجرؤوا ! دعيني أرى أيما رجل ، آبرشانياً كان أو غير ابرشانيّ ، يحاول الاقدام على ذلك ، وعندئذ استطيع أن أقول له انه لن يعاود صنيعه ذاك كرة اخرى ! »

ولو لم يجمّل هذا بأي ايماءة عنيفة لما كان فيه ما يجعله اطراء عظيماً جداً لمحاسن السيدة ولكن مستر بامبل ارفق التهديد بكثير من الايماءات الحربية ، فتأثرت تأثراً بعيداً بهذا البرهان القاطع على تعلّقه واخلاصه ، وأعلنت في كثير

من الاعجاب انه رجل رقيق الفؤاد حقاً ·

عندئذ قلب الرجل الرقيق الفؤاد قبة معطفه ، واعتمر بقبعته ذات القرنين · وبعد أن تبادل مع شريكة حياته المقبلة عناقاً طويلا مشبوبا ، تحدّى ريح الليل القارسة كرة اخرى ، غير متوقف الا بضع دقائق في مهجع المعوزين الذكور ، لكي يشتمهم قليلا ، رجاة ان يقنع نفسه بأن في ميسوره أن ينهض بعبء رئاسة الملجأ بالفظاظة المطلوبة · حتى اذا استيقن مستر بامبل من كفاءاته غادر المبنى بقلب بهيج ورؤيا مشرقة عن ترقيته المقبلة ، وهي رؤيا استطاعت أن تملأ تفكيره حتى انتهى الى دكان الدفّان ·

واذ كان مستر ومسز ساواربيري قد مضيا لتناول الشاي والعشاء ، واذ كان نوح كلايبول غير مستعد في ايما وقت لأن يرهق نفسه بقدر من الاجهاد الجسدي أكبر من ذلك الذي يحتاج اليه لأداء وظيفتي الاكل والشرب أداء ملائماً ، فقد بقيت الدكان غير مقفلة ، برغم انقضاء موعد اقفالها المعتاد · وربّت مستر بامبل بعصاه على المنضدة مرات عديدة ، ولكن ذلك لم يلفِت اليه انتباه أحد · حتى اذا لمح ضوءا مشعاً من زجاج نافذة حجرة القعود الصغيرة القائمة خلف الدكان ، غامر باختلاس النظر الى هناك ليرى ما الذي كان يجري · وعندما رأى ما الذي كان يجري فعلا استبدّ به دهش غير يسير ·

كان غطاء المائدة قد نُشِر للعشاء ، وكانت المائدة مغطاة بالخبز والزبدة ، والاطباق والكؤوس ، وبزجاجتي جعة وخمر · وعند طرف المائدة الأعلى كان مستر نوح كلايبول يسترخي متكاسلا في كرسي ذي ذراعين ، وقد بسط رجليه على احدى الذراعين ، وأمسك مطواة كبيرة مفتوحة بيدٍ ، وكتلة من الخبز المفروش بالزبدة بالاخرى · وعلى مقربة دانية منه وقفت شارلوت وأنشأت تتناول المحار من أحد البراميل وتفتحه ، وهو غذاء تنازل مستر كلايبول فابتلعه في نهم استثنائي · وكان في منطقة أنف الشاب احمرار أقوى من المعتاد ، وكانت عينه اليمنى تَطْرف على نحو موصول ، وهما ظاهرتان دلّتا على أنه كان مخموراً بعض الشيء · وقد أيد هذه الأعراض تلك الاستساغة البالغة التي التهم بها محاراتهِ ، والتي لا يفسّرها على نحو واف أيما شيء غير الاعجاب القوي بميزاتها المبرّدة في حالات الحمّى الباطنية ·

وقالت شارلوت : « هي ذي محارة سمينة لذيذة ، يا عزيزي نوح ! ذقها ، أرجوك · ذق هذه فحسب · »

فلاحظ مستر كلايبول بعد أن ازدردها : « ما ألذّ المحار ! أليس من المحزن أن يكون الاسراف في التهام المحار مدعاة الى الانزعاج ، يا شارلوت ؟ »

فقالت شارلوت : « هذا فظيع حقاً · »

فأقرّها مستر كلايبول على ذلك قائلا : « انه لكذلك · ألستِ مولعة بالمحار ؟ »

فأجابته شارلوت : « ليس كثيراً جداً . أنا أحب ان أراك تلتهم المحار ، يا عزيزي نوح ، أكثر مما أحب أن ألتهمه بنفسي . »

فقال نوح وأمارات التفكير بادية على وجهه : « يا آلهي . ما أغرب ذلك ! »

وقالت شارلوت : « خذ محارة اخرى . هي ذي واحدة ذات لحيـــة ليس أجمل منها ولا أرق ّ ! »

فقال نوح : « لم أعد أستطيع . أنا آسف جـــداً . تعالي الى هنا ، يا شارلوت ، لكي اقبّلك . »

– « ماذا ؟ » كذلك قال مستر بامبل ، وهو يقتحم الحجرة : « قل ذلـك مرة اخرى ، يا سيدي ! »

فأطلقت شارلوت صيحة ، وحجبت وجهها بذيـل مئزرها . أما مستر كلايبول فلزِم جلسته مجتزئاً من تعديلها بأنزال رجليه عن ذراع الكرسي حتى مسّتا الارض ، وحدّق الى الشماس في ذعر مخمور .

وقال مستر بامبل : « قلها مرة اخرى ، أيها الغلام الوغد الوقح ! كيف تجرؤ على النطق بشيء كهذا ، يا سيدي ؟ وكيف تجرؤين على تشجيعه ، أيتها الخليعة السفيهة ؟ تريد أن تقبّلها ؟ » هكذا هتف مستر بامبل في غيظ شديد . « تفو ! »

فقال نوح وهو ينشج بالبكاء : « لم أكن أعتزم الاقدام على ذلك ! انها لا تكف ّ عن تقبيلي ، سواء أردت هذا أم لم أرد . »

فصاحت شارلوت في لهجة ترشح باللوم : « اوه ، يا نوح ! »

فردّ نوح قائلا : « هذا صحيح ، وأنت تعرفينه جيداً ! انها لا تكف عن ذلك ، يا سيدي مستر بامبل . انها تربّت على أسفـل ذقني في لطـــف ، يا سيدي ، وتراودني عن نفسي بمختلف الاساليب ! »

فصاح مستر بامبل في لهجة قاسية : «اخرس ! أما أنت ، أيتها الآنسة فاهبطي السلم . هيّا أغلق الدكان ، يا نوح ، وحذار ان تقول كلمة اخرى من الآن الى ان يعود سيدك ، والا عرضت نفسك لخطر عظيم . وعندما يعود ، قل له ان عليه ان يرسل تابوت امرأة عجوز غداً صباحاً ، بعد الفطور . هل تسمع، يا سيدي ؟ تريد أن تقبّلها ! » كذلك صاح مستر بامبل رافعاً يديه . « ان فجور الطبقات الدنيا في هذه الابرشية فظيـــع ! واذا لم يُعْنَ ّ البرلمان بأمر سلوكهم الشنيع حل ّ الخراب بالبلاد ، وفسدت اخلاق الفلاحين الى الأبد . قال الشماس تلك الكلمات ، وأوسع الخطى – في سيماء متشامخة كئيبة – وغـادر دكان الدفان .

والآن وقد رافقناه حتى هذه المرحلة من طريق عودته الى بيته ، وبعد أن اتخذنا كل الاستعدادات لدفن المرأة العجـــوز ، فلنقم باستطـلاع بسيط عن أوليفر تويست الفتى ، لنعرف ما اذا كان لا يزال منطرحاً في الحفرة حيث تركه توبي كراكيت .

الفصل الثامن والعشرون
وهو يعنى بمصير أوليفر ويتابع الكلام على مغامراته

ـ « فلتمزق الذئاب حنجرتك ! » هكذا غمغم سايكس وهو يصر بأسنانه · « لشدّ ما أتمني لو كنت مع نفر منكم ، اذن لجعلت عواءكم أجشّ بما لا يقاس · »

وفيما كان سايكس ينبح بهذه الشتيمة ، بشراسة يائسة الى أقصى حد وُفِّقت اليه طبيعته اليائسة ، وضع جسد الغلام الجريح فوق ركبته الملوية ، والتفت لحظة لكي يلقي نظرة على مطارديه ·

ولم يستطع أن يتبيَّن شيئاً كثيراً بسبب من الضباب والظلمة · ولكن صياح الرجال المدوّي تذبذب عبر الهواء ، وتردَّد نباح الكلاب المجاورة في كل اتجاه بعد ان أثارها قرع ناقوس الخطر ·

ـ « قف ، أنت أيها الكلب المخلوع الفؤاد : » كذلك صاح اللص ، منادياً توبي كراكيت الذي انتفع بساقيه الطويلتين أحسن انتفاعٍ فتقدمه مسافة ما · « قف ! »

وكان في تكرار هذه اللفظة ما جمَّد توبي في أرضه · ذلك بأنه لم يكن واثقاً من ابتعاده عن مدى رصاص الغدارة · ولم يكن سايكس في حالة نفسية تجيز المزاح والهزل ·

وصاح سايكس مشيراً الى زميله في ضراوة : « ساعدني على حمل الغلام ! ارجع ! »

وتظاهر تربي بالرجوع · ولكنه غامرَ فعبَّر ، في صوت خفيض قطَّعَه اللهاث ، عن ان رجوعه البطيء ذاك لم يكن بطَوْعه ·

ـ « مزيداً من السرعة ! » كذلك صاح سايكس وهو يضع الغلام في حفرة جافة عند قدميه ، ويسحب من جيبه غدارة · « حذار أن تخذِلني ! »

وفي تلك اللحظة تعاظمت الضجة · وأجال سايكس بصره في ما حوله كرة اخرى ، فاستطاع أن يتبين ان الرجال الذين يطاردونه كانوا يتسلقون بوابة الحقل الذي فزع هو اليه ، وان كلبين اثنين كانا يتقدمانهم بعض الشيء ·

وصاح توبي : « قضي الأمر ، يا بيل ! اطرح الغلام ، واطلق ساقيك للريح!» حتى اذا أطلق هذه النصيحة الوداعية آثر مستر كراكيت التعرض لاحتمال الموت برصاص صديقه على الوقوع بين أيدي أعدائه وقوعاً لا ريب فيه البتة · فولى الأدبار ، واندفع ناجياً بنفسه بأقصى ما استطاع من سرعة · وصر سايكس بأسنانه ، وألقى نظرة على ما حوله ، وحجب جسم أوليفر الممدّد بذلك الدثار

الذي كان قد تلفَّع به على نحو متعجل ، وانطلق يعدو حتى نهايــة الوشيــع* ، وكأنه أراد بذلك أن يصرف انتباه من هم وراءه عن البقعة التي رقد فيها الغلام ، وتمهل ثانية واحدة أمام وشيع آخر التقى هو وسابقَه' على زاوية قائمة • وبعد أن جعل غدارته تدور على نفسها عالياً في الهواء ، تخطى الوشيع بوثبة ، وتوارى عن الانظار •

وصاح صوت مرتعش من ورائه : « هاي ! هنــاك ! بيننتشر ! نبتون ! تعال الى هنا ! تعال الى هنا ! »

وامتثل الكلبان الأمر ، فقد بدا انهما كانا ــ مثل سيديهما ــ غــير راغبين رغبة بالغة في ذلك الطِراد الذي خاضا غماره • وتوقّف الرجال الثلاثة، الذين كانوا قد اجتازوا الآن مسافة ما من الحقل ، لكي يتبادلوا الرأي •

وقال أكثرهم بدانة : « نصيحتي ، أو بالأحرى **أوامري** ، هي أن نرجع ــ في الحال ــ من حيث أتينا • »

ــ « أنا موافق على كل ما يوافق عليه مستر جيلز ، » كذلك قال رجل أقصر قامة، ليس بالهزيل البتة، ذو وجه شديد الشحوب وسلوك شديد اللطف، كما يكون المروَّعون من الناس عادة •

وقال ثالثهم الذي كان قد دعا الكلبين الى العودة « أنا لا أريد أن أظهر ، أيها السيدان ، بمظهر الرجل الجلف • ومستر جيلز يعرف ذلك من غير ريب • »

فأجاب الرجل الاقصر قامة : « من غير ريب • ومهما يقــل مستر جيلز فليس من واجبنا أن نعارضه • لا ، لا ، أنا أعرف وضعي ! حمداً لله ، انــا أعرف وضعي ! » والحــق ان الرجل القصير كان **يعرف** ، على ما بدا ، وضعه ، ويعرف أحسن المعرفة أنه لم يكن وضعاً مرغوباً فيه بأيــة حــال ، بدليل أن اسنانه اصطكت فيما كان يتكلم •

وقال مستر جيلز : « أنت خائف ، يا بريتلز • »

فقال بريتلز : « لا ، لست خائفاً • »

فقال جيلز : « بل انت خائف • »

فقال بريتلز : « انت تقول كلاماً يخالف الحقيقة ، يا مستر جيلز • »

فقال مستر جيلز : « انت تكذب ، يا بريتلز • »

وكان في هذه الاجوبة الاربعة اللاذعة ما أثار نزعة مستر جيلز الــى التحدي • وانما تمَّ ذلك في الواقع بسببِ من حنقه على زميله الذي حمّلــه تبعة العودة الى البيت ، تحت ستار عبارة من عبارات المجاملة • ولكن الرجل الثالث وضع حداً للنزاع ، في كثير من الفلسفة •

لقد قال : « سوف أقول لكم الحقيقة ، ايها السادة • نحن كلنا خائفون • »

فقال جيلز الذي كان اكثر الثلاثة شحوباً : « تكلم عن نفسك ليس غير ،

---

* سياج من نباتات يجعل حول الحديقة لكي يحول دون دخول المتطفلين والطارئين •

يا سيدي . »

فأجابه الرجل : « هذا ما أفعله . من الطبيعي والمعقول أن يصاب الناس بالخوف في ظروف كهذه . وأنا أعلن اني خائف . »

فقال بريتلز : « وكذلك أنا . ولكن لا داعي لأن يقول المرء لزميله ، بمثل هذه الجلافة ، أنت خائف . »

وهدّأ هذان الاعترافان من ثائرة مستر جيلز ، الذي سارع في الحال الى الاقرار بأنه هو خائف أيضاً . وهنا استدار الثلاثة جميعاً ، وانقلبوا راكضين على نحو ليس ثمة ما هو أكثر منه انسجاماً وتوافقاً . الى أن أصرّ مستر جيلز (الذي كان أقصر الثلاثة نفَساً والذي كانت تعوقه عن الاسراع مذراة يحملها) على الوقوف اصراراً مغالياً في اللطف ، لكي يعتذر عن تهوره في الكلام .

— « ولكن ما أغرب الأعمال ، » كذلك قال مستر جيلز حين وُفّق الى الشرح ، « التي يندفع المرء للقيام بها حين يغلي دمه ويفور . لقد كان خليقاً بي أن أرتكب جريمة قتل — واني لواثق من ذلك — لو أننا أمسكنا بواحد من اولئك الأوغاد . »

واذ كان الرجلان الآخران واقعين تحت تأثير هاجس مماثل ، واذ كان دم كل منهما ، كدمه هو ، قد راق بعد الفوران ، فقد تلا ذلك شيء من التفكير في السبب الذي أدى الى هذا التغير المفاجيء في مزاجهم .

فقال مستر جيلز : « أنا أعرف السبب . السبب هو البوابة . »

فهتف بريتلز ، متعلقاً بتلك الفكرة : « لن أعجب اذا صح ذلك . »

فقال جيلز : « في استطاعتك أن تثق أن البوابة وضعت حداً لتدفق اهتياجنا . لقد استشعرت هياجي كله يخمد وأنا أتسلقها . »

وشاءت مصادفة عجيبة أن يلمّ بالرجلين الآخرين ، في تلك اللحظة بالذات ، عينُ ذلك الاحساس البغيض . وهكذا كان من الواضح أن البوابة هي التي أدت الى ذلك التغير المفاجيء . خاصة وانه لم يكن ثمة ايّ شك في ما يتصل بالوقت الذي حدث فيه التغير، لأن الثلاثة جميعاً تذكروا أنهم بَصُروا باللصوص لحظة حدوثه تماماً .

وانما دار هذا الحوار بين الرجلين اللذين كانا قد فاجآ اللصين ، وبين سمكري متجول كان نائماً في سقيفة ما ، فأوقظ من نومه — مع كلبَيْه الهجينين ، لكي يشارك في المطاردة . وكان مستر جيلز يمارس وظيفة مزدوجة : فهو ساقي ربة البيت العجوز ووكيل خرجها . وكان بريتلز خادماً مكلفاً بأداء ضروب المهام على اختلافها . واذ كان هذا الاخير قد التحق بخدمتها وهو بعدُ صبيّ فقد ظلت تعامله وكأنه غلام ينتظره مستقبل باهر ، على الرغم من انه كان تجاوز الثلاثين شيئاً ما .

وفيما هم يتبادلون التشجيع بمثل هذا الحديث ، ولكن من غير أن يبتعد

اي منهم عن الآخر قيد شعرة ، وفيما هم يجيلون طرفهم في ما حولهم بكثير من الذعر كلما عبثت بأغصان الشجر عصفة ريح جديدة ، هُرِع الرجال الثلاثة عائدين الى شجرة كانوا قد خلّفوا وراءها مصباحهم خشيـــة أن يهدي ضوؤه اللصوص الى الجهة التي يتعين عليهم اطلاق النار نحوهـا · حتى اذا أخـــذوا المصباح · انقلبوا الى بيوتهم مسرعين في خطى حثيثة · وبعد فترة طويلة انقضت على غياب شخوصهم القاتمة عن الأنظار كان في ميسور المرء ان يرى ذلك المصباح يومض ويرقص في المدى البعيد ، وكأنه زفير ذلك الجو الرطب المظلم الذي كان المصباح يُحْمل عَبْرهُ في سرعة بالغة ·

ومع ارتفاع الضحى أصبح الهواء أشد برداً ، وتدحرج الضباب على الارض مثل سحابة من الدخان كثيفة · كان العشب ندياً ، وكانت الدروب والأغـوار ملأى بالوحل والماء ، وأطلقت ريحٌ غير صحية أنفاسها الرطبة ، على نحو واهن ، مُرْدفة بأنين غائر · ومع ذلك ظل أوليفر جامداً لا يتحرك ولا يعي في البقعة التي كان سايكس قد غادره فيها ·

ودنا الصبح في خطى سريعة · وغدا الهواء أكثر لذعـــاً ، فيما كانـت صبغته الباهتة الاولى (كان ذلك هو موت الليل أكثر مما كان ميـلاد النهار) تلتمع واهنة في السماء · كانت الاشياء التي سبق لها أن بدت أشدّ قتاماً وهولا في الظلام قد غدت أكثر وضوحاً شيئاً بعد شيء ، وكانت قد استعادت أشكالها المألوفة على نحو تدريجي · وهطل المطر ، غزيراً مدراراً ، مدمدماً في صخب خلال الآجام العارية من الورق · ولكن أوليفر لم يحسّ به وهو يصفع وجهه · ذلك بأنه كان لا يزال ممدّداً ، فاقد الرشد والقوة ، فوق فراشه المصنوع من وحل وطـــين ·

وأخيراً قطعت صيحة ألم خفيضة ذلك السكون الذي ساد المكان · وأفاق الغلام فيما هو يطلق تلك الصيحة · كانت ذراعه اليسرى ، المعصوبـــة بشال عَصْباً اخرق ، تتدلى الى جنبه ثقيلة لا غناء فيها ، وكانت الضمادة مشبعـــة بالدم· وكان هو من الضعف بحيث عجز ، أو كاد ، عن أن يرفع نفسه ويجلس· حتى اذا وُفّق الى ذلك أجال بصره في ما حوله على نحو واهن التماساً للنجدة ، وأنّ أنينـــاً يرشح بالألم · وفيما كانت أوصاله كلها ترتعد من شـــدة البرد والاجهاد ، بذل جهداً للوقوف عـلى رجليه · ولكنه سرعان ما ارتجف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وخرّ على الارض ·

وبعد استغراق وجيز في الخدر الذي كان قد استحوذ عليه من قبل فترة طويلة ، نهض أوليفر واقفاً ــ يحدوه الى ذلك شعور موجع ألمّ بفـؤاده وبـدا وكأنه يحذره من موت محقق ان بقي منطرحاً على طوله في ذلـك المكان ــ وحاول أن يمشي · كان الدوار يعصف برأسه ، فترنح ذات اليمين وذات الشمال مثـل رجل مخمور · ولكنه واصل السير ، برغم ذلك ، متعثراً وقد تدلّى رأسه فوق صدره في وهن ، ومضى غير دار الى أين ·

عندئذ تدفقت على ذهنه جمهرة من الافكار المحيِّرة المشوَّشة . لقد بدا له أنه لا يزال يمشي بين سايكس وكراكيت ، اللذين كانا يتنازعان على نحو مغضب ـ ذلك بأن عين الكلمات التي قالاها ترددت في أذنيه . حتى اذا وُفِّق اذا جاز التعبير ، الى لَفْت نظر نفسه الى نفسه ، من طريق جهد عنيف بذله لوقاية ذاته من السقوط ، خيل اليه أنه كان يتحدث اليهما . ثم خيل اليه بعد ذلك أن كان وحده مع سايكس يجرّ ساقيه في كلال ، شأنَه بالامس . وفيما كان الناس يجتازون بهما وكأنهم أشباح أحس بقبضة اللص تضغط على رسغه . وفجأة ارتدّ مجفلا لدن سماعه طلقات الاسلحة النارية . لقد ارتفعت في الهواء صيحات وصرخات عالية ، والتمعت أمام عينيه أضواء . لم يكن ثمة غير الضجة والجلبة ، فيما كانت يد غير منظورة تحمله منطلقة في خطى واسعة . وخلال هذه الرؤى السريعة كلها أضناه وعذّبه ، على نحو موصول ، شعور بالألم غامضٌ مُقلق .

وهكذا تابع طريقه ، مترنحاً ، زاحفاً على نحو يكاد يكون آليا بين قضبان البوابات أو خلال فجوات الوشائع كلما اعترضت سبيله ، حتى انتهى الى احدى الطرق . وهنا شرع المطر يهطل على نحو غزير الى درجة انتزعته من حالة الخدر الغالبة عليه .

وأجال الطرف في ما حوله ، فرأى أن ثمة ، على مبعدة غير نائية منه ، بيتاً ربما كان في ميسوره أن يبلغه . ومن يدري ، فلعل سكانه أن يرثوا له اذا ما اطّلعوا على حاله . وحتى لو لم يفعلوا فخير له ـ كذلك قال في ذات نفسه ـ أن يموت على مقربة من بعض المخلوقات البشرية من أن يموت متوحداً في أرض عراء . وحشد كامل قوته للقيام بهذه المحاولة الاخيرة ، ووجّه خطاه المضطربة في ذلك الاتجاه .

وفيما كان يدنو من المنزل، خامره شعور بأنه سبق له أن رآه من قبل. انه لم يتذكر شيئاً من تفاصيله ، ولكن شكل المبني ومظهره بَدوا مألوفين عنده .

يا لسور الجنينة ذاك ! كان قد ركع على العشب داخل تلك الجنينة بالذات ، تلك الليلة ، متضرعاً الى الرجلين أن يرحماه . كان ذلك المنزل هو عين المنزل الذي حاولا سرقته .

وعصف بأوليفر ، لدُنْ عرف المكان ، خوف عظيم أنساه ، مؤقتاً على الأقل ، أوجاع جرحه ، فلم يفكر في شيء غير الفرار . الفرار ؟! انه كان عاجزاً عن الوقوف على قدميه الا بشق النفس ، وحتي لو انه كان يتمتع تمتعاً كاملا بكافة قوى جسده المهزول الفتيّ فالى أين يستطيع ان يفر ؟ ودفع بوابة الجنينة بكفيه ، فاذا بها غير مقفلة ، واذا بها تستدير منفتحة على مِفْصلاتها . واجتاز المرج مترنحاً ، وارتقى درجات السلم ، وطرق الباب طرقاً واهناً . واذ خذلته قوته كلها ، فقد سقط بازاء أحد قضبان الرواق الصغير .

واتفق حوالى ذلك الوقت أن كان مستر جيلز وبريتلز والسمكري يجددون قواهم بعد اجهاد الليل وأهواله ، بتناول الشاي وأشياء شتّى ، في المطبخ . وليس معنى هذا أنه كان من عادة مستر جيلز أن يمنح الخدم الثانويين حرية بالغة في حضرته ، اذْ كان من دأبه في الواقع أن يعاملهم في بشاشة متشامخة ... بشاشة ترضيهم ولكنها لا تفتأ تذكّرهم بمركزه الأسمى في المجتمع . ولكن الموت، واطلاق النار، والسطو على المنازل بالليل ، تجعل الناس كلهم سواسية ، وهكذا جلس مستر جيلز ورجلاه ممدودتان أمام حاجز نار الموقد الذي في المطبخ، مُسنداً ذراعه اليسرى الى المائدة ، بينا راح يقدّم بذراعه اليمنى شرحاً للسَّرقة دقيقاً مفصلا أصغى اليه سامعوه (وبخاصة الطاهية والخادمة ، اللتين كانتا بينهم) في شوق مبهور منقطع النَفَس .

قال مستر جيلز : « كانت الساعة حوالى الثانية والنصف ، ولكنني لا أقسم انها لم تكن — ربّما — أقرب الى الثالثة بعض الشيء ، عندما استيقظت واستدرت على هذا النحو تقريباً (وهنا استدار مستر جيلز في كرسيه وجذب زاوية غطاء المائدة فوقه لكي يقلّد بذلك غطاء السرير) وتوهمت اني سمعت ضجة . »

حتى اذا بلغ هذه المرحلة من القصة ران الشحوب على وجه الطاهية ، فسألت الخادمة أن توصد الباب ، فلم يكن من هذه الا أن كلفت بذلك بريتلز ، الذي كلف به السمكري ، الذي تظاهر بأنه لم يسمع .

وتابع مستر جيلز حديثه قائلا : « ... سمعت ضجة . وقلت بادىء الامر ان هذا لا يعدو أن يكون وهما . وكنت اتأهب للرقاد من جديد عندما سمعت الضجة كرة اخرى ، على نحو جليّ هذه المرة . »

وسألته الطاهية : « ايّ نوع من الضجة ؟ »

فأجابها مستر جيلز وهو يجيل الطرف في ما حوله : « ضربٌ من ضجة انفجارية . »

فاقترح بريتلز : « اقرب شيء الى صوت قضيب حديدي يُبْرَدُ على مِبرشة جوز الطِيْب . »

فردّ عليه مستر جيلز قائلا : « كانت كذلك عندما سمعتَها **انت** ، يا سيدي . أما في تلك اللحظة التي أتحدث أنا عنها فقد كانت الضجة انفجارية . وهكذا رددت الغطاء عن جسدي (وهنا ردّ مستر جيلز غطاء المائدة عن وجهه) واستويت قاعداً في الفراش ، وانشأت أصغي . »

وفي آن معاً صاحت الطاهية والخادمة « يا آلهي ! » وأدْنت كل منهما كرسيها الى كرسي الاخرى .

واستأنف مستر جيلز كلامه : « لقد سمعتها الآن ، كانت جد واضحة . وقلت في ذات نفسي : ان بعضهم يحاول أن يخلع باباً أو نافذة . فما الذي

يتعين عليّ أن أفعله ؟ سوف أوقظ ذلك الغلام المسكين ، بريتلز ، وانقذه من الموت قتلا في فراشه ، والا فقد تُحتَزّ عنقه من أذنه اليمني الى اذنه اليسرى من غير أن يحسّ بذلك البتة . »

وهنا اتجهت العيون كلها نحو بريتلز ، الذي ثبّت عينيه على المتكلم ، وحدق اليه ، فاغر الفم ، وقد نمّ وجهه عن ذعر ليس ثمة ما هو أشد منه .

وقال جيلز ، وهو يطّرح غطاء المائدة ويركّز نظراته على الطاهية والخادمة: « واطّرحت غطاء السرير ، ونهضت من فراشي في تؤدة وأخرجت ... »

فغمغم السمكري : « بيننا سيدات ، يا مستر جيلز . »

فقال جيلز ، مستديراً نحوه ، واضعاً توكيداً شديداً على تلك الكلمة : « أخرجت حذاء ، يا سيدي ، وتناولت الغدارة المشحونة التي تصعد السلّم دائماً مع سلة الاطباق الفضية ، ومضيت على رؤوس أصابعي الى حجرته ، وقلت بعد أن أيقظته : « بريتلز ، لا يأخذْك الخوف ! »

فأعلن بريتلز ، في صوت خفيض : « هذا صحيح . »

وتابع جيلز كلامه : « وقلت له : لقد حانت منيّتنا ، على ما يخيل اليّ ، يا بريتلز . ولكن لا يأخذنّك الرّوع . »

فسألته الطاهية : « وهل كان مروّعاً ؟ »

فأجابها مستر جيلز : « لا ، على الاطلاق . لقد كان ثابت الجنان ... آه ! كان ثابت الجنان بقدْر ما كنت أنا تقريباً . »

فأعلنت الخادمة : « لو كنت مكانكما اذن لمتُّ في الحال . أنا واثقة من ذلك ! »

فأجابها بريتلز متشجعاً بعض الشيء : « أنتِ امرأة . »

فقال مستر جيلز ، وهو يهز راسه موافقاً : « بريتلز على حق . فليس يُنتظر من جماعة النساء شيء غير ذلك . أما نحن بوصفنا من جماعة الرجال فقد تناولنا مصباحاً قاتماً كان موضوعاً فوق رف الموقد في حجرة بريتلز ، وتلمّسنا طريقنا هابطَيْن درجات السلم في الظلام الحالك ... على هذا النحو تقريباً . »

وكان مستر جيلز قد نهض عن كرسيه ، وخطا خطوتين وهو مغمض العينين ، لكي يُرْفق وصفه بحركات ملائمة ، عندما أجفل اجفالا عنيفاً ، شاركه فيه سائر الجماعة ، وهرع راجعاً الى كرسيه . واطلقت الطاهية والخادمة صيحة مدوّية .

وقال مستر جيلز ، متظاهراً بالهدوء المطلق : « لقد قرع الباب ، فليفتحه واحد منكم . »

ولم يتحرك احد .

ـ « شيء عجيب حقاً أن يُقرع الباب في مثل هذه الساعة من الصباح !

« كذلك قال مستر جيلز وهو يستعرض الوجوه الشاحبة المحيطة به ، وقد بدا الشحوب الشديد على وجهه هو أيضاً · « ولكن الباب يجب أن يُفتح على أيــة حال · ألم يسمعني أحد ؟ »

ونظر مستر جيلز ، فيما هو يتكلم ، الى بريتلز · ولكن ذلـك الفتى ، المتواضع بالفطرة ، لم يعتبر نفسه في أغلب الظن واحداً من القـوم ، وهكـذا اعتقد أن ذلك السؤال لا يمكن أن يكون موجهاً اليه · وأياً ما كان ، فأنه لم ينطق بأي جواب · وهنا وجّه مستر جيلز الى السمكري نظرة ضارعة ، ولكنه كان قد استسلم فجأة للرقاد · أما المرأتان فكان تكليفهما بهذه المهمة أمراً غير وارد :

وقال مستر جيلز بعد صمت قصير : « اذا آثر بريتلز أن يفتح الباب في حضرة شهود أعلنت استعدادي لأن أكون واحداً منهم · »

فقال السمكري ، وقد استيقظ بمثل الفُجاءة التي نام بهــا : « وكذلــك أنا ! »

واستسلم بريتلز على أساس من هذه الشروط · وبعد ان استعاد القوم بعض شجاعتهم حين اكتشفوا (عند فتحهم مصاريع النوافذ) أن أشعة الشمس كانت الآن تملأ الأرجاء ، راحوا يرتقون درجات السلم تتقدمهم الكلاب · ولـم تجرؤ المرأتان على البقاء وحدهما في الدور السفلي ، فلحقتا بهم · وعملا بنصيحة مستر جيلز أخذ القوم كلهم يتكلمون بصوت عال جداً لكي ينبهوا أيما شخص سيء النية قد يكون متربصاً في الخارج الى أنهم كثرة · وبفضــل ومضة مــن ومضات العبقرية السياسية التي التمعت في ذهن ذلـــك السيد البارع نفسه قُرِصت أذناب الكلاب قرصاً موجعاً ، في الردهة ، لكي تُحمَل عـلى النبــاح في ضراوة ·

حتى اذا اتُخِذت هذه الاحتياطات تشبّث مستر جيلز بذراع السمكري (لكي يحول بينه وبين الفرار ، كما قال على سبيل المزاح) وأصدر أمره بفتح الباب · وامتثل بريتلز الامر · وراح كل من أفراد الجماعــة يختلس النظر في تهيّب من فوق أكتاف رفاقه فلم يَر شيئاً مخيفاً غير أوليفر تويست الصغــير المسكين ، صامتاً منهوك القوى ··· أوليفر تويست الذي رفع عينيه الكئيبتين ، والتمس منهم العطف على نحو أبكم ·

وهتف مستر جيلز ، راداً السمكري ، في بسالة ، الى المؤخرة : « غلام ! ماذا دهى ال ··· ايه ؟·· ولكنْ ، يا بريتلز ، انظر هنا ·· الست تعرفه ؟

ولم يكد بريتلز ــ الذي كان قد مضى الى الباب ليفتحه ــ يرى أوليفر حتى أطلق صيحة داوية · وأمسك مستر جيلز بالغلام من احدى رجليه واحــدى ذراعيه (ومن حسن الطالع انه لم يمسك به من ذراعه المكسورة) وجرّه الى الردهة مباشرة ، وتركه ممدّداً على ارضها ·

وهرع جيلز ، موجهاً صيحاته في اهتياج بالغ نحو أعلى السلم : « ها هو ذا ! ها هو أحد اللصوص ، يا سيدتي ! هوذا لص ، أيتها الآنسة ! انه جريح، أيتها الآنسة ! لقد أطلقت أنا النار عليه ، أيتها الآنسة ، في حين أن بريتلز حمل الضوء • »

« ••• لقد كان ذلك الضوء مصباحاً ، أيتها الآنسة ! » كذلك صاح بريتلز واضعاً احدى يديه جنب فمه لكي يكون في ميسور صوته أن يمضي الى أقصى ما يستطيع أن يمضي •

وهرعت الخادمتان ترتقيان السلم لكي تعلنا أن مستر جيلز قد ألقى القبض على لص • وشغل السمكري نفسه بمحاولة انعاش اوليفر خشية أن يموت قبل أن يعلَّق على أعواد المشنقة • وفي غمرة من هذه الجلبة كلها وذلك الهياج كله سُمِع صوت أنثوي عذب أخمدهما في الحال •

ــ « جيلز ! » كذلك همس الصوت من أعلى السلّم •

فأجاب جيلز : « أنا هنا ، أيتها الآنسة • لا ترتاعي ، أيتها الآنسة • أنا لم أصب بكبير أذى • انه لم يبد مقاومة يائسة جداً ، أيتها الآنسة ! لقد استطعت اخضاعه في سرعة • »

فقالت السيدة الصغيرة : « هش ! انك تروّع عمتي بقدْر ما روّعها اللصوص • هل أصيب المخلوق البائس بأذى كبير ؟ »

فأجابها جيلز في زهْو لا سبيل الى وصفه : « انه مصاب بجرح بليغ يائس • »

فزعق بريتلز ، بمثل نبرته السابقة : « يبدو انه على وشك أن يلفظ الروح ، أيتها الآنسة • ألست تريدين أن تجيئي وتنظري اليه ، أيتها الآنسة ، اذا لفظها فعلا ؟ »

فأجابت السيدة : « هش ، ارجوك ! هناك رجل صالح ! الزم الهدوء لحظة واحدة ، ريثما أتحدث الى عمتي • »

وبخطى رقيقة لطيفة كصوتها انطلقت المتكلمة في خفة ورشاقة • وسرعان ما رجعت لتصدر أوامرها بنقل الجريح ، في عناية ، الى فوق ، ووضعه في حجرة مستر جيلز ، ولتطلب الى بريتلز أن يُسرج الفرس القصير ويشخص في الحال الى تشيرتسي ، لكي يُرسل من هناك ــ على جناح السرعة ــ دركياً وطبيباً •

ــ « ولكن ألن تلقي نظرة واحدة عليه ، أولا ، أيتها الآنسة ؟ » كذلك سألها مستر جيلز ، في اعتزاز بالغ ، وكأن أوليفر كان طيراً ذا ريش نادر استطاع ببراعته هو أن يُسقطه • « حتي ولو نظرة خاطفة ، أيتها الآنسة ؟ »

فأجابته السيدة الصغيرة : « ليس الآن ، أياً ما كانت الدوافع • يا للفتى المسكين ! اوه ! عامله في رفق ، يا جيلز ، اكراماً لي ! »

ورفع الخادم العجوز بصره الى المتكلمة ، فيما كانت تستدير منصرفة ،

وأنشأ يتأملها في اعتزاز واعجاب وكأنها كانت طفلته المتحدرة من صلبه • ثم انه مال على أوليفر وساعد على نقله الى الطابق الأول ، بعناية وقلق شبيهين بعناية النساء وقلقهن •

الفصل التاسع والعشرون
وفيه تعريف بنزلاء البيت الذي فزع اليه أوليفر

في حجرة مليحة ، برغم أن أثاثها كان يوحي برفه الايام السالفة أكثر مما أوحى بالاناقة العصرية ، جلست سيدتان الى مائدة افطار عامرة • وكان مستر جيلز ، المكسو في عناية مغالى فيها ببذلة سوداء كاملة ، ملازماً اياهما على قدم الأستعداد لاداء أيما خدمة يطلبان منه اداءها • لقد تمركز في موضع وسط بين الخوان والمائدة ، حيث انتصب في وقفته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ورد رأسه الى وراء ومال ميلا طفيفاً جداً الى جانب ، مقدماً رجله اليسرى الى أمام ، مقحماً يده اليمنى في صدرته ، فيما تدلت يده اليسرى على جنبه ممسكة بصينية ، فبدا لعين الناظر وكأنه رجل بعيد الثقة بكفاءاته وأهميته •

كانت احدى السيدتين طاعنة في السن ، ولكن الكرسي السنديانی العالي الظهر الذي استوت عليه لم يكن أكثر منها انتصاب قامة • كانت ملابسها تتميز بأناقة واحكام متطرفين ، وكانت تجمع في مزيج غريب بين الزي الزائل وبين بعض التنازلات الطفيفة لذوق العصر ، وهو جمع أفضى الى توكيد الزي العتيق توكيداً سائغاً أكثر مما أفضى الى تعطيل أثره في النفس • كان مظهرها جليلا ، وكانت يداها متصالبتين على المائدة ، وكانت عيناها (اللتان عجزت السن عن اخماد بريقهما ، الا قليلا) مركزتين في انتباه على رفيقتها الشابة •

أما السيدة الصغيرة فكانت في ربيع الحياة وفي ريعان الجمال الانثوي الفاتن • وكانت في تلك السن التي لو قدر فيها لملائكة السماء أن تتجسد ، تنفيذاً لأغراض الله الصالحة ، في أشكال بشرية اذن لحسب المرء من غير أن يجانب التقوى انها حلت في جسد مثل جسدها هي •

كانت في السابعة عشرة من العمر لم تتجاوزها • وكانت مفرغة في قالب هو من الرقة والنعومة ، والعذوبة واللطف ، والطهارة والجمال بحيث بدت وكأن التراب لم يكن عنصرها ، وكأن المخلوقات البشرية الجافية لم تكن جديرة برفقتها • وكان الذكاء نفسه الذي التمع في عينيها الزرقاوين العميقتين والذي انطبع على جبينها النبيل ، يبدو شيئاً لم يخلق لسنها ، أو لعالمنا هذا • ومع ذلك فأن انطباعة العذوبة والبشر المتغيرة ، وآلاف الاضواء التي تألقت على محياها من غير ان تترك ثمة أثراً ، وفوق هذا كله تلك الابتسامة السعيدة

المبتهجة ، كل أولئك كان مخلوقاً للحياة البيتية الوادعة ، ولأشاعة الامن والسعادة في الجلسة العائلية حول المستوقد ٠

كانت منهمكة في مهامّ المائدة الصغيرة ٠ واذ اتفق لها ان رفعت بصرها فيما كانت السيدة العجوز تتأملها فقد عمدت ، على نحو عابث ، الى ردّ شعرها الى وراء ، ذلك الشعر الذي كان معقوصاً عقصاً بسيطاً فوق جبينها ٠ وعبّرت في نظرتها المشرقة عن حنان وفتنة ساذجة كان خليقاً بالارواح السماوية أن تبتسم لرؤيتهما ٠

وبعد لحظة صمت تساءلت السيدة العجوز : « واذن فقد انقضى على ذهاب بريتلز أكثر من ساعة ، أليس كذلك ؟ »

ـ « ساعة واثنتا عشرة دقيقة ، يا سيدتي ٠ » كذلك أجابها مستر جيلز، بعد أن راجع ساعة فضية سحبها من جيبه بشريط أسود ٠

فلاحظت السيدة العجوز : « انه بليد دائماً ٠ »

فأجابها مستر جيلز : « لقد كان بريتلز ، دائماً ، غلاماً بليداً ، يا سيدتي ٠ » واذ كان بريتلز ، بالمناسبة ، قد سلخ أكثر من ثلاثين عاماً وهو غلام بليدٌ فقد بدا ان ليس ثمة كبير احتمال لصيرورته غلاماً نشيطاً ٠

فقالت السيدة العجوز : « وأحسب انه ، بدلا من أن يتحسَّن ، يزداد كل يوم سوءا ٠ »

وهنا قالت السيدة الصغيرة ، متبسّمة : « لن يكون له عذر البتة اذا توقف ليلعب مع بعض الغلمان الآخرين ٠ »

وكان مستر جيلز في ما يبدو يتساءل بينه وبين نفسه أمن اللائق أن يطلق هو ذاته ابتسامة رصينة أم لا ، عندما تقدمت عربة ذات جواد واحد نحو بوابة الحديقة وترجّل منها سيدٌ بدين هُرِع الى الباب مباشرة ٠ حتى اذا دخل البيت على عجل بطريقة سرّية ما ، اقتحم الحجرة وكاد ان يطيح بمستر جيلز وبمائدة الافطار معاً ٠

وهتف السيد البدين : « أنا لم أسمع قط في حياتي بشيء مثل هذا ! يا عزيزتي مسز مايلي ـ وحق الآله ! ـ وفي سكون الليل ، أيضاً ! انا لم أسمع قط بشيء مثل هذا ! »

وبعد ان ارسل السيد البدين هذه العبارات الراشحة بالمؤاساة صافح كلا من السيدتين ، ثم أدني كرسياً ، وسالهما عن حالهما ٠

ـ « لقد كان خليقاً بكما أن تموتا من الرعب ، ان تموتا بالمعني الحقيقي !» كذلك قال السيد البدين ٠ « لمَ لم تبعثا في طلبي ؟ وحق الآله ، لو فعلتما اذن لجاء خادمي في دقيقة واحدة ، ولجئت أنا أيضاً ٠ ولابتهج مساعدي ، أو أي شخص آخر ، بالوفود عليكما في هذه الظروف ٠ انا واثق من ذلك ٠ يا آلهي! يا آلهي! كيف حدث هذا على هذا النحو غير المتوقع البتة! وفي سكون الليل، أيضاً!»

لقد بدا الطبيب شديد الانزعاج ، بخاصة ، لكون السطو قد حدث على نحو غير متوقع ، ولكونه قد تم في موهن من الليل . كان من مالوف عـادة السادة المشتغلين في حقل السطو على المنازل أن ينهضوا بمهامهم والشمس في كبد السماء ، وكان من القواعد المقررة عندهم ان يأخذوا لذلك موعداً ، من طريق البريد ، قبل يوم او يومين .

وقال الطبيب ، ملتفتاً الى السيدة الصغيرة : « وأنت ، يا مس روز ؟ أنا ... »

فقالت روز ، مقاطعة اياه : « اوه ، من غير ريب ، حقاً . ان ثمة في الطابق الأعلى مخلوقاً بائساً تريد عمتي منك أن تراه . »

فأجابها الطبيب : « آه ، طبعاً . هذا صحيح . لقد كان ذلك من صنع يديك ، يا جيلز ، على ما فهمت . »

وشاع الدم في وجه مستر جيلز ، الذي كان منهمكاً على نحو محموم في ترتيب أكواب الشاي وصفّها . وقال انه حظي بذلك الشرف فعلا .

فقال الطبيب : « شرف ، ايه ؟ حسناً ، لست أدري . ربما كان اطلاقك النار على لص في المطبخ الخلفي مشرّفاً بقدْر ما هو مشرف اطلاقك النار على خادمك الذي لا يبعد عنك أكثر من اثنتي عشرة خطوة . تصوّر لو أن ذلك اللص أطلق النار في الهواء ، وأنك اضطررت الى مبارزته ، يا جيلز . »

واذ اعتبر جيلز أن الاستخفاف بالمسألة على هذا النحو كان محاولة ظالمة للانتقاص من مجده ، فقد أجاب في احترام بقوله انه ليس من شأن أمثاله ان يعطوا الرأي القاطع في هذه المسألة ، ولكنه يميل الى الاعتقاد بأن ذلك لم يكن مزحة بالنسبة الى الخصم .

فقال الطبيب : « هذا صحيح ، وحـق السماء ! أين هو ؟ دلّني على الطريق ! سوف أمرّ عليك ، كرة اخرى ، يا مسز مايلي ، بعد أن اهبط من الدور العلوي . هذه هي النافذة الصغيرة التي نفذ منـها ، أليس كذلـك ؟ حسناً ، لقد كان خليقاً بي أن أعجز عن تصديق ذلك أبد الدهر ! »

وارتقى السلم ، لاحقاً بمستر جيلز ، وهو لا يكفّ عن الكلام طـوال الطريق . وفيما هو يرتقيها يحسن بي أن أحيط القارىء علمـاً بأن مستر لوزبيرن ـ وهو رجل كان يمارس الجراحة في تلك المنطقة من طريق المـران ، ويُعْرف في نطاق دائرة قطرها عشرة أميال بـ « الطبيب » ـ قد ترهل وأمسى بديناً نتيجة للحبور والبشاشة أكثر مما أمسى كذلك نتيجة للترف ورغـد العيش . وانه كان أعزب عجوزاً يتمتع من كرم النفس وصادق الودّ ، ومـن غرابة الاطوار في الوقت نفسه ، بقَدْر لا يستطيع أن يعثر على نظيره ـ في بقعة من الارض تبلغ مساحتها خمسة أضعاف تلك البقعة ـ أيما رائد جوّاب لا يزال على قيد الحياة .

وطالت غيبة الطبيب أكثر مما توقّع هو او توقعت السيدتان أن تطول بكثير • وجيء من العربة ذات الجواد الواحد بصندوق مسطّح ضخم ، وقرع جرس أحد المهاجع على نحو يكاد يكون متواتراً ، وارتقى الخدم درجات السلم وهبطوها في غير انقطاع • وهي قرائن استنتج منها بحقّ أن شيئاً هاماً كان يجري فوق • وأخيراً رجع الطبيب • وجواباً على سؤال لاهف عن صحة مريضه ، اتخذ سيماء ملفّعة بالأسرار وأوصد الباب خلفه في كثير من الاحتراس •

ــ « هذا شيء استثنائي ، الى أبعد حدّ ، يا مسز مايلي • » كذلك قال الطبيب ، مسنداً ظهره الى الباب وكأنه يريد أن يحول دون فتحه •

وقالت السيدة العجوز : « ان حالته ليست خطرة ، في ما أرجو • أليس كذلك ؟ »

فأجابها الطبيب : « يا آلهي ! لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة أي شيء استثنائي **البتة** • برغم اني لا أعتقد ان حالته جد خطيرة • هل رأيتِ هذا اللص ؟ »

فأجابته السيدة : « لا • »

ــ « ولم يقولوا لك أيما شيء عنه ؟ »

ــ « لا • »

وهنا اندفع مستر جيلز الى الكلام : « عفواً ، يا سيدتي • ولكني كنت على وشك ان أحدثكِ عنه عندما أقبل الدكتور لوزبيرن • »

والحق ان مستر جيلز لم يستطع ، باديءِ الامر ، أن يحمل نفسه على الاقرار بأنه لم يصب برصاصه غير غلام صغير • كانت المدائح التي أغدقت على بسالته من الوفرة وطيب الأرج بحيث لم يتمالك ، ولو كلفه ذلك حياته نفسها، عن ارجاء هذا التوضيح بضع دقائق لذيذة تهلّل خلالها وازدهر ، في أوج شهرة قصيرة صوّرته بطلا لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا •

وقالت مسز مايلي : « لقد سألتني روز أن أرى الى ذلك الرجل • ولكني أبيت أن أسمع كلامها • »

فقال الطبيب : « عجيب ! ليس في منظره ما يوقع في نفس المرء رعباً شديداً • هل لديك اي اعتراض على رؤيته في حضوري ؟ »

فأجابته السيدة العجوز : « لا ، من غير ريب ، اذا كان ذلك ضرورياً • »

فقال الطبيب : « اذن فأنا أعتقد انه ضروري • وعلى أية حال ، فأني على تمام الثقة من أنك لا بد أن تندمي أعظم الندم ، اذا ما ارجأتِ ذلك فترة اخرى• انه يتمتع الآن بهدوء وراحة مطلقين • من فضلك ، أيتها الآنسة روز ، هل تسمحين لي ؟ لن يأخذك منه أقل رعب ، أتعهد لك بشرفي !

الفصـــل الثلاثـون
وهو يصور رأي زائرتي أوليفر الجديدتين فيه

ومن غير ان يكفَّ الطبيب ، على نحو مهذار ، عن التوكيد على ان مشهد المجرم سوف يكون مفاجأة سارة لهما ، وضع ذراع السيـدة الصغـيرة تحت ذراعه ، وبسط ذراعه الحرة لمسز مايلي ، فقادهما في كثير من الجلال والوقار الى الطابق الاعلى •

وقال الطبيب هامساً ، فيما كان يدير مقبض باب من أبواب المهاجع : « والآن ، فلنسمع رأيكما فيه • ان شعره لم يحلق منذ فترة ما ، ولكنه لا يبدو برغم ذلك ضارياً البتة • ومع هذا ، قفا لحظة ! فلأتأكـد أولا أنه في وضـع يساعده على استقبال الزائرين • »

وتقدم السيدتين ، وألقي نظرة على الحجرة • ثم اومأ اليهما بأن تتقدَّما ، وأوصد الباب خلفهما بعد أن دخلتا ، وردَّ ستائر السرير في رفـق • كان مضطجعاً فيه ــ بدلا من ذلك الوغد الشرس القاتـم الوجـه ، الذي توقعتا أن ترياه ــ مجرد غلام صغير ، أضناه الألم والاجهاد ، واستغرق في نوم عميـق • كانت ذراعه الجريح معصوبة مجبَّرة ، وكانت موضوعة على نحو مستعرض فوق صدره • أما رأسه فكان مستقراً على الذراع الاخرى ، التي كانت نصـف محجوبة بشعره الطويل المتموّج على الوسادة •

وأمسك الرجل الطيب بالستارة بأحدى يديه ، وانفق دقيقة أو نحوها في تأمل صامت • وفيما هو يراقب المريض على هذه الشاكلة ، انسلَّت السيدة الصغرى الى أمامه ، واستوت في كرسي قائم عند جانـب السرير ، وأنشأت تذود شعر أوليفر عن وجهه • وفيما هي منحنية فوقه تساقطت عبراتها على جبينه •

وتحرك الغلام ، وابتسم وهو نائم ، وكأن أمارات الرأفة والحنان هذه قد أيقظت فيه حُلم حبٍّ ووداد لم يعرفه قط من قبل • وهكذا ، فأن مقطعاً من معزوفة موسيقية لطيفة ، أو ترقرُق الماء في موطن صامت ، أو شذا ريحانة ، أو التلفظ بكلمة مألوفة ، يستطيع في بعض الاحيان أن يثير فجأة ذكريـات غامضة عن مشاهد لم تكن قط ، في هذا العالم ، ذكريات لا تلبث أن تتلاشى تلاشي النفَس • لكأنّ الذي أيقظها تذكُّرٌ عابرٌ لوجود أسعد في عهد غابر ، فليس في ميسور أيما جهد اراديّ يبذله العقل أن يستحضرها بعدُ أبداً •

وهتفت السيدة العجوز : « ما معنى هذا ؟ ان هذا الطفل البائس لا يمكن أن يكون تلميذاً من تلاميذ اللصوص ! »

وتنهد الجراح وهو يعيد الستارة الى وضعها الاول : « الرذيلة تقيم في

هياكل عديدة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن بعض المظاهر الخارجية الجميلة لا تؤويها في داخلها ؟ »

فقالت روز في استغراب : « ولكنْ في مثل هذه السنّ الغضّة ؟ »

فردّ الجراح ، هازاً رأسه على نحو فاجع : « يا سيدتي الصغيرة العزيزة. الجريمة – كالموت – ليست وقفاً على الكبار والذابلين ٠ ان أنضر الناس عوداً وأبهاهم طلعة كثيراً ما يكونون ضحاياها المختارة ٠ »

فقالت روز : « ولكن ، هل تستطيع ٠٠٠ اوه ! هل تستطيع فعلا ان تصدّق أن هذا الغلام الرقيق كان شريكاً طَوْعياً لأسوأ طريدي المجتمع ؟ »

فهزّ الجراح رأسه وكأنه يريد أن يقول انه يخشى أن يكون ذلك ممكناً جداً ٠ ثم انه لاحظ أنهم قد يزعجون المريض بمثل هذا الحديث ، فتقدم السيدتين الى حجرة مجاورة ٠

وتابعت روز تقول : « ولكن فكّرْ ، حتى لو سلّمنا بأنه كان آثماً ، في مدى طراوة عوده ٠ فكّر انه ربما لم يعرف قط حب الأم ، أو رِفْه البيت ٠ فكر أن المعاملة السيئة واللكمات ، أو الحاجة الى الخبز ، ربما كانت هي التي دفعته الى معاشرة رجال أكرهوه على ارتكاب الجريمة ٠ فكري ، يا عمتي العزيزة ، فكّري في هذا ، اكراماً لله ، قبل أن تجيزي لهم أن يسوقوه الى السجن ، السجن الذي لا بد أن يكون على أية حال ، قبراً تُدفن فيه جميع آماله في التوبة والأصلاح ٠ اوه ! كما تحبينني ، وتعرفين انني لم أستشعر اليتم قط في ظل طيبتك وحنانك ، وتعرفين في الوقت نفسه أنه كان من الجائز أن أستشعر ذلك وأن أحيا حياة لا تقلّ بؤساً وحرماناً من الصون والحماية عن حياة هذا الغلام المسكين ، أتوسل اليك أن تشفقي عليه قبل فوات الأوان ! »

فقالت السيدة العجوز وهي تضمّ الفتاة المنتحبة الى صدرها : « يا مُنْيَة نفسي ، أتحسبين أني سوف أؤذي شعرة واحدة من شعرات رأسه ؟ »

فأجابتها روز في لهفة : « أوه ، لا ! »

فقالت السيدة العجوز : « لا ، من غير ريب ٠ ان أيامي تتقدم نحو نهايتها ٠ واني لأسأل الله ان يسبغ عليّ الرحمة كما أسبغها أنا على الآخرين ! ما الذي أستطيع أن أفعله لانقاذه ، يا سيدي ؟ »

فقال الطبيب : « دعيني أفكر ، يا سيدتي ٠ دعيني أفكر ٠ »

واقحم مستر لوزبرن يديه في بعض جيوبه ، وانشأ يذرع الحجرة جيئة وذهوباً ، متوقفاً غير مرة ، موازناً نفسه على رؤوس أصابعه ، زاوياً ما بين عينيه على نحو رهيب ٠ وبعد هتافات مختلفة من مثل « وأخيراً وجدتُها ! » و « لا ، لم أجدها ! » وتجديد متعدد للتذريع في الحجرة وللعبوس وقف آخر

الامر جامداً لا يريم ، وتكلم على النحو التالي :

– « أخسب انك ان أعطيتِني تفويضاً كاملا غير مقيَّد لتفريغ جيلز ، وذلك الغلام الصغير بريتلز ، استطعت التأتّي لذلك · ان جيلز رجل مخلص وخادم قديم · أنا أعرف هذا ، ولكن في استطاعتك أن تعوضيه من ذلك بألف طريقة ، وأن تكافئيه فوق ذلك على اجادته الرماية · هل تعترضين على هذا ؟ »

فأجابت مسز مايلي : « الا اذا كانت ثمة طريقة اخرى للاحتفاظ بالغلام · »

فقال الطبيب : « ليس ثمة طريقة اخرى · لا ، ليس ثمة أية طريقة اخرى · في استطاعتك أن تثقي بكلامي · »

فقالت روز ، متبسِّمة من خلال عبراتها : « واذن فأن عمتي تمنحك سلطة كاملة · ولكن أرجوك أن لا تقسو على الرجلين المسكينين أكثر مما تقضي الضرورة · »

فقال الطبيب : « يبدو انك تحسبين ، أيتها الآنسة ، روز ، ان كل امرىء نزّاع اليوم الى أن يكون قاسي الفؤاد ، ما عداكِ · ولست أتمنى، لمصلحة الذكور من أبناء الجيل الصاعد ، الا أن يكون مزاجك رقيق القلب سريع التأثر حين يلتمس عطفك أول فتى مناسب · وآسف أن لا أكون أنا ذلك الفتى لكي أفيد ، في الحال ، من فرصة لا تقلّ سخاء وملاءمة عن الفرصة الحالية · »

فأجابته روز وقد شاع الدم في وجهها : « أنت غلام كبير مثل بريتلز المسكين نفسه ! »

فقال الطبيب ضاحكاً من صميم قلبه : « حسناً ، هذه ليست مسألة عسيرة · ولكن فلنرجع الى الغلام · اننا لم نعالج بعد النقطة الاساسية في اتفاقنا · انه سوف يفيق ، على ما يخيل اليّ ، بعد ساعة أو نحوها · وعلى الرغم من أنني قلت لذلك الدركي العنيد ان الغلام في حال لا تجيز لنا نقله أو مخاطبته ، من غير أن تتعرّض حياته للخطر ، فأني أعتقد ان في ميسورنا ان نتحدث اليه دون ان نخشى شيئاً من ذلك · والآن ، اني اشترط هذا الشرط : سوف أستجوبه في حضرتكما ، فاذا استنتجنا مما يقول – أو اذا استطعت أنا أن أظهر لكما على نحو مُقنع – انه غلام رديء حقاً ، غلام رديء مئة بالمئة ، (وهو شيء محتمل جداً) تركناه عندئذ لقَدره ، من غير أن نقوم نحن من ناحيتنا بأي تدخُّل اضافي ، بأية حال من الأحوال · »

فتضرعت روز : « أوه لا ، يا عمتي ! »

فقال الطبيب : « بل نعم ، يا عمتي ! هل عُقِدت الصفقة ؟ »

فقالتَ روز : « من المتعذر أن تكون الرذيلة قد حجَّرت فؤاده · هذا

مستحيل . »

فأجابها الطبيب : « حسن جداً . ان هذا سبب اضافي يجب أن يدعوك الى الموافقة على اقتراحي . »

وأخيراً عُقِدت المعاهدة ، وجلس الفريقان ينتظران ، في شيء من نفاد الصبر ، ريثما يفيق أوليفر من رقاده .

وقدّر لصبر السيدتين أن يُمْتَحن فترة أطول من تلك التي كان مستر لوزبرن قد قادهما الى توقّعها . اذ انقضت الساعة اثر الساعة وأوليفر لا يزال غارقاً في نوم عميق . والواقع ان الليل كان قد هبط عندما أعلمهما الطبيب الطيّب أن الغلام قد استعاد وعيه ، آخر الامر ، الى حدّ يمكنهم من التحدث اليه . لقد قال ان وطأة المرض كانت شديدة على الغلام ، وأن نزف الدم كان قد أنهك قواه . ولكن عقله كان قلِقاً على نحو بالغ ، وكانت تحدوه رغبة ملحّة في أن يفضي بشيء ما ، الى درجة جعلته - أعني الطبيب - يرى ان من الخير له ان يتيح له فرصة ذلك الآن ، بدلا من الاصرار على ضرورة التزامه الهدوء حتى صباح غد . كما كان ينبغي له ان يفعل لولا ذلك الداعي الملحّ .

وكان المؤتمر مؤتمراً طويلا . لقد روى اوليفر لهم قصته البسيطة كلها ، وكثيراً ما اضطر الى الانقطاع عن الكلام من جراء الألم ووهن القوى . وكان مؤثراً أن يسمع المرء ، في تلك الحجرة المظلمة ، صوت الطفل المريض الضعيف وهو يقدّم لائحة مُضنية بالشرور والبلايا التي أنزلها به رجالٌ قُدَّت قلوبهم من حجارة . أوه ! لو قُدّر لنا ، حين نظلم أخواننا في الانسانية ونضطهدهم ، أن نفكر ولو لحظة واحدة في بيّنات الخطأ البشري القاتمة التي ترتفع مثل سحب كثيفة ثقيلة (قد يكون هذا الارتفاع بطيئاً ولكنه ليس أقلّ يقينية) نحو السماء لكي تعود بعدُ فتصبّ انتقامها على رؤوسنا . ولو قُدّر لنا ان نسمع ولو لحظة واحدة ، في الخيال ، تلك الشهادة الصامتة التي تطلقها أصوات الموتى ... أصوات الموتى التي لا تستطيع ايما قوة أن تخنقها ولا تقوى أيما كبرياء على حَجْبها ... أقول لو قدّر لنا ذلك لحظة واحدة فما الذي يبقى من الاذى ، والظلم ، والالم ، والشقاء ، والوحشية ، والآثام التي يحملها الينا كلُّ يوم من أيام الحياة ؟

تلك الليلة ملّست وسادة أوليفر أيد لطيفة ، وسهر على راحته حين نام كلٌّ من الجمال والفضيلة . لقد استشعر الهدوء والسعادة ، وكان في امكانه أن يموت من غير اي تذمر أو شكوى .

وما ان خُتمت المقابلة الخطيرة واستسلم اوليفر للرقاد كرة اخرى ، حتى مسح الطبيب عينيه متهماً اياهما بالضّعف المفاجىء ، وهبط السلم ليشنّ

هجومه على مستر جيلز · حتى اذا لم يجد أحداً في حجرات القعود خطرت له فكرة جديدة ، وهي أنه ربما كان في ميسوره أن يستهل اجراءاته في المطبخ على نحو أفضل وأبعد أثراً · وهكذا شخص الى المطبخ ·

وهناك ، في هذا المجلس الادنى من البرلمان المنزلي ، انتظم شمل الخادمات ، ومستر بريتلز ، ومستر جيلز ، والسمكري (الذي كان قد تلقّى دعوة خاصة لقضاء بقية اليوم ، وأحيط بمختلف أسباب الرعاية والتكريم ، نظرا لما قدّمه من خدمات) والدركي · وكان لهذا السيد الاخير هراوة ضخمة، ورأس ضخم ، وتقاطيع وجه ضخمة ، وحذاء ضخم ترتفع ساقاه الى منتصف الرجل ليس غير · ولقد بدا وكأنه كان قد احتسى قدراً من الجعة متناسباً وحجم هراوته ورأسه وتقاطيعه وحذائه ··· بل لقد كان هذا هو ما حدث في الواقع ·

كانت مغامرات الليلة البارحة مطروحة على بساط البحث ما تزال · ذلك بأن مستر جيلز كان يطنب في الكلام على حضور ذهنه ، عندما دخل الطبيب عليهم · وكان مستر بريتلز ، وفي يده كوز من الجعة ، يزكي كل جملة ، قبل ان ينطق بها زميله الذي يفوقه رتبة ·

وقال الطبيب ، ملوّحاً بيده : « ابقوا حيث أنتم ! »

فقال مستر جيلز : « شكراً لك ، يا سيدي · لقد أبدت السيدة رغبتها في أن أوزّع شيئاً من الجعة ، يا سيدي · واذ لم أكن ميالا الى البقاء في حجرتي الصغيرة ، يا سيدي ، وتاقت نفسي الى الرفقة ، فقد عمدت الى احتساء نصيبي معهم ، في هذا المكان · »

وبادر بريتلز الى اطلاق همهمة خفيضة فهم منها السادة والسيدات ان عليهم جميعاً ان يعبروا عن المتعة البالغة التي استمدوها من تنازل مستر جيلز وتفضّله · وأجال مستر جيلز بصره في ما حوله ، وعلى وجهه سيماء رعائية ، وكأنه يريد أن يقول انهم ما داموا يسلكون مسلكاً صالحاً فأنه لن يتخلى عنهم أبداً ·

وسأل مستر جيلز : « كيف حال المريض ، الليلة ، يا سيدي ؟ »

فأجابه الطبيب : « بين بين · أخشى أن تكون قد أوقعت نفسك في مأزق حرج ، يا مستر جيلز · »

فقال مستر جيلز وهو يرتعد : « أرجو أن لا تكون قد عنيت انه قد أشرف على الموت · ان مجرد التفكير في ذلك يحرمني السعادة أبد الدهر · أنا لا أريد أن أقضي على أيما غلام ··· لا ، حتى على بريتلز نفسه ، ولو من أجل جميع الاطباق الفضية التي في البلاد ، يا سيدي · »

فقال الطبيب بنبرة تكتنفها الاسرار : « ليس هذا جوهر المسألة · هل أنت بروتستانتي ، يا مستر جيلز ؟ »

فتلعثم مستر جيلز ، وكان وجهه قد شحب شحوباً بالغاً : « نعم ، يا سيدي ، أرجو أن أكون كذلك ٠ »

فقال الطبيب ، وهو يستدير نحو بريتلز فجأة : « وأنت ، أيها الغلام ، ما مذهبك ؟ »

فأجابه بريتلز مجفلا اجفالا عنيفاً : « فليباركني الرب ! أنا ٠٠٠ أنا مثل مستر جيلز ، يا سيدي ٠ »

فقال الطبيب : « اذن ، قولا لي كلاكما ، كلاكما ! هل أنتما مستعدان لأن تُقسما اليمين على أن الغلام الذي في الطابق العلوي هو الغلام الذي أدْخِل من النافذة الليلة البارحة ؟ انطِقا ! هيّا ! نحن مستعدون لكما ! »

وانما أصدر الطبيب ـ الذي كان الناس كلهم يعتبرونه واحداً من أرضى المخلوقات نفساً على سطح الارض ـ أمره هذا في لهجة مغضَبة رهيبة الى حدّ حمل جيلز وبريتلز (اللذين خبَّلتهما الجعة والاهتياج تخبيـلا بعيـداً) علـى تبادل النظرات المحدّقة في سيماء من الدهش والانشداه ٠

ـ « انتبه الى الجواب ، أيها الدركي ، من فضلك ! » قال الطبيب ذلـك وهو يهز سبابته في وقار عظيم ، مربِّتاً بها على قصبة أنفه ، لكي يدعو ذلـك الرجل الفاضل الى اصطناع أقصى النباهة والفطنة ٠ « ان شيئاً ما قد ينشأ عن هذا في وقت قريب ٠ »

وخلع الدركي على وجهه سيماء حمَّلها من الحصافـة والحكمـة أقصى ما استطاع ان يحمِّلها ، وتناول هراوته الرسمية التي كان قد تركها مستندة ، على نحو كسول ، الى زاوية الموقد ٠

وقال الطبيب : « انه سؤال بسيط عن الهوية ، كما سوف تلاحظ ٠ »

ـ « أجل ، ذلك ما هو ، على وجه الضبط ، يا سيدي ، » كذلك أجـاب الدركي ، وهو يسعل في عنف بالغ ٠ ذلك بأنه كان قد أفرغ في حلقـه آخـر نقطة من جعته افراغاً متعجلا ، وكان بعض هذه الجعة قد ضلّ السبيل ٠

وقال الطبيب : « ههنا بيتٌ يُقتحم اقتحاماً ، ويلمح رجلان اثنـان ، لحظة واحدة ، غلاماً ٠ أجل ، يلمحانه وسط دخان العيارات النارية ، وفي غمرة من الذهول الشديد الذي يوقعه الخوف والظلام في نفس المرء ٠ وههنـا غـلام يجيء الى ذلك البيت نفسه ، صباح اليوم التالي ٠ ويتفـق ان تكون ذراعـه معصوبة ، فيلقي هذان الرجلان أيديهما القاسية عليه ـ معرّضَيْن بذلـك حياته للخطر ـ ويُقسمان أنه هو اللص ٠ والآن هذا هو السؤال : هل تبرّر الوقائع صنيع هذين الرجلين ؟ واذا كان الجواب نفياً ، ففي أيّ موضع يكونان قد وضعا نفسيهما ؟ »

وهز الدركي رأسه هزة تنمّ عن تفكّر عميق ٠ وأعلن قائلا ان لم يكن هذا كلاماً قانونياً فعندئذ يكون سعيداً بأن يعلم ما هو ٠

ورعد الطبيب : « اني اسألكما من جديد هل تستطيعان ان تقسِما يميناً غليظة انكما تعرفان ذلك الغلام ؟ »

ونظر بريتلز الى مستر جيلز في ارتياب • ونظر مستر جيلز الى بريتلز في ارتياب • ووضع الدركي يده خلف اذنه لكي يتلقّف الجواب • وانحنت المرأتان والسمكري الى أمام لكي يسمعوا • وأجال الطبيب بصره في ما حوله على نحو ثاقب • وفجأة سمعوا جرس البوابة يرنّ ، وسمعوا في الوقت نفسه صوت عجلات •

وصاح بريتلز ، وقد سُرّي عنه في ما يبدو : « لقد أقبل رجال الشرطة ! »

فهتف الطبيب مشدوهاً بدوره : « مَنْ ؟ »

فأجابه بريتلز وهو يرفع الشمعة : « شرطة باوْ ستريت ، يا سيدي • لقد استدعيتهم أنا وجيلز هذا الصباح • »

فصاح الطبيب : « ماذا ؟ »

فأجابه بريتلز : « أجل ، لقد بعثت اليهم برسالة مع حوذي عربة البريد • واني لأعجب لعدم مجيئهم قبل الآن • »

— « انت فعلت هذا ، أليس كذلك ؟ فليأخذ الشيطان رجالك البُلَداء الذين أقبلوا الى هنا • هذا كل ما هنالك ! » قال الطبيب ذلك ، ومضى لسبيله •

الفصل الحادي والثلاثون
وهو ينطوي على موقف حرج

— « مَنْ هناك ؟ » كذلك تساءل بريتلز ، وهو يفتح الباب فتحاً جزئياً من غير ان يرفع السلسلة ، وألقى نظرة على الخارج مظلّلا الشمعة بيده •

فصاح رجل من الخارج : « افتح الباب • نحن شرطة باوْ ستريت الذين استدعيتمونا اليوم • »

وشجّعه هذا التوكيد تشجيعاً بالغاً ، ففتح الباب على مداه ، فألفى نفسه وجهاً لوجه مع رجل ضخم الجسم مُرْتد معطفاً • رجل سرعان ما دخل ، من غير أن ينبس ببنت شفة ، ومسح حذاءه على الحصير في برود وكأنه أحد نزلاء ذلك البيت •

وقال الضابط : « أرسل أحداً الى الخارج لكي يحلّ محل رفيقي ، من فضلك ، أيها الفتى ، انه في العربة ذات الجواد الواحد • لقد بقي هناك لكي يعنى بأمر العربة ، هل لديكم محطّ للعربات هنا لكي نبيّتها فيه مدة خمس دقائق او عشر ؟ »

وأجابه بريتلز أن نعم ، ودلّه على المبنى ، فلم يكن من الرجل الضخم الا ان ارتدّ نحو بوابة الحديقة وساعد رفيقه على تبييت العربة ، فيما كان بريتلز ينير لهما الطريق ، في حال من الاعجاب العظيم . حتى اذا تمّ ذلك انقلبا الى المنزل . وبعد أن ادخِلا الى قاعة استقبال ، نزعا معطفيهما وقبعتيهما ، وظهرا بمظهرهما الحقيقي .

وكان الرجل الذي قرع الباب ممتلئ الجسم ، متوسط القامة ، في نحو الخمسين . وكان ذا شعر أسود لمّاع جُزّ جزاً مغالى فيه ، ولحية عارضَيْنِ* نصفية ، ووجه مستدير ، وعينين حادتين . أما الآخر فكان رجلا أحمر الشعر مهزولا ، ينتعل حذاء عالي الساق . وكان ذا وجه دميم وأنف مرتفع الأرنبة مشؤوم المظهر .

– « قل لسيدك ان « بلاذرز » و « داف » قد أقبلا » كذلك قال الرجل البدين وهو يملّس شعره ، ويضع على الطاولة زوجاً من الاغلال . « أوه ! طاب مساؤك ، أيها السيد . هل أستطيع ان أقول لك كلمة او كلمتين على انفراد ، اذا سمحت ؟ »

وانما وُجّه هذا الكلام الى مستر لوزبرن ، وكان قد أطلّ الآن بطلعته . فأومأ هذا السيد الى بريتلز بالانصراف ، ثم أدخل السيدتين على رجُلَيْ الأمن ، وأوصد الباب خلفه .

وقال مستر لوزبرن وهو يشير الى مسز مايلي : « هذه هي سيدة البيت . »

فانحنى مستر بلاذرز تحية احترام . حتى اذا دُعي للجلوس ، وضع قبعته على أرض الحجرة ، واستوى على كرسي ، مشيراً الى « داف » بأن يفعل مثلما فعل . فلم يكن من هذا السيد الاخير ، الذي كان في ما يبدو اما قليل الألفة للبيوت الموسرة واما بعيداً عن الشعور بالارتياح في جوّها ، الا أن جلس، بعد أن عانى عدداً من العلل العضلية في الاطراف ، وأقحم رأس هراوته في فمه، بشيء من الارتباك .

وقال بلاذرز : « والآن ، في ما يتصل بمسألة السرقة هذه ، أيها السيد ، هل لك أن تحدثني كيف كان ذلك ؟ »

فلم يكن من مستر لوزبرن ، الذي بدا راغباً في كسب الوقت ، الا أن قصّ عليه الحكاية في اسهاب شديد ، ودوران حول المعنى كثير . وخلال ذلك اتخذ كل من السيدين « بلاذرز » و « دافّ » مظهر الرجل الذكي ذي الخبرة والدراية البالغتين ، وراحا يتبادلان هزّات الرأس بين الفينة والفينة .

وقال بلاذرز : « لست أستطيع أن أقطع برأي ، الا بعد أن أدرس العمل، طبعاً . ولكن رأيي لاول وهلة هو – ولا مانع عندي من الذهاب ، في ميدان

WHISKERS

التصريح ، الى هذا المدى ـ ان هذا العمل لم يقم به جلف من الاجلاف . أليس كذلك يا داف ؟ »

فأجابه داف . « طبعاً لا ! »

وهنا قال مستر لوزبيرن في ابتسامة : « واذا ترجمتُ لفظة « جلف » هذه لكي تفهمها السيدتان استطعت القول انك تعني ان هذه المحاولة لم يقم بها رجل من أهل الريف ... »

فأجابه بلاذرز : « تماماً ، أيها السيد . هذا كل ما هنالك عن السرقة ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب الطبيب : « أجل ، هذا كل ما هنالك . »

فقال بلاذرز : « والآن ، ما خطبُ هذا الغلام الذي يتحدث عنه الخدم ؟ »

فأجابه الطبيب : « لا شيء على الاطلاق . لقد شاء أحد الخدم المروّعين أن يتوهم ان له ضلعاً في محاولة اقتحام المنزل هذه . ولكن ذلك هراء ... مجرد سخف . »

فأعلن داف : « اذا صح ذلك ففي الامكان تسوية الأمر بسهولة بالغة . »

فقال بلاذرز ، هازاً رأسه هزة تأييد، عابثاً بالقَيْدين وكأنهما صنْجان*: « ان ما يقوله صحيح مئة بالمئة . من هو هذا الغلام ؟ ما الذي يرويه عن نفسه؟ من أين أقبل ؟ انه لم يسقط من بين السحب ، أليس كذلك ، أيها السيد ؟ »

فأجابه الطبيب ، وهو يلقي على السيدتين نظرة عصبية : « طبعاً ، لا . أنا أعرف قصته من أولها الى آخرها ، ولكن في استطاعتنا أن نتحدث عن ذلك في الحال . أنتما تريدان أن تريا اولا ، في ما أحسب ، الموضع الذي حاول اللصوص اقتحام المنزل منه ؟ »

فأجابه مستر بلاذرز : « من غير ريب . ان علينا ان نفحص المكان أولا ، ثم نحقق مع الخدم بعد ذلك . هذه هي الطريقة المألوفة في اداء العمل المنوط بنا . »

وجيء ، عندئذ ، بالشموع . ومضى السيدان « بلاذرز » و « داف » ـ يواكبهما الدركي المحليّ ، وبريتلز ، وجيلز ، وبكلمة موجزة سائر القوم ـ الى الحجرة الصغيرة القائمة في أقصى الرواق ، وألقيا نظرة على النافذة . وبعد ذلك انطلقا الى المرج وطافا خلاله حتى انتهيا الى تلك النافذة فألقيا عليها نظرة من الخارج . ثم قُدّمت اليهما شمعة لكي يفحصا على ضوئها مصراع النافذة ، ثم مصباحٌ لكي يدرسا آثار الاقدام ، فمذراةٌ لكي يسبرا غور شجيرات العليق . حتى اذا تمّ لهما ذلك ، في غمرة من اهتمام النظارة اللاهث ، دخلا المنزل من جديد . ودُعي مستر جيلز وبريتلز الى تمثيل دورهما في مغامرات الليلة البارحة ، فقاما بذلك ، على نحو ميلودراميّ ، نحواً من ست مرات ،

---

* مثنى صنج ، وهو صفيحة مدورة من النحاس الاصفر تضرب على اخرى مثلها للطرب .

مناقضَيْن أحدهما الآخر في ما لا يزيد على نقطة هامة واحدة ، في المرة الاولى ، وفي ما لا يزيد على اثنتي عشرة نقطة هامة في المرة الاخـيرة • حتى اذا تمّ الوصول الى هذه النتيجة ، غادر « بلاذرز » و « داف » الحجرة ، وعقدا مؤتمراً طويلا لو قورن به – من حيث السرّية والجلال – مؤتمرٌ لعظماء الاطباء حول أعقد مسألة طبية اذن لبدا هذا المؤتمر الطبي مجرد لعِبِ أطفال •

وفي غضون ذلك ذرّع الطبيب الحجرة المجاورة ، جيئة وذهوباً ، في قلق بالغ • وراحت السيدة مايلي والآنسة روز تنظران اليه وقد بدت أمارات الجزع على وجهيهما •

وقال ، وقد كفّ عن السير ، بعد عدة جولات خاطفة : « صدِّقاني اذا قلت لكما اني لا أكاد أعرف ما الذي يتعين عليّ أن أفعله ! »

فقالت روز : « أنا واثقة من ان قصة الغلام البائس ، اذا ما رُويت لهذين الرجلين كرّة اخرى ، في أمانة ، سوف تكون كافية لتبرئته • »

فقال الطبيب وهو يهزّ رأسه : « أنا أشك في ذلك ، يا سيدتي الصغيرة العزيزة • أنا لا أحسب انها سوف تبرّئه ، لا في نظرهما ، ولا في نظر رجال العدالة الأعلى مقاماً ورتبة • انهم سوف يسألون : ومن هو هذا الغلام ، على أية حال ؟ غلام متشرد آبق ! ان قصته ، اذا ما نُظِر اليها على ضوء الاعتبارات والاحتمالات الواقعية ليس غير ، لهي قصةٌ مُريبة جداً • »

فقاطعته روز : « ولكنك مؤمن بصحتها من غير ريب ، أليس كذلك ؟ »

فأجابها الطبيب : « أنا مؤمن بصحتها ، برغم غرابتها كلها • ومن يدري فقد يكون مردّ ذلك الى انني رجل عجوز أبله • ولكني مع هذا لا أعتقد انها على وجه الضبط من ذلك النوع الذي يستطيع تصديقه ضابط شرطة ذو خبرة • »

فسألته روز : « ولم لا ؟ »

فأجابها الطبيب : « حسناً ، يا مستجوبتي الحسناء ، لأن هذه القصة يكتنفها من وجهة نظرهم ، كثير من النقاط البشعة • انه لن يستطيع أن يُثبت الا الاجزاء التي هي في غير مصلحته • ولسوف يعجز عن اثبات ايٍّ من تلك الاجزاء التي هي في مصلحته • لعنهم الله ! انهم سوف يتعلّقون بلماذا وكيف، ولن يقبلوا أيما شيء من غير بيّنة ودليل • ولقد اعترف هو نفسه ، كما تعلمان ، بأنه كان رفيقاً لبعض اللصوص طوال فترة من الزمان • لقد سِيق ذات مرة الى مخفر من مخافر الشرطة بتهمة نشلِ شيء ما من جيب رجل ما • ولقد انتُزع عنوة من بيت ذلك الرجل الى منزل لا يستطيع أن يصفه أو يدلّ عليه ، وليس لديه أقلّ فكرة عن موقعه • لقد اقتاده الى تشيرتسي رجال يبدو انهم مولعون به ولوعاً عنيفاً ، سواء شاء هو ذلك أم لم يشأ • وأكرهوه على انتهاك حرمة منزل ما ، عبر احدى النوافذ ، لكي يسرقه • وفي اللحظة التي

اعتزم فيها تنبيه أهل البيت ، مقدماً بذلك على أداء العمل الوحيد الذي يُظهر براءته ، يعترضه كبيرُ خدم هجينٌ هو أشبه ما يكون بكلب أبله ، ويطلق النار عليه ! لكأنه تعمّد ذلك لكي يحول بين الغلام وبين اسداء أيما خدمة لنفسه ! ألا ترين هذا كله ؟ »

فأجابته روز ، ساخرة من حدة الطبيب وتهوّره : « أنا أراه ، من غير ريب • ومع ذلك ، فلست أجد فيه أيما شيء يجرّم الطفل البائس • »

فقال الطبيب : « لا • طبعاً لا ! فليبارك الله عيون بنات جنسك المتألقة ! انها لا ترى أبداً غير جانب واحد من اية مسألة • واي جانب ؟ انه دائماً الجانب الذي يتمثّل لها قبل غيره ! »

حتى اذا أطلق الطبيب ثمرة تجاربه هذه ، وضع يديه في جيبيه ، وراح يذرع الحجرة بأسرع مما ذرّعها حتى في المرة السابقة •

وقال الطبيب : « اني كلما فكرت في الأمر ازددت يقيناً بأننا اذا أطلعنا رجال الشرطة على قصة الغلام الحقيقية أورثناه ضروباً من البلاء والمتاعب لا نهاية لها • أنا واثق من أنهم لن يصدقوها • وحتى لو عجزوا آخر الأمر عن أن يسيئوا اليه ، فأن مجرد ابرازها للنور واظهار الناس جميعاً على الشكوك التي تثيرها سوف يعوق ، على نحو خطر ، خطتك الخيّرة لانقاذه من البؤس • »

فصاحت روز : « اوه ، ما الذي يتعين علينا أن نفعله ؟ يا آلهي ! يا آلهي ! لماذا استدعوا هذين الرجلين ؟ »

فهتفت مسز مايلي : « حقاً ! لقد كنت أؤثر أن لا يجيئا مهما كلفني ذلك من ثمن • »

وأخيراً قال مستر لوزبرن ، وهو يجلس في ضرب من الهدوء اليائس : « كل ما أعرفه هو أن علينا أن نحاول مواجهة النتائج في جرأة • ان هدفنا نبيل ، وهذا يجب أن يكون عُذْرنا • ثم ان أعراض حمّى قوية لتبدو على الغلام ، وهو في حال لا تمكّنه من احتمال اية محادثة جديدة ، وفي هذا بعض العزاء • وان علينا أن نفيد من هذا الوضع أفضل ما تكون الافادة • واذا اتفق ان كان هذا الأفضل شيئاً رديئاً فليست الغلطة غلطتنا • أدْخلا ! »

ــ « حسناً ، يا سيدي ، » قال بلاذرز ذلك وهو يدخل الحجرة يتبعه زميله ، ويُحكِم ايصاد الباب قبل أن يضيف أية كلمة اخرى ، « هذه السرقة لم تكن عملا مبيّتاً • »

فسأله الطبيب نافد الصبر : « وما هو ، بحقّ الشيطان ، العمل المبيّت ؟ »

ــ « نحن ندعو السرقة سرقة مبيّتة ، أيتها السيدتان ، » كذلك قال بلاذرز وهو يلتفت نحوهما ، وكأنه يرثي لجهلهما ولكنه ينظر الى جهل الطبيب

نظرة ازدراء : « عندما يكون للخدم ضلع فيها · »

فقالت السيدة مايلي : « ولكن أحداً لم يرتب فيهم ، أو يزعم ان لهم ضلعاً في هذه السرقة · »

فأجابها بلاذرز : « هذا صحيح في أغلب الظن · ولكنهم ربما كانت لهم ، برغم ذلك ، مشاركة فيها · »

فقال داف : « بل ان هذا عينه هو الذي يقوّي ذلك الاحتمال · »

فقال بلاذرز ، متابعاً تقريره : « نحن نعتقد أنها من وضع خبير لندنيّ · لأن أسلوب العمل هو من الطراز الأول · »

فلاحظ دافّ في همس : « الواقع ان ذلك الاسلوب يدل على براعة فائقة · »

وتابع بلاذرز قائلا : « لقد شارك فيها لصان اثنان ، وكان معهما غلام · ذلك واضح من حجم النافذة · ان هذا كل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر · ولسوف نرى ذلك الغلام الذي عندكم في الطابق العلوي ، على التوّ ، اذا سمحتم · »

– « لعلهما يرغبان في شيء من الشراب ، أولا ، يا مسز مايلي ؟ » كذلك قال الطبيب ، وقد أشرق وجهه ، وكأن فكرة جديدة كانت قد خطرت له ·

فصاحت روز في لهفة : « اوه ! من غير ريب ! سوف نقدم اليكما ذلك في الحال ، اذا شئتما · »

فقال بلاذرز ، ماسحاً فمه بردن سترته : « اوه ، شكراً لك ، أيتها الآنسة ! ان هذا الضرب من العمل الذي نقوم به يجفّف الحلق · هات ايما شيء في متناولك ، أيتها الآنسة · ولكن لا تزعجي نفسك من أجلنا · »

وسألهما الطبيب ، وهو يتبع السيدة الصغيرة الى الخوان : « ما الذي تفضلانه ؟ »

فأجابه بلاذرز : « قطرة صغيرة من الخمر ، أيها السيد ، ان لم يكن لديك مانع · ان الرحلة من لندن الى هنا توقع البرد في أوصال المرء ، يا سيدتي ، ولقد وجدتُ دائماً أنه ليس كالخمر باعث على الدفء في الفؤاد · »

وانما وُجّه هذا التصريح الماتع الى مسز مايلي ، التي تقبّلته في سماحة بالغة · وفيما كان بلاذرز يوجهه اليها انسلّ الطبيب من الحجرة ·

فقال مستر بلاذرز ، غير ممسك بكأسه من جزئها المهزول ولكنْ ممسكاً بها من كعبها بين ابهام يده اليسرى وسبّابتها ، وواضعاً اياها قبالة صدره : « آه ! لقد شهدتُ جرائم كثيرة كهذه ، في زمانيْ ، أيتها السيدتان · »

فقال دافّ مساعداً ذاكرة زميله : « كعملية السطو التي حدثت في الزقاق الخلفيّ في ايدمونتون ، يا بلاذرز · »

فعلّق مستر بلاذرز : « لقد كانت تلك العملية شبيهة بهذه بعض

الشيء ، أليس كذلك ؟ ولقد قام بها كونكي تشيكويد . »

فأجابه داف : « أنت لا تنفكّ تنسب تلك العملية اليه . لقد كانت من عمل ال « فاميلي بِت » أقول لك . أما كونكي فلم تكن علاقته بها لتزيد على علاقتي أنا ... »

فقال مستر بلاذرز : « أقلِع عن هذا . أنا أعلم منك . ومع ذلك ، فقد تذكر ذلك اليوم الذي سُلِب فيه أموالَه ؟ يا لها من بداية ! انها أروع من أية رواية قدّر لي ان اقرأها ! »

فسألته روز ، حريصة على تشجيع كل عَرض من أعراض الحبور وطلاقة الوجه يتكشّف عنه الزائران غير المرغوب فيهما : « وما هي ؟ »

فقال بلاذرز : « انها ، يا سيدتي ، سرقة لا يستطيع أحدٌ أن يقوم بمثلها الا في شق النفس . ان كونكي تشيكويد هذا ... »

فقاطعه داف : « كونكي تعني كبير الانف ، يا سيدتي . »

ـ « طبعاً ، السيدة تعرف ذلك ، أليس ما أقوله صحيحاً ؟ » كذلك تساءل مستر بلاذرز . « أنت تقاطعني ، دائماً ، أيها الزميل ! ان كونكي تشيكويد هذا ، أيتها الآنسة ، كان يملك حانة في طريق « باتل بريدج » ، وكان لديه قبو يقصده كثير من النبلاء الشبان لكي يشهدوا صراع الديوك ، ومطاردة الغُريرات* وما الى ذلك . ولقد كانت هذه الألعاب تدار على نحو فلسفي ، فقد شهدتها بنفسي مرات عديدة . انه لم يكن واحداً من الأسرة** ، في ذلك العهد . وذات ليلة سُلِب ثلاثمئة وسبعاً وعشرين جنيهاً كانت في كيس من الخيش ، سرقها من حجرة نومه ـ في جوف الليل ـ رجل فارع الطول على احدى عينيه عصابة سوداء . رجل كان قد أخفى نفسه تحت السرير، وبعد أن ارتكب جريمة السرقة ، مباشرة ، وثب من النافذة التي كان ارتفاعها عن الارض لا يزيد على ارتفاع الطابق الأول . ولقد فعل ذلك في سرعة بالغة ، ولكن كونكي كان سريعاً أيضاً . ذلك بأن الضجة أيقظته ، فنهض من فراشه واثباً ، وأطلق النار في اتجاهه من بندقية صغيرة ، وأيقظ ابناء الحي كلهم . فأرسلوا صيحة المطاردة ، في الحال ، وحين أجالوا الطرف في ما حولهم وجدوا أن كونكي قد أصاب اللص بعياره الناري . اذ كان ثمة آثار دماء على طول الطريق حتى أحد الأسيجة القائمة على مسافة غير قصيرة . وهناك انقطعت هذه الآثار . وعلى أية حال ، فقد فرّ صاحبنا بالمال المسروق . وبعد ذلك ، ظهر اسم مستر تشيكويد ، وهو تاجر بالمفرّق مرخّص له بالعمل ، في صحيفة ال « غازيت » بين المفلسين الآخرين . ونظّمت حملة اكتتابات وتبرعات من أجل الرجل

* جمع غرير : وهو حيوان بين الكلب والسنور .

** يقصد أسرة اللصوص . (المعرّب)

المسكين ، الذي كانت خسارته تلك قد ذهبت بصوابه ، فراح يذرع الشوارع جيئة وذهوباً ، طوال أيام ثلاثة أو اربعة ، وهو يشدّ شعره علـى نحو يائس جعل كثيراً من الناس يخشَوْن أن يقضي على نفسه . وذات يوم ، وفد عـلى مفوضية الشرطة متعجلا ، واختلى بالمفوض الذي قرع الجرس ـ بعد محادثـة طويلة ـ واستدعى جيم سبايرز (وكان جيم شرطياً بالغ النشاط) وطلـب اليه أن يذهب ويساعد مستر تشيكويد في القاء القبض على الرجل الذي سرق منزله. وقال تشيكويد : « لقد رأيته ، يا سبايرز ، يمرّ بمنزلي صباح أمس » . فقال سبايرز : « لمَ لم تثب عليه وتأخذ بخناقه ؟ » فأجاب الرجل المسكين : « لقد صُعِقت الى درجة بعيدة حتى لقد كان في امكانك أن تفجّ جمجمتي بعود مـن أعواد الاسنان . ولكنني واثق من اننا سوف نلقي القبض عليه ، ذلك بأنه مرّ بالمنزل كرة اخرى بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ليلا . » ولم يكد سبايرز يسمع هذا حتى وضع في جيبه قميصاً نظيفـاً ومشطـاً ، خشية أن يضطر الى التغيّب يوماً أو يومين . ثم انطلق ، وتمركز عند نافذة من نوافـذ الحانة خلف ستارة حمراء صغيرة ، معتمراً بقبعته ، مستعداً لاطلاق النار عند أول اشارة . وكان يدخن بيبته هناك ، في ساعة متأخرة من الليـل ، عندما هدر تشيكويد ، فجأة ، قائلا : « ها هو ذا ! اوقفِ اللص ! اقتُلْه ! » فوثب جيم سبايرز الى الشارع ، وهناك بَصُر بتشيكويد ينهب الارض ـ في اثـر اللص ـ نهباً . ويندفع سبايرز كالسهم، ويواصل تشيكويد انطلاقه، ويلتفت الناس الى وراء ، ويصيح كل امرىء « اللصـوص ! » ، ويستمر تشيكويـد نفسُه في الصياح ، على نحو موصول ، مثل رجل أصابه مسّ من جنـون . ويتوارى الرجل عن ناظري سبايرز لحظة عندما انعطف حول زاوية الشارع ، ويندفع سبايرز خلفه لكي يدركه ، ويلتقي جمعاً من النـاس ، ويشق طريقـه وسطهم . ويصيح : « من هو غريمك ؟ » فيجيبه تشيكويد : « عليّ لعنة الله ! لقد أضعته من جديد ! » لقدكانت مصادفة غريبة ، ولكنهم لم يهتدوا اليه في اي مكان ، وهكذا انقلبوا الى الحانة . وفي صباح اليوم التـالي انتصب سبايرز في مكانه القديم ، وراح يترصد ـ من وراء الستارة ـ رجلا فارع الطول على احدى عينيه عصابة سوداء ، حتى كلّت عيناه هو واستبدّ بهما الألم كرة اخرى . وأخيراً لم يتمالك عن اغماضهما ، لكي يريحهما ولو دقيقة واحدة . ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع تشيكويد يهدر : « ها هو ذا ! » فيندفع واثباً ، كـرة اخرى ، وقد تقدّمه تشيكويد مسافة تبلغ نصف طول الشارع تقريباً . وبعد أن ركضا ضِعف المسافة التي اجتازها بالأمس توارى الرجل عن أنظارهما من جديد ! وتكرر ذلك مرة أو مرتين حتى زعم نصف الجيران ان الذي سرق مستر تشيكويد لم يكن غير الشيطان ، وان هذا الشيطان أخذ يعابثه ويحتال عليـه بعد ذلك . أما نصفهم الآخر فزعم أن الأسي كان قـد ذهـب بعقـل مستر

تشيكويد المسكين ٠ »

ـ « وماذا قال جيم سبايرز ؟ » كذلك تساءل الطبيب ، الذي كان قد رجع الى الحجرة بُعَيْد البدء في سرد القصة ٠

فاستأنف الشرطي حديثه قائلا : « لقد اعتصم جيم سبايرز بالصمت المطلق ، فترة من الزمان طويلة ، ولم ينطق بكلمة واحدة ٠ وراح يصغي لكل شيء من غير أن تبدو على وجهه أية أمارة تنمّ عن ذلك ، مما أظهر أنه يتقن صناعته ويحسن فهمها ٠ ولكنه تقدّم ، ذات صباح ، نحو المشرب ، وأخرج علبة سعوطه وقال : « تشيكويد ، لقد اكتشفت مرتكب هذه السرقة ٠ » فقال تشيكويد : « حقاً ؟ أوه ، يا عزيزي سبايرز ، دعني أنتقم لنفسي وعندئذ فقط يصبح في ميسوري ان أموت قرير العين ! أوه ، يا عزيزي سبايرز ، أين ذلك الوغد ؟ » فقال سبايرز ، وهو يقدم اليه قبصةً من سعوط : « كفى ! أقلع عن هذا الهذيان ! انك انت السارق ! » ولقد كان هذا صحيحاً ٠ ولقد أفاد من ذلك قدراً غير يسيّر من المال ، أيضاً ٠ والواقع أنه ما كان خليقاً بأيّ امرىء ان يكتشف حقيقة الأمر لو لم يتكشّف تشيكويد عن حرص بالغ على انقاذ المظاهر ! » قال مستر بلاذرز ذلك ، ووضع كأسه على المائدة ، وأنشأ يُصَلْصِلُ بالقيدين ٠

وقال الطبيب : « تلك قصة جدّ غريبة حقاً ٠ والآن ، تستطيعان أن تصعدا الى الطابق العلوي ، اذا شئتما ٠ »

ـ « اذا شئت **أنت** ، يا سيدي ، » كذلك أجابه مستر بلاذرز ٠ ومضى الشرطيان في أعقاب مستر لوزبرن ، مرتقيين السلّم الى مهجع أوليفر ٠ وتقدّم مستر جيلز الجماعة ، وفي يده شمعة مضاءة ٠

كان أوليفر قد نام نوماً خفيفاً ٠ ولكنه بدا اسوأ حالا من ذي قبل ، وكانت وطأة الحمى قد اشتدت عليه أكثر مما اشتدت في أية لحظة مضت ٠ وبعون من الطبيب وُفق الى الجلوس في سريره دقيقة أو نحوها ٠ ونظر الى الشخصين الغريبين من غير ان يَفْقه ما الذي يجري ٠ بل من غير أن يبدو أنه يذكر أين كان ، وما الذي حدث قبل ذلك ٠

وقال مستر لوزبرن ، في رفق ، ولكنْ في كثير من الانفعال : « هذا هو الغلام الذي شاءت المصادفة أن تجرحه بندقية نابضيّة خلال انتهاك صبياني لحرمة أراضي مستر لا أدري ما تدعونه ، غير بعيد من هنا ، فوفد على هذا البيت التماساً للمساعدة ، صباح اليوم ، فلم يكن من هذا الرجل الحاذق الذي يحمل الشمعة بيده الا أن امسك به ، في الحال ، وأساء معاملته ، معرّضاً حياته بذلك لخطر عظيم ، كما أستطيع أن أشهد بوصفي طبيباً » ٠

ونظر السيدان « بلاذرز » و « داف » الى مستر جيلز ، بعد أن لُفِتَ انتباههما اليه ٠ ونقّل كبير الخدم المشدوه طرفه منهما الى أوليفر ، ومن اوليفر

الى مستر لوزبيرن في مزيج من الخوف والارتباك يغري بالضحـــك الى أبعـد الحدود .

وقال الطبيب ، وهو يُمدّد أوليفر في سريره ، كرة اخرى ، بأناة ورفق : « أنت لا تعتزم انكار ذلك فيما أحسب ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب مستر جيلز : « لقد قمت بذلك كله وأنا أعتقد أن عاقبته سوف تكون حسنة ، يا سيدي ! أنا واثق من اني حسبت انه الغلام نفسه ، والا لما تعرّضت له . أنا لست ذا ميول غير انسانية ، يا سيدي . »

فسأله الشرطي الأعلى رتبة : « أيّ غلام حسبتَه ؟ »

فأجابه جيلز : « غلام اللص ، يا سيدي ! لقد ... لقد كان معهم غلام من غير شك . »

عندئذ سأله بلاذرز : « حسن . هل تعتقد ذلك الآن ؟ »

فأجابه جيلز ناظراً الى مستجوبه نظرة شاردة : « أعتقد ماذا ، الآن ؟ »

فقال بلاذرز في نفاد صبر : « تعتقد انه الغلام نفسه ، أيها الأبله ؟ »

فأجاب جيلز في سيماء تدعو الى الرثاء : « لست أدري . أنا لست أدري، حقاً . اني لم أستطع ان أقسم اليمين على ذلك . »

فسأله مستر بلاذرز : « ما رأيك ؟ »

فأجابه جيلز المسكين : « لست أعرف لي رأياً . أنا لا أظن أنـه الغـلام نفسه . الواقع انيشبه واثقمنأنهليسهو . أنتتعلم جيداً انذلك غير ممكن . »

وهنا تساءل بلاذرز : ملتفتاً الى الطبيب : « هل كان هذا الرجل يعاقر الخمر ، يا سيدي ؟ »

فقال « داف » ، موجهاً الكلام الى مستر جيلز في ازدراء عظيم : « يا لك من رجل مشوّش العقل الى حد التطرف ! »

كان مستر لوزبيرن يجسّ ، خلال هذا الحوار الوجيز ، نبض مريضه . ولكنه نهض الآن عن الكرسي المحاذي للسرير ، وأعلن قائلا انـه اذا ساورت رجلَيْ الشرطة شكوك مَا في هذا الموضوع فقد يكون من الخير لهما أن ينتقلا الى الحجرة المجاورة حيث يُدعى بريتلز للمثول بين أيديهما .

وعملا بهذا الاقتراح انتقلا الى حجرة مجاورة . حتى اذا دُعي اليها مستر بريتلز ورّط نفسه وزميله المحترم ، الأعلى منه رتبة ، في متاهـة هائلة مـن التناقضات والاستحالات الجديدة لم تُفْضِ الى القاء ايّ نور خاص على أيمـــا شيء ، باستثناء حالة التشوش والاختلاط التي سيطرت عليه هو . وباستثناء تصريحاته ، من غير ريب ، بأنه لن يكون في ميسوره ان يعرف الغلام الحقيقي لو وُضِع تحت بصره في تلك اللحظة ، وانه لم يحسب أوليفر ذلك الغلام الا لأن مستر جيلز قال انه هو ، وان مستر جيلز كان قد اعترف في المطبخ ، قبل

خمس دقائق ليس غير ، بأنه شرع يخشى ان يكون قد تهوّر بعض الشيء ٠

وبين الظنون والأحداس البارعة الأخرى طُرِح عندئذ هذا السؤال : هل أصاب مسترِ جيلز برصاصه أيما شخص حقاً ؟ وعند فحص الغدارة الأخرى المماثل طرازُها لطراز الغدارة التي أطلَق منها النار تبيَّن أنه لم يبق لها من الشحنة المدمرة غير البارود والورق الأسمر : وهو اكتشاف خلَّف أثراً بعيداً في نفوس القوم جميعاً ، ما عدا الطبيب ، الذي كان قد انتزع الرصاصة قبل عشر دقائق تقريباً ٠ بيد أن الأثر الذي خلَّفه في نفس مستر جيلز ذاته كان أعظم تلك الآثار على الاطلاق ـ مستر جيلز ، الذي تعلَّق بهذه الفكرة الجديدة في لهفة ودعمها بكامل قواه بعد أن استبدّ به طوال بضع ساعات خوفٌ شديد من أن يكون قد جرح على نحو قاتل أخاً من أخوانه في الانسانية ٠ وأخيراً غادر رجلا الشرطة دركيً تشيرتسي في المنزل ، من غير أن يزعجا نفسيهما كثيراً بأمر أوليفر ، ومضيا لقضاء الليل في المدينة ، واعدين بالعودة صباح اليوم التالي ٠

ومع صباح اليوم التالي أقبلت اشاعة تقول بأن في سجن كينغستون رجلين وغلاماً كان قد أُلقِي القبض عليهم في الليلة البارحة في ظروف مريبة ٠ وهكذا ارتحل السيدان « بلاذرز » و « داف » الى كينغستون ٠ بيد أن تلك الظروف المريبة سرعان ما ذابت ، بعد التحقيق ، لتؤلف حقيقة واحدة وهي أنهم وُجدوا نائمين تحت كدْس من العشب اليابس ٠ وهي من غير ريب جريمة نكراء ، ولكن عقوبتها لا تعدو السجن وهي تُعتبر ـ في عين القانون الانكليزي الرحيمة وحبّه الشامل لجميع رعايا الملك ـ برهاناً غير كاف ، في غيبة سائر البيّنات الأخرى ، لأثبات ارتكاب النائم ، أو النائمين ، جرم السطو على المنازل ليلا ، مع اللجوء الى العنف ، معرّضين أنفسهم بذلك لعقوبة الموت ٠ وهكذا رجع السيدان « بلاذرز » و « داف » من غير أن يعرفا أيما شيء لم يكونا يعرفانه من قبل ٠

وبالاختصار ، وبعد استجواب اضافي وكثير من المحادثات الجديدة ، أقنع أحد قضاة التحقيق المحليين ، في غير عُسْر ، بقبول كفالة مسز مايلي ومستر لوزبيرن اللذين تعهَّدا بأن يَمْثُل أوليفر بين يدي رجال القضاء اذا ما دُعي الى ذلك ٠ وانقلب « بلاذرز » و « داف » الى العاصمة ، بعد ان كوفئا بجنيهين اثنين ، وقد اختلف رأياهما في موضوع الحملة التي كُلِّفا القيام بها ٠ فأما « داف » فمال بعد تفكير مهيٍّ في جميع الظروف والوقائع الى الاعتقاد بأن محاولة السطو كانت من عمل الـ فاميلي بِت » ، وأما بلاذرز فمال الى الاعتقاد بأن شرف تلك المحاولة انما يحتكره مستر كونكي تشيكويد العظيم وحده ٠

وفي غضون ذلك استرد أوليفر الصحة والعافية ، على نحو تدريجي ، بفضل عناية مشتركة أحاطته بها مسز مايلي ، وروز ، ومستر لوزبيرن الرقيق الفؤاد ٠ واذا كانت الدعوات المتقدة ، المنبثقة من قلوب مثقلة بالشكران

مستجابة في السماء ـ واذا لم تكن تلك الدعوات مستجابة فأيها المستجاب ؟!ـ فأن البركات التي استنزلها الطفل اليتيم عليهم نفذت الى أفئدتهم مُشيعة فيها الامن والسعادة ٠

الفصل الثاني والثلاثون
وهو يصور الحياة السعيدة التي شرع أوليفر يحياها مع أصدقائه الكرام

والواقع ان آلام أوليفر لم تكن لا ضئيلة ولا قليلة ٠ فبالاضافة الى الاوجاع والمصاعب التي تصاحب ، عادة ، الاطراف المصابة بكسر ما كان التعرض للبلل والبرد قد أورثه حمى وبُرداء لازمَتاه عدة أسابيع وأنهكتا قواه على نحو يدعو الى الرثاء ٠ ولكنه شرع ، آخر الامر ، يسترد عافيته شيئاً بعد شيء ، فأمسى في استطاعته أن يعبر ، بكلمات قليلة دامعة ، عن تقديره العميق لطِيْبة السيدتين العزيزتين ، وعن رجائه المشبوب أن يُوفَّق ، حين يستعيد قوته ونشاطه ، الى القيام بعمل ما يُظهر مبلغ اعترافه بالجميل ٠٠٠ عمل يُشعرهما بالحب والشكران اللذين يفعمان فؤاده ٠٠٠ عمل مهما يكن ضئيلا فأنه قادرٌ على أن يُثبت لهما أن كرمهما الرقيق لم يذهب أدراج الرياح، وان الغلام البائس الذي أنقذه احسانهما من الشقاء ، او من الموت ، متلهف على خدمتهما من كل قلبه وروحه ٠

وقالت روز حين حاول أوليفر ، ذات يوم ، في ضعف واضح ـ أن ينطق بكلمات الشكران التي ارتفعت الى شفتيه الشاحبتين: « يا لك من فتى مسكين! سوف تتاح لك فرص كثيرة لخدمتنا اذا شئت ذلك ٠ اننا سوف نرتحل الى الريف، وعمتي تعتزم أن تصحبك معنا ٠ ولا ريب في ان الجو الهادىء ، والهواء العليل ، وجميع مباهج الربيع وجمالاته ، سوف تردّ اليك عافيتك كاملة خلال أيام قليلة ٠ ولسوف نصطنعك بمئة طريقة حين تصبح قادراً على تجشّم ذلك العناء ٠ »

فصاح أوليفر : « العناء ! اوه ، يا آنستي العزيزة ، ليتني أستطيع فقط أن أعمل في خدمتك ! ليتني أستطيع فقط أن أوقع البهجة في نفسك بسقاية رياحينك ، أو العناية بطيورك ، أو السعي في مناكب الارض طوال النهار لادخال السعادة على قلبك ! اني مستعدٌ لأن أقدم حياتي نفسها من أجل تحقيق هذه الأماني ! »

فقالت الآنسة مايلي ، متبسّمة : « انك لن تضطر الى تقديم أيما شيء على الاطلاق ! ذلك بأننا سوف نصطنعك ، كما قلت لك من قبل ، بمئة طريقة ٠

واذا ما تجشّمت نصف ما تعدني الآن بأدائه جعلتَني بذلك جدّ سعيدة حقاً.»

فصاح أوليفر : « سعيدة ، يا آنستي ! انه لكرم عظيم منك ان تقولي هــذا . »

فأجابته السيدة الصغيرة : « اذا تجشمت ذلك جعلتني سعيدة الى حدّ لا أستطيع ان أصفه لك . ان مجرد التفكير في ان عمتي العزيزة الطيبة قــدّر لها أن تنقذ أيما امرىء من شقاء محزن كذلك الذي صوّرته لنا خليــقٌ بــه ان يسعدني على نحو لا سبيل الى التعبير عنه . أما التأكد من أن الشخص الذي اسبغَتْ عليه حنانها وطيبتها أثبت بعدُ أنه معترف بالجميل حقاً ، كلِفٌ بنا حقاً ، فخليقٌ به أن يبهجني أكثر مما تستطيع أن تتخيل . هل تفهمني ؟ » ، كذلك تساءلَتْ وهي تتأمل وجه أوليفر المستغرق في التفكير .

فأجابها أوليفر في لهفة : « اوه ، نعم ، يا سيدتي ، نعم ! ولكني كنت أقول في ما بيني وبين نفسي اني منكرٌ الآن للجميل . »

فسألته السيدة الصغيرة : « نحو من ؟ »

فأجابها أوليفر : « نحو السيد الكريم ، والمربية العجوز العزيزة ، اللذين عنِيا بي ، من قبل ، عناية بالغة جداً . ولست أشك في انهما سوف يبتهجان اذا ما عرفا مبلغ السعادة التي أتمتع بها . »

فأجابت الآنسة المحسنة الى أوليفر : « وأنا أيضاً لا أشك في ذلــك . ولقد تفضل مستر لوزبين فوعد باصطحابك لرؤيتهم حالما تمكّنك صحتك من احتمال عناء الرحلة . »

فصاح أوليفر وقد أشرق وجهه بالحبور : « صحيــح يا سيدتي ؟ أنا لا أدري ، بسبب من الابتهاج الغامر ، ما الذي سوف أفعله حــين أرى وجهيهما الكريمين كرة اخرى ! »

وما هي الا فترة يسيرة حتى أمسى أوليفر في حال تساعده على احتمــال عناء هذه الرحلة . وهكذا انطلق هو ومستر لوزبين ، ذات صباح ، في عربة صغيرة تملكها مسز مايلي . حتى اذا بلغا جسر تشيرتسي ، غلــب الشحــوب الشديد على وجه أوليفر ، وأطلق صيحة عالية .

فصاح الطبيب ، في صَخب واضطراب ، كشأنه دائماً : « ماذا دهى الغلام؟ هل ترى شيئاً ... تسمع شيئاً .. تستشعر شيئاً .. ايه ؟ »

ـ « هناك ، يا سيدي ، » هكذا صاح أوليفر ، مشيراً بأصبعه من نافذة العربة . « ذلك المنزل ! »

فصاح الطبيب : « أجل ، ما بال ذلك المنزل ؟ تمهّل ، أيها الحــوذي . أوقف العربة هنا . ما بال ذلك المنزل ، يا صديقي ، قل ! »

فهمس أوليفر : « اللصوص ... البيت الذي ساقوني اليه ! »

فصاح الطبيب : « فليأخذه الشيطان ! هاي ، انت ! ساعدني على الترجّل · »

ولكن قبل أن يُوفَّق الحوذي الى النزول عن مقعده كان هو قد غادر العربة ، بطريقة أو بأخرى ، واندفع الى البيت المهجور ، وشرع يرفس الباب مثل رجل مجنون ·

ـ « هاي! » كذلك قال رجل احدب بشع ضئيل الجسم وهو يفتح الباب على نحو مفاجيء الى درجة جعلت الطبيب ، بسبب من عنف رفسته الاخيرة نفسه ، يكاد يسقط على طوله في الرواق · « ما المسألة ؟ »

فهتف الطبيب ، آخذاً بخناقه من غير أن يفكر لحظة واحدة : « المسألة ؟! المسألة ليست بالقليلة · انها مسألة سرقة · »

فأجابه الاحدب في برود : « ولسوف تكون المسألة مسألة قتل ، أيضاً ، ان لم ترفع يديك عني · هل تسمعني ؟ »

فقال الطبيب ، هازاً أسيره هزة عنيفة : « أجل ، أنا اسمعك · أين هو ـ لعن الله ذلك الرجل ، ما الاسم اللئيم الذي تطلقونه عليه ؟ ـ أين هو سايكس · أجل هذا هو اسمه · أين سايكس ، أيها اللص ؟ »

فحدّق الاحدب اليه ، وكأنه بلغ قمة الدهش والسخط · ثم انه تملّص على نحو بارع من قبضة الطبيب ، وأطلق وابلا من الشتائم الرهيبة ، وارتد منسحباً الى المنزل · الا انه قبل أن يوفق الى اغلاق الباب كان الطبيب قد اتخذ سبيله الى حجرة الاستقبال ، من غير ان يضيع أية لحظة في المداولة والمفاوضة · لقد أجال بصره في ما حوله ، في قلق ، فلم يجد أية قطعة من الاثاث ، أو أيّ أثر من شيء ما ، حياً كان ذلك الشيء أو غير حي ، بل لم يجد أن موضع الخزائن نفسه ينسجم مع وصف أوليفر للمكان ·

ـ « والآن ؟ » كذلك صاح الرجل الأحدب الذي كان قد راقبه مراقبة دقيقة ، « ما الذي تعنيه بدخولك منزلي على هذه الصورة العنيفة ؟ هل تريد أن تسرقني أم أن تغتالني ؟ قل ، أيهما تقصد ، هذا أم ذلك ؟ »

فقال الطبيب النزق : « هل رأيت في حياتك كلها رجلا يخرج للقيام بواحد من هذين الغرضين في مركبة خاصة ذات جوادين ، يا مصاص الدماء العجوز المضحك ؟ »

فسأله الاحدب : « ماذا تريد اذن ؟ هل تعتزم ان ترجع من حيث أتيت قبل أن انزِل بك بعض الاذى ؟ اذهب عليك اللعنة ! »

فقال مستر لوزبرن ، وهو يلقي نظرة على حجرة الاستقبال الاخرى ، التي كانت مثل الأولى ليس بينها وبين وصف أوليفر لها ايّ شبَه البتة : « ما ان أصبح قادراً على التفكير السليم حتى اكتشف مقرّك من جديد ، في يوم من الايام ، يا صديقي ! »

فقال الاحدب الدميم ساخراً : « أحق ما تقول ؟ اذا ما احتجت اليّ في يوم من الايام فأني هنا · أنا لم أسكن هنا على نحو مجنون ومتوحِّد ــ طوال خمس وعشرين سنة ــ لكي ارتجف منك رعباً · انك سوف تدفع ثمن سلوكك هذا ، أجل ، انك سوف تدفع ثمن سلوكك هذا · » قال الشيطان الضئيل الشائه ذلك وأطلق صيحة داوية ، وانشأ يرقص على الأرض وكأن الغيظ قد ذهب بصوابه ·

فغمغم الطبيب في ما بينه وبين نفسه : « هذه حماقة بالغة · لا ريب في أن الغلام قد اخطأ المنزل · اسمع ! ضع هذه في جيبك ، وارجع الى جُحْرك ! » نطق الطبيب بهذه الكلمات وألقى الى الاحدب بقطعة نقدية ، وانقلب عائداً الي المركبة ·

وتبعه الرجل حتى باب المركبة ، مطلقاً أقذع الشتائم واللعنات في غير انقطاع · حتى اذا التفت مستر لوزبين ليتحدث الى الحوذي ، اقحم رأسه في داخل العربة وحدج أوليفر ، لحظة من الزمان ، بنظرة حادة ضارية ، نظرة رهيبة حقود في الوقت نفسه ، كان خليقاً بالطفل أن لا ينساها ، طوال شهور عديدة ، سواء في يقظته أو منامه · ثم انه واصل اطلاق الشتائم الرهيبةالموغلة في الاقذاع حتى استوى الحوذي ، من جديد ، في مقعد القيادة · وحين انطلقت بهم المركبة كرة اخرى ، كان في ميسورهم أن يروه على مسافة ما خلفهم ، فاحصاً الارض بقدميه ، شاداً بشعره ، في نوبة من الغيظ حقيقية أو مفتعلة ·

وقال الطبيب بعد صمت طويل : « أنا حمار ! هل عرفت ذلك من قبل ، يا أوليفر ؟ »

ــ « لا ، يا سيدي · »

ــ « اذن ، فلا تنسَ ذلك مرة اخرى · »

ــ « أجل ، انا حمار ، » كذلك كرر الطبيب ، بعد صمت اضافي استغرق بضع دقائق · « حتى لو لم يخطىء الغلام المنزل ، وحتي لو كان الاشخاص أنفسهم هناك ما الذي كان في استطاعتي ان أفعله بمفردي ؟ وحتي لو كان معي أيما مساعد فلست ارى أي فائدة كان يمكن أن أجنيها من هذا الصنيع ، غير فضح نفسي والاعتراف المحتَّم بالطريقة التي خنقتُ بها تلك المسألة · ولقد كنت استحقّ ذلك على أية حال · فأنا لا افتأ أورّط نفسي في مآزق مختلفة ، من طريق الاستسلام لحوافزي الباطنية · ولقد كان خليقاً بذلك أن يفيدني كثيراً · »

والواقع ان ذلك الطبيب الممتاز لم يستسلم طوال حياته لشيء غير حوافزه الباطنية · ولسوف يكون في ميسورنا أن نقدر هذه الحوافز التي تحكّمت بمسلكه حق قدرها اذا عرفنا انها لم تسبّب له حتى ذلك الحين اية متاعب أو بلايا استثنائية ، وانما أكسبته احترام جميع من عرفوه واجلالهم الى

حد بعيد جدا . واذا أردنا قول الحقيقة تعين علينا أن نذكر انه كان قد خرج عن طوره بعض الشيء ، دقيقة او دقيقتين ، نتيجة لاخفاقه في العثور على بيّنة تعزّز رواية اوليفر ، في اول مناسبة أتيح له فيها أن يفوز بتلك البيّنة. بيد انه سرعان ما ثاب الى رشده ، حتى اذا وجد أن أجوبة أوليفر عن اسئلته كانت لا تزال مستقيمة متساوقة ، وانها كانت لا تزال تُرسَلُ بأخلاص وصدق جليّيْن لا يقلاّن عن ذينك اللذين وسَماها من قبل ، عقد العزم على تصديقها تصديقاً كاملا منذ تلك اللحظة فصاعداً .

واذ كان أوليفر يعرف اسم الشارع الذي يقيم فيه مستر براونلو ، فقد استطاعا أن يتجها الى هناك مباشرة . حتي اذا انعطفت المركبة نحو ذلك الشارع انشأ فؤاده يخفق خفقاناً شديداً حتي لقد انقطعت أنفاسه أو كادت .

وسأله مستر لوزبرن : « والآن ، يا بنيّ ، في أي هذه المنازل يقطن صاحبك ؟ »

فأجابه أوليفر ، وهو يشير بأصبعه ، في لهفة ، من نافذة المركبة : « ذاك! ذاك ! المنزل الابيض ! أوه ، أسرع ! اسرع ! اتوسل اليك ! يخيّل اليّ أني سأموت ! انا ارتجف ارتجافاً شديداً ! »

فقال الطبيب وهو يربت على كتف أوليفر : « هدّيء من روعك ! هدّيء من روعك ! انك ستراهم في الحال ، ولسوف يُسعدهم أن يجدوك سالماً معافى . »

فصاح أوليفر : « اوه ، أنا أرجو ذلك ! لقد أحسنوا اليّ احساناً بالغاً . لقد أحسنوا اليّ احساناً لا أقوى على وصفه . »

وواصلت المركبة جريها . ثم وقفت . لا ، ليس هذا هو المنزل المنشود. لعله أن يكون المنزل التالي . وتقدمت المركبة بضعة ياردات اخرى . ورفع أوليفر عينيه الى النوافذ ، وقد تحدّرت على وجهه عبرات التوقّع السعيد .

وأسفاه ! لقد كان المنزل الابيض خالياً ، وكانت على النافذة لوحة مسطور عليها : « للايجار . »

ــ « أطرق الباب التالي ! » كذلك صاح مستر لوزبرن واضعاً ذراعه في ذراع أوليفر . « ما الذي حلّ بمستر براونلو، الذي كان يقيم في المنزل المجاور، هل تعلمين ؟ »

كانت الخادمة لا تعلم . ولكنها أبدت استعدادها للمضيّ ابتغاء الاستطلاع . وما هي الا فترة يسيرة حتى رجعت وأعلنت ان مستر براونلو باع ممتلكاته كلها ، وارتحل الى جزائر الهند الغربية ، قبل أسابيع ستة . وشبك أوليفر يديه ، وارتدّ الى الوراء موهون القوى .

وسألها مستر لوزبرن بعد لحظة من الصمت : « وهل ارتحلت مدبّرة منزله أيضاً ؟ »

فأجابته الخادمة : « نعم ، يا سيدي . لقد ارتحل السيد العجوز ، ومدبِّرة المنزل ، وسيدٌ كان صديقاً لمستر براونلو ... ارتحلوا كلهم معاً . »

فقال مستر لوزبرن للحوذي : « اذن ، عـد بنا الى البيت . ولا تقـف لكي تعلف الجوادين الا بعد ان تخرج من لندن اللعينة هذه ! »

ـ « فلنذهب الى الكتبيّ ، يا سيدي ! » كذلك قال أوليفر . « أنا أعرف الطريق المؤدية الى هناك . فلنذهب لنراه ، ارجوك يا سيدي ! اوه ، فلنذهب لنراه من فضلك ! »

فقال الطبيب : « حسبنا ، اليوم ، خيبة أمل واحدة ، يا بنيّ المسكين . انها تكفينا نحن الاثنين وزيادة . اذا نحن مضينا الى بيت الكتبيّ فلا بد أن نجد انه قد مات ، أو أضرم النار في منزله ، أو ولى هارباً . لا ، لا ، فلنرجع الى البيت مباشرة ! »

وأوقعت خيبة الامل المريرة تلك أسى بالغاً في نفس أوليفر حتى في تلك اللحظات التي نعِمَ خلالها بأعظم السعادة . ذلك بأنه كان قد أبهج نفسه مرات عديدة ، خلال مَرْضتِه ، بالتفكير بكل ما سوف يقولـه له مستر براونلـو ومسز بيدوين ، وبالحبور الذي سوف يغمره حين يحدّثهما حديـث الايـام والليالي الطويلة التي سلخها وهو يفكر في ما صنعاه من أجله ، ويندب سوء حظه الذي قضى بأن يُفْصَل عنهما فصلا وحشياً . وفوق هذا ، فأن الأمل في تبرير نفسه تجاههما ، وايضاح الطريقة التي أكرِه بها على الابتعاد عنهما كان قد قوّى من معنويته وثبَّت عزيمته في وجه كثير من المحن الاخيرة التي ابتُلي بها . فاذا به الآن لا يكاد يستطيع احتمال التفكير بأنهما قد ارتحلا الى تلـك الديارَ النائية وقد ساورهما الاعتقاد بأنه محتال ولصّ ... وهو اعتقاد قد لا يجد ما يكذّبه حتى اليومِ الذي يلفظ فيه أنفاسه الاخيرة ...

بيد ان هذه الحادثة لم تُفْضِ الى ايما تعديل في مسلك المحسنين اليه . فبعد اسبوعين اثنين ، عندما استحال الجو دافئاً جميلا ، وشرعت كل شجـرة وكل ريحانة تطلْع وريقاتها الغضة وزهراتها الغنيـة ، اتخذوا الاستعدادات للابتعاد عن بيتهم في تشيرتسي بضعة أشهر . لقد بعثوا الى أحد المصـارف بتلك الاطباق الفضية التي أثارت جشع فاجين اثارة عارمة ، وعهدوا الى جيلز وخادم آخر في البقاء للعناية بأمر المنزل ، ثم ارتحلوا الى بيت صغير قائم في الريف ، على مسافة غير بعيدة من تشيرتسي ، واصطحبوا أوليفر معهم .

من ذا الذي يستطيع أن يصور الهناءة والبهجة ، والطمأنينة والسكينة العذبة التي استشعرها الغلام السقيم في الهواء العليـل وبـين النجاد الخضر والغابات الملتفة في قرية من قرى الريف ؟! من ذا الذي يستطيع ان يصـف كيف تنفذ مشاهد الأمن والسكينة الى نفوس مَنْ هدّهم الألم مِـن أبنـاء المدن المزدحمة الصاخبة ، وتغرس نضارتها عميقـاً عميقـاً في قلوبهم المرهَقة ؟

وحتى اولئك الذين قدّر لهم أن يعيشوا في شوارع مكتظة محصورة ، طوال أعمار من الكدح ، والذين لم يتوقوا الى التغيير قط ... اولئك الذين أصبحت العادة طبيعة ثانية عندهم والذين انتهوا ، أو كادوا ، الى ان يحبوا كل آجرة وكل حجر يشكلان تخوم نزهاتهم اليومية الضيقة... حتى هؤلاء حنّوا آخر الامر، بعد أن بسط الموت يده نحوهم ، الى نظرة قصيرة الى وجه الطبيعة . فما ان أبعِدوا عن مسارح آلامهم ومسراتهم القديمة حتى بدَوا وكأنهم انتقلوا على التوّ الى حال من الوجود جديدة . لقد دبّوا دبيباً ، يوماً بعد يوم ، الى بقعة ما ، خضراء مشمسة ؛ ولقد أيقظ مشهد السماء والنجد والسهل والمياه المتألقة ذكريات في نفوسهم وذكريات ، بحيث ان تذوّقاً سبْقياً للسماء نفسها قد لطّف انحدارهم السريع ، فغابوا في قبورهم بمثل طمأنينة الشمس التي شهدوا غروبها من نوافذ حجراتهم الموحشة قبل بضع ساعات ليس غير ، وبمثل الوداعة التي احتجبت بها عن أبصارهم الكليلة الواهنة ! ان الذكريات التي تبعثها مشاهد الريف السّاجية ليست من هذا العالم ، وليست من أفكاره وأمانيه . وان اثرها اللطيف قد يعلّمنا كيف نضفر أكاليل جديدة لقبور من أحببناهم ، وقد يطهّر أفكارنا ، ويقهر أمامها قديم العداوة والبغضاء . بيد أنه يتخلّف تحت هذا كله ، في أقلّ العقول نزوعاً الى التأمل ، وعيٌ سديمي مبهم يذكّر المرء بأنه عرف منذ فترة بعيدة ، في عهد ناء قصيّ ، مثل هذه المشاعر مما يثير عنده أفكاراً كئيبة عن مستقبل بعيد ، ويثني تحت ثقله الكبرياء والتكالب على المنافع الدنيوية .

كانت بقعة فاتنة تلك التي شخصوا اليها . وهناك بدا أوليفر ، الذي سلخ أيام حياته بين الحشود القذرة ووسط الجلبة والشغب ، وكأنه استهل وجوداً جديداً . كانت شجيرات الورد والياسمين البري تتسلق جدران البيت البسيط ، وكان اللبلاب يتعرّش حول جذوع الاشجار ، وكانت رياحين الحديقة تعطّر الهواء بضروب من الشذى الأرج . وعلى مقربة دانية من البيت كانت جبانة صغيرة ، غير مزدحمة بشواهد القبور الطويلة السمجة ، ولكنها غاصة بالرموس المتواضعة المكسوّة بالكلأ والطحالب الطريّة ، الرموس التي يرقد تحتها عجائز القرية رقدتهم الاخيرة . وكثيراً ما طوّف أوليفر بذلك المكان . واذ كان يفكر في القبر الحقير الذي رقدت فيه أمه ، فأنه كان يقعد هناك ، أحياناً ، وينتحب في نجوة عن العيون . ولكنه ما ان يرفع بصره الى السماء المترامية الاطراف فوق راسه حتى يكف عن التفكير فيها بوصفها راقدة تحت الثرى ، ويشرع في البكاء من أجلها ، على نحو محزون ، ولكنْ من غير ألم .

كانت فترة سعيدة . فالنهارات آمنةٌ رائعة ، والليالي لم تحمل معها لا خوفاً ولا همّاً ، ولا ذبولا في سجن بائس ولا تشاركاً مع رجال بائسين .

انها لم تحمل معها غير فكرات عذبة سعيدة • وكل صباح ، كان أوليفر يمضي الى سيد عجوز أشيب مقيم على مقربة من الكنيسة الصغيرة وكان هذا الشيخ يعلّمه القراءة على نحو أفضل ، ويعلمه الكتابة ، وكان يخاطبه في لطف بالغ ويبذل قصارى جهده في تعليمه مما جعل أوليفر لا يني يعمل على اكتساب رضاه واعجابه • وكان من دأب اوليفر ، بعد ذلك ، أن يتمشّى مع مسز مايلي وروز ، ويسمع اليهما تتحدثان حديث الكتب • وكان يجلس أحياناً على مقربة منهما في مكان ظليل ويصغي فيما تكون السيدة الصغيرة ماضية في القراءة، وهو عمل كان في امكانه أن يؤديه حتى تهبط العتمة ويتعذر عليه ان يتبيّن الحروف • وبعد ذلك كان عليه أن يدرس دروس الغد ، فينكبّ على ذلك في همة ونشاط، ضمن جدران حجرة صغيرة تطلّ على الحديقة ، حتى يدنو الليل في تؤدة ، عندما كان من دأب السيدتين أن تغادرا البيت كرة اخرى للنزهة ، مصطحبتين أوليفر معهما ، فهو يصغي في ابتهاج بالغ الى كل ما تقولانه • وكان يستشعر أعظم السعادة اذا ما رغبتا في زهرة يستطيع أن يتسلق لبلوغها ، او اذا ما نسيتا أيما شيء يستطيع هو ان يعدو التماساً له : لقد كان يصطنع في مثل هذه الحال أقصى سرعة قدّر له اصطناعها في أيما يوم • حتى اذا احلولك الظلام ، وانقلبوا الى البيت ، كانت السيدة الصغيرة تجلس الى البيانو ، وتعزف لحناً من الألحان اللطيفة ، أو تغني في صوت خفيض عذب أغنية قديمة كانت عمتها تطرب لسماعها • ولم تكن الشموع تضاء في أمثال هذه المناسبات ، وكان من دأب أوليفر أن يقعد ، خلالها ، قرب احدى النوافذ ، مصغياً الى الموسيقى العذبة وقد استخفه الطرب •

فاذا كان يومُ الأحد أنفقوه على نحو مختلف جداً عن الطريقة الذي قُدّر له أن ينفقه بها حتى ذلك الحين ! ولقد كان يوماً جدّ سعيد أيضاً ، كجميع الايام الاخرى في ذلك العهد الموغل في السعادة ! كان ثمة ، في الصباح ، تلك الكنيسة الصغيرة ، وقد صفّقت الاوراق الخضر عند نوافذها وغردت الأطيار خارجها ، وتسرّب الهواء الأرج عبر الرواق الخفيض فملأ المبنى الساذج بشذاه • كان الفقراء بالغي الاناقة والنظافة وكانوا يركعون للصلاة في خشوع عميق بحيث بدا اجتماعهم هناك متعة لا واجباً شاقاً مضجراً • وبرغم ان الترانيم لم تكن جدّ مصقولة الا أنها كانت طبيعية ولقد بدت أحفل بالموسيقى (في أذني أوليفر على الأقل) من ايّ من الترانيم التي قدّر له ان يسمعها في الكنيسة من قبل • وبعد ذلك كان يجيء دور النزهات سيراً على الاقدام ، كالمعتاد ، ثم زيارات كثيرة للمنازل النظيفة التي يقطنها العمال الكادحون • حتى اذا هبط الليل تلا أوليفر ، اصحاحاً او اصحاحين من التوراة، الذي كان يدرسه طوال الاسبوع ، واجداً في اداء هذه المهمة اعتزازاً ومتعة يفوقان الاعتزاز والمتعة اللذين كان خليقاً به أن يستشعرهما لو كان هو القسّ نفسه •

وفي الصباح ، كان من دأب أوليفر ان ينهض على قدميه في الساعة السادسة ، ويطوّف في الحقول ، غازياً الوشائع القائمة في كثير من المواطن النائية ، ليجمع باقات من الزهور البرية يعود ، بعدُ ، مثقلا بها الى البيت حيث كان تنسيقها على أفضل وجه ممكن لتزيين مائدة الافطار يقتضيه عناية بالغة وتفكيراً طويلا • وأخيراً كان ثمة بابونج الطير الغضّ ، أيضاً ، لعصافير الآنسة مايلي ، ذلك البابونج الذي كان أوليفر (بعد أن درس الموضوع على يديْ كاهن القرية البارع) يزين به الاقفاص وفقاً لمقتضيات الذوق التقليدي الى أبعد الحدود • حتى اذا أحيطت العصافير ، ذلك اليوم ، بجوٍّ من النظافة والأناقة ، مضَوْا في رحلة صغيرة يؤدون خلالها عملا من أعمال الخير والصدقة في القرية • ذلك كان دأبهم كل يوم ، فاذا اتفق لهم أن لا يمضوا لسبب ما فقد كان ثمة دائماً عمل يؤدّى في الحديقة أو في سبيل النباتات • وكان أوليفر (الذي درس هذا العلم على الاستاذ نفسه ، وكان بستانياً بالحرفة) ينكبّ على ذلك العمل في حماسة بالغة ، ريثما تُقْبل الآنسة روز • وعندئذ كان أوليفر يُغمر بألف مِدحة ومدحة لما جشّم نفسه من عناء •

وهكذا انقضت شهور ثلاثة : شهور ثلاثة كان خليقاً بها ـ حتى في حياة أكثر الناس هناءة وأوفرهم حظاً من العطف والمحاباة ـ أن تكون سعادة صرفة، وكانت في حياة أوليفر غبطة حقيقية • وبالكَرم الأصفي والاحفل بالودّ ، من جانب ، وبعرفان الجميل الاشدّ امعاناً في الصدق والحماسة والاتقاد من جانب ، دُجِّن أوليفر ، ولا عجب ، بعد فترة من الزمان وجيزة ، تدجيناً كاملا ، على أيدي السيدة العجوز وابنة أخيها • ولقد قابلتا مودة قلبه الغضّ الحسّاس المتقدة ، باعتزازهما به وتعلقهما بشخصه •

الفصل الثالث والثلاثون
وفيه تصاب سعادة أوليفر وأصدقائه بصدمة مفاجئة

وولّى الربيع في خفة ورشاقة ، وأقبل الصيف • ولئن كانت القرية جميلة أول الأمر فقد أصبحت الآن في ذروة خصبها الرّغَد • كانت الاشجار ، التي بدت في الشهور السابقة منكمشة جرداء ، قد تفجّرت الآن بحياة قوية وعافية موفورة • وبأذرعها الخضراء المبسوطة فوق الأرض الظمأى حوّلت البقاع المكشوفة العارية الى زوايا من الطراز الأول ، زوايا ذات ظل كثيف عذب كان يساعد المرء على تسريح طرفه في البرية الواسعة المنبسطة أمامه والمستحمة بأشعة الشمس • كانت الارض قد اكتست بوشاحها الأخضر الأشدّ اشراقاً ،

وسفحت في الارجاء عطورها الاشدّ ذكاء · ذلك كان ربيع العمر ، بالنسبة الى السنة ، وأوج قوّتها · وكان كل شيء بهيجاً زاهراً ·

ومع ذلك ، اتصلت الحياة وادعة في البيت الصغير ، وخيّم الصفاء البهيج نفسُهُ على نزلائه · وكان أوليفر قد غدا ، قبل ذلك بفترة غير يسيرة ، قويّ البِنْية موفور الصحة · ولكن العافية أو المرض لم تغيِّر من مشاعره الحارة نحو من كانوا حوله ، برغم أنهما يغيِّران من مشاعر اقوام كثيرين · كان لا يزال عين ذلك المخلوق اللطيف ، المحبّ ، الودود الذي كانهُ عندما هدّ الألم والعذاب قواه وعندما احتاج الى أشخاص من عُنُوا به في سبيل الفوز بأدنى الرعاية وأضأل الترويح ·

وتطاولت نزهتهم ، ذات ليلة جميلة ، أكثر من المعتاد · ذلك بأن الجو كان دافئاً على نحو استثنائي ، وكان القمر ساطعاً ، وكانت النسمات العليلة قد هبّت فأنعشت النفوس انعاشاً بالغاً · والواقع ان روزكانت في جذل عظيم، أيضاً وأنهم واصلوا سيرهم ، متجاذبين أطراف حديث مرح ، حتى تجاوزوا المسافة التي تعوّدوا اجتيازها · وما لبث التعب أن ألمّ بمسز مايلي ، فانقلبوا عائدين الى البيت في أناة · واكتفت السيدة الصغيرة بخلع قلنسوتها البسيطة ، وجلست الى البيانو جرياً على مألوف عادتها · وبعد أن أمرّت أصابعها ، في ذهول على مفاتيح البيانو بضع دقائق ، شرعت تعزف لحناً خفيضاً مغرقاً في الكآبة ، وفيما هي تعزف ذلك اللحن سمعا صوتاً أوقع في نفسيهما أنها كانت تبكي ·

فقالت السيدة العجوز : « روز ، عزيزتي ! »

فلم تجبها روز بشيء ، بل أسرعت في عزفها بعض الشيء ، وكأن تينك الكلمتين كانتا قد ايقظتاها من غمرة أفكار كئيبة ·

وصاحت مسز مايلي ، وقد نهضت في اهتياج وانحنت فوقها : « روز ، حبيبتي ! ما بالك ؟ أتذرفين الدموع ؟ ما الذي يحزنك ، يا فتاتي العزيزة ؟ »

فأجابت السيدة الصغيرة : « لا شيء ، يا عمتي ، لا شيء · لست أدري ما بي · أنا لا أستطيع ان أصفه · ولكني أشعر ··· »

فقاطعتها مسز مايلي : « أنت لستِ مريضة ، أليس كذلك يا منية قلبي ؟ »

فأجابتها روز وهي ترتعد وكأن قشعريرة قاتلة سرت في جسمها وهي تتكلم : « لا ، لا ! أنا لست مريضة ! ولسوف أصبح أحسن حالا بعد لحظات قليلة · اغلقِ النافذة ، أرجوك ! »

وأسرع أوليفر لتلبية رغبتها · وبذلت السيدة الصغيرة شيئاً من الجهد لاستعادة بِشرها ، وناضلت لكي تعزف لحناً أكثر بهجة · ولكن أصابعها سقطت خائرة فوق مفاتيح البيان ، فحجبت وجهها بكلتا يديها ، ثم ارتمت على احدى الأرائك ، وأطلقت العنان للعبرات بعد أن أمست الآن عاجزة عن كبحها ·

وقالت السيدة العجوز وهي تطوق روز بذراعيها : « يا بُنيَّتي ! أنا لم أرك في مثل هذه الحال قط من قبل ٠ »

فأجابتها روز : « لو استطعت اجتنابها لما روّعتك البتة ٠ ولقد حاولت ذلك ، باذلة قصارى جهدي ، فلم أستطـــع ٠ يخيَّـــل اليَّ ، يا عمتي ، اني مريضة فعلا ٠ »

ولقد كانت كذلك من غير ريب ٠ اذ ما ان جيء بالشموع حتى تبيَّنا ان لون محياها كان قد استحال ، خلال الفترة القصيرة التي انسلخت منذ عودتهم من النزهة ، الى بياض رخاميّ ٠ ان ملامحها لم تفقد شيئاً من جمالها ، ولكنـــها كانت قد تغيرت ، ولقد رانت على وجهها اللطيف سيماء قلقة شاردة لم تُلمَّ به به قطّ من قبل ٠وما هي غير دقيقة حتى خضَّبه احمرار قرمزي، وغلب على عينيها الزرقاوين الرقيقتين شرود ثقيل ٠ ولكن هذا الخضاب سرعان ما تلاشى ، مثل ظلٍّ ألقته سحابة عابرة ، واذا بشحوب كشحوب الموتى يستبـــدّ بهـــا كرة اخرى ٠

ولاحظ أوليفر – الذي راقب السيدة العجوز في قلق – أن تلك الأعراض قد روَّعتها ، ولقد كانت مروَّعة بها حقاً ٠ ولكنه رأى في الوقت نفسه أنهـــا تظاهرت بالاستخفاف بتلك الأعراض ، فحاول هو ان يحذو في ذلك حذوها ٠ ولقد نجحا في هذا نجاحاً غير يسير ، فاذا بمعنوية روز ترتفع بعض الشيء عندما أقنعتها عمتها بالايواء الى الفراش ٠ بل لقد بدت في حال صحيـــة أفضـــل ، وأكدت لهما أنها على مثل اليقين من أنها سوف تنهض في الصبـــاح موفـــورة العافية ٠

وقال أوليفر حين رجعت مسز مايلي : « أرجو ان لا يكون ثمة ما يشغـــل البال ٠ انها لا تبدو في صحة جيدة هذه الليلة ٠ ولكن ٠٠٠ »

فأومأت السيدة العجوز اليه بأن لا يتكلم ٠ ثم انها قعدت في زاوية مظلمة من زوايا الحجرة ، واعتصمت بالصمت فترة ٠ وأخيراً ، قالت في صوت مرتعش: « أرجو أن لا يكون ، يا أوليفر ٠ لقد كنت سعيدة معها أعظم السعادة طوال بضع سنوات ٠ ومن يدري ، فلعلي كنت سعيدة معها أكثر مما ينبغي ٠ وجائز أن يكون أوان أصابتي ببلية من البلايا قد آن ٠ ولكني أرجو ان يدفع الله عني تلك المصيبة ٠ »

فسألها أوليفر : « أية مصيبة ؟ »

فقالت السيدة العجوز : « مصيبة فقداني هذه الفتاة العزيزة التي طالما كانت مصدر راحتي وسعادتي ٠ وانها لمصيبة قاصمة للظهر ٠ »

فهتف أوليفر في اهتياج : « أوه ! لا سمح الله ! »

فقالت السيدة العجوز وهي تفرك يديها في توجُّع : « أرجو ان يستجيب الله دعاءك ، يا ولدي ! »

فقال أوليفر : « أنا واثق من انه ليس ثمة خطر من ايّ شيء رهيب الى هذا الحدّ . لقد كانت ، قبل ساعتين اثنتين ، في أحسن حال . »

فأجابته مسز مايلي : « ولكنها جد مريضة الآن ، وأنا واثقة من ان حالها سوف تزداد سوءاً. ياعزيزتي روز! ياعزيزتي روز! أوه، ما الذي سأفعله ان فقدتها!»

وأطلقت العنان لحزن شديد الى درجة جرّأت أوليفر ، الذي راح يكبح عواطفه ، على عَذْلها وعلى التوسل اليها أن تعتصم بالهدوء اكراماً للسيدة الصغيرة العزيزة نفسها .

وقال أوليفر ، فيما اندفعت العبرات الى عينيه ، برغم ما بذل من جهد لكبحها : « وفكّري ، يا سيدتي ... فكّري كم هي صغيرة وطيّبة ، وبأي قدْر من السعادة والراحة تحيط كل مَنْ هم حولها . انا واثق ... بل أنا موقن ... موقن جداً ... أنها لن تموت ... اجل ، لن تموت ، كُرْمة لك أنت ـ أنتِ المرأة الصالحة الى أبعد الحدود ـ وكُرْمة لها هي ، وكُرْمة لكل من تُسْعدهم . ان الله لن يدعها تموت في مثل هذه السنّ الغضة ، أبداً . »

فقالت السيدة مايلي ، واضعة يدها على رأس اوليفر : « صه ! انت تفكر مثل غلام طفل ، أيها الغلام المسكين . ومع ذلك فأنت تعلّمني واجبي . لقد نسيت ذلك الواجب لحظة ، يا أوليفر ، ولكني أرجو ان يُغفر لي هذا ، فأنا امرأة طاعنة في السن ، ولقد شهدت من مشاهد المرض والموت ما يجعلني أدرك لوعة الانفصال عمّن نحبّ . وان لي من الخبرة بأمور الدهر أيضاً ما يمكّنني من أن أعرف أن أصغرنا سناً وخيرنا نفساً ليسوا دائماً الذين يبقيهم الموت لمحبّيهم . ولكن هذا يجب أن يوقع في نفوسنا العزاء ، ذلك بأن السماء عادلة . وأشياء من مثل هذه لتعلّمنا ، على نحو مؤثر ، ان ثمة عالماً أعظم اشراقاً من هذا العالم ، وأن الانتقال اليه قريب . فلتكن مشيئة الله ! أنا أحبها ، وهو يعرف الى اي مدى ! »

ودُهش أوليفر اذ رأى ان مسز مايلي استطاعت ، وهي تنطق بتلك الكلمات ، أن تكبح أشجانها بجهد وحيد ، او هكذا خيّل له على الاقل ، ثم انها تصدّرت وهي تتكلم ، واستعادت رباطة جأشها وصدق عزيمتها . وتعاظم دهشُهُ عندما اكتشف أن تلك العزيمة الصادقة لم تعرف الوهن ، وان مسز مايلي ظلت أبداً ناشطة مطمئنة النفس برغم كل ما بذلته من عناية بالمريضة وسهر على راحتها ، فهي تؤدي جميع المهامِ التي آلت اليها اداء موصولا ، بل اداء يتسم بالابتهاج ـ اذا كان لنا أن نحكم وفقاً للمظاهر الخارجيـة كلها . ولكنه كان فتى غض الأهاب . ولم يكن يدري أيّ معجزة تستطيع العقول الراجحة أن تجترحها، في غمرات المحنة. وأنّى له أن يدري، ما دام أصحاب تلك العقول لا يعرفون أنفسهم الا نادراً نادراً ؟..

وكان الليل الذي تلا ، ليلا مفعماً بالقلق . حتى اذا تنفس الصبح تحققت نبوءات مسز مايلي تحققاً كبيراً . كانت روز تجتاز المرحلة الأولى من مراحل حمّى رهيبة خطرة .

ــ « يتعين علينا أن ننشط ، يا أوليفر ، وان لا نستسلم للأسى العقيم ، » كذلك قالت مسز مايلي واضعة أصبعها على شفتها ، فيما كانت تحدق الى وجهه تحديقاً موصولا . « هذه الرسالة يجب أن يُبْعث بها ، بأقصى سرعة ممكنة ، الى مستر لوزبرن . يجب أن تحمل الى البلدة التي تقام فيها السوق ، والتي لا تبعد أكثر من اربعة اميال ، من طريق القدومية الممتدة عبر الحقول ، لتُرْسَل من ثم بواسطة رسول خصوصي يمتطي متن فرس ، الى تشيرتسي مباشرة . ان رجال النُزل سوف ينهضون بهذه المهمة ، وأنا أعلم ان في استطاعتي أن أتكل عليك في القيام بواجب التأكد من انهم نهضوا بها . »

ولم يوفق أوليفر الى النطق بأي جواب . ولكن أساريره عبرت عن رغبته الملحة في الانطلاق في الحال .

ــ « هي ذي رسالة اخرى ، » كذلك قالت مسز مايلي وتمهلت لحظة لتفكر . « ولكني لا أكاد أدري هل يتعين علي ان أبعث بها الآن او أن أنتظر حتى أرى على أي صورة سوف تتطور حال' روز . أنا لن أبعث بها الا اذا خشيت' اسوأ الاشياء . »

فسألها أوليفر ، متلهفاً لأداء مهمته ، باسطاً يده لتسلّم الرسالة : « أهي موجهة الى تشيرتسي أيضاً ، يا سيدتي ؟ »

ــ « لا ! » كذلك أجابت السيدة العجوز وهي تدفع الرسالة اليه على نحو آلي . وألقى أوليفر نظرة عليها ، فرأى انها معنونة باسم السيد المحترم هاري مايلي ، المقيم في قصر اقطاعي كبير من قصور الريف . ولكنه لم يفهم أين يقع ذلك القصر على وجه التحديد .

وسألها أوليفر وهو يرفع بصره نحوها نافد الصبر : « هل أعمل على ايصالها ، يا سيدتي ؟ »

فأجابته مسز مايلي ، وهي تستردها منه : « لست أعتقد ذلك . سوف أنتظر حتى غد . »

ولم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى قدّمت كيس نقودها الى اوليفر . فانطلق في غير ابطاء ، مصطنعاً أقصى ما وُفق اليه من سرعة .

لقد عدا ، في خفة ، عبر الحقول ، وهبط الدروب الضيقة التي كانت تخترقها في بعض الأحيان . كان القمح الناهض على سُوقِهِ العالية يحجبه ، أو يكاد ، من كلتا الناحيتين ، ليعود بعد' فيبرز وسط حقل مكشوف ، انصرف الحصادون وناشرو العشب المجفف الى اداء عملهم فيه بهمة ونشاط . ولم يكف

عن العدو مرة واحدة ، الا بين الفينة والفينة ولبضع ثوان ليس غير لكي يسترد أنفاسه ، حتى انتهى آخر الأمر ــ وقد تفصّد العرق من جسمه وكساه الغبار ، الى موضع السوق الصغيرة القائمة في البلدة التي عيّنتها السيدة العجوز ٠

وهنا تمهّل ، وأجال طرفه في ما حوله بحثاً عن النُزل ٠ كان ثمة مصرف أبيض ، ومعمل جعة أحمر ، ودار بلدية صفراء ٠ وفي احدى الزوايا كان يقوم مبنى كبير ، دُهِنت جميع أجزائه الخشبية الخارجية باللون الأخضر ، ونصِبت أمامه لافتة مسطور عليها : « نُزل الملك جورج » ٠ فهرع الى ذلك الموطن ، حالما وقعت عينه على اللافتة ٠

وتحدث الى حوذي كان النعاس غالباً عليه تحت البوّابة ٠ فأحاله هذا ، بعد أن عرف ما يبتغيه ، الى سائس الخيل ، الذي أحاله بعد أن سمع بدوره لما يريد ان يقوله ــ الى صاحب النزل نفسه ، الذي كان سيداً فارع الطول ، ذا ربطة عنق زرقاء ، وقبعة بيضاء ، وبنطال قصير عسليّ ، وحذاء عالي الساق متناغم مع ذلك كله ٠ وكان صاحب النزل هذا مستنداً الى مضخّة قائمة على مقربة من باب الاصطبل ، مستغرقاً في تنظيف أسنانه بخِلالة* فضية ٠

عندئذ مضى هذا السيد ، في أناة بالغة ، الى المشرب لكي يعدّ الفاتورة ، وهو عمل استغرق وقتاً غير قصير ٠ حتى اذا أنجِزت الفاتورة ، ودُفعت ، كان لا بدّ من اسراج جواد من الجياد ، والباس رجل من الرجال ، وهما عملان استغرقا عشر دقائق اضافية ٠ وفي غضون ذلك استبدّت بأوليفر حالة يائسة من القلق ونفاد الصبر حتى لقد استشعر ان في استطاعته أن يثب هو نفسه الى ظهر الجواد ، وينطلق به بأقصى سرعة ممكنة ، الى المحطة التالية ٠ وأخيراً أمسى كل شيء جاهزاً ، فدفع أوليفر الرزمة الصغيرة الى الرجل ، متوسلا اليه غير مرة أن يوصلها الى صاحبها على جناح السرعة ٠ عندئذ نخس الرجل جواده بالمهماز ، وانطلق به محدثاً فوق أرض السوق غير المستوية جلبة كبيرة ٠ وما هي الا دقيقتان أخريان حتى أمسى خارج البلدة واندفع بأقصى السرعة نحو الطريق المفضية الى بوابة المكوس ٠

والواقع ان التيقن من ان التماس النجدة قد أرْسِل وان ايما وقت لم يُضَعْ لم يكن بالشيء القليل ، وهكذا احتاز أوليفر فِناء النُزُل في خطى سريعة وقد خفت وطأة الغم عن نفسه بعض الشيء ٠ وكان ينعطف خارجاً من بوابة النزل عندما اصطدم برجل طويل متلفع بشبه عباءة كان يدخل النزل في تلك اللحظة ذاتها ٠

وصاح الرجل وقد ثبّت عينيه على أوليفر ، وارتدّ الى الوراء فجأة :

* الخلالة : ما تخلل به الاسنان ٠ وهي تقابل لفظة TOOTH PICK في الانكليزية CURE - DENTS في الفرنسية ٠

« هاه ! ما هذا بحق الشيطان ؟! »
فقال أوليفر : « ألتمس عفوك ، يا سيدي · لقد كنت أتعجل العودة الى البيت ، ولم أر انك قادم · »
ـ « الموت لك ! » كذلك غمغم الرجل في ذات نفسه ، محدقاً الى الغلام بعينيه السوداوين الواسعتين · « من كان يصدق هذا ؟! فلينسحق حتى يصير رماداً ! لقد وثب من تابوت حجري لكي يعترض سبيلي ! »
فتلعثم اوليفر ، وقد روّعته نظرة الرجل الغريب الضارية ، وقال : « متأسف ! أرجو ان لا أكون قد سببت لك اي أذى ! »
فغمغم الرجل ، في اهتياج رهيب ، مرسلا الكلمات من بين أسنانه المطبقة : « فليأخذك الشيطان ! اني لو وجدت الشجاعة على قول كلمة واحدة لكان من الجائز أن أتخلص منك في ليلة واحدة ليس غير. فلتنصبّ اللعنات على رأسك ، ولينزل الموت الاسود على قلبك ، أيها العفريت الصغير ! ما الذي تفعله هنا ؟ »
وهزّ الرجل جُمع كفه ، فيما كان ينطق بهذه الكلمات على نحو متقطع · وتقدّم نحو اوليفر وكأنه يعتزم أن يسدد اليه لكمة ، ولكنه سقط على الارض في عنف ، وانشأ يتلوى ويُزبد ، في نوبة من نوبات الصرع ·
وتأمل أوليفر ، لحظة ، حركات الرجل المجنون المهتاجة (ذلك بأنه حسبه كذلك فعلا) ، ثم اندفع الى النزل التماساً للنجدة · حتى اذا رأى أنهم نقلوه الى موضع من الفندق مأمون ، وجّه وجهه نحو البيت وانطلق بأسرع مما مكّنته قدماه أن ينطلق ، لكي يعوّض عن الوقت المضيّع ، وهو يستحضر في ذهنه ، بكثير من الدهش وشيء من الخوف ، سلوك الرجل الذي انفصل عنه منذ لحظات ، ولقد كان سلوكاً عجيباً حقاً ·

بيد أن الحادثة لم تبق ماثلة في ذاكرته فترة طويلة · اذ ما ان وصل الى البيت الريفي البسيط حتى وجد أشياء كثيرة شغلت تفكيره وطردت من ذاكرته كل ما يتصل بشخصه هو ·

كانت صحة روز مايلي قد تدهورت في سرعة · وقبيل منتصف الليل شرعت تهذي · ولقد سهر على العناية بها سهراً موصولا طبيب متمرن مقيم في تلك البقعة · والواقع ان هذا الطبيب لم يكد يفحص المريضة أول مرة حتى انتحى بمسز مايلي زاوية وأسرّ اليها أن مرض روز هو من الضرب الذي يثير أعظم الجزع · وأضاف قائلا : « الحق أن شفاءها لن يتمّ الا بمعجزة · »
ما أكثر ما نهض أوليفر واثباً من فراشه تلك الليلة ، وانسلّ على رؤوس أصابعه الى السلم ، وأصغى محاولا أن يتلقّف أضأل صوت منبثق من حجرة الفتاة المريضة ! وكم من مرة سرت في أوصاله رعدة ، وتفصّد عرق الرعب البارد على جبينه ، عندما أوهمه وقع الاقدام المفاجيء أن شيئاً أفظع من ان

يستطيع التفكير فيه كان قد حدث حتى في تلك اللحظات ! وما كان أفتر جميع الصلوات التي سبق له أن أطلقها اذا ما قيست باتقاد تلك التي أطلقها الآن ، في تضرعه الموجع المنفعل من أجل حياة وصحة المخلوقة اللطيفة التي كانت تترنح عند حافة القبر العميقة !

اوه ! يا للترقب الرهيب القلق الذي تُحْبَس له أنفاسنا عندما نقف جامدين بينا تتأرجح في كفة الميزان حياةُ مَنْ نؤثره بالحب ! اوه ، يا للأفكار المعذّبة التي تزدحم في الذهن ، فتجعل القلب ينبض في قوة وعنف ، والانفاس تتقاصر ، بسبب من الصور التي تبعثها أمامه ! ويا لشوق اليائس الى القيام بعمل ما لتخفيف الألم ، أو تقليل الخطر اللذين لا نستطيع نهما تلطيفاً ! ويا لكآبة النفس والروح التي تعصف بنا كلما تذكرنا . في حزن ، عجزنا وقلة حيلتنا ! أيّ تعذيب يمكن أن يَعْدِل هذه الكروب ؟! وأي تفكير أو جهد يستطيع — في أوج حمّى الزمان هذه — أن يسكّنها ويلطّفها ؟!

وارتفع الضحى ، وكان البيت الصغير موحشاً ساكناً . لقد تكلم القوم في همس ، وبرزت لدى الباب ، بين الفينة والفينة ، وجوهٌ جازعة ، ورجعت النسوة والاطفال والدموع تترقرق في عيونهم . وطوال النهار ، وخلال ساعات اخرى تقضّت بعد هبوط العتمة . ذرع أوليفر الحديقة جيئة وذهوباً ، في أناة ورفق ، رافعاً بصره كل لحظة الى حجرة المريضة ، مرتعـداً لرؤية الستائر المسدلة على النافذة ، اذ كانت توقع في النفس أن المنيّة ممدّدةٌ خلفها . وفي ساعة متأخرة من الليل، وصل مستر لوزبيرن . وقال الطبيب الطيّب مشيحاً بوجهه فيما كان يتكلم : « شيء مؤلم ! فتاة طرية العود الى هذا الحد ، حبيبة الى النفس الى هذا الحد ... ولكن الأمل في نجاتها ضعيف جداً . »

وتنفس صباح آخر . وأشرقت الشمس في بهاء بالغ وكأنها لم تَطَّلِعْ لا على بؤس ولا على همّ . وهكذا ، وسط جميع الاوراق والرياحين المنوّرة من حولها ، وعلى مقربة دانية من الحياة والصحة وأصداء الابتهاج ومشاهده التي أحاطت بها من كل جانب ظلت المخلوقة الغضة الجميلة ممـدّدة في فراشها ، متلاشية نفساً في نفس . وانسلّ أوليفر الى المقبرة العتيقة ، حيث قعد على رمس من الرموس الخضراء ، وانشأ يبكي ويتصلى من أجلها ، في صمت .

كان المشهد مفعماً بالسكينة والجمال ، وكانت البرية المغمورة بأشعة الشمس ترفل بالاشراق والجذل ، وكان شدو طيور الصيف طافحاً بالموسيقى المبهجة ، وكان طيران الغراب السريع المندفع في أرجاء السماء يرشح بالحرية المطلقة ، وكان كل شيء يضج بالحياة وبالحبور الى درجة أوقعت في نفس الغلام على نحو غرزيّ — حين رفع عينيه الموجعتين وأجالهما في ما حوله — أن ذلك الموسم لم يكن موسم موت ، وان روز لا يمكن أن تموت ، من غير ريب ، بينا تنعم

تلك الكائنات الحقيرة بكل ذلك الابتهاج وتلك السعادة ، وأن القبور خلقت للشتاء البارد الكئيب ، لا لضياء الشمس وأرج الرياحين · بل لقد كاد يراوده الظن ان الاكفان جُعلت للعجائز والطاعنين في السن ، وأن ثناياها المأتمية لم تغلّف في يوم من الايام أيما جسد غضٍّ جميل ·

وقُرع ناقوس الكنيسة بلحن الموت ، فقطع هذه الافكار الصبيانية في كثير من القسوة · وقرع ثانية ! وقرع ثالثة ! كان يدعو القوم الى الجنازة · ودخل المقبرة جمعٌ من المشيعين البسطاء وقد اتشحوا بشارات بيضاء ، ذلك بأن الجثمان كان جثمان فتاة ناضرة العود · لقد وقفوا ، حاسري الرؤوس ، حول قبر · وكانت ثمة بين موكب الباكين أمّ ··· امرأة كانت ذات يوم أماً · ومع ذلك ، فقد أشرقت الشمس في بهاء ، وواصلت الطير تغريدها ·

ووجّه أوليفر وجهه شطر البيت ، وهو يفكر في كل ما أسبغته السيدة الصغيرة عليه من ضروب العطف ، ويتمنى لو يعود الزمان فيتيح له فرصة جديدة يظهر لها فيها ، على غير انقطاع ، مدى تعلقه بها واعترافه بجميلها · والواقع أنه لم يستطع أن يجد سبباً يدعو الى تقريع الذات بسبب من الاهمال ، او اللامبالاة ، اذ كان قد تفانى في خدمتها · ومع ذلك فقد تمثّلت في ذاكرته مئاتُ المناسبات الصغيرة ، وخيّل اليه أنه كان في امكانه ان يتكشّف خلال تلك المناسبات عن قدر من الحماسة والاخلاص أعظم وأقوى ، وتحسّر لأنه لم يوفّق الى مثل ذلك · ان علينا ان نعامل اولئك الذين يحيطون بنا في وعي ودراية ، ما دامت كل وفاة تغري مجموعة صغيرة من الاحياء بالتفكير في الاشياء العديدة التي أهمِلت ، والاشياء القليلة التي أنجزت ، وتغريها بالتفكير في الكثير مما نسيت أداءه ، وفي الكثير الكثير من الامور التي كان في الامكان تداركها ! والحق انه ليس من ندم أشد مضاضة من ذلك الندم الذي لا طائل تحته · فاذا شئنا أن نُجَنّب عذاباته فليس علينا الا ان نتذكّر هذا ، قبل فوات الاوان ·

وحين بلغ البيت ألفى مسز مايلي جالسة في حجرة الاستقبال · وغار فؤاد أوليفر لدُنْ وقع بصره عليها ، ذلك بأنها لم تكفّ لحظة عن القعود الى جانب سرير ابنة أخيها · وارتعد لمجرد التفكير في التغير الذي أقصاها عن ذلك السرير · وقيل له ان روز كانت قد استغرقت في نوم عميق لا يفيق المرء منه الا على الشفاء والحياة ، أو على الوداع والموت ·

وجلسا مصغيَيْن ، طوال ساعات ، خائفين ان يتكلما · ورُفِعت المائدة التي لم تُمَسّ · وبنظرات أظهرت أن أفكارهما كانت سارحة في مكان آخر راقبا الشمس وهي تغوص عند الافق أدنى فأدنى وتسفح ، آخر الامر ، على السماء وعلى الارض تلك الأصباغ اللامعة التي تعلن رحيلها · وتلقّفت آذانهما

المرهفة وقع خطى تتقدم • واندفعا كلاهما الى الباب فيما كان مستر لوزبيرن يدخل •

وصاحت السيدة العجوز : « طمئنّي عن روز ! قل لي في الحال ! أنا أستطيع احتمال كل شيء ما عدا الترقب الذي يحبس الانفاس ! اوه ، قل لي ! قل لي بحق السماء ! »

فقال الطبيب وهو يسندها : « يجب أن تتجلدي • هدّئي روعك ، يا سيدتي العزيزة ، أتوسل اليك ! »

ــ « دعني أذهب ، استحلفك بالله ! يا لبُنيَّتي العزيزة ! لقد ماتت ! انها تموت ! »

فصاح الطبيب في انفعال: « لا ! أنا واثق ، ثقتي من كرم الله ورحمته، انها سوف تحيا لتُسْعدنا كلنا طوال سنوات وسنوات ! »

وخرّت السيدة راكعة على ركبتيها ، وحاولت أن تشابك ذراعيها • ولكن طاقة الاحتمال التي كانت قد شددت من عزيمتها تلك الفترة كلها انطلقت الى السماء مع أول صلاة من صلوات الشكر رفَعتْها اليه تعالى • ثم انها ترامت بين الذراعين الودودين اللتين امتدتا لتلقّيها •

الفصل الرابع والثلاثون ويحتوي تفاصيل تمهيدية تتصل بشاب يبرز الآن على المسرح ، ومصيبة جديدة نزلت بأوليفر •

كانت هذه السعادة أضخم من أن تُحْتمل ، تقريباً • واستشعر أوليفر ان النبأ غير المتوقع قد صعقه وشدهَه ، فلم يستطع أن يبكي ، أو يتكلم ، أو يستقر في مكان • وعجز ، أو كاد ، عن فهم أيّ شيء مما حدث ، الى أن قام بجولة طويلة متنسِّماً هواء المساء العليل ، فاذا بفيض من العبرات يهرع لنجدته والترويح عنه • وعندئذ فقط بدا وكأنه أفاق ، دفعة واحدة ، على وعي كامل للتغير السعيد الذي كان قد حدث ولحمْل القلق الذي لا يكاد يطاق والذي انتُزِع من صدره •

وكان الليل قد أخذ يحلولك في سرعة عندما انقلب أوليفر الى البيت ، مثقلا بالرياحين التي كان قد انتقاها في عناية بالغة لتزيين حجرة الفتاة المريضة• وفيما هو يعدو ، برشاقة ، في طريق العودة سمع خلفه صوت عربة تقترب في اندفاع مجنون • والتفت الى وراء ، فرأى أنها مركبة بريد تُساق بسرعة عظيمة•

واذ كانت خيلها منطلقة بأقصى قدرتها على الانطلاق ، والطريق ضيقة ، فقد وقف مستنداً الى احدى البوابات لكي يفسح المجال للمركبة ٠

وفيما المركبة تندفع ماضية في سبيلها لمح أوليفر رجلا يعتمر بقلنسوة نوم بيضاء ٠٠ رجلا بدا له ان وجهه مألوف عنده ، برغم ان رؤيته اياه كانت خاطفة الى درجة جعلته يعجز عن تبيّن هويته ٠ وبعد ثانية أو ثانيتين أطلت تلك القلنسوة من نافذة المركبة ، وهدر صوت جهوري سائلا الحوذي ان يكف عن الانطلاق ٠ وامتثل الحوذي الأمر حالما وُفق الى كبح جماح الخيل ٠ وعندئذ برزت قلنسوة النوم من جديد ، ونادى الصوت نفسه أوليفر باسمه :

ـ « هاي ! أوليفر ! ما الانباء ؟ والآنسة روز ؟ ايها السيد أو ـ ليـ ـ فر!»

فصاح أوليفر مندفعاً نحو باب المركبة : « أهذا أنت يا جيلز ؟ »

فأبرز جيلز قلنسوته الليلية كرة اخرى ، استعداداً للنطق بجواب ما ، واذا بيد تشده فجأة الى الوراء ، وكانت يد شاب احتل الزاوية الاخرى من المركبة وتساءل ، في لهفة ، ما الأخبار ؟

وصاح ذلك السيد الماجد : « قل لي بكلمة واحدة ٠ أهي أحسن أم اسوأ ؟ »

فأجابه أوليفر في انفعال : « أحسن ٠٠٠ أحسن بكثير ! »

فهتف السيد : شكراً لله ! أواثق أنت ؟ !

فأجاب أوليفر : « كل الثقة ، يا سيدي ٠ لقد حدث التحول منذ بضع ساعات ليس غير ٠ ومستر لوزبرن يقول ان الخطر قد زال نهائياً ٠ »

ولم ينطق السيد بأية كلمة اخرى ، ولكنه فتح باب المركبة ، ووثب مترجلا منها ، وسارع الي الاخذ بذراع اوليفر وساعده على امتطاء متن العربة ٠

وسأله السيد الماجد في صوت مرتعش : « أنت واثق كل الثقة ؟ وليس ثمة أيما احتمال خطأ من جانبك ، يا بنيّ ٠٠٠ أليس كذلك ؟ لا تخدعني بأحياء آمال لن يقدّر لها ان تتحقق ٠ »

فأجابه أوليفر : « لن أفعل ذلك ولو أعطيتُ أيما شيء في هذا العالم ٠ ان في استطاعتك ان تصدقني حقاً ٠ لقد قال مستر لوزبرن ، بالحرف الواحد ، انها سوف تحيا لتسعدنا كلنا طوال سنوات وسنوات ٠ ولقد سمعته يقول ذلك ٠ »

وترددت العبرات في عيني أوليفر وهو يستحضر في ذاكرته ذلك المشهد الذي كان فاتحة هذه السعادة كلها ٠ وأشاح السيد الماجد بوجهه ، واعتصم بالصمت بضع دقائق ٠ وخيّل الى أوليفر أنه سمعه ينتحب ، غير مرة ٠ ولكنه خشي أن يقاطعه بأية ملاحظة جديدة ـ ذلك بأنه كان في ميسوره أن يحزر حقيقة مشاعره ـ وهكذا انزوى منكمشاً على نفسه ، وتظاهر بالانشغال بباقة

وطوال هذه الفترة كان مستر جيلز ، المعتمر بقلنسوته القطنية البيضاء ، قاعداً على موطيء المركبة ، مُسنداً كلا مرفقيه على كلتا ركبتيه ، مكفكفاً عبراته بمنديل قطني ازرق مُنَقَّط بنقط بيضاء . ولم يكن ثمة ريب في أن ذلك الرجل الوفي كان صادق التأثر . يؤيد ذلك احتقان بالغ في تينك العينين اللتين رنا بهما الى السيد الشاب عندما استدار ووجه اليه الخطاب قائلا :

– « أرى ان من الأفضل أن تنطلق بالمركبة الى بيت أمي ، يا جيلز . اما أنا فأؤثر ان أمشي في أناة ، لكي أكسب قليلا من الوقت قبل أن أراها . وفي استطاعتك ان تقول لها اني آت . »

فقال جيلز ، وهو يجلو وجهَهُ المضطرب ، بالمنديل ، جلاء أخيراً : « ألتمس عفوك، يا مسترِ هاري، ولكن اذا عهدت الى مساعد الحوذي في اداء هذه الرسالة كنت شاكراً لك أعظم الشكر ، فليس من اللائق أن أبرز أمام أعين الخادمات وأنا على هذه الصورة ، يا سيدي . اني لو فعلت اذن لفقدتُ كل سلطة لي عليهن في المستقبل . »

فأجابه هاري متبسِّماً : « حسناً ، افعل ما يحلو لك . دعه يذهب بالامتعة ، اذا شئت ذلك ، وامضِ انت معنا . كل ما أريده منك هو أن تستعيض عن قلنسوة النوم هذه بغطاء للرأس أكثر لياقة ، والا حسِبنا القوم مجانين . »

ولم يكد مستر جيلز يذكَّر بقلنسوته غير اللائقة حتى نزعها عن رأسه وأقحمها في جيبه ، واستعاض عنها بقبعة ذات شكل رصين وقور ، تناولها من مركبة البريد . حتى اذا تم له ذلك ، مضى مساعد الحوذي لسبيله . وتبعه جيلز ، ومستر مايلي ، وأوليفر ، في أناة ومهل .

وفي طريقهم الى البيت كان أوليفر يلقي بين الفينة والفينة نظرة على الوافد الجديد كلها شوق وفضول . لقد بدا في نحو الخامسة والعشرين من العمر ، وكان ربعة في الطول ، ذا محيَّا صريح مليح ، وكانت تصرّفاته ترشح بالرشاقة والجاذبية . وعلى الرغم من الفرق بين الشباب والشيخوخة كان الشبه بينه وبين السيدة العجوز كبيراً الى درجة كان خليقاً بها أن تمكّن اوليفر من اكتشاف ما بينهما من قرابة ، في سهولة ويسر ، لو لم يكن قد سمع الرجل يشير اليها من قبل بوصفها أمه .

وكانت مسز مايلي تنتظر ابنها في لهفة وشوق عندما وصل هو الى البيت الصغير . ولم يتم اللقاء من غير ما انفعال بالغ تكشَّف عنه الفريقان جميعاً .

وهمس الشاب : « أمي ! لماذا لم تكتبي اليّ من قبل ؟ »

فأجابته مسز مايلي : « لقد فعلت . ولكني بعد شيء من التفكير عقدت العزم على الاحتفاظ بالرسالة ريثما أسمع رأي مستر لوزبرن . »

فقال الشاب : « ولكن لماذا ... لماذا غامرتِ فعرّضت نفسك لمواجهة ما كان على قاب قوسين من الحدوث ؟ لو قدّر على روز أن ... – أنا لا أستطيع

أن ألفظ هذه الكلمة الآن ـ لو ان مرضها انتهى على صورة غير هذه الصورة ، كيف كان في مستطاعك أن تغفري لنفسك هذه الفعلة أبد الدهر !؟ كيف كان في مستطاعي أنا أن أعرف السعادة ، كرة اخرى ، بقية أيام حياتي ؟! »

فقالت مسز مايلي : « لو ان ذلك حدث فعلا ، يا هاري ، لكان خليقاً بسعادتك أن تصوح تصويحاً كاملا · وعندئذ لن يكون لوصولك الى هنا ، قبل يوم من الساعة المشؤومة أو بعد يوم منها ، غير أهمية ضئيلة الى أبعد الحدود · »

فأجابها الشاب : « ومن ذا الذي يستطيع أن يعجب لو حدث ذلك ، يا أماه ؟ ولماذا تقولين « لو » ؟ ان الأمر لكذلك · هذا صحيح ، وأنت تعرفين ذلك · انك لا تستطيعين انكاره ! »

فقالت مسز مايلي : « أنا أعرف أنها تستحق أصدق وأطهر حب يستطيع قلب رجل أن يمنحه · وأعلم أن ما تمتاز به طبيعتها من اخلاص وحنان جدير بأن يقابل لا بعاطفة عادية ، بل بعاطفة عميقة سرمدية ، ولو لم استشعر هذا ، ولو لم أدرِ ، فوق ذلك ، أن أيما تغيّر يطرأ على سلوك من تهوى لا بدّ أن يحطم فؤادها لما وجدت عسراً بالغاً في أداء مهمتي ، أو لما تعيّن عليّ أن أكبح ضروباً من المقاومة المعتملة في صدري حين أسلك ما يبدو لي انه السبيل المتلائم مع واجبي · »

فقال هاري : « هذه قسوة ، يا أماه · ألا تزالين تحسبين انني غلام لا يدري ما يريد ··· غلام يخطىء فهم حوافز روحه نفسها ؟ »

فأجابته مسز مايلي ، واضعة يدها على كتفه : « أنا أحسب ، يا ولدي العزيز ، ان للشباب كثيراً من الحوافز الكريمة التي لا تدوم ، وان من بينها بعضاً لا يزيده الاشباع الا سرعة زوال · ويخيل اليّ قبل كل شيء ، » وهنا ركّزت بصرها على وجه ابنها ، « أنه حين يتزوج رجلٌ طموح مفعم بالحماسة والنشاط من فتاة تشين اسمَها لطخة ··· قد لا تكون هي مسؤولة عنها ولكن ذوي النفوس الخسيسة والقلوب المتحجرة لا بدّ أن يأخذوها بجريرتها ، ويأخذوا أولاده بها أيضاً ··· لطخة لا بدّ أن يعيّروه هو بها ، ويسرفوا في ذلك بنسبة النجاح الذي يحرزه في الحياة متخذين منها وسيلة للسخرية به ··· أقول حين يتزوج مثل هذا الرجل من مثل هذه الفتاة فقد يأتي يوم يندم فيه ـ مهما يكن كريم النفس طيّب الطوية ـ على العلاقة التي انشأها في صدر شبابه · وقد تأسى زوجته وتلتاع حين تعلم بالذي يخامره من ندم · »

فقال الشاب نافد الصبر : « ان من يتصرف على هذا النحو يكون وحشاً انانياً لا يستحق أن يسمّى رجلا ، ولا يستحق المرأة التي تصفينها · »

فأجابته أمه : « أنت تؤمن بذلك ، الآن ، يا هاري · »

فقال الشاب : « ولسوف أظل أؤمن به أبد الدهر! ان الآلام النفسية التي قاسيتها خلال اليومين الماضيين لتكرهني على الاعتراف لك بعاطفة ليست ، كما

تعرفين ، بنت الأمس ، عاطفة لم تنشأ عندي نشوءاً هيِّناً • ان نياط قلبي لمشدودة الى روز دون سائر الفتيات ، روز العذبة اللطيفة ، كما لم تشدّ نياط قلب أيما رجل الى امرأة • أنا لا افكر في أيما فتاة غيرها ، وليس لي من مطمع في الحياة ولا أمل غير الفوز بها • واذا ما عارضتِني في ما أسعى اليه من فوز عظيم فعندئذ تكونين قد وضعتِ يديك على سعادتي وطمأنينتي والقيتِ بهما في مهبّ الرياح • أماه ، فكري في هذا مليّاً ، وفكِّري فيَّ أنا ، ولا تنسَيْ هذه السعادة التي يبدو انك لا تبالين بها الا قليلا • »

فقالت مسز مايلي : « ان تفكيري الدائم في القلوب المتّقدة الحساسة هو الذي يدعوني الى تجنيبها جراحاً هي عنها في غنى • ولكننا تحدثنا في هذا الموضوع حديثاً كافياً ، بل أكثر من كاف ، هذه الليلة ••• »

فقاطعها هاري : « فلنترك الأمر ، اذن ، لروز ••• انك لن تصرّي على آرائك المتطرفة هذه لكي تقيمي العراقيل في طريقي ؟ »

فأجابته مسز مايلي : « لا ، لن أفعل • ولكني أريد منك ان تفكر ••• »

فأجابها في نفاد صبر : « لقد فكرت ! أماه ، لقد فكرت سنوات وسنوات • لقد فكرت ، منذ اللحظة الأولى التي أمسيتُ فيها قادراً على التفكير الجدّي • ومشاعري لا تزال هي هي لم تتغير ، ولن تتغير أبد الدهر • ولماذا أقاسي الآلام الناشئة عن ارجاء التعبير عنها ، وأنا أعلم ان هذا الارجاء لن يفضي الى أيما خير البتة ؟ لا ! سوف أبثّ روز ما في صدري قبل أن أغادر هذا المكان ! »

فقالت مسز مايلي : « اذا شئت ذلك • »

فقال الشاب : « ان في لهجتك ، يا أماه ، ما يكاد يفهم منه انها سوف تستمع اليّ في برود • »

فأجابته السيدة العجوز : « في برود ؟ لا ، ما أبعد ذلك عن الصواب ! »

فقال الشاب في الحاح : « كيف اذن ؟ ان فؤادها غير مشغول بغيري ، أليس كذلك ؟ »

فأجابت امه : « لا ، لا ! ان لك ، ان لم أكن مخطئة ، سلطاناً على عواطفها أشدّ مما ينبغي • ان ما أريد ان اقوله ، » كذلك استأنفت السيدة العجوز كلامها مقاطعة ابنها الذي كان على وشك ان يتكلم ، « هو هذا • قبل ان تخاطر بكل ما عندك في هذه المغامرة ، وقبل ان تجيز لنفسك ان تُحمَل الى ذروة الأمل ، فكِّر بضع لحظات ، يا ولدي العزيز ، في تاريخ روز ، وتساءل أيّ أثر قد يكون لمعرفتها مولدها المريب في قرارها ، وهي الفتاة المخلصة لنا بكامل رجاحة عقلها النبيل ، وبكامل تضحيتها بالنفس في جميع الشؤون ، كبيرها وصغيرها ••• هذه التضحية التي كانت دائماً هي السِّمة الغالبة عليها • »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

فأجابت مسز مايلي : « هذا ما أترك لك اكتشافه • ان عليّ أن أعود

الى حجرتها . فليباركك الله ! »

فقال الشاب في لهفة : « سأراك الليلة كرة اخرى ، أليس كذلك ؟ »

فأجابته مسز مايلي : « بعد قليل . عندما أفارق روز . »

فقال هاري : « هل ستخبرينها أني هنا ؟ »

فأجابت مسز مايلي : « من غير ريب . »

ــ « اذن قولي لها كم قاسيت ، وكم تُقْتُ الى رؤيتها . انك لن ترفضي أداء هذه الرسالة ، أليس كذلك ؟ »

فقالت السيدة العجوز : « لا . سوف أقول لها كل شيء . » وضغطت على يد ابنها في حنان ، وغادرت الحجرة مسرعة . »

وكان مستر لوزبيرن وأوليفر قد لبثا في طرفٍ آخر من الحجرة فيما كان هذا الحوار المُعْجَل دائراً . وبسط أولهما يده ، الآن الى هاري مايلي ، فتبادلا تحيات قلبية . وعندئذ قدّم الطبيب ، جواباً عن اسئلة صديقه الشاب المتنوعة ، وصفاً دقيقاً لحالة مريضه كان ما فيه من العزاء والرجاء البالغين مصداقاً لتوكيدات أوليفر الراشحة بالأمل . ولقد أصغي مستر جيلز بأذنين نهمتين لهذا الوصف كله ، متظاهراً بالانهماك في ترتيب الأمتعة .

ــ « هل أطلقت النار على أيّ شيء بارز ، في الايام الاخيرة ، يا جيلز ؟ » كذلك سأله الطبيب حين أتمّ حديثه عن حالة روز .

فأجابه مستر جيلز وقد تضرّج وجهه بالدم حتى عينيه : « لا ، ليس على أي شيء بارز . »

فقال الطبيب : « ولم تلقِ القبض على لص من اللصوص أو تكتشف أحداً ممن تعوّدوا السطو على المنازل ؟ »

فأجابه مستر جيلز في وقار بالغ : « لا ، على الاطلاق ، يا سيدي . »

فقال الطبيب : « حسناً ، يؤسفني ان أسمع ذلك ، لأنك تجيد هذا الضرب من العمل اجادة رائعة . قل لي ، ما أنباء بريتلز ؟ »

فأجابه مستر جيلز ، وقد استردّ لهجته المألوفة ، الراشحة بالرعاية : « الغلام في حال حسنة جداً ، يا سيدي . وهو يبعث الينا باحتراماته الموقّرة ، يا سيدي . »

فقال الطبيب : « حسن جداً . ان رؤيتك هنا تذكرني ، يا مستر جيلز ، بأني قبل اربع وعشرين ساعة من اليوم الذي استُدعيتُ فيه بمثل هذه السرعة كلها قمتُ ــ بناء على طلب من سيدتك الصالحة ــ بمهمة صغيرة لمصلحتك . تقدّم الى هذه الزاوية لحظة ، من فضلك . »

فمضى مستر جيلز الى الزاوية في كثير من العظمة وشيء من الدهش ، وشُرّف بحديث دار بينه وبين الطبيب ... حديث قصير مهموس لم يكد يُختتم حتى انحني عدة انحناءات مغالى فيها ، وانصرف بخطى ترشح بأبهة غير

معهودة • ولم يُفصّح عن مادة هذا الحديث في حجرة الاستقبال ، ولكن المطبخ سرعان ما أطْلِع على كل ما يتصل به • ذلك بأن مستر جيلز مضى الى هناك مباشرة ، وبعد ان طلب كوزا من الجعة أعلن ، في سيماء من الجلال كان لها تاثير بعيد جداً ، أن سيدته تفضلت ، تقديراً منها لمسلكه الباسل يوم محاولة السطو تلك ، فأودعت في بنك التوفير المحليّ ، باسمه الشخصي ولاستعماله ولمنفعته هو ، مبلغاً من المال مقداره خمسة وعشرون جنيهاً • وهنا رفعت الخادمتان أيديهما وعيونهما وافترضتا ان مستر جيلز سوف يأخذ منذ اليوم بأسباب الكِبْر والغرور • فما كان من مستر جيلز الا ان أجاب وهو يسحب هدب قميصه : « لا ، لا ! » ليضيف بعد ذلك قوله انهما اذا آنستا منه أيما تكبّر على من هم دونه فليلفتا نظره الى ذلك مشكورتين • ثم انه أبدى عدداً كبيراً جداً من الملاحظات الاخرى التي لم تكن أقلّ تصويراً لتواضعه ، والتي استقبلت بقَدْر مماثل من التحبيذ والحماسة ، والتي كانت في الوقت نفسه أصيلة ومطابقة لمقتضى الحال شأن ملاحظات عظماء الرجال عادة •

وفي الطابق العلوي كانت بقية الليل قد تقضّتْ في بِشر • ذلك بأن الطبيب كان بالغ المرح • وعلى الرغم من النزوع التأملي الذي غلب على هاري مايلي بادىء الأمر فأنه لم يستطع أن يقاوم مرح الرجل الفاضل ، الذي تجلّى في تشكيلة كبيرة من النوادر والذكريات المهنية وفي فيض من النكات الصغيرة التي نالت اعجاب أوليفر بوصفها أغرب ما قدّر له أن يسمعه وأدعاه الى الضحك • ولقد ضحك أوليفر ، فعلا ، على نحو يتكافأ وذلك الاعجاب ، وهو ضحك أثار ارتياح الطبيب بصورة جلية فضحك على نفسه في غير ما اعتدال ، ودعا هاري الى ارسال ضحكات لا تقلّ صدقاً وحرارة عن ضحكات أوليفر نفسها ، بدافع من المشاركة الوجدانية ليس غير • وهكذا نعموا بأبهج حال يمكن لهم ان ينعموا بها في ظرف مثل ذلك الظرف ، ولم ينفضّ سامرهم الا في ساعة متأخرة من الليل ، فآووا الى سُررهم ، بقلوب مبتهجة شاكرة ، لينعموا بتلك الراحة التي كانوا في أمسّ الحاجة اليها بعد فترة الشك والترقب القاسية التي مرت بهم منذ قريب •

واستيقظ أوليفر صباح اليوم التالي وهو أبهج نفساً ، وشرع يؤدي مهامه الصباحية المعتادة وقد أفعِم صدرُه بأمل وحبور لم يعرف لهما ضريباً منذ أيام عديدة • كانت الطيور قد عُلّقت كرة اخرى لتشدو وتغرّد في مواطنها القديمة • وجُمِعت أزكى الرياحين البرية التي كان في امكان المرء أن يعثر عليها لتُبهج روز بجمالها كرة اخرى • وتبدّدت بمثل السحر تلك الكآبة التي كان قد بدا لعيني الغلام القلق المحزونتين أنها رانت، طوال أيام خلت ، على الاشياء كلها ، مهما كانت بهية الطلعة جميلة • لقد بدا الندى وكأنه يتلألأ على نحو أشدّ تألقاً فوق الاوراق الخضر ، والهواء وكأنه ينساب بينها بموسيقى أعذب ،

وحتى السماء نفسها بدت وكأنها أشد زرقة واشراقاً • ذلك هو السلطان الذي تمارسه طبيعة أفكارنا الشخصية حتى على مظهر الاشياء الخارجية • ان أولئك الذين يرون الى الطبيعة والى اخوانهم في الانسانية ثم يصرخون قائلين ان كل شيء مظلم وكئيب ليسوا بمخطئين • ولكن الألوان القاتمة هي انعكاسات لعيونهم وقلوبهم المُريقنة* • أما الألوان الحقيقية فرقيقة ، وهي تحتاج الى بصر أشد صفاء •

وجدير بالذكر ، وهو أمر لم يغب عن فطنة أوليفر في الحال ، أن رحلاته الصباحية لم تعد تجري على نحو متوحّد • فمنذ ذلك الصباح الذي لقي هاري مايلي خلاله أوليفر ، أول ما لقيه ، عائداً الى البيت وهو مثقل بالرياحين استبدّ به هوى للزهور عارمٌ وتكشّف عن ذوق رفيع في تنسيقها الي درجة جعلته يتفوق على رفيقه ويسبقه بمراحل • بيد أن أوليفر ، على الرغم من تخلّفه في هذا الميدان ، كان يعرف أين يجد الأفضل والأحسن • وهكذا رادا الريف معاً ، صباحاً بعد صباح ، وحملا الى البيت أجمل الرياحين المفتّحة الاكمام • وكانت نافذة حجرة السيدة الصغيرة قد فُتِحت الآن ، ذلك بأنها أحبت ان تستشعر نسيم الصيف العليل يتسرب الى حجرتها ، فينعشها بطراوته • ولكن كان ثمة دائماً وسط الماء ، خلف الشعرية مباشرة ، باقة صغيرة مخصوصة كانت تُسوّى وتُصلح ، في عناية بالغة ، كل صباح • ولم يستطع أوليفر الا ان يلاحظ ان الرياحين الذابلة لم تُطرح قط ، برغم ان ماء الزهرية الصغيرة كان يُبدّل على نحو نظامي • ولم يستطع الا ان يلاحظ أيضاً أن الطبيب كان كلما مضى الى الحديقة يرفع بصره الي تلك الزاوية بعينها ، ويهز برأسه على نحو ذي مغزى الى أبعد الحدود قبل أن ينطلق في نزهته الصباحية سيراً على القدمين • وفي غضون هذه الملاحظات كانت الأيام تكرّ سراعاً ، وكانت روز تسترد عافيتها في غير ابطاء •

وأوليفر نفسه لم تتباطأ به أيامه ، على الرغم من ان السيدة الصغيرة لم تكن قد غادرت حجرتها بعد ، ولم يكن ثمة أية نزهات مسائية سيراً على الاقدام الا بين الفينة والفينة ، ولمسافات قصيرة ، مع مسز مايلي • لقد انكبّ ، في مواظبة مضاعفة ، على الاستفادة من دروس السيد العجوز الأشيب ، وكدح كدحاً حقق له نجاحاً سريعاً أثار الدهش حتي في نفسه هو • وفيما هو منهمك في هذه المطالب حدثت له واقعة غير مرتقبة البتة فأذهلته وأفزعته على نحو شديد •

كانت الحجرة الصغيرة التي تعوّد أن يقعد فيها ، حين يستغرق في قراءة كتبه ، قائمة في الدور الارضي في الجزء الخلفي من البيت • والواقع انها كانت حجرة ريفية بكل ما في اللفظة من معنى ، وكانت نافذتها ذات شعرية تحلّقت

* المصابة بالبرقان •

حولها عناقيد من الياسمين والياسمين البري انسلت من فوق الأطار فملأت الحجرة بعبير أرج · كانت تلك النافذة تطل على حديقة تتصل ، من طريق ضرب من البويب أو الخادعة ، بحظيرة صغيرة · ووراء هذه الحظيرة انبسطت أرض خضرة معشوشبة وغابة · ولم يكن ثمة ، في ذلك الاتجاه ، ايما مبنى آخر مجاور · فكان المشهد الذي تقع عليه العين من تلك النافذة مترامي الأطراف ·

وذات مساء جميل ، فيما كانت أولى ظلال الغسق قد شرعت تستقر على الارض ، جلس أوليفر الى هذه النافذة مستغرقاً في قراءة كتبه · وكان قد أنعم النظر في تلك الكتب فترة من الزمان · واذ كان ذلك اليوم حاراً رطباً الى حد غير مألوف ، واذ كان أوليفر قد ارهق نفسه ارهاقاً بالغاً فلن يكون في قولنا انه استسلم للنوم تدريجياً ، وعلى نحو بطيء ، ايما انتقاص من قدر مؤلفي تلك الكتب ، أياً من كان هؤلاء المؤلفون ·

ان ثمة ضرباً من الرقاد ينسل الينا بعض الاحيان ولا يحرر العقل — برغم انه يأسر الجسد — من الشعور بالاشياء المحيطة به ··· ضرباً من النوم يمكن ذلك العقل من أن يهيم على وجهه ما حلا له الهيام · وبقدر ما نستطيع ان نعتبر الاسترخاء القاهر ، واجهاد القوى حتى الانهاك ، والعجز المطلق عن السيطرة على أفكارنا أو قدرتنا على الحركة ·· أقول بقدر ما نستطيع اعتبار هذا كله نوماً ، يكون ذلك الضرب من الرقاد نوماً أيضاً · ومع ذلك ، فأننا نعي كل ما يجري من حولنا · واذا ما حلمنا في وقت كهذا فان بعض الكلمات الملفوظة فعلاً ، أو بعض الأصوات المنبعثة فعلاً في تلك اللحظة ، تكيف نفسها — في سهولة مدهشة — وفقاً لرؤانا حتى لتندمج الحقيقة بالخيال اندماجاً غريباً يتعذر معه ، بعد ذلك ، أو يكاد ، فصل أحدهما عن الآخر · وهذه الظاهرة ليست بأعجب الظواهر التي تلازم تلك الحالة وأمثالها · فمن الحقائق التي لا ريب فيها أنه على الرغم من هجوع حاستي اللمس والبصر عندنا هجوعاً مؤقتاً فان أفكارنا النائمة والمشاهد الخيالية التي تتعاقب أمامنا سوف تتأثر ، وبطريقة محسوسة ، بمجرد الوجود الصامت لشيء خارجي ما ··· شي خارجي ربما لم يكن على مقربة منا عندما أغمضنا عينينا ، ولم نكن نعي مجاورته وعياً يقظان البتة ·

لقد علم أوليفر علم اليقين انه كان في حجرته الصغيرة ، وأن كتبه كانت على الطاولة أمامه ، وأن النسيم العليل كان يضطرب بين النباتات المتعرشة على النافذة في الخارج · ومع ذلك ، فقد كان نائماً · وفجأة ، تغير المشهد ، وغدا الهواء فاسداً حبيساً ، وخيل اليه — في ذعر مشبوب — انه عاد الى بيت اليهودي · وهناك ، في زاويته المعهودة ، قعد العجوز الرهيب ، مشيراً اليه ، هامساً ، وقد أشاح بوجهه ، في اذن رجل آخر كان جالساً الى جانبه ·

— « صه ، يا عزيزي ! » كذلك خيل اليه انه سمع اليهودي يقول · « انه

هو ، انا واثق من ذلك . فلننصرف . »

وبدا الرجل الآخر وكأنه يقول : « هو ! وهل تحسب ان من الممكن أن لا أعرفه ؟ لو أن مجموعة من الاشباح اتخذت شكله تماماً ووقف هو بينها ، لكان ثمة شيء يهديني الى تمييزه . ولو دفنته على عمق خمسين قدماً وقدتني عبر قبره لعرفت ، في ما يخيل الي ، على الرغم من عدم وجود ايما اشارة فوق ذلك القبر ، انه يرقد هناك ! »

ولقد بدا وكأن الرجل قال هذا الكلام في حقد رهيب الى درجة جعلت أوليفر يستيقظ مذعوراً ، وينتصب على قدميه مجفلا .

يا للسماء الرحيمة ! اي شيء كان ذلك الذي ردّ الدم خدراً الى فؤاده ، وأفقده صوته ، وقدرته على الحركة ! هناك ... هناك ... عند النافذة ... على مقربة دانية منه ، بحيث كان في ميسوره ، تقريباً ، ان يمسّه قبل ان يرتد فجأة الى الوراء ، وعيناه تحدقان الى الحجرة وتلتقيان عينيه هو ... كان ينتصب اليهودي ! والى جانبه كانت أسارير متجهمة شاحبة من جراء الغيظ أو الخوف ، أو من جرائهما معاً ، هي أسارير ذلك الرجل نفسه الذي بادره بالكلام في فناء النزل .

لقد مرّ هذا كله أمام ناظريه في لحظة واحدة . كان أشبه بلمحة ، او ومضة . واختفى الرجلان في الحال . ولكنهما كانا قد عرفاه ، وكان هو قد عرفهما . وكانت نظرتهما قد انطبعت في ذاكرته انطباعاً راسخاً ، فكأنها نُقِشت على الحجر نقشاً عميقاً وتمثّلت له منذ ولادته . ووقف لحظة جامداً لا يريم . ثم انه وثب من النافذة الى الحديقة ، وهو يصرخ ملتمساً النجدة .

الفصل الخامس والثلاثون ويشتمل على النتيجة غير السارة التي آلت اليها مغامرة أوليفر ، وعلى محاورة لا تخلو من الأهمية دارت بين هاري مايلي وروز

وعندما هرع نزلاء البيت ، استجابة لصيحات أوليفر ، الى الموضع الذي انبعثت منه وجدوه ثمة ، شاحباً مهتاجاً ، يشير نحو الارض الخضِرة المنبسطة خلف المنزل ويحاول بشق النفس ان ينطق بهاتين اللفظتين : « اليهودي ! اليهودي ! »

ولم يهتد مستر جيلز الى فهم المعنى الذي انطوت عليه هذه الصرخة .

أما هاري مايلي ، الذي كان أكثر فطنة وأحدّ ادراكاً ، والذي كان قد سمع من أمه قصة أوليفر ، ففهمه في الحال ·

وسأله متناولا عصا غليظة كانت قائمة في احدى الزوايا : « في ايّ اتجاه ذهب ؟ »

ـ « هذا ! » كذلك أجاب أوليفر وهو يشير الى الوجهة التي كان الرجلان قد اتخذاها · » لقد اختفيا عن ناظري في لحظة واحدة · »

فقال هاري : « اذن فهما في الخندق · اتبعوني ! وابقَوْا على مقربة مني ما استطعتم ذلك · » قال ذلك ووثب فوق الوشيع وانطلق مندفعاً في سرعة جعلت من أعسر العسير على الآخرين ان يظلوا على مقربة منه ·

ولحق به جيلز على أحسن وجه استطاعه ، وتبعه أوليفر أيضاً · وما هي غير دقيقة أو دقيقتين حتى وثب مستر لوزبيرن ـ الذي كان قد تمشى ثم انقلب راجعاً في تلك اللحظة ـ فوق الوشيع على نحو أخرق متعثر ، وسرعان ما نهض من كبوته في خفة ورشاقة لم يكن أحد ليظن انه يملك نظيرهما ، واندفع منطلقاً في السبيل نفسها بسرعة غير يسيرة ، وهو يصيح على نحو موصول ، وفي صوت ممدود الى أبعد الحدود ، ليعرف ما المسألة ·

لقد مضوا كلهم قُدُماً غير متوقفين مرة واحدة لكي يستردوا أنفاسهم ، حتى انعطف قائدهم حول زاوية من زوايا الحقل أشار اليها أوليفر ، وشرع ينعم النظر ، بكثير من التدقيق ، في الخندق والوشيع المحاذيين بحثاً عن الرجلين الفارين ، وهذا ما أتاح لبقية الجماعة فرصة الالتحاق به ، ولاوليفر فرصة اطلاع مستر لوزبيرن على الاحداث التي قادت الى هذه المطاردة البالغة العنف ·

وذهب البحث كله أدراج الرياح · فلم يكن ثمة حتى آثار أقدام حديثة منظورة · وكانوا قد وقفوا الآن على قمة هضبة صغيرة تطلّ على الحقول المكشوفة المنبسطة في كل ناحية على امتداد ثلاثة أميال او اربعة اميال · كانت القرية قائمة في الغَوْر الذي الى يسارهم ، ولكن كان عليهم لكي يصلوا الى هناك ـ بعد ان سلكوا الطريق التي أشار اليها أوليفر ـ ان يقوموا بدورة حول الارض الفضاء ، وهو عمل لم يكن من الممكن اتمامه في وقت قصير الى ذلك الحد· وكانت احدى الغابات الملتفة تكتنف الارض الخضِرة ولكنهم ما كانوا بقادرين على بلوغ ذلك المكمن للسبب عينه ·

وقال هاري مايلي : « لا ريب في أن ما رأيته كان أضغاث أحلام · »

فأجابه أوليفر وهو يرتعد لمجرد تذكّره وجه الوغد العجوز : « اوه لا ، لا ، يا سيدي · لقد رأيته في وضوح شديد يجعلني أؤكد ان ذلك لم يكن مناماً· لقد رأيتهما معاً بمثل الوضوح الذي أراك به الآن · »

وسأله هاري ومستر لوزبيرن معاً : « ومن كان الآخر ؟ »

فقال أوليفر : « ذلك الرجل عينه الذي حدثتك عنه ، والذي برز أمامي

في النزل على نحو مفاجيء جداً . لقد حدّقت اليه وحدّق اليّ . وفي استطاعتي أن أحلف أنه هو . »

فسأله هاري : « لقد ذهبا من هنا ؟ أواثق أنت من ذلك ؟ »

فأجابه أوليفر ، مشيراً الى الوشيع الذي يفصل حديقة البيت الصغير عن الارض الخضِرة : « بقدْر وثوقي من ان الرجلين كانا عند النافذة . لقد وثب الرجل الطويل فوق الوشيع ، هنا تماماً ، وخطا اليهودي بضع خطوات الى اليمين ثم انسلّ من خلال تلك الفجوة . »

ونظر السيدان الى وجه أوليفر الصادق ، فيما هو يتكـــلم ، ثم تبـــادلا النظرات ، وبدا وكأنهما مطمئنان الى صدق روايته . ومع ذلك فلم يكن ثمة في أيما ناحية أيّ أثر يدل على اندفاع رجلين لائذين بالفرار . كان العشب طويلا ، ولكنه لم يكن مَدُوْساً في أيّ مكان ، الا حيثما سحقته أقدامهم هم . وكانت جوانب الخنادق وحافاتها رطبة موحلة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتبيّنوا في اي موضع منها آثار أحذية رجالية ، أو أضأل علامة تدل على أن أقداماً ما قد وطئت الارض قبل ساعات قليلة .

وقال هاري : « هذا غريب ! »

فكرر الطبيب : « أجل ، هذا غريب . ان « بلاذرز » و « داف » نفسيهما لا يستطيعان أن يفهما من ذلك شيئاً . »

وعلى الرغم من العبثيّة الواضحة التي اتّسم بها بحثهم فأنهم لم يكفـّـوا عن متابعته الا بعد أن هبط الليل جاعلا الاستمرار في ذلك عملا يائساً . بـل انهم لم يكفوا عن ذلك الا على مضض . وارسِل جيلز الى مختلف الحانـــات في القرية ، مزوّداً بأدق وصف استطاع أوليفر أن يقدّمه لمظهر الرجلين الغريبين وملابسهما . ولقد كان أحدهما ــ وهو اليهودي ــ ذا مظهر يلفت النظر ، عـلى أية حال ، بحيث يستطيع المرء أن يتذكره ، على افتراض أنه رآه يعاقر الخمر أو يتسكع ههنا وههناك . ولكن جيلز عاد من غير أن يحمل اي نبأ من شأنـه ان يبدد اللغز أو يساعد على حله .

وفي اليوم التالي استؤنف البحث ، وجدّدت محاولات الاستطلاع ، ولكن حظّ هذه المحاولات من النجاح لم يكن أوفر من ذي قبل . وفي اليوم الذي بعده شخص أوليفر ومستر مايلي الى البلدة التي تقام فيها السوق ، رجاةَ أن يريا أو يسمعا أيما شيء عن الرجلين ، هناك . ولكن هذا الجهد كان عقيماً أيضاً . وبعد بضعة أيام بدأ القوم ينسون المسالة ، كما ينسى الناس معظم المسائل ، حين يَعْدم الدهش غذاء جديداً يقيم صُلْبه ، فيموت على نحو تلقائيّ .

وفي غضون ذلك كانت روز تتقدم في طريق العافية بخطى حثيثة . كانت قد فارقت حجرتها ، وأمست قادرة على الخروج للنزهة . والواقع انها لم تكد تختلط بأفراد الاسرة كرة اخرى حتى حملت البهجة الى أفئدتهم جميعاً .

ولكن على الرغم من أن هذا التغير السعيد ترك أثره الملحوظ في الحلقة الصغيرة ، وعلى الرغم من أن الاصوات البهيجة والضحكات المرحة أمست تُسمع كرة اخرى في ذلك البيت الصغير ، فقد كان كبح غير مألوف يسيطر على تصرفات بعض نزلائه ، وحتى على تصرفات روز نفسها ، وهو كبح لم يكن في ميسور أوليفر الا أن يلاحظه · وكثيراً ما كانت مسز مايلي تخلو الى ابنها فترة طويلة ، وأكثر من مرة برزت روز وعلى محياها آثار عبرات · وبعد أن حدد مستر لوزبرن موعداً لارتحاله الى تشيرتسي استفحلت هذه الأعراض · وبدا جلياً أن شيئاً كان يحدث ، وان ذلك الشيء عكّر طمأنينة السيدة الصغيرة ، وطمأنينة شخص آخر في وقت معاً ·

وأخيراً دخل هاري مايلي ، ذات يوم ، الى حجرة القعود ، وكانت روز وحدها فيها · وفي شيء من التردد استأذنها في التحدث اليها بضع لحظات ·

لقدقال السيدالشاب وهو يُدني كرسيه اليها: «بضع كلمات قليلة... بضع كلمات قليلة جداً سوف تكفي · ان ما يتعين عليّ أن أقوله قد تمثّل من غير شك في ذهنك · فآمال قلبي الأثيرة لدي ليست مجهولة عندك ، على الرغم من انك لم تسمعيها بعد من شفتيّ · »

وكان الشحوب البالغ قد ران على محيا روز منذ اللحظة الذي دخل فيها الحجرة ، ولكن ذلك ربما كان أثراً من آثار مرضتها الاخيرة · واجتزأت بالانحناء له ، ثم مالت على بعض النباتات الناهدة على مقربة منها ، وانتظرت صامتة أن يستهل حديثه ·

وقال هاري : « كان ··· كان ··· يتعين عليَّ أن أغادر هذا المكان منذ أيام · »

فأجابته روز : « أجل ، كان يتعين عليك ذلك ، حقاً · اغفر لي صراحتي هذه ، ولكنني كنت أفضّل أن أراك تمضي لسبيلك · »

فقال الشاب : « لقد ساقني الى هنا أفظع ضرب من ضروب المخاوف كلها وأدعاها الى سحق الفؤاد ··· ذلك هو خوفُ فقداني المخلوقة العزيزة التي تركّزت عليها آمالي وأمنياتي كلها· لقد كنتِ على فراش الاحتضار ، تتأرجحين بين الارض والسماء · ونحن نعلم انه حين يلمّ الداء بالمخلوقات الغضة ، الجميلة ، الصالحة تتجه أرواحها الطاهرة ، على نحو لا شعوري ، نحو موطن رقادها الابدي المشرق · نحن نعلم ــ ألا فلتساعدنا السماء ! ــ أن خير الكائنات البشرية وأبهاها وجهاً كثيراً ما تذبل وهي في أوج تفتحها · »

كان في عيني الفتاة اللطيفة ، حين نُطِق بهذه الكلمات، عبرات مترقرقة· حتى اذا سقطت احداها على الزهرة التي مالت روز عليها ، والتمعت متألقة على « كأس » تلك الزهرة ، مضاعفة بذلك جمالها ، بدا وكأن بَوْحها بسرّ فؤادها الغض الطري كان يدّعي ، تلقائياً ، ان بينه وبين أجمل الاشياء في الوجود

قرابة ونسباً ٠

وتابع الشاب حديثه في انفعال : « كانت مخلوقةٌ لا تقل جمالا وبراءة عن ملاك من ملائكة الرب تضطرب بين الحياة والمـوت ٠ اوه ! من ذا الذي كان يستطيع أن يطمع ، بعد ان فُتحت لها أبواب العالم القصيّ الذي تنتسب اليه نصف فتحة ، في عودتها الى عالم الاحزان والارزاء هذا ؟! روز ، روز ، لقد كان الوثوق من انك راحلة مثل ظل رقيق يسفحه ضوء علويّ على هـذه الارض ، واليأس من ابقائك للمتخلفين هنا ، وعدم معرفة ايما سبب وجيه يدعو الى هذا الابقاء ، والشعور بأنك تنتسبين الى ذلك الصقع النيِّر الذي حلقت اليـه في صدر العمر المبكر جمهرة من أعظم الكائنات جمالا وأحفلهن بالطيبة ، والرجـاء مع ذلك ، وسط ضروب العزاء هذه ، ان تُردّي الى اولئـك الذيـن آثروك بالحب ٠٠٠ اقول لقد كانت هذه كلها كروباً أثقل من أن تطاق ٠ والحق أني أنا عانيت هذه الكروب ، ليل نهار ، واجتاحني معها سيل جارف من المخـاوف ، والهواجس ، وضروب من الأسف الانانيّ عندما خطر لي انك قد تموتين مـن غير ان تعرفي مبلغ اخلاصي في حبك ٠٠٠ سيلٌ كان من العنف بحيث كاد أن يدك ، في اندفاعه ، عقلي واحساسي ٠ وأبللتِ من دائك ٠ ويوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، عادت قطرة من عافية ؛ وامتزجت هذه القطرات بسيـل الحياة الناضب الواهن الجاري في عروقك بفتور ، فأرْبَتْهُ وأرْبَتْهُ حتى جعلته ــ كرة اخرى ــ مداً عالياً متدفقاً ٠ لقد راقبتـك وأنت تنتقلـين ، أو تكادين ، من الموت الى الحياة ، بعينين أعمتهما اللهفة والمحبة العميقة ٠ لا تقولي لي انك كنت تؤثرين ان لا أشهد هذا كله ، ذلك بأنه قد رقّق قلبي للانسانية كلها ٠»

فقالت روز باكية : « أنا لم أعنِ ذلك ٠ كل ما عنيته هو اني كنت أتمنى لو غادرت هذا المكان لكي تنصرف الى همومك الرفيعة النبيلة كرة أخرى ٠ الى تلك الهموم الجديرة بك حقاً ٠ »

ــ « ليس ثمة همٌّ أجدر بي ، بل أجدر بأسمى طبيعة في الوجود ، مـن النضال في سبيل الفوز بقلب كقلبك ٠ » كذلك قال الشاب وهو يمسك بيدها ٠ « روز ، يا حبيبة نفسي روز ، منذ سنوات ٠٠٠ منذ سنوات عديدة ٠٠٠ وأنا متيَّم بحبك ، راجياً ان أشـق طريقي الى الشهرة ، لأعـود بعـد ذلـك في اعـتزاز فأنبئـك أنـي لـم أسـعَ لاكتسابهـا الا لكي تشاطريني اياها ، مفكراً ــ في أحلام يقظتي ــ كيف سأعمد الى تذكيرك ، في تلك اللحظة السعيدة ، بالأدلة الكثـيرة الصامتـة التي قدّمتها عـلى حبي الصبياني ، وأطلب يدك تنفيذاً لعقد أبكم وقّعناه منذ عهد بعيد ! ان تلـك الساعة لم تحِنْ بعد ٠ ولكن ها أنا ذا هنا ، من غير ما شهرة كسبتُها ، ومن غير ما رؤيا غضة حققتها ، أعرض عليك القلب الذي طالما كان ملْكاً لـكِ ، وأجعل كل ما أملك رهناً بالكلمات التي ستستقبلين بها ذلك العرض ٠ »

فقالت روز وهي تحاول السيطرة على العواطف التي أثارتها : « لقد كان سلوكك ، دائماً ، سلوكاً كريماً نبيلا . وما دمت تعتقد أني لست متحجرة الفؤاد ولا ناكرة للجميل فاسمع جوابي . »

— « انك سوف تقولين ان في استطاعتي أن أسعى لكي أصبح اهلا لك ، أليس كذلك ، يا عزيزتي روز ؟ »

فأجابته روز : « سوف أقول ان عليك أن تسعى لنسياني ، لا بوصفي رفيقتك القديمة المتعلقة بك تعلقاً شديداً ، لان ذلك خليق به أن يجرحني جرحاً بليغاً ، ولكن بوصفي فتاة أحلامك . سرّح بصرك في العالم . فكّرْ كم فيه من قلب خليق بك ان تفخر باكتسابه . أسبِغْ عليّ أيما عاطفة اخرى ، اذا شئت، تجدني أخلص أصدقائك وأوفاهم وأكثرهم حماسة . »

وران صمتٌ أطلقت روز ، خلاله ، العنان لعبراتها ، حاجبة وجهها بأحدى يديها . وظل هاري ممسكاً بالاخرى .

وأخيرا قال في صوت خفيض : « وما هي الاسباب ، يا روز ... ما هي الاسباب التي تدعوك الى اتخاذ هذا القرار ؟ »

فأجابته روز : « ان لك حقاً في معرفتها . ولكن أيما شيء مما قد تقوله لن يستطيع ان يغيِّر قراري . انه واجب يتعيَّن عليّ اداؤه . واجب تجاه الآخرين وتجاه نفسي أيضاً . »

— « تجاه نفسك ؟ »

— « أجل ، يا هاري . من واجبي تجاه نفسي ، أنا الفتاة التي لا أهل لها ولا بائنة ما والتي تشين اسمها لطخة ، أن لا أتيح لاهلك أية فرصة للاعتقاد بأني استسلمت بدناءة لعاطفتك الأولى ، وجعلت من نفسي قيداً غليظاً تتعثّر به آمالك كلها ومشاريعك كلها . ان من واجبي تجاهك وتجاه ذويك أن أحول بينك وبين العمل ، بحرارة طبيعتك الكريمة ، على تذليل هذه العقبة الهائلة التي تعترض تقدمك في هذا العالم . »

فانبرى هاري الى القول: «اذا كانت عواطفك متناغمة مع شعوركبالواجب...»

فأجابته روز وقد تضرّج وجهها بالدم : « لا ، انها ليست كذلك . »

فقال هاري : « واذن فهذا يعني انك ستبادلينني الحب ؟ قولي ذلك ليس غير ، يا عزيزتي روز . ولطّفي من مرارة خيبة الامل القاسية هذه . »

فأجابته روز: « لو استطعتُ أن افعل ذلك، من غير انْ أظلم من أحببتُهُ ظلماً عظيماً ، اذن لكان في امكاني ... »

فقال هاري : « ... لكان في امكانك أن تستقبلي هذا البوح على نحو مختلف جداً . لا تخفي ذلك عني ، على الاقل ، يا روز . »

— « أجل ! » قالت روز ، ثم أضافت وهي تحرر يدها من قبضته : « رويدك ! لماذا نعمد الى اطالة هذه المقابلة الموجعة ؟ الموجعة أكثر ما يكون

بالنسبة الي ، والمفضية مع ذلك الى سعادة سرمدية . ذلك بأنه سوف يسعدني حقاً ان أعرف اني احتللت يوماً في نظرك هذه المنزلة الرفيعة التي أحتلها الآن ، وكل نصر تحرزه في الحياة سوف يزودني بعزيمة جديدة وثبات جديد . وداعاً ، يا هاري ! اننا لن نجتمع بعد اليوم لمثل الغرض الذي اجتمعنا لأجله اليوم . اما في نطاق أيما صلة اخرى غير الصلة التي أرادت هذه المحادثة أن تنشئها بيننا ففي استطاعتنا أن نظل متحدين اتحاداً موصولا وسعيداً . ولتبهجك وتنجحك جميع البركات التي تستطيع صلوات أصدق القلوب وأخلصها ان تستمطرها من ينبوع الحقيقة كلها ، والصدق كله ! »

فقال هاري : « كلمة اخرى ، يا روز . أعطيني السبب الذي يدعوك الى هذا ، بكلماتك أنت . دعيني اسمعه من شفتيك الاثنتين ! »

فقالت روز في عزم : « ان المستقبل الذي ينتظرك مستقبل لامع . وجميع ضروب الشرف التي تساعد المواهب العظيمة ويساعد الانسباء الاقوياء عادة ، على اسباغها على الناس في الحياة العامة مدخرة لك . ولكن هؤلاء الانسباء متكبرون ، وأنا لن أرضى لا الاختلاط بكل من قد يزدري منهم الأم التي منحتني الحياة ، ولا انزال الخزي او الاخفاق بابن تلك التي حلت محل تلك الأم على الوجه الأفضل . وبكلمة موجزة ، « كذلك أضافت السيدة الصغيرة ، وهي تشيح بوجهها بعد ان خانتها رباطة جأشها المؤقتة ، « ان ثمة لطخة تشين أسمي ، لطخة من شأن الناس أن يعتبروا الابرياء مسؤولين عن مثلها . اني أرفض أن انقلها الى أيما دم غير دمي ، وهكذا يظل اثمها علي أنا وحدي ! »

فصاح هاري مرتمياً على قدميها : « كلمة اخرى يا روز . روز ، يا أعز الناس ، كلمة اخرى ! لو كنت اقل حظاً ... أجل أقل حظاً في نظر الناس ... ولو كان مقدوراً علي ان أحيا حياة مغمورة هادئة ... ولو كنت فقيراً ، مريضاً ، منبوذاً ... فهل كنت تتخلين عني في تلك الحال ؟ وبكلمة اخرى ، أيكون فوزي المحتمل بالغنى والشرف هو الذي أدى الى نشوء هذا الوسواس ؟»

فقالت روز : « لا تلحف علي في اعطاء الجواب . ان هذا السؤال ليس وارداً الآن ، ولن يرد أبد الدهر . وانه لمن الظلم ، بل انه ليكاد يكون من القسوة الوحشية أن تصر على طرحه »

فاجابها هاري : « اذا جاء جوابك وفق ما اجرؤ ، او أكاد ، على الطمع فيه فعندئذ يسفح بصيصاً من السعادة على طريقي الموحشة ، وينير السبيل أمامي . وليس من غير المفيد أن تسدي هذه الخدمة العظيمة ، من طريق النطق ببضع كلمات موجزة جداً ، الى الفتى الذي يحبك أكثر من حبه أيما شيء آخر . اوه ، يا روز ! استحلفك باسم هيامي المتقد السرمدي ، وباسم كل ما قاسيته من اجلك وكل ما تحكمين علي بمكابدته ، أن تجيبيني عن هذا السؤال الفرد ! »

فاجابته روز : « حسناً ، لو ان قدرك كان مصوغاً على نحو مختلف ، ولو

كانت منزلتك الاجتماعية أسمي قليلا من منزلتي لا أسمي منها الى هذا الحد كله ، ولو قد كان في امكاني أن أكون لك عوناً وراحة في أيما وضع متواضع ، هادىء مغمور ، لا وصمة وعائقاً وسط قوم طمَّاحين بارزين اذن لوفرت علي الظروف هذه المحنة · ان لديّ الآن جميع الأسباب التي تؤهلني للسعادة ، للسعادة البالغة · ولكنني أقرّ ، يا هاري ، بأنه كان خليقاً بي ، في تلك الحال ، أن أكون أعظم سعادة · »

وازدحمت في ذهن روز ، وهي ترسل هذا الاعتراف ، ذكريات متلاحقة عن آمال قديمة راودتها في صباها الاول ، منذ عهد بعيد · ولكنها حملت معها دموعاً ، كشأن جميع الآمال حين ترجع الينا ذابلة · ولقد سرّت تلك الدموع عن نفس روز ·

وقالت وهي تبسط يدها: « ليس لي قِبَلٌ بهذا الضعف ، وانه ليزيدني تشبثاً بموقفي · والآن ، يتعين عليّ في الواقع أن أفارقك · »

فقال هاري : « اني أسألك ان تعديني وعداً واحداً · هو ان تسمحي لي بأن أحدثكِ مرة أخرى ، مرة اخرى فحسب ـ ولنقلْ في خلال عام واحد ، ولكن ذلك قد يتم في موعد أشدّ قرباً ـ حديثاً يدور حول هذا الموضوع نفسه، وللمرة الاخيرة ·

فأجابته روز في ابتسامة كئيبة : انك لن تحاول اقناعي ، عندئذ ، بتعديل قراري الصائب · فهذه المحاولة سوف تكون عقيمة · »

فقال هاري : « لا ! لا ! كل ما أطمع فيه هو أن أسمعك تكررينه ، اذا شئتِ ـ تكررينه نهائياً ! اني سوف انطرح على قدميك ، أياً ما كانت المنزلة أو ثروة التي قد أتمتع بها آنذاك · واذا ما أصررتِ على عزمك الحاليّ ، فلن أسعى ، سواء بالقول أو بالعمل ، الى تغييره · »

فأجابته روز : « اذن فليكن لك ما تريد · ان ذلك لن يكون غير غُصَّة جديدة بالنسبة اليّ ، ولعلي أن استطيع احتمالها ، آنذاك ، على نحو أفضل ·»

وبسطت يدها اليه كرة اخرى · ولكن الشاب ضغطها على صدره · وبعد أن طبع على جبينها الوسيم قبلة ، غادر الحجرة متعجلا ·

الفصل السادس والثلاثون

وهو فصل جد قصير ، وقد يبدو الآن غير ذي أهمية بالغة ، ولكنه يجب ان يقرأ برغم ذلك ، اذ أنه تتمة للفصل السابق ومفتاح لفصل سوف يجيء حين يئين أوانه·

ـ « واذن فانت عازم على الارتحال معي هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ »

هكذا قال الطبيب عندما أقبل هاري مايلي وانضم الى مائدة الافطار التي كان هو وأوليفر جالسين اليها · « الواقع انك تغيّر رأيك وعزمك مرة كل نصف ساعة ! »

فقال هاري ، وقد تضرّج وجهه لغير ما سبب ملحوظ : « سوف تخاطبني، في يوم من الايام ، بلهجة تختلف عن لهجتك هذه · »

فأجابه مستر لوزبيرن : « أرجو أن يكون لديّ سببٌ وجيه يدعوني الى تغييرها · برغم اني اعترف بارتيابي في امكان العثور على مثل ذلك السبب · فصباح أمس فقط كنت قد عقدت عزمك ، في سرعة بالغة ، على البقاء هنا ، وعلى مرافقة أمك ـ مثل أي ولد بارّ ـ الى شاطيء البحر · ولم تكد تمضي بضع ساعات ، وقبل أن تبلغ الشمس كبد السماء ، تجيئني لتعلن انك تعتزم تشريفي بمرافقتك ، حتى الموطنِ الذي أقصد اليه ، في طريقك الى لندن · حتى اذا هبط الليل أقبلت لتطلب اليّ ، في الحاح ملفّع بالأسرار ، ان ارتحل قبل استيقاظ السيدتين من نومهما ، مما أدى الى تسمير صاحبنا أوليفر الصغير الى مائدة الافطار هذه ، وكان من حقه في هذا الوقت ان يرود المروج بحثاً عن الظواهر النباتية من كل صنف وضرب · شيء مؤسف جداً ، أليس كذلك يا أوليفر ؟ »

فأجابه أوليفر : « لقد كان خليقاً بي أن أحزن حزناً شديداً لو اتفق لي ان كنت خارج البيت عند ارتحالك مع مستر مايلي ، يا سيدي · »

فقال الطبيب : « هذا فتى رائع · اني ادعوك الى زيارتي بعد عودتك · ولكن ، فلنتكلم جدياً ، يا هاري · هل جاءتك ايما رسالة من الاعيان الكبار فأحدثت لديك هذا الحرص المفاجيء على الارتحال في الحال ؟ »

فأجابه هاري : « ان الاعيان الكبار ـ وهو تعبير أحسب أنه يشمل في رأيك شخص عمي المبجل الى أبعد الحدود ـ لم يبعثوا اليّ بأية رسالة منذ ان جئت الى هنا · وفوق هذا ، فليس من المحتمل ـ في مثل هذه الفترة من السنة ـ ان يحدث أيما شيء يجعل التحاقي العاجل بهم أمراً ضرورياً · »

فقال الطبيب : « حسناً · أنت فتى غريب · ولكنهم سوف يحملونك الى البرلمان في الانتخابات التي ستجري قبل عيد الميلاد، وهذه التبديلات والتغييرات المفاجئة اعدادٌ غير رديء للحياة السياسية · انها ليست فكرة سيئة · فالتدريب الحسن مرغوب فيه دائماً ، سواء أكان التنافس في سبيل منصب ، أو كأس ، أو جائزة من جوائز السباق ! »

وبدا هاري مايلي وكأنه يقول انه كان في استطاعته أن يتبع هذا الحوار القصير بملاحظة او ملاحظتين جدير بهما أن تذهلا الطبيب الى حد غير يسير · ولكنه اجتزأ بالقول : « سوف نرى · » ولم يواصل الكلام في هذا الموضوع كرة اخرى · وما هي الا لحظات حتى تقدمت مركبة البريد نحو الباب · حتى

اذا دخل جيلز لكي يتولى أمر العناية بالامتعة ، خرج الطبيب على نحو مضطرب، للاشراف على حزمها ·

وقال هاري مايلي في صوت خفيض : « أوليفر ، دعني اقول لك كلمة صغيرة · »

فمضى أوليفر الى النافذة التي أومأ مستر مايلي اليه بالذهاب اليها ، وقد ألمّ به دهش كبير لذلك المزيج من الحزن والصخب الذي تكشّف عنه سلوك هاري كله ·

وقال هاري واضعاً يده على ذراع اوليفر : « أنت تستطيع الآن أن تكتب في يسر · »

فأجابه أوليفر : « أرجو ذلك ، يا سيدي · »

– « ان غيبتي عن البيت ربما طالت بعض الشيء · وأنا أودّ ان تكتب اليّ – مرة كل اسبوعين مثلا ، أيام الاثنين ، بواسطة مكتب البريد العام في لندن · هل لك أن تفعل ذلك ؟ »

فهتف أوليفر وقد ابتهج ابتهاجاً عظيماً بتلك المهمة : « أوه ، من غير ريب ، يا سيدي · ولسوف اعتزّ بتلبية رغبتك هذه · »

وقال الشاب : « اني أود ان أعرف كيف ··· كيف حال أمي والآنسة مايلي · وفي استطاعتك ان تملأ صفحة بالكلام على النزهات التي تقومون بها ، والاحاديث التي تدور بينكم ، وما اذا كانت هي تبدو – أعني ما اذا كانا هما تبدوان – سعيدتين وفي أحسن حال · هل تفهمني ؟ »

فأجابه اوليفر : « أوه ، اني افهمك فهماً حسناً ، يا سيدي · »

فقال هاري متعجلا النطق بكلماته : « وانا أوثر ان تكتم الامر عنهما ، لأنه قد يغري أمي بالكتابة اليّ في فترات أقلّ تباعداً ، والكتابة تزعجها وتقلق بالها · ليكن هذا سراً بيني وبينك ، وأوصيك أن تخبرني بكل شيء · اني سأتكل عليك · »

وغلب على أوليفر شعور بأهميته الشخصية ، وازدهاه هذا التشريف ، فوعد – صادقاً – بأن يصون السرّ وبأن يكتب اليه رسائل واضحة لا لبس فيها ولا غموض · واستأذنه مستر مايلي بالانصراف معبّراً ، في توكيد مكرور، عن احترامه له ورعايته اياه ·

كان الطبيب قد امتطي متن المركبة ، وكان جيلز (الذي قضى التدبير بأن يبقى مع السيدتين) ممسكاً ببابها لكي لا ينغلق ، وكانت الخادمتان في الحديقة تشهدان ذلك كله · ثم ان هاري ألقى نظرة على النافذة ذات الشعرية ، ووثب الى داخل المركبة ·

وصاح : « انطلق ! انطلق في سرعة ، في سرعة بالغة ، بل بأقصى ما تستطيع الخيل ان تجري ! فليس يرضي مزاجي اليوم أيما سرعة دون الطيران

وانتهاب الارض ! »

ـ « هاي ! » كذلك صاح الطبيب ، منزلا الزجاج الامامي في عجلة بالغة ، وصائحاً في وجه الحوذي : « أما انا فلا يرضي مزاجي غير سرعة تكون دون الطيران وانتهاب الارض بكثير . »

واتخذت المركبة سبيلها ، مجلجلة مقرقعة ، حتى خنقت المسافة ضجيجها وأمست العين وحدها هي القادرة على تتبّع جريها الحثيث ، وقد حجبتها او كادت سحابة من غبار . كانت تحتجب عن النظر احتجاباً كاملا حيناً ، لتعود فتتبدّى له من جديد ، تبعاً للاحتمالات التي فرضتها الاشياء المعترِضة ولالتواءات الطريق وتعقيداتها . ولكن الناظرين اليها لم يتفرقوا الا بعد ان غابت سحابة الغبار نفسُها عن البصر .

بيد ان مراقباً واحداً ظل مركّز العينيّ على البقعة التي اختفت عندها المركبة ، ولم يرفعهما عنها الا بعد ان اجتازت أميالا عديدة ، ذلك بأنه ، خلْفَ الستارة البيضاء التي حجبتها عن البصر عندما رفع هاري عينيه الى النافذة ، كانت تجلس روز نفسها !

وقالت آخر الأمر : « يبدو أنه مبتهج سعيد . لقد خشيت فترة من الزمان أن لا يكون كذلك . ولكني كنت مخطئة . انا الآن سعيدة ... سعيدة جداً . »

ان الدموع أمارات على البهجة بقدر ما هي أمارات على الأسى . ولكن تلك التي تحدرت على وجنتي روز ، وهي مستسلمة للتفكير أمام النافذة ، محدقة ما تزال في الاتجاه نفسه ، بدت وكأنها تنبىء عن الأسى أكثر مما تنبىء عن البهجة .

الفصل السابع والثلاثون
وفيه يلمح القارىء تغايراً ليس نادر الحدوث في الحالات الزوجية

جلس مستر بامبل في صالون الملجأ ، مركّز العينين ، في كآبة ، على حاجز المستوقد غير البهيج ، الذي لم ينبعث منه ـ اذْ كان الفصل صيفاً ـ أيما وميض غير انعكاس بضعة خيوط من أشعة الشمس المراضة المرتدّة عن سطحه البارد اللمّاع . وتدلى من السقف شَرك ذباب ورقيّ ، فكان مستر بامبل يرفع بصره اليه ، بين الفينة والفينة ، على نحو محزون . واذ رأى الى الحشرات الطيّاشة تحوم حول الشرك المزوّق ، أطلق زفرة عميقة وران على وجهه ظلٌ أشد كآبة . كان مستر بامبل مستغرقاً في التأمل . ومن يدري ، فلعل تلك الحشرات قد أعادت الى ذهنه ذكرى حادثة أليمة ما من حوادث حياته الماضية .

ولكن كآبة مستر بامبل لم تكن هي وحدها الشيء المؤهل لايقاع انقباض عذب في نفس الناظر المتوسّم · فقد كانت ثمة مظاهر أخرى ، مظاهر وثيقة الصلة بشخصه هو ، تؤذن بأن تغيراً كبيراً كان قد ألمّ بوضعه ومركزه · اذ أين كانت السترة الموشاة والقبعة ذات القرنين ؟ كان لا يزال يرتدي بنطالا قصيرا ينتهي عند الركبتين ، وجوربا قطنياً داكناً يكسو طرفيه الاسفلين ، ولكن ذلك لم يكن هو البنطال **المعهود** · وكانت السترة عريضة الذيل ، وكانت من هذه الناحية شبيهة بالسترة **المعهودة** ، ولكن ــ اوه ! ــ ما أعظم الفرق بين الثنتين ! ولقد استعيض عن القبعة الجبارة ذات القرنين بقبعة مستديرة متواضعة · ان مستر بامبل لم يعد شماس كنيسة !

ان ثمة في الحياة ترقيات تكتسب ، بصرف النظر عن المكافآت المادية الاضافية التي تتيحها لاصحابها ، قيمة ومقاماً خاصين من السترات والصُدْرات المتصلة بها · ان للمارشال ثوبه العسكري ، وللأسقف مئزره الحريري ، وللمحامي روبه الحريري ، وللشماس قبعته ذات القرنين · جرِّد الاسقف من مئزره ، أو الشماس من قبعته ووشيه فما الذي يبقى منهما ؟ رجلان · مجرد رجلين · ان المقام ــ بل ان القداسة نفسها أيضاً ــ هما في بعض الاحيان مسألة سترة وصُدرة أكثر مما يحسب بعض الناس ·

كان مستر بامبل قد تزوج مسز كورني ، وكان قد أمسى مديراً للملجأ · كان شماس آخر قد تولى زمام السلطة ، فانتقلت اليه القبعة ذات القرنين ، والسترة الموشاة بالخيوط الذهبية ، والعصا جميعاً ·

ــ « غداً يكون قد انقضى على ذلك شهران ! » كذلك قال مستر بامبل متنهداً « لكأنّ هذين الشهرين قرن من الزمان ! »

وجائز أن يكون مستر بامبل قد عني أنه ركزّ في تلك المدة الوجيزة المؤلفة من ثمانية أسابيع حياة كاملة طافحة بالسعادة ··· ولكن كان ثمة تلك التنهدة ··· ولقد كان في تلك التنهدة مغزى جد بعيد ·

وقال مستر بامبل ، متابعاً تأملاته في الموضوع ذاته : « لقد بعتُ نفسي بستّ ملاعق شاي ، وملقطَيْ سكّر ، وابريق حليب ، ومقدار ضئيل من الاثاث المستعمل ، وعشرين جنيهاً نقداً · لقد بعت نفسي بثمن بخس جداً · بثمن رخيص ، أرخص من التراب ! »

ــ « رخيص ! » كذلك صاح صوت حادّ في اذن مستر بامبل · « لقد أثبتت الايام أنك غال ولو بأرخص ثمن ! ولقد دفعت فيك ثمناً غالياً الى حد كاف ، والله الذي في السماوات يعرف ذلك ! »

واستدار مستر بامبل ، فوقع بصره على محيّا زوجته الفاتنة : كانت قد فهمت على نحو غامض تلك الكلمات القليلة التي تناهت الى سمعها من شكواه ، فغامرت بأطلاق الملاحظة السابقة مغامرة ·

وقال مستر بامبل ، في تجهّم عاطفيّ : « مسز بامبل ، سيدتي ! »
فصاحت السيدة : « حسناً ! »
ــ « تعطّفي بالنظر اليّ ، » قال مستر بامبل ذلك ، مثبّتاً عينيه عليها ٠ (« اذا صمدت لعين كهذه العين ») ــ هكذا قال مستر بامبل في ذات نفسه ــ « فمعنى هذا انها تستطيع الصمود لكل شيء ٠ انها عين لم تخذلني قط مع الفقراء والمعوزين ٠ فاذا ما خذلتني عندها ضاعت سلطتي ! »)

هل صحيح أن اتساعاً في حدقة العين صغيراً جداً يكفي لكَبْت الفقراء الذين تجعلهم التغذية الرقيقة في وضع خسيس ؟ وهل صحيح ان مسز كورني السابقة كانت ممتنعة على التأثر بنظرات النسر امتناعاً استثنائياً ؟ هاتان مسألتان من المسائل التي تختلف فيها الآراء ٠ ولكن المسألة التي لا خلاف فيها البتة هي أن تقطيب مستر بامبل لم يُرهب المديرة ٠ على العكس ، لقد تلقّتْه المديرة في ازدراء عظيم ، بل لقد وفّقت الى مقابلته بضحكة متكلفة بدت وكأنها صادرة من القلب ٠

حتى اذا سمع مستر بامبل هذا الصوت الذي لم يكن يتوقعه البتة ، بدا غير مصدق ، بادىء الامر ، مشدوهاً بعد ذلك ٠ ثم انه ارتدّ الى حاله السابقة ، ولم يأتِ بأيما حركة الا بعد أن أثار انتباهه من جديد صوت شريكة حياته ٠

لقد سألته مسز بامبل : « أتعتزم أن تجلس ، هنا ، شاخراً طوال النهار ؟ »

فأجابها مستر بامبل : « سوف أجلس هنا ما وجدتُ ذلك ملائماً ، يا سيدتي ٠ وعلى الرغم من اني لست أشخر ، فسوف أعمد الى الشخير ، والتثاؤب ، والعُطاس ، والضحك أو البكاء ، على هواي ٠ لان هذا هو امتياز من امتيازاتي ٠ »

فشخرت مسز بامبل ، في ازدراء لا سبيل الى وصفه : « امتياز من امتيازاتك !؟ »

فقال مستر بامبل : « أجل ، هذه هي عين اللفظة التي نطقت بها ٠ ان اصدار الاوامر هو امتياز الرجل ٠ »

فصاحت أرملة المرحوم مستر كورني : « وما هو ، بحقّ السماء ، امتياز المرأة ؟ »

فهدر مستر بامبل : « أن تطيع ، يا سيدتي ٠ كان على زوجك الفقيد النكد الطالع ان يعلّمك ذلك ٠ ولو فعل اذن لامتدّ به العمر ، في أغلب الظن ، حتى هذه الساعة ٠ يا للرجل المسكين ! لشدّ ما أتمنى لو ظل على قيد الحياة ! »

وأدركت مسز بامبل ، بمثل لمح البصر ، ان اللحظة الحرجة قد حانت ، وأن أيما ضربة يوجّهها هذا الفريق او ذاك لاثبات سيطرته على الآخر لا بد أن تكون نهائية وحاسمة ٠ وهكذا فانها لم تكد تسمع هذه الاشارة الى الفقيد

المأسوف عليه حتى ارتمت على كرسي وأطلقت صيحة مدوّية أعلنت فيها ان مستر بامبل وحش متحجر الفؤاد ، ثم انخرطت في نوبة بكاء ٠

ولكن العبرات لم تكن هي الاشياء الخليق بها ان تعطف قلب مستر بامبل٠ فقد كان قلبه كتيماً لا ينفذ اليه الماء ٠ ومثل القبعات المصنوعة من جلد السمور والقابلة للغسل ، تلك القبعات التي لا يزيدها المطر الا حسناً ، غدت أعصابه أشد قوة وعزماً بعد أن أصابها وابل الدموع ذاك ٠ لقد وجد في هذه الدموع دليلا على ضعف امرأته ، وبالتالي اعترافاً ضمنياً بقوّته هو ، فأبهجه ذاك وازدهاه ٠ لقد حدج سيدته الصالحة بنظرات ترشح ببالغ الرضا ، وتوسل اليها في لهجة مشجعة ، ان تبكي ما وسعها البكاء ، على اعتبار أن الاطباء يرون في هذا الصنيع عاملا من أقوى العوامل المساعدة على صيانة الصحة ٠

ــ « انه يفتح الرئتين ، ويغسل الوجه ، ويدرّب العين، ويلطّف الطبع٠» كذلك قال مستر بامبل ٠ « من أجل هذا يحسن بك ان تبكي ما وسعك البكاء ! »

حتى اذا أطلق مستر بامبل هذه المزحة تناول قبعته عن أحد المشاجب ، واعتمر بها ، على نحو خليع بعض الشيء ، مميلا اياها الى جانب ، كما يجدر بالرجل الذي استشعر أنه أثبت تفوقه بطريقة لائقة أن يفعل ٠ ثم انه أقحم يديه ببعض جيوبه ، ومضى نحو الباب في أناة ، وقد رشح الارتياح والمرح من حركاته كلها ٠

كانت مسز كورني السابقة ، قد جرّبت الآن سفح الدموع لان ذلك كان أقلّ ازعاجاً من اصطناع القوة البدنية ٠ ولكنها كانت على أتم الاستعداد لتجربة الوسيلة الاخيرة ، كما اكتشف مستر بامبل بعد بضع لحظات ٠

وكان أول الأدلة التي أشعرته بهذه الحقيقة صوتاً غائراً سرعان ما أتبع بطيران قبعته على نحو مفاجىء الى الجانب الآخر من الحجرة ٠ وبعد أن تركته هذه العملية التمهيدية حاسر الرأس ، أخذت السيدة الخبيرة بخناقه باحدى يديها ، مسدّدة اليه بالاخرى وابلا من اللكمات (المفرغة في رشاقة وقوة فريدتين) ٠ حتى اذا تمّ لها ذلك عمدت الى احداث شيء من التغيير في اسلوب العمل فخدشت وجهه ، وشدته من شعره ٠ واذ اعتبرت الآن انها قد أنزلت به من العقاب ما يتكافأ والجريمة التي ارتكبها دفعته على الارض من فوق كرسي كان لحسن الطالع في موضع يساعد على أداء هذه المهمة ، وتحدّته ان يتحدث عن امتيازاته ، كرة أخرى ، اذا آنس من نفسه الجرأة على ذلك ٠

وقالت مسز بامبل بلهجة آمرة : « انهض ! واغرب من وجهي ، الا اذا أردتني أن أقدم على عمل يائس ٠ »

ونهض مستر بامبل وعلى وجهه سيماء تدعو الى الرثاء الشديد ، متسائلا بينه وبين نفسه ايّ شيء يمكن لذلك « العمل اليائس » أن يكونه ٠ ثم انه

رفع قبعته عن الارض ، ونظر الى الباب ٠

فسألته مسز بامبل : « أذاهب انت ؟ »

فأجابها مستر بامبل وهو يتقدم نحو الباب بخطى أسرع : « طبعاً ، يا عزيزتي ، طبعاً ٠ لم أكن أقصد أن ٠٠٠ أنا ذاهب ، يا عزيزتي ! انك امرأة عنيفة الى درجة تجعلني في الواقع ٠٠٠ »

وفي هذه اللحظة وثبت مسز بامبل الى الامام لكي تعيد السجادة ـ التي قلبتها الرفسات خلال المعركة ـ الى موضعها ٠ وفي الحال غادر مستر بامبل الحجرة ، من غير أن يضيع لحظة واحدة في التفكير بجملته التي لم تتم ، تاركاً مسز كورني السابقة سيدة الموقف ٠

لقد أخذ مستر بامبل على حين غرة ، وهُزِم هزيمة كاملة ٠ كانت تستحوذ عليه نزعة طاغية الى الاستبداد بالضعفاء ، وكان يستمد متعة غير يسيرة من اخضاع الآخرين لضروب من الاعمال الوحشية الصغيرة ٠ وكان بالتالي (كما لا نحتاج الى أن نقول) جباناً ٠ وليس في هذا على أية حال اي انتقاص لقدره ، ذلك بأن كثيراً من الشخصيات الرسمية ، التي ينظر اليها الناس بوافرٍ من الاحترام والاعجاب ، هم في العادة ضحايا عاهات مماثلة ٠ والواقع أننا انما أطلقنا هذه الملاحظة لمصلحته هو ، لا لأي غرض آخر ، ولجعل قرائنا يقدرون كفاءاته لذلك المنصب حق قدرها ٠

ولكن كأس اذلاله لم تكن قد أترعت بعد ٠ فبعد أن طاف بالمنزل ، مفكراً للمرة الأولى في أن قوانين اسعاف الفقراء كانت في الواقع أقسى من أن يحتملها الناس ، وفي أن الرجال الذين يفرون من زوجاتهم تاركين اياهن في عهدة سلطات الابرشية يجب ، في منطق العدل ، ان لا يُنزَل بهم أيما عقاب البتة ، بل يجب ـ على عكس ذلك ـ أن يكافأوا بوصفهم أفراداً يستحقون أعظم التقدير بسبب من الآلام الشديدة التي عانوها ، انتهى مستر بامبل الى حجرة كان نفر من الفقيرات يستخدمن فيها ، عادة ، في غسل بياضات الابرشية ، حجرة كان ينبعث منها الآن أصوات متحاورة ٠

ـ « هممم ! » كذلك قال مستر بامبل مستجمعاً كامل وقاره الفطري ٠ « هؤلاء النسوة على الاقل سوف يواصلن احترام الامتيازات ! هاي ! انتن اللواتي هناك ! ماذا تعنين بهذه الضجة ، أيتها الفاجرات ! »

نطق مستر بامبل بهذه الكلمات وفتح الباب ، ودخل الحجرة وعلى وجهه امارات غضب ضار الى أبعد الحدود ، سرعان ما استبدل بها سيماء ليس أحفل منها بالذلة والذعر ، حين استقرت عيناه ـ استقراراً غير متوقع ـ على شخص زوجته ٠

وقال مستر بامبل : « يا عزيزتي ! لم أكن أدري انك هنا ٠ »

فكررت مسز بامبل : « لم تكن تدري اني هنا ٠ » ما الذي جئت تفعله

هنا ؟ »

ـ « لقد حسبت انهما تسرفان في الكلام الى حدّ يتعذر عليهما معه القيام بعملهما على وجه حسن ، يا عزيزتي . » كذلك أجاب مستر بامبل ، وهو يلقي نظرة شاردة على عجوزين اثنتين كانتا تتبادلان ، عند حوض الغسيل ، انطباعات الاعجاب بتواضع مدير الملجأ .

وقالت مسز بامبل : « لقد حسبتَ انهما تسرفان في الكلام ؟ ما شأنك أنت بهما ؟ »

فقال مستر بامبل في خضوع : « ولكن ، يا عزيزتي ... »

فسألته مسز بامبل كرة اخرى : « ما شأنك أنت بهما ؟ »

ـ « هذا صحيح جداً . انك انت المديرة هنا ، يا عزيزتي ، » كذلك اعترف مستر بامبل . « ولكني ظننت انك لن تكوني هنا ، في هذه الآونة . »

فقالت السيدة : « سوف أقول لك شيئاً . اننا لا نريد ان تتدخل في شؤوننا البتة . انك مولع اكثر مما ينبغي في اقحام أنفك في أشياء لا تعنيك ، مثيراً بذلك كل امرىء في الملجأ ، حالما تدير ظهرك ، ومُظهِراً نفسك بمظهر الرجل المخبول كل ساعة من ساعات النهار . أخرج من هنا ، عجِّل ! »

واذ رأى مستر بامبل ، في غصة موجِعة ، الى ابتهاج العجوزين اللتين كانتا تكتمان ضحكهما في جذل بالغ ، تردد لحظة في امتثال الامر الصادر اليه. فلم يكن من مسز بامبل ، التي كان صبرها النافد لا يطيق ايّ ابطاء ، الا ان أمسكت بوعاء مليء بغُسالة الصابون ، وأومأت الى الباب آمرة مستر بامبل بالانصراف في الحال ، والا أفرغت محتويات ذلك الوعاء على شخصه الجليل .

ما الذي كان في مقدور مستر بامبل أن يفعله ؟ لقد أجال بصره في ما حوله على نحو كئيب ، وانسلّ من الحجرة . حتى اذا انتهى الى الباب كان ضحك العجوزين المكتوم قد استحال الى قهقهة مجلجلة تنضح بابتهاج لا سبيل الى كبحه . ولم يكن يُعْوِز الموقف غير تلك القهقهة ! لقد أذِلّ في أعينهما ، ولقد خسر مركزه واعتباره على مشهد من الفقراء أنفسهم . كان قد سقط من قمة الابهة الملازمة لوظيفة الشماس الى الدرك الاسفل من استكانة الازواج لزوجاتهم على نحو محفوف بأقسى الزجر والتعنيف .

وقال مستر بامبل مستغرقاً في سلسلة من الافكار المشؤومة : « كل هذا في شهرين ! شهرين اثنين ! فقبلّ شهرين اثنين ليس غير لم أكن سيد نفسي فحسب ، بل سيد كل امرىء آخر ، بقدر ما يتعلق الأمر بالملجأ الابرشاني . أما الآن ! ... »

كان ذلك وراء الطاقة والاحتمال . ولطم مستر بامبل اذني الغلام الذي فتح البوابة الخارجية له (ذلك بأنه كان قد بلغها وهو مستسلم لأحلام يقظته) ، وانطلق شارد اللب الى الشارع .

وراح يضرب في الارض ، يصعد هذا الشارع حيناً ويهبط ذاك حيناً ، حتى اخذت الرياضة سَوْرة أساه الاولى ٠ وكان في التحول المفاجيء الذي طرأ على شعوره ما جفف حلقه فهو ظميء ٠ واجتاز بعدد كبير من الحانات ، ولكنه مرّ آخر الامر بواحدة قائمة في طريق فرعية ، كانت حجرتها فارغة ـ كما أدرك من نظرة عاجلة ألقاها عليها من فوق مصاريع نوافذها ـ ليس فيها غير زبون متوحد ٠ وفي تلك اللحظة شرع المطر يهطل مدراراً ٠ فحمله ذلك على اتخاذ قرار نهائي ٠ وهكذا دخل مستر بامبل الحانة ٠ وبعد ان طلب شيئاً من خمر ، فيما كان يمرّ بالمشرب ، تقدّم نحو الحجرة التي كان قد اختلس النظر اليها من الشارع ٠

كان الرجل الجالس هناك فارع الطول ، أسود الشعر ، وكان يرتدي معطفاً واسعاً ٠ لقد بدت عليه مخايل الغرباء ، وبدا من نظرته الشاردة ومن الغبار الذي يعلو ثيابه أنه كان قد قام برحلة طويلة بعض الشيء ٠ ولم يكد بامبل يدخل عليه حتى نظر اليه شزراً ، ولكنه تلطّف ـ وما كاد ـ فحنى راسه جواباً عن تحيته له ٠

وغلب على مستر بامبل وقارٌ موفور يكفي رجلين اثنين ، حتى على افتراض ان الغريب تكشّف عن قدْر من الألفة أكبر ٠ وهكذا احتسى شراب الـ « جن » في صمت ، وطالع الجريدة في تظاهر بالغ بالعظمة والكياسة ٠

بيد أنه اتفق ـ كما يحدث في كثير من الاحيان حين يلتقي الناس في مثل تلك الظروف ـ ان استشعر مستر بامبل ، بين الفينة والفينة ، اغراء قوياً (لم يستطع له دفعاً) بأن يختلس نظرة الى الرجل الغريب ٠ وأنه كان كلما فعل ذلك يسارع الى الغض من طرفه في شيء من الارتباك ، ليجد ان الرجل الغريب كان في تلك اللحظة يختلس النظر ، هو أيضاً ، اليه ٠ وكان مما زاد في ارتباك مستر بامبل ذلك التعبير الاستثنائي الذي غلب على عين الرجل الغريب ، وكانت ثاقبة لامعة ، ولكنها مُعَتّمة بتجهم ارتياب وشكّ لم يسبق له ان رأى ايما شيء نظيره من قبل ـ تجهم يشمئز المرء من النظر اليه ٠

حتى اذا التقت نظراتهما على هذا النحو ، عدة مرات ، قطع الغريب الصمت في صوت أجشّ خفيض ، فقال :

ـ « أكنت تبحث عني عندما اختلست النظر من تلك النافذة ؟ »

ـ « لا علم لي بذلك ، الا اذا كنت مستر ٠٠٠ » وهنا كفّ مستر بامبل عن الكلام ٠ ذلك بأنه كان شديد التوق الى معرفة اسم الرجل الغريب ٠ ولقد ظن ان هذا الرجل سوف يعمد ، في غمرة من نفاد صبره ، الى ملأ الفراغ ٠

فقال الرجل الغريب ، وقد حامت حول شفتيه انطباعة من سخرية هادئة : « أنا أرى انك لم تفعل ، والا لعرفت اسمي ٠ انت لا تعرفه ٠ واني لأنصحك بأن لا تسال عنه ٠ »

فأعلن مستر بامبل في جلال : « انا لم أقصد الي الاساءة اليك ، أيها الفتي . »

فقال الرجل الغريب : « ولم تسيء البتة . »

وران بعد هذا الحوار القصير صمت آخر ما لبث الرجل الغريب ان قطعه كرة اخرى .

لقد قال : « يخيل الي انى رأيتك من قبل . كنت ترتدي آنذاك ثوبا غير هذا الثوب ، ولقد مررت بك في الشارع مجرد مرور ، ولكنني واثق من قدرتي على معرفتك كرة اخرى . لقد كنت شماس هذه البلدة ، في يوم من الايام ، أليس كذلك ؟ »

فقال مستر بامبل في شيء من الدهش : « هذا صحيح . لقد كنت شماسا أبرشانياً . »

فقال الآخر ، وهو يهز برأسه : « تماماً . وبذلك الوصف الشماسي رأيتك آنذاك . ما انت الآن ؟ »

– « مدير الملجأ . » قال مستر بامبل ذلك في أناة ووقار لكي يكبح جماح أيما ألفة غير مشروعة قد يعمد الرجل الغريب الى اصطناعها . « أنا مدير الملجأ ، أيها الفتي ! »

– « ان لك دائماً نفس اهتمامك المعهود بمصالحك الخاصة، في ما يخيل الي؟» كذلك استأنف الرجل الغريب كلامه ، محدقاً الى عيني مستر بامبل الذي رفعهما نحوه وقد أذهله ذلك السؤال . « لا تتردد في الاجابة بصراحة ، أيها الرجل . أنا أعرفك معرفة جيدة ، كما ترى . »

فأجابه مستر بامبل ، حاجباً عينيه بيده ، ومستعرضاً الرجل الغريب من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، في ارتباك ظاهر : « أحسب ان الرجل المتزوج ليس أشد عداء لاكتساب المال ، حين يستطيعه ، من الرجل العزب . والموظفون الابرشانيون لا يتقاضون رواتب عالية تمكنهم من رفض أيما رسم اضافي صغير ، حين يأتيهم ذلك على نحو مهذب وملائم . »

وابتسم الرجل الغريب وهز برأسه كرة اخرى ، وكأنه يقول انه لم يخطىء صاحبه . ثم انه رن الجرس وقال وهو يقدم كاس مستر بامبل الفارغة الى صاحب الحانة : « املأ هذا القدح كرة اخرى . اجعله مركزاً وساخناً . أنت تحبه هكذا ، على ما أحسب ؟ »

فأجابه مستر بامبل في سعال رقيق : « لست أحبه مركزاً أكثر مما ينبغي . »

فقال الرجل الغريب في جفاء : « أنت تفهم ما معنى ذلك ، أيها الحمار ! »

فابتسم المضيف ، وتوارى عن الأبصار ، ثم عاد بعيد ذلك حاملا طاسة ينبعث منها البخار . ولم يكد مستر بامبل يتجرعمنها جرعة واحدة حتى فجرت

الماء في عينيه ٠

وقال الرجل الغريب بعد أن أوصد الباب والنافذة : « والآن أصغ اليّ ٠ لقد جئت الى هذا المكان اليوم بحثاً عنك ٠ وشاءتِ احدى تلك المصادفات التي يطرحها الشيطان في طريق أصدقائه أحياناً ان تدخل انت الى نفس الحجرة التي كنت أجلس فيها ، في اللحظة التي استحوذتَ فيها على تفكيري كله ٠ لقد أردت أن اسألك تزويدي ببعض المعلومات ٠ ولست اعتزم ان أطلب اليك تزويدي بها مجاناً ، على الرغم من تفاهتها ٠ ضع هذين في جيبك ، مبدئياً ٠٠٠ »

قال ذلك ودفع الى رفيقه بجنيهين ذهبيين ، عبر المائدة ، دفعاً حــذرا ، وكأنه كان غير راغب في ان يسمع رنين الذهب أحد في الخارج ٠ حتى اذا فحص مستر بامبل القطعتين النقديتين فحصاً دقيقاً جداً لكي يستيقن من انهما غــير زائفتين ، وبعد ان وضعهما بكثير من الارتياح في جيب صُدرته ، تابع الرجل الغريب حديثه قائلا :

ــ « ارجع بذاكرتك الى الوراء ٠٠٠ لنقل اثني عشر عاماً منذ الشهــاء الماضي ٠ »

فقال مستر بامبل : « ذلك عهد بعيد ٠ حسن جداً ٠ لقد رجعت بها ٠ »

ــ « المكان : الملجأ ٠ »

ــ « حسن ٠ »

ــ « الزمان : ليلا ٠ »

ــ « نعم ٠ »

ــ « المشهد يجري في ذلك الجحر العفن ، الذي لا ادري أين يقع ، والذي تمْنَحُ فيه البغايا الحياة والصحة اللتين كثيراً ما يُحرمــــن هــنّ منهما ٠٠٠ وبالاختصار ، حيث يلدن الاطفال البكّائين ويتركن أمر تربيتهم للابرشية ، ثم يخفين عارهنّ ، لا ردّهن الله ، في القبر ! »

ــ « تعني حجرة الولادة ، في ما أحسب ؟ » كذلك قال مستر بامبـــل ، واجداً بعض الصعوبة في تتبُّع الوصف المشبوب الذي استرسل فيه الرجــل الغريب ٠

فقال الغريب : « أجل ٠ لقد ولد هناك غلام ٠ »

ــ « لقد ولد هناك غلمان كثيرون ، » هكذا أعلن مستر بامبل ، وهو يهز راسه في قنوط ٠

فصاح الغريب : « فليأخذ الطاعون اولئك الأبالسة الصغار ! أنا أتحدث عن واحد ٠ عن غلام وديع المظهر ، شاحب الوجه ، مُهِّن هنا عند أحد صانعي التوابيت ــ كم أتمني لو انه صنع له نعشه ، وسمَّر خشب ذلك النعش عــلى جسده ــ ثم فرّ بعد ذلك الى لندن ، على ما يُظن ٠ »

فقال مستر بامبل : « ولكنك تعني أوليفر ! تويست الصغير ! أنا أذكره،

طبعاً · فلم يوجد قط وغد صغيراً أشد عناداً ··· »

فلم يكن من الرجل الغريب الا ان قاطع مستر بامبل في مستهل خطبته عن رذائل أوليفر المسكين ، وقال : « ليس أوليفر هذا هو مَنْ أسعى الى سماع أنبائه · ولقد سمعت عنه ما فيه الكفاية · أنا أسعى الى سماع أنباء احدى النساء ··· تلك العجوز الشمطاء التي ولدت أمه · أين هي ؟ »

ـ « أين هي ؟ » كذلك قال مستر بامبل الذي كان شراب ال « جن » قد جعله ظريفاً حلو النكتة : « من العسير على المرء أن يحزر · فليس ثمة ، أياً ما كان المكان الذي ذهبت اليه ، اي حاجة الى القابلات · وهكذا فأني أعتقد أنها عاطلة ـ على أية حال ـ عن العمل · »

فسأله الرجل الغريب ، في تجهم : « ماذا تعني ؟ »

فأجابه مستر بامبل : « أعني أنها ماتت في الشتاء الماضي · »

وحدق الرجل اليه عندما أدلى بذلك النبأ · وعلى الرغم من أنه لم يحول عينيه عنه الا بعد فترة ، فأن نظرته أمست ـ شيئاً بعد شيء ـ شاردة ذاهلة ، وبدا هو مستغرقاً في تفكير عميق · وتراءى ، طوال برهة ، أنه كان في حيرة من أمره ، ايبتهج لهذا النبأ أم يستاء · ولكنه تنفس الصعداء آخر الامر · ثم انه حول بصره عن مستر بامبل ، وأعلن أن ذلك لم يكن أمراً ذا بال · وعندئذ نهض ، وكأنه يريد أن يمضي لسبيله ·

ولكن مستر بامبل لم يكن يعوزه المكر · ولقد رأى على التو أن فرصة قد أتيحت له للاتجار على نحو رابح بسر كانت زوجته ـ نصفه الافضل ـ تحتفظ به · ذلك بأنه تذكر جيداً تلك الليلة التي ماتت فيها العجوز سالي ، اذ كان في أحداث ذلك اليوم ما ساعده على تذكرها ، بوصفه اليوم الذي طلب فيه الزواج من مسز كورني · وعلى الرغم من ان تلك السيدة لم تطلعه قط على الاعترافات التي كانت هي الشاهدة الوحيدة عليها فقد سمع عنها ما يكفي لأعلامه انها تتصل بشيء كان قد حدث بينما كانت المرأة العجوز تشرف ، بوصفها قابلة الملجأ ، على توليد أم أوليفر تويست الشابة · واذ تمثلت هذه الحادثة في ذهنه على ذلك النحو الخاطف فقد أعلم الرجل الغريب ، في لهجة ملفعة بالاسرار ، أن احدى النساء اختلت بتلك العجوز الشريرة قبيل وفاتها · وان في استطاعة تلك المرأة ، في ما يخيل اليه على الأقل ، ان تلقي بعض الضوء على المسألة التي تشغل باله ·

ـ « كيف استطيع أن القاها ؟ » كذلك قال الرجل الغريب ، وقد أخذ على حين غرة ، واظهر في وضوح ان جميع مخاوفه (أياً ما كانت طبيعتها) قد أثيرت من جديد اثر هذا النبأ ·

فأجابه مستر بامبل : « لن تستطيع ذلك الا بواسطتي · »

فصاح الغريب ، في اهتياج : « متى ؟ »

فأجابه بامبل : « غداً • »

ــ « في الساعة التاسعة مساء • » كذلك قال الغريب ، مخرجاً من جيبه قصاصة ورق ، ومدوّناً عليها عنواناً غامضاً لبيت قائم على ضفة النهر ، بحروف نمّت عن اهتياجه البالغ • « جئني بها الى هناك في الساعة التاسعة مساء • ولست أحتاج الى توصيتك بضرورة الكتمان • فتلك هي مصلحتك • »

نطق بهذه الكلمات وتقدّم رفيقه الى الباب ، بعد ان توقف لحظة ليدفع ثمن الخمر التي شرباها • وبعد أن أعلن في كلمات قليلة ان طريقيهما مختلفتان ، انصرف من غير ان يتكشّف عن أيما آية من آيات المجاملة المألوفة ، مجتزئاً بتذكير مستر بامبل ، في الحاح ، بموعد لقائهما في الليلة التالية •

وحين ألقى الموظف الابرشاني نظرة على العنوان لاحظ أنه لا يشتمل على أيما اسم • ولم يكن الرجل الغريب قد أمعن في الابتعاد ــ فانطلق لاحقاً به لكي يسأله عنه •

وصاح الرجل وهو يلتفت على عجل ، حين مسّ بامبل ذراعه : ماذا تريد؟ أنت تتبعني ؟ »

فقال الآخر ، مشيراً الى قصاصة الورق : « لكي اسألك سؤالا واحداً ليس غير • ما الاسم الذي يتعين عليّ أن اسأل عنه ؟ »

ــ « مونكس ! » كذلك أجابه الرجل ، ومضى لسبيله ، مهتاجاً ، موسعاً الخطى •

الفصل الثامن والثلاثون
ويشتمل على بسط لما دار بين مستر ومسز بامبل ، ومستر مونكس في مقابلتهم الليلية •

كان مساء من أمسيَة الصيف الغائمة ، الخانقة ، المظلمة • وكانت السحب ، التي غلبت عليها طوال النهار سيماء متوعّدة ، قد انتشرت على شكل كتلة من البخار كثيفة بطيئة ، وشرعت ترسل قطرات ضخمة من المطر ، وبدت وكأنها تنذر بعاصفة عنيفة ، عندما غادر مستر ومسز بامبل شارع البلدة الرئيسي ، واتجها نحو مجموعة صغيرة من البيوت الخربة ، الباعدة عنه نحواً من ميل ونصف ميل ، والمبنية في مستنقع خفيض غير صحّي محاذ للنهر •

كانا كلاهما يرتديان معطفين عتيقين باليين ربما أدّيا غرضاً مزدوجاً ، هو صيانة شخصيهما من المطر وحجبهما عن أنظار الناس • وكان الزوج يحمل مصباحاً لم يكن قد انبعث منه حتى ذلك الحين أيما ضياء ، وكان يمشي متثاقلا ،

متقدماً زوجته بضع خطوات ، وكأنه قصد بذلك الى ان يتيح لها ـ اذ كانت الطريق قذرة ـ فرصة السير على آثار قدميه الثقيلتين . وتقدّما على هذا النحو في صمت عميق . وبين الفينة والفينة كان مستر بامبل يخفف سرعة خطوه ويدير وجهه الى الوراء وكأنه كان يبتغي ان يستيقن من أن زوجته كانت تتبعه. حتى اذا اكتشف أنها في أعقابه تماماً ، ضاعف سرعته ، واندفع مُغِذاً السير نحو الموطن الذي كانا يقصدان اليه .

ولم يكن في ميسور المرء ان يرتاب البتة في صفة ذلك الموطن . اذ كان معروفاً منذ عهد بعيد بأنه مقر جماعة من الاوغاد السفلة الذين كانوا ـ برغم تظاهرهم باكتساب الرزق من مختلف الاعمال الشريفة ـ يعيشون في المقام الاول على النهب والجريمة . كان ذلك الموطن مجرد مجموعة من الزرائب ، بُني بعضها على عجل من آجرّ غير متماسك ، وبني بعضها الآخر من خشب السفن العتيق الذي أكله السوس ، وخُلِطت كلها معاً من غير ما محاولة الى احداث شيء من النظام او الترتيب ، وأقيمت في الأعم الأغلب على بضعة أقدام من ضفة النهر . كانت بعض المراكب المثقوبة ، المسحوبة على الوحل ، والمشدودة الى السور القزم الذي يحيط بها تبدو ههنا وههناك ، ويبدو معها مجذاف أو لفة حبال ، وكأنها تعلن ـ للوهلة الاولى ـ أن سكان هذه الاكواخ الحقيرة يقومون ببعض الاعمال المهنية على سطح النهر . ولكن نظرة واحدة الى حالة التلف واللاجدوى التي غلبت على تلك الادوات المعروضة على ذلك النحو كانت كافية لان تقود عابر السبيل ، في غير ما عسر كبير ، الى الحدس بأنها انما عُرِضت هناك لانقاذ المظاهر أكثر مما عُرِضت بقصد استعمالها استعمالا فعلياً .

وفي قلب عنقود الاكواخ هذا نهض مبنى كبير كان في ما مضى مصنعاً من ضرب ما : لقد حاذى النهر ، وأطلت أدواره العليا عليه . ولعله كان في أيام مجده يزوّد نزلاء المساكن المجاورة بالأعمال على اختلافها . ولكن الدمار كان قد نزل بساحته منذ عهد طويل . وكانت الجرذان والديدان وفعل الرطوبة قد أوهنت وأبلت الركائز الخشبية التي نهض عليها . وكان جزء غير يسير من المبنى قد غاص في النهر ، على حين بدت بقيته ، المترنحة المنحنية فوق المياه القاتمة ، وكأنها تنتظر فرصة مناسبة للّحاق برفيقها القديم ، ومشاركته مصيره .

أمام هذا المبنى الخرب وقف الزوجان الفاضلان ، عندما تردّد في السماء أول صدىً من أصداء الرعد القصيّ ، وشرع المطر ينهمر في عنف .

ـ « لا بدّ أن يكون المنزل في مكان ما غير بعيد من هنا . » كذلك قال بامبل وهو يراجع قصاصة ورق كان يمسك بها بيده .

فصاح صوت من أعلى المبنى : « هاي ! هناك ! »

ولم يكد بامبل يسمع هذا الصوت حتى رفع رأسه في اتجاهه ، فتبيّن عن بعد رجلا مطلا من باب مرتفع حتى الصدر ، قائم في الدور الثاني ٠

وصاح الصوت : « قفا مكانكما ، دقيقة ، سوف أجيئكما في الحال ٠ »
وسرعان ما اختفى الرأس ، وأوصِد الباب ٠

وتساءلت زوجة مستر بامبل الصالحة : « أهذا هو الرجل ؟ »

فهز مستر بامبل رأسه أن نعم ٠

عندئذ قالت المديرة : « اذن ، تذكّر ما قلته لك ٠ واحرص على أن تقول أقل قدر من الكلام ممكن ، والا فضحتنا في الحال ٠ »

وكان مستر بامبل ـ الذي راح يلقي على المبنى نظرات جد محزونة ـ على وشك ان يعبّر ، في ما يبدو ، عن شكوكه المتصلة بصوابية الذهاب في هذه المسألة الى أبعد مما ذهبا ، في اللحظة الحاضرة ، عندما حال بينه وبين ذلك ظهور مونكس الذي فتح باباً صغيراً كانا يقفان على مقربة منه ، وأومأ اليهما بأن يدخلا ٠

وصاح في نفاد صبر ضارباً الارض بقدميه : « أدخلا ! لا تبقياني هنا ! »

فتقدمت المرأة ، التي كانت قد ترددت بادىء الأمر ، في خطى جسور ، من غير أن تنتظر أيما دعوة اخرى ٠ وتبعها مستر بامبل ، الذي كان خجلا أو خائفاً من التخلف ، وهو مرتبك على نحو واضح ، عاطلٌ الى حد بعيد عن ذلك الوقار الرائع الذي طالما كان احدى سجاياه الرئيسية ٠

ـ « ما الذي جعلك تقف متلكئاً هناك ، تحت المطر ؟ أجبني بحق الشيطان ! » كذلك قال مونكس وهو يستدير موجهاً الخطاب الى بامبل ، بعد أن احكم ايصاد الباب خلفهما بالرتاج ٠

فتمتم بامبل ، مجيلا الطرف في ما حوله بجزع : « كنا ٠٠٠ كنا نتبرّد ليس غير ٠ »

فقال مونكس : « تتبرّدان ! ان جميع الامطار التي قدّر لها ان تهطل والتي سوف يقدّر لها ان تهطل لن تقوى على اطفاء جزء صغير من نار الجحيم كالذي يستطيع أن يحمله انسان واحد ٠ لا تتصوروا ان في ميسوركما أن تتبرّدا بمثل هذه السهولة كلها ٠ »

ألقى مونكس هذه الخطبة القريبة الى القلب والتفت ، فجأة ، الى المديرة وركّز نظراته عليها حتى لقد نزعت هي ـ أجل هي ، التي لم تكن لترْهَب في سهولة ـ الى الغض من طرفها وتصويبه نحو الارض ٠

وسأله مونكس : « هذه هي المرأة ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه مستر بامبل ، متذكراً وصية زوجته : « هممم ! هذه هي المرأة ٠ »

فقالت المديرة ، مقاطِعة ، وردّت ـ فيما هي تتكلم على نظرات مونكس بمثلها : « يخيّل اليّ انك تحسب ان النساء لا يستطعن كتمان الاسرار البتة ٠ »

فقال مونكس : « أنا أعلم ان من دأبهن ان يكتمن سراً واحـــداً الى أن يُكتشف ! »

فسألته المديرة : « وما ذلك السر ؟ »

فأجابها مونكس : « ضياع العفاف · وهكذا ـ وعلى أساس من القاعـدة نفسها ـ فحين تكون امرأة ما فريقاً في سرّ قد يعرّضها للشنق او الترحيل من البلاد أراني مطمئناً الى أنها لن تبوح به لأحد ··· لا ، لست أنا الذي يخشى ان تبوح بذلك السر · هل تفهمين ، يا سيدتي ؟ »

ـ « لا ! » كذلك أجابته المديرة ، وقد شاع الدم في وجهها ، بعض الشيء·

فقال مونكس : « أنت لا تفهمين طبعاً · وأنّى لك أن تفهمي ؟ »

وتكرّم على رفيقيه بشيء وسط بين البسمة والعبسة ، واومأ اليهما كرة اخرى بأن يتبعاه ، واجتاز بخطى سريعة تلك الحجرة التي كانت جد عريضة ، ولكنها ذات سقف خفيض · كان يأخذ الأهبة لارتقاء سلم شديدة الانحدار ، او على الاصح مرقاة نقّالة ، تفضي الى دور آخر من المخازن القائمة فوق ، عندما شعّ من خلال الكوّة وميض برق ساطع ، وتبعه هزيم رعد هز المبنى المتصدع من آساسه ·

وصاح وهو يرتدّ مجفلا : « هل تسمعانه ؟ هل تسمعانه ؟ انه يتدحـرج ويفرقع وكأن صداه يرتجع خلال ألف كهف اختبأت فيها الشياطين فـــراراً بنفسها منه · أنا أكره هذا الصوت ! »

واعتصم بالصمت بضع لحظات · ثم انه رفع يديه فجأة عن وجهه ، فبدا لهما ـ وهو ما أقلق مستر بامبل الى حد لا سبيل الى وصفه ـ أنه كان بالـغ الاضطراب شديد الشحوب ·

وقال مونكس وقد لاحظ ما ألمّ به من ذعر : « هذه النوبات تصيبني بين الفينة والفينة · وان الرعد ليثيرها في بعض الاحيان · لا تقلقا عليَّ ، الآن · فقد انحسرت النوبة الحالية انحساراً كاملا · »

قال ذلك وشرع يصعد درجات المرقاة متقدماً اياهما · حتى اذا بلـــغ الحجرة التي أفضت اليها ، سارع الى اغلاق مصراع النافذة ، وخفض مصباحاً كان يتدلى من طرف حبل وبكرة منفذين من احدى روافد السقف الخشبيـة الثقيلة ـ مصباحاً كان يسفح ضوءاً باهتا على طاولة عتيقة وثلاثـة كراسي موضوعة تحته ·

وقال مونكس بعد أن اتخذ كل منهم مقعداً : « والآن ، كلما سارعنا الى انجاز ما اجتمعنا من أجله كان ذلك خيراً وأبقى · ان السيدة تعرف ما نحـن بصدده ، أليس كذلك ؟ »

كان ذلك السؤال موجهاً الى بامبل · ولكن زوجته سبقته الى الاجابـة بقولها انها مُلِمّة بكل شيء ·

ـ « لقد كان يقول الحقيقة عندما زعم انك كنت مع تلك العجوز ليلة لفظت أنفاسها الأخيرة ، وأنها أفضت لك بشيء ٠٠٠ »

فقاطعته المديرة : « عن أمّ الغلام الذي ذكرت اسمه ٠ نعم ٠ »

فقال مونكس : « السؤال الاول هو : ما طبيعة الكلام الذي باحت لك به ؟ »

فلاحظت المرأة في كثير من الهدوء : « هذا هو السؤال الثاني ٠ أما السؤال الاول فهو: كم سيساوي ، ذلك النبأ ؟ »

فقال مونكس : « ومن الذي يستطيع ، بحق الشيطان ، ان يحزر ذلك ، من غير ان يعرف طبيعة أقوالها ؟ »

ـ « أنت الذي تستطيع ذلك أحسن من اي امرىء آخر ٠ أنا واثقة من هذا ٠ » كذلك أجابته السيدة بامبل ، التي لم تعوزها القوة ، كما كان في استطاعة رفيقها في النيِّر* ان يؤكد ٠

ـ « هممم ! » كذلك قال مونكس في نبرة ذات مغزى ، وبنظرة من فضول نهم٠ « قد يكون ثمة شيء نفيس يمكن الفوز به ، شيء يساوي مالا ، أليس كذلك ؟ »

فكان جواب السيدة الرابطة الجأش : « ربما كان ثمة شيء كهذا ٠ »

فقال مونكس : « شيء انتُزع منها ٠ شيء كانت تطوق به عنقها ٠ شيء ٠٠٠ »

فقاطعته مسز بامبل : « من الأفضل لك ان تعرض الثمن الذي ستدفعه٠ لقد سمعت حتى الآن ما يؤكد لي انك انت الرجل الذي يتعين عليّ ان أتحدث اليه ٠ »

وأصغى مستر بامبل ـ الذي لم تكن شريكة حياته قد أطلعته بعدُ من ذلك السر على أكثر مما عرفه منذ البدء ـ أقول أصغى مستر بامبل الى هذا الحوار بعنق مُتَلعة ، وعينين جاحظتين ، وجَّهها جميعاً الى زوجته حيناً والى مونكس حيناً ، في انشداه غير مقنَّع ما لبث أن تعاظم واستفحل ـ لو كان ذلك ممكناً ـ عندما تساءل هذا الاخير في سيماء متجهمة عن المبلغ المطلوب ثمناً لاطلاعه على السرّ ٠

وقالت المرأة في مثل رباطة جأشها الاولى : « كم يساوي هذا السرّ بالنسبة اليك ؟ »

فأجابها مونكس : « قد لا يساوي شيئاً ٠ وقد يساوي عشرين جنيهاً ٠ »

فقالت المرأة : « أضف خمسة جنيهات الى المبلغ الذي ذكرته ٠ أعطني خمسة وعشرين جنيهاً ذهباً أقل لك كل ما أعرف ٠ ولكنني لن أقول ، قبل ذلك ، كلمة واحدة ٠ »

---

* يقصد : زوجها ٠

فهتف مونكس مُجفلا : « خمسة وعشرين جنيهاً ؟ »

فأجابته مسز بامبل : « لقد تحدثت بأوضح بيان أستطيعه · ثم انه ليس بالمبلغ الضخم على أية حال · »

فصاح مونكس وقد نفد صبره: «ليس بالمبلغ الضخم ثمناً لسرّ هزيل··· سرّ قد لا تكون له أية قيمة بعد أن يُباح به ؟ سرٌ مات ودُفِن منذ اثنتي عشرة سنة أو أكثر ؟! »

ـ « ان هذه الاشياء وأمثالها لتحتفظ بجدتها دائماً · وهي كالخمر المعتقة كثيراً ما يتضاعف ثمنها بتقادم الزمان · » كذلك أجابته المديرة وهي محتفظة ، ما تزال ، بتلك اللامبالاة الراسخة التي تكشّفت عنها منذ البداية · « واذا كان ذلك السر قد مات ودُفِن فأن ثمة ، بقدْر ما أعرف انا وتعرف انت ، من سوف يبقون في أجداثهم اثني عشر الف سنة ، أو اثني عشر مليون سنة ، لينتهوا بعد ذلك الى القيام والافضاء بمختلف الحكايات الغريبة · »

فقال مونكس متردداً : « واذا اتفق ان دفعت هذا المبلغ للاشيء ؟ »

فأجابته المديرة : « في استطاعتك عندئذ ان تسترده · أنا لست الا امرأة ضعيفة · وأنا هنا وحدي ، ومن غير حماية · »

ـ « لست وحدكِ ، يا عزيزتي ، لا ·· ولست من غير حماية أيضاً · » كذلك اعترض مستر بامبل في صوت مرتعد خوفاً · « أنا هنا ، يا عزيزتي · والى هذا ، » واصطكت أسنان مستر بامبل وهو يتكلم ، « فأن مستر مونكس من الشهامة بحيث لا يحاول اصطناع العنف مع الاشخاص الابرشانيين · مستر مونكس يعلم جيداً اني لست شاباً ، يا عزيزتي · واني قد فقدتُ القوة والعزم بعض الشيء ، اذا جاز التعبير · ولكنه قد سمع ··· أقول ان مستر مونكس قد سمع من غير ريب ، يا عزيزتي ، اني موظف عنيد ، ذو قوة استثنائية ، تتجلى حين يثيرني المرء · انا لا أحتاج الا الى شيء من الاستثارة · هذا كل ما هنالك · »

وفيما كان مستر بامبل يتكلم تظاهر ، على نحو محزون ، برغبته في تناول مصباحه بعزم ضار · وأظهر بالانطباعة المذعورة التي غلبت على ملامحه جميعاً ـ اظهاراً لا لبس فيه ـ انه كان فعلا في حاجة الى شيء من الاستثارة ، بل الى كثير منها ، قبل أن يقوم بأي عمل فيه رائحة الحرب ، اللهم الا ضدّ الفقراء أو أي شخص أو أشخاص آخرين أُعِدّوا خصيصاً لهذا الغرض ·

وقالت مسز بامبل موجهة الخطاب الى زوجها : « انت معتوه · ولقد كان من الخير لك ان تمسك لسانك عن الكلام · »

فقال مونكس في تجهم : « كان من الخير له ان يقطعه قبل ان يجيء اذا كان غير قادر على الكلام بلهجة أشد انخفاضاً · اذن ، فهو زوجك ، ايه ؟ »

فضحكت المديرة ضحكاً مكبوحاً لكي تتفادى السؤال : « هو ، زوجي ! »

ـ « هذا ما خطر لي ، عندما دخلتما ٠ » كذلك أجاب مونكس ، ملاحظاً النظرة الغضبى التي ألقتها السيدة على زوجها وهي تتكلم ٠ وعلى أية حال ، فهذا أفضل ٠ اني أستشعر تردداً أقل ، في التعامل مع شخصين اثنين ، حين أجد ان ارادتهما واحدة ٠ أنا أتكلم جاداً ٠ أنظرا ! »

وأقحم يده في احدى جيوبه الجانبية ، وأخرج منها كيساً قماشياً خشناً ، وعدّ على الطاولة خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً ، ودفعها فوقها في اتجاه المرأة ٠

وقال : « والآن ، اجمعي شتاتها ٠ وحين ينقضي هزيم هذا الرعد الملعون ، الذي يخيل اليّ أنه سوف ينقضّ على رأس البيت ، تُسْمعينني قصتك ٠ »

حتى اذا خمد الرعد ، الذي بدا في الواقع أشدّ قرباً بكثير، والذي تراءى وكأنه يقصف وينفجر فوق رؤوسهم ، رفع مونكس وجهه عن الطاولة وانحنى الى الامام ليصغي الى ما ستقوله المرأة ٠ وكادت وجوه الثلاثة ان تتماسّ ، عندما انحنى الرجلان فوق الطاولة الصغيرة وقد استبد بهما شوق الى السماع عارم ، ومالت السيدة أيضاً الى أمام لكي تجعل همسها مسموعاً ٠ وكان في الأشعة المريضة المنبعثة من المصباح المدلّي ، والمنصبّة عليهم مباشرة ، ما ضاعف في شحوب وجوههم وقلقها ، تلك الوجوه التي غلب عليها ، وقد طُوِّقت بأشدّ القتام والظلمة ، سيماء شبَحيّة رهيبة ٠

ـ « عندما ماتت تلك المرأة التي كنا ندعوها سالي العجوز ، » كذلك استهلت المديرة كلامها ، « كنت مُخْتلية بها ٠ »

فسألها مونكس بذلك الهمس الغائر نفسه : « ألم يكن معكما أيما شخص آخر ؟ ألم يكن ثمة أيما صعلوك أو معتوه في سرير آخر ؟ ألم يكن ثمة أحد قادر على أن يسمع ، وفي ميسوره ـ على سبيل الاحتمال ـ أن يفهم ؟ »

فأجابته السيدة : « لم يكن معنا أيّ مخلوق ٠ كنا وحدنا ٠ ولقد وقفت وحدي على مقربة من الجثة عندما حل الموت بساحتها ٠ »

فقال مونكس وهو ينعم النظر اليها : « حسن ٠ تابعي ٠ »

فاستأنفت المديرة حديثها : « لقد تحدثت عن مخلوقة شابة كانت قد وضعت غلاماً قبل بضع سنوات ٠ لا في الحجرة نفسها وحسب ، بل في الفراش نفسه الذي كانت تلفظ أنفاسها آنذاك وهي ممدّدة عليه ٠ »

ـ « ايه ؟ » كذلك قال مونكس مرتعش الشفة ، ملقياً نظرة الى الوراء « يا للشيطان ! كيف تحدث الاشياء ! »

ـ « وكان الغلام هو ذلك الذي سمَّيتَهُ له الليلة البارحة ٠ » هكذا قالت المديرة ، وهي تومىء برأسها ، في ازدراء ، نحو زوجها ٠ « أما الأمّ فكانت هي تلك التي سلبتها هذه القابلة ٠ »

فسألها مونكس : « وهي على قيد الحياة ؟ »

فأجابته المرأة بشبه رِعدة : « لا ، وهي ميتة · لقد سرقت من تلك الجثة ، بعد بضع لحظات من انتقالها الى عالم الاموات ، ذلك الشيء الذي كانت الأمّ المحتضَرة قد توسلت اليها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها ، ان تحتفظ به لمصلحة الطفل · »

فصاح مونكس ، في لهفة يائسة : « هل باعته ؟ أقول هل باعته ؟ أين ؟ متى ؟ ولمن ؟ ومنذ أيّ عهد ؟ »

فقالت المديرة : « بينا كانت تخبرني ، في كثير من العسر ، أنها أقدمت على ذلك ، انقلبت على ظهرها وماتت · »

فقال مونكس في صوت لم يزده الكبح ــ في ما بدا ــ الا ضراوة : « من غير ان تقول ايّ شيء آخر ؟ هذا كذب ! أنا لن أجيز لأحد أن يخدعني · لقد قالت شيئاً أضافياً · اني سوف انتزع الحياة من صدريكما ، أنتما الاثنين ، الا اذا عرفت ما قالته · »

ــ « انها لم تنطق بأية كلمة اخرى ، » كذلك قالت المرأة ، غير متأثرة ، وفقاً لجميع المظاهر (وهو حكم لا يصحّ البتة في ما يتصل بمستر بامبل) بالعنف الذي تكشّف عنه الرجل الغريب · « ولكنها تشبثت بثوبي ، في عنف ، بأحدى يديها ، وكانت نصف مُطْبَقة · وحين وجدت أنها لفظت نفسها الاخير · أزلت يدها بالقوة ، فوجدت أنها تنطوي على قصاصة من ورق وسخ · »

ــ « قصاصة تشتمل على ··· » كذلك قاطعها مونكس ، منحنياً الى أمام ·

فأجابته المرأة : « على لا شيء · لقد كانت شهادة ايداع من أحد المرابين · »

فسألها مونكس : « ايداع ماذا ؟ »

فقالت المرأة : « سوف أخبرك في الوقت المناسب · الذي يخيّل اليّ هو أنها احتفظت بالحلية ، فترة من الزمن ، آملةً ان تجني منها بعض الربح · وبعد ذلك رهنتها · ثم انها راحت تقتصد او تجمع المال لكي تدفع الفائدة الى المرابي عاماً بعد عام ، وتحول دون ضياع الحلية نهائياً ، رجاة ان تظل قادرة على استرجاعها اذا ما سنحت لها فرصة استغلالها في يوم من الايام · ولكن تلك الفرصة لم تسنح · وكما قلت لك من قبل ، فقد ماتت وقصاصة الورق في يدها بالية ممزقة · وكان أجَلُ انقاذ الحلية ينتهي بعد يومين اثنين · وفكرتُ أنا أيضاً ان في استطاعتي أن أستغلها في يوم من الأيام ، وهكذا فككت رهنها · »

فسارع مونكس الى سؤالها : « وأين هي الآن ؟ »

ــ « هنا ! كذلك اجابته المرأة · وطرحت على الطاولة في سرعة ، وكأنها سعيدة بالتخلص منه ، كيساً صغيراً من جلد الجدي لا يكاد يتسع لساعة مرصعة · كيساً انقضّ عليه مونكس ، وفتحه بيدينْ مرتجفتين · كان يشتمل على عُلَيْبة ذهبية على شكل قلب · وكان في تلك العُلَيْبة خصلتان من

الشعر ، وخاتم خطبة من ذهب خالص . »

وقالت المرأة : « لقد نُقِشت في داخله كلمة « آغنيس » ، وقد تُرك بعدُ فراغ لاسم الاسرة . وبعد ذلك نُقِش التاريخ . وهو يرجع الى ما قبل مولد الغلام بأقل من عام واحد . لقد أكتشفت ذلك بعد دراسة وبحث . »

ـ « أهذا كل شيء ؟ » كذلك قال مونكس بعد أن فحص محتويات العُليبة الصغيرة في عناية ولهفة .

فأجابته المرأة : « هذا كل شيء . »

وتنفس مستر بامبل ، وكأنه كان سعيداً بأن يدرك ان القصة قد انتهت من غير أيما اشارة الى استرداد الجنيهات الخمسة والعشرين . وعندئذ آنس من نفسه الجرأة على مسح قطرات العرق الذي تصبّب على أنفه ، دونما كبح ، طوال الحوار السابق .

وقالت زوجته ، مخاطبة مونكس ، بعد صمت قصير : « أنا لا أعرف من هذه القصة شيئاً غير الذي يمكّنني الحدس من معرفته : وأنا لا أريد ان اعرف شيئاً . فهذا أدعى الى السلامة . ولكني أحب ان اطرح عليك سؤالين . فهل أستطيع ؟ »

فقال مونكس في شيء من الدهش : « طبعاً ، تستطيعين . أما ما اذا كنت سأجيب عنهما أم لا فتلك مسألة اخرى . »

فلاحظ مستر بامبل ، محاولا ان يمزح : « وهكذا يصبح المجموع ثلاثة . »

بعدئذ سألته المديرة : « أهذا ما كنت تتوقع أن تفوز به مني ؟ »

فأجابها مونكس : « ذلك هو . والسؤال الآخر ؟ »

ـ « ما الذي تعتزم أن تفعله به ؟ أمن الجائز أن يُستعمل ضدي ؟ »

فأجابها مونكس : « معاذ الله ! ولن يُستعمل ضدي أنا أيضاً . انظري ! ولكن حذار ان تتقدمي خطوة واحدة الى الأمام ، والا لم تساوِ حياتك قصبة من قصب الماء ! »

قال ذلك ودفع الطاولة ، فجأة ، الى جانب ، وسحب حلقة في أرضية الحجرة ، وردّ الى الوراء باباً مسحوراً كبيراً انفتح عند قدمي مستر بامبل نفسيهما على نحو جعل ذلك السيد الماجد يرتدّ بضع خطوات الى الوراء في ذعر بالغ .

وقال مونكس وهو يخفض المصباح نحو الهوة : « انظري ! لا يأخذنّك الخوف مني . لقد كان في امكاني أن اسقِطك فيها ، بكثير من الهدوء ، حين كنت جالسة فوقها ، لو راق لي ذلك ووجدت فيه تسلية لي . »

ودنت المديرة من شفير الهوة ، بعد أن شُجّعت على ذلك النحو . وحتى مستر بامبل نفسه غامَر فحذا حذوها ، يحدوه على ذلك فضولٌ غامر . كانت المياه العكرة ، المعزّزة بالمطر الغزير ، تندفع من تحتها في سرعة . وكانت جميع

الاصوات الاخرى تضيع في خضم الضجة التي أحدثها ارتطامها بالركائز الخشبية الخضراء الموحلة وتدويمها حولها • لقد كان ثمة في تلك الهوة ، ذات يوم ، طاحونة مائية • وكان مدّ الماء المُزْبِد يصفع الأوتاد القليلة النخِرة • وبدت شظايا الآلات ، التي خلّفتها الايام هناك ، وكأنها تندفع الى أمام ، بعزم جديد ، حين حُرِّرت من العقبات التي حاولت على غير طائل أن تصدّ جَريها الدافق •

وقال مونكس وهو يؤرجح المصباح في البئر المظلمة : « اذا ما ألقينا جسم امرىء ما في هذه الهوة فالى أين يصير غداً صباحاً ؟ »

فأجابه بامبل وهو يجفل مرتداً الى الوراء لمجرد التفكير في ذلك : « على عمق اثني عشر ميلا في قاع النهر ، ولسوف يُقَطَّع ـ فوق هذا ـ ارباً ارباً • »

عندئذ أخرج مونكس العلبة الصغيرة من صدره ، حيث كان قد أقحمها على عجل • وشدّها الى ثِقل رصاصيّ (كان يشكّل في ما مضى بكَرة ما ، كانت مطروحة على الارض) وأسقطها في مَسِيل الماء • فسقطت على نحو مستقيم ، من غير أن ينحرف مقدار شعرة ، وشقّت الماء غير محدثة ـ تقريباً ـ أيما صوت ، واختفت عن البصر •

وتبادل ثلاثتهم النظرات ، وبدوا وكأنهم يتنفسون على نحو أكثر حرية وانطلاقاً •

وقال مونكس ، مغلقاً الباب المسحور الذي ارتدّ ثقيلا الىموضعه السابق: « والآن ، اذا ما قُدّر للبحر في يوم من الايام أن يلفظ موتاه ، كما تزعم الكتب، فأنه سوف يحتفظ بالذهب والفضة لنفسه ، وفي جملتهما تلك الحلية الحقيرة • واذ لم يبق لدينا الآن ما نقوله ففي استطاعتنا أن نفضّ جلستنا اللطيفة • »

ـ « من غير ريب ! » كذلك أعلن مستر بامبل في حبور بالغ •

فقال مونكس ملقياً عليه نظرة متوعدة : « عليك ان تبقي لسانك الهادىء في فمك ، أفهمت ؟ أما زوجتك فأنا مطمئن من ناحيتها • »

فقال مستر بامبل ، منحنياً شيئاً بعد شيء نحو المرقاة ، في كياسة مسرفة : « في ميسورك ان تتكل عليّ ، أيها الشاب • لمصلحتنا جميعاً ، أيها الشاب • ولمصلحتي أنا شخصياً ، كما تعرف ، يا مستر مونكس • »

فلاحظ مونكس قائلا : « يسرّني ، من أجلك ، أن أسمع هذا • أشعِلْ مصباحك ! واغرب من هنا ، بأسرع ما تستطيع • »

وكان من حسن الطالع ان الحديث ختِم عند هذه النقطة ، والا لكان مستر بامبل ـ الذي انتهى به انحناؤه بالتحية الى مسافة لا تزيد على ستة انشات من المرقاة ـ قد سقط من غير ريب ، ورأسه يتقدمه ، في الحجرة السفلية • لقد أشعل مصباحه من ذلك المصباح الذي كان مونكس قد فصله عن الحبل وحمله بيده • ومن غير أن يقوم بأية محاولة الى اطالة الحديث ، هبط المرقاة في صمت ، تتبعه زوجته • ونزل مونكس في أعقابهما ، بعد أن تمهّل على درجات المرقاة

لكي يستيقن من أنه لم يكن ثمة أيما صوت مسموع غير هطول المطر في الخارج ، وتدفق المياه ٠

واجتازوا الحجرة السفلية في أناة ، وفي حـــذر ٠ ذلك بان مونكس كان يُجفل كلما وقعت عيناه على ظل ، وبأن مسترِ بامبل ، الرافع مصباحَهُ مقدار قدم فوق أرضية الحجرة ، لم يمش في حذر شديد فحسب ، بل في خفة مذهلة بالنسبة الى سيد ماجد في مثل بدانته ، مجيلا طرفه في ما حوله، على نحو عصبي، خشية أن تكون ثمة أبواب مسحورة مخبوءة ٠ وما هي الا فترة حتى فتح مونكس الباب الذي كانوا قد دخلوا منه رافعاً مزلاجه في رفـــق ٠ واجتزأ الزوجـــان بانحناءة احترام تبادلاها مع صديقهما الملفّع بالالغاز ، وأدلجا تحت المطر ٠

وما ان انصرفا حتى نادى مونكس ــ الذي خامره ، في ما بدا ، نفورٌ من العزلة لا يُقْهَر ــ غلاماً كان مختبئاً في مكان ما تحت ٠ وأصدر أمره اليه بان يمضي ، بادىء الأمر ، ويأتي بالمصباح ، ثم انقلب الى الحجـرة التي كان قـــد غادرها منذ لحظة ٠

الفصـــل التاسع والثلاثون
وهو يقدم الى القارىء بعض الشخصيات المحترمـة التي عرفها من قبل ، ويظهر كيف تواطـأ مونكس الفـاضل واليهودي الجليل

وفي المساء الذي تلا تلك الليلة التي أنجز فيها الفضلاء الثلاثة المذكورون في الفصل السابق مهمتهم الصغيرة على الوجه الذي رأيناه أفاق مستر ولـــيم سايكس من سِنة من الكرى ، وغمغم على نحو وسنان متسائلا كم الساعة ٠

ولم تكن الحجرة التي طرح مستر سايكس فيها هـــذا السؤال احـــدى حجرات ذلك المنزل الذي كان يقطنه قبل حملة تشيرتسي ، على الرغم من انها كانت تقع في الحي نفسه من المدينة نفسها ، وعلى مبعدة غـير نائية من منزلـــه القديم ٠ ولم تكن ، في ما يبدو ، مثوى مرغوباً فيه شأن مثواه السابق ، اذ كانت حجرة حقيرة ، رديئة الاثاث ، ضئيلة المساحة ، تنيرها نافذة صغـــيرة واحدة قائمة في السقف المنحدر ، وتتاخم زقاقاً ضيقاً قذراً ٠ وكانت ثمة الى جانب هذه كلها دلائل أخرى تشير الى ان الدهر كان قد قلب لذلك السيد الصالح ، منذ فترة قريبة ، ظهر المجن ٠ ذلك بأن ندرة الاثاث البالغة ، وانعدام أسباب الراحة انعداماً كلياً ، بالاضافة الى اختفاء مختلف المنقولات الصغيرة ، من مثل الملابس والبياضات الاحتياطية ٠٠ كل أولئك نمّ عن حال من الفقر المدقع ٠ والواقع ان مظهر مستر سايكس نفسه الهزيل الموهون كان خليقاً به أن يؤيد

هذه الأعراض ، لو أنها احتاجت الى أيما تعزيز ٠

كان سارق البيوت مستلقياً في الفراش ، متدثراً بمعطفه الابيض متخذا منه مبذلا (روب دو شامبر) ، مُبدياً عن أسارير لم تجمّلها بأية حال صبغة المرض الشبيهة بشحوب الموتى ، ولا قلنسوة النوم التي أضيفت اليها هي ولحية خشنة سوداء لم تحلق منذ اسبوع كامل ٠ وكان الكلب باسطاً ذراعيه في محاذاة السرير ، فهو يحدج سيده بنظرة كئيبة حيناً ، وهو يرهف اذنيه او يطلق نباحاً خفيضاً كلما لفتت انتباهه ضجة في الشارع أو في الجزء الأدنى من المنزل ، حيناً آخر ٠ وكانت تجلس على مقربة من النافذة ــ وقد انهمكت في رتق صدرة عتيقة تشكل جزءاً من لباس اللص المعتاد ــ أنثى شديدة الشحوب مهزولة من جراء السهر والحرمان الى حد جعل من أعسر العسير على المرء أن يعرف فيها نفس « نانسي » التي سبق لها ان ظهرت في هذه القصة لولا الصوت الذي أجابت به عن سؤال مستر سايكس ٠

قالت الفتاة : « انها الساعة السابعة وبضع دقائق ٠ كيف حالك الآن ، يا بيل ؟ »

ــ « ضعيف كالماء ، » هكذا أجاب مستر سايكس وهو يستنزل اللعنات على عينيه وأطرافه ٠ « هيّا ، مدّي اليّ يداً ، وساعديني على مغادرة هذا السرير القذر ، بطريقة ما ٠ »

كان المرض قد عجز عن صقل طباع مستر سايكس ٠ اذ انه ، فيما كانت الفتاة ترفعه وتقوده الى أحد الكراسي ، غمغم بضروب من اللعنات صبَّها على غبائها وقلة لباقتها ، وضربها ٠

وقال سايكس : « أنتِ تُعولين . أليس كذلك ٠ تعالي ! لا تقفي هناك وأنت تشرقين بالبكاء ! اذا كنت عاجزة عن ان تفعلي أيما شيء أفضل من ذلك فضعي له حداً في الحال ٠ هل تسمعينني ؟ »

فأجابته الفتاة ، مشيحة بوجهها عنه ، متكلّفة الضحك : « أجل ، أنا اسمعك ٠ أية نزوة تطوف برأسك الآن ؟ »

فزمجر سايكس ، وقد لاحظ الدمعة التي ترقرقت في عينها : « آه ، لقد غيَّرت رأيك ، أليس كذلك ؟ لقد أحسنتِ صنعاً ٠ »

فقالت الفتاة واضعة يدها على كتفه : « ولكنك لا تقصد الى القول انك سوف تقسو عليّ الليلة ، يا بيل ؟ »

ــ « لا ! » هكذا صاح سايكس ثم أضاف : « ولم لا ؟ »

فقالت الفتاة وقد غلبت عليها مسحة انثوية أوقعت شيئاً كعذوبة النبرة حتى في صوتها هي : « لو فكرت في عدد الليالي التي تذرعت فيها بالصبر عليك ، وانصرفت خلالها لتمريضك والعناية بك ، وكأنك طفل صغير ، لما عاملتني كما فعلت الآن ، بعد ان رأيتك لأول مرة تستعيد ضائع صحتك ٠

هيا ، قل لي أنـك لن تقسو عليّ ! »

فأجابها مستر سايكس : « حسناً ، اذن . لن أقسو عليك . يا للشيطان! ولكن الفتاة عادت الى العويل ! »

فقالت الفتاة مرتمية على كرسي : « ليس هذا بشيء . تصرّف وكـأن شيئاً لم يحدث . ان هذه السحابة سوف تنقشع عما قريب . »

فسألها مستر سايكس في صوت وحشي : « أية سحابة هذه التي سوف تنقشع ؟ أية حماقة تساورك الآن من جديد ؟ انهضي وانصرفي الى العمل . ولا تسمعيني هراءكِ النسوي . »

ولو ان هذا التقريع ، واللهجة التي أفرِغ فيها ، اصطنِعا في أيما وقت آخر اذن لأحدثا الاثر المنشود . ولكن الفتاة كانت منهوكة القوى حقاً ، فخفضت رأسها على ظهر الكرسي ، وسقطت مغشياً عليها قبل أن يوفّق مستر سايكس الى اطلاق بعض اللعنات الملائمة التي تعوّد تزيين تهديداتـه بها ، في أحـوال مماثلة . ولم يدر مستر سايكس ما الذي يتعيّن عليه ان يفعله في هذه الورطة غير المألوفة ، لأن نوبات الآنسة نانسي الهستيرية كانت في العادة من ذلـك النوع العنيف الذي يقاومه المريض من غير ما حاجة الى كبير مساعدة . وحاول اللجوء الى شيء من التجديف ، حتى اذا وجد ان هذه الوسيلة لم تجدهِ البتة ، صاح ملتمساً النجدة .

ـ « ما الذي يجري هنا ، يا عزيزي ؟ » كذلك قال فاجين ، وهو يطـلّ من وراء الباب .

فأجابه سايكس نافد الصبر : « مدّ يد المساعدة الى الفتاة ، ألا تستطيع؟ لا تقف هناك مثرثراً مكشّراً في وجهي ! »

وفي صرخة دهش سارع فاجين لمساعدة الفتاة ، فيما كان مستر جـون داوكنز (الملقّب بالمراوغ الماكر والذي كان قد لحق بصديقه المبجل الى الحجرة) يضع على الارض ، متعجّلا ، صرّة كان يحملها . وسرعان ما اختطف داوكنز هذا من قبضة المعلم تشارلز بايتس الذي أقبل في أعقابه ، زجاجـة فنزع سدادتها بأسنانه بغمضة عين ، وأفرغ جزءاً من محتوياتها في حلق نانسي ، بعد أن أخذ هو نفسه جرعة منها دفعاً للالتباس والخطأ .

وقال مستر داوكنز : « أعطها هبّة من الهواء الطلق بواسطة المنفاخ ، يا تشارلي . وأنت يا فاجين ربّتْ عـلى يديها في قـوة ، بينا يحـل « بيل » عقدة تنورتها . »

والواقع أن هذه المحاولات الانعاشية المتحدة ، المقدّمة في نشاط بالـغ (وخاصة ما كان منها مناطاً بالمعلم باينس ، الذي بدا وكأنه يعتبر خصته مـن الاجراءات دعابة يعزّ نظيرها) سرعان ما احدثت أثرها المنشود . فشيئاً بعد شيء استعادت الفتاة وعيها ، ومضت مترنحة الى كرسي موضوع في محـاذاة

السرير ، وحجبت وجهها بالوسادة ، تاركة مستر سايكس يواجه الوافدين الجدد ، في شيء من الدهش لبروزهم اللامرتقب ٠

وسأل فاجين : « ولكن أية ريح شريرة قذفت بك الى هنا ؟ »

ـ « ليست هذه ريحاً شريرة البتة ، يا عزيزي ، لأن الرياح الشريرة لا تحمل الى ايما امرىء أيّ خير ٠ ولقد حملتُ اليك شيئاً صالحاً سوف يسعدك ان تراه ٠ افتح الصرّة ، يا عزيزي « المراوغ » ٠ وقدّم الى « بيل » هذه السلع الحقيرة التي انفقنا كل أموالنا عليها ، هذا الصباح ٠ »

ونزولا عند رغبة مستر فاجين فك « المراوغ » صرّته ، وكانت ضخمة مؤلفة من غطاء مائدة عتيق ، وقدّم السلع التي احتوتها ، واحدة اثر واحدة ، الى تشارلي بايتس الذي وضعها على الطاولة ، مطرياً ندرتها ونفاستها اطراء بالغاً ٠

وهتف ذلك السيد الشاب وهو يعرض على الأبصار فطيرة بلحم ذات حجم كبير : « يا لها من فطيرة أرانب ، يا بيل ! مخلوقات صغيرة ناعمة تتمتع بقوائم رقيقة ، يا بيل ، الى حدّ يجعل عظامها تذوب في فمك من غير أن تحتاج الى التقاطها ٠ نصف رطل من الشاي الأخضر الذي يباع بستة شلنات ونصف ، والذي هو من القوة بحيث لو مزجته بالماء الغالي يكاد يثب لينسف غطاء ابريق الشاي ٠ رطل ونصف من السكر الرطب الذي لم تعمل فيه أيدي الزنوج البتة قبل أن يبلغوا به هذه المرتبة من الجودة ٠ اوه ، لا ! رغيفان من أرغفة النخالة يزن كل منهما ليبرتان رطل من أجود الزبدة الطازجة ٠ وقطعة من الجبنة الفاخرة ٠ وفوق هذا كله ، قليلٌ من الشراب الذي لم يقدّر لك أن تثمل بما هو أقوى منه ٠ »

وفيما كان المعلم بايتس يرسل هذا المديح الاخير أخرج من احدى جيوبه الواسعة زجاجة خمر ذات حجم طبيعي أحكِم سدّها في عناية ، بينا عمد مستر داوكنز ، في اللحظة نفسها ، الى اتراع احدى الكؤوس بخمر صِرْف صبّها من الزجاجة التي كان يحملها ٠ فلم يكن من الرجل المريض الا أن أفرغها في جوفه ، دفعة واحدة ، في غير ما تردد البتة ٠

وقال فاجين وهو يفرك يديه في ارتياح بالغ : « آه ! سوف تتحسن حالك ، يا بيل ٠ سوف تتحسن حالك الآن ٠ »

فصاح مستر سايكس : « تتحسن حالي ؟ لقد كان من الجائز ان أهلك عشرين مرة متوالية قبل أن تقوم بأيما عمل من أجل مساعدتي ٠ ماذا تعني بتركك اياي في حال كهذه ثلاثة أسابيع ونيفاً ، أيها المتشرد الخائن ؟ »

فقال فاجين هازاً كتفيه : « اسمعوا ، اسمعوا ، أيها الغلمان ، ما يقول ! ولمن ؟ لنا نحن الذين حملنا اليه كل هذه الطيبات ٠ »

ـ « ان الأمور أخذت تجري في مجراها الحسن ٠ » كذلك أعلن مستر

سايكس ، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء بعد أن ألقى نظرة على الطاولة · « ولكن ما الذي تستطيع أن تقوله دفاعاً عن نفسك ، وقد تركتني هنا خائر العزم ، معتل الصحة ، موهون القوى ، مصاباً بألف بليَّة وبليَّة ، من غير ان تبالي بي ، طوال هذا الوقت المديد ، أكثر مما كان خليقاً بك ان تبالي لو كنت هذا الكلب الذي هنا · أكرهه على النزول ، يا تشارلي ! »

فقال المعلم بايتس وهو ينزل عند رغبة مستر سايكس : « أنا لم أر قط كلباً ظريفاً كهذا الكلب · انه يشم الطعام والشراب مثل سيدة عجوز ذاهبة الى السوق ! ان هذا الكلب سوف ينجح نجاحاً عظيماً على المسرح ، وسوف يحيي بالاضافة الى ذلك فنّ الدراما · »

ـ « أقلع عن ضجيجك هذا ! » كذلك صرخ سايكس عندما ارتد الكلب تحت السرير وهو لا يزال ينبح مغضباً · « ما الذي تستطيع ان تقوله دفاعاً عن نفسك ، أيها اللص العجوز الذابل ؟ »

فأجابه اليهودي : « لقد غبت عن لندن ، اسبوعاً او اكثر ، في شأن من الشؤون · »

فسأله سايكس : « والاسبوعان الآخران ؟ ماذا كنت تفعل خلال الاسبوعين الآخرين اللذين تركتني فيهما منطرحاً هنا ، مثل جُرذ مريض في جُحره ؟ »

ـ « لم يكن في يدي حيلة ، يا بيل · أنا لا أستطيع أن أخوض في شروح طويلة على مسمع من جميع الحاضرين · ولكني أقسم لك بشرفي انه لم يكن لي في ذلك حيلة · »

فهرّ سايكس في اشمئزاز مسرف : « تقسم بماذا ؟ هاي ! فليقطع لي واحدٌ منكم ، أيها الغلمان ، قطعة من تلك الفطيرة لكي أزيل من فمي طعم هذه اللفظة ، والا خنقتني ونقلتني الى عالم الاموات · »

فالحّ فاجين في ذلة : « لا تغضب ، يا عزيزي · أنا لم أنسك قط ، يا بيل · لم أنسك مرة واحدة · »

فأجابه سايكس في ابتسامة ساخرة : « لا ! اني اقسم أنك لم تنسني · لقد كنت تتآمر وتضع الخطط طوال انطراحي هنا مرتعداً محترقاً من الحمى · كنت تقول : بيل سوف يفعل هذا · بيل سوف يفعل ذاك · بيل سوف يفعل كل شيء ، بأرخص من التراب ، حالما يسترد صحته · فهو في حال من الفقر المدقع تجعله خير أداة لتنفيذ مشروعاتك · أتدري ؟ « لولا الفتاة لكان من الجائز ان اكون في عداد الاموات · »

ـ والآن لقد غلبتك ! » كذلك قال فاجين وهو يتعلق بتلك الكلمة في لهفة · « تقول لولا تلك الفتاة ! ولكن مَنْ غيرُ فاجين العجوز المسكين كان الوسيلة الى تمكينك من الفوز بعناية فتاة بارعة رشيقة اليد مثل تلك الفتاة ؟ »

وهنا أقبلت نانسي مُعْجَلة وقالت : « ان ما يقوله هو الحق · دعـه وشأنه ! دعه وشأنه ! »

والواقع أن ظهور نانسي وجّه الحديث وجهة جديدة · ذلك بأن الغلمان، وقد تلقوا من اليهودي العجوز غمزة خفية ماكرة ، شرعوا يلحـون عليـها في الشراب ، ففعلت ، ولكن في كثير من الاعتدال : وفي غضون ذلك ، وُفق فاجين تدريجياً ، مصطنعاً مرحاً غير مألوف ، الى التلطيف من حدّة مستر سايكس من طريق التظاهر بأنه يعتبر تهديداته مجرد مزاح عذب · بل من طريق الضحـك من صميم الفؤاد لنكتة خشنة أو نكتتين خشنتين تنازل سايكس فأطلقهما بعد لجوء منكرر الى زجاجة الخمر ·

وقال مستر سايكس : « كل هذا حسن جداً · ولكنني يجب أن أفوز منك الليلة بشيء من المال المسروق · »

فأجابه اليهودي : « ليس في جيبي الآن قطعة نقد واحدة · »

فقال سايكس : « اذن فلديك من ذلك ، في بيتك ، مقادير كبيرة · ويتعين عليك أن تعطيني شيئاً مما تدّخره هناك · »

فصاح فاجين ، باسطاً يديه الى السماء : « مقادير كبيرة ! ليس لديّ حتى ما يكفيني ل ··· »

فقال سايكس : « لست أدري مقدار ما تملك ، واني لاجرؤ على القول انك انت لا تكاد تعرف ذلك ، لأن احصاءه يحتاج الى وقت طويل جداً · ولكني يجب أن أفوز بشيء منه هذه الليلة · وهذا في ما أحسب كلام واضح · »

فقال فاجين وهو يرسل زفرة : « حسن ، حسن · سوف أرسل «المراوغ» الى هناك في الحال · »

فأجابه مستر سايكس : « أنت لن تفعل شيئاً من ذلك · ف « المراوغ » مراوغ أكثر مما ينبغي ، ولسوف ينسى أن يعود، او يضلّ السبيل ، أو يتعقّبه رجال البوليس وبذلك يحولون بينه وبين العودة ، ومن يدري فقد يجد لنفسه أيضاً عذراً آخر ، اذا ما عهدت اليه في هذه المهمة · ان نانسي هي التي ستذهب الى الوكر وتبحث فيه ، زيادة في اليقين · ولسوف اضطجع خلال ذلك وآخـذ سِنة من النوم · »

وبعد مساومات ومناقشات طويلة خفض فاجين قيمة السلفة المطلوبة من خمسة جنيهات الى ثلاثة جنيهات وأربعة شلنات ونصف ، مؤكداً بكثير من الايمان المغلّظة ان ذلك لن يترك له غير ثمانية عشر بنساً لتغطية نفقات المنزل · وعندئذ أعلن مستر سايكس ، في تجهم ، أنه اذا لم يستطع الفوز بأكثر من ذلك فيتعيّن عليه ان يقنع به · واتخـــذت نانسي الاهبة لمرافقته الى المنـــزل ، بينما راح « المراوغ » والمعلم بايتس يضعان المأكولات في الخزانة · ثم ان اليهودي استأذن صديقه الودود في الانصراف ، وانقلب عائداً الى بيته ، ترافقه نانسي والغلمان ·

وفي غضون ذلك انطرح مستر سايكس على السرير ، واستعد للنوم ريثما تعود السيدة الصغيرة ·

وأخيراً انتهوا الى منزل فاجين ، حيث وجدوا توبي كراكيت ومستر تشيتلينغ منكبين على الجولة الخامسة عشرة من لعبة الورق المعروفة ب «الكريبج» ، تلك الجولة التي لا نحتاج الى القول ان السيد الماجد الاخير خسرها ، وخسر معها نصف شلنه الخامس عشر والاخير ، وهو أمر أثار ابتهاج أصدقائه الشبان اثارة بالغة · واذ استشعر مستر كراكيت ، في ما يبدو ، شيئاً من الخجل لان يجده القوم يلاعب سيداً دونه في المنزلة وفي المواهب العقلية بكثير ، فقد تثاءب ، وسأل عن حال سايكس ، ثم تناول قبعته ليمضي في سبيله ·

فسأله فاجين : « هل جاء أحد ، يا توبي ؟ »

فأجابه مستر كراكيت وهو يرفع قبة قميصه : « لم تجيء أية رجل حيّة · ولقد كان كل شيء مملا مثل جعة رديئة خفيفة · وان عليك أن تقدم اليّ شيئاً نفيساً ، يا فاجين ، مكافأة لي على حراسة البيت هذه المدة كلها · لعنني الله ! لقد استشعرت الضجر الشديد مثل محلّف من المحلفين ، وكان خليقا بي أن أغرق في نوم عميق مثل زنزانات نيوغايت ، لو لم تحملني طيبة قلبي على تسلية هذا الغلام · يا للسأم الرهيب ! أكون ملعوناً اذا كان ما أقوله غير صحيح ! »

بعد هذه الصرخات وغيرها من أمثالها جمع مستر توبي كراكيت أرباحه وافرغها في جيب صدرته بشيء من الازدراء وكأن أشباه هذه القطع الفضية الصغيرة كانت غير جديرة باهتمام رجلٍ في مثل مقامه · حتى اذا تم له ذلك ، غادر الحجرة مختالا فخوراً تقطر منه الاناقة والكياسة الى درجة جعلت مستر تشيتلينغ يؤكد للجماعة ـ بعد أن ألقى عدداً من نظرات الاعجاب على رجليه وحذائه الطويل الساق حتى غابت عن البصر ـ انه يعتبر القطع النقدية الخمس عشرة (وهي من فئة الستة بنسات) ثمناً زهيداً لصداقة رجل مثلِ توبي ··· ثمناً هو مستعد لدفعه كلما جمعته الايام به · وأنه لم يبالِ بخسائره أكثر مما يبالي المرء بقلامة ظفره ·

ـ « يا لك من فتى غريب ، يا توم ! » كذلك قال المعلم بايتس ، وقد سره هذا التصريح سروراً عظيماً ·

فأجابه مستر تشيتلينغ : « لست كذلك البتة · هل تجدني فتى غريباً يا فاجين ؟ »

فقال فاجين مربِّتاً على كتفه وغامزاً تلاميذه الآخرين : « انت فتى بارع جداً · يا عزيزي · »

فسأله توم : « ومستر كراكيت فتى أنيق جداً ، أليس كذلك يا فاجين؟»

ـ « ليس في هذا أيّ ريب ، يا عزيزي · »

فتابع توم قائلا : « وصداقته تشرّف الانسان ، أليس كذلك يا فاجين ؟»

ـ « الى حد بعيد جداً من غير ريب ، يا عزيزي ٠ انهم يغارون منك ليس أكثر ، يا توم ، لأنه يضنّ عليهم بهذه الصداقة ٠ »

فصاح توم على نحو مُظَفَّر : « آه ! هذا حسن جداً ٠ لقد أفرغ جيوبي٠ ولكن في استطاعتي ان اذهب وأكسب مبلغاً اضافياً ، عندما يحلو لي ذلك ٠ ألست أستطيع ، يا فاجين ؟ »

ـ « بلى ٠ تستطيع من غير شك ، وكلما عجلت في ذلك كان أفضل ، يا توم ٠ وهكذا عوّضْ خسارتك في الحال ، ولا تخسر اي وقت اضافي ٠ ايها المراوغ ! تشارلي ! لقد آن لكما أن تشرعا في الصيد ٠ هيّا ! كادت الساعة أن تمسي العاشرة ولم يُعْمل بعدُ أيّ شيء ٠ »

ونزولا عند هذا التلميح ، انحنى الغلامان لنانسي ، وتناولا قبعتيهما ، وغادرا الحجرة ، وهما (اي المراوغ وصديقه المرح) مستغرقان في اطلاق النكات على حساب مستر تشيتلينغ الذي لم يكن في مسلكه ـ كما يقتضينا الأنصاف أن نقول ـ أيما شيء استثنائي أو غريب ، باعتبار أن في لندن عدداً كبيراً من الشبان الانيقين الذين يدفعون ثمناً أغلى من الذي دفعه هو لكي يُرَوْا مع رفاق من أبناء المجتمع الصالحين ، وعدداً كبيراً من السادة الاماجد الممتازين (هم قوام ذلك المجتمع الصالح المشار اليه) الذين يَبْنون سمعتهم على أسس شبيهة جداً بتلك التي بنى عليها توبي كراكيت المرح شهرته ٠

وقال فاجين بعد أن غادرا الحجرة : « والآن ، سوف أذهب وآتيك بذلك المال ، يا نانسي ٠ وليس هذا غير مفتاح خزانة صغيرة أضع فيها بعض الاشياء الغريبة التي يجيء بها الغلمان ، يا عزيزتي ٠ انا لا أقفل على أموالي أبداً ، لاني لا أملك منها شيئاً أقفل عليه ، يا عزيزتي ـ ها ! ها ! ها ! ـ اجل لا املك منها شيئاً أقفل عليه ٠ انها تجارة فقيرة ، يا نانسي ، وكلها عقوق وانكار للجميل٠ ولكني مولع بأن أرى هؤلاء الشبان يحيطون بي ، ومن أجل ذلك أصبر على هذا كله ٠٠ أصبر على هذا كله ٠ صه ! » قال ذلك في اضطراب ، وهو يخبىء المفتاح في صدره ٠ « مَن هناك ؟ أصغي ! »

وبدت الفتاة ـ التي كانت جالسة الى الطاولة مطوية الذراعين ـ وكأنها غير مهتمة البتة بهذه الزيارة ، وغير مبالية سواء أجاء الشخص ـ أياً من كان ـ أم ذهب : حتى اللحظة التي تناهت فيها الى أذنيها همهمة رجل ٠ وما ان تلقّفت ذلك الصوت حتى خلعت قلنسوتها وشالها ، بمثل سرعة البرق ، وطرحتهما على الطاولة ٠ وعندما استدار اليهودي بعد ذلك مباشرة غمغمت متشكّية شدة الحر ، في جرْس واهن تغاير تغايراً جدّ ملحوظ مع السرعة والعنف البالغين اللذين اتّسم بهما خلع القلنسوة والشال وطرحهما ٠٠ وهو صنيعٌ لم

يلاحظه ، على أية حال ، فاجين العجوز الذي كان مولّياً الفتاة ظهره ، طوال الوقت .

ــ « باه ! » كذلك همس وكأن تلك الزيارة المفاجئة قد أغاظته . « انه الرجل الذي توقعته من قبل . وهوذا يهبط السلم . حذار ان تنطقي بكلمة واحدة حول مسألة المال ما بقي هو هنا ، يا نانسي . انه لن يمكث طويلا ، على أية حال . عشر دقائق ــ على الاكثر ــ يا عزيزتي . »

ووضع اليهودي سبابته المعروقة على شفته ، وحمل شمعة الى الباب عندما سُمع على السلم الخارجي وقع قدمي رجُل . وبلغ الباب لحظة بلغة الزائر ، الذي وجد نفسه ــ بحكم اندفاعه العاجل الى الحجرة ــ وجهاً لوجه مع الفتاة قبل أن يعي وجودها .

كان الزائر هو مونكس .

ــ « انها مجرد واحدة من أفراد زمرتي الشبان ! » كذلك قال فاجين وقد لاحظ ان مونكس ارتدّ مجفلا حين وقعت عيناه على شخص غريب . « لا تتحركي ، يا نانسي . »

فاقتربت الفتاة من الطاولة أكثر من ذي قبل ، وبعد أن حدجت مونكس بنظرة ترشح بالطيش المستهتر غضّت طرفها . ولكنه ما ان وجّه بصره نحو فاجين حتي اختلست هي نظرة اخرى : نظرة كانت ثاقبة ، فاحصة ، مفعمة بالمقاصد الى درجة بعيدة ، بحيث لو قُدّر لمراقب مجاور أن يرى ذلك التغير اذن لتعذر عليه أن يصدق ان النظرتين انبعثتا من شخص واحد .

وسأله فاجين : « أعندك أنباء جديدة ؟ »

ــ « أنباء مثيرة ! »

ــ « و ... و ... جيدة ؟ » كذلك سأله فاجين ، متردداً وكأنه خشي أن يُغضِب الرجل الآخر من طريق الافراط في التفاؤل .

وكرة اخرى اقتربت الفتاة من الطاولة أكثر من ذي قبل ، ولم تتكشّف عن أيما رغبة في مغادرة الحجرة ، على الرغم من انها رأت مونكس يومىء اليها بذلك . فلم يكن من اليهودي ــ ولعله خشي ان تقول شيئاً عن مسألة المال اذا ما حاول التخلص منها ــ الا أن أشار بأصبعه الى الطابق الأعلى ، وأخرج مونكس من الحجرة .

ــ « ليس في هذا الجحر الجهنمي الذي كنا فيه من قبل . » هكذا سمعت الرجل يقول وهما يرتقيان السلم . وضحك فاجين ، وأجاب بكلام لم تسمعه ، وبدا من صريف خشب السلم أنه كان يقود رفيقه الى الطابق الثاني .

وقبل أن يكفّ صدى وقع أقدامهما عن التردد في ارجاء المنزل كانت الفتاة قد خلعت حذاءها ، ورفعت أدنى فستانها فغطت به رأسها ولفّت ذراعيها ، ووقفت بالباب مصغية في شوق لاهث . وما ان خمدت الضجة حتى

انسلّت من الحجرة ، وارتقت السلم في رفق وصمت لا يصدّقان ، وغابت عن النظر في ظلمات الدور الأعلى ٠

وظلت الحجرة مهجورة ربع ساعة أو أكثر ٠ وانسلّت الفتاة عائدة بمثل خطوها الأثيري السابق ٠ وبعد ذلك مباشرة سُمع الرجلان يهبطان ٠ وفي الحال اندفع مونكس الى الشارع ، وعاود اليهودي ارتقاء السلم ، بخطى ثقيلة ، التماساً للمال ٠ حتي اذا رجع كانت الفتاة تعتمر بقلنسوتها وتسوّي وضع شالها على كتفيها ، وكأنها تستعد للانصراف ٠

وهتف اليهودي مجفلا وهو يضع الشمعة على الطاولة : « ماذا دهاك يا نانس ؟ لشدّ ما أنت شاحبة ! »

ــ « شاحبة ! » كذلك كررت الفتاة ، مظلّلة عينيها بيديها ، وكأنها تريد أن تركّز نظرها عليه ٠

ــ « هذا رهيب ! ما الذي كنت تفعلينه بنفسك ؟ »

ــ « لا شيء ، بقدر ما أعلم ، غير القعود في هذا المكان ذي الهواء الفاسد فترة لا أعرف مداها ٠ » كذلك أجابت الفتاة في لا مبالاة ٠ « هيّا ! دعني أعود ان ذلك سوف يكون لطفاً منك ٠ »

ووضع فاجين القطع النقدية في يدها ، وهو يعدّها واحدة اثر واحدة مطلقاً في اثر كل منها زفرة ٠ وافترقا من غير ان يخوضا في اي حديث آخر ، بعد أن تمنى كل منهما للآخر ليلة طيبة ٠

حتي اذا أمست الفتاة في عرض الطريق ، قعدت على عتبة أحد الابواب وبدت ، خلال بضع لحظات ، وكأنها منشدهة انشداهاً كاملا ، وعاجزةً عن مواصلة السير ٠ ثم انها نهضت فجأة ، واندفعت في اتجاه معاكس لذلك الذي كان سايكس ينتظر عودتها فيه ، وأوسعت الخطى ، حتي استحال سيرها شيئاً بعد شيء الى عدو مجنون ٠ وبعد ان خارت قواها ، وقفت لكي تأخذ نفَساً وراحت تعتصر يديها ــ وكأنها استردت صفاء ذهنها فجأة وتحسّرت لعجزها عن القيام بشيء كانت قد وطّنت العزم عليه ــ وانفجرت في البكاء ٠

وجائز أن تكون دموعها قد سرّت عن نفسها ، أو أنها استشعرت وضعها اليائس الى أبعد الحدود ٠ ولكن الأمر الثابت هو انها انقلبت على عقبيها ، واندفعت في الاتجاه المعاكس بسرعة كادت تَعدِل سرعتها السابقة، لكي تعوّض الوقت الضائع ، من ناحية ، ولكي تلحق بتيار أفكارها العنيف من ناحية اخرى ٠ وسرعان ما بلغت المثوى الذي كانت قد خلّفت سارق البيوت فيه ٠

هل نمّ وجهها عن أيما اضطراب عندما مثلت بين يدي مستر سايكس ؟ لسنا ندري ، ولكن الذي ندريه هو ان هذا السيد لم يلاحظ شيئاً من ذلك ٠ اذ ما ان سألها هل جاءت بالمال وما ان تلقّى منها جواباً ايجابياً حتى اكتفى باطلاق زمجرة ارتياح ، وعاود وضع رأسه على الوسادة ، واستغرق في غفوته

التي كان وصول نانسي قد قطعها عليه ·
وكان من حسن طالعها ان وجود المال بين يدي سايكس أتاح له في اليوم التالي فرصة القيام بنشاط كبير انحصر في تناول الطعام والشراب ، وكان له في الوقت نفسه اثر صالح في تلطيف خشونة طبعه ، حتي انه لم يجد لا الوقت ولا الميل المساعدين على الاسراف في نقد سلوكها وتصرّفها · ولو قد وقعت عليها عينا فاجين الوشَقيتان* اذن لما غاب عنهما ما غلب عليها من سيماء ذاهلة وعصبية كانت أشبه بسيماء من هو على عتبة القيام بحطوة جريئة خطرة لم يعقد نيّته عليها الا بعد صراع جد عنيف ، واذن لاستبدّ به الجزع ، في أغلب الظنّ ، على التوّ · ولكن مستر سايكس كانت تعوزه دقة الملاحظه ، ولم تكن لتقلقه غير الهواجس الجافية التي تعبّر عن نفسها بخشونة في السلوك شرسة تجاه الناس جميعاً · واذ كان آنذاك ، بالاضافة الى هذا كله ، في حال وديعة الى حد استثنائي، كما لاحظنا من قبل ، فأنه لم ير أيّ شيء غير عادي في سلوك الفتاة ، ولم يجشم نفسه عناء الاهتمام بأمرها · والحق ان في استطاعة المرء ان يقول ان اهتياجها كان خليقاً به ـ حتي ولو كان جلياً للعيان عشرة أضعاف جلائه في تلك الآونة ـ أن لا يوقظ ظنونه من سباتها العميق ·

وما ان مالت الشمس الى المغيب حتى تعاظم اهتياج الفتاة · حتى اذا هبط الليل ، وجثمت مرتقبة أن يستسلم سارق البيوت للنوم من جراء الاسراف في الشراب ، ران على خديها شحوب غير مألوف ، واتقدت في عينيها نار لاحظها ، حتي سايكس نفسه ، في دهش ·
وكان مستر سايكس ، الموهون القوى من جراء الحمي ، مستلقياً في سريره ، مضيفاً الماء الحار الي شراب الـ « جن » لكي يجعله أقل الهاباً ، وكان قد دفع كأسه نحو نانسي لتملأها للمرة الثالثة او الرابعة ، عندما لفتت هذه الاعراض نظره أول ما لفتته ·

وقال الرجل رافعاً نفسه على يديه فيما هو يحدق الى وجه الفتاة : « يا للشيطان ! انت تبدين مثل جثة عادت الى الحياة من جديد · ما بالك ؟ »
فأجابته الفتاة : « ما بالي ؟ لا شيء · لماذا تحدق اليّ هذا التحديق كله ؟ »
فسألها سايكس ، ممسكاً بذراعها ، هازاً اياها في خشونة : « ما هذه الحماقة ؟ ما بك ؟ ماذا تعنين ؟ ما الذي تفكرين فيه ؟ »
ـ « في أشياء كثيرة ، يا بيل · » كذلك أجابته الفتاة ، مرتعدة ، ضاغطة يديها على عينيها · « ولكن ، يا ٱلهي ! أي غرابة في ذلك ؟ »
وبدت نبرة الابتهاج المصطنع التي لُفظت بها تلك الكلمات الاخيرة وكأنها

* نسبة الى الوشق ، وهو حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل ·

أحدثت في نفس سايكس أثراً أعمق من ذلك الذي أحدثته نظرتهـــا الشاردة الصارمة قبل بضع لحظات •

وقال سايكس : « سوف أقول لك ما بك • اما انك قد أصبت بالحمى ، فهي على وشك أن تنفجر في الحال ، واما أن يكون في الجوّ شيء غير اعتيادي ••• بل شيء خطِرٌ أيضاً • انت لست على وشك أن ••• لا ، لعنني الله ! انت لن تقدمي على مثل ذلك • »

فسألته الفتاة : « مثل ماذا ؟ »

ـ « ليس ثمة فتاة ، » كذلك قال سايكس مسدّداً نظراته اليها ، ومغمغماً بالكلام وكأنه يخاطب نفسه • « ليس ثمة فتاة أشدّ وفاء من هذه الفتاة ، والا لاحتززت حنجرتها منذ ثلاثة أشهر • انها سوف تقع فريسة الحمى • هذا كل ما هنالك • »

حتى اذا حصّن سايكس نفسه بهذا التفكير المطمْئِن شرب الكأس حتى الثمالة ، ثم طلب اليها ان تأتيه بالدواء مطلقاً لعنات متذمِّرة • فما كان مـن الفتاة الا ان وثبت على قدميها ، في خفة بالغة • وصبّت الدواء على نحو خاطف ، ولكن بعد أن أولت سايكس ظهرها • ثم أدنت الكأس الى شفتيه ، فراح يتجرع محتوياتها •

وقال اللص : « والآن ، تعالي واجلسي الى جانبي ، واخلعي على وجهك سيماءه الحقيقية • والا شوّهته تشويها يجعلك لا تعرفينه بعدُ عندما تحتاجين الى ذلك • »

وأطاعته الفتاة • وضغط سايكس بيده على يدها ، وانقلب فوق الوسادة، مركّزاً عينيه على وجهها • لقد أغمضهما ، ثم فتحهما ، ثم عاود اغماضهما من جديد ، ثم فتحهما كرة اخرى • وتقلّب في فراشه على نحو قلق • وبعد أن غفا مرة ومرة ، طوال دقيقتين أو ثلاث ، واثباً في كل مرة وعلى وجهه أمارات الذعر ، محدقاً الى ما حوله تحديقاً ذاهلا ، استغرق فجأة ـ في ما بدا ـ وبينا كان يحاول النهوض ـ في سبات ثقيل عميق • وتراخت قبضـــة يـــده • وسقطت الذراع المرفوعة خدِرة الى جنبه • وبدا منطرحاً في الفراش مثل امرىء في غيبوبة تنويم مغناطيسي •

وغمغمت الفتاة وهي تغادر جانب السرير : « لقد أحدثت صبغة الافيون اثرها ، اخر الامر • ومن يدري ، فلعلي قد تأخرت أكثر مما ينبغي ، حتى في هذه الحال • »

وسارعت الى الاعتمار بقلنسوتها وطرح شالها على كتفيها ، مجيلة طرفها في ما حولها ، بين الفينة والفينة ، على نحو مذعور ، وكأنها كانت تتوقع ـ برغم

الجرعة المنوّمة ، أن تستشعر في كل لحظة ضغط يد سايكس الثقيلة على كتفها • ثم انها مالت على الفراش ، في رفق ، وقبّلت شفتي اللـص • وبعد أن فتحت باب الحجرة وأوصدته من غير أن تحدث أيما صوت ، غادرت المنزل متعجّلة •

وكان أحد الحراس يصيح معلناً الساعة التاسعة والنصف* في مجاز مظلم كان عليها أن تجتازه لكي تبلغ الشارع الرئيسي •

فسألته الفتاة : « هل تجاوزت النصف منذ فترة طويلة ؟ »

ـ « بعد خمس عشرة دقيقة تصبح الساعةُ العاشرة • » كذلك أجابهـــا الرجل ، رافعاً مصباحه الى وجهها •

ـ « ولست أستطيع الوصول الى هناك قبل ساعة أو أكثر • » هكـــذا غمغمت نانسي ، ومضت لسبيلها ماسّة اياه في انطلاقها الخاطـف ، وأنشأت تهبط الشارع •

كانت دكاكين كثيرة قد شرعت تغلق أبوابها في الدروب والشوارع الخلفية التي سلكتها ، في انطلاقها من سبيتالفيلدز الى أحياء الجانب الغربي (وست اند) من لندن • ودقت الساعة العاشرة ، مضاعفة بذلك قلق نانسي ونفاد صبرها • فاندفعت بأقصى سرعتها فوق الرصيف الضيق ، دافعة السابلة بمنكبيـها ذات اليمين وذات الشمال • بل لقد انطلقت تحت رؤوس الخيل تقريباً ، مجتـازة شوارع مكتظة ، حيث كانت جموع من الناس ترقب في لهفة اول فرصة تتـاح لها للاقدام على الصنيع نفسه •

ـ « هذه المرأة مجنونة ! » كذلك قال الناس ، وقد التفتوا لكي يُتبعوها أنظارهم فيما كانت هي تمرق مروق السهم •

حتى اذا بلغت أحياء المدينـــة الاكثر غنى ، وجدت الشوارع مهجـــورة نسبياً • وهنا أثار انطلاقها فضـــولا أعظم لدى المتخلفـين الذين مرت بهم في جريها • واغذّ بعضهم الخطى خلفها ، وكأنهم يريدون أن يروا الى أين كانت تندفع بهذه السرعة غير المألوفة • ووُفق بعضهم الى سَبْقها ، والتفتوا الى الوراء مندهشين بسرعتها غير المتناقصة ، ولكنهم ما لبثوا ان تخلّفوا عنها واحداً بعد واحد • فما ان شارفت الموطن الذي استهدفته حتى أمست وحدها في الحلبة •

وكان ذلك الموطن نُزلا عائلياً قائماً في شارع هادىء ولكنه أنيق ، عـلى مقربة من هايد بارك • وفيما كان ضوء المصباح الساطع المعلق أمام باب ذلك النزل يهديها سبيلها الى المكان دقت الساعة الحادية عشرة • وكانت قد خففت سرعتها قبل بضع خطوات وكأنها مترددة ، تحاول أن تعقد العزم على التقدم • ولكن دقات الساعة وضعت حداً لترددها ، فخطت نحو المدخل • كان مقصـــد

* حتى انشاء شرطة لندن ، عام ١٨٢٩ ، كان الحراس يجوبون الشوارع في الليل ، ويعلنـون الساعة ويصفون الاحوال الجوية بصوت عال ، مؤكدين للناس أن كل شيء يجري على ما يرام •

(المعرب)

البواب شاغراً : واجالت بصرها في ما حولها في حيرة ظاهرة ، ثم تقدمت نحو السلم ·

وقالت انثى أنيقة البزة ، وقد أطلت من باب كانت نانسي قد تجاوزته : « هاي ! أيتها الفتاة ! ماذا تريدين ؟ »

فأجابتها الفتاة : « أريد أن أقابل سيدة تقطن في هذا البيت · »

ـ « سيدة ؟ » كذلك جاءها الجواب ، مُرفقاً بنظرة محتقرة · « اية سيدة ؟ »

فقالت نانسي : « مس مايلي · »

فلم تجب السيدة الشابة ، التي كانت الآن قد لاحظت مظهر الوافدة ، بغير نظرة احتقار فاضل · ودعت رجلا الى اجابتها · وهنا كررت نانسي سؤالها ·

فسألها النادل : « ما الاسم الذي يتعين أن اذكره لها ؟ »

فأجابت نانسي : « لا فائدة من ذكر اي اسم · »

فقال الرجل : « ولا فائدة من ذكر هدف الزيارة أيضاً ؟ »

فأجابته الفتاة : « لا · لا فائدة من ذلك أيضاً · ان عليّ ان أرى السيدة · »

ـ « هيا ! » كذلك قال الرجل دافعاً اياها نحو الباب · « أقلعي عن هذا واغربي من هنا ! »

فقالت الفتاة في عنف : « انا لن أذهب الا اذا طُرِحت الى الخارج طرحاً · وفي استطاعتي ان أجعل من ذلك مهمة تنفر من القيام بها حتى ولو أصبحت رجلين لا رجلا واحداً · » ثم أضافت مجيلة طرفها في ما حولها : « ألا يوجد هنا شخص يريد أن ينقل رسالة من بائسة فقيرة مثلي ؟ »

وترك هذا النداء أثره في نفس طاه ذي مظهر رضيّ كان يشهد المشادة مع غيره من الخدم ، فتقدم ابتغاء التدخل في الأمر ·

لقد قال هذا الشخص : « احمل رسالتها ، يا جو · الا تستطيع ؟ »

فأجابه الرجل : « وايّ فائدة ترجى من ذلك ؟ هل تعتقد ان السيدة الصغيرة سوف توافق على مقابلة فتاة كهذه ؟ قل ! »

وكان في هذا التلميح لشخصية نانسي المريبة ما أثار قدراً بالغاً من الغيظ العفيف في صدور خادمات أربع لاحظن في حماسة عظيمة ان تلك المخلوقة كانت عاراً على بنات جنسها · فدعَوْن بقوة الى الالقاء بها ، من غير ما رحمة ، في وجار الكلب ·

فقالت الفتاة ملتفتة الى الرجال من جديد : « افعلوا بي ما شئتم · ولكن اعملوا ما اسألكم اياه أولا · وأنا اسألكم ان تحملوا هذه الرسالة اكراماً لله الكلي القدرة ! »

والى هذا التوسل أضاف الطاهي الرقيق الفؤاد شفاعتَه ، فكان من نتيجة ذلك ان تولى الرجل الذي برز لنانسي قبل غيره أداءها ·

وقال الرجل واحدى قدميه على السلم : « ما هي الرسالة التي تريدين ابلاغها ؟ »

فقالت نانسي : « ان امرأة شابة ترجو، في حرارة ، أن تتحدث الى الآنسة مايلي على انفراد · وأنه اذا ما تكرمت السيدة بالاستماع الى أول كلمة سأقولها فسوف تعرف في الحال ما اذا كان ينبغي لها أن تسمع لي حتى النهاية أو أن تطردني الى خارج الابواب كدجالة محتالة · »

فقال الرجل : « أنا أقول انك تخرجين في تصرفك هذا عن نطاق المألوف ! »

فقالت الفتاة في عزم : « ليس عليك الا ان تحمل الرسالة وتدعني أسمع الجواب · »

وارتقى الرجل السلم مسرعاً · ولزمت نانسي مكانها ، شاحبة الوجه ، لاهثة أو تكاد ، مصغية ، وقد ارتعدت شفتها ، الى تعابير الازدراء المسموعة في وضوح ·· تلك التعابير التي أطلقتها الخادمات العفيفات على نحو خصيب ، والتي أمست أكثر خصباً عندما رجع الرجل وأعلن ان على المرأة الشابة أن تصعد الى الدور الاعلى ·

وقالت الخادمة الاولى : « ليس من المجدي ان يكون المرء محترماً في هذا العالم · »

وقالت الثانية : « ان النحاس الاصفر ليحظى بالتقدير أكثر من الذهب الذي صمد للنار · »

أما الثالثة فاكتفت بالتساؤل « من أي شيء صُنِعت السيدات ؟ » وأما الرابعة فاستهلت لحناً لاربع مغنيات عنوانه « يا للعار ! » ··· لحناً ما لبثت « آلهات الصيد » أن ختمنَه ·

ومن غير أن تلقي بالا الى هذا كله ، اذ كانت تثقل فؤادها هموم أعظم خطراً ، تبعت نانسي الرجل ، مرتعدة الأوصال ، الى حجرة انتظار صغيرة ، منارة بمصباح متدلٍّ من السقف · وهنا تركها الرجل ، وانسحب ·

الفصل الاربعون
ويشتمل على مقابلة غريبة لا تعدو ان تكون تتمة للفصل السابق

كانت الفتاة قد بدّدت حياتها في الشوارع ، وفي أوخم مواخير لندن وأوكارها ، ولكنْ كان لا يزال فيها بقيةٌ من طبيعة المرأة الأصيلة · فما ان تناهت الى سمعها خطى رفيقة تتقدم نحو الباب المواجه لذلك الذي كانت قد

دخلت منه ، وتمثلت التناقض العظيم الذي توشك تلك الحجرة الصغيرة أن تشتمل عليه بعد لحظة أو لحظتين حتى ناءت بثِقل ما استشعرته من خجلها العميق ، وارتدت مجفلة وكأنها لا تكاد تطيق الاجتماع الى تلك التي سعت الى مقابلتها ٠

ولكن الكبرياء انبرت لمقاومة هذه المشاعر الفضلى ٠٠٠ الكبرياء التي هي نقيصة من نقائص أحط المخلوقات واذلّها بقدر ما هي نقيصة من نقائص أسمى المخلوقات وأشدّها ثقة بالنفس ٠ فاذا بتلك الرفيقة البائسة للصوص والمتشردين ، والساقطة المنبوذة المختلفة الى المساكن الوضيعة المريبة ، والزميلة الملازمة لنفايات السجون ومراكب المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، والعائشة في ظل المشنقة نفسها ٠٠٠ اذا بتلك المخلوقة المجللة بالخزي والعار أشدّ كبرياء من ان تتكشف عن أضأل ومضة من ومضات الشعور الانثوي الذي اعتبرته ضعفاً ، والذي كان هو وحده القادر على شدّها الى تلك الانسانية التي محت حياتها الداعرة كثيرا من آثارها ، منذ صباها الاول ٠

لقد رفعت بصرها رفعاً كافياً لان يُريها أن الوجه الذي أقبل للقائها كان وجه فتاة جميلة مهزولة ٠ ثم انها خفضته الى الارض ، ونترت رأسها في لامبالاة مصطنعة وقالت :

ـ « ان التمكن من مقابلتك ليس بالامر اليسير ، يا سيدتي ٠ ولو قد أجزت لنفسي أن أغضب ، ورجعت من حيث أتيت ، كما كان خليقا بكثير من الناس أن يفعلوا ، اذن لندمت على ذلك في يوم من الايام ، ولكان لندمك أسباب وجيهه تبرّره ٠٠ »

فأجابتها روز : « اني أعلن لك عن أسفي الشديد اذا كان أحدٌ من نزلاء هذا البيت قد عاملك في قسوة ٠ لا تحزني من جراء ذلك ، وحدثيني عن السبب الذي جئت من أجله لمقابلتي ٠ اني أنا الشخص الذي سألتِ عنه ٠ »

وكان في لهجة جوابها الرقيقة ، وفي صوتها العذب ، وفي شارتها* اللطيفة ، وغياب ايما نبرة من نبرات التعالي او الاستياء في كلامها ، ما أذهل الفتاة اذهالا كاملا ، فانفجرت بالبكاء ٠

وقالت شابكة يديها ، في انفعال ، أمام وجهها : « أوه ، أيتها السيدة ، أيتها السيدة ! لو كان عدد أمثالك أكثر لكان عدد أمثالي أقلّ ٠٠٠ أنا واثقة من ذلك ٠٠٠ انا واثقة من ذلك ٠٠ »

فقالت روز في حرارة : « اجلسي ٠ اذا كنت تعانين فقراً أو محنة فلسوف أكون سعيدة حقاً بأغاثتك ان استطعت ٠ أجل سوف أكون سعيدة حقاً ٠ اجلسي ٠ »

فقالت الفتاة وهي لا تزال تذرف الدمع : « دعيني واقفة ، ولا تتحدثي

---

* الشارة : الهيئة ، والمظهر ، والمخبر ٠

اليّ بمثل هذا اللطف الا بعد أن تعرفيني معرفة أفضل · لقد أمسينا في ساعة متأخرة من الليل · هل ··· هل ··· ذلك الباب مغلق ؟ »

ـ « نعم · » كذلك قالت روز وهي ترتدّ بضع خطوات الى الوراء لكي تكون أقدر على التماس النجدة اذا ما احتاجت اليها · « لماذا ؟ »

فقالت الفتاة : « لانني على وشك أن أضع حياتي وحيوات الآخرين في يديك · أنا الفتاة التي ساقت أوليفر الصغير عائدة به الى بيت فاجين العجوز ليلة غادر البيت الذي في بينتونفيل · »

فقالت روز مايلي : « أنتِ ؟ »

فأجابتها الفتاة : « أنا ، يا سيدتي ! أنا المخلوقة المرذولة التي سمعت عنها ، والتي تحيا مع اللصوص، والتي لم تعرفْ منذ تفتّحت عيناها وحواسها على شوارع لندن أية حياة أفضل ولم تسمع أية كلمة ألطف من تلك التي أسمعوني اياها ، فليساعدني الله ! لا تتحرّجي من الاشمئزاز مني على نحو صريح ، يا سيدتي · أنا أصغر سناً مما يظن الناظر اليّ ، ولكنني متعودة ذلك منذ عهد بعيد · ان أفقر النساء ينأين بأنفسهن عني حين أشق طريقي فوق الأرصفة المزدحمة · »

فقالت روز وهي تنأى بنفسها ، على نحو لا شعوري، عن زائرتها الغريبة: « أية أشياء رهيبة هذه ؟! »

فصاحت الفتاة : « اسجدي واشكري الله على أن منحك أهلا عُنوا بك وأعالوك في صباك ، وعلى انك لم تجدي نفسك قط في غمرة البرد والجوع ، والشغَب والسكْر و ··· و ··· شيء اسوأ من هذا كله ـ كما وجدت نفسي منذ أن كنت في مهدي · ان في استطاعتي أن أستعمل لفظة « المهد » ، لأن الازقة والمجارير كانت مهدي ، ولسوف تكون هي الفراش الذي سألفظ أنفاسي عليه · »

فقالت روز في صوت متهدج : « أنا أرثي لك ! ان قلبي يتفطر أسى وأنا أستمع الى حديثك ! »

فأجابتها الفتاة : « فلتباركك السماء جزاء طيبتك هذه ! ولو قد عرفت ايّ شيء أنا في بعض الاحيان لرثيت لي حقاً · ولكنني انسللت من بين أولئك الذين لا بدّ أن يقتلوني ، اذا ما عرفوا اني جئت الى هنا ، لكي أخبرك بما تناهى الى سمعي · هل تعرفين رجلا يدعى مونكس ؟ »

فقالت روز : « لا ! » ·

فأجابتها الفتاة : « انه يعرفك · ويعرف انك هنا ، اذ لم أعرف أين أجدكِ الا بعد أن سمعته يذكر عنوانك · »

فقالت روز : « أنا لم أسمع بهذا الاسم قط من قبل · »

فأجابتها الفتاة : « اذن فمرد ذلك الى انه يُعرف بيننا باسم زائف ، وهو

ما استطعت أن أحزره من قبل . فمنذ فترة من الزمان ، وبعد أن أدخل أوليفر الى منزلك ليلة السرقة مباشرة استرقت السمع ، وقد ارتبت في أمر هذا الرجل. الى حديث دار بينه وبين فاجين تحت جنح الظلام . لقد اكتشفت ، مما سمعته، ان مونكس ... الرجل الذي سألتك عنه ... هل تفهمين ما أقول ؟ »

فقالت روز : « أجل . أفهم . »

فتابعت الفتاة كلامها : « ... ان مونكس رآه مصادفة مع اثنين من غلمان عصابتنا في نفس اليوم الذي افتقدناه فيه اول مرة ، وأنه عرف فيه على التو ذلك الغلام نفسه الذي كان يبحث عنه ، برغم اني لم أفهم لماذا . وعُقِدت مع فاجين صفقة تتلخص في أنه اذا ما استطاع اليهودي أن يستردّه أعطاه مونكس مبلغاً من المال ، وأن هذا المبلغ سوف يزاد اذا ما جعل منه لصاً ، وهو شيء كان مونكس يحرص عليه لغاية في نفسه . »

فسألتها روز : « لأية غاية ؟ »

فقالت الفتاة : « لقد لمح ظلي على الجدار فيما كنت أصغي لكي أفهم ما دار بينهما . وليس هناك كثير من الناس الذين يستطيعون ، بالاضافة اليّ ، أن يختفوا من طريقهما في سرعة تجعلهم في نجوة من الافتضاح . ولكني استطعت ذلك . ولم يقع نظري عليه بعد ذلك الا الليلة البارحة . »

ـ « وما الذي حدث عندئذ ؟ »

ـ « سوف أخبرك ، يا سيدتي . لقد عاد ، الليلة البارحة ، وكرة اخرى ارتقيا السلم ، فوقفت بالباب وأصغيت من جديد بعد أن تدثرت لكي لا ينمّ ظلي عليّ . وكانت أولى الكلمات التي سمعت مونكس يقولها هي التالية : « وهكذا فان الادلة الوحيدة على هوية الغلام ملقاة في قاع النهر ، والمرأة العجوز التي تلقتها من أمه توشك أن تبلى في نعشها . » وضحكا ، وتحدثا عن نجاحه في تحقيق ذلك . وواصل مونكس حديثه عن الغلام ، فقال ـ في اهتياج بالغ ـ أنه برغم اطمئنانه الآن على أموال ذلك الشيطان الصغير ، كان يؤثر لو انتهى الأمر الى عكس ما انتهى اليه . اذ كم كان يكون طريفاً لو استطاع ان يُذلّ تباهي وصية الوالد من طريق دفع الغلام الى جميع سجون المدينة ، ثم سوقه الى المشنقة بتهمة ارتكاب خيانة عظمى يستطيع فاجين أن يدبّرها في سهولة بعد أن يكون قد أفاد منه ، فوق ذلك ، الى أقصى حدود الافادة . »

فقالت روز : « ما هذا كله ؟ »

فأجابتها الفتاة : « انها الحقيقة ، يا سيدتي ، برغم صدورها من شفتيّ أنا . ثم انه قال ـ مرسلا شتائم مألوفة على اذنيّ ولكنها غريبة على أذنيك ـ انه اذا استطاع أن يشبع حقده بالقضاء على حياة الغلام من غير أن يعرض حياته هو للخطر ، لما تخلّف عن ذلك . ولكن لما كان هذا مستحيلا ، فانه سوف يترصده حتى يلقاه في جميع منعطفات الحياة . واذا ما حاول الغلام أن يفيد من

مولده وماضيه فعندئذ يُنزل به ضروب الاذى أيضا . ثم قال : « وبالاختصار ، يا فاجين فانك، برغم يهوديتك كلها ، لم تنصب في حياتك قط مثل تلك الاشراك التي سأحاول أن أنصبها لأخي أوليفر . »

فهتفت روز : « أخيه ؟ »

فقالت نانسي ، وهي تجيل طرفها في ما حولها بقلق ، وهو شيء لم تكف عنه البتة منذ ان شرعت في الكلام ، اذ كان شبح سايكس يلم بها على نحو موصول : « لقد كانت تلك هي كلماته . ليس هذا فحسب . بل انه حين تحدث عنك وعن السيدة الاخرى قال ان السماء ، أو الشيطان ، قد تآمرت عليه عندما دفعت بأوليفر الى أيديكما . ثم ضحك وقال ان في هذا ما يسرّي عن النفس أيضاً ، لأنه خليق بكما أن تدفعا آلاف الجنيهات ومئات ألوفها ــ لو ملكتما هذا كله ــ لكي تعرفا من هو كلبكما ذو القدمين الاثنتين . »

فقالت روز وقد غدا وجهها شديد الشحوب : « أنت لا تقصدين أن تخبريني ان هذا الكلام قيل على نحو جدي ؟ »

فأجابتها الفتاة وهي تهز رأسها : « اذا كان قد قُدّر لرجل أن يتكلم على نحو جدي ، وفي غضب وقسوة، فليس من ريب في أن ذلك الرجل هو مونكس . انه ينقلب ، كلما استثير حقده ، الى رجل مخيف . وأنا أعرف أناساً كثيرين يفعلون ما هو اسوأ من ذلك . ولكني أؤثر أن أسمع اليهم كلهم اثنتي عشرة مرة على أن أسمع الى مونكس ذاك مرة واحدة . لقد أمسينا في ساعة متأخرة من الليل ، وان عليّ ان أرجع الى البيت من غير أن أثير أيما ظنون تتصل بالرسالة التي أديتها . يتعين عليّ أن أرجع في سرعة بالغة . »

فقالت روز : « ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله ؟ وكيف أستطيع أن أفيد من هذه المعلومات من غير ان تساعديني على ذلك ؟ ترجعين ؟ لماذا توديــن أن تعودي الى رفاق ترسمينهم بمثل هذه الالوان الفظيعة ؟ انك اذا ما كررت هــذه المعلومات على مسمع رجل أستطيع ان استدعيه من الحجرة المجاورة فعندئـذ تستطيعين أن تفادي الى مكان أمين في أقل من نصف ساعة . »

فقالت الفتاة : « أنا أريد ان أعود . يتعين عليّ أن أعــود لأن ــ كيف أستطيع ان أقول أشياء كهذه لسيدة بريئة مثلك ؟ ــ لان بين الرجال الذيــن حدثتك عنهم رجلا هو أشدهم تهـــوراً ... رجــلا لا أستطيـع أن أفارقـه ، لا ، ولو انقِذتُ من الحياة التي أعيشها الآن . »

فقالت روز : « ان تدخلك لمصلحة هذا الغلام العزيز من قبل ، ومجيئك الى هنا ــ رغم جميع المخاطر ــ لتخبريني بالذي سمعتِه ، ومسلكك الذي يقنعني بصدق ما تقولين ، وندامتك الواضحة وشعورك بالخَجَل ... كل هذا يحملني على الاعتقاد بأن الفرصة لا تزال متاحة لاصلاحك . أوه ! » كذلك قالت الفتاة في حرارة . طاوية ذراعيها فيما كانت الدموع تتحدر على وجهها . « لا تعيري أذناً

صماء لتوسلات واحدة من بنات جنسك ··· واحدة هي أول أنثى ، في ما أعتقد جازمة ، قدّر لها أن تناشدك بصوت راشح بالرثاء والحنان · أرجوك ان تسمعي كلماتي ، وأن تدعيني أنقذك لمستقبل أفضل · »

فصاحت الفتاة راكعة على ركبتيها: « أيتها السيدة ، أيتها السيدة العزيزة الرقيقة الملائكية ·· أنت في الواقع أول أنثى قدّر لها أن تجود علي بكلمات مثل هذه ، ولو قد سمعت تلك الكلمات قبل بضع سنوات اذن لكان من الجائز أن تحوّلني عن حياة الأثم والأسى · أما الآن فقد فات الاوان · لقد فات الاوان ! »

فقالت روز : « هناك دائماً متسع من الوقت للتوبة والتكفير · »

فصاحت الفتاة وقد لوّعتها أفكارها الموجِعة : « لا ، ليس ثمة متسع · انا لا أستطيع أن أفارقه الآن ! أنا لا أستطيع أن اكون السبب في موته · »

فسألتها روز : « كيف ذلك ؟ »

فصاحت الفتاة : « ليس ثمة ما يستطيع انقاذه · ولو اني أخبرت أشخاصاً آخرين بالذي أخبرتك اياه ، وأدى ذلك الى القاء القبض عليهم ، اذن لأدى ذلك الى موته من غير ريب · انه أشدهم جسارة ، ولقد ارتكب كثيراً من الأعمال الوحشية ! »

فصحت روز : « أمن المعقول أن تتخلي ، من أجل رجل كهذا ، عن كل آمالك في مستقبل صالح ، وعن النجاة اليقينية العاجلة ؟ هذا جنون · »

فأجابتها الفتاة : « لست أدري ما هو · كل ما أدريه أن الأمر هو كذلك، لا بالنسبة اليّ أنا وحدي ، ولكن بالنسبة الى مئات غيري ، ممن لا يقلون عني رداءة وشقاء · ان عليّ أن أرجع · ومن يدري ، فلعل ذلك هو من غضب الله عليّ للآثام التي ارتكبتها · ولكنني استشعر نفسي منجذبة اليه من خلال الآلام كلها وضروب التعذيب كلها · وأحسب اني سوف أظل هكذا حتى ولو علمت اني لا بدّ سأموت بيده هو ، آخر الأمر · »

فقالت روز : « ما الذي يتعين عليّ أن أفعله ؟ عليّ أن لا أدعك تفارقينني على هذا النحو · »

فأجابتها الفتاة ناهضة : « بلى ، يتعين عليك أن تفعلي ، يا سيدتي ، وأنا أعلم انك ستفعلين · انك لن تحولي دون ذهابي لمجرد اني وثقت بطيبتك ، ولم انتزع منك ايّ عهد ، وهو شيء كان في ميسوري ان أفعله ·· »

فقالت روز : « وأية فائدة ترُجى اذن من المعلومات التي أدليت بها اليّ ؟ ان علينا أن نحلّ هذا اللغز ، والا فكيف تتوقعين أن يعود بوحك به اليّ بالخير على أوليفر ··· أوليفر الذي تحرصين على خدمته ؟ »

فأجابتها الفتاة : « لا ريب في ان لك من أهلك رجلا رقيق القلب يستطيع أن يستمع الى ما حدثتك به كما يستمع المرء الى سر من الاسرار ، ويستطيع بعد

ذلك أن يهديك الى السبيل الواجب سلوكها . »

فسألتها روز : « ولكن أين أستطيع أن أجدك ، كرة اخرى ، اذا ما اضطررت الى ذلك ؟ أنا لا أحاول أن أعرف أين يعيش هؤلاء القوم المخيفون ، ولكني اسأل في أي شارع أستطيع أن ألقاك تمشين أو تعبرين في ساعة متّفَق عليها من الايام القادمة ؟ »

فسألتها الفتاة : « هل تعاهدينني على صيانة سري بأقصى الحرص ، وعلى المجيء وحدك أو مع الشخص الأوحد الذي ستطلعينه عليه ، وهل تعدينني بأن لا أراقب وبأن لا يلحق بي أحد ؟ »

فأجابتها روز : « أقسم لك على ذلك يميناً مغلظة . »

فقالت الفتاة في غير تردد : « كل يوم أحد مساء ، من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية عشرة ، سوف أتمشَّى على جسر لندن ، ان بقيتُ على قيد الحياة . »

فقاطعتها روز ، حين رأتها تندفع نحو الباب: « ابقَيْ لحظة اخرى. فكّري مرة اخرى في وضعك وفي الفرصة المتاحة لك للخلاص منه . ان عليّ التزامات نحوك ، لا لأنك قد أقبلت من تلقاء نفسك لتنقلي اليّ هذه المعلومات فحسب ، بل لأنك فتاة ضائعة يكاد انقاذها ان يكون مستحيلا . أترجعين الى عصابة اللصوص تلك والى ذلك الرجل على حين ان في ميسور كلمة واحدة أن تنقذك ؟ ايّ سحر ذاك الذي يستطيع أن يردّك اليهم، ويحملك على التعلق بالاثم والشقاء؟ أوه ! أليس في فؤادك وتر أستطيع أن أمسّه ! ألم يبق فيك ما استطيع ان استنصره على هذا الشغف الرهيب !؟ »

فأجابتها الفتاة في رباطة جاش : « حين تمنح فتاةٌ – في مثل نضارتك وطيبتك وجمالك – قلبها فأن الحب يذهب بها الى أبعد الحدود – حتى ولو كان لهذه الفتاة ، كما هو شأنك ، بيت وأصدقاء ومعجبون آخرون يملأون عليها فؤادها . فما بالكِ بمن هي مثلي أنا – أنا التي لا تعرف سقفاً آمناً غير غطاء التابوت والتي لا صديق لها في المرض او الموت غير ممرضة المستشفى – حين يتعلق قلبها العفِن بأي رجل من الرجال وتدعه يملأ المكان الذي كان شاغراً طوال حياتها البائسة ؟!. من ذا الذي يستطيع أن يشفيها ، في هذه الحال ، مِنْ وجْدها ؟ ارثي لنا ، أيتها السيدة ، ارثي لنا لأنه لم يبق لنا غير شعور انثوي واحد ، ولأن ذلك الشعور قد حُوّل بالنسبة الينا – بقضاء قاس – من أداة رفه واعتزاز الى اداة جديدة من أدوات العنف والعذاب . »

فقالت روز بعد صمت : « أرجو ان تقبلي مني بعض المال الذي قد يمكّنك من العيش على نحو شريف – على الاقل ريثما نلتقي كرة اخرى . »

فأجابتها الفتاة ، ملوّحة بيدها : « لن آخذ بنساً واحداً . »

فقالت روز متقدمة نحوها في رفق : « لا توصدي قلبك في وجه جميع الجهود التي تبذل لمساعدتك • اني اريد ان اخدمك حقاً • »

فأجابتها الفتاة وهي تعتصر يديها : « أن اعظم خدمة تستطيعين ان تقدميها اليّ ، يا سيدتي ، هي أن تقضي على حياتي في الحال • ذلك لأنني استشعرت هذه الليلة من الأسى لحقيقة حالي أكثر مما استشعرت في أيما وقت مضى ، وانه لشيء عظيم أن لا أموت في الجحيم الذي عشت فيه حتى الآن • فليباركك الله ، أيتها السيدة الرقيقة ، وليُنْزل على رأسك من السعادة مقدار ما أنزلتُه أنا على رأسي من العار ! »

قالت المخلوقة التعسة ذلك ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم مضت لسبيلها • بينا ارتمت روز مايلي (وقد ناءت تحت وطأة تلك المقابلة الاستثنائية التي بدت أقرب الى حلم خاطف منها الى حادثة واقعية) على أحد الكراسي ، وحاولت أن تجمع شتات أفكارها •

الفصل الحادي والاربعون
وينطوي على اكتشافات جديدة ، ويظهر أن المفاجآت ـ كالمصائب ـ نادراً ما تأتي فرادى

لقد كانت ، في الواقع ، تقاسي محنة غير عادية • فبينا استشعرت أعظم الرغبة اللاهفة المتقدة في النفاذ الى أعماق اللغز الذي غلّف فيه تاريخ أوليفر ، لم تستطع الا أن تصون حرمة السر الذي كانت المرأة البائسة التي تحدثت اليها منذ لحظات قد أودعتها اياه ، اذ وجدت فيها فتاة صريحة صادقة • كانت كلماتها وسيماؤها قد عطفتا فؤاد روز ماري ، ولقد امتزج بحبها لمحميّها الصغير ـ ولم يكن ليقلّ عنه صدقاً وحرارة ـ توقها العارمُ الى انقاذ الفتاة المنبوذة وردّها الى حظيرة التوبة والأمل •

وكانوا يعتزمون البقاء في لندن ثلاثة أيام ليس غير ينطلقون بعدها ، في رحلة تدوم بضعة أسابيع ، الى جزء قصيّ من ساحل البحر • وكان ليلُ اليوم الأول قد انتصف الآن • فأيّ خطة يمكن أن تعقد عزمها على اصطناعها خلال ثمان واربعين ساعة ؟ أو كيف تستطيع أن ترجىء الرحلة من غير أن تثير الشكوك والظنون ؟

كان مستر لوزبيرن معهم ، وكان يعتزم أن يمكث طوال اليومين التاليين• ولكن روز كانت تعرف تهور السيد الفاضل معرفة اليقين ، فاستطاعت ان تتمثل الغيظ الذي سوف يصبه ـ عند اول انفجار من انفجارات سخطه ـ على رأس الفتاة التي كانت وسيلة القبض على أوليفر من جديد ، وان تتمثل ذلك في وضوح شديد الى حد جعلها تحجم عن اطلاعه على السر ، خاصة وان

دماعها عن الفتاة لا يمكن أن يعزّزه أيما شخص ذي خبرة وحنكة • وكانت هذه الاسباب نفسها تفرض عليها اصطناع أعظم الحذر وأشد الاحتراس في الافضاء بالسر الى مسز مايلي لأنها لا بد أن تسارع لأول وهلة الى التشاور في الموضوع مع الطبيب الفاضل • أما اللجوء الى مستشار قضائي ، حتي ولو عرفت كيف تباشر ذلك ، فلم يكن وارداً ، لتلك الاسباب نفسها • وخطر لها مرة أن تلتمس العون من هاري • ولكن هذا أيقظ عندها ذكريات فراقهما الأخير ، وبدا لها أنه لا يليق بها أن تدعوه الى العودة ، على حين ــ وهنا ترقرقت الدموع في عينيها وهي تواصل هذا النهج من التفكير ــ ربما يكون الآن قد وجد الوسيلة الى نسيانها ، والى التمتع بعيداً عنها بقدر من السعادة أوفر •

وأقلقتها هذه الخواطر المختلفة ، فكانت تنزع الى انتهاج احدى السبل حيناً ، والى انتهاج سبيل اخرى حيناً ، لتعود بعد فتنكص عن السبيلين جميعاً ، كلما تراءى لها اعتبار جديد • وسلخت روز ليلة أرقة قلقة • وبعد مزيد من التروية في الأمر صباح اليوم التالي انتهت الى أنها لا تستطيع أن تستشير أحداً غير هاري •

لمد قالت في ذات نفسها : « اذا كان في العودة الي هنا ما يوجعه فكم سيكون ذلك موجعاً بالنسبة لي ! ومن يدري ، فلعله ان لا يجيء • انه قد يكتب اليّ رسالة ، وقد يجيء بنفسه ويجتنب ، في احتراس بالغ ، الاجتماع اليّ ، كما فعل عند انصرافه آخر مرة • انا لم أتوقع ذلك منه قط ، ولكن ما حدث كان خيراً لنا نحن الاثنين • » وهنا طرحت روز القلم ، واستدارت وكأنها أرادت بذلك ان تخفي عبراتها حتى عن الورق الذي سيكون رسولها •

وكانت قد عاودت الامساك بالقلم نفسه ثم طرحته خمسين كرة ، وكانت قد فكرت وأعادت التفكير في أول سطر من سطور رسالتها من غير أن تخط الكلمة الاولى عندما دخل الحجرة اوليفر الذي كان قد تمشّى قبل ذلك في الشوارع وقد قام مستر جيلز منه مقام الحرس • والواقع انه دخلها في عجلة لاهثة واهتياج عنيف بدا وكأنهما ينذران بداعية جديدة من دواعي الرعب •

وسألته روز وهي تتقدم للقائه : « ما الذي يجعلك تبدو على هذا الاضطراب كله ؟ »

فأجابها الغلام : « أنا لا أكاد أدري كيف حدث لي ذلك • واني لأحس وكأنني سأختنق • اوه ، يا عزيزتي ! أنا لا أصدق نفسي كلما فكرت في انني وُفقت الى رؤيته آخر الأمر ، وانه سوف يكون في ميسورك ان تستيقني أني قلت لك الحقيقة كاملة ! »

فقالت روز وهي تحاول ان تهدىء من روعه : « أنا لم احسب في أيما يوم من الايام انك قلت لنا شيئاً غير الحقيقة • ولكن ما المسألة ؟ عمَّن تتكلم ؟ »

فأجابها أوليفر وهو لا يكاد يُبين : « لقد رأيت السيد الماجد ••• السيد

الماجد الذي أحسن اليّ أعظم الاحسان ـ مستر براونلو ، الذي طالما تحدثنا عنه ٠ »

فسألته روز : « أين ؟ »

فأجابها أوليفر وهو يسفح دموع الفرح : « رأيته يغادر مركبة من المركبات ، ويدخل بيتاً من البيوت ٠ أنا لم أتحدث اليه ـ أنا لم أستطع ان أتحدث اليه ، لأنه لم يرني ، ولأني ارتعدت ارتعادا جعلني أعجز من أن أتقدم نحوه ٠ ولكن جيلز سأل ، بالنيابة عني ، ما اذا كان يقيم هناك ، ولقد قالوا ان نعم ٠ انظري ! » وهنا نشر أوليفر قصاصة من ورق ٠ « هوذا عنوانه ٠٠ هوذا المكان الذي يقيم فيه ـ اني سوف أمضي الى هناك على التو ! اوه ، يا آلهي ، يا آلهي ! ما الذي يتعين علي ان أفعله حين أراه وأسمع صوته من جديد ! »

وكان في هذه الكلمات وفي كثير غيرها من هتافات الفرح غير المتماسكة ما شتت أفكار روز تشتيتاً غير يسير ٠ ولكنها مع ذلك قرأت العنوان : كرايفن ستريت ، في ال « ستراند » ٠ وسرعان ما عقدت العزم على الافادة من هذا الاكتشاف ٠

فقالت : « عجّل ! قل لهم أن يستدعوا لنا مركبة أجرة ، واستعدّ للذهاب معي ٠ سوف آخذك الى هناك مباشرة ، من غير أن أضيع دقيقة واحدة ٠ وسأمضي لمجرد اخبار عمتي بأننا سوف نغيب عن البيت ساعة واحدة ، ولسوف أكون على أتم الاستعداد للانطلاق حالما تصبح أنت جاهزاً ٠

ولم يكن أوليفر في حاجة الى من يستحثّه على الاسراع ٠ وما هي غير خمس دقائق ، أو يزيد قليلا ، حتى كانا في طريقهما إلى كرايفن ستريت ٠ وحين انتهيا الي هناك ، تركت روز أوليفر في المركبة ، بدعوى « اعداد » الرجل العجوز لاستقباله ، وأسلمت بطاقتها الى الخادم طالبة الاجتماع الى مستر براونلو لمباحثته في مسألة ملحّة جداً ٠ وسرعان ما رجع الخادم ورجاها ان ترتقي السلم ٠ فتبعته الآنسة مايلي الى حجرة من حجرات الدور الأعلى حيث قُدّمت الى سيد عجوز ذي مظهر ينمّ عن الرقة والعطف ، مُر٠تد سترة ذات لون أخضر غامق ٠ وعلى مقربة منه كان يجلس سيد عجوز آخر يرتدي بنطالا قصيراً من نسيج متين أصفر ، ويطوّق ساقيه بجرموق* ، سيد لم تبدُ على سيمائه امارات رقة وعطف صارخة ، وقد جلس شابكاً يديه عند قمة عصا غليظة ، مسنداً ذقنه فوقهما ٠

وقال السيد ذو السترة الخضراء الغامقة وقد سارع الى النهوض في كياسة بالغة : « يا آلهي ! انا التمس عفوك ، أيتها السيدة الصغيرة ٠٠٠ لقد توهمت ان الوافد شخص ملحاح ٠٠٠ أتضرع اليك أن لا تؤاخذيني ٠ اجلسي ،

* الجرموق ضرب من الجوارب ويعرف عند العامة بـ « الفيتر »

ارجوك ٠ »

فقالت روز ناقلة طرفها من السيد الآخر الى السيد الذي كان قد تكلم : « مستر براونلو ، كما أعتقد يا سيدي ؟ »

فقال السيد العجوز : « هذا هو اسمي ٠ وهذا هو صديقي مستر غريمويغ ٠ هل لك ان تتركنا وحدنا بضع دقائق ، يا غريمويغ ؟ »

فقاطعته الآنسة مايلي : « أعتقد اني في غير ما حاجة ، في هذه المرحلة من مقابلتنا ، الى أن اجشّم ذلك السيد عناء الانصراف ٠ واذا صحت معلوماتي كان هو من الملمّين بالمسألة التي أرغب في التحدث اليك عنها ٠ »

وحنى مستر براونلو رأسه ٠ فلم يكن من مستر غريمويغ ـ الذي كان قد انحنى انحناءة شديدة التصلب ونهض عن كرسيه ـ الا أن انحنى انحنـــاءة أخرى شديدة التصلب أيضاً ، ثم غاص في كرسيه من جديد ٠

وقالت روز ، في ارتباك طبيعي : « ليس من ريـب في أن حديثي سيكون مفاجأة لك ، ولكنك أظهرت في يوم من الايام عطفاً بالغاً واحسنت احساناً عظيماً الى صديق لي طريّ العود أثير عندي الى أبعد الحدود ، وأنا على يقين من أنــك سوف تعنى بالاستماع الى نبأه من جديد ٠ »

فقال مستر براونلو : « من غير ريب ٠ »

فأجابته روز : « وأنت تعرفه باسم اوليفر تويست ٠ »

ولم تكد هذه الكلمات تفارق شفتيها حتى عمد مستر غريمويغ ـ وكان قد تظاهر بالانكباب على مطالعة كتاب ضخم موضوع على المائدة ـ الى اطراح ذلك الكتاب محدثاً جلبة كبيرة ، ثم ارتدّ مسنداً ظهره الى ظهر كرسيه ، طارداً من ملامحه جميع الانطباعات ما خلا انطباعة الدهش البالغ، واستغرق في تحديق متطاول شارد ٠ ويبدو أنه استحيا من التكشّف عن ذلك الانفعال كله ، فنتّر نفسه ـ اذا جاز التعبير ـ بانتفاضة ، مستعيداً سيماءه السابقة ، وحدّق النظر أمامه على نحو مستقيم مطلقاً صفرة طويلة عميقة بدت آخر الأمر وكأنها لم تطلق في الهواء الفارغ ، بل ماتت في تجاويف معدته الأبعد غوراً ٠

ولم يكن مستر براونلو أقل دهشاً ، على الرغم من ان دهشه لم يعبّر عن نفسه على ذلك النحو الشاذّ ٠ لقد أدنى كرسيه الى الآنسة مايلي وقال :

ـ « تكرمي عليّ ، يا سيدتي الصغيرة العزيزة ، بالاغضاء اغضاء كاملا عن الطيبة والاحسان اللذين تتحدثين عنهما ، واللذين لا يعرف ايما امرىء شيئــاً عنهما ٠ واذا كان في مستطاعك ان تقدمي اليّ أيّ بيّنة تغيّر الرأي الرديء الذي أغريتُ ذات يوم بتكوينه عن ذلك الغلام البائس فأني استحلفك بالله أن تضعيها في متناولي ٠ »

ـ « انها خبيثة ! واني على استعداد لأن آكل رأسي نفسه ان لم تكــن خبيثة ! » كذلك زمجر مستر غريمويغ ، متحدثاً بعض الشيء على طريقة مــن

يتكلمون من بطنهم ، من غير أن يحرك أية عضلة في وجهه ٠

فقالت روز وقد تضرّج وجهها : « انه طفل ذو فطرة نبيلة ، وفؤاد ودود٠ وان تلك القدرة* التي رأت من المناسب أن تبلوه بمحن أكبر من سنّه قد غرست في صدره عواطف ومشاعر خليقاً بها أن تشرّف كثيرين ممن يبلغ عمرهم ستة أضعاف عمره ٠ »

فقال غريمويغ ، بنفس تلك السيماء الممتنعة على التأثر : « ان عمري لا يزيد على احدى وستين ٠ ولما كانت سن أوليفر اثني عشر عاماً على الاقل ، ان لم يتدخل الشيطان في ذلك ، فاني لا أرى على من تنطبق هذه الملاحظة ٠ »

فقال مستر براونلو : « لا تلقي بالا الى صديقي ، أيتها الآنسة مايلي ٠ انه لا يعني ما يقول ٠ »

فزمجر مستر غريمويغ : « بل انه يعني ذلك ٠ »

فقال مستر براونلو وقد تعاظم غيظه ، بوضوح : « لا ، انه لا يعنيه ٠ »

فزمجر مستر غريمويغ : « انه سوف يأكل راسه نفسه ان لم يكن يعنيه ٠ »

فقال مستر براونلو : « ان رأسه ذاك سيكون جديراً بأن تسدّد اليه ضربة قاضية ان فعل ٠ »

فأجابه مستر غريمويغ قارعاً الارض بعصاه : « ولن يُغضبه البتة أن يرى من يحاول الاقدام على ذلك كائناً من كان ٠ »

حتى اذا ذهب السيدان العجوزان الى هذا الحد اخذ كل منهما ، بدوره ، قبصّة من سعوط ، ثم تصافحا وفقاً لمألوف عادتهما التي لا تحول ولا تتبدل ٠

فقال مستر براونلو : « والآن ، أيتها الآنسة مايلي ، فلنعد الى الموضوع التي تهتم انسانيتك به هذا الاهتمام كله ٠ هل لك أن تفضي اليّ بالنبأ الذي تحملينه عن هذا الطفل المسكين ٠ ولكن اسمحي لي أن أعلمك اولا بأني استنفدت كل وسيلة ممكنة للعثور عليه ، واني منذ ان غادرت انكلترة زُعزعت انطباعتي الاولى التي كانت قد صوّرت لي أنه خدعني وان رفاقه القدماء أقنعوه بسرقتي ٠ »

فلم يكن من روز ، التي كانت قد وجدت متسعاً من الوقت لجمع شتات أفكارها ، الا ان روت ، في بضع كلمات بسيطة ، كل ما أصاب أوليفر منذ مغادرته بيت مستر براونلو ، محتفظة بمعلومات نانسي لكي تخص بها اذن ذلك السيد وحده ، خاتمة حديثها بالتوكيد ان مبعث حزنه الأوحد كان ، طوال بضعة شهور خلت ، هو تعذُّر اتصاله بصديقه ووليّ نعمته القديم ٠

فقال السيد العجوز : « شكراً لله ! ان هذا يوقع في نفسي أعظم السعادة٠ أجل . أعظم السعادة ٠ ولكنك لم تخبريني أين هو الآن ، أيتها الآنسة مايلي ٠ اغفري لي انتقادي لك ٠٠٠ ولكن لماذا لم تصطحبيه الى هنا ؟ »

---

* تقصد القدرة الآلهية ٠ (المعرب)

فأجابته روز : « انه ينتظر في مركبة واقفة على مقربة من الباب • »

ـ « على مقربة من هذا الباب ؟ » كذلك صاح السيد العجوز ، واندفع مغادراً الحجرة ، هابطاً السلم ، وارتقى موطىء المركبة ، ودخلها ، من غير ان يقول اية كلمة اخرى •

وحين انغلق باب الحجرة خلفه رفع مستر غريمويغ رأسه ، وحوّل احدى قائمتي كرسيه الخلفيتين الى محور ، ورسم بمساعدة عصاه ومساعدة الطاولة ثلاث دوائر متوالية ، غير مغادر كرسيه البتة • وبعد ان قام بهذه المناورة نهض ، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهوباً ، بأسرع ما استطاع ان يذرعها ، اثنتي عشرة مرة على الاقل ، ثم وقف فجأة أمام روز ، وقبّلها من غير ما تمهيد البتة •

ـ « صه ! » كذلك قال عندما نهضت الفتاة مذعورة بعض الشيء من هذا الصنيع الشاذ • « لا تخافي • أنا في مثل سن جدك • انت فتاة لطيفة جداً • وانك لتروقين لي • ها قد أقبلا ! »

والواقع انه لم يكد يرتمي غائصاً في كرسيه على نحو بارع حتى عاد مستر براونلو ، يصحبه أوليفر ، الذي استقبله مستر غريمويغ بلطف شديد. ولو قد كان الارتياح الذي غلب على نفس روز مايلي آنذاك هو المكافأة الوحيدة لكل القلق الذي عانته من أجل أوليفر والعناية التي أحاطته بها اذن لاعتبرت انها نالت عن ذلك تعويضاً كافياً •

وقال مستر براونلو وهو يقرع الجرس : « بالمناسبة ، هناك شخص آخر يجب علينا ان لا ننساه • أدع مسز بيدوين الى هنا ، من فضلك • »

ولبّت مدبّرة البيت العجوز الدعوة على جناح السرعة • وانحنت لدى الباب انحناءة احترام مغالى فيها ، وانتظرت أوامر السيد •

فقال مستر براونلو في شيء من الشكاسة : « عجيب ! ان قِصر بصرك ليزداد يوماً بعد يوم ، يا بيدوين • »

فأجابت السيدة العجوز : « هذا صحيح ، يا سيدي • ان أعين الناس ، الذين هم في سني ، لا تتحسّن بتقدم العمر ، يا سيدي • »

فأجابها مستر براونلو : « هذا شيء أعرفه جيداً • ولكن ضعي نظارتيك، وحاولي ان تعرفي لماذا استدعيتك •• »

فشرعت السيدة العجوز تنقّب في جيوبها بحثاً عن نظارتيها • ولكن صبر أوليفر لم يكن من القوة بحيث يصمد لهذا الاختبار الجديد • وهكذا استسلم لغريزته وارتمى بين ذراعي السيدة •

فصاحت السيدة العجوز وهي تعانقه : « فليغفر الله لي ! ان هذا هو ولدي البريء ! »

فصاح أوليفر : « مربيتي العجوز العزيزة ! »

فقالت السيدة العجوز وهي تطوقه بذراعيها : « لقد عرفت جيداً انه

سعود . لشدّ ما يبدو وسيماً ، وما أحسن بزته التي تخلع عليه من جديد سيماء ولد من أولاد السادة ! أين كنت ، طوال هذه المدة المديدة ؟ آه ! اني لأرى الوجه الحلو نفسه ، ولكنه ليس على مثل ذلك الشحوب كله . واني لأرى العينين الرقيقتين نفسيهما ، ولكنهما ليستا على مثل ذلك الحزن كله . أنا لم أنسهما قط ، ولم أنس ابتسامته الوادعة ، ولكنني رأيتها كل يوم ، جنبا الى جنب مع عيون وابتسامات أولادي الاحبة ، الذين تخطّفهم الموت منذ ان كنت مخلوقة مشرقة الوجه ناضرة العود . » قالت ذلك وأمثاله ، مبعدة أوليفر عنها بعض الشيء ، حيناً ، لكي تكحّل العين بقامته وامتلاء جسمه ، ضامة اياه الى صدرها حيناً آخر ومُمِرّة أصابعها في محبّة غامرة ، وخلال ذلك كله كانت الروح الكريمة تضحك تارة وتسفح العبرات فوق عنقه طوراً .

وتركهما مستر براونلو يتبادلان العواطف والانطباعات ، على رِسلهما ، وقاد روز الى حجرة اخرى ، حيث استمع اليها تروي حكاية مقابلتها مع نانسي كاملة ، وهي رواية أوقعت في نفسه دهشاً وارتباكاً غير قليلين . وأوضحت روز أيضاً الاسباب التي جعلتها تحجم عن الافضاء بالسرّ الى صديقها مستر لوزبرن قبل اي امرىء آخر . فقال السيد العجوز انها أحسنت بذلك صنعاً وتصرّفت تصرفاً حكيماً . وأعلن عن استعداده للتشاور العاجل مع الطبيب الفاضل نفسه . ولكي تتيح له فرصة مبكرة تمكّنه من القيام بذلك تم الاتفاق في ما بينهما على أن يُلمّ مستر براونلو بالفندق في الساعة الثامنة من ذلك المساء ، على أن تحاط مسز مايلي في شيء من الاحتراس بكل ما كان قد حدث . حتى اذا اتُخِذت هذه التدابير التمهيدية ، رجعت روز وأوليفر الى منزلهما .

والحق ان روز لم تبالغ قط في تقدير مدى الغضب الذي كان خليقاً به أن يعصف بالطبيب لدن سماعه قصة نانسي . فما ان رُويت هذه القصة له حتى صب على رأسها وابلا من الشتائم الممزوجة بالتهديدات ، وتوعّد بأن يجعلها أول ضحية من ضحايا عبقرية السيدين « بلاذرز » و « داف » المشتركة . وذهب الى حدّ الاعتمار بقبعته تمهيداً للانطلاق لكي يلتمس مساعدة ذينك الرجلين الفاضلين . وليس من ريب في أنه كان خليقاً به — في سَوْرة هذا الغضب الأولى — أن يضع نيته تلك موضع التنفيذ من غير أيما تدبّر للعواقب ، لو لم يُصَدّ عن ذلك بعنف مقابل من ناحية مستر براونلو الذي كان هو نفسه ذا مزاج نزق ، وبحجج واستدلالات بدت وكأنها وُضعت خصيصاً لثنيهِ عن عزمه الأحمق .

وقال الطبيب المتهوّر ، عندما مضيا والتحقا بالسيدتين . « والآن ما الذي ينبغي — بحق الشيطان — أن نفعله ؟ أيتعين علينا أن نقدّم اقتراحاً يقضي بازجاء الشكر الى جميع هؤلاء المتشردين — ذكوراً وأناثاً — ونتوسل اليهم أن يقبل كل منهم مئة جنيه ، كدلالة متواضعة على تقديرنا لهم ، وعلى سبيل التعبير

الرمزي عن اعترافنا بأفضالهم على أوليفر ؟! »

فأجابه براونلو ضاحكاً : « لا ، ليس هذا تماماً · ولكن علينا أن نعالج الأمر في رفق وفي كثير من الاحتراس · »

فهتف الطبيب : « رفق واحتراس ! أما أنا فأفضل أن أبعث بهم كلهم الى ··· »

فقاطعه مستر براونلو : « ابعث بهم الى حيث شئت ، ولكنْ فكِّرْ ما اذا كان ارسالهم الى ذلك المكان يساعدنا على تحقيق الغرض الذي وضعناه نصب أعيننا · »

فسأله الطبيب : « أيّ غرض ؟ »

ـ « انه ، بكل بساطة ، اكتشاف أبوي أوليفر ، واعادة حقه في الأرث اليه ، ذلك الحق الذي حُرِم منه ـ ان صحت هذه القصة ـ بطريقة احتيالية · »

فقال مستر لوزبيرن ، وهو يهوّي بمنديله على وجهه : « آه ! لقد كدت أنسى ذلك · »

فتابع مستر براونلو : « أترى ؟ وحتى اذا لم نأخذ هذه الفتاة البائسة بعين الاعتبار البتة ، وعلى افتراض ان في الامكان سوق أولئك الأوغاد الى العدالة من غير أن نعرّضها للخطر ، فهل تستطيع أن تقول لي أي خير نجنيه من مثل خطتك ؟ »

فأعلن الطبيب قائلا : « شنق بعضهم على الاقل ، ونفي الباقين · »

فأجابه مستر براونلو مبتسماً : « حسن جداً · ولكنهم لا بدّ ان يحفروا قبورهم بأظلافهم عندما يحين الأوان · واذا ما حاولنا أن نسبقهم الى أداء هذه المهمة كان عملنا هذا ، في رأيي ، عملا جدّ دونكيشوتي ، يتعارض مع مصلحتنا الذاتية ـ أو على الاقل مع مصلحة أوليفر ، والنتيجة واحدة على أية حال · »

فسأله الطبيب : « كيف ؟ »

ـ « هكذا : انه لمن الواضح جداً أننا سوف نجد عسراً بالغاً في النفاذ الى أعماق هذا اللغز الا اذا وُفّقنا الى وضع هذا الرجل ، مونكس ، تحت رحمتنا · وهذا لا يمكن ان يتمّ الا بمناورة خادعة ، وبايقاعه في الشرك حين يكون متوحداً لا يحيط به أحد من أولئك القوم · اذ ليس لدينا ، على افتراض اننا القينا القبض عليه ، أيّ دليل ضده · بل انه لم يشارك العصابة (بقَدْر ما نعلم ، أو كما تبدو الوقائع لنا) في أيّ من سرقاتها · فاذا لم تبرأ ساحتُه فمن غير المحتمل الى أبعد الحدود أن يحكم عليه بعقوبة أقسى من السجن بتهمة الغش والتشرد · وليس من ريب في أن فمهُ سوف يكون بعد ذلك مُطبقاً اطباقاً عنيداً الى درجة قد تجعله ـ بالنسبة الى أغراضنا نحن ـ أصمّ ، أبكم ، أعمى ، ومعتوهاً · »

فقال الطبيب في تهوّر : « اذن فاني أعيد طرح السؤال عليك من جديد :

هل ترى من المنطق ان نعتبر أنفسنا ملزمين بهذا الوعد الذي أعطيناه للفتاة ، وهو وعدٌ أوحت به نيّات ليس أحسن منها ولا أكرم ، ولكنه في الواقع ٠٠٠ »

ــ « لا تناقشي هذا السؤال ، يا سيدتي الصغيرة العزيزة ، أرجوك ! »

كذلك قال مستر براونلو مقاطعاً روز وقد رآها تأخذ الأهبة للكلام ٠ « اننا سوف نفي بالوعد ٠ ولست أحسب أنه سوف يعوق اجراءاتنا البتة ٠ ولكن من الضروري ، قبل أن نوطّن النية على سلوك أيما خطة عمل دقيقة ، ان نجتمع الى الفتاة ، وذلك لكي نستيقن منها اذا كانت ترضى بأن تدلنا على مونكس ذاك ، مع العلم اننا سوف نتولى أمره بأنفسنا ولن نفزع في ذلك الى العدالة ٠ أما اذا أبت أن تفعل ، او كانت غير قادرة على أن تفعل ، فعندئذ يتعين علينا أن نستطلع منها مظانّه* وأوصافه بحيث نتمكن من تبيّنه والاهتداء الى شخصه ٠ وليس في ميسورنا أن نراها قبل ليل الاحد القادم ، واليوم هو الخميس ٠ من أجل ذلك اقترح أن نعتصم في غضون هذا بالهدوء الكامل ونبقي هذه الأشياء سراً لا نبوح لأحد به حتى لأوليفر نفسه ٠ »

وعلى الرغم من أن مستر لوزبرن تلقّى في كثير من النكد والاشمئزاز هذا الاقتراح المنطوي على تأخير مقدارهُ خمسة أيام كاملة ، فقد اضطرّ الى التسليم بأن أيما سبيل أفضل لم يخطر له في تلك اللحظة ٠ واذ أيدت كلٌّ من روز ومسز مايلي وجهة نظر مستر براونلو تأييداً قوياً ، فقد أقِرّ اقتراح ذلك السيد الماجد بالاجماع ٠

وقال : « أنا أود أن أستعين بصديقي غريمويغ ٠ انه مخلوق غريب ، ولكنه ذكيّ ، وقد تثبت التجربة انه قادر على مساعدتنا الى حد بعيد ٠ وفي استطاعتي أن أقول إنه قد اصاب بعض الثقافة الحقوقية ، ولم يعتزل المحاماة الا بسبب من السخط الذي عصف به لانه لم يتولَّ الدفاع ــ خلال عشرين عاما ــ الا في قضية واحدة ولم يقدّم غير استدعاء واحد ٠ على الرغم من اني أترك لكم أن تقرروا بأنفسكم ما اذا كان هذا دليلا طيباً أم لا ٠ »

فقال الطبيب : « ليس لديّ أي اعتراض على استعانتك بصديقك اذا ما أجزت لي الاستعانة بصديقي ٠ »

فأجابه مستر براونلو : « يتعين علينا أن نطرح ذلك على التصويت ٠ من هو صديقك ؟ »

ــ « انه ابن تلك السيدة، وصديق قديم جداً ٠٠٠ لهذه السيدة الصغيرة٠»

قال الطبيب ذلك : وهو يومىء الى مسز مايلي ، ويختم كلامه بنظرة معبّرة وجهّها الى ابنة أخيها ٠

وتضرّج وجه روز تضرجاً شديداً ، ولكنها لم تبدِ اي اعتراض مسموع على هذا الاقتراح (ولعلها استشعرت أنها لن تشكل غير أقلية ضئيلة جداً) ٠

* اي الاماكن التي يظن (بالبناء للمجهول) وجوده فيها ٠

وهكذا ضُمّ هاري مايلي ومستر غريمويغ الى اللجنة ·

وقالت مسز مايلي : « سوف نبقى في لندن ، طبعاً ، ما بقي ثمة أقلّ أمل في متابعة هذا التحقيق بشيء من امكانية النجاح · وأنا لن ادّخر جهداً ولا مالا في سبيل الغاية التي نحرص كلنا على بلوغها حرصاً عظيماً · ولسوف أرتضي البقاء هنا — ولو تطاول ذلك اثني عشر شهراً — ما دمتم تؤكدون لي أنه لا يزال ثمة أمل ما · »

فقال مستر براونلو : « حسن ! واذ كنت أرى على الوجوه التي تحيط بي نزوعاً الى التساؤل كيف جاز لي ان أتوارى عن المسرح فلا أحقق في قصة أوليفر وكيف غادرت المملكة على ذلك النحو المفاجيء الى أبعد الحدود ، فدعوني أشترط عليكم ان لا توجهوا اليّ أيما سؤال حتى يحين الوقت الذي قد أرى فيه ان من المناسب أن أستبق تلك الاسئلة بسرد قصتي الشخصية · وصدقوني اذا قلت لكم اني أتقدم بهذا الطلب لسبب وجيه ، ذلك بأني قد أثير — اذا ما اتبعت سبيلا آخر — آمالا مقدّراً لها أن لا تتحقق البتة ، ولن أزيد المصاعب والخيبات — وما أكثرها حتى في هذه اللحظة ! — الا تشابكاً وتعقيداً · هيّا ! لقد أعلِن ان العشاء أمسى جاهزاً ، ولا بد أن يكون أوليفر — المتوحّد في الحجرة المجاورة — قد اعتقد اننا مللنا صحبته وعمدنا الى تبييت مؤامرة تهـدف الى التخلي عنه واسلامه الى صروف الحياة القاسية · »

نطق السيد العجوز بهذه الكلمات وبسط يده الى مسز مايلي ، وقادها الى حجرة الطعام · وتبعهما مستر لوزبيرن ، وهو يقود روز بيده ، وبذلك انفضّ الاجتماع ، مؤقتاً ، على نحو مثمر ·

الفصل الثاني والاربعون

وفيه يصبح أحد أصدقاء أوليفر القدماء — بعد أن تكشف عن أمارات نبوغ صارخة — شخصية رسمية في العاصمة

في نفس الليلة التي هرعت نانسي خلالها — بعد أن أغرت مستر سايكس بالاستسلام للنوم — لأداء مهمتها التي فرضتها على نفسها ، مهمة اطلاع روز مايلي على السرّ المتصل بأوليفر ، تقدّم نحو لندن من طريق « الجادّة الشمالية » شخصان أرى من المناسب أن تعنى هذه القصة بأمرهما بعض العناية ·

كانا رجلا وامرأة ، أو لعلنا نصفهما وصفاً أفضل اذا قلنا انهما كانا ذكراً وأنثى · ذلك بأن أولهما كان من اولئك الناس ذوي الأرجل الطويلة ، والرُكَب الصَدَف* ، والمشية المتثاقلة ، والاجساد المعروقة ، والذين يعسر على المرء أن

* الصدف : بفتح الصاد والدال ، اقبال احدى الركبتين على الاخرى ·

يحزر عمرهم الحقيقي ، اذ يبدون وهم بعدُ صِبيةٌ صغار وكأنهم رجالٌ تأخَّر نموهم ، ويبدون وقد شارفوا الرجولة وكأنهم صِبيةٌ عجَّل بهم النمو · أما المرأة فكانت صغيرة السن ولكنها ذات بنية قوية مكينة ، كما كان ينبغي لها ان تكون لكي تحمل تلك الصرة الثقيلة المشدودة الى ظهرها بسَيْر من السيور · ولم يكن رفيقها مثقلا بعبء مماثل ، اذ كان قد اكتفى بتعليق رزمة صغيرة بطرف عصا ملقاة على كتفه ، وهي رزمة كانت ملفوفة بمنديل عادي وكان يتراءى للناظر أنها خفيفة جداً · وهذه الواقعة زادت في طول رجليه اللتين كانتا من قياس غير مألوف ، ومكّنته ــ في يسر كثير ــ من أن يتقدم رفيقته خمس خطوات أو ست خطوات ، فهو يلتفت اليها بين الفينة والفينة ناتراً رأسه على نحو ينمّ عن فروغ الصبر ، وكأنه يؤنبها على تخلّفها ، ويحثها على بذل مجهود أعظم ·

وواصلا ، على هذا النحو ، سبيلهما المغبرة تلك ، من غير أن يلقيا بالا الى أيما شيء واقع تحت نظرهما ، الا عندما توقفا لكي يفسحا مجالا أوسع لمركبات البريد التي كانت تغادر لندن بأقصى السرعة · حتى اذا مرّا تحت قوس « هايغايت » وقف أول المترحلَيْن وصاح مخاطباً رفيقته في صبر نافد :

ــ « عجِّلي ·· ألا تستطيعين ؟ أية قُعَدة كسول أنتِ ، يا شارلوت ! »

ــ « انها صرّة ثقيلة ··· في استطاعتي ان أؤكد لك ذلك · » قالت الانثى هذه الكلمات ، وهي تسرع الخطى لكي تدركه ، لاهثة من أثر التعب ·

ــ « ثقيلة ! عمّ تتكلمين ؟ لأي شيء خُلِقتِ اذن ؟ » كذلك أجابها المترحل الذكرُ وهو ينقل رزمته الصغيرة الى الكتف الاخرى · « اوه ، ها انت تعودين الى التوقف والتماس الراحة ! حسناً ، اذا لم تكوني انتِ أقدر من يُخرج المرء عن طوره فعندئذ أكون أجهل الناس بأخلاق النساء ! »

ــ « ألا يزال المكان بعيداً جداً ؟ » كذلك سألته المرأة وهي تجلس على أحد المقاعد الخشبية ، رافعة بصرها وقد تفصّد العرق من وجهها ·

فقال الساري ذو الرِجلين الطويلتين وهو يشير ببنانه الى أمام : « بعيد جداً ؟ انظري ! ها هي ذي أضواء لندن ! »

فقالت المرأة في قنوط : « انها تقع على مسافة ميلين كاملين على الاقل · »

فقال نوح كلايبول ، اذ كان ذلك المترحل هو نوح كلايبول نفسه : « قد تكون على مسافة ميلين وقد تكون على مسافة عشرين، فأن هذا لا يقدم ولا يؤخر· المهم ان تنهضي وتواصلي السير ، والا رفستك بقدمي · وهكذا أكون قد أنذرتك · »

واذ تعاظم احمرار أنف نوح الاحمر من جراء الغضب ، وعبر الطريق فيما هو يتكلم وكأنما هو على أتم الاستعداد لوضع تهديده موضع التنفيذ ، نهضت المرأة من غير أن تنطق بأية كلمة اضافية ، وراحت تجرر قدميها الى جانبه ·

وسألته بعد أن قطعا بضع مئـات من اليـاردات : « أين تعتزم أن تبيت هذه الليلة ، يا نوح ؟ »

ـ « ومن أين أعلم ؟ » كذلك أجابهـا نـوح ، الذي كان السُكرى قد أفسد مزاجه افساداً شديداً ٠

فقالت شارلوت : « أرجو أن يكون قريباً من هنا ٠ »

فأجابها مستر كلايبول : « لا ، انه غير قريب ٠ أسمعتِ ، انه غير قريب ، فلا تتوهميه قريباً ٠ »

ـ « ولم لا ؟ »

فأجابها مستر كلايبول في عظمة : « عندما أقول لكِ اني لا أريد أن أعمل شيئاً ما فيجب أن يكونَ هذا كافياً ، وأن لا يُردَف بلماذا وكيف ٠ »

فقالت رفيقته : « حسناً ، لا داعي الى الاستسلام للغضب على هذا النحو ٠ »

فقال مستر كلايبول في لهجة ساخرة : « كم يكون جميلا أن نذهب ونحطّ الرحال في اول حانة قائمة خارج المدينة بحيث يستطيع ساواربيري ـ اذا مالحق بنا ـ أن يُقحم أنفه العجوز ويرجع بنا في عربة من العربات والأصفاد في أيدينا! لا ، سوف أمضي وأغيّب نفسي في أضيق الشوارع التي تقودني اليها قدماي ، ولن أكفّ عن الضرب في الأرض حتى نصل الى أنأى بيت تستطيع أن تقع عليه عيناي وأبعده عن عيون الناس ٠ وعلى أية حال ، في استطاعتـك ان تشكري نجومك على أمر ، وهو أن في رأسي مخاً ٠ اذ لو لم نسلك منذ البدء ـ وعن سابق تصور وتصميم ـ الطريق المغلوط ونرجع كرة اخرى عبر الريف اذن لكان خليقاً بك أن تجدي نفسك ، منذ اسبوع ، حبيسة في زنزانة ضيقة ، يا سيدتي ٠ واذن لكان جديراً بهذا أن يعلمك كيف تتظاهرين بالبله ٠ »

فأجابته شارلوت : « أنا أعرف اني لا أبلغ من الدهاء مبلغك ٠ ولكن لا تلقِ اللوم كله عليّ ، ولا تقل انه كان خليقاً بي أن أجـد نفسي سجينـة في زنزانة ٠ لقد كان خليقاً بك أنت ان تنتهي الى المكان نفسه لو قدّر عليّ ذلك ٠ »

فقال مستر كلايبول : « انكِ أنتِ التي أخذت المـال من الصندوق ٠ وأنت تعرفين ذلك جيداً ٠ »

فأجابته شارلوت : « لقد أخذته من اجلك ، يا عزيزي نوح ٠ »

فسألها مستر كلايبول : « وهل احتفظتُ به ؟ »

ـ « لا ٠ لقد وثقت بي ، وتركتني أحمله مثل رجل يؤثرني بالحب ٠ وانك لكذلك فعلا ٠ » هكذا قالت السيدة ، وهي تربّت على أدنى ذقنه ، وتضـع ذراعها في ذراعه ٠

وكان ذلك هو الواقع ٠ ولكن لمّا لم يكن من عادة مستر كلايبول أن يثق ثقة عمياء حمقاء بأي انسان فيتعين علينا أن نلاحظ ، انصافاً لذلك السيد الماجد ، انه كان قد وثق بشارلوت الى هذا الحد على سبيل الحذر والاحتياط ، بحيث

يعثر على المال ـ اذا ما تعقبهما أحد ـ مع تلك المرأة لا معه هو ، وهذا ما يبيح له فرصة التوكيد على براءته من ايما سرقة ، ويسهل له امكانية الفرار تسهيلا كبيرا · وليس من ريب في أنه لم يحاول في تلك اللحظة أن يقدّم اي تفسير لدوافعه . فواصلا السير معاً في مودّة بالغة ·

وانسجاماً مع هذه الخطة الحذرة ، تابع مستر كلايبول ادلاجه من غير ما توقف حتى وصلا الى ال « آينجيل » في « آيلينغتون » حيث قدّر في حكمة بالغة ـ من حشود المشاة ومن عدد المركبات ـ ان لندن قد بدأت جدياً · ولم يكف عن السير الا لحظة واحدة ليلقي نظرة عـــلى ما بـدا له وكأنه أشد الشوارع ازدحاما ، وبالتالي أدعاها الى التحفظ والاجتناب ، ثم تقدم نحو طريق سانت جون . وسرعان ما خوّض في ظلمة الدروب القذرة الملتوية التي جعلت هذا الحي ـ بوقوعها بين « غرايز ان لاين » و « سميثفيلد » ـ واحـــداً من أحقر واسوأ الاحياء التي تركها الرقيّ قائمة في قلب لندن ·

خلال هذه الشوارع مشى نوح كلايبول ، جاراً شارلوت خلفه · هابطا حينا الى قناة الشارع لكي يحيط بنظرة واحدة بكامل المظهر الخارجي لاحد النزل الصغيرة ، مستانفاً سيره المتثاقل حيناً آخر ، اذا ما حمله بعض الدلائل المتوهمة على الاعتقاد بأن ذلك النزل جدّ مطروق · بالنسبة الى أغراضه هو · وأخيرا وقف قبالة نزل أحقر مظهرا وأشد قذارة من جميع نظائره التي وقـع بصره عليها حتى ذلك الحين · وبعد ان عبر الشارع وألقى عليه نظرة من جانـــب الرصيف المقابل تلطّف فأعلن عن اعتزامه المبيت هناك ، تلك الليلة ·

ـ « أعطيني الصرة اذن ! » كذلك قال نوح وهو يحلّ عقدة سيرها عن كتفي المرأة ، ويلقيه على كتفيه هو · « ولا تتكلمي البتة ، الا اذا وُجّه اليـك الخطاب · ما اسم هذا النزل ؟··· حانة الث ··· الثلاثة ؟ ثلاثة ماذا ؟ »

فقالت شارلوت : « حانة المقعدين الثلاثة · »

فكرّر نوح : « حانة المقعدين الثلاثة · ولافتة ممتازة أيضاً · والآن ، هيا ! اتبعيني على الاثر ، ولندخل · » حتى اذا أطلق هذا التنبيه دفع البـاب المصلصل بضربة من كتفه ، ودخل النزل تتبعه رفيقته ·

لم يكن ثمة أحد عند المشرب غير يهودي شاب كان يقرأ ـ مُسْنداً مرفقيه الى المنضدة ـ جريدة قذرة · فحدّق الى نوح تحديقاً شديداً · وحدق اليه نوح بدوره تحديقاً شديداً ·

ولو قد كان نوح مرتدياً بزّته الخاصـــة بصبيْية مدارس الاحسان اذن لكان ثمة سبب يفسّر تحديق اليهودي اليه على ذلك النحو · ولكن نوحاً كان قد اطّرح السترة والشارة ، وارتدى قميصاً فضفاضاً قصيراً فوق بنطاله الجلدي ، ومن أجل ذلك لم يكن ثمة اي موجب لأن يثير ظهوره في نزل أو حانة كل هـذا الاهتمام ·

وسأله نوح : « أهذه حانة المقعدين الثلاثة ؟ »

فأجابه اليهودي : « أجل ، هذا هو اسم الحانة · »

ــ « لقد نصحنا سيد لقيناه في الطريق ، ونحن قادمون الى لندن ، بأن نجيء الى هنا · » كذلك قال نوح ، وهو يكِزُ شارلوت بمرفقه ، اما لكي ينبّهها الى هذه الوسيلة البارعة لاكتساب الاحترام واما لكي يحذّرها من التكشّف عن أيما دهش · « اننا نريد ان نبيت هنا الليلة · »

فقال بارني ــ اذ كان هو اليهودي الصغير القائم عند المشرب : « لست واثقاً من ان في استطاعتك ذلك · ولكنني سوف اسأل · »

فقال نوح : « قدْنا الى حجرة الطعام وقدّم الينا قطعة من اللحم البارد وقطرة من الجعة ريثما تسأل ، ارجوك · »

فنزل بارني عند رغبته ، فقادهما الى حجرة خلفيّة صغيرة ووضع أمامهما حاجتهما من اللحم والجعة · حتى اذا تم له ذلك أعلم المسافرين ان في ميسورهما ان يبيتا في النزل تلك الليـــلة ، وغادر الرفيقــين الودودين لينعما بطعامهما وشرابهما ·

وانما كانت تلك الحجرة الخلفية قائمة وراء المشرب مباشرة ، ولكنها أدنى منه ببضع درجات، بحيث كان فيميسور أيما شخص ذي صلة بالمؤسسة ــ بمجرد ازاحته ستارة صغيرة كانت تحجب لوحاً زجاجياً مفرداً مُثْبتاً في جدار الحجرة المشار اليها ، على ارتفاع خمسة أقدام تقريباً من أرضيتها ــ أقول بحيث كان في ميسور أيما شخص ذي صلة بالمؤسسة أن يختلس النظر الى نزلاء الحجرة الخلفية من غير أن يتعرض أمره تعرضاً كبيراً للافتضاح ، (اذ كان اللوح الزجاجي مثبتاً في زاوية من الجدار مُعتمة كان على المراقب ان يقحم نفسه بينها وبين عارضـــة خشبية ضخمة عمودية ·) ليس هذا فحسب ، بل لقد كان في ميسور ذلــك الشخص ، اذا ما وضع أذنه على الحاجز ، أن يتبين في شيء من الوضوح موضوع الحديث الدائر بينهم · والواقع ان صاحب النزل كان قد رفع بصره عن كوة التجسس تلك منذ خمس دقائق ليس غير ، وأن بارني كان قد نقل ــ منذ لحظة أو لحظتين ــ ذلك النبأ الذي ذكرناه الى الوافديْن الجديدين ، عندما أقبل فاجين على المشرب ــفي سياق أعماله الليلية المعتادةـ ليسأل عن بعض تلامذته الصغار·

وقال بارني « صه ! ان في الحجرة المجاورة بعض الغرباء · »

فكرر الرجل العجوز في همس : « غرباء ! »

فأضاف بارني : « آه ، غرباء من أهل الريف ، ولكنهم من النوع الـــذي يهمك أمره ، الا اذا كنت مخطئاً · »

وتلقى فاجين هذا النبأ ــ في ما بدا ــ بكثير من الاهتمام · فوقف عــلى كرسي خفيض لا ظهر له ، واختلس النظر عبر اللوح الزجاجي ، فاذا به يرى ، من خلال ذلك الموقع السريّ ، الى مستر كلايبول وهو يأكل قطعة لحم بقري من

الطبق ، ويحتسي بعض الجعة الدنون من الكوز ، ويقدّم مقادير ضئيلة من هذه وجرعات طفيفة من تلك الى شارلوت التي جلست الى جانبه معتصمة بالصبر ، فهي لا تأكل ولا تشرب الا حين يشاء لها صاحبها أن تفعل ·

وهمس ملتفتاً الى بارني : « آها ! ان ملامح ذلك الفتي تعجبني · ولا ريب في أنه سوف يكون ذا نفع لنا ، انه يعرف كيف يروّض تلك الفتاة · الـــزم الصمت ، كن صموتا يا عزيزي ، مثل فأرة ، ودعني اسمعهما يتحدثان ··· دعني أسمعهما · »

وركز عينه على الزجاج كرة اخرى ، وأدار اذنه نحو الحاجز وأرهـــف السمع ، وقد غلبت على وجهه سيماء خبيثة نهمة جديرة بعفريت عجوز ·

ـ « وهكذا فأني اعتزم ان أصبح سيداً مـاجداً ، » كذلك قـــال مستر كلايبول باسطاً ساقيه في قوة وعنف ، مواصلا محادثة فات « فاجين » سماعُ الجزء الاول منها · « لن يكون ثمة بعد اليوم اية توابيت عتيقة طريفـــة ، يا شارلوت ، ذلك اني سوف أنعم بحياة كحياة السادة الأماجـــد · أما أنت ، فسوف أجعل منك ، اذا شئتِ ، سيدة جليلة · »

فأجابته شارلوت : « اني لشديدة التوق الى ذلك ، يا عزيزي · ولكننا لا نقع كل يوم على خزائن مال نستطيع أن نُفرِغها ، وليس في ميسورنا أن ننفق عمرنا في محاولة الفرار بعد ذلك · »

فقال مستر كلايبول : « فليأخذ الشيطان خزائن المال تلك ! ان ثمة أشياء اخرى ، غير خزائن المال ، يمكن أن تُفْرَغ · »

فسألته رفيقته : « ماذا تعني ؟ »

فقال مستر كلايبول ، وقد أهاجته الجعة الدنون : « الجيوب ، وأكياس النساء الشبكية ، والبيوت ، ومركبات البريد ، والمصارف ! »

فقالت شارلوت : « ولكنك لا تقدر على أداء ذلك كله ، يا عزيزي · »

فأجابها نوح : « لن أعدم الوسيلة للاتصال بمن يقدرون · ولسوف يكون في ميسورهم أن يفيدوا من خدماتنا بطريقة أو بأخرى · ولا عجـب ، فأنـت نفسكِ تساوين خمسين امرأة · فأنا لم أر في حياتي مخلوقة أقدر منكِ عـلى اصطناع المكر والدهاء حين أجيز لك ذلك · »

فهتفت شارلوت وهي تطبع على وجهه البشع قبلة . « يا الهي ، كم هو جميل أن أسمعك تقول هذا الكلام ! »

ـ « حسن ، هذا يكفي · لا تكوني مسرفة في التودّد اذا ما ثارت ثائرتي عليك · » كذلك قال نوح متملصاً منها في رصانة بالغة · « اني لأتوق الى ان أكون رئيس عصابة ما ، أوسع أفرادها ضرباً ، وأن أتبعهم الى كل مكان من غير أن يدروا · ان ذلك العمل ليناسبني ، اذا ما عاد علي بربح وفير · ولو وُفقنا الى التفاوض مع أناس من هذا النوع لوجدتُ أن ذلك يستحق أن ندفع في سبيله

ورقة العشرين جنيهاً التي معك ··· خاصة وأننا لا نكاد نعرف كيف نتخلص منها بوسائلنا الشخصية · »

عبَّر مستر كلايبول عن رأيه هذا وانشأ يتأمل كوز الجعة الدنون في سيماء ترشح بالحكمة البالغة · حتى اذا هزّ محتوياته هزاً قوياً ، تلطّف وأومأ برأسه الى شارلوت ، وأخذ جرعة بدا بعدها وقد انتعش انتعاشاً كبيراً · وكان يفكر في أخذ جرعة اخرى عندما حال بينه وبين ذلك انفتاح الباب على نحو مفاجيء ، وظهور رجل غريب ·

كان ذلك الغريب هو مستر فاجين · ولشدّ ما كان وجهه أنيساً متودداً ! ولشدّ ما غالى في الانحناء تحية لهما ! ثم انه تقدم ، وجلس عند أقرب مائدة ، وسأل بارني المبتسم ابتسامة عريضة أن يأتيه بشيء من شراب ·

ـ « انها ليلة لطيفة ، يا سيدي ، ولكنها باردة بعض الشيء بالنسبة الى الفصل الذي نحن فيه من السنة · » كذلك قال فاجين وهو يفرك يديه · « لقد اقبلتما من الريف ، في ما أرى ، أليس كذلك يا سيدي ؟ »

فسأله نوح كلايبول : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

فأجابه فاجين مشيراً الى حذاء نوح وحذاء رفيقته ، ثم الى الصرّتين الاثنتين : « ليس عندنا في لندن هذا المقدار كله من الغبار · »

فقال نوح : « انك فتى ذكي · ها ! ها ! اسمعي هذا الذي قاله ، يا شارلوت ! »

ـ « لا تعجب ، فالمرء مضطر الى ان يكون ذكياً في هذه المدينة ، يا عزيزي · » كذلك أجابه اليهودي مخفّضاً صوته حتى الهمس · « تلك هي الحقيقة · »

واتبع فاجين هذه الملاحظة بضرب جانب أنفه بسبابته اليمنى ـ وهي حركة حاول نوح أن يقلدها ، وان لم يوفق في ذلك الى نجاح كامل ، بسبب ان أنفه لم يكن كبيراً الى حدّ واف بذلك الغرض · وأياً ما كان ، فقد بدا مستر فاجين وكأنه اعتبر تلك المحاولة تأييداً كاملا لوجهة نظره ، وقدّم اليهما ، على نحو وديّ جداً ، تلك الخمر التي كان بارني قد جاءه بها ·

ولاحظ مستر كلايبول وهو يتمطّق : « انها من صنف ممتاز ·»

فقال فاجين : « بل انها غالية · وان المرء ليحتاج الى ان يقضي عمره وهو يفرغ خزانة من خزائن المال ، أو جيباً من الجيوب ، او كيسا شبكيا من أكياس النساء ، أو بيتاً ، او مركبة بريد ، أو مصرفاً ، اذا ما تعوّد أن يشربها على نحو نظاميّ · »

ولم يكد مستر كلايبول يسمع هذه النبذة المختارة من ملاحظاته الخاصة حتى ارتمى على ظهر كرسيه ونقل طرفه من اليهودي الى شارلوت وعلى وجهه امارات شحوب رمادي وذعر مفرط ·

وقال فاجين وهو يدني كرسيه ادناء أشدّ : « لا يأخذنك الروع مني ، يا عزيزي . ها ! ها ! لقد كان من حسن حظك ان أحداً لم يسمعك ، مصادفة ، غيري أنا . لقد كان هذا من حسن حظك حقاً . »

ـ « أنا لم آخذ المال . » كذلك غمغم نوح متلعثمـاً ، من غير أن يبسط قدميه في قوة مثل رجل ثريّ من السادة الاماجد . والواقـع أنه طواهما تحت كرسيه أحسن ما استطاع ان يطويهما . « انها هي التي فعلت ذلك كله . والمال هو معك الآن ، يا شارلوت ... انت تعرفين ذلك جيداً . »

فأجابه فاجين ، ملقياً برغم هذا نظرة اشبه بنظرة الصقر على الفتـــاة والصرتين : « ليس يهمني ان أعرف من الذي يحمل المال ومن الذي أخذه ، يا عزيزي ! اني أنا نفسي من أهل هذه الصناعة . واني لأحبكما من أجل ذلك . »

فسأله مستر كلايبول وقد استردّ شيئا من طمأنينة النفس : « من أهل أية صناعة ؟ »

فأجابه فاجين : « من أهل تلك الصناعة نفسها . وكذلك حالُ أصحاب هذا النزل . لقد أصبت المرمي ، وانك لآمنٌ هنا الى أبعد حدود الأمان . والواقع انه ليس في هذه المدينة كلها مكان أكثر أمناً من حانة المقعدين الثلاثة ، أعني حين يروق لي أن أجعلها كذلك . ولقد أولِعْتُ بك وبالسيدة الفتية . وهكذا أكون قد قلت كلمتي ، وفي استطاعة قلبيكما الآن ان يطمئنا . »

وجائز أن يكون قلب نوح كلايبول قد اطمأن بعد هذا التوكيد ، ولكـن جسده لم يكن مطمئناً من غير ريب . ذلك بأنه اضطرب وتلوّى متخذاً أوضاعاً مرتبكة ، فيما كان يحدج صديقه الجديد بنظرات امتزج فيها الخوف والشك .

وقال فاجين بعد أن طمأن الفتاة بفضل ايماءات رأسه الوديـــة وضروب التشجيع التي أطلقها في صوت نصف مهموس : « ان لي صديقاً يستطيع في ما أعتقد أن يشبع رغبتكما العزيزة على قلبيكما ، ويعلّمكما مبادىء الصناعة . وفي استطاعتكما بادىء الامر أن تتخيَّرا الشعبة التي تعتقدان انها تناسبكما أكثر من غيرها ، على أن تمارسا العمل بعد ذلك في سائر الشُّعب . »

فأجابه نوح : « أنت تتكلم وكأنك جادّ . »

فتساءل فاجين وهو يهز كتفيه : « وأية فائدة أجنيها من الكلام الـــذي يعوزه الجِدّ ؟ هيّا ! دعني أقول لك كلمة في الخارج . »

فقال نوح وهو يسحب رجليه تدريجياً من تحت الطاولة : « ليس ثمة ما يحملنا على أن نجشّم نفسينا عناء الحركة . انها سوف تحمل الامتعة ، في خلال ذلك ، الى الدور الاعلى . شارلوت ، انقلي الامتعة الى فوق . »

والواقع انه أصدر اليها هذا الامر في كثير من العظمة والجلال ، فامتثلته شارلوت من غير اعتراضٍ البتة . وانصرفت شارلوت حاملة الامتعة على أسرع وجه ممكن ، بينا أبقى نوح الباب مفتوحاً وراقبها وهي تمضي لسبيلها ،

ـ « انها مروّضة على الخضوع ترويضاً حسناً ، أليس كذلك ؟ » هكذا سأله ، وهو يعاود الجلوس في كرسيه ، بنبرة مروّض وُفق الى تدجين حيوان مفترس ٠

فأجابه فاجين وهو يربت على كتفه : « هذا صحيح ، مئة بالمئة ٠ أنت عبقري ، يا عزيزي ٠ »

فقال نوح : « لو لم أكن كذلك لما كنت هنا ، في ما أحسب ٠ ولكنها سوف ترجع اذا ما أضعنا الوقت ٠ »

فقال فاجين : « والآن ، ما رأيك ؟ اذا ما أعجبك صديقي فهل تستطيع أن تعمل شيئاً خيراً من الانضمام اليه ؟ »

فأجابه نوح غامزاً بأحدى عينيه : « أهو ناجح في أعماله ؟ هذا هو السؤال الأهم ٠ »

ـ « انه في قمة النجاح ٠ وهو يستخدم عدداً ضخماً من المعاونين ٠ وله صلات بأفضل المشتغلين في هذه الصناعة ٠ »

فسأله مستر كلايبول : « أهم لندنيون حقيقيون ؟ »

فأجابه فاجين : « ليس بينهم ريفيّ واحد ٠ ولولا أنه يشكو في الوقت الحاضر نقصاً في المعاونين اذن لكان خليقاً به أن يعتذر عن قبولك ، على الرغم من توصيتي أنا ٠ »

فقال نوح وهو يضرب جيب بنطاله القصير براحة يده : « أيتعيّن عليّ أن أدفع له ؟ »

فأجابه فاجين بلهجة حاسمة الى أبعد مدى : « ليس في الامكان تحقيق ذلك بأية وسيلة اخرى ٠ »

ـ « هذه عشرون جنيهاً ٠٠٠ ذلك مبلغ ضخم ! »

فردّ عليه فاجين : « ليس حين يكون المبلغ على شكل ورقة نقدية لا تستطيع التخلّص منها ٠ لقد أخِذ رقم الورقة وتاريخها ، في ما أحسب ؟ ولسوف يعارض البنك في صرفها ! آه ! انها لن تكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة الى صديقي ٠ ان عليه أن يبعث بها الى ما وراء البحار ، ولن يكون في استطاعته أن يبيعها هنا في السوق بثمن كبير ٠ »

فسأله نوح في ارتياب : « ومتي أستطيع ان أراه ؟ »

ـ « غداً صباحاً »

ـ « أين ؟ »

ـ « هنا ٠ »

فقال نوح : « أممممم ! وما الراتب ؟ »

فأجابه مستر فاجين : « أن تعيش مثل سيد ماجد ـ الطعام والمبيت ، والتبغ والخمر بالمجان ـ ونصف كل ما تكسبة أنت ، ونصف كل ما تكسبه

المرأة الفتية . »

ولو قد كان نوح كلايبول ، ذو الجشع المتطرف ، مالكاً كامل الحريـة في اتخاذ القرار الذي يشاء اذن لكان خليقاً به في أغلب الظن أن يرفض الموافقـة حتى على هذه الشروط المغرية . أما وقد تذكر ان في وسع هذا الصديق أن يسلمه في الحال ـ اذا ما رفض الموافقة ـ الى العدالة (ولقد حدثت من قبل أشياء أغرب من هذا) فسرعان ما لان على نحو تدريجي ، وقال ان تلك الشروط تلائمه .

ولاحظ نوح : « ولكن لما كانت قادرة ، كما ترى ، على النهوض بأعباء كثيرة فأني أرغب في النهوض بعبء خفيف جداً . »

فاقترح فاجين : « بعض أشغال الابرة الزخرفية مثلا ؟ »

فأجابه نوح : « آه ! شيء من هذا القبيل . ما الذي تحسبه ملائماً لي الآن ؟ شيء غير مرهق جداً ، للقوة البدنية ، وغير خطر جداً ، كما تعلم . ذلك هو النوع الذي أريده . »

فقال فاجين : « لقد سمعتك تتكلم عن شيء ما في حقل التجسس على الآخرين ، يا عزيزي . وان صديقي لفي حاجة ماسة الى من يحسن القيام بهذه المهمة . »

فأجابه مستر كلايبول في أناة : « يا آلهي ! لقد ذكرت ذلك فعلا . ولست أمانع في ان أقوم بهذه الخدمة بين حين وآخر . ولكن هذا لا يعود علي ، وحده ، بدخل كاف كما تعلم . »

فلاحظ اليهودي ، متأملا أو متظاهراً بالتأمل : « هذا صحيح . انه قد لا يعود عليك بدخل كاف . »

فسأله نوح ، ناظراً اليه في لهفة وقلق : « ما رأيك اذن ؟ شيء من نوع النشل ، حيث الربح مضمون ، وحيث الخطر لا يزيد كثيراً على خطر البقاء في البيت . »

فقال فاجين : « ماذا تقول في السيدات العجائز ؟ ان في امكان المرء أن يكسب مالا كثيراً من طريق انتزاع حقائبهن وصررهن ، والفرار الى زاوية الشارع . »

فسأله نوح وهو يهز راسه : « لا يعولن كثيراً ، ويخدشن في بعض الاحيان ؟ لست أعتقد أن هذا يفي بأغراضي . أليس هناك طرائق اخرى يستطيع المرء ان يختارها ؟ »

فقال فاجين واضعاً يده على ركبة نوح : « انتظر ! سلب الأحداث . »

فسأله مستر كلايبول : « وما ذاك ؟ »

فقال فاجين : « الأحداث ، يا عزيزي ، هم الاطفال الصغار الذين تبعث

بهم أمهاتهم في مهام معينة ، بعد أن يزوّدنهم بأنصاف الشلنات أو بالشلنات · والبيلب هو مجرد انتزاع المال منهم ـ وهم يحملونه دائماً في ايديهم ـ وايقاعهم في الساقية ، ثم مواصلة السير في بطء وكأن كل ما حدث يتلخص في أن ولداً قد سقط في القناة فأصيب ببعض الاذى · ها ! ها ! ها ! ها ! »

ـ « ها ! ها ! » كذلك هدر مستر كلايبول رافساً برجليه كمن استخفّه الطرب · « يا آلهي ! هذا ما كنت أبحث عنه على وجه الضبط · »

فأجابه فاجين : « أجل ، هذا هو من غير ريب · وفي استطاعتك ان تقوم ببضع جولات في « كامدن تاون » و « باتل بريدج » ، وأحياء اخرى مماثلة ، حيث تجد دائماً أطفالا بعثتهم أمهاتهم لأداء بعض المهام · هناك تستطيع أن توقع في الساقية أيّ عدد منهم تشاء ، في أي ساعة من ساعات النهار · ها ! ها ! هـــا ! »

قال فاجين هذا ووكز مستر كلايبول بمرفقه ، فاشتركا في عاصفة مـن الضحك طويلة مدوّية ·

وقال نوح وقد استرد رصانته بعد أن عادت شارلوت : « حسن ، هـذا ممتاز · غداً ، في أية ساعة ؟ »

ـ « الساعة العاشرة ، هل يناسبك هذا الموعد ؟ » كذلك سأله فاجين ، ثم أضاف حين أومأ مستر كلايبول ايماءة الموافقة ، « ما الاسم الذي يتعين أن أقدّمه الى صديقي الطيب ؟ »

فأجابه نوح ، الذي كان قد أعدّ نفسه لمثـــل هذا الطارىء : « مستر بوتلر ! مستر موريس بوتلر · وهذه مسز بوتلر · »

ـ « إني أعتبر نفسي الخادم الحقير لمسز بوتلر ! » كذلك قال فاجين وهو ينحني في كياسة كاريكاتورية مضحكة · « وأرجو أن تتيح لي الايام القادمة أن أعرفها معرفة احسن · »

فارعّد مستر كلايبول : « هل تسمعين ما يقوله السيد الماجـــد ، يـا شارلوت ؟ »

فأجابته مسز بوتلر ، باسطة يدها : « أجل ، يا عزيزي نوح ! »

ـ « انها تدعوني نوح ، على سبيل التحبّب ، » كذلك قال مستر موريس بوتلر ، كلايبول سابقاً ، وهو يلتفت الى فاجين · « هل فهمت ؟ »

فأجابه فاجين ، ناطقاً بالصدق للمرة الاولى : « اوه ، نعم ، لقد فهمت··· فهماً كاملا · طاب مساؤك ! طاب مساؤك ! »

وبعد عبارات توديع كثيرة وتمنيات طيبة وافرة مضى مستر فاجين لسبيله· وهنا استرعي نوح كلايبول انتباه سيدته الصالحة ، وشرع يطلعها على شروط الاتفاق الذي عقده مع فاجين ، بلهجة متغطرسة راشحة بروح السيادة ـ لهجة جديرة لا بعضو من أعضاء الجنس الخشن فحسب ، بل بسيد ماجد يقدّر شرف

التكليف الخاص بمهمة سلب الاحداث ، في مدينة لندن وضواحيها .

الفصل الثالث والاربعون
وفيه يظهر كيف ألمت المتاعب بالمراوغ الماكر

ـ « واذن فقد كنت أنت صديقك ، أليس كذلك ؟ » هكذا تساءل مستر كلايبول ، المتخذ اسم بوتلر المستعار ، عندما شخص في اليوم التالي الى منزل فاجين بفضل الاتفاق المعقود بينهما . « يا للشيطان ! لقد كنت أفكر في ذلك الليلة البارحة ! »

فأجابه فاجين ، بابتسامته العريضة المعبّرة الى حد بعيد : « كل امرىء هو صديق نفسه ، يا عزيزي . وليس للمرء صديق ، في أيما مكان ، خيرٌ من نفسه . »

ـ « الا في بعض الاحوال . » كذلك أجابه موريس بوتلر ، متخذا سيماء الرجل ذي الخبرة الواسعة . « ان بعض الناس ليسوا أعداء أحد الا أنفسهم ، كما تعلم . »

فقال فاجين : « لا تصدق ذلك . اذا اتفق ان كان المرء عدوّ نفسه فانما يعود ذلك الى انه يحبّ نفسه ويصادقها أكثر مما ينبغي . لا الى انه يهتم بالناس ويحرص على مصالحهم أكثر من حرصه على مصلحته هو . فليس ثمة شيء مثل هذا في الطبيعة . »

فأجابه مستر بوتلر : « اذا كان ثمة شيء مثل هذا فيجب أن لا يكون . »

ـ « هذا كلام منطقي . ان بعض المشعوذين يزعمون أن الرقم السحري هو الرقم ثلاثة ، وبعضهم يزعم أنه الرقم سبعة . ولكنه لا هذا ولا ذاك . انه الرقم واحد . »

فصاح مستر بوتلر : « ها ! ها ! فليحي الرقم واحد . »

فقال فاجين ، وقد استشعر الحاجة الى تعديل هذا الحكم : « في مجتمع صغير كمجتمعنا يكون الرقم واحد جماعياً . يعني انك لا تستطيع أن تعتبر نفسك رقم واحد من غير أن تعتبرني أنا رقم واحد ، وأن تعتبر جميع أصدقائنا الشبان مثل ذلك . »

فهتف مستر بوتلر : « اوه ، يا للشيطان ! »

فتابع فاجين متظاهراً بانه لم يسمع هذا الاعتراض : « أنت ترى ان تمازجنا هو من الشدة وان مصالحنا هي من التماثل بحيث يصبح ذلك أمراً محتوماً . فمثلا ، ان غرضك هو أن تعنى برقم واحد ... يعني بمصالحك الذاتية . »

فأجابه مستر بوتلر : « من غير ريب . انت محق في هذا . »

ـ « حسناً ! أنت لا تستطيع أن تعنى بمصالحك ، بوصفك رقم واحد ، من غير أن تعنى بمصالحي أنا ، بوصفي رقم واحد . »

ـ « تعنـــي بوصفك رقم اثنين . » كذلك قال مستر بوتلر الـذي كان عظيم الحظ من الانانية .

فأجابه فاجين : « لا ، لست أعني ذلك . ان لي أهمية عندك لا تقلّ عن أهمية نفسك عند نفسك . »

فقاطعه مستر بوتلر : « أنا أقول أنك رجل ظريف جداً ، واني جدّ مولع بك ، ولكننا لسنا ، على أية حال ، حميمَيْن الى هذا الحد كله . »

فقال فاجين ، هازاً كتفيه ، باسطاً يديه : « فكّر قليلا ! فكر قليلا ! لقد قمت بعمل رائع يدعوني الى حبك ، ولكنك قد يطوّق عنقك ـ في الوقت نفسه ـ برباط الرقبة الذي يسهل عقده أكثر ما يكون السهولة ، ويصعب حلّه أكثر ما تكون الصعوبة . وبانكليزية واضحة ، قد يطوق عنقك بحبل المشنقة . »

ووضع مستر بوتلر يده على رباط عنقه ، وكأنه استشعر أن ذلك الرباط محكم الى حد غير ملائم ، وأعلن موافقته على ذلك بغمغمة ، فيها تحفظ في اللهجة ولكن ليس في المحتوى . »

وتابع فاجين : « المشنقة ، المشنقة يا عزيزي هي مَعْلم طريق بشعٌ ذو أصبع يشير الى منعطف حادٍّ طالما اعترض حياة الجسورين من الناس على الطرق العمومية . ومهمتك رقم واحد هي التزام الطريق السهل والبقاء على مسافـــة معيَّنة من ذلك المَعْلم ذي الاصبع . »

فأجابه بوتلر : « هذا صحيح من غير ريب . ولكن لماذا تتحدث عن أشياء مثل هذه ؟ »

فقال اليهودي رافعاً حاجبيه : « لمجرد افهامك ما أعنيه ، على نحو واضح . ولكي تتمكن من ذلك يتعين عليك أن تعتمد عليّ . ولكي أسيِّر أعمالي الصغيرة على نحو مُريح يتعين عليّ أن أعتمد عليك . الامر الاول هو رقم واحد بالنسبة اليك ، والامر الثاني هو رقم واحد بالنسبة اليّ . وكلما ازددت تقديراً لرقمك تحتَّم عليك أن تزداد اهتماماً برقمي . وهكذا نصل آخر الامر الى ما قلتُهُ لك منذ البدء ـ وهو أن الحرص على رقم واحد يوحِّد ما بيننا جميعاً ، ويجـــب أن يوحِّد ما بيننا جميعاً ، والا مُزِّقنا كلنا ـ وفي آن معاً ـ ارباً ارباً . »

فأجابه مستر بوتلر وامارات التفكير العميق بادية على وجهه : « هـــذا صحيح . اوه ، أنت عجوزٌ غريب ماكر ! »

ورأى مستر فاجين ، في ابتهاج ، ان هذا التقدير لمواهبه لم يكن مجـــرد مجاملة . ذلك بأنه قدكان أثار اعجاب مجنَّده الجديد فعلا ، وأوقع في نفسه انه عبقري ماكر ، وهي انطباعة يُعتبر نشوؤها عنده أمراً بالغ الاهمية في مطلـــع تعارفهما ، ولتوكيد هذه الانطباعة المرجوة المفيدة الى هذا الحد كله ، أتبَع تلك

الضربة بإعطائه فكرة مفصلة بعض الشيء عن ضخامة نشاطاته ومداها ، مازجاً الحقيقة بالخيال على الوجه الذي يستطيع ان يخدم غرضه خدمة أفضل ، مفيداً في كثير من البراعة ، من تزايد احترام مستر بوتلر له تزايداً ملحوظاً ، ومن نزوعه الى الاعتدال نتيجة لما ألمّ به من خوف نافع كانت اثارته عملا مرغوباً فيه الى حد بعيد .

وقال فاجين : « ان هذه الثقة المتبادلة التي يستشعرها كل منا نحو الآخر هي التي تعزيني عن أفدح الخسائر . فقد انتزع مني ، امس صباحا ، خير اعواني . »

فصاح مستر بوتلر : « أنت لا تريد أن تقول انه قد مات ؟ . . »

فاجابه فاجين : « لا ، لا ، لم يصل الامر الى هذه الدرجة من السوء . . لا . لم يصل الى هذه الدرجة من السوء . »

ــ « اذن ، فأنا أحسب انه قد . . . »

فقاطعه فاجين : « لقد القي القبض عليه . اجل ، القي القبض عليه . »

فسأله مستر بوتلر : « في تهمة خطيرة ؟ »

فأجابه فاجين : « لا . انها ليست خطيرة جدا . لقد اتهم بمحاولة نشل جيب من الجيوب ، ولقد وجدوا معه علبة سعوط فضية ــ علبة هي ملكه هو ، يا عزيزي ، ملكه هو ، ذلك بأنه يتنشق السعوط ، وهو مولع به . ولقد اودعوه السجن الاحتياطي حتى اليوم ، لانهم اعتقدوا أنهم يعرفون المالك الحقيقي . آه ! لقد كان يساوي خمسين علبة سعوط ، واني لمستعد لأن ادفع ثمن هذه الخمسين علبة لكي استرده . لقد كان من واجبك ان تعرف « المراوغ » ، يا عزيزي ! لقد كان من واجبك ان تعرف « المراوغ ! »

فقال مستر بوتلر : حسنا ، ولكني سوف اتعرف اليه ، في ما أرجو . الا تظن ذلك ؟ »

فأجابه فاجين وهو يتنهد : « اني اشك في ذلك . اذا لم يعثروا على دليل جديد ، فانهم سوف يحاكمونه محاكمة مستعجلة ، ولسوف نسترده بعد ستة اسابيع أو نحوها . اما اذا عثروا على دليل جديد فسوف تكون القضية قضية « تأبيد » . انهم يعرفون اي فتى بارع هو ، ولسوف يصبح « اشغاليا » . اجل انهم لن يرضوا بغير ان يصبح « المراوغ » اشغاليا . »

فسأله مستر بوتلر : « ولكن ماذا تعني بالتأبيد وبالاشغالي ؟ وما الفائدة من التحدث الي بهذه الطريقة ؟ لماذا لا تتحدث بطريقة أستطيع ان افهمهما ؟ »

وكان فاجين على وشك ان يترجم هذين التعبيرين الملغزين الى لغة عامية ــ ولو وفق الى هذه الترجمة اذن لعرف مستر بوتلر انهما يعنيان

الإشغال الشاقة والنفي مدى الحياة ـ عندما قطع هـذا الحوار بدخول المعلم بايتس ، واضعا يديه في جيبي بنطاله القصير ، لاويـا وجهه على نحو ينطق بأسى نصف هزلي .

ـ « قضي الامر ، يا فاجين ! » كذلك قال تشارلـي ، بعد أن عرفـه اليهودي الى رفيقه الجديد .

ـ « ماذا تعنـي ؟ »

ـ « لقد وجدوا مالك علبة السعوط . ولسوف يأتي رجلان آخران او ثلاثة رجال آخرين لاثبات هويته . انهم سيشترون له تذكرة ابحار . » كذلك اجابه المعلم بايتس . « يجب ان احصل على بذلة حداد كاملة ، يا فاجين ، وعلى عصابة قبعة لكي اقوم بزيارته ، قبل ان ينطلق في رحلاته ، انا لا أتصور ان جاك داوكينز .. جاك المراوغ ... المراوغ الماكر يحكم عليه بالابعاد الـى ما وراء البحار بسبب علبة سعوط عادية تساوي بنسين ونصف . ولم يخطر ببالي قط انه سوف يحكم عليه بمثل ذلك لشيء اقل من ساعة ذهبية ، او سلسلة ذهبية ، او اختام . اوه ، لماذا لم يسلب احد العجائز الاغنياء جميع نفائسـه ، ويرحَل كسيد ماجد ، لا كلص عادي ، من غير شرف او مجد ؟!»

وبعد ان عبر المعلم بايتس عن عاطفته هذه نحو صديقه السيء الطالع ، استوى على اقرب كرسي ، وقد نم وجهه عن شيء من الاسى والقنوط .

وصاح فاجين ، ملقيا على تلميذه نظرة غضبى : « لماذا تقول انه سوف يرحَل من غير شرف او مجد ؟ الم يكن دائما يحتل المقام الارفع بينكم جميعا ؟ هل كان بينكم من يجرؤ على مجاراته او مضاهاته في اي ميدان ؟ قلْ ! »

ـ « لا ، لم يكن بيننا من يجرؤ على هذا . » كذلك اجابه المعلم بايتس في صوت جعلته الحسرة اجش . « لا ! لا !»

فقال فاجين مغضبا : « اذن فعن اي شيء تتكلم ؟ ولاجـل اي شـيء تنشج ؟ »

ـ « لان ذلك غير مدون في سجله ! » كذلك قال تشارلي ، وقد دفعه تيار الحسرات الى حد التحدي الكامل لصديقه المبجل .. « لان هذا لا يمكن ان يظهر في نص الحكم . لان احدا لن يعرف ابدا نصف الحقيقة عن عظمته . ترى كيف سيتحدثون عنه في « تقويم نيوغايت » ؟* لعلهم لن يشيروا اليه هناك البتة . اوه ، عيني ! عيني ! يا لها من ضربة قاصمة ! »

فصاح فاجين باسطا يده اليمنى لمستر بوتلر في نوبة من القهقهة هزته هزا عنيفا وكانه مصاب بشلل نصفي : « انظر الى اعتزازهم بصناعتهم ، يا عزيزي . اليس هذا جميلا ؟ »

* نشرة لندنية كانت تنشر اسماء المجرمين وتفصيلات عن جرائمهم (المعرب) .

فهز مستر بوتلر راسه بالموافقة . وبعد أن فكر فاجين في أسى تشارلي بايتس بارتياح واضح تفكيرا استغرق بضع ثوان ، تقدم نحو ذلك الشاب وربت على كتفه .

لقد قال محاولا ان يهدىء من روعه : « لا بأس ، يا تشارلي . انه سوف يظهر في نص الحكم . انا واثق من انه سوف يظهر . والناس كلهم يعرفون اي فتى بارع كان هو . ولسوف يظهر ذلك بنفسه ، ولن يلبس رفاقه واساتذته القدماء ثوب الخزي والعار . حسبك ان تفكر في حداثة سنه ونضارة عوده ايضا ! انه لمما يشرف اي امرىء ، يا تشارلي ، ان يحكم عليه بالاشغال الشاقة في مثل تلك السن المبكرة ! »

فقال تشارلي ، وقد سرى ذلك عن نفسه بعض الشيء : « حسنا ، ان ذلك لشرف عظيم حقا . »

وتابع اليهودي كلامه : « انه سوف يفوز بكل ما يحتاج اليه . ولسوف يضعونه في السجن الحجري ، يا تشارلي ، مثل سيد ماجد . أجل ، مثل سيد ماجد ! ويقدمون اليه الجعة كل يوم ، وسيكون في جيبه مال . لكي يلعب به لعبة النقش والطغراء ، ان لم يستطع ان ينفقه . »

فصاح بايتس : « لا ! اصحيح ما تقول ؟ »

فأجابه فاجين : « من غير ريب . ولسوف نكلف محاميا كبيرا ، يا تشارلي ، واحدا من اولئك الذين وهبوا اعظم قدر من طلاقة اللسان ، بالدفاع عنه ، ولسوف يلقي هو بنفسه خطابا ايضا ، اذا شاء ، ولسوف نقراه جميعا في الصحف : « المراوغ الماكر .. عاصفة من الضحك ... وفي هذه اللحظة ضحكت هيئة المحكمة في قوة وعنف » اليس كذلك ، يا تشارلي ، اليس كذلك ؟ »

فضحك المعلم بايتس : « ها ! ها ! ان ذلك سوف يكون شيئا مسليا جدا ، الست تمن رايي يا فاجين ؟ انا اقول ان « المراوغ » خليق به ان يزعجهم ازعاجا كبيرا ، الست تعتقد ذلك ؟ »

فصاح فاجين : « تقول خليق به ؟ قل انه سوف يزعجهم ... انه سوف يزعجهم من غير ريب ! »

فكرر تشارلي فاركا يديه : « آه ، طبعا . انه سوف يزعجهم من غير ريب . »

فصاح اليهودي مصوبا عينيه على تلميذه : « يخيل الي اني اراه في هذه اللحظة . »

ـ « وانا ايضا ! » كذلك صاح تشارلي بايتس . « ها ! ها ! ها ! وانا ايضا . ان ارى ذلك كله امامي ـ أقسم لك بروحي ـ يا فاجين . يا له من

مشهد مضحك !.. مشهد مضحك الى حد فظيع ! ان جميع ذوي اللمم المستعارة* ليحاولون ان يظهروا بمظهر الجد والرصانة ، وان جاك داوكينز ليخاطبهم في لهجة حميمة مطمئنة وكأنه نجل القاضي نفسه يلقي خطبة بعد طعام الغداء .. ها ! ها ! ها ! »

والواقع ان مستر فاجين كان قد دغدغ مزاج صديقه الصغير الغريب الاطوار دغدغة بارعة الى حد جعل المعلم بايتس ـ الذي كان بادىء الامر ميالا الى اعتبار «المراوغ» السجين ضحية بائسة ـ ينظر اليه الآن بوصفه الممثل الرئيسي في مشهد تمثيلي نابض بأروع الفكاهة واغربها . فاذا به ينتظر بفارغ صبر ذلك الوقت الذي ستتاح فيه لصديقه القديم تلك الفرصة الملائمة ، الى أبعد حدود الملاءمة ، لاظهار كفاءاته واثباتها .

وقال فاجين : « يتعين علينا ان نعرف ، بطريقة رشيقة ما، كيف نستطلع اخباره واحواله . دعني افكر . »

فسأله تشارلي : « ما رايك في أن اذهب أنا لاداء هذه المهمة ؟ »

فاجابه فاجين : « لا ، لن اسمح بذلك ولو اعطيت العالم كله . ابلغَ بك الجنون ، الجنون المطبق ، يا عزيزي ، مبلغا يجعلك تفكر في الذهاب الى ذلك المكان بالذات حيث ... لا ، يا تشارلي ، لا . يكفينا أن نخسر في المرة الواحدة رفيقا واحدا . »

فقال تشارلي في ابتسامة ساخرة : « انت لا تعني انك تعتزم الذهاب بنفسك ، في ما أحسب . »

فأجابه فاجين وهو يهز براسه : « لن يكون ذلك ملائما جدا . »

ـ « اذن فلماذا لا ترسل هذا الشخص اللطيف الجديد ؟ » كذلك سأله المعلم بايتس واضعا يده على ذراع نوح . « ان احدا من الناس لا يعرفه . »

فقال فاجين : « لا بأس في هذا ان لم يكن لديه اي اعتراض ... »

فقاطعه تشارلي : « اعتراض ! وعلى اي شيء يمكن ان يعترض ؟ »

ـ « ليس ثمة ما يمكنه ان يعترض عليه ، يا عزيزي . » كذلك قال فاجين ملتفتا الى مستر بوتلر : « اجل ، ليس ثمة ـ حقا ـ ما يمكن ان يعترض عليه . »

فلاحظ نوح ، مرتدا نحو الباب ، هازا راسه في جزع مشوب بالتفكير : « أوه ان لي ما اقوله في هذا الموضوع ، كما تعلم ... لا ، لا ، لست اريد شيئا من ذلك . انه لا يقع ضمن دائرة اختصاصي . »

فتساءل المعلم بايتس وهو ينظر الى جسد نوح المهزول في كثير من

* يقصد القضاة .

الاشمئزاز : « وما دائرة اختصاصه ، يا فاجين ؟ الفرار حين يكون ثمة بلاء ، والتهام جميع المآكل حين يجري كل شيء على ما يرام ؟ اهذا هو اختصاصه؟»

فقال مستربوتلر : «لا بأس . ولا تأخذ حريتك مع الذين يفوقونك رتبة، ايها الغلام الصغير ؟ والا وجدت نفسك وقد ضللت الطريق . »

وضحك المعلم بايتس ضحكا قويا جدا لهذا التهديد الباهر حتى لقد انقضت فترة من الوقت قبل ان يوفق فاجين الى الاعتراض لكي يظهر لمستر بوتلر انه لن يتعرض لايما خطر محتمل اذا ما الم بمخفر الشرطة . لقد قال له انه لما كان ايما تقرير لم يرفع بعد الى العاصمة عن المسألة الصغيرة التي سبق له ان تورط بها او ايما وصف لشخصه فان احدا لن يذهب به الظن – في ارجح الراي – حتى الى القول بانه قصد الى هناك التماسا لملجأ يفيء اليـه . وانه اذا ما تنكر على نحو حسن فان تلك البقعة لن تعرضه لاخطار اعظم من التي تعرضه لها اية زاوية اخرى من زوايا لندن قد يزورها ، وهكذا تصبح تلك البقعة آخر بقعة يمكن للمرء ان يفترض أن من الممكن له ان يلجأ اليها بملء ارادتـه .

واقتنع مستر بوتلر بهذه الحجج بعض الشيء ، ولكنه ناء فـي المقام الاول تحت وطأة خوفه من فاجين ، فأعلن استعداده ، آخر الامر ، على كره منه شديد ، للقيام بهذه المهمة . وبناء علـى توجيهـات فاجين سارع الـى الاستعاضة عن ملابسه بجلباب سائق عربة ، وبنطال قصير مخيط من مخمل قطني ، وطماقين جلديين ، وكانت كلها في متناول يد اليهودي . ليس هذا فحسب ، بل لقد زود بقبعة لبادية مزدانة ببطاقات اجتياز بوابـة المكوس ، وبسوط سائق عربة نقل . حتى اذا تزيا بهذا الزي كان عليه ان يدخل الى مخفر الشرطة على الوجه الذي يفترض بغلام ريفي مقبل من سوق « كونفنت غاردن » ان يدخل الى هناك اشباعا لفضولـه . واذ كان من السذاجـة ، والخرق ، والضمور بحيث يصلح لاداء هذا الدور احسن مـا يكون الاداء ، فان مستر فاجين لم يشك لحظة في ان التوفيق الكامل سوف يكون حليفه .

حتى اذا تمت هذه الترتيبات كلها احيط علما بالعلامات الضرورية التي يستطيع بواسطتها ان يتعرف شخص «المراوغ الماكر» ، ثم قاده المعلم بايتس، خلال سلسلة من الأزقة المظلمة الملتوية ، الى ما قبل «باو ستريت» بخطوات معدودات . وبعد ان وصف له موقع المخفر على وجه الضبط ، وارفق ذلك بتوجيهات مفصلة حول الطريقة التي يتعين عليـه ان يصطنعهـا فـي السير قدما حتى آخر المجاز ، وكيف ان عليه حين يصل الى الفناء ان يدخل الباب القائم في أعلى السلم اليمنى ، ويرفع قبعته عند ولوجه الحجرة . . . بعد ان انجز المعلم بايتس هذا كله سأله أن يتابـع طريقـه ، بمفرده ، علـى جنـاح

السرعة ، مؤكدا له انه سوف ينتظر عودته عند نقطة افتراقهما .

وسرعان ما نفذ نوح كلايبول ، او مستر بوتلر ــ كما يشاء القارىء ــ تلك التعليمات التي تلقاها ، والتي كانت ــ باعتبار معرفة المعلم بايتس بالمنطقة معرفة بعيدة ــ مضبوطة الى درجة مكنته من الوصول الى مخفر الشرطة من غير ان يسأل سؤالا ، او يتوقف في بعض الطريق مرة واحدة . وهكذا الفى نفسه وسط خضم من الناس ، معظمهم نساء ، حشروا معا في حجرة قذرة كريهة الهواء اقيم في طرفها الاقصى منبر يفصله عن سائرها حاجز خشبي ، ووضع في محاذاة جدارها ، الى اليسار ، مقعد طويل خاص بالمتهمين ، ونصب في وسطها قفص خاص بالشهود ، على حين نهضت منضدة القضاة الى اليمين . وكانت هذه البقعة الاخيرة ، ويا لهولها ورهبتها ، معزولة عن سائر اجزاء الحجرة بفاصل يحجب هيئة المحكمة عن اعين الغوغاء ، ويترك لهؤلاء ، أن يتخيلوا (اذا استطاعوا) جلال العدالة وابهتها .

ولم يكن يجلس على المقعد الطويل غير امراتين اثنتين كانتا تومئان براسيهما لاصدقائهما المعجبين ، بينما كان كاتب المحكمة يتلو بعض الافادات لرجلين من رجال الشرطة ولرجل مدني كان منحنيا فوق المائدة . وكان يقف متكئا على درابزون مقعد المتهمين سجان يقرع انفه ، في توان ، بمفتاح ضخم ، ولا يكف عن ذلك الا حين يضطر الى كبت المتبطلين كلما نزعوا ، في غير ما مبرر ، الى تجاذب اطراف الاحاديث ، داعيا اياهم الى التزام الصمت ، والا حين يرفع بصره في تجهم لكي يأمر امراة ما « بأن تخرج ذلك الطفل من الحجرة » كلما كدر وقار العدالة بصيحات واهنة نصف مخنوقة بشال الام ، يطلقها طفل صغير مهزول . كانت الحجرة حبيسة الهواء فاسدته ، وكانت الجدران ملوثة قذرة ، وكان السقف مسودا كله . وكان فوق رف المستوقد تمثال نصفي قديم يعلوه السخام ، وكانت فوق مقعد المتهمين ساعة جدار يكسوها الغبار ــ وهي الشيء الوحيد الذي بدا هناك وكأنه يجري كما ينبغي له ان يجري . ذلك بأن الفجور او الفقر ، أو الالفة لكل من الفجور والفقر ، كانت قد خلفت على جميع الكائنات الحية المجتمعة هناك صبغة ليست اقل اثارة للاشمئزاز من الطبقة الدهنية الغليظة التي كست كل شيء غير حي تأملوه في عبوس .

واجال نوح طرفه في ما حوله ، بكثير من اللهفة والقلق ، بحثا عن « المراوغ » . ولكن على الرغم من انه كان ثمة عدة نساء يصلحن لان يكن امهات او اخوات لتلك الشخصية البارزة ، واكثر من رجل قد يظن المرء انه يشبه اباها شبها قويا ، فان عيني نوح لم تقع ثمة على ايما امرىء ينطبق عليه الوصف الذي زود به لمستر داوكنز انطباقا كاملا . وانتظر في ترقب

وقلق حتى احيلت المراتان الى المحاكمة ، فغادرتا الحجرة في زهو وافتخار. وسرعان ما سُري عنه بعد ذلك لدُنْ ظهور سجين آخر احس نوح لاول وهلة بأنه لا يمكن ان يكون احدا غير الشخص الذي استهدفه بزيارته تلك .

لقد كان هو ، حقا ، مستر داوكينز الذي دخل الحجرة وردنا سترته الفضفاضة مردودان الى أعلى كالعادة ، ويده اليسرى في جيبه ، وقبعته في يده اليمنى ، وتقدم السجانَ في مشية متمايلة لا سبيل الى وصفها البتة. وبعد ان استوى على مقعد المتهمين، تساءل بصوت مسموع ليعرف «لاي غرض وضع في ذلك المركز المخزي » . . .

فقال السجان : « اخرس ! اتريد ان تخرس ؟ »

فأجابه المراوغ : « انا رجل انكليزي ، الست انكليزيا ؟ فأين هي امتيازاتي ؟ »

فرد عليه السجان قائلا : « سوف تنال امتيازاتك في وقت قريب جدا. ولسوف تنال معها مرقا منضوحا بالفلفل ايضا . »

فأجابه مستر داوكنز : « سنرى ما الذي سوف يقوله وزير الداخلية للقضاة اذا لم انل امتيازاتي . والآن ، ماذا ؟ ما هذه القصة كلها ؟ اني سوف اكون شاكرا للقضاة اذا ما بتوا في هذه القضية الصغيرة ، ولم يكرهوني على الانتظار حتى يفرغوا من قراءة الصحف ، ذلك اني مرتبط بموعد مع سيد ماجد في المدينة . ولما كنت رجلا وفيًا بالوعد ، حريصا على اصطناع اشد الدقة في شؤون العمل ، فأنه سوف يمضي لسبيله اذا لم اصل في الموعد المضروب ، ومن يدري فقد تقام دعوى عطل وضرر على اولئك الذين حالوا بيني وبين الذهاب . لا ، لا ، ارجو ان لا نضطر الى ذلك ! »

حتى اذا انتهى الى هذه النقطة ، تظاهر بان لديه تحفظات كبيرة في ما يتعلق بالمحاكمة التي ستجري بعد قليل ، فسأل السجان ان يذكر له «اسمي الرجلين الماكرين اللذين تتالف منهما هيئة المحكمة . » . وهو سؤال دغدغ النظارة الى حد جعلهم يضحكون ضحكا قلبيا يكاد لا يقصر في هذه الصفة عن الضحك القلبي الذي كان خليقا بالمعلم بايتس ان يستغرق فيه لو قدر له ان يسمع ذلك السؤال .

فصاح السجان : « اخرس ! »

فتساءل أحد القاضيين : « ما هذه القضية ؟ »

ــ « قضية نشل ، يا صاحب الفضيلة . »

ــ « هل سبق للغلام ان اقتيد الى هنا قبل اليوم ؟ »

فأجابه السجان : « لا بد انه قد فعل مرات عديدة . ولقد نزل ، غير مرة ، ضيفا على اماكن اخرى . انا اعرفه جيدا ، يا صاحب الفضيلة . »

فصاح « المراوغ » وهو يدون هذه الملاحظة : « اوه ، انت تعرفني ،

اليس كذلك ؟ حسن جدا » هذه قضية تشويه للشخصية ، على اية حال ! »
وهنا ضجت الحجرة كرة اخرى بضحك داو ، وبصيحة تدعو الى الصمت .

وقال كاتب المحكمة : « والآن ، اين الشهود ؟ »

فاضاف المراوغ : « آه ، هذا صحيح . اين هم ؟ اني احب ان اراهم . »

وما هي غير لحظات حتى اجيب الى سؤله ، اذ تقدم في الحال شرطي كان قد راى السجين يقحم يده في جيب رجل مجهول ، وسط حشد من الناس ، بل وينتزع منها منديلا . ولكن لما كان ذلك المنديل منديلا قديما جدا فقد اعاده الى موضعه بعد ان جربه على تقاطيع وجهه . من اجل ذلك القى القبض على « المراوغ » حالما وفق الى الدنو منه . حتى اذا فتش « المراوغ » المذكور وجدوا معه علبة سعوط فضية كان اسم صاحبها منقوشا على غطائها . وبعد مراجعة « دليل القضاء » اكتشفوا عنوان صاحب العلبة ذاك ، واذ كان موجودا هناك في تلك اللحظة فقد اقسم ان علبة السعوط هي ملكه ، وانه كان قد افتقدها بالامس ، لحظة انفصل عن الحشد المشار اليه في السطور السابقة . وكان قد لاحظ ايضا فتى يشق طريقه في قوة وعنف ، وسط الحشد ، وان ذلك الفتى كان هو السجين الواقف امامه .

فقال القاضي : « اعندك سؤال تحب ان تطرحه على الشاهد ، ايها الغلام ؟ »

فاجابه المراوغ : « انا لن احط من قدر نفسي بالنزول الى مستوى التحدث معه . »

— « اعندك ما تريد أن تقوله كائنا ما كان ؟ »

— « هل سمعت فضيلته يسالك ما اذا كان لديك ما تقوله ؟ » كذلك سال السجان « المراوغ » الصامت وهو يكزه بمرفقه .

فقال المراوغ ، وهو يرفع بصره في ذهول : « التمس عفوك ، هل كنت تتحدث الي ، يا صاحبي ؟ »

— « انا لم ار في حياتي متشردا شابا بكل معنى الكلمة مثل هذا الغلام ، يا صاحب الفضيلة . » كذلك لاحظ الشرطي بابتسامة عريضة . « هل تعتزم ان تقول ايما شيء ، ايها المحتال الصغير ؟ »

فاجاب المراوغ : « لا ، لان هذا المكان ليس هو دكان العدالة . والى ذلك ، فان محامي يتناول هذا الصباح طعام الفطور مع نائب رئيس مجلس العموم ، ولكني سوف أقول بعض الاشياء ، في مكان آخر ، وكذلك سيفعل هو ايضا ، وسيفعل عدد كبير جدا ومحترم جدا من معارفي ، وبهذا ساجعل هذين القاضيين يتمنيان لو انهما لم يولدا قط . اوه لو انهما كلفا خادميهما

ان يشنقاهما على مشجبي قبعاتهما قبل ان يتركاهما يجيئان الى هنا هـذا الصباح ليحاولا ان يفعلا مثل ذلك بي . اني سوف . . . »

فقاطعه الكاتب : « كفى ! يحال المتهم الى المحاكمة ، في غير تردد . اخرجوه من هنا . »

فقال السجان : « هيا ، تحرك ! »

فاجابه المراوغ ، وهو يمـر راحة يده على قبعته : « حسن ، حسن ، سوف اتحرك . آه (ووجه الخطاب الى هيئة المحكمة) ، لا تحاولوا ان تظهروا بمظهر المروع الخائف ، فلن يفيدكم ذلك شيئا . اني لن ارحمكم البتة ، لـن ارحمكم مقدار ذرة . ولسوف تدفعون الثمن غاليا ، يـا رفاقي الرائعين . انا لن ارضى ان اكون محلكم ولو قدمتم الي ثروات الارض كلها ! ولن ارضى ان اتمتع الآن بالحرية ، حتى ولو ركعتم على قدمي وتوسلتم الي ان افعل . هيا ، انقلوني الى السجن ! اخرجوني من هنا !»

قال المراوغ هذه الكلمات ، واجاز لنفسه ان يقـاد من قبة قميصه ، متوعدا ـ حتى انتهى الى الفِناء ـ بأن يعمل عـلى اثارة هـذه القضية في البرلمان . ثم تبسم في وجه الشرطي ابتسامة عريضة ، في كثـير من المرح والرضا عن النفس .

حتى اذا رآه نوح يلتقى في زنزانة لا يشاركه اياها احد ، انقلب عائدا بأقصى سرعته الى حيث كان قد فارق المعلم بايتس . وبعد ان انتظر هنـاك فترة يسيرة التحق به ذلك السيد الشاب . الذي كان قـد استنكف ، فـي تعقل وحكمة ، عن الظهور الا بعد ان اجال بصره في الشارع بحذر واحتراس ، من ملاذ امين كان قد اعتصم فيه ، والا بعد ان استيقن ان ايما شخص وقح لم يكن يتبع صديقه الجديد .

واغذ الشابان الخطى عائدين لكي ينبئا مستر فاجين بأن « المراوغ » قد وقف موقفا يشرف نشأته وتربيته ، وانه على وشك ان يكتسب شهـرة ماجـدة .

الفصل الرابـع والاربعون
وفيه يحين وقت ايفاء نانسي بعهدها لروز مـا يلي ولكنها لا توفق الى ذلك

وعجزت نانسي ، برغم تمرسها البعيد بفنـون المكر والرياء ، عن ان تخفي الاثر الذي تركه في نفسها وعيها للخطوة التي قامت بها اخفاء كاملا . لقد تذكرت ان اليهودي الداهية وسايكس الوحشي قد اسرا اليهـا بخطط كانا قد كتماها عن سائر الرفـاق ، لثقتهمـا الكـاملة بانهـا امينة لا ترقى

اليها شكوكهما البتة . والواقع ان تلك الخطط كانت دنيئة الى ابعد الحدود، وان واضعيها كانا يائسين أعظم اليأس ، وان مشاعرها نحو فاجين كانت ترشح بأشد الحقد (اذ كان فاجين هذا هو الذي قادها ، خطوة خطوة ، الى هاوية الجريمة والبؤس التي لا سبيل بعد الى الفرار منها) . ومع ذلك فقد كانت تمر بنانسي اوقات يرق فيها قلبها حتى على فاجين نفسه ؛ خشية ان يفضي ادلاؤها بأي سر من تلك الاسرار الى وقوعه في القبضة الحديدية التي طالما اجتنبها ، وخشية أن يسقط آخر الاخر (برغم انه يستحق مثل هذا المصير كل الاستحقاق) بسبب منها هي .

ولكن هذا لم يكن غير مجرد هذيان عقل عاجز عن الانفصال انفصالا كليا عن الرفاق القدماء والذكريات القديمة ، برغم قدرته على التركيز، تركيزا ثابتا ، على غرض واحد ، وتصميمه على ان لا يصرف عن ذلك ايا ما كان السبب . وكان خليقا بمخاوفها على سايكس ان تغريها ، اغراء أشد ، بالتراجع ما بقي المجال متسعا للتراجع . ولكن الم تكن قد اشترطت ان يظل سرها مصونا غاية الصيانة ؟ الم تكن قد احجمت عن اعطاء أضأل الادلة التي كان في ميسورها أن تؤدي الى اكتشاف مخبأه ؟ الم تكن قد رفضت ، حتى من أجله هو ، ملاذا من كل الجريمة وكل البؤس اللذين طوقاها من اقطارها ؟.. وهل ثمة ما تستطيع ان تفعله اكثر من ذلك !؟ وهكذا وطدت عزمها واتخذت قرارها .

وعلى الرغم من أن جميع مناظراتها العقلية انتهت الى هذه النتيجة نفسها ، فقد فرضت نفسها عليها ، مرة تلو مرة ، وخلفت آثارها ايضا . وما هي غير أيام معدودات حتى غدت اشد شحوبا وهزالا . كانت في بعض الاحيان لا تلقي بالا الى ما يجري من حولها او لا تشترك في احاديث كانت من قبل تشارك فيها بصوت مدو يعلو على كل صوت . وكانت في بعضها الآخر تضحك في غير مرح ، أو تضج من غير ما داع او معنى . بل لقد كانت في أحيان اخرى (وكثيرا ما كان يحدث ذلك بعد بضع لحظات) تجلس صامتة كئيبة النفس مستغرقة في التأمل والتفكير ، وراسها مسند بين يديها، بينا كان مجرد الجهد الذي توقظ به نفسها ينم ، على نحو اقوى حتى من هذه الدلائل ، عن قلقها وعن أن افكارها مشغولة بقضايا مختلفة جدا وبعيدة جدا عن تلك التي يبحثها رفاقها .

وكانت ليلة الاحد . و قرع جرس اقرب كنيسة معلنا الوقت . وكان سايكس وفاجين يتحدثان ، ولكنهما تمهلا لكي يصغيا . ورفعت الفتاة بصرها من المقعد الخفيض الذي جثمت فوقه ، واصغت هي الاخرى ايضا . كانت الساعة الحادية عشرة .

ـ « بعد ساعة واحدة ينتصف الليل ! » كذلك قال سايكس ، رافعا حجاب النافذة الخشبي لكي يلقي نظرة الى الخارج . ثم انقلب عائدا الى مقعده واضاف : « انها ليلة دامسة الظلام ، كثيرة الغيوم ، ايضا ، ليلة صالحة للعمل ! »

فأجابه فاجين : « آه ! ومن المؤسف ان لا يكون لدينا ، يا عزيزي بيل، عمل جاهز نقوم به . »

فقال سايكس في صوت أجش : « لقد اصبت للمرة الاولى في حياتك. الواقع ان هذا مؤسف ، خاصة وان مزاجي الليلة من النوع المساعد . »

وتنهد فاجين ، وهز رأسه في قنوط .

فقال سايكس : « ان علينا أن نعوض الوقت الضائع حين يصبح كل شيء في وضعه الطبيعي. هذا كل ما اعرفه . »

ـ « تلك هي الطريقة التي يحسن بالمرء أن يتكلم بها . » كذلك اجابه فاجين ، مغامرا بالتربيت على كتفه . « ان الاستماع اليك يُدخل البهجة على نفسي . »

فصاح سايكس: «يُدخل البهجة على نفسك، اليس كذلك!؟ حسنا، فليكن!»

فضحك فاجين ، وكأن هذا التنازل البسيط قد سرّى عنه : « ها ! ها ! ها ! انك الليلة في احسن احوالك ، يا بيل ! اجل ، في احسن احوالك!»

ـ « انا لا أستشعر اني في احسن احوالي حين تضع براثنك الهرمة الذاوية على كتفي . فارفعها عني . » قال سايكس ذلك وازاح يد اليهودي عن كتفه .

فقال فاجين عاقدا العزم على أن لا يستسلم للغضب : « انها تثير اعصابك ، يا بيل . انها توحي اليك بفكرة الاعتقال ، اليس كذلك ؟ »

فأجابه سايكس : « توحي الي بأن يد الشيطان تعتقلني ! ان الارض لم تحمل فوق سطحها رجلا آخر له مثل وجهك هذا ، الا ان يكون ذلك الرجل اباك . وأحسب انه يكوي الآن شعر لحيته الحمراء الشائبة ، الا اذا كنت قد تحدرت من صلب الشيطان ، مباشرة ، من غير ان يكون بينكما اي اب . وهو شيء لن استغربه البتة . »

فلم يجب فاجين عن هذه المجاملة بشيء ما . ولكنه جذب سايكس من ردن سترته ، وأومأ بأصبعه الى نانسي التي كانت قد انتهزت فرصة الحديث الذي أوردناه آنفا فاعتمرت بقلنسونها واخذت اهبتها للانصراف .

فصاح سايكس : « هالو ! نانس ! الى اين تمضي الفتاة في مثل هذه الساعة من الليل ؟ »

ـ « لن اذهب الى مكان بعيد . »

فرد سايكس قائلا : « اي جواب هذا ؟ الى اين انت ذاهبة ؟ »

ـ « اقول لك اني لن اذهب الى مكان بعيد . »
فرد سايكس كرة اخرى : « وانا اسألك الى اين ؟ هل تسمعينني ؟»
فاجابته الفتاة : « لست ادري الى اين ؟»
ـ « اذن ، فانا ادري !» قال سايكس ذلك بدافع من العناد اكثر مما له بسبب من اعتراضه على ذهاب الفتاة الى حيث يروق لها ان تذهب . « انك سوف تذهبين الى لا مكان . اجلسي !»
فاجابته الفتاة : « انا استشعر شيئاً من الضيق . واني اريد ان استنشق بعض الهواء الطلق . »
فقال سايكس : « اطلي براسك من النافذة . »
فقالت الفتاة : «ليس ثمة هواء كاف هناك . انا اريد ان استنشقه في الشارع . »
ـ « اذن فلن يكون لك ذلك . » اطلق سايكس هذا التوكيد ونهض فاقفل الباب ، وانتزع المفتاح منه ، ونزع القلنسوة عن راس نانسي ، وقذف بها الى قمة خزانة عتيقة ، ثم اضاف : « مكانك ! في استطاعتك الآن انتبقي حيث انت ، ايه ؟»
فقالت الفتاة وقد غلب الشحوب على وجهها : « ان قذف القلنسوة الى هناك ليس كافيا لحملي على البقاء . ماذا تعني يا بيل ؟ اتدري ما الذي تفعله ؟»
ـ « اعرف ما الذي اف ... اوه ! » كذلك صاح سايكس ، ملتفتا الى فاجين : « انها خارجة عن طورها ، كما تعلم ، والا لما جرؤت على التحدث الي هكذا . »
ـ « انك سوف تدفعني الى الاقدام على عمل يائس !» كذلك غمغمت الفتاة واضعة يديها على صدرها وكانها تريد بذلك ان تكبح ، عنوة ، انفجارا عنيفا ما . « دعني اذهب ، هل تنوي ان تدعني ؟ في هذه الدقيقة ... في هذه اللحظة !»
فقال سايكس : « لا !»
فصاحت نانسي ، ضاربة الارض بقدمها : « قل له ان يدعني اذهب يا فاجين . من الخير له ان يفعل ذلك . من الخير له ان يفعل . هل تسمعان ما اقول ؟»
فكرر سايكس مستديرا في كرسيه لكي يواجهها : « هل نسمع ما تقولين ! اجل ! ولو قد سمعتك نصف دقيقة اخرى فعندئذ يأخذ الكلب بخناقك على نحو ينتزع منك ذلك الصوت العاوي . ما الذي اصابك ، ايتها السليطة ؟ ما الذي اصابك ؟»
فقالت الفتاة في حرارة بالغة : « دعني اذهب !» ثم انها قعدت على

الارض، قرب الباب ، واضافت : « بيل ، دعني أذهب ! انت لا تدري ما الذي تفعله ؟ انت لا تدري من غير ريب . دعني اذهب ساعة واحدة ليس غير . دعني . . . دعني !»

فصاح سايكس ممسكا بذراعها في خشونة : « اقطعوا أطرافي عضوا عضوا ان كنت لا أعتقد ان الفتاة قد أصابها مس من جنون . انهضي !»

ـ « لن أنهض حتى تدعني أذهب . . . لن انهض حتى تدعني أذهب . . لا ، لا، لن انهض ابدا !» كذلك صاحت الفتاة . فتأملها سايكس لحظة ، منتظرا الفرصة الملائمة ، ثم كتفها فجأة ، وساقها وهي تناضل وتقاوم ، الى حجرة صغيرة مجاورة حيث جلس على مقعد خشبي طويل ، والقى بها على أحد الكراسي ، وثبتها فيه بالقوة . فراحت تقاومه حينا ، وتتوسل اليه حينا ، حتى أعلنت الساعة الثانية عشرة . وعندئذ كفت عن المقاومة ، مرهقة منهوكة القوى . وبعد ان حذرها سايكس ، مستعينا بشتائم كثيرة ، من ان تقوم بأية محاولة اضافية الى مغادرة البيت تلك الليلة ، تركها لكي تسترد هدوءها على مهل . ومضى ليجتمع الى فاجين .

ـ « أف ! » كذلك قال سارق البيوت وهو يمسح العرق عن وجهه . « يا لها من فتاة غريبة الى أبعد الحدود !»

فأجابه فاجين وامارات التفكير العميق مرتسمة على وجهه : « في استطاعتك ان تقول ذلك ، يا بيل . في استطاعتك ان تقول ذلك .»

فسأله سايكس : « ما الذي جعلها تتشبث بفكرة الخروج من البيت هذه الليلة ، في ما تعتقد ؟ قل ! لا بد انك تعرفها اكثر مني . ما الذي عنته بذلك ؟ »

ـ « العناد . عناد المرأة ، في ما أحسب يا عزيزي .»

فهز سايكس : « حسنا ، انا أحسب انه العناد، ايضا. لقد ظننت اني قد روضتها ، ولكنها لا تزال ضارية كشأنها من قبل .»

فقال فاجين متفكرا : « بل انها اشد ضراوة . انا لم أشهدها قط على هذه الحال من قبل ، ولمثل هذا السبب الواهي . »

فقال سايكس : « وانا كذلك . ويخيل الي انه لا يزال في دمها مسحة من تلك الحمى ، وان تلك المسحة لن تفارقها البتة ، اليس كذلك ؟»

ـ « محتمل جدا .»

فقال سايكس : « سوف افصد عروقها وأستخرج منها بعض الدم ، من غير ان أزعج الطبيب ، اذا عادت الى مثل هذا كرة اخرى !»

فهز فاجين رأسه على نحو معبر ، معلنا موافقته على هذا الضرب من المعاملة .

وقال سايكس : « كانت تحوم حولي طوال النهار وطوال الليل ايضا عندما كنت ممددا على ظهري ، في حين نأيت انت بجانبك عني مثل ذئب شرير ، وهل انت غير ذئب شرير ؟ ولقد كانت دائما معسورة محرومة من المال ، وانا اعتقد ان ذلك قد ازعجها واثار اعصابها بطريقة ما ، وان بقاءها حبيسة هنا ، هذه المدة كلها ، قد هاجها ... الست تقرني على هذا ؟»

فأجابه اليهودي في همس : « ذلك عين الصواب ، يا عزيزي . صه !»

ولم يكد يرسل هذه الكلمات حتى برزت الفتاة نفسها وجلست في مقعدها السابق . كانت عيناها حمراوين متورمتين ، وكانت تتمايل الى أمام والى وراء ، وتهز براسها . وبعد فترة يسيرة انفجرت بالضحك .

ـ « ها قد انقلبت الان الى الضفة الاخرى !» كذلك صاح سايكس ، ملقيا على رفيقه نظرة تمور بدهش بالغ .

واومأ فاجين براسه اليه وكأنه يسأله ان يغض الطرف عنها مؤقتا . وما هي غير دقائق معدودات حتى استعادت هدوءها المألوف . وبعد ان همس فاجين في اذن سايكس انه ليس ثمة ايما خوف من انتكاسها تناول قبعته وتمنى له ليلة طيبة . حتى اذا بلغ باب الحجرة وقف متمهلا ، واجال بصره في ما حوله ثم سأل ما اذا كان ثمة من سينير له الطريق وهو يهبط السلم المظلمة .

فقال سايكس ، الذي كان يحشو بيبته بالتبغ : « انيروا له الطريق . فلسوف يكون من المؤسف جدا ان يدق عنقه على انفراد بدلا من ان يمتع بذلك جمهور المشاهدين . انيروا له الطريق ! »

فتبعت نانسي الرجل العجوز هابطة السلم وفي يدها شمعة . حتى اذا انتهيا الى المدخل وضع اصبعه على شفتيه ثم دنا من الفتاة وقال في همس :

ـ « ما بك ايتها العزيزة نانسي ؟»

فأجابته الفتاة في همس ايضا : « ماذا تعني ؟»

فقال فاجين : « السبب في ذلك كله... اذا كان هو (واشار بسبابته المعروقة الى الطابق الاعلى) قاسيا عليك الى هذا الحد (انه وحش ، يا نانسي ، وحش ضار) فلماذا لا ...»

ـ « ماذا ؟ » كذلك قالت الفتاة حين امسك فاجين عن الكلام ، وفمه يكاد يمس اذنها ، وعيناه تحدقان الى عينيها .

ـ « فلندع هذا الان . اننا سوف نتحدث عنه في ما بعد . ان لك في شخصي صديقا يا نانسي ، صديقا وفيا . وفي متناولي وسائل ... وسائل هادئة ومأمونة . واذا شئت الانتقام من اولئك الذين يعاملونك مثل كلب ـ ماذا ؟ مثل كلب !بل اسوأ مما يعامل كلبه ، لانه يمازحه في بعض الاحيان ـ

فتعالي الي . اقول تعالي الي . انه مجرد كلب ابن يومه ، اما انا فتعرفينني منذ القدم ، يا نانسي !»

ـ « انا اعرفك جيدا ! » كذلك أجابته الفتاة ، من غير ان تظهر اقل انفعال . طاب مساؤك .»

وانكمشت مرتدة الى الوراء حين حاول فاجين ان يضع يده على يديها، ولكنها اعادت قولها « طاب مساؤك » كرة اخرى ، في صوت ثابت ، وردت على نظرته الوداعية بايماءة ترشح بالفطنة والذكاء ، وأوصدت الباب بينهما.

ومشى فاجين نحو منزله ، مستغرقا في الافكار التي كانت تجول في ذهنه . لقد راودته ـ لا مما حدث منذ لحظات ، برغم ان ذلك قد نزع الى تأييده في ما ذهب اليه ، ولكن في بطء وعلى نحو تدريجي ـ فكرة تقول بأن نانسي ، التي أرهقتها وحشية سارق البيوت ، قد اولعَتْ بصديق جديد. وكان في التغير الذي طرأ على سلوكها ، وفي غيباتها المتكررة عن البيت من غير ما رفيق ، واستهتارها النسبي بمصالح العصابة بعد ان كانت تبدي نحوها في يوم من الايام اهتماما حماسيا، مضافا الىذلك اصرارها اليائس على مغادرة البيت تلك الليلة في ساعة بعينها . . اقول كان في هذا كله ما زكى ذلك الظن ، وكاد ان يجعله ، في نظره على الاقل ، مسألة يقينية . وليس من ريب في أن هذا المحبوب الجديد لم يكن بين أتباعه وجنوده* . وخليق به ان يكون ، بمساعدة شخص مثل نانسي ، كسبا ثمينا . واذن فيجب (كذلك قال اليهودي في ذات نفسه) أن تُضمَن خدماته في غير ابطاء .

وكان ثمة هدف آخر ، هدف أشد قتاما ، يجب أن يحقق . وتفصيل ذلك ان سايكس كان يعرف من الاسرار اكثر مما ينبغي ، واذا كانت سخرياته الفظة لم تجرح فاجين الا جراحا خفية فليس معنى هذا ان تلك الجراح لم تثر حنقه وسخطه . ويحسن بالفتاة ان تعلم احسن العلم انها اذا تخلت عنه** فلن تنجو البتة من جام غضبه الذي سينصب على راس محبوبها الجديد ، وقد يؤدي ذلك الى تشويه بعض اعضائه بل الى ازهاق روحه . وقال فاجين في ما بينه وبين نفسه : « اليس من اكثر الامور احتمالا أن توافق ـ بعد شيء من الاقناع ـ على دس السم له ؟ فقد فعلت النساء من قبل ، اشياء مماثلة ، بل اشياء أسوأ ، لتحقيق الهدف نفسه . وهكذا يتوارى الوغد الخطر ، الرجل الذي اكرهه ، وأضمن لنفسي رجلا آخر يحل محله . ليس هذا فحسب، بل ان سلطاني على الفتاة، يدعمه علمي بجريمتها، لن يعرف حدودا البتة .»

دارت هذه الخواطر في خَلَد فاجين خلال الفترة القصيرة التي

* اي رفاق اليهودي وافراد عصابته .

** اي عن سايكس .

مضاها ، منفردا ، في حجرة سارق البيوت . وكانت تحتل المقام الاول من تفكيره عندما انتهز الفرصة التي اتيحت له بعدُ فجس استعداد الفتاة لمثل هذا بتلك التلميحات المتقطعة التي أطلقها عند توديعها . ولم يلاحظ آنذاك اي تعبير عن الدهش ، او اي تظاهر بالعجز عن فهم المعنى الذي قصد اليه . لقد فهمته فهما واضحا . كانت نظرتها الاخيرة تنبيء بذلك .

ولكن من يدري ، فلعلها ان تأبى الاشتراك بمؤامرة تقضي على حياة سايكس ، وكانت هذه احدى الغايات الرئيسية التي يتعين عليه بلوغها . وقال فاجين في ما بينه وبين نفسه ، وهو ينقلب عائدا الى بيتـه : « كيف استطيع ان اضاعف سَيطرتي عليها ؟ اية قوة جديدة استطيع ان اكتسبها ؟»

ان امثال هذه العقول لخصبة بالحيل . وسرعان ما بدا لفاجين راي : اذا استطاع ــ من غير أن ينتزع منها اي اعتراف ــ أن يراقبهـا مراقبـة شديدة ، ويكتشف سر التغير الطارىء علىعواطفها، ويتهددها باطلاع سايكس على القصة كلها (سايكس الذي كانت تهابه وتخشاه على نحو استثنائي) اذا لم ترضَ بالعمل وفقـا لخططه ... الا يكفل له هـذا كله موافقتهـا وخضوعها ؟

وقال فاجين بصوت يكاد يكون عاليا : « بلى ، انه سوف يكفله . انهـا لن تجرؤ عندئذ عـلى الرفض . لا، لن تجرؤ حين يتهـدد الخطر حياتهـا نفسها ... حياتها نفسها ! لقد اتضحت السبيل امام ناظري . لقد وجدت الوسيلة ، ولسوف أضعها موضع الاستعمال . اني سأخضعك لسلطاني رغم كل شيء !»

والقى الى الوراء نظرة قاتمة وأومأ بيده ايماءة متوعدة نحو البقعـة التي ترك فيها الوغد الوقح ، ومضى لسبيله ، شاغلا يديه المعروقتين بثنـايا ثوبه البالي : لقد تشبث بها بقبضة محكمة ، وكأن عدوا بغيضا كان ُيسحق مع كل حركة من حركات اصابعه .

الفصل الخامس والاربعون
فاجين يكلف نوح كلايبول بمهمة سرية

وافاق العجوز ، صباح اليوم التالي ، مبكرا ، وانشأ ينتظر بفارغ صبر ظهور رفيقه الجديد الذي اقبل آخر الامر ــ بعد تأخر بدا وكأنه لانهائي ــ وشن على طعام الصباح غارة شرهة .

ــ « بوتلر » كذلك قال فاجين ، وهو ُيدني احـد الكراسي ويجلس قبالة موريس بوتلر .

فأجابه نوح قائلا : « حسنا ، ها انا ذا . ما المسالة ؟ لا تكلفني بأي عمل قبل أن افرغ من الاكل . هذه علة كبيرة في هذا البيت . ان المرء لا يجد هنا،

في ايما يوم من الايام ، وقتا كافيا لتناول الطعام .»

ــ « في استطاعتك ان تتحدث وانت تأكل ، اليس في استطاعتك هذا ؟» كذلك قال فاجين لاعنا َنهَم صديقه الصغير العزيز من اعمق اعماق قلبه .

فقال نوح وهو يقطع شَر ْحة خبز هائلة : « اوه ، طبعا ، في استطاعتي ان أتحدث . واني لاستمتع بالطعام اكثر حين اتحدث . أين شارلوت ؟»

فقال فاجين أ « لقد خرجت . لقد بعثت بها هذا الصباح مع الفتاة الاخرى ، لاني اردت أن أخلو بك .»

فقال نوح : « اوه ! كنت أتمنى لو انك أمرتها بأن تعد لنا شيئا من الخبز المحمص بالزبدة اولا . حسنا ، تحدث . ان حديثك لن يزعجني .»

لقد بدا ، في الواقع ، وكأنه لا يستشعر كبير خوف من ان يزعجه شيء . اذ كان واضحا انه قعد وقد وطن النية على اداء عمل جدي .

وقال فاجين : « لقد حالفك التوفيق امس ، يا عزيزي . جميل جدا ! ستة شلنات وتسعة بنسات في اليوم الاول نفسه ! ان سلب الاطفال سوف يعود عليك بثروة طائلة .»

فقال مستر بوتلر : « لا تنس ان تضيف الى ذلك ثلاث قدور تتسع كل منها لنصف ليتر ، وعلبة حليب واحدة .»

ــ «لا، لا، يا عزيزي. لقد كانت القدور الثلاث عملا من اعمال العبقرية، ولكن علبة الحليب كانت رائعة من الروائع الكاملة .»

فلاحظ مستر بوتلر في لهجة ملاطفة : « يخيل الي ان ذلك يعتبر شيئا حسنا بالنسبة الى مبتدىء من المبتدئين . لقد أخذت القدور من فوق درابزون عال جدا ، وكانت علبة الحليب واقفة وحدها خارج حانة من الحانات . ولقد تراءى لي انها قد تصدأ بسبب من المطر ، او تصاب بزكام، كما تعلم جيدا . ايه ؟ ها ! ها ! ها ! »

وتظاهر فاجين بالضحك من اعماق قلبه . واذ كان مستر بوتلر قد استنفد ضحكته فقد التهم سلسلة من اللقم الضخمة مجهزا على رغيفه الاول المفروش بالزبدة ، وشرع في التهام الاخر .

وقال فاجين منحنيا فوق الطاولة : « اني اريد ان اكلفك ، يا بوتلر العزيز ، بمهمة تحتاج الى كثير من العناية والحذر .»

فأجابه بوتلر : « ولكن حذار ان تلقي بي الى الخطر ، او ترسلني بعد اليوم الى مخفر من مخافر البوليس . ذلك شيء لا يلائمني . اجل لا يلائمني . اني احيطك علما بهذا منذ البدء .»

فقال اليهودي : « ليس في ما سأكلفك به اقل خطر ... لا، لا، على الاطلاق . كل ما سأسالك اياه هو ان تتجسس على امراة .»

فسأله مستر بوتلر : « امرأة عجوز ؟»

فأجابه فاجين : « امرأة شابة .»

فقال بوتلر : « في استطاعتي أن أفعل ذلك على أحسن وجه . ولقد كنت ، ايام دراستي ، مرائيا ماكرا من الدرجة الاولى . لماذا تريدني ان اتجسس عليها ؟ ليس لكي ....»

ـ « ليس لكي تفعل أي شيء . ولكن لكي تخبرني الى اين تذهب ، وبمن تجتمع ، ـ واذا كان ذلك ممكنا ـ ما الذي تقوله . عليك ان تتذكر الشارع ، اذا تم ذلك في شارع ، وتتذكر البيت اذا تم ذلك في بيت ، وهكذا تعود حاملا الي جميع المعلومات التي تستطيع جمعها .»

فسأله نوح ، واضعا كوبه على الطاولة ، محدقا النظر الى وجه مستخدمه في لهفة : « ما الذي ستعطينني اياه لقاء ذلك ؟»

فقال فاجين راغبا في اثارة شوقه الى ذلك القنص : « اذا اجدت في اداء ذلك أعطيتك جنيها ، يا عزيزي . اجل جنيها . وهذا ما لم يسبق لي ان دفعته قبل اليوم لقاء اية مهمة ليس فيها اي شيء مادي يمكن ان يكسب .»

وهنا سأله نوح : « ومن هي ؟»

ـ « واحدة منا .»

فصاح نوح مغضنا انفه : « يا الهي ! انت ترتاب في امرها ، اليس كذلك ؟»

فأجابه فاجين : « لقد وجدت اصدقاء جددا ، يا عزيزي ، وان علي ان اعرف من هم هؤلاء الاصدقاء .»

فقال نوح : « فهمت . لمجرد الاستمتاع بمعرفتهم ، اذا كانوا قوما محترمين ، ايه ؟ ها ! ها ! ها ! اني أنا الرجل الذي تستطيع الاتكال عليه.»

فصاح فاجين وقد ازدهاه نجاح اقتراحه : « لم أشك لحظة في انك ذلك الرجل .»

فأجابه نوح : « طبعا ! طبعا ! اين هي ؟ اين يتعين علي ان انتظرها ؟ الى اين يتعين علي ان أذهب ؟»

فقال فاجين : « سوف انبئك بهذا كله ، يا عزيزي . ولسوف اقول لك ، في الوقت المناسب ، من هي تلك المراة . كن انت على قدم الاستعداد، واترك الباقي لي .»

وتلك الليلة ، والليلة التالية ، والليلة التي عقبتهما ، انتظر الجاسوس منتعلا حذاء ، عالي الساق ، مرتديا بزته الخاصة بحوذيي عربات النقل ، وهو على اتم الاستعداد للانطلاق عند اول اشارة من فاجين . وانقضت ست ليال ... ست ليال طويلة مضنية ... وفي كل منها كان فاجين

برجع الى البيت بوجه مكفهر ، و يلمع في ايجاز الى ان الاوان لما يحن بعد . حتى اذا كانت الليلة السابعة انقلب الى بيته في وقت مبكر اكثر من المعتاد، وعلى وجهه امارات تهلل لم يوفق الى اخفائها . وكان اليوم يوم أحد .

وقال فاجين : « انها سوف تغادر البيت الليلة ، وانا واثق من انها ستمضي لاداء المهمة التي نحن بصددها . ذلك بأنها كانت وحدها طوال النهار ، ولن يعود الرجل الذي تخشاه قبل انبلاج الصباح . تعال معي . عجل !»

ونهض نوح واثبا ، من غير ان يقول كلمة ما . ذلك بأن اليهودي كان من الاهتياج البالغ بحيث اعداه ، فاذا بالاهتياج يستبد به هو ايضا . لقد غادرا البيت خلسة ، وبعد أن اجتازا مسرعَين تيها من الشوارع الملتوية انتهيا آخر الامر الى نزل ادرك نوح لأول وهلة انه النزل الذي كان قد بات فيه ليلة وصوله الى لندن .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ، وكان الباب موصدا . وسرعان ما فتح على مفصلاته في رفق حين أطلق فاجين صَفرة خفيضة.ثم انهما دخلا من غير ضجة ، واغلق الباب خلفهما .

وما لبث فاجين واليهودي الشاب الذي فتح الباب لهما أن وجها نظر نوح — من غير ان يغامرا حتى بالتهامس ، مستعيضين عن الكلمات باشارات خرساء — الى اللوح الزجاجي ، وأومـآ اليه بأن يتسلق ويلقي نظرة على الشخص الذي في الحجرة المحاذية .

فسألهما في همس : « أهي المرأة ؟»

فأومأ فاجين براسه ان نعم .

فهمس نوح : « انا لا أستطيع رؤية وجهها بوضوح . انها منكسة راسها ، وان الشمعة من ورائها . »

— « ابق هناك . » كذلك همس فاجين . وأومأ الى بارني فانصرف . وما هي غير لحظة حتى دخل الغلام الحجرة المحاذية ، وبحجة ازالة الجزء المحترق من فتيل الشمعة نقلها الى الوضع المنشود . ثم تحدث الى الفتاة حاملا اياها ، بذلك ، على رفع راسها .

وصاح الجاسوس : « اني اراها الان . »

— « في وضوح ؟»

— « في وضوح يجعلني قادرا على معرفتها من بين الف شخص . »

وسارع الى الهبوط ، عندما ُفتح باب الحجرة ، وخرجت الفتاة منها. وقاده فاجين نحو حاجز خشبي صغير ، حيث اختبأ خلف ستارته ، وحبسا انفاسهما ريثما مرت على بضع خطوات من مخبأهما ، وخرجت من الباب الذي كانا قد دخلا من خلاله .

ـ « هست ! لقد ذهبت !» كذلك قال الغلام الذي كان يمسك بالباب.

وتبادل نوح النظرات مع فاجين ، وانطلق لاحقا بالفتاة .

وهمس الغلام : « الى اليسار . انتقل الى اليسار والزم ذلك الجانب من الطريق . »

وفعل نوح ما طلب اليه . وعلى ضوء المصابيح راى وجه الفتاة المبتعدة ، وكانت تتقدمه مسافة ما . وتقدم مقتربا منها بقدر ما وجد الاقتراب حكيما ، ولزم الجانب المقابل من الشارع لكي يكون في ميسوره ان يراقب حركاتها على نحو افضل . وتلفتت حولها في عصبية ، مرتين او ثلاث مرات ، وكفت مرة عن الجري لكي تجيز لرجلين كانا يسيران في أثرها ان يتخطياها . لقد بدت وكأنها كانت كلما تقدمت استجمعت شتات شجاعتها، وامست خطواتها أرسخ واثبت . وحافظ الجاسوس على نفس المسافة النسبية الفاصلة بينهما ، وتبعها ، غير رافع عينيه عنها .

الفصل السادس والاربعون
اللقاء يتم في الموعد المضروب

دقت ساعات الكنائس الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين عندما برز شخصان فوق « جسر لندن » . اما الاول ، وكان يتقدم بخطى رشيقة سريعة ، فكان شخص امراة تجيل الطرف في ما حولها بقلق وكأنها تبحث عن مخلوق تتوقع ان تراه . واما الآخر فكان شخص رجل اتخذ سبيله خلسة في أكثف الظلال التي وقع عليها ، وعدل خطاه ـ على مسافة بعينها ـ وفقا لخطاها : فهو يقف حين تقف ، حتى اذا تحركت كرة اخرى ، استأنف السير خلسة ، ولكن من غير ان يجيز لنفسه البتة ، في حرارة مطاردته تلك ، ان يتخطاها بأية حال . وهكذا اجتازا الجسر ، من ال «ميدلسيكس» الى شاطىء «ساري»» وعندئذ التفتت المراة الى الوراء وقد خابت في ما يبدو جميع محاولاتها اللاهفة للاهتداء الى من تبحث عنه بين السابلة . كانت الحركة مفاجئة ، ولكن الشخص الذي كان يراقبها لم يؤخذ بها على حين غرة ، ذلك بانه انكمش الى احد المنعزلات التي تعلو دعائم الجسر ، وانحنى فوق الحاجز لكي يخفي وجهه على نحو افضل . بينا اجاز للمراة ان تنتقل الى الرصيف المقابل . حتى اذا امست المسافة التي تفصلها عنه متساوية او تكاد لتلك التي فصلتها عنه من قبل ، انزلق هابطا في هدوء، وراح يتبعها من جديد . وعند منتصف الجسر كفت عن السير . فكف الرجل عن السير ايضا .

كانت ليلة دامسة الظلام . وكان اليوم غير مغر بمغادرة البيوت ، وفي

تلك الساعة وذلك المكان لم يكن غير اناس قليلين يضطربون في الشوارع . وهؤلاء انفسهم كانوا يجرون في سرعة بالغة ، من غير ان يروا في اغلب الظن ، ومن غير أن يلاحظوا على وجه التحقيق ، لا المراة ولا الرجل الذي كان يتعقبها . ان منظرهما لم يكن من ذلك الضرب الذي يلفت فضول اولئك اللندنيين المعدمين الذين اتفق ان اتخذوا سبيلهم فوق الجسر ، تلك الليلة ، بحثا عن قنطرة باردة او زريبة لا باب لها حيث يستطيعون ان يضطجعوا. وهكذا وقف الرجل والفتاة ، هناك ، صامتين ، فلا هما يتكلمان ولا احد من السابلة يوجه اليهما الخطاب .

وران على النهر ضباب عمق وهج النيران المضرمة فوق بعض الزوارق الصغيرة الراسية عند ارصفة النهر المختلفة ، وزاد المباني القاتمة الناهضة على الضفتين ظلمة وابهاما . وانتصبت المخازن العتيقة المكسوة بالسخام ، في كلتا الناحيتين ، مظلمة كئيبة من بين مجموعة السطوح وحيطان الجملون المتلاصقة ، وقطبت متجهمة فوق المياه التي كانت من السواد بحيث عجزت حتى عن عكس اشكالها الخرقاء على صفحتها . كان برج كنيسة سانت سايفييور القديمة، وبرج سانت ماغنوس المستدق الطرف ــ اللذان كانا منذ عهد بعيد حارسي الجسر العتيق الجبارين ــ منظورين في الظلام. ولكن غابة المراكب تحت الجسر ، وابراج الكنائس المتناثرة بأعداد كبيرة فوقه ، كانت كلها محجوبة عن الانظار أو تكاد .

وكانت الفتاة قد خطت بضع خطوات جيئة وذهوبا ، على نحو متكرر قلق ــ من غير ان يرفع المراقب اللامنظور عينيه عنها لحظة واحدة ــ عندما قرع ناقوس كاتدرائية القديس بولس الثقيل معلنا وفاة يوم جديد . وعلى القصر ، وموطن الفسوق ، والسجن ، ومستشفى المجاذيب ، على حجرات الولادة والموت ، والصحة والمرض ، ووجه الجثة المتخشب ورقاد الطفل الهادىء ... على هذه كلها خيم منتصف الليل .

ولم تكد تنقضي دقيقتان على دقات الساعة المعلنة انتصاف الليل ايضا حتى ترجلت فتاة ، يصحبها سيد ماجد اشيب ، من احدى عربات الاجرة على مسافة يسيرة من الجسر . وبعد ان صرفا العربة اتخذا سبيلهما نحوه مباشرة. وما وطئا رصيف الجسر حتى وثبت الفتاة وهرعت اليهما .

ومشيا قدما، مجيلين الطرف حولهما، وقد بدت على محياهما سيماء امل ضئيل لم يكن يطمع في التحقق الا قليلا . وفجأة انضم اليهما هذا الرفيق الجديد ، فكفا عن السير مطلقين صيحة دهش ، ما لبثا ان كبحاها في الحال . ذلك بأن رجلا يرتدي ثيابا ريفية انتهى الى مقربة دانية منهما ــ بل لقد حاذاهما محتكا بهما ــ في تلك اللحظة بالذات .

وقالت نانسي متعجلة : « ليس هنا . انا اخشى ان اتحدث اليكما هنا

فلنبتعد عن الطريق العام .. ولنهبط درجات السلم هنـاك ! »

وفيما كانت تنطق بهذه الكلمات ، مشيرة بيدها الى الناحية التي رغبت اليهما ان يمضيا اليهـا ، التفت الريفي خلفه ، ثم سألهم في لهجة جافيـة لاي غرض يحتلون الرصيف كله ، وتابع سبيله .

وكانت الدرجات التي اومات اليها الفتاة هي تلك التي تشكـل السلم المفضية الى النهر ، عند ضفة « ساري » ، وعلـى نفس جانب الجسر الذي تقوم فوقه كنيسة سانت سايفيبور . والى تلك البقعة اسرع الرجل ، المتخذ مظهر اهل الارياف ، من غير أن يلمحه احد منهم . وبعد ان القـى على ذلك الموضع نظرة فاحصة شرع يهبط درجات السلم .

والواقع ان تلك السلم هي جزء مـن الجسر . وهـي تتألف مـن ثلاث مجموعات من الدرجات . وفي ادنى المجموعة الثانية يهبط الجدار الحجري القائم الى اليسار وينتهي عند نصف عمود مربع زخرفي مواجه للتايمس . وعند هذه النقطة تتسع الدرجات الدنيا وتَعْرُض ، بحيث ان الشخص الذي ينعطف عند زاوية الجدار تلك تتعذر رؤيته على ايما شخص آخر يتفق ان يكون واقفا آنذاك على السلم فوقه ، ولو بدرجة واحدة ليس غير . وحين بلغ الريفي هذه النقطة اجال بصره في ما حوله باهتياج . واذ لم ير اي مخبأ افضل ، واذ كان ثمة متسع كاف بسبب من انحسار المد ، فقد انزلق جانبا ، موليا ظهره نصف العمود المربع ، وانشأ ينتظر ، موقنا او يكاد انهم لن يهبطوا الى ادنى من ذلك ، وانه حتى ولو لم يستطع ان يسمع ما سيقولون فسوف يكون في ميسوره ان يتعقبهم على نحو مأمون .

وتصرم الوقت في ذلك المكان المنعزل تصرما بطيئا جـدا ، وتعاظمت لهفة الجاسوس على النفاذ الى دوافع تلك المقابلة المختلفة اختلافا كليا عمـا كان قد صور له .. حتى لقد اعتبر غير مرة انه خسر المعركة ، واقنع نفسـه باحد امرين : انهم كانوا قد وقفوا عند نقطة اعلى بكثير ، او انهم كانـوا قد فزعوا الى بقعة اخرى مختلفة بالكلية لعقد اجتماعهم الملفع بالاسرار . وكان على وشك الانبثاق من مخبأه والعودة صعدا الى الجسر عندما سمع وقـع اقدام اولا ، ثم بعد ذلك مباشرة اصواتا تنطلق من على بضع خطوات من اذنيه .

ورفع نفسه ملتصقا بالحائط وحبس انفاسه ، وانشـأ يصغـي فـي انتبـاه شديد .

ــ « هذا البعد كاف . » كذلك قال صوت كان من الواضح انه صوت السيد الماجد . « انا لن ادع السيدة الصغيرة تمضي الى ابعد من ذلك . ولقد كان خليقا بكثير من الناس ان يرتابوا فيك ارتيابا عظيما حتى ولو لـم تمعني في الابتعاد اكثر مما فعلت . ولكنـي راغب ، كمـا ترين ، فـي ان

اســــايرك . »

فصاح صوت الفتاة التي كان الجاسوس قد اقتفـــى اثرهـا : « ان تسايرني ! انت رجل بالغ اللطف ، حقا ، يا سيدي . ان تسايرني ! حسنا ، حسنا ، ما لنا وهذا . »

فقال السيد الماجد بلهجة احفَلَ باللطف : « ولكـن لاي غرض يمكـن ان تكوني قد سقتِنا الى هذا المكان الغريب ؟ لمَ لم تدعيني اتحدث اليك ، هناك فوق ، حيث يوجد ضوء ، وشيء من الحركة، بدلا من ان تجيئي بنا الى هذا الجحر المظلم الموحش ؟ »

فأجابته نانسي : « لقد قلت لك من قبل اني كنت اخشـى ان اتحدث اليكما هناك . انا لا ادري لذلك سببـا . » وارتعـدت الفتـاة . « ولكنـي استشعر الليلة من الخوف والرعب ما لا اكاد اقوى على احتماله . »

فسألها السيد الماجد الذي بدا وكانه يرثي لها : « الخوف من ماذا ؟ »

فاجابته الفتاة : « لست ادري . ولشد مـا اتمنـى لو دريت . لقـد ساورتني طوال النهار فكرات موت رهيبة ، واكفان ملطخة بالـدم ، وخوف احرقني وكانني اتقلب على نار . ولقد كنت اقرا الليلة كتابا قتلا للوقت ، فاذا بي المح الاشياء نفسها بين السطور . »

فقال السيد الماجد وهو يهدىء من روعها : « اوهـام . »

فاجابته الفتاة في صوت اجش : « لا ، ليست اوهاما . أقسم لك اني رايت كلمة « تابوت » مطبوعة في كل صفحة من صفحات الكتـاب بأحرف كبيرة سوداء . . اجل ، وهذه الليلة رايت الناس يحملون تابوتـا من تلـك التوابيت ويجرون به في الشارع على مقربة دانية مني . »

فقال السيد الماجد : « ليس ثمة اي شيء غير مألوف في هذا . فكثيرا ما مر بي اناس يحملون توابيت . »

فاجابته الفتاة : « تلك كانت توابيت حقيقية . اما هذا فلم يكن . »

كان ثمة في سيمائها شيء استثنائي الى درجة جعلت اوصال المستمع المتواري تنمّل وهو يصغي الى الفتاة تنطق بهذه الكلمـات ، وجعلت دمـه يجري باردا في عروقه . ولم يُسر عنه في اي يوم من الايام اكثر مما سري عنه حين سمع صوت السيدة الشابة العذب وهي تتوسل اليها أن تعتصـم بالهدوء ، وان لا تجيز لنفسها الاستسلام لمثل هذه الاوهام الرهيبة .

وقالت السيدة الشابة لرفيقها : « تحدثْ اليها في لطف . يا للمخلوقة المسكينة ! يبدو انها في حاجة الى ذلك . »

فصاحت الفتا ة: « لقد كان خليقا باصحابك الاتقيـاء المتشامخين ان يتلعوا اعناقهم ليروني كما انا هذه الليلة ، وليسمعونـي العظـات الزاخـرة

بالكلام على نار جهنم والانتقام الآلهي. آه ، يا سيدتي العزيزة ، لماذا لا يحاول اولئك الذين يزعمون انهم قطعان الله الخاصة ان يكونوا لطافا معنا ، نحن البؤساء المساكين ، مثلك انت ... انت التي تزهين بالشباب والجمال وبكل ما لا يملكونه هم ... انت التي يحق لك ان تكوني اكثر تكبرا منهم ، بعض الشيء ، بدلا من ان تكوني اشد تواضعا منهم بكثير ؟ »

فقال السيد الماجد : « آه ! ان المسلم ليوجه وجهه ، بعد ان يغسله جيدا ، نحو الشرق* ، عندما يصلي . اما اصحابنا الذين تتحدثين عنهم فانهم بعد ان يفركوا وجوههم بالعالم فركا يمسح عنها كل اثر من آثار الابتسام يتوجهون بمثل الاطراد نفسه نحو جانب السماء الاشد قتاما . ولو قد سئلت اي تفضل : ان تكون مسلما او ان تكون مسيحيا فريسيا** لأجبت بقولي : افضل ان اكون مسلما . »

وبدت هذه الكلمات وكأنها موجهة الى السيدة الشابة ، ولعل قائلها قصد بها الى ان يتيح لنانسي فرصة السيطرة على نفسها واستعادة رباطة جأشها . وما هي الا برهة يسيرة حتى خاطبها السيد الماجد قائلا :

ــ « انت لم تجيئي الى هنا مساء الاحد الماضي . »

فأجابته نانسي : « انا لم استطع ان اجيء . لقد احتجزت بالقوة البدنيــــة . »

ــ « ومن الذي احتجزك ؟ »

ــ « الرجل الذي حدثت السيدة الشابة عنه . »

فسألها السيد الماجد العجوز : « ارجو ان لا تكون الظنون قد ساورته فشعر انك على اتصال مع احد في ما يتصل بالموضوع الذي جاء بنا الى هنا ، هذه الليلـة .. »

فأجابته الفتاة هازة راسها : « لا . ان من العسير علي جدا ان اتركه من غير ان اخبره بالسبب الذي يحملني على ذلك . والواقع انه ما كان في امكاني ان اجتمع الى السيدة يوم اجتمعت بها لو لم اجرعه شيئا من صبغة الافيون قبل ان اغادر المنزل . »

فسألها السيد الماجد : « وهل أفاق قبل ان تعودي ؟ »

ــ « لا . ولم يرتب في امري لا هو ولا احد منهم . »

فقال السيد الماجد : « حسن . اصغي الآن الي . »

فأجابته الفتاة ، وقد تمهل لحظة : « انا على استعداد . »

---

* الواقع ان المسلم يوجه وجهه نحو الكعبة ، لا نحو الشرق . وقد تكون الكعبة الى جنوبه او الى شماله ، وقد تكون الى شرقه او الى غربه . (المعرب) .

** الفريسي : المنافق . المرائي .

فاستهل السيد الماجد كلامه قائلا : « ان هذه السيدة الشابة قد نقلت الي والى بعض الاصدقاء الآخرين الذين يستطيع المرء ان يثق بهم ما انبأتها به منذ اسبوعين تقريبا . وانا اعترف بأن الشكوك خامرتني بادىء الامر ، فتساءلت ما اذا كنت جديرة بأن اثق بك ثقة كاملة ام لا . ولكني اؤمن الآن ايمانا راسخا بأنك جديرة بذلك . »

فقالت الفتاة في حرارة : « اجل ، انا جديرة . »

فقال السيد الماجد : « اعيد القول اني اؤمن بهذا . ولكي اثبت لك اني نزاع الى الثقة بك انبئك في غير تحفظ اننا نعتزم ان ننتزع السر ، ايا ما كان ذلك السر ، بفضل مخاوف الرجل الذي يدعونه مونكس ، ولكن اذا ... اذا لم نستطع ان نفوز بذلك الرجل ، او اذا فزنا به ثم لم نستطع ان نحصل منه على ما نريد فعندئذ يتعين عليك ان تسلمي الينا اليهودي . »

فصاحت الفتاة مجفلة : « فاجين ؟ »

فقال السيد الماجد : « اجل . ان عليك ان تسلمي ذلك الرجل الينا. »

فأجابته الفتاة : « لن افعل ذلك ابدا ! لن افعل ذلك ابدا ! برغم انه الشيطان نفسه ، وبرغم انه كان بالنسبة الي اسوأ من الشيطان . لا ، انا لن افعل هذا ابدا . »

ــ « لن تفعلي هذا ؟ » كذلك قال السيد الماجد الذي بدا وكأنه قد استعد استعدادا كاملا لسماع ذلك الجواب .

فأجابته الفتاة : « ابدا ! »

ــ « قولي لي لماذا ؟ »

فأجابته الفتاة في حزم : « لسبب واحد .. لسبب واحد تعرفه السيدة ، ولسوف تؤيدني في هذا ــ انا واثقة من انها ستفعل ــ لانها عاهدتني على ذلك . ثم ان هناك سببا آخر : وهو انه ارتكب في حياته آثاما كثيرة ، وانني ارتكبت بدوري آثاما كثيرة . وهناك كثيرون تورطوا معنا في الشرور نفسها فلن اغدر بهم ... لا ، لن اغدر باولئك الذين كان في استطاعتهم ان يغدروا بي ، ولكنهم لم يفعلوا ، برغم خباثتهم كلها . »

فسارع السيد الماجد الى القول وكأن تلك النقطة كانت هي ما سعى الى الفوز به : « اذن ، ارشديني الى مونكس ، واتركي لي ان اتدبر امره بنفسي . »

ــ « واذا ما وشى بالاخرين ؟ »

ــ « في هذه الحالة أعدك ــ اذا ما استطعنا ان ننتزع الحقيقة منه ــ بأن لا أذهب بالمسألة الى ابعد من ذلك. فلا بد ان تكون في قصة حياة اوليفر الصغير أحداث من المؤلم عرضها على انظار الناس . وهكذا ما ان ننتزع

الحقيقة من فمه حتى نترك الآخرين وشانهم . »

فتساءلت الفتاة : « واذا لم يبح بها ؟ »

فأردف السيد الماجد : « عندئذ لن يقدم فاجين ذاك الى العدالة من غير موافقتك . وفي مثل هذه الحال سيكون بامكاني ، في ما اعتقد ، أن ابدي لك اسبابا جديرة بأن تدعوك الى منحنا تلك الموافقة . »

فتساءلت الفتاة : « هل تعاهدني السيدة على ذلك ؟ »

ـ « أجل ، اعاهدك ... اعاهدك بكل صدق واخلاص . »

فقالت الفتاة بعد صمت قصير : « ولن يعلم مونكس كيف عرفتما ما تعرفانـــه ؟ »

فأجابها السيد الماجد : « ابدا . ان هذه المعلومـات يجب ان تستعمل ضده بطريقة لا تمكنه من فهم مصدرها ولو على سبيل التخمين . »

فقالت الفتاة بعد فترة اخرى من الصمت : « لقد كنت كذابة ، ولقـد عشت منذ طفولتي بين الكذابين ، ولكني سوف أثق بكلامكما . »

وبعد ان اكد لها كل من السيد الماجد والسيدة الشابة ان في ميسورها ان تثق بهما شرعت في التحدث بصوت خفيض الى درجة جعلت من العسير على الجاسوس ان يكتشف حتى فحوى ما قالت ، فذكـرت اسـم النزل (الذي خرجت منه تلك الليلة، والذي منه اقتفيت آثارها)، ووصفت موقعه. ومن طريقة توقفها عن الكلام بين الفينة والفينة بدا وكأن السيـد الماجد كان يدون مذكرات سريعة عن المعلومات التي افضت بها اليه . حتى اذا اوضحت موقع البيت ايضاحا دقيقا وحددت افضل مكان تمكن مراقبته منـه من غير اثارة للانتباه ، والليالي والمواقيت التي كان من دأبه ان يختلف فيهـا اليه ، بدت وكأنها تفكر بضع لحظات لكي تستحضر في ذهنهـا صورة اوضح عـن سمات مونكس ومظهره .

ثم قالت : « انه رجل طويل القامة قوي البنية ، ولكنه مهزول بعض الشيء . وهو حين يمشي لا يفتأ يلتفت ذات اليمين حينـا وذات اليسار حينا . لا تنس هذا ، لان عينيه غائرتان في راسه على نحو لا تضارعه في العمق ايما عينين اخريين ، ومن هنا يكاد يكون في استطـاعتك ان تعرفـه بهذه العلامة الفارقة وحدها . اما وجهه فداكن ، مثل شعره وعينيه. وعلى الرغم من أن سنه لا يمكن ان تعدو السادسة والعشرين او الثامنة والعشرين فانه ذابل منهوك القوى . ويغلب على شفتيه ، عادة ، شحوب شديد ، وهما مشوهتان تبدو عليهما آثار اسنان . ذلك بانه يصاب بين الفينة والفينـة بنوبات رهيبة ، ويبلغ به الامر في بعض الاحيان ان يعض يديه ويغطيهما بالجراح ــ لماذا اجفلت ؟» كذلك قالت الفتاة ، وكفت عن الكلام فجأة .

فأجابها السيد الماجد ، متعجلا ، قائلا : « لم اعِ اني اجفلت . ارجوك ان تتابعي . »

فقالت الفتاة : « بعض هذه المعلومات استقيتهُ من اناس آخرين في النزل الذي حدثتك عنه ، ذلك بأني لم اره الا مرتين ، وفي كل منهما كان متلفعا بعباءة واسعة . واحسب ان هذا هو كل ما استطيع أن اقدمه من معلومات تساعدك على معرفته . ولكن قف .. » كذلك اضافت ، « ان على رقبته ، وفي مكان عال الى حد يمكنك من ان ترى جزءا منها تحت منديله عندما يدير وجهه ، اقول ان على رقبته .... »

فصاح السيد الماجد : « علامة عريضة حمراء ، ندبة او حرق ، اليس كذلك ؟ »

فقالت الفتاة : « عجيب جدا ؟ انت تعرفه اذن ! »

واطلقت السيدة صيحة دهش . واعتصموا كلهم بالصمت بضع لحظات الى حد مكن الجاسوس من ان يسمعهم يتنفسون في وضوح .

فقال السيد الماجد قاطعا الصمت : « احسب اني أعرفه . ويخيل الي، من خلال وصفك ، اني اعرفه عن غير ريب . سوف نرى ، ان كثيرا من الناس يتشابهون تشابها عظيما . ومن يدري ، فقد لا يكون هو الشخص نفسه . »

وفيما هو يتحدث على هذا النحو ، في لامبالاة مصطنعة ، خطا خطوة او خطوتين نحو الجاسوس المختبىء ، على ما ادرك هذا الاخير حين سمعه يغمغم في وضوح : « لا بد انه هو ! »

— « والآن ... » كذلك قال عائدا الى موضعه السابق ، على ما بدا من الصوت، « لقد اسديت الينا اعظم العون، ايتها الفتاة. وارجو ان تفيدي من ذلك. ما الذي استطيع ان اعمله لخدمتك ؟ »

فأجابته نانسي : « لا شيء » .

— « انك لن تصري على قول هذا . » كذلك رد عليها السيد الماجد في نبرة حنان كان خليقا بها ان تعطف فؤادا اقسى واشد تحجرا من فؤادها . « فكري الآن . قولي لي . »

فأجابته الفتاة ، وهي تذرف الدمع : « لا شيء ، يا سيدي . ليس في استطاعتك ان تفعل شيئا لمساعدتي . لم يبق ثمة اي امل لي .. اؤكد لك ذلك . »

فقال السيد الماجد : « انك انتِ التي توصدين باب الامل . ان الماضي لم يكن بالنسبة اليك غير هدر رهيب للطاقات الفتية المضيعة ، ولتلك الكنوز التي لا تقوم بمال والتي يمنحنا اياها الخالق مرة ثم يحبسها عنها بعد ذلك ، اما في ما يتصل بالمستقبل ففي استطاعتك ان تتعلقي بحبال الامل . انا لا اقول ان في طوقي أن أهبك طمانينة القلب والفكر ، لانك لن تفوزي بهذه

الطمانينة الا بمقدار ما تسعين في سبيلها . ولكن في استطاعتي ان ابحث لك عن ملجأ هادىء ، هنا في انكلترة ، او هناك في بعض البلدان الاجنبية ان كنت تخشين البقاء في الوطن . ليس هـذا فحسب ، بل اني لشديد التوق الى ان ابحث لك عن ملجأ كهذا . فقبل فجر غد، قبل ان يفيق هذا النهر على اولى ايماضات النهار ، سوف توضعين في مكان لن يكون في مقدور رفاقك السابقين ان يبلغوه بأية حال ، من غير ان تتركي وراءك اقل اثر ، وكانك زلتِ في هذه اللحظة عن ظهر الارض . هيا ! انا لن ادعك تعودين لتتبادلي كلمة واحدة مع ايما رفيق قديم ، او لتلقي نظرة واحدة على ايما مأوى قديم ، او لتتنفسي نفس الهواء الذي لا يعدو ان يكون بالنسبة اليك طاعونا وموتا . اهجري هذا كله ، ما بقي ثمة مجال وفرصة . »

فصاحت السيدة الشابة : « سوف تقنع الآن بذلك . انها تتردد ، كما استطيع ان أؤكد . »

فقال السيد الماجد : « أخشى ان تكوني مخطئة ، يا عزيزتي . »

فأجابت الفتاة ، بعد صراع باطني قصير : « انا لا اتردد ، يا سيدي . انا مشدودة بالاغلال الى حياتي القديمة . اني امقتها الان وابغضها ، ولكني لا استطيع التخلي عنها. لقد اوغلت في طريق الآثام حتى بلغت نقطة اللارجوع. ومع ذلك فلست ادري ، اذ لو انك تحدثت الي على هذا النحو منذ فترة ما اذن لسخرت من حديثك. ولكن. . . » واجالت طرفها في ما حولها باهتياج « هو ذا الخوف يستبد بي من جديد . ان علي ان ارجع الى البيت . »

ــ « البيت ! » كذلك كررت السيدة الشابة مفخمة كل حرف من حروف هذه الكلمة .

فأجابتها الفتاة : « اجل ، البيت ، يا سيدتي . الى ذلك البيت الذي شيدته لنفسي بكدحي الموصول طوال حياتي . دعني انصرف . اني عرضة للمراقبة . اذهب ! اذهب ! واذا كنت قد اسديت اليك اية خدمة فكل ما أسألك اياه هو ان تتركني ، وتدعني امضي لسبيلي على انفراد . »

فقال السيد الماجد وهو يطلق زفرة : « ليس ثمة امل . ومن يدري فلعلنا نعرض سلامتها للخطر ببقائنا هنا . وجائز ان نكون قد عقناها اكثر مما كانت تتوقع . »

فقالت الفتاة في حرارة : « اجل ، اجل ، لقد فعلتما . »

فصاحت السيدة الشابة : « اية نهاية يمكن ان تنتهي اليها حياة هذه المخلوقة البائسة ! »

فقالت الفتاة : « انظري امامك ، ايتها السيدة . انظري الى تلك المياه القاتمة . كم من مرة قرات عن اناس مثلي غاصوا في اللجة غير مخلفين نفسا بشرية واحدة تعنى بهم او تبكي عليهم . قـد يتم ذلك بعد سنوات ،

وقد يتم بعد اشهر معدودات ، ولكني لا بد صائرة الى هذا ، آخر الامر .»

فأجابتها السيدة الشابة منتحبة : « لا تتحدثي على هذا النحو ... ارجوك !»

فقالت الفتاة : « ان مثل هذا الكلام لن يطرق اذنيك بعد اليوم ، يـا سيدتي العزيزة . واسأل الله ان يقيك سماع هذه الاهوال وامثالها . طاب مساؤك ، طاب مساؤك !»

واستدار السيد الماجد .

فصاحت السيدة الصغيرة : « دونك هذا الكيس . خذيه كرمانا لي ، فقد تجدين فيه ما يعينك في ساعة الحاجة والبلاء .»

فأجابتها الفتاة : « لا ! انا لم افعل ذلك طمعـا في المـال . فدعيني احتفظ بهذه الفكرة . ولكن... أعطيني ، برغم ذلك ، شيئا كنت تلبسينه : فأنا اود ان آخذ شيئا . لا ، لا ، لست اريد خاتما ... بل اريد قفازيك او منديلك ... او اي شيء استطيع ان احتفظ به ذكرى منك ، ايتها السيدة اللطيفة . والآن ، فليباركك الله ! فليباركك الله ! طـاب مساؤك ، طـاب مساؤك ! »

وكان في الاهتياج العنيف الذي غلب على الفتاة وفي خوفهـا من ان افتضاح أمرها قد يعرضها للاضطهاد وسوء العذاب ما بدا وكأنه اقنع السيد الماجد بتركها ، نزولا عند رغبتها . وسمعت اصداء أقدام متراجعة، وصمتت الاصوات .

وسرعان ما برز شخصا السيدة الصغيرة ورفيقها فوق الجسر بعـد ذلك . لقد وقفا عند قمة السلم .

وصاحت السيدة الشابة وهي تصغي : « اسمع ! هل نادت ؟ لقـد حسبت اني سمعت صوتها .»

فأجابها مستر براونلو ، ملتفتا الى الوراء في كآبة : «لا ، يا حبيبتي . انها لم تتحرك ، ولن تتحرك الا بعد ان ننصرف .»

وتباطأت روز مايلي ، ولكن السيد العجوز وضع ذراعه في ذراعهـا ، وقادها في قوة رفيقة . حتى اذا تواريا عن النظر ارتمت الفتاة على طولها كله تقريبا فوق احدى درجات السلم الحجرية ، ونفّست عن التياع فؤادها بدموع سخينة .

وبعد فترة يسيرة نهضت ، وراحت ترتقي درجات السلم بخطى واهنة مضطربة . وظل الجاسوس الذاهل جامدا في موقعه لا يريم ، طوال بضع دقائق انسلخت بعد ذلك . حتى اذا استيقن ، بكثير من النظرات الحذرة الى ما حوله ، انه امسى وحده من جـديد انزلق من مخبأه في اناة ، وعـاد خلسة في محاذاة الجدار ، بمثل الطريقة التي كان قد هبط بها الى هناك .

وحين بلغ قمة السلم اختلس النظر غير مرة ليستوثق من ان احدا لا يراقبه . ومن ثم انطلق نوح كلايبــول بأقصى سرعته ، واتجــه نحو منزل اليهودي بأسرع ما استطاعت رجلاه ان تحملاه .

الفصل السابع والاربعون
عواقب وخيمـــة

كانت قد بقيت ساعتان اثنتان لانبلاج الفجر ، وهي الفترة التي يمكن ان تدعى في خريف العام، وبحق، جوف الليل، اذ تكون الشوارع صامتــة مهجورة ، واذ تبدو الاصوات نفسها وكأنها استسلمت للرقاد ، ويبدو التهتك والشغب وكأنهما قد اويا الى مضجعيهما ليحلما . في تلك الساعة الساكنة الصامتة بالذات ، كان فاجين ساهرا في جحـره المألوف ، مقطب الجبـين شاحب الوجه ، محمر العينين محتقنهما الى درجة بدا معهــا لا رجــلا من الرجال ولكن شبحا رهيبا غادر القبر منذ لحظة وقــد اقضت مضجعه روح شريرة .

لقد جثم قرب مستوقد بارد متدثرا بلحاف عتيق بال ، موجهــا وجهه نحو شمعة تتلاشى انفاسها فوق طاولة قريبة منه . كانت يده اليمنى مرفوعة الى شفتيه، وكان خلال استغراقه في التفكير منكبا على قرض اظافره الطويلة السوداء ، فتبدو في لثاته العاطلة عن الاسنان انياب قليلــة أشبه مــا تكون بانياب كلب او هرة .

وغط نوح كلايبول في نومــه وقد تمدد فوق حصير مفروش عــلى الارض . وكان الرجل العجوز يوجه اليه عينيه ، في بعض الاحيان ، لحظة من زمان ، ثم يردهما بعد ذلك الى الشمعة ، التي اظهرت (بفتيلهــا الطويل المسود المنثني على نفسـه انثناء كاملا تقريبا وشحمها الحار السائل على نحو متخثر فوق الطاولة) ان افكارها كانت مشغولة في مكان آخر .

ولقد كانت كذلك في الواقع ، فتحسره لاخفاق خطته الرائعة ، وكرهه للفتاة التي تجاسرت على مفاوضة قوم اغراب، وارتيابه المطلق في انها رفضت تسليمه ، وخيبة امله المريرة لضياع امله في الانتقام من سايكس ، وخوفه من الافتضاح والخراب والموت ، وغيظه الضاري القاتل الذي الهبه ذلك كله .. تلك كانت الفكرات المنفعلة التي راودت ذهن فاجين متعاقبــة في شبه دوامة خاطفة غير منقطعة ، بينا اعتلجت في فؤاده ضروب الخواطر الشريرة والنيات الاشد قذارة .

وظل قابعا هناك غير مبدل وضعه اقل تبديل ، وغير مبال بالزمن ــ في ما يبدو ــ أضال مبالاة ، حتى جذب أذنه الحادة وقع اقدام في الشارع .

ــ « واخيرا ! » كذلك غمغم فاجين ماسحا شفتيه الجافتين المحمومتين. واخيــرا ! »

وفيما هو يتكلم قرع الجرس في رفق . فارتقى السلم الى الباب ، ثم عاد لتوه يصحبه رجل متلفع حتى الذقن ، متأبط صرة . حتى اذا قعد هـذا الرجل وطرح معطفه عن كتفيه تكشف عن شخص سايكس البدين .

ــ «خذ !» كذلك قال ، واضعا الصرة على الطاولة . « اعتن بها عناية حسنة ، وحاول ان تفيد منها اقصى ما تكون الافادة. لقد شقيت في الحصول عليها شقاء عظيما ، وكنت احسب انه سيكون في امكاني ان اصل الى هنـا منذ ثلاث ساعات . »

ووضع فاجين يده على الصرة ، ثم اقفل عليها باب الخزانة وعاد الـى مقعده منغير ان ينبس بكلمة . ولكنه لم يرفع عينيه عناللص، لحظة واحدة، خلال ذلك كله . حتى اذا جلسا متقابلين، وجها لوجه، ركز بصره عليه ــ وقد ارتعدت شفتاه ارتعادا عنيفا، وعصفت بوجهه انفعالات استبدت به ــ تركيزا حمل سارق البيوت على رد كرسيه الى الوراء على نحو لا ارادي ، وانشأ يتأمل اليهودي وامارات الذعر العظيم بادية على وجهه .

وقال سايكس : « والآن ماذا ؟ لماذا تنظر الى الناس هكذا ؟ »

فرفع فاجين يده اليمنى ، وهز سبابته المرتعـدة في الهـواء . ولكن انفعاله كان من العنف بحيث فقد القدرة على الكلام مؤقتا .

ــ « يا للشيطان ! » كذلك قال سايكس متحسسا صدره في ذعر . « لقد اصابه مس من جنون . يتعين علي ان آخذ حذري هنا . »

فأجابه فاجين وقد استعاد القدرة على الكلام : « لا ، لا . لست ... لست انت الشخص المقصود يا بيل . انا .. انا لا الومك على شيء . »

ــ « اوه ، لا ، انت لم تفعل شيئا من ذلك ، اليس هذا صحيحـا ؟ » كذلك قال سايكس ، ناظرا اليه في تجهم ، ونقل غدارته ــ في تباه ــ الى جيب اقرب الى متناوله .

فقال فاجين مقربا كرسيه الى ادنى : « لدي شيء احب ان اقوله لك.. شيء سوف يقع في نفسك موقعا اشد من موقعه في نفسي . »

ــ « ماذا ؟ » كذلك قال اللص وفي وجهه سيماء تؤذن بعدم التصديق. « تكلم ! عجل ! والا أعتقدت نانسي اني هلكت . »

فنظر سايكس الى وجه اليهودي في ارتباك عظيم ؛ واذ لم يجد ثمـة اي تفسير لذلك اللغز ، انشب اظفـار يده الغليظة برقبة فاجين وانشأ يهزه هزا عنيفا .

وقال : « تكلم ولا تبطىء ! واذا لم تفعل اخمدت انفاسك خنقا . افتح فمك وقل ما تريد ان تقوله في كلمات واضحة . هيا ، انطق ، ايها الوغـد العجوز الهائل ؛ انطق ! »

فاستهل فاجين كلامه : « لنفرض ان الغـلام الراقـد هنـاك ... »

واستدار سايكس الى حيث كان نوح نائما ، وكأنه لم ينتبه اليـه من قبل . وقال : « حسنا ؟ » وهو يستعيد وضعه السابق .

فتابع فاجين كلامه : « لنفرض ان ذلك الغلام وشى بنـا .. افشـى سرنا جميعا ... فالتمس باديء الامر الاشخاص الذين لا بد منهم لتحقيق ذلك ، ثم عقد اجتماعا معهم في الشارع ليعطيهم اوصافنـا ، وليصف كـل علامة فارقة يمكن انيعرفونا بها، والوكر الذييستطاع القاء القبض علينا فيه باقصى السهولة واليسر . لنفرض انه اقدم على ذلك كله ، وانـه اقدم فوق هذا على كشف مؤامرة تورطنا كلنا فيها ، كثيرا او قليلا ... وانـه نعـل ذلك ارضاء لنزوة في ذات نفسه ... من غير ان يقبض عليه، ومن غير ان يقع في الشرك ، او يحاكم ، او يحرضه السجان عليه ويدفعه اليه بجعلطعامه مقصورا على الخبز والماء ..اجل ارضاء لنزوة فى ذاتنفسه ، واشباعا لشهوة من شهواته ، غير متورع عن التسلل الى الخارج في جوف الليل ليبحث عن اولئك الذين يضمرون لنا اشد العداء ، ويسعى بنا عندهم . هل تسمعني؟» كذلك صاح اليهودي ، وقد تطاير شرر الفيظ من عينيه . « لنفرض انـه اقدم على هذا كله ، فما الذي يكون ؟»

ــ « ما الذي يكون ؟» هكذا أجابه سايكس ، ثم اطلق يمينا هائلة : «اذا مـا ترك حيـا ريثمـا اصل ، فسوف أسحن جمجمته تحت عقب حذائي الحديدية حتى احيلها الى ذرات يبلغ عددها عدد شعر راسه ! »

فصاح فاجين صيحة كادت ان تكون زعيقا : « ولنفرض اني اقدمت **انا** على ذلك .. انا الدارف بأشياء لها اول وليس لها آخر ، والقادر على ان اشنق كثيرا من الناس بالاضافة الى نفسي !؟»

فأجابه سايكس وهو يكز اسنانه ، وقد ران الشحوب على وجهـه لمجرد الاقتراح : « لست ادري » . ولكني سوف افعل في السجن شيئـا خليقا به ان يصفدني بالأغلال . واذا ما حوكمتُ معك فـي وقت واحد فسوف انقض عليك بها في قلب المحكمة ، واطير دماغك امام الناس جميعا. ان ذلك سوف يزودني بقوة .. » كذلـك غمغم اللص وهـو يبرز ذراعـه المفتولة العضل ، « استطيع بها ان اسحق راسك وكأنَّ عربة نقل موسوقـة قد مشت فوقه ! »

ــ « احق ما تقول ؟ »

ــ « حق ؟ » كذلك قال سارق البيوت « جرِّبني ! »

ــ « ولنفرض ان المقدم على ذلك كان تشارلي ، او « المراوغ » ، او « بت » ، أو ...... »

فأجابه سايكس في نفاد صبر : « لست ابالي أيهم يقدم على ذلك . اني سوف انتقم بالطريقة نفسها من ايِّ واحد منكم كائنا من كان ! »

وحدق فاجين الى اللص ، ثم اومأ اليه بأن يعتصم بالصمت ، ثم انحنى فوق الفراش الممدود على ارض الحجرة ، وهز النائم لكي يوقظه . ومال سايكس الى امام من غير ان يغادر كرسيه ، وانتظر ويداه على ركبتيه وكأنه يتساءل في ذهول الام سوف ينتهي هذا الاستجواب كله وهذا الاعداد كلــه .

وقــال فاجين ، رافعا بصره على نحو ينم عن توقع شيطاني ، ومتحدثا في بطء وبتوكيد شديد : « بوتلر ! بوتلر ! يا للغلام المسكين ! انه مرهق ... مرهق من مراقبتها هذه المدة كلها ... اجل ، من مراقبتها **هي ، يا بيل .** »

فسأله سايكس وهو يرتد الى الوراء : « ماذا تعني ؟ »

فلم يجب فاجين بشيء ، ولكنه انحنى فوق النائم كرة اخرى ، وانهضه حتى امسى في وضع قاعد . حتى اذا كرر اسم نوح المستعار عدة مرات ، فرك عينيه ، وتثاءب تثاؤبة عريضة ثم اجال طرفه الوسنان في ما حوله .

فقال اليهودي وهو يشير خلال كلامه الى سايكس : « قص علي قصتك مرة اخرى .. اجل قصها مرة اخرى لكي يسمعها هو بأذنه . »

ــ « اية قصة ؟ » كذلك سأله نوح الناعس ، وهو يهز نفسه في نكد .

فقال فاجين ، وهو يمسك بسايكس من معصمه ، وكأنه يريد ان يحول بينه وبين مغادرة المنزل قبل ان يسمع ما فيه الكفاية : « قصتك مع .. مع نانسي .. لقد تبعتها ، اليس كذلك ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « حيث التقت شخصين ؟ »

ــ « هذا صحيح . »

ــ « سيدا وسيدة كانت قد زارتهما من تلقاء نفسها قبل ذلك ، وكانا قد سألاها ان تتخلى عن جميع رفاقها ، وعن مونكس اولا ، ففعلت ذلك .. وأن تصفه لهم ، ففعلت ... وان تدلهما على البيت الذي نجتمع فيه ونقصد اليه ، ففعلت ... واين يمكن ان يراقب احسن مراقبة ، ففعلت ... وفي اي وقت تذهب جماعتنا الى هناك ، ففعلت .. لقد فعلت ذلك كله . ولقد قالت ذلك كله ، حرفا حرفا ، من غير تهديد ، ومن غير تذمر ، اليس هذا صحيحا ؟ » كذلك صاح فاجين وقد ذهب الغيظ بصوابه او كاد .

فأجابه نوح وهو يحك راسه : « تماما . هذا ما حدث على وجه الضبط ! »

ــ « ما الذي قالاه عن الاحد الماضي ؟ »

فأجابه نوح متفكرا : « عن الاحد الماضي ! ولكني قلت لك ذلك من قبل . »

ـ « أعده على مسمعي كرة اخرى . . . اعده كرة اخرى ! » كذلك صاح فاجين مشددا قبضته على معصم سايكس ، رافعا ذراعه الاخرى الى فوق بينما كان الزبد يتطاير من بين شفتيه .

فقال نوح الذي بدا ، بعد ان زايله النعاس ، وكأنه عرف سايكس معرفة ضبابية : « لقد سألاها . . . لقد سألاها لماذا لم تأت ، يوم الاحد الماضي ، كما وعدت . فقالت انها لم تستطع . »

ـ « لماذا . . . لماذا ؟ قل له ذلك . »

فأجابه نوح : « لان بيل اكرهها على البقاء في المنزل . . بيل الذي سبق لها ان حدثتهما عنه من قبل . »

فصاح فاجين : « ثم ماذا ؟ ثم ماذا عن الرجل الذي سبق لها ان حدثتهما عنه ؟ اخبرْه بذلك . . اخبره بذلك ! »

فقال نوح : « حسنا . انها لم تستطع ان تغادر المنزل في سهولة بالغة من غير ان يعرف الى اين كانت ذاهبة . وهكذا فانها حين مضت اول مرة لزيارة السيدة ـ ها ! ها ! لقد اضحكتني حين قالت ذلك ، اجل لقد اضحكتني ـ اعطته شراب صبغة الافيون . »

فصاح سايكس متملصا من قبضة اليهودي في ضراوة : « يا لنار الجحيم ! دعني اذهب ! »

ورد العجوز عنه ، وخرج من الحجرة مندفعا ، واخذ يرتقي السلم وهو يتميز من الغيظ .

فصاح فاجين وهو يلحق به في اهتياج : « بيل ! بيل ! كلمة واحدة . . كلمة واحدة ليس غير . »

وكان خليقا بتلك الكلمة ان لا تلفظ لو وُفق سارق البيوت الى فتح الباب . ولكنه كا لا يزال واقفا عنده يلعن ويشد في عنف على غير طائل ، عندما اقبل اليهودي وهو يلهث .

وقال سايكس : « دعني اخرج . لا تتحدث الي ، فسوف يكون في هذا خطر عليك . دعني اخرج ، اقول لك ! »

فأجابه فاجين واضعا يده على القفل : « اعرني سمعك لاقول كلمة واحدة ! انك لن تلجأ . . . »

فسأله الآخر : « ماذا ؟ »

ـ « انك لن تلجأ الى العنف اكثر مما ينبغي ، اليس كذلك يا بيل ؟ »

كان الصبح يتنفس ، وكان ثمة قدْر من الضياء يمكن كلا الرجلين من رؤية وجه الآخر . وتبادلا نظرة خاطفة ، وكان في عينيهما كليهما نار ؟ يستطيع المرء ان يغفل عنها . »

ـ « أنا اقصد ، » كذلك قال فاجين منكشفا عن اعتقاده بأن كل تعمية كانت قد امست الآن غير مجدية . « انا اقصد انه يحسن بـك ان لا تصطنع العنف اكثر مما ينبغي بسبب من المخاطر التي تكتنف مثل هـذا الصنيع . كن ماكرا ، يا بيل ، ولا تنجرف مع تيار الجسارة . »

ولم يجب سايكس بشيء ، ولكنه فتح الباب فجاة ، وكان اليهودي قد ادار قفله ، واندفع الى الشوارع الصامتة اندفاعا عنيفا .

ومن غير أن يقف لحظة او يفكر لحظة ، ومن غـير ان يلتفت يمنـة او يسرة او يرفع عينيه الى السماء او يخفضهما نحو الارض ، ناظرا دائما الـى امام في تصميم وحشي ، مطبقا بعض اسنانه على بعض اطباقا شديدا جعل فكة المرهق يبدو وكأنـه يخترق جلده ، واصـل اللص سيره المسعور ، غير مطلق كلمة ، وغير مرخ عضلة ، حتى انتهى الى باب داره . لقد فتحه ، فـي رفق ، بمفتاح ما ، وراح يرتقي السلم في خطى واسعـة صامتة ، ثم دخـل حجرته الخاصة ، واقفل الباب قفلتين ، ودعمه بطاولة ثقيلـة ، ثـم جذب ستارة الفراش .

كانت الفتاة نائمة فيه نصف عارية . وكان قد ايقظها من رقادها ، ذلك بانها نهضت وعلى وجهها امارات الذعر .

وقال الرجل : « انهضي ! »

فقالت الفتاة وقد بدا عليها السرور لعودته : « اهذا انت ، يا بيل ؟! »

فكان جوابه : « اجل ، انا . انهضي ! »

كان ثمة شمعة مضاءة ، ولكن الرجل سارع الى انتزاعها من الشمعدان ، ورماها تحت شباك الموقد . حتى اذا رات الفتـاة ضوء الفجر فـي الخارج نهضت لترد الستارة الى وضعها الاول .

فقال سايكس وهو يبسط يده ليحول بينها وبين ما ارادت ان تفعله : « اتركيها وشانها . ان ثمة ضوءا كافيا لتمكيني من ان افعل ما يتعين علي فعله . »

فقالت الفتاة في صوت خفيض ملعور : « لماذا تنظر الي هكذا ، يـا بيل ؟ »

وراح اللص يتأملها بضع ثوان ، وقد اتسع منخراه وانشأ صدره يعلـو ويهبط . ثم انه امسك بها من رأسها ورقبتها ، وجرها الى وسط الحجرة . وبعد ان القى نظرة على الباب ، وضع يده الثقيلة على فمها .

فلهثت الفتاة ، مناضلة بقوة الخوف القاتل : « بيل ! بيل ! انا .. انا لن ازعق او اصيح .. ولو مرة واحدة ... اصغ الي .. كلمني .. قل لي ما الذي فعلتُه ! »

فأجابها اللص كاتما انفاسها : « انت تعرفين ، أيتها الشيطانة ! لقد كنت تحت المراقبة الليلة ، ولقد سمعت كل كلمة من الكلمات التي نطقت بها . »

فقالت الفتاة متشبثة به : « اذن فأبق على حياتي اكراما لله ، كما ابقيت على حياتك . بيل ، يا عزيزي بيل ، ان قلبك لا يمكن ان يرضى بقتلي. اوه ! فكر بكل ما تخليت عنه ، هذه الليلة فقط ، في سبيلك . ان عليك ان تتروى قليلا ولا تتورط في مثل هذه الجريمة . انا لن ارخي قبضتي عنك ، وليس في وسعك ان تردني عنك . بيل ، بيل ، اكراما لله ، اكراما لك انت ، اكراما لي ، كف عن هذا قبل ان تسفح دمي ! لقد كنت مخلصة لك ، واني لاقسم على ذلك بروحي الآثمة !

وناضل الرجل في عنف لكي يحرر ذراعيه . ولكن ذراعي الفتاة كانتا مطبقتين عليهما اطباقا عنيفا . لقد حاول ان يردها عنه باقصى قوته ، ولكنه لم يوفق الى ذلك .

وصرخت الفتاة باذلة اقصى جهدها لكي تضع راسها على صدره : «بيل لقد حدثني السيد الماجد والسيدة العزيزة ، هذه الليلة ، عن ملاذ في بلد اجنبي ما ، حيث استطيع ان انهي حياتي في عزلة وسلام . فدعني اقابلهما من جديد ، وأتوسل اليهما وانا راكعة على ركبتي ان يظهرا نحوك مثل الذي اظهراه نحوي من رحمة واحسان ، ودعنا نغادر معا هذا المكان الرهيب، ونحيا هناك ـ منفصلين انفصالا كاملا ـ حياة افضل ، وننسى كيف عشنا من قبل، الا في صلواتنا ، وينقطع أي منا عن مشاهدة الآخر . ان ثمة دائما متسعا للتوبة . لقد قالا لي ذلك . . . وانا استشعره الآن . . . ولكننا في حاجة الى شيء من الوقت . . . الى شيء قليل جدا من الوقت !»

وحرر سارق البيوت احدى ذراعيه ، وامسك بغدارته . ولكن يقينية الافتضاح العاجل اذا ما اطلق النار سرعان ما خطرت له حتى وهو في سورة غيظه تلك ، فلم يكن منه الا أن ضرب الوجه المرفوع نحوه والذي كاد ان يمس وجهه هو بذلك المسدس ضربتين افرغ فيهما كامل قوته .

فتمايلت الفتاة وهوت ، وقد كاد يعميها الدم الذي انهمر من جرح عميق في جبينها . ولكنها ما لبثت أن نهضت على ركبتيها ، في صعوبة بالغة ، واخرجت من صدرها منديلا ابيض ـ منديل مايلي ـ ورفعته ، بيديها المتشابكتين ، نحو السماء أعلى ما مكنتها قوتها الواهنة من رفعه ، وزفرت صلاة التمست فيها الرحمة من بارئها

كان مشهدا رهيبا . وارتد القاتل الى الجدار مترنحا ، وحجب عينيه بيده لكي لا يرى ، وتناول هراوة غليظة ثم أجهز على الفتاة .

الفصل الثامن والاربعــون
فرار سايكس

لو عُدّت الاعمال المنكرة التي ارتكبت ، تحت جنح الظلام، ضمن نطاق لندن الواسع منذ ان هبطت العتمة عليها ، اذن لكان ذلك العمل اسواها على الاطلاق . ولو عدّت الاهوال التي تصاعد ريحها النتن مع هواء الصباح اذن لكان ذلك الهول اقذرها وامعنها في الوحشية .

لقد أشرقت الشمس ــ الشمس الساطعة التي تعيد الى الانسان لا الضوء وحده ، بل حياة جديدة ، وأملا جديدا ، ونضـارة جديدة ــ عـلى المدينة المكتظة في جلال صاف مشع . وعبر الزجاج الثمين الملون والنـافذة المرقعة بالورق ، وعبر قبة الكاتدرائية وشق الجدار العفن سفحت اشعتها في غير ما محاباة أو تمييز . لقد أنارت الحجرة التي تمددت فيهـا المرأة القتيل . اجل لقد انارتها . وحـاول الرجل ان يصد الأشعة عن الحجرة ، ولكنها ظلت تتدفق عليها برغم ذلك . واذا كان المشهد قد بدا رهيبـا في الصباح الشاحب فكيف تحسبه كان ، في هذه اللحظة ، وسط ذلك الضوء الساطع كله ؟!

ولم يكن الرجل قد فارق مكانه ، فقد كان يخشى أن يتحرك . كان قد سمع انينا ولاحظ احدى يديها تضطرب ، فانضاف الذعر الى الغيظ ، فراح يضرب الفتاة كرة تلو كرة . وذات مرة طرح على جسدها بساطـا ، ولكن تصور عينيها وتخيلهما تتحركان نحوه كان اسوأ من رؤيتهما تحدقان الى فوق ، وكأنهما تراقبان انعكاس بركة الدم التي ارتعدت وتراقصت فيضياء الشمس على السقف . وكان قد نزع البساط عنها . فاذا بعينيه تقعـان على الجسد ــ الجسد الذي امسى مجرد لحم ودم ــ ولكن اي لحم ، واي دم !

وقدح زنادا ، واضرم نارا ، وطرح الهراوة فيها . وكان عـلى طرف الهراوة شعر فاشتعل وانكمش الى رماد خفيف ، وسرعان ما تلقفه الهواء فراح يدوّم في الموقد . وحتى هذا روّع الرجل ، على الرغم من صلابته وشدة بأسه . ولكنه ظل ممسكا بسلاحه حتى انقصف ، وعندئذ وضعـه فوق ركام الفحم الحجري لكي تأتي عليه النار ويستحيل رمادا . ثم انـه غسل وجهه ، ومسح ثيابه . ولكن بعض البقع أبت ان تزول ، فما كان منه الا ان مزق قطع القماش تلك ، والقى بها في النار . يا لهـذه البقع كيف تناثرت في الحجرة ! حتى قوائم الكلب نفسها كانت ملطخة بالدم .

ولم يكن ، طوال هذا الوقت كله ، قـد أولى الجثـة ظهره ، ولو مرة

واحدة . لا، لا، انه لم يولها ظهره ولو لحظة . حتى اذا اتم هذه الاجراءات ارتد ـ على نحو تراجعي ـ نحو الباب ، جارا الكلب معه خشية ان يلوث قوائمه من جديد ويحمل الى الشارع بينات جديدة على الجريمة . واوصد الباب في رفق ، واقفله ، ونزع المفتاح ، وغادر البيت .

وعَبَرَ الشارع ، ورفع بصره الى النافذة ليستيقن من ان أيما شيء لم يكن يُرى من الخارج . كانت الستارة ما تزال مسدلة ، تلك الستارة التي كانت الفتاة قد رغبت في ازاحتها ليتسرب الى الحجرة ذلك الضياء الذي لم تره بعد أبد الدهر . وكانت جثتها طريحة تحتها تقريبا . لقد عرف ذلك. يا للسماء ، لشد ما كانت الشمس تسفح اشعتها على تلك الرقعة بالذات !

ولم تدم نظرته تلك غير لحظة واحدة . فقد كان في الخروج من تلك الحجرة عزاء لنفسه . وصفر للكلب ، ومضى لسبيله على جناح السرعة .

لقد اجتاز آيلينغتون . وفي هايغايت صعد موسعا الخطى في الهضبة، حيث انتصب تمثال ويتينغتون* . ثم هبط نحو « هايغايت هيل » في تردد، غير عارف الى اين يتعين عليه ان يمضي . ثم انعطف الى اليمين ، كرة اخرى، حالما شرع في هبوطه تقريبا ، وسلك القدومية الممتدة عبر الحقول ، وتاخم « غابة كاين » ، وهكذا انتهى الى مرج هامبستيد هيث . وبعد ذلك اجتاز الغور الممتد في محاذاة « وادي الصحة » ، فارتقى الضفة المقابلة ، وعَبَرَ الطريق التي تصل ما بين قريتي هامبستيد وهايغايت ، ثم اجتاز ما تبقى من المرج الى حقول « نورث اند » (الطرف الشمالي) . وفي احد هذه الحقول استلقى تحت وشيع من الوشائع ، واستسلم للرقاد .

وسرعان ما استيقظ من نومه ، وانطلق ـ لا لكي يوغل في الريف ، ولكن لكي يعود في اتجاه لندن سالكا الطريق السلطانية ـ ثم انقلب على عقبيه كرة اخرى ... واجتاز جزءا آخر من الارض نفسها التي كان قد قطعها ... ثم هام على وجهه في الحقول ، منطرحا على حافات الخنادق التماسا للراحة ، ليعود بعدُ فينهض منتصبا على قدميه، ويتجه نحو بقعة اخرى ، حيث فعل الشيء نفسه ، وراح يضرب في الارض من جديد .

كان يبحث عن مكان قريب ، لا يختلف اليه الناس كثيرا ، لكي يفوز بشيء من لحم وشراب . وبعد تردد وتساؤل ، استقر رايه على الشخوص الى « هيندون » . فقد كانت هيندون موطنا طيبا ، غير ناء جدا ، وفي معزل عن طريق الكثرة الكبرى من الناس . وهكذا وجّه خطاه الى هناك ـ راكضا حينا ، متلكئا في عناد غريب بمثل سرعة بزاقة حينا ، واقفا حينا

* كان ريتشارد ويتينغتون Whittington (المتوفي عام ١٤٢٣) شخصية تاريخية ، فقد كان عمدة لندن ، وبطل احدى الاساطير . والتمثال المشار اليه يصور هذه الاسطورة ويمثل كيف فر ويتينغتون هاربا وكيف سمع نواقيس لندن تدعوه الى العودة . (المعرب) .

آخر وقوفا كاملا ، مضيعا وقته بتكسير الوشيع بضربات عصاه . ولكنه ما ان وصل الى هناك حتى بدا جميع الذين التقوا به ـ وحتى الاطفال الواقفون بالابواب ـ وكأنهم ينظرون اليه في ارتياب . فما كان منه الا ان انقلب راجعا من حيث اتى ، غير واجد في نفسه الجراة على شراء قطعة من لحم او قطرةمن شراب ، برغم ان فمه لم يذق ايما طعام منذ ساعات عديدة . وكرة اخرى راح يتسكع في المرج ، غير عالم الى اين ينبغي له ان يذهب . .

وهام على وجهه اميالا واميالا ، ومع ذلك فقد كان يرجع دائما الى المكان نفسه . كان الصباح والظهر قد انقضيا ؛ وكانت الشمس قد جنحت للمغيب ، وواصل هو هيامه ، متجها الى امام والى وراء ، مصعدا حينا وهابطا حينا ، مطوفا على نحو موصول ، راجعا دائما الى المكان نفسه. واخيرا نأى بنفسه عن ذلك الموضع ، واتخذ سبيله الى هاتفيلد .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما هبط الرجل (وقد خارت قواه) والكلب (وقد اخذ يظلع من جراء ما بذل من جهد لم يتعوده) الكثيب المحاذي لكنيسة القرية الآمنة ، ثم راحا يتهاديان في الشارع الصغير ، لينسلا آخر الامر الى نزل صغير كان ضوؤه الهزيل قد قادهما الى تلك البقعة . كان في المشرب نار ، وكان بعض العمال الريفيين يعاقرون الخمر امامه . وافسحوا مكانا للرجل الغريب ، ولكنه آثر الجلوس في الزاوية القصوى ، وانشأ يأكل ويشرب وحده ، او على الاصح مع كلبه : فقد كان يلقي اليه بلقمة من طعام بين الفينة والفينة .

ودار حديث القوم المجتمعين هناك حول الارض المجاورة ، والفلاحين . حتى اذا استنفد هذان الموضوعان دار حول سن رجل عجوز كان قد دفن يوم الاحد الماضي : فاما الشبان الحاضرون فقد اعتبروه طاعنا في السن ، واما الشيوخ الحاضرون فاعلنوا انه كان في ريعان الشباب ـ لقد قال جد اشيب ان المتوفى لم يكن اعلى منه سنا ـ وانه كان في ميسوره ان يعيش عشر سنوات او خمس عشرة سنة اضافية على الاقل ، لو عُني بنفسه . . . اجل، لو عني بنفسه .

ولم يكن ثمة في هذا ما يلفت الانتباه او يثير الجزع . وبعد ان دفع اللص حسابه ، قبع في زاويته معتصما بالصمت محجوبا عن الأعين ؛ وكان على وشك ان يستسلم للرقاد عندما دخل وافد جديد في شيء من الصخب فايقظه نصف ايقاظ .

وكان هذا رجلا مضحكا فيه شيء من البائع المتجول وشيء من المشعوذ وكان يطوف في قرى الريف مشيا على قدميه لكي يبيع حجار السن، ومشاحذ الموسى ، وامواس الحلاقة ، وقطع الصابون ، والعجائن الخاصة

بعدة الخيل ، وادوية للكلاب والافراس ، وعطورا رخيصة ، وادهنة للزينة وتثبيت الشعر وما الى ذلك من سلع كان يحملها في صندوق مشدود الى ظهره . فلم يكد يدخل حتى تبادل مع اولئك الريفيين مختلف المُلَح والنكات الساذجة ، وظل على ذلك الى ان اتم عشاءه ، وفتح صندوق كنوزه ، وعندئذ سعى في براعة الى مزج التجارة باللهو .

– «وما هذه البضاعة ؟ اهي صالحة للاكل ، يا هاري ؟» كذلك سأله احد الريفيين وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، ويشير الى ضرب من الصابون في احدى الزوايا .

فقال الرجل وهو يُخرج قطعة منه : « هذا تركيب لا يخطىء ولا يقدر بمال لازالة جميع انواع البقع ، والصدا ، والوسخ ، والعفن ، واللطخات ، والكمدات ، والطرطشات عن الحرير والاطلس ، والكتان ، والتول الرفيع ، والجوخ ، والكريب الاسود ، والقماش ، والسجاد ، والمرينو* ، والموصلين ، والبومبازين** ، والاقمشة الصوفية . ان بقع الخمر ، وبقع الفاكهة ، وبقع الجعة ، وبقع الماء ، وبقع الدهان، وبقع الزفت ، ومختلف انواع البقع الاخرى، كلها تزول بفركة واحدة من هذا المركب الذي لا يخطىء ولا يقدر بمال . واذا لوثت سيدة شرفها، فليس عليها الا ان تبلع قطعة منه وعندئذ تشفى في الحال – لان هذا المركب سام . واذا شاء احد السادة الاماجد ان يتثبت من ذلك ، فليس عليه الا ان يزدرد قطعة صغيرة منه ، وعندئذ يقتنع اقتناعا لا لبس فيه – لأن هذا العلاج حاسم مثل رصاصة مسدس ، وذو طعم ادعى الى التقزز ، ومن هنا يكون لمن ياخذه فضل اعظم . القطعة ببنس واحد ! القطعة المشتملة على هذه المنافع كلها ببنس واحد !»

ووجد مشتريان اثنان ، على التو . اما الآخرون فترددوا ترددا واضحا . واذ رأى البائع ذلك ضاعف من هذره وثرثرته .

فقال : « ان هذه البضاعة تباع كلها حال خروجها من المصنع . وهناك اربع عشرة طاحونة مائية ، وست ماكينات بخارية ، وبطارية كلفانية تعمل في استمرار من اجل صنعها ، ومع ذلك فانها لا تنتجها في سرعة كافية،على الرغم من ان العمال ينكبون على انتاجها في نشاط ينتهي بهم الى الموت ، فتدفع التعويضات الى الارامل في الحال ، مع عشرين جنيها كل سنة لكل من الاولاد ، وخمسين جنيها للتوامين ! القطعة ببنس واحد ! واذا اعطاني احدكم نصفي بنس لم اعارض ، واذا اعطاني اربعة ارباع بنس تقبلتها في سرور ! القطعة ببنس واحد ! بقع الخمر ، بقع الفاكهة ، بقع الجعة ، بقع

* منسوجات يؤخذ صوفها من نوع من الغنم الاسباني .

** البومبازين ، نسيج صوفي مخلوط بحرير او قطن .

الماء ، بقع الدهان ، بقع الزفت ، بقع الوحل ، بقع الدم ! انتبهوا ! ها هي بقعة على ثياب سيد ماجد موجود معنا هنا ، ولسوف ازيلها قبل ان يجد متسعا من الوقت ليطلب لي نصف ليتر من الجعة !»

فصاح سايكس مجفلا : « هاه ! أعد الي القبعة !»

فأجابه الرجل وهو يغمز الجماعة : « سوف ازيلها قبل ان تعبر الحجرة لتأخذها . ايها السادة ، لاحظوا البقعة التي على قبعة هذا السيد الماجد ! ان حجمها لا يزيد على حجم شلن ، ولكنها اكثف من نصف ريال . وسواء اكانت بقعة خمر ، او بقعة فاكهة ، او بقعة جعة ، او بقعة ماء ، او بقعة دهان، او بقعة وحل، او بقعة دم ...»

ولم يستطع الرجل ان يذهب الى ابعد من هذا ، ذلك بان سايكس اطلق شتيمة رهيبة ، وقلب الطاولة راسا على عقب ، وانتزع القبعة منه ، وغادر النزل في اهتياج .

وبمثل التردد والتصرف الضال اللذين استحوذا عليه ، بالرغم منه، طوال النهار عمد القاتل ـ بعد ان وجد ان احدا لم يلحق به وان القوم حسبوا في أغلب الظن انه مجرد مخمور قذر ـ اقول عمد القاتل الى الارتداد مجتازا المدينة كرة اخرى . ونأى بنفسه عن وهج مصابيح مركبة سفر عمومية واقفة في الشارع ، ولم يكد يتابع سبيله حتى عرف مركبة البريد القادمة من لندن ورأى انها واقفة عند مكتب صغير من مكاتب البريد . ولم يشك الا قليلا في الذي سوف يحدث ، ومع ذلك فقد عبر الشارع ، وارهف السمع .

كان المسؤول عن المركبة واقفا بالباب ، ينتظر كيس الرسائل . وفي تلك اللحظة اقبل رجل يرتدي بزة شبيهة ببزة حارس صيد فناوله المسؤول سلة كانت موضوعة على الرصيف .

وقال : « هذه السلة لأهل بيتك . هيا ، عجلوا هناك ! لعن الله ذلك الكيس ... انه لم يكن جاهزا الليلة قبل البارحة . هذه حال غير حسنة ، كما تعلم .»

ـ « هل من جديد في العاصمة ، يا بن ؟» كذلك ساله حارس الصيد، وهو يرتد الى مصراعي النافذة لكي يستطيع ان يستمتع بمشهد الخيل استمتاعا افضل .

فأجابه الرجل وهو يلبس قفازيه : « لا، ليس هناك في ما اعلم اي جديد . لقد ارتفع القمح قليلا . ولقد سمعت القوم يتحدثون عن جريمة قتل ايضا ، حدثت في مكان ما من سبيتالفيلدز ، ولكني لست واثقا من ذلك كل الثقة .»

فقال احد المسافرين وهو يطل من نافذة المركبة : « اوه ، هذا صحيح مئة بالمئة . ولقد كانت جريمة قتل رهيبة ايضا !»

فقال المسؤول عن المركبة وهو يمس قبعته : « احق ما تقول ، يا سيدي ؟ وهل القتيل رجل ام امراة ، من فضلك ؟»

فاجابه المسافر : « امراة . والمعتقد ...»

فقال الحوذي في صبر نافد : والآن ، يا بن !»

فقال المسؤول عن المركبة : « لعن الله ذلك الكيس . هل ذهبت لتنام هناك ؟»

فصاح رئيس المكتب وهو يقبل راكضا : « لقد اتيت ! »

فزمجر المسؤول عن المركبة : « لقد اتيت ! آه ، انت اشبه ما تكون بالوارثة الشابة التي ستقع في غرامي ، ولكني لا اعرف متى . والآن ، اعطني هذا الكيس . حسن جدا !»

واطلق البوق بضع نغمات بهيجة ، فانطلقت المركبة في سبيلها .

وظل سايكس واقفا في الشارع ، غير متأثر — في الظاهر — بما سمعه منذ لحظة ، وغير مستشعر ايما قلق غير قلق التساؤل الى أين يتعين عليه ان يذهب . واخيرا انقلب على عقبيه كرة اخرى ، وسلك الطريق التي تفضي ، من هاتفيلد ، الى سانت آلبانز .

لقد اغذ السير في عناد . ولكنه لم يكد يخلف البلدة وراءه ، ويخوض في وحشة الطريق وظلمتها ، حتى استشعر ان عاصفة من الذعر والرعب استبدت به فزلزلت كيانه كله زلزالا . وفجاة اتخذ كل شيء امامه — سواء أكان مادة ام شبحا ، ساكنا او متحركا — شكل شيء رهيب . ولكن هذه المخاوف لم تكن شيئا بالقياس الى ما استحوذ عليه من وهم ادخل في روعه ان الصورة الرهيبة التي رآها ذلك الصباح كانت تجري على آثاره . كان في ميسوره ان يلمح ظل تلك الصورة في الدجنة ، وان يتبين كل قسمة من قسماتها ، وان يلاحظ بأية خطى متصلبة ورصينة بدت وكأنها تتعقبه . وكان في ميسوره ان يسمع حفيف ملابسها بين اوراق الشجر ، وكانت كل هبة ريح تحمل اليه آخر صرخة من صرخاتها الواهنة . كان اذا كف عن السير كفت ، واذا ما ركض تبعته ... ولكن من غير ان تركض ، ولو انها ركضت لسرى ذلك عنه بعض الشيء ... لا، لقد تبعته مثل جثة ليس لها من الحياة غير القدرة على السير الميكانيكي ... جثة تحملها ريح كئيبة بطيئة لا تعصف ولا تخمد .

واستدار مرة بعد مرة ، في تصميم يائس ، عاقدا العزم على صد هذا الشبح ولو ادت رؤيته الى طرحه على الارض ميتا . ولكن شعر راسه قف، وجمد الدم في عروقه . ذلك بأن الشبح استدار معه ، وكان آنذاك خلفه .

كان قد ابقاه امامه ذلك الصباح ، ولكنه امسى الآن خلفه ــ خلفه على نحو موصول ــ واسند ظهره الى منحدر ما ، فأحس بان الشبح يقف فوقه ، على نحو مرئي ازاء سماء الليل الباردة . فاستلقى على الارض ــ مستقبلا اياها بوجهه وصدره . فاذا بالشبح يقف عند راسه ، صامتا ، منتصبا ، ساكنا : شاهد قبر حيا ، خطت كلماته بالدم .

فليكف الناس عن الكلام على القتلة الفارين من وجه العدالة ، وعن اتهام العناية الالهية بالغفلة عنهم . فقد مات سايكس في دقيقة واحدة من دقائق ذلك الذعر الرهيب اربعمئة ميتة عنيفة !

وكان في احد الحقول التي مر بها سقيفة يستطيع ان يبيت فيها تلك الليلة . وكانت قبالة الباب ثلاث شجرات حور فارعة الطول جعلت الظلمة الشديدة ترين على داخل السقيفة . وانت الريح خلال تلك الشجرات انينا مشؤوما . ولم يستطع ان يواصل سيره الا بعد ان انبلج الفجر من جديد . وهنا استلقى في محاذاة الجدار ... لكي يقاسي عذابات جديدة .

ذلك بأن رؤيا انبثقت امامه الآن ، لا تقل الحاحا وفظاعة عن تلك التي كان قد نجا بنفسه منها . لقد تراءت له في الظلام تانك العينان الواسعتان المحدقتان ، الكامدتان الزجاجيتان الى درجة جعلته يؤثر النظر اليهما على التفكير فيهما . كانتا ضياء في ذات نفسيهما ، ولكنهما لم ترسلا الضياء الى ايما شيء . ولم يكن ثمة غير عينين اثنتين ، ولكنهما كانتا في كل مكان . فاذا ما اجتنب رؤيتهما باغماض جفنيه ، انبثقت الحجرة بكل اشيائها المألوفة ــ وكان خليقا به في الواقع ان ينسى بعضها لو شاء ان يعدد محتويات الحجرة من الذاكرة ــ وكل من تلك الاشياء في موضعه المعتاد . كانت الجثة في مكانها ، وكانت عيناها كما رآهما عندما انسل هاربا . فنهض واندفع الى الحقل . كان الشبح خلفه . فعاود الدخول الى السقيفة ، وانكمش على نفسه من جديد . وقبل ان يستلقي على الارض كانت العينان هناك .

وهنا ظل في ذعر لا يستطيع احد غيره ان يعرفه ، فارتعدت اوصاله كلها ، وتفصد العرق البارد من مسامه جميعا . وفجاة حملت ريح الليل صدى صياح قصي وهدير اصوات يشوبها ذعر ودهش . وكان سماع ايما صوت بشري في ذلك الموطن المنعزل ــ ولو انطوى على موجب للذعر حقيقي ــ شيئا ذا شأن . فاسترد قوته ونشاطه تجاه الخطر الذي قد يحدق بشخصه ، ووثب واقفا على قدميه ، واندفع الى الهواء الطلق .

لقد بدت السماء وكأن النار قد اضرمت فيها . كانت ثمة ألسنة لهيب ترتفع في الهواء ملقية وابلا من الشرر متدحرجة احداها فوق الاخرى ، فتضيء الجو على مسافة اميال واميال ، وتسوق سحائب من

الدخان الى حيث كان يقف . وغدت الصيحات اعلى فاعلى بعد ان ضخمت الاصوات ذلك الهدير ، فاذا به يسمع صيحة « النار ! » ممتزجة برنين ناقوس خطر ، وسقوط اجسام ثقيلة ، وفرقعة السنة النيران فيما كانت تنفتل حول عقبة جديدة ما ، وتتواثب عاليا عاليا وكأن غذاء قد انعشها . وتعاظمت الضجة فيما كان ينظر مستطلعا . كان هناك ناس – رجال ونساء – وضوء وجلبة . وكان ذلك أشبه بحياة جديدة بالنسبة اليه . فاندفع قدما ناكس الراس ، مخوضا في العليق والغياض ، واثبا فوق البوابات والأسيجة مسعورا مثل كلبه الذي كان يعدو امامه مطلقا نباحا عاليا مدويا.

واخيرا انتهى الى مكان الحادث . كان ثمة اناس كالاشباح ، نصف عراة ، مهتاجون اهتياجا تجلى في رواحهم ومجيئهم على نحو مضطرب . وكان بعضهم يحاول ان يخرج الخيل المروعة من الاسطبلات ، وبعضهم يسوقون الماشية من الفناء والبيوت الملحقة ، وبعضهم ينبثقون من الركام المشتعل مثقلين بالاحمال، وسط وابل من الشرر المتساقط، وانهيار العوارض الخشبية التي احالتها الحرارة حمراء متقدة . كانت الفجوات ، حيث نهضت قبل ساعة واحدة ابواب ونوافذ ، تتكشف عن كتلة من النار المسعورة .

وكانت الجدران تتمايل وتنهار في لجة النار ، وكان الرصاص والحديد الذائبان يسيلان على الارض وقد استحال لونهما لشدة الحرارة الى بياض . وصرخت النسوة والاطفال ، وشجع الرجال بعضهم بعضا بصيحات وهتافات صاخبة . وكان في قعقعة مضخات الاطفاء الآلية، وانبجاس المياه وهسيسها فيما هي تسقط على الخشب الملتهب ، ما ضاعف من عنف الهدير الهائل . وصاح هو ايضا ، حتى بح صوته واندفع ، هاربا من ذاكرته ومن نفسه ، وسط الحشد الاشد كثافة .

وغاص ههنا وهناك تلك الليلة ، معملا المضخات حينا ، مندفعا خلال الدخان واللهب حينا ، ولكنه لم يكف لحظة عن الانهماك في العمل حيثما بلغت الضجة وبلغ الازدحام اوجهما . كنت تراه يصعد المراقي ويهبطها آنا ، وتلمحه فوق سطوح المباني وفوق ارضيات الغرف التي اهتزت تحت ثقله وارتعدت ، وتحت وابل الآجر والحجارة المتساقطة ، في كل جزء من اجزاء ذلك الحريق آنا . ولكنه كان يحمل رقية تصون حياته من الاذى .. فلم يصب بأي خدش او كدمة ، ولم يعرف اي سأم او انشغال بال ، حتى انبلج الصبح من جديد ، ولم يبق غير الدخان والخرائب المكسوة بالسخام .

حتى اذا انقضى هذا الاهتياج المجنون عاوده ، على نحو أقوى من ذي قبل بعشرة اضعاف ، وعي جريمته الرهيب . واجال النظر في ما حوله في حذر ، ذلك بأن الناس كانوا يتجاذبون الحديث جماعات جماعات ، ولقد

خشي ان يكون هو موضوع كلامهم . واطلع الكلب ايماءة اصبعه ذات المغزى فانسحبا خلسة معا . ومر بالقرب من مضخة جلس عليها نفر من الناس ، فدعوه الى مشاركتهم طعامهم وشرابهم . وتناول شيئا من خبز ولحم ، وفيما هو يتجرع بعض الجعة سمع رجال الاطفاء، وكانوا من لندن، يتحدثون عن الجريمة . فقال احدهم : « يقولون انه فر الى برمنغهام ، ولكنهم لا بد ان يلقوا القبض عليه ، لان شرطة الاستطلاع قد خرجت تبحث عنه ، ومساء غد سيطلقون صيحة التنبه واليقظة في ارجاء البلاد كلها . »

فلم يكن منه الا ان نأى واعرض بجانبه، وراح يمشي حتى كاد يسقط على الارض. ثم انه اضطجع في احدى الطرق، واستسلم لنوم طويل ولكنه متقطع قلق . وبعد ذلك استأنف طوافه التائه ، مترددا لا يستقر على راي ، يعذبه الخوف من ليل متوحد جديد .

وفجأة اتخذ قرارا يائسا قضى بأن يرجع الى لندن .

لقد قال في ذات نفسه : « ان هناك من استطيع ان اتحدث اليه . ومخبأ حسن ايضا . انهم لن يتوقعوا ان يقبضوا علي هناك ابدا ، بعد هذه المطاردة في الريف . لماذا لا استطيع ان البث هادئا اسبوعا او نحو اسبوع ثم انتزع من فاجين بعض المال المسروق واركب البحر الى فرنسة ؟ يا للشيطان ، سوف اغامر في القيام بذلك ! »

واذعن لسلطان هذا الحافز في غير ابطاء ، فاختار اشد الطرق انعزالا واستهل رحلته الارتجاعية ، وقد عقد العزم على الاختباء على مبعدة يسيرة من العاصمة ، ثم دخولها مع الغسق من احدى الطرق الملتوية ، والشخوص توا الى ذلك الحي الذي كان قد اتخذ منه غاية مطافه .

والكلب ؟ الواقع انه اذا ما نشرت اوصافه وعلاماته الفارقة على الناس فلن يُنسى النص على ان الكلب قد افتُقد وان من المحتمل ان يكون قد ارتحل معه . ومن يدري فلربما افضى ذلك الى القاء القبض عليه فيما هو يجتاز الشوارع . وهكذا وطن النية على اغراقه ، وواصل السير وهو يجيل الطرف حوله بحثا عن بركة او نحوها . وفيما هو في بعض الطريق التقط حجرا ثقيلا ، وربطه بمنديله .

ورفع الحيوان بصره الى وجه سيده بينما كان يتخذ هذه الاستعدادات . وسواء أكانت غريزته قد فهمت شيئا من هدف تلك الاستعدادات ، او ان نظرة اللص الجانبية اليه كانت اقسى من المألوف ، فقد تلكأ على مسافة من صاحبه أبعد من المعتاد، وارتعد خوفا فيما كان يتقدم على نحو أمعن في البطء. حتى اذا توقف سيده عند حافة بركة من البرك والتفت ليناديه ، كف عن السير في الحال .

فصاح سايكس : « هل تسمعني ؟ تعال الى هنا ! »

وتقدم الحيوان بدافع العادة ليس غير . ولكن ما ان انحنى سايكس ليطوق عنقه بمنديله حتى اطلق نباحا خفيضا وارتد مجفلا .

فقال اللص : « ارجع ! »

فبصبص الكلب ذنبه ؛ ولكنه لم يتحرك . وعقد سايكس انشوطة وناداه كرة اخرى .

وتقدم الكلب ، ونكص على عقبيه ، وتريث لحظة ، واستدار ، وولى بأقصى سرعته .

وصفر الرجل مرة ومرة . ثم قعد ، وانتظر متوقعا ان يعود . ولكن ايما كلب لم يعد وعندئذ استأنف الرجل رحلته .

٤٠ ـ مونكس ومستر براونلو يجتمعان اخر الامر ٠

حديثهما والانباء التي وضعت له حدا

كانت العتمة قد شرعت تهبط عندما ترجل مستر براونلو من مركبة اجرة عند باب داره الخاصة ، وقرعه قرعا رفيقا . حتى اذا فتح الباب ، غادر المركبة رجل قوي البنية ووقف عند جانب من العتبة ، بينما ترجل رجل آخر كان مستويا في مقعد الحوذي ووقف عند جانبها الآخر . وأومأ اليهما مستر براونلو فأخرجا من المركبة رجلا ثالثا وهرعا به ـ وهو يمشي بينهما ـ الى المنزل . وكان هذا الرجل هو مونكس .

وارتقوا السلم ، على النحو نفسه ، من غير ان ينطقوا بشيء ، فقادهم مستر براونلو الى احدى الحجرات الخلفية . وعند باب هذه الحجرة توقف مونكس ، وكان قد صعد السلم على كره منه واضح . فلم يكن من الرجلين الا ان نظرا الى السيد الماجد العجوز وكأنهما يسألانه تزويدهما بأوامره .

فقال مستر براونلو : « انه يعلم ما يتعرض له ان لم يذعن . واذا ما تردد او حرك اصبعا لغير ما تأمرانه به فاسحباه الى الشارع والتمسا النجدة من الشرطة واتهماه ـ باسمي انا ـ بالاثم والاجرام . »

فسأله مونكس ، « كيف تجرؤ على قول هذا في حقي ؟ »

فأجابه مستر براونلو جابها اياه بنظرة ثابتة : « وانت كيف تجرؤ على استفزازي ؟ ايبلغ بك الجنون حدا يحملك على مغادرة هذا المنزل ؟ افلتا يديه . والآن ، يا سيدي ، ان لك ملء الحرية في ان تذهب ، وان لنا ملء الحرية في ان نتبعك . ولكني احذرك ، مقسما بكل ما اعتده غاية في القدسية ، فاقول لك انك ما ان تضع قدمك على ارض الشارع حتى اكلف

الشرطة بالقاء القبض عليك بتهمه الاحتيال والسرقة . اني رجل صلب عنيد. فان عقدت العزم على ان تكون مثلي دفعت دمك ثمنا لذلك وكنت انت الملوم لا احـدا غيرك ! »

فسأله مونكس منقلا طرفه من احد الرجلين الواقفين في محاذاته الى الآخر : « ولكن استنادا الى اية سلطة اختطفني هذان الكلبان ، في الشارع ، واقتاداني الى هنا ؟ »

فقال مستر براونلو : « استنادا الى سلطتي انا . اني انا من سيعوض هذين الرجلين عن كل اذى قد يلم بهما . انت تشكو سلبهما حريتك ، ولكنك كنت تملك القدرة والفرصة المتاحة لاستردادها في طريقك الى هنا .. ومع ذلك فقد رايت من الحكمة ان تلزم الهدوء . وها اني اكرر الآن ما قلتـه لك من قبل : التمس حماية العدالة ، وعندئذ افزع انا الى العدالة ايضا . ولكن لا تحاول ، اذا ما انتهيت في ذلك الى نقطة اللارجوع ، ان تتضرع الي طالبا الرأفة عندما تنتقل السلطة من يدي الى ايدي الآخرين . ولا تقل اني دفعت بك الى الهاوية التي اوقعت نفسك فيها . »

وبدا الاضطراب والذعر واضحين على وجه سايكس . وتردد .

فقال مستر براونلو في ثبات ورباطـة جأش كاملين : « سـوف تقرر بسرعة . واذا شئت ان اقدم اتهاماتي علانية واسلمك لعقوبـة لا استطيع — على الرغم من قدرتي على التكهن بمداها وانا ارتعد — ان اسيطر عليها .. اذا شئت ذلك قلت لك مرة اخرى انك تعرف الطريق . اما اذا لم تشأ ، واذا آثرت ان تفزع الى حلمي والى رأفة اولئك الذين انزلـت بهم اعظـم الاذى فاجلس ، من غير ان تنطق بأية كلمة ، على ذلك الكرسي . لقد انتظرك يومين كاملين . »

فغمغم مونكس ببضـع كلمات غير مفهومة ، ولكنه ظل مترددا .

فقال مستر براونلو : « لا تضع الوقت . ان كلمة واحدة اقولها تفقدك حق الاختيار الى الابد . »

ولكن الرجل ظـل مترددا .

فقال مستر براونلو : « لست ميالا الى المفاوضة والاخذ والرد . واذ كنت ادافع عن اعز مصالح الاخرين فليس لي الحق في الاقدام على ذلك . »

فسأله مونكس بلسان متلعثم : « اليس هناك ... اليس هناك حـل وسط ؟ »

— « لا ، على الاطلاق . »

ونظر مونكس الى السيد الماجد العجوز بعنين قلقتين ، واذ لـم يلمح على محياه غير القسوة والعزم دخل الحجرة وجلس على الكرسي يهز كتفيه..

وقال مستر براونلو للخادمين : « اقفلا الباب من الخارج ، وادخلا حين ارن لكما الجرس . »

فامتثل امره ، وغودر الرجلان وحدهما .

وقال مونكس خالعا قبعته ومعطفه : « هذه معاملة لطيفة ، يا سيدي ، من اقدم اصدقاء ابي ! »

فأجابه مستر براونلو : « الواقع انه بسبب من اني كنت اقدم اصدقاء ابيك ، أيها الشاب .. وبسبب من ان آمال السنوات النضة السعيدة ورغباتها كانت مرتبطة به .. وبتلك المخلوقة الحلوة التي جرى في عروقها عين الدم الجاري في عروقه والتي التحقت ببارئها وهي بعد صبية وخلفتني هنا رجلا منعزلا متوحدا ... وبسبب من انه ركع معي عند فراش احتضار اخته الوحيدة وهو بعد غلام في ذلك الصباح الذي كان مقررا ان تصبح فيه ــ ولكن الله شاء غير ذلك ــ زوجتي الشابة ... وبسبب من ان قلبي المصوح تعلق به منذ ذلك الحين ، خلال تجاربه كلها واخطائه كلها حتى لفظ انفاسه الاخيرة ... وبسبب من ان ثمة ذكريات قديمة تملأ قلبي ، ولان مشهدك نفسه يذكرني به .. اقول بسبب من هذا كله اراني مدفوعا الى معاملتك الان بلطف ــ اجل ، يا ادورد ليفورد ، الى معاملتك حتى في هذه اللحظة بلطف ــ والى ان احمر خجلا لعدم جدارتك بحمل هذا الاسم . »

ــ « اي علاقة للاسم بهذه المسألة ؟ كذلك سأله الاخر ، بعد ان تأمل اهتياج رفيقه تأملا اتسم بالصمت وبذهول شرس . « اية اهمية للاسم عندي ؟ »

فأجابه براونلو : « لا اهمية له البتة . ولكنه الاسم الذي حملته هي ، وحتى في هذه اللحظة ، وبعد انقضاء هذه المدة كلها ، يذكرني هذا الاسم ، وانا الرجل العجوز ، بالنشوة والبهجة الغامرة اللتين استشعرتهما ذات يوم لمجرد سماعه ملفوظا على لسان رجل غريب . انا جد سعيد لتغييرك اسمك .. جد سعيد .. جد سعيد .. »

ــ « هذا كله رائع جدا ، » كذلك قال مونكس (لكي نحتفظ باسمه المستعار) بعد صمت طويل راح خلاله يتمايل في تحد متجهم ذات اليمين وذات الشمال ، بينما قعد مستر براونلو جامدا ، حاجبا وجهه بيده . « ولكن ما الذي تريده مني ؟ »

فقال مستر براونلو موقظا نفسه : « ان لك اخا .. اخا كان مجرد الهمس باسمه في اذنك حين ادركتك في الشارع كافيا ، او يكاد ، لحملك على المجيء معي الى هنا » في دهش وذعر . »

فاجابه مونكس : « ليس لي اي اخ . انت تعلم اني وحيد ابوي . فلماذا

تحدثني عن اخوة لي ؟ انت تعرف ذلك جيدا كما اعرفه . »

فقال مستر براونلو : « انتظر حتى تسمع ما اعرفه ، وما قد تنكره انت . فلسوف اثير اهتمامك عما قريب . انا اعلم انك كنت الثمرة الوحيدة وغير الطبيعية الى ابعد الحدود من ذلك الزواج التعس الذي اكره عليه ابوك البائس وهو بعد في مقتبل العمر ، بحكم كبرياء الاسرة وبحكم المطامح المغالية في الخسة وعدم التبصر . »

فقاطعه مونكس في ضحكة ساخرة : « لست ابالي بالاهانات . انت تعرف تلك الحقيقة ، وهذا وحده يكفيني . »

فتابع السيد العجوز كلامه قائلا : « ولكني اعرف ايضا الالام والنكال البطيء وضروب العذاب المتطاول التي احدثها ذلك الزواج غير المتناغم . انا اعرف بأي ارهاق وكلال جر كل من ذينك الزوجين الشقيين قيده الثقيل في عالم مسموم في نظريهما كليهما. وانا اعرف كيف عقب التعنيف الصريح الشكليات الباردة ، وكيف حل النفور محل اللامبالاة ، والبغض محل النفور ، والاشمئزاز محل البغض، الى ان حطما اخر الامر ذلك القيد المقعقع، وافترق كل منهما عن الاخر حاملا قطعة من القيد تثيره وتعكر صفوه، قطعة لا يستطيع تحريره منها غير الموت ، لكي يحجبها خلف حياة جديدة مع معارف جدد ، ووراء ستار من اعظم قدر من الابتهاج وفق الى تكلفه . ولقد نجحت امك في ذلك ، فنسيت شقاءها وشيكا . اما فؤاد ابيك فتقرح وعلاه الصدا طوال سنوات وسنوات . »

فقال مونكس : « حسنا ، لقد انفصلا . واي بأس في ذلك ؟ »

فواصل مستر براونلو حديثه : « وبعد ان انقضت على افتراقهما فترة ما وانغمست امك انغماسا كليا في حياة القارة الاوروبية الطياشة ، ناسية زوجها الشاب نسيانا كاملا ــ زوجها الذي كان اصغر منها بعشر سنوات ــ تعرف ابوك ، وقد صوحت آماله ، الى اصدقاء جدد ، وكان قد لبث في الوطن لا يغادره الى ما وراء البحار . وهذه الواقعة على الاقل انت تعرفها من قبل . »

ــ « انا ؟ لا ! » كذلك قال مونكس مشيحا بوجهه ، خابطا الارض بقدمه مثل رجل عقد العزم على انكار كل شيء . « لست انا من يعرف ! »

فقال مستر براونلو : « ان لهجتك لتؤكد لي ، بقدر ما تؤكد لي تصرفاتك ، انك لم تنسها قط ، او لم تكف عن التفكير فيها بمرارة . انا اشير الى عهد يرقى الى خمس عشرة سنة خلت ، عندما كنت انت غلاما لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر ، وكان والدك في الحادية والثلاثين ليس غير ــ اذ كان ، واني لاكرر ذلك ، صبيا صغيرا عندما امره ابوه بالزواج .

أيتعين علي ان اعود الى الوراء واستعرض احداثا تكدر ذكرى ابيك ، ام تراك تؤثر ان توفر ذلك علي فتبوح لي بالحقيقة ؟ »

فأجابه مونكس : « ليس لدي ما ابوح به . في استطاعتك ان تواصل حديثك اذا شئت . »

فقال مستر براونلو : « اذن ، فقد كان هؤلاء الاصدقاء الجدد ضابطا بحريا متقاعدا كانت زوجته قد توفيت قبل نصف عام تقريبا ، وغادرته مع ولدين – لقد رزقا اكثر من ذلك ، ولكن ولدين اثنين فقط قدر لهما ، لحسن الطالع ، ان يبقيا على قيد الحياة . كانا بنتين ، احداهما مخلوقة جميلة في التاسعة عشرة ، والاخرى مجرد طفلة في الثانية او الثالثة من عمرها . »

فسأله مونكس : « واية اهمية لهذا بالنسبة الي ؟ »

فقال مستر براونلو وقد بدا وكأنه لم يسمع هذا الاعتراض : « كانوا يقيمون في منطقة كان ابوك قد شخص اليها ، في عهد تجواله التائه ، وعقد العزم على الاستقرار فيها . وتعاقبت المعرفة ، والالفة ، والصداقة ، في سرعة ، وكان والدك ذا مواهب يعز نظيرها عند الكثرة الكبرى من الناس ، وكان يشبه اخته جسدا وروحا . فلم يكد الضابط العجوز يزداد به معرفة حتى شرع يحبه . وكم كنت اود لو ان الامر انتهى عند هذا الحد . وكذلك شرعت ابنته تحبه بعد ان ازدادت معرفة به . »

وامسك العجوز عن الكلام . وكان مونكس يعض شفتيه ، مركزا عينيه على ارض الحجرة . وما ان لاحظ العجوز ذلك حتى استأنف حديثه قائلا :

– « ولم ينقض عام حتى عقد قرانه ، في خشوع ومهابة ، على تلك الفتاة : لقد كانت موضوع حب اول ووحيد ، حب صادق عارم كالذي يلم عادة بالفتيات البريئات .

وهنا اعلن مونكس ، وهو يتململ في كرسيه : « ان حكايتك هذه لمن اطول الحكايات . »

فرد مستر براونلو على هذه الملاحظة : « انها حكاية واقعية حافلة بالاسى والمحنة والحزن ، ايها الشاب . وامثال هذه الحكايات طويلة عادة . ولو قد كانت حكاية حافلة ببهجة وسعادة خالصتين اذن لكانت قصيرة جدا . واخيرا توفي احد اولئك الانسباء الاثرياء الذين ضحي بابيك لتدعيم مصالحهم ومراكزهم ، كما يضحي عادة باشخاص آخرين فليس هذا بالامر النادر . ولكي يعوضه من الشقاء الذي تسبب في انزاله به ترك له دواءه الشافي من ضروب الاسى كلها : المال . وكان الموقف يقتضي اباك ان يشخص في الحال الى رومة ، الى حيث كان ذلك الرجل قد فزع التماسا للشفاء ، ثم توفي تاركا شؤونه في اختلاط واضطراب بالغين . وذهب ابوك ، فألم به هناك

داء قاتل . وما ان وصل النبأ الى باريس حتى سارعت امك ـ حاملة اياك معها ـ الى الالتحاق به . ولكنه توفي في اليوم الذي تلا يوم وصولها ، غير تارك وصية ، اجل غير تارك وصية ، وهكذا انتقلت الثروة كلها اليها واليك.»

وعند هذا القسم من الحكاية حبس مونكس انفاسه ، واصغى في لهفة بالغة غلبت على وجهه ، برغم ان عينيه لم تكونا موجهتين نحو المتكلم . حتى اذا كف مستر براونلو عن الكلام عدل جلسته مثل رجل تنفس الصعداء فجأة ، ومسح وجهه المحرور ويديه المضطرمتين .

وفي بطء ، قال مستر براونلو ، مركزا عينيه على وجه الرجل الآخر : « وقبل ان يمضي الى ما وراء البحار ، وخلال مقامه القصير في لندن في طريقه الى رومة ، قام بزيارتي . »

ـ « انا لم اسمع بذلك قط ، » كذلك قاطعه مونكس في لهجة اراد بها ان تكون راشحة بعدم التصديق ، ولكنها عبرت اكثر ما عبرت عن دهش راشح بالانزعاج والضيق .

ـ لقد قام بزيارتي ، وترك عندي في جملة ما ترك صورة ... لوحة فنية بريشته هو ـ هي صورة هذه الفتاة الصغيرة البائسة ـ لم يكن راغبا في ان يخلفها وراءه ، ولكنه كان عاجزا مع ذلك عن حملها معه في رحلته العاجلة تلك . كان القلق والندم قد ابلياه حتى لامسى شبحا او كالشبح ، وحدثني بلهجة شاردة ذاهلة عن خراب وعار كان هو مسببهما ، واسر الي بعزمه على تحويل ممتلكاته كلها الى نقد ، مهما كلفه ذلك من خسارة ، وبعزمه بعد ان خصك انت وخص زوجته بجزء من ثروته الجديدة على مغادرة البلاد (وقد ادركت احسن الادراك انه لن يغادرها منفردا) وعلى عدم العودة اليها ابد الدهر . ثم ضن علي انا صديقه القديم ، صديق صباه الذي امتدت جذور مودته القوية في الثرى الذي وارى جثمان اعز الناس على فؤاده وفؤادي ... اجل ضن حتى علي انا بتفاصيل اعترافه الاخرى ، واعدا اياي بالكتابة الي وباخباري بكل شيء ، وبأن يجتمع الي بعد ذلك كرة اخرى للمرة الاخيرة على هذه الارض . واأسفاه ! لقد كانت تلك هي المرة الاخيرة . انا لم اتلق منه اية رسالة ، ولم اره بعد ذلك قط . »

وتمهل مستربراونلو لحظة ثم اضاف :«وذهبت الى مسرح حبه الـ ... (لم لا اصطنع التعبير الذي لا يتردد جميع الناس في اصطناعه، باعتبار ان القسوة او المحاباة الدنيويتين سيان عنده الآن) اجل ذهبت الى مسرح حبه المجرم. بعد ان عقدت النية على انه ، اذا ما كانت مخاوفي في محلها ، فان تلك الوليدة التائهة يجب ان تجد على الاقل سقفا يؤويها وقلبا يحنو عليها . وكانت الاسرة قد غادرت تلك المنطقة قبل ذلك بأسبوع ، لقد سألت دائنيها

ان يقدموا اليها جميع الفواتير الصغيرة غير المدفوعة ، ودفعتها كلهـا ، ثم هجرت المكان تحت جنح الظلام . اما لماذا والى اين فهذا ما لا يعرفه احد . »

وهنا تنفس مونكس الصعداء على نحو احفل بالارتياح ، واجال الطرف في ما حوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر .

ـ « ولكن حين القي اخوك ، » كذلك قال مستر براونلو وهـو يدنـي كرسيه الى كرسي الرجل الآخر ، « حين القي اخوك ، وكان طفـلا ضعيفـا مهملا رث الثياب ، في طريقي بيد اقوى من يد المصادقـة ، وحين انقذتـه من حياة الرذيلة والعار . . . »

فصاح مونكس : « مـاذا ؟ »

فقال مستر برونلو : « اجل حين انقذته انا من تلك الحياة . لقد قلت لك اني سأثير فضولك وشوقك عما قريب . . ويخيل الي الآن ان زميلـك الماكر قد كتم اسمي عنك ، على الرغم من انه كان خليقا به ـ بقدر مـا يعلم هوـان يبدو غريبا على اذنيك. حين انقذته ، اذن ، وراح يقضي فترة النقاهة في بيتي اثار دهشي شبهه العظيم بتلك اللوحة التي تحدثت عنها . وحتى عندما رايته اول مرة ، بكل ما اكتنفه من قذر وبؤس، كانت على محياه انطباعة متخلفة بدهتني مثل لمحة من صديق قديم اومضت في حلم نابض . ولست في حاجة الي انبائك انهم اوقعوه في الشرك واستردوه منه قبـل أن اعرف قصته . . . »

فسارع مونكس الى السؤال : « وما الذي يجعلك في غير حاجة الـى ذلـك ؟ »

ـ « لانك تعرفه جيدا . »

ـ « انـا ! »

فأجابه مستر براونلو : « انكارك هذا عبث لا طائل تحته . سوف اريك اني اعرف اكثر من هذا . »

فقال مونكس متلعثما : « انت . . . انت . . لا تستطيع ان تثبـت اي شيء ضدي . اني اتحداك ان تفعل ذلك . »

فرد عليه الرجل العجوز وهو يحدجه بنظرة فاحصة : « سوف نرى لقد اضعت الغلام ، ولم تستطع جهودي كلها ان تهديني الى مقـره . ولمـا كانت امك ميتة فقد عرفت انك وحدك قادر على حل اللغز ، اذا ما كان فـي امكان اي امرىء ان يحله . ولما كنت ، يوم سمعت بك اخيرا في ممتلكاتـك الخاصة في جزائر الهند الغربية ـ الى حيث كنت قد فزعت عقب وفاة امك لكي تتجنب نتائج سيرتك الآثمة هنا ـ فقد رحلت انا الى هناك . ولكنـك كنت قد غادرت تلك الجزائر قبل بضعة اشهر ، وكان مظنونا انك في لندن ،

ولكن احدا لم يكن يدري اين . وانقلبت الى لندن من جديد . فاذا بوكـلاء اعمالك يجهلون مقرك جهلا كاملا . لقد قالوا لي انك وفدت ومضيت لسبيلك بمثل الطريقة الغريبة التي تعودت اصطناعهـا دائما . كانوا يرونك احيانـا بعد بضعة ايام من ذلك ، ثم تحتجب عن اعينهم طوال اشهر بكاملها . واغلب الظن انك كنت تواصل اختلافك الى المواطن الوضيعة نفسهـا واتصالـك بعصابة الاشرار نفسها التي الفت الاختلاط بها منذ كنتغلاما ضاريا متمردا. والواقع اني اضجرت اولئك الاشرار بمراجعاتي المستمرة . وجبت الشوارع ليل نهار ، ولكن جميع جهودي ظلت ـ الى ما قبل ساعتين اثنتين ـ عبثا لا طائل تحته . ولم تقع عيني عليك لحظة واحدة . »

فقال مونكس وهو ينهض في جسارة : « وها انت ذا تراني الآن . ثـم ماذا ؟ ان التزوير والسرقة كلمتان طنانتان ـ كلمتان يبررهما ، في اعتقادك ، شبه متخيل بين عفريت صغير وبين صورة تافهة رسمتها ريشة رجل ميت . اخ ! انت لا تعرف حتى ما اذا كان ذانك الزوجان العاطفيان قد انجبـا ولدا . انت لا تعرف حتى هذا . »

فأجابه مستر براونلو وقد نهض هو الآخر : « انا لم اكن اعرف ذلك ، ولكني عرفت خلال الايام الخمسة عشر الاخيرة كل شيء . ان لك اخا . انت تعرف هذا وتعرف اخاك . ولقد كانت ثمة وصية اتلفتها امك ، تاركة لك السر والربح لدن وفاتها . وكانت تلك الوصية تشتمل على اشارة الى طفل كان من المحتمل ان يكون ثمرة تلك العلاقة التعيسة ، وهو طفل ولد فعـلا ، ولقد التقيتـه مصادفة ، عندما اثيرت شكوكك اول ما اثيرت بما بينه وبين ابيه من شبه . ولقد شخصت الى مسقط راسه . وكانت ثمة بينـات ـ بينات طالما اخفيت ـ على ولادته ونسبه . وهذه البينات اتلفتها انـت بنفسـك ، والآن ، وبكلماتك نفسها التي وجهتها الى اليهودي شريكك في الجريمة ، فان **« الادلة الوحيدة على هوية الغلام تستقر في قاع البحر ، وعظام العجوز التي تلقتها من امه تبلى في نعشها »** . افلا تزال ، ايهـا الابن الساقط الجبـان الكذاب ... انت يا من يعقد اجتماعاته مع اللصوص والقتلة ليلا في غرف مظلمة ... انت ، يا من افضت مؤامرتك ومكائدك الى مقتل مخلوقة تساوي ملايين من مثلك ... انت ، يا من افعمت منـذ كنت في المهد قلـب والدك نفسه بالسخط والمرارة ، ويا من تقيحت فيـك جميع المشاعـر الشريـرة وضروب الرذيلة والفجور حتى وجدت متنفسا لها فـي داء رهيـب جعـل وجهك صورة عن روحك نفسها .. انت ، ادورد ليفورد ، الا تزال مصرا على ان تتحدانـي ؟ »

ـ « لا ، لا ! » كذلك اجابه الجبان ، وقد اذهلته هذه التهم المتراكمة .

وهنا صاح السيد العجوز : « ان كل كلمة ، اجل كل كلمة ، دارت بينك وبين ذلك الوغد البغيض معروفة لدي . ان الظلال المرتسمة على الجدار قد تلقفت همساتك وحملتها الى اذني . ومشهد الطفل المضطهد خلق الرذيلة نفسها خلقا آخر ، ومنحها الشجاعة بل منحها صفة الفضيلة ايضا . واقترفت جريمة قتل كنت انت فيها شريكا معنويا ان لم تكن شريكا فعليا . »

فقاطعه مونكس : « لا . لا . انا ... انا لا اعرف شيئا عن ذلك . كنت في سبيلي الى البحث عن حقيقة هذه القصة عندما فاجاتني . انا لم اعرف الباعث على ذلك . لقد حسبت انه كان نزاعا عاديا . »

فقال مستر براونلو : « كان الباعث على ذلك هو انها باحت ببعض اسرارك . فهل لك ان تبوح بكامل تلك الاسرار ؟ »

ـ « نعم . انا مستعد . »

ـ « امستعد انت لان تكتب بيانا بالحقيقة والوقائع ، وان تشهد عليه بعض الشهود ؟ »

ـ « اعدك بذلك ايضا . »

ـ «وتعدني بأن تبقى هنا ، ملتزما الهدوء، ريثما تُعَد الوثيقة، ثم تمضي معي الى الموطن الذي اراه انسب المواطن للشهادة على صحتها ؟ »

فأجابه مونكس : « اذا اصررت على ذلك نزلت عند رغبتك ايضا . »

فقال مستر براونلو : « يتعين عليك ان تفعل اكثر ذلك . وهو ان ترد الحق السليب الى غلام بريء كل البراءة ، اذ هكذا هو في الواقع برغم انه ثمرة حب مجرم ليس اتعس منه . انت لما تنس شروط الوصية ، فنفذها بقدر ما يتعلق الامر بأخيك ثم امضِ في سبيلك حيث شئت . فليس ينبغي لكما ان تلتقيا في هذا العالم منذ اليوم . »

وفيما كان مونكس يذرع الحجرة جيئة وذهوبا متاملا ــ وقد غلب على وجهه التجهم والشر ــ في هذا الاقتراح وفي امكانيات التملص منه ، تتجاذبه مخاوفه من ناحية وكراهيته من ناحية ، فتح الباب على عجل ودخل سيد (مستر لوزبيرن) الحجرة في اهتياج عنيف .

وصاح : « سوف يلقى القبض على الرجل . سوف يلقى القبض عليه الليلة ! »

فساله مستر براونلو : « القاتل ؟ »

فاجابه الآخر : « نعم .. نعم . لقد راوا كلبه قابعا على مقربة من ماوى عتيق ، ويبدو انه ليس ثمة كبير شك في ان سيده هناك ، او انه سوف يفد الى هناك تحت جنح الظلام . ان العيون والارصاد ليحومون حول المكان في كل ناحية . ولقد تحدثت الى المكلفين بالقاء القبض عليه ، فقالوا لي انه لا

يستطيع ان يولي فرارا . والليلة ستعلن الحكومة عن تخصيص جائزة مقدارها مئة جنيه لمن يرشد اليه . »

فقال مستر براونلو : « ولسوف اقدم انا خمسين جنيها اضافية . اني ساعلن ذلك بشفتي هاتين في ايما مكان يتم فيه القاء القبض عليه ، اذا ما استطعت بلوغه . اين مستر مايلي ؟ »

ـ « هاري ؟ انه لم يكد يرى صديقك هذا في المركبة معك ، تحت حراسة شديدة ، حتى هرع الى حيث سمع النبأ الذي اعلنته . » كذلك اجاب الطبيب : « ثم انه امتطى صهوة جواده وانطلق للالتحاق بالفصيلة الاولى في مكان ما من الضواحي متفق عليه بينهما . »

فسأله مستر براونلو : « وفاجين ؟ ماذا حلّ به ؟ »

ـ « حين سمعت عنه آخر مرة لم يكن قد اعتقل بعد ، ولكنه سوف يعتقل قريبا ، ولعل اعتقاله ان يكون قد تم الآن . انهم على يقين من ايقاعه في الشرك . »

وهنا التفت مستر براونلو الى مونكس وساله في صوت خفيض : « هل عقدت العزم ؟ »

فأجابه : « نعم . ولكن ... هل ... هل ستكتم سري ؟ »

ـ « سوف افعل . ابق هنا ريثما اعود . هذا هو املك الوحيد في السلامة . »

وغادرا الحجرة ، واقفل الباب كرة اخرى .

وساله الطبيب في همس : « ماذا فعلت ؟ »

ـ « كل ما كنت ارجو ان افعله ، بل اكثر من ذلك . لقد زاوجت ما بين المعلومات التي افضت بها الفتاة البائسة وبين معلوماتي السابقة وبين نتائج الاستطلاع الذي قام به هناك صديقنا الممتاز ، وبذلك لم ادع له منفذا يفر منه ، وكشفت القناع عن سفالته كلها التي امست تحت هذه الاضواء واضحة كالشمس في رابعة النهار . سجل وحدد الساعة السابعة ، من مساء بعد غد ، موعدا للاجتماع . ولسوف نكون هناك قبل الموعد بساعات قليلة ، ولكننا سوف نجد انفسنا في حاجة الى الراحة ، وبخاصة السيدة الصغيرة ، التي قد يقتضيها الموقف قدرا من رباطة الجاش اعظم مما يستطيع اي منا ان يتنبأ به الان . ولكن دمي يغلي توقا الى الانتقام لتلك المخلوقة البائسة المقتولة . اية سبيل سلكوا ؟ »

فأجابه مستر ليزبورن : « امض الى مخفر الشرطة مباشرة ، تصل في الوقت المناسب . اما انا فسوف ابقى هنا . »

وافترق الرجلان في الحال ، وفي نفس كل منهما حمى اهتياج لا سبيل الى كبحها البتة .

الفصل الخمسون
المطاردة والفرار

على مقربة من ذلك الجزء من نهر التايمس الذي تحاذيه كنيسة روذرهايث ، حيث المباني على الضفتين هي الاقذر وحيث المراكب في النهر هي الاشد اسودادا بسبب من غبار الفحامين ودخان البيوت المتلازة الخفيضة السقوف ، يقوم اقذر واغرب واعجب حي من الاحياء الكثيرة المخبوءة في لندن ، والمجهولة جهلا كاملا هي واسماؤها ايضا عند جمهرة السكان العظمى .

ولبلوغ هذا الموطن يتعين على الزائر ان يخوض في متاهة من الطرق المتلازة ، الضيقة ، الموحلة ، المزدحمة بأبناء الشاطىء النهري الاشد فقرا وجلافة ، والمكرسة للتجارات التي يقتضيها وجودهم هناك . ان السلع الاشد رخصا والاقل رقة لتتراكم في الدكاكين ، وان الملابس الاشد خشونة وابتذالا لتتدلى على ابواب التجار وتتماوج من النوافذ واسوار البيوت . ويتعين على ذلك الزائر ان يدفع بمنكبيه عمالا من الطبقة الدنيا عاطلين عن العمل وعددا من ناقلي الحصى ، وسائقي عربات الفحم ، والنسوة السليطات والاطفال الذين لا تعلو اجسادهم غير اسمال تالية ، واوغاد النهر واوباشه ، فيما هو يشق طريقه في صعوبة وعسر ، تزعجه مشاهد بغيضة وروائح كريهة منبعثة من الازقة الضيقة المتشعبة ذات اليمين وذات الشمال ، وتصمه قرقعة عربات النقل الثقيلة المحملة بأكوام ضخمة من بضائع المستودعات الناجمة من كل زاوية . حتى اذا انتهى آخر الامر الى شوارع ابعد واشد ايحاشا من تلك التي كان قد اجتازها ، تعين عليه ان يمشي تحت واجهات منازل متداعية ، ناتئة فوق الرصيف ، وجدران عارية بدت وكأنها تتداعى للسقوط فيما هو يجتاز بها ، ومداخن انهار من كل منها نصفه وتردد النصف الآخر في الانهيار ، ونوافذ تحميها قضبان حديدية صدئة كاد الزمن والقذر ان يلتهماها ، وجميع علائم الهجر والاهمال التي يستطيع المرء ان يتخيلها .

في هذه البقعة ، وراء « دوكهيد » في مقاطعة « ساوثوارك » ، تقع « جزيرة يعقوب» Jacob's Island يحيط بها خندق موحل يبلغ عمقه ستة اقدام او ثمانية ، وخمسة عشر قدما او عشرين عندما يكون المد مرتفعا ، خندق كان يدعى يوما « بركة المصنع » Mill Pond ولكنه عرف في ايام هذه القصة باسم « خندق الحماقة » Folly Ditch . انه جدول

او نهير متفرع من التايمس ، ويمكن دائما غمره ، عند ارتفاع المد ، بفتح السدود القائمة عند مصنع الرصاص الذي استمد اسمه القديم منه . وفي احوال كهذه ، يرى الغريب ــ حين ينظر الى « ميل لاين » من احد الجسور الخشبية التي تمتد فوقه ــ نزلاء البيوت القائمة على كل من الجانبين وهم يدلون من ابوابها الخلفية ونوافذها دلاء متنوعة وآنية بيتية من كل ضرب ليسحبوا بها الماء . حتى اذا حول عينه عن هذه العمليات الى المنازل نفسها كان خليقا بدهشه ان يستثار اعظم الاستثارة بالمشهد الذي امامه : شرفات خشبية متشققة متصلة بمؤخرات نصف دزينة من البيوت على نحو مشترك تتخللها ثقوب تمكن النزلاء من النظر الى الحمأة المنبسطة تحتها ، ونوافذ محطمة مرقعة نتأت منها اوتاد لتجفيف البياضات التي لم توجد هناك البتة ، وحجرات بالغة الصغر ، بالغة القذارة ، بالغة الضيق بحيث يبدو الهواء فيها فاسدا حتى بالنسبة الى الاوساخ والاقذار التي تؤويها ، وغرف خشبية مقحمة نفسها فوق الوحل متوعدة بالسقوط فيه ، فعل بعضها من قبل ، وجدران ملوثة بالوسخ وآساسه مهترئة ، وكل ملامح الفقر المنفرة ، وكل امارة بغيضة من امارات النجاسة والتعفن والقمامة . ان هذه كلها لتزين ضفتي « خندق الحماقة » ذاك .

والمخازن ، في « جزيرة يعقوب » كلها فارغة لا سقف لها . الجدران متداعية للسقوط ، والنوافذ لم تعد نوافذ الا على المجاز ، والابواب منهارة الى الشوارع ، والمداخن مسودة ولكنها لا ترسل اي دخان . لقد كانت تلك الجزيرة ، منذ ثلاثين او اربعين عاما ، وقبل ان تداهمها الكوارث المالية والدعاوى امام المجلس العدلي ، موطنا نابضا بالحياة ، اما اليوم فهي جزيرة مهجورة حقا . فالبيوت لا مالكين لها ، يقتحمها ويلجها كل من آنس في نفسه الشجاعة ، وهناك يعيشون ، وهناك يموتون . ان من يفزعون الى « جزيرة يعقوب » يجب ان تكون لديهم دوافع قوية تغريهم بالعيش الملفع بالسرية او يجب ان يكونوا قد دفعوا الى حال من البؤس يائسة .

في حجرة عليا من احد هذه المنازل ــ منزل منعزل ذي حجم لا بأس به ، خرب من نواح اخرى ، ولكن ابوابه ونوافذه تزوده بحماية قوية : منزل تشرف مؤخرته على الخندق بطريقة سبق لنا ان وصفناها ــ اجتمع ثلاثة رجال . لقد نظر بعضهم الى بعض ، بين الفينة والفينة نظرات تعبر عن الارتباك والتوقع القلق ، واعتصموا فترة من الزمان بصمت عميق مكتئب . فأما احدهم فكان توبي كراكيت ، واما الثاني فكان مستر تشيتلينغ ، واما الثالث فكان لصا في الخمسين من عمره كاد انفه ان يهشم في شجار

قديم ما وكان وجهه يحمل ندبة ربما رجع عهدها الى تلك الحادثة نفسها . كان هذا الرجل مجرما عائدا من المنفى وكان اسمه كاغز .

وقال توبي ملتفتا الى مستر تشيلينغ : « كنت اتمنى لو انك اخترت مخبأ آخر عندما فاحت رائحة المخبأين القديمين ، ولو انك لم تأت الى هنا يا صاحبي العزيز . »

فقال كاغز : « لم لم تفعل . ايها الاحمق ؟ »

فأجابه مستر تشيتلينغ في نبرة كئيبة : « حسنا ، لقد ظننت ان رؤيتي سوف توقع في نفسك قدرا من الابتهاج اكثر قليلا من هذا . »

فقال توبي : « ولكن يحسن بك ان تعلم ، ايها الفتى ، انه حين يعرف المرء كيف يعتزل الناس اعتزالا تاما ، كما فعلت انا ، وبذلك يوفق الى سقف آمن يظل راسه من غير ان يتجسس احد عليه ، فعندئذ يكون من المزعج بعض الشيء ان يشرف بزيارة يقوم بها فتى تكتنفه ظروف مثل ظروفك (مهما يكن محترما ، ومهما يكن من الممتع اللعب معه بالورق في بعض المناسبات) » .

فأضاف مستر كاغز : « وبخاصة حين يكون في ضيافة الفتى المعتزل صديق رجع من بعض البلاد الاجنبية على نحو اسرع مما كان متوقعا : وهو من شدة التواضع بحيث لا يرغب في المثول بين ايدي القضاة لدن عودته . »

وران صمت وجيز بدأ توبي كراكيت بعده وكأنه اعتبر ان من العبث الذي لا طائل تحته ان يقوم بأي جهد اضافي للاحتفاظ بتبجحه اللامبالي فالتفت الى تشيتلينغ وقال :

ـ « متى القي القبض على فاجين ، اذن ؟ »

ـ « في ساعة الغداء تماما ... في الساعة الثانية من هذا الاصيل . اما انا وتشارلي فوفقنا الى الفرار من طريق المدخنة التي في حجرة الغسيل، واما بوتلر فاختبأ في صهريج الماء الفارغ ، جاعلا راسه في الجزء الادنى منه . ولكن قدميه كانتا من الطول بحيث برزتا من اعلى الصهريج ، وهكذا القوا القبض عليه ايضا . »

ـ « وبت ؟ »

ـ « مسكينة بت ! لقد ذهبت لترى الى الجثة ، لتقول كلمة للفتاة التي كانتها »كذلك اجاب تشيتلينغ ، وقد اكفهر وجهه اكثر فاكثر « واصابها مس من جنون ، فراحت تصرخ وتهذي ، ناطحة جدران الحجرة الخشبية براسها . فما كان منهم الا ان البسوها صدرة السجن واقتادوها الى المستشفى ... حيث هي الآن . »

فسأله كاغز : « وماذا حل ببابيتس الصغير ؟ »

فأجاب تشيتلينغ : « لقد تسكع بعض الشيء لكي لا يصل الى هنا

قبل العتمة ، ولكنه سوف يجيء عما قريب . فليس ثمة الآن مكان آخر يستطيع الذهاب اليه ، لان جماعة «حانة المقعدين» كلهم قد اعتقلوا ، ومشرب الدكان (لقد ذهبت الى هناك ورايته بعيني) مليء برجال الشرطة . »

فأعلن توبي وهو يعض شفتيه : « هذه كارثة . ولسوف تكون هذه هي النهاية لاكثر من غلام واحد . »

فقال كاغز : « المحاكمات جارية . واذا ما وفقوا الى ختم التحقيق ، وشهد علينا بوتلر واضعا نفسه في خدمة الملك – وهو شيء لا بد ان يفعله ، كما يستدل مما سبق له ان قاله – فعندئذ يستطيعون ان يقيموا الدليل على ان فاجين شارك في اعداد الجريمة * ، ويعينون يوم الجمعة موعدا لمحاكمته ، ولن تنقضي ايام ستة حتى يتأرجح على اعواد المشنقة ... »

وقال تشيتلينغ : « كنت اتمنى لو انك سمعت الناس يزمجرون ! لقد قاتل رجال الشرطة كالابالسة ، ولولا ذلك لمزق اربا اربا . وخر على الارض لحظة ، ولكنهم ضربوا نطاقا حوله ، وشقوا طريقهم في آن معا . كنت اتمنى لو انك رايت اليه كيف كان يجيل نظره في ما حوله ، وقد كسي بالطين وتدفق الدم من جراحه ، وقد تشبث بهم وكأنهم اعز اصدقائه .. ان في استطاعتي ان اتمثلهم الآن ، غير قادرين على تثبيت اقدامهم فوق الارض بسبب من تدافع الحشود حولهم ، وقد سحبوه وسطها . وفي استطاعتي ان اتمثل الناس يثبون عن الارض ، واحدا وراء واحد ، مكشرين عن انيابهم ، ويندفعون نحوه . وفي استطاعتي ان ارى الدم على شعره ولحيته ، واسمع الصيحات التي شقت النسوة بها طريقهن الى وسط الحشد عند زاوية الشارع ، مقسمات ليقتلعن قلبه من صدره اقتلاعا ! »

وضغط الراوي المذعور الذي قدر له ان يرى الى هذه المشاهد كلها .. ضغط يديه على اذنيه ، ثم نهض مغمض العينين ، وراح يذرع الحجرة في عنف جيئة وذهوبا ، مثل رجل شارد اللب .

وفيما هو منهمك في تذريعه هذا ، وقد قعد الرجلان صامتين مركزين اعينهما على الارض ، سمع على السلم وقع اقدام طفيف . وقفز كلب سايكس الى الحجرة ، فهرعوا الى النافذة ، وهبطوا السلم ، واندفعوا الى الشارع . كان الكلب قد دخل واثبا من نافذة مفتوحة . انه لم يقم بأية محاولة للحاق بهم ، لا ولم يكن ثمة لسيده اثر ما .

وقال توبي بعد ان رجعوا : « ما معنى هذا ؟ انه لا يمكن ان يكون آتيا الى هنا . انا .. انا .. ارجو ان لا يفعل . »

– « لو كان آتيا الى هنا اذن لجاء مع الكلب . » كذلك قال كاغز ، منحنيا ليتفحص الحيوان الذي كان قد انطرح لاهثا على ارضية الحجرة :

* يقصد الجريمة التي ذهبت نانسي ضحيتها

« هاي ! فلياتني احدكما ببعض الماء من اجله ، لقد سقط مغشيا عليه من الاسراف في العدو . »

وقال تشيتلينغ بعد ان راقب الكلب فترة في صمت : « لقد شرب الماء كله حتى النقطة الاخيرة . وهو مكسو بالوحل ... اعرج .. نصف اعمى .. ولا ريب في انه قد اقبل من مكان بعيد . »

فصاح توبي : « من اين يمكن ان يكون قد اقبل ؟ لقد الم ، طبعا ، بالاكواخ الاخرى ، حتى اذا الفاها غاصة بالغرباء اقبل الى هنا ، حيث تعود ان يقبل في كثير من الاحيان . ولكن من اين يمكن ان يكون قد اقبل اولا ، وكيف جاء الى هنا وحده من غير الآخر ! »

فقال تشيتلينغ : « انه ... » (ان احدا لم يجرؤ على تسمية القاتل باسمه القديم) ، انه لا يمكن ان يكون قد انتحر . ما رايكما ؟ »

فهز توبي راسه .

وقال كاغز : « لو انه انتحر ، اذن لاعلن الكلب عن رغبته في اقتيادنا الى حيث اقدم على فعلته هذه . لا . انا اعتقد انه غادر البلاد ، وخلف الكلب وراءه . ولا بد انه قد فر من وجهه بطريقة ما ، والا لكان حزن الكلب اعظم واشد .

واذ بدا هذا الراي اكثر احتمالا من ايما راي آخر فقد تبنته الجماعة واعتبرته الحل الصحيح . وانسل الكلب تحت احد الكراسي . والتف على نفسه مستسلما للرقاد ، من غير ان يراقبه بعد ذلك احد .

وكانت العتمة قد هبطت الان ، فاوصدت مصاريع النوافذ ، واضيئت شمعة ووضعت على الطاولة . كانت احداث اليومين الاخيرين الرهيبة قد تركت اثرا عميقا في نفوس الثلاثة جميعا ... اثرا زاده عمقا ان الخطر كان محدقا بهم وانهم كانوا غير مطمئنين الى وضعهم . وادنى كل منهم كرسيه الى كرسي الآخر ، مجفلا لدن سماعه اي صوت . وتحدثوا بعض الشيء ، وكان حديثهم همسا ، ثم اعتصموا بصمت مشوب بالذعر المزلزل وكأن جثمان المراة القتيل مسجى في الحجرة التالية .

وكانوا قد جلسوا على هذا النحو ، فترة من الزمن ، عندما سمعوا فجاة قرعا متعجلا على باب المدخل .

ـ « هذا هو بايتس الصغير ، » كذلك قال كاغز ، مجيلا طرفه في ما حوله بغضب ، لكي يكبح الخوف الذي استبد به .

وقرع الباب من جديد . لا ، انه لم يكن هو . ان بايتس لم يسبق له ان قرع الباب على هذا النحو البتة .

ومضى كراكيت الى النافذة ، وحين انقلب عائدا انقلب والرعدة تسري

في أوصاله كلها . ولم يكن ثمة حاجة لاخبارهم من القادم . فقد كان وجهه الشاحب يفصح عن ذلك . واخذ الكلب حذره ، لحظة ، وهرع الى الباب وهو يعوي .

وقال رافعا الشمعة : « ان علينا ان نسمح له بالدخول . »

فسأله الرجل الآخر في صوت أجش : « أليس لنا من ذلك مناص ؟ »

ـ « لا . انه يجب ان يدخل . »

ـ « لا تتركنا في الظلام ، » كذلك قال كاغز وتناول شمعة كانت على اطار الموقد ، واضاءها بيد مرتعشة الى حد ان القرع كرر مرتين قبل ان يفرغ هو من ذلك .

وهبط كراكيت الى الباب ، ثم عاد يتبعه رجل كان وجهه محجوبا بمنديل ، وكان منديل آخر معقودا حول راسه تحت قبعته . ونزعهما في بطء ، كاشفا عن وجه شاحب ، وعينين غائرتين ، وخدين اجوفين ، ولحية لم تحلق منذ ايام ثلاثة ، وجسم مضنى ، لاهثا لهاثا شديدا . كان ذلك الرجل هو سايكس نفسه .

ووضع يده على كرسي قائم في وسط الحجرة ، ولكنه ارتعد فيما كان يحاول الارتماء عليه ، وبدا وكانه يجيل طرفه حوله ، ثم سحبه الى الوراء على مقربة من الجدار ـ اقصى مقربة من الجدار ـ واسنده اليه ، وقعد .

ولم تتبادل اية كلمة. ونقل الرجل طرفه من واحد من الجماعة الى آخر، في صمت . فاذا اتفق لعين ان ترتفع اليه خلسة وتلتقي عينه ، سارع الى اجتنابها في الحال . حتى اذا قطع صوته الغائر الصمت ، اجفلوا ثلاثتهم . لقد بدوا وكأنهم لم يسمعوا نبراته من قبل .

لقد سأل : « كيف جاء هذا الكلب الى هنا ؟ »

ـ « وحده . منذ ثلاث ساعات . »

ـ « ان الصحيفة الصادرة الليلة تقول ان فاجين قد القي القبض عليه. هل هذا صحيح ام كذب ؟ »

ـ « صحيح . »

فقال سايكس ممرا يده عبر جبينه : « عليكم اللعنة جميعا ! اليس لديكم ما تقولونه لي ؟ »

وأتوا بحركة تنم عن قلق واضطراب ، ولكن أيا منهم لم يتكلم .

فقال سايكس ملتفتا الى كراكيت : « وانت ، يا من يدير هذا البيت ، هل تعتزم ان تبيعني للسلطة ام ان تدعني اقيم هنا حتى تنتهي هذه المطاردة؟»

ـ « في استطاعتك ان تمكث هنا ، اذا وجدت ان ليس ثمة اي خطر ،»

كذلك اجابه الشخص المخاطب ، بعد شيء من التردد .

ورفع سايكس بصره ، في اناة ، الى اعلى الجدار القائم خلفه ، محاولا ان يدير راسه اكثر منه مقدما على ذلك فعلا ، وقال : « هل ... هل ... الجثة ... قد دفنت ؟ »

وهزوا برؤوسهم .

ـ « ولم لم تدفن ؟ » كذلك تساءل ملقيا النظرة نفسها على الجدار القائم خلفه . « لاي غرض يبقون مثل هذه الاشياء القبيحة فوق سطح الارض ؟ من الذي يقرع الباب ؟ »

فأفهمه كراكيت ، بأيماءة من يده بينما كان يغادر الحجرة ، ان ليس ثمة ما يدعو الى الخوف . وسرعان ما انقلب عائدا يتبعه تشارلي بايتس . وكان سايكس جالسا قبالة الباب ، فلم يكد الغلام يدخل الحجرة حتى وجد نفسه امامه وجها لوجه .

ـ « توبي ، » كذلك قال الغلام مرتدا الى الوراء حين حول سايكس عينيه نحوه ، « لماذا لم تنبئني بهذا ونحن في الطابق الاسفل ؟ »

كان ثمة شيء رهيب في انكماش الثلاثة جميعا ، فنزع المسكين الى استرضاء هذا الغلام الصغير . وهكذا اومأ براسه وتظاهر برغبته في مصافحته .

ـ « فلنمض الى حجرة اخرى . » كذلك قال الغلام وهو ينكفىء اكثر فاكثر .

وقال سايكس مندفعا الى امام : « تشارلي ! الا .. الا تعرف من انا ؟ »

فأجابه الغلام ، وهو يمعن في الانكفاء ، ناظرا ـ والذعر في عينيه ـ الى وجه القاتل : « لا تدن مني ايها الوحش ! »

فكف الرجل عن السير ، وتبادلا النظرات . ولكن عيني سايكس انخفضتا ، شيئا بعد شيء ، نحو الارض .

ـ « اشهدوا ثلاثتكم ، » كذلك صاح الغلام هازا جمع كفه المطبق ، مهتاجا اكثر فاكثر بينما كان يتكلم : « اشهدوا ثلاثتكم ... انا لست خائفا منه ... واذا ما جاءوا الى هنا للقبض عليه اسلمته اليهم . سوف افعل . اجل ، انا احيطكم بذلك علما منذ هذه اللحظة . وقد يقتلني من اجل ذلك اذا شاء ، او اذا جرؤ ، ولكني ان كنت هنا اسلمته اليهم . ولسوف أسلمه اليهم ولو علمت انهم سيسلقونه حيا في الماء الحار . القاتل ! النجدة ! واذا كان في كل منكم ، انتم الثلاثة ، قلب رجل عمدتم الى مساعدتي . القاتل ! فليسقط القاتل ! »

وفيما الغلام يطلق هذه الصيحات ، مرفقا اياها بايماءات عنيفة ، هجم

بمفرده على الرجل القوي فطرحه على الارض ، بفضل قوته المحشودة ومفاجآته الخاطفة ، طرحا ثقيلا .

وبدا المشاهدون الثلاثة وكأن الانشداه قد غلب عليهم . انهم لم يحاولوا التدخل البتة ، فراح الغلام والرجل يتدحرجان على الارض معا . ولم يبال اولهما باللكمات التي انهالت عليه ، فانشب اظفاره على نحو كان لا يزداد الا احكاما في الملابس المحيطة بصدر القاتل ، غير منقطع عن اطلاق صيحة النجدة بكامل قوته .

ولكن قوى الخصمين كانت غير متكافئة الى حد جعل من المتعذر ان يستمر الصراع طويلا . وكان سايكس قد جمده تحته ، واضعا ركبته على رقبته عندما جذبه كراكيت حادجا اياه بنظرة راشحة بالذعر واومأ الى النافذة . كان ثمة اضواء تومض تحت ، واصوات عالية تتجاذب اطراف حديث جاد ، ووقع اقدام متعجلة ــ بدت وكأن عددها لا نهائي ــ تعبر اقرب جسر خشبي . وبدا وكأن ثمة بين الحشد رجل على صهوة جواد ، اذ كان ثمة صدى حوافر تطقطق على ارض الشارع غير المستوية . وتعاظم وهج الاضواء ، وغدا وقع الاقدام اشد قوة واكثر صخبا . ثم انهم سمعوا قرعا عنيفا على الباب ، ثم دمدمة مبحوحة من جمهرة من الاصوات الغضبى خليقة بأن توقع الرعب في قلب اجرا الناس واشجعهم .

ــ « النجدة ! « كذلك صاح الغلام في صوت مزق الهواء . » انه هنا ! اكسروا الباب ! »

« باسم الملك ! » كذلك صاحت الاصوات من الخارج . وارتفعت الصيحة المبحوحة من جديد ، ولكن على نحو اعلى واقوى .

وصاح الغلام : « اكسروا الباب ! اقول لكم انهم لن يفتحوه ابدا . اركضوا مباشرة الى الحجرة المضاءة . اكسروا الباب ! »

وانهالت على الباب ومصاريع النوافذ الدنيا ، عندما كف الغلام عن الكلام ، ضربات ثقيلة داوية ، وهتافات من الحشد عالية ، اعطت السامع ــ للمرة الاولى ــ فكرة كافية عن ضخامته الهائلة .

ــ « افتحوا باب موضع من المواضع استطيع ان احتجز فيه هذا الغلام الجهنمي الزاعق » كذلك صاح سايكس في ضراوة ، راكضا جيئة وذهوبا ، جارا الغلام الآن في سهولة بالغة حتى لكأنه عدل فارغ . ثم اضاف : « ذلك الباب ! عجلوا ! » ودفعه الى تلك الحجرة ، واحكم اغلاق بابها بالمزلاج ، وادار المفتاح : « هل باب الطابق السفلي مقفل ؟ »

ــ « مقفل قفلا مزدوجا ومدعم بالسلاسل ، » كذلك اجابه كراكيت الذي كان لا يزال هو والرجلان الآخران عاجزين كل العجز مشدوهين كل

الانشـــداه .

ــ « والواح الباب ... اهي قويـــة ؟ »

ــ « انها مطوقة بحديد مصفح . »

ــ « والنوافذ ايضا ؟ »

ــ « اجل ، والنوافذ . »

ــ « عليكم اللعنة ! » كذلك صاح الوغد اليائس . رافعا النافذة المؤطرة ، متوعدا الحشد . « ابذلوا ما استطعتم من جهد ! فلن امكنكم من نفسي ! »

ومـــن بين جميع الصيحـــات الرهيبـــة التي قـــدر أن تطرق الآذان البشرية لم يكن ثمة ما هو أقوى من صيحة ذلك الحشد المسعور . وصاح بعضهم لاولئك الذين كانوا ادنى الى الهدف ودعوهم الـــى اضرام النار فـــي المنزل . وهدر آخرون طالبين من رجال الشرطة ان يطلقوا النار عليه فيردوه قتيـــلا . ومن بينهم جميعا لم يتكشف احد عن مثل الهيـــاج المجنون الـــذي تكشف عنه الرجل المتطي صهوة الجواد : لقد وثب من علـــى السرج فشق الحشد وكأنه يشق طريقه في الماء وصاح ، تحت النافذة ، في صوت ارتفـــع فوق اصوات الآخرين كلها : « عشرون جنيها لمن يأتيني بالمرقاة !»

ورددت الاصوات ، الاشد قربا ، هذه الصيحة ، ورجع المئات صداها. وراح بعضهم يطالب بالحصول على المراقي ، وبعضهم يطالب بالحصول علـــى المطارق الكبيرة . واخذ آخرون يعدون جيئة وذهوبا حاملين المشاعل وكأنهم يبحثون عنها ، ثم انقلبوا عائديـــن وانشأوا يهدرون كـــرة اخـــرى . وانفق آخرون انفاسهم في لعنات وشتائم واهنة ، واندفع غيرهم الـــى امـــام بمثل نشوة المخالطين في عقولهم ، وبذلك عاقوا تقدم من كانوا تحت . وحاول نفر من إكثرهم جراة ان يتسلقوا الجدار بواسطة ميازيب المياه والفجوات التـــي فيـــه . وتمايل الجميع ذات اليمين وذات الشمال ، في الظلمة المحيطة بهم ، مثل حقل من القمح تعبث به ريح غاضبة . واشتركـــوا بين الفينة والفينة في اطلاق زمجرة واحدة ضارية .

وقال القاتل ، حين ارتد الى الحجرة في خطـــى مترنحة ، واوصـــد النافذة لكي لا يرى تلك الوجوه : « لقد كان المد عاليا عندما اقبلت . اعطوني حبلا ، حبلا طويلا . انهم متجمعون كلهم عند الجزء الامامي من المنزل ، وفـــي استطاعتي ان اقفز الى « خندق الحماقة » واولي من هناك فرارا . اعطوني حبلا ، والا ارتكبت ثلاث جرائم قتل اخرى وقتلت نفسي . »

واوما الرجال المذعورون الى حيث يحفظ مختلف الاشياء المماثلة . فلم يكن من القاتل الا ان سارع لاختيار اطول الحبال واقواها ، وهرع الى اعلى المنزل .

كانت النوافذ التي في مؤخرة المنزل قد سدت كلها بالآجر منذ عهد بعيد ، ما خلا فرجة صغيرة في جدار الحجرة التي حبس فيها الغلام ، ولكن تلك الفرجة كانت أصغر من ان تتسع حتى لمرور جسم مثل جسمه. ومع ذلك، فانه لم يكف لحظة عن دعوة من كانوا في الخارج ــ من هذه الكــوة نفسها ــ الى ضرب الحراسة على مؤخرة المنزل . وهكذا لم يكد القاتل يبرز فوق اعلى المنزل ، من خلال الباب الذي في السطح ، حتى اعلنت هذه الحقيقة صيحة مدوية بلغت آذان اولئك الذين كانوا في مقدمته، فشرعوا ينعطفون ـ على التوـ حول المنزل وكأنهم سيل متدفق ، وكل منهم يدفع الذي امامه دفعا .

واقام القاتل عارضة خشبية ضخمة ، كان قد حملها لهــذا الغرض ، خلف الباب على نحو محكم جدا جعل فتحه من الداخل امرا عسيرا جدا . ثم انه دب فوق القرميد واطل على الحاجز المنخفض .

كان المد قد انحسر ، وكان الخندق مجرد رقعة من وحل .

وكان الحشد قد اخلد الى الصمت خلال هذه اللحظات القليلــة ، اذ كان افراده يشاهدون حركات سايكس وهم في ريب من غرضه . ولكن ما ان عرفوا ذلك الغرض وادركوا انه متعذر ، حتى اطلقوا صيحة انتصار حاقــد لم يكن صياحهم السابق كله ، اذا ما قيس بها ، غير همســـات . وارتفعت صيحتهم تلك مرة ومرة . وتلقف الصوت اولئك الذين كانوا علــى مسافــة نائية الى درجة تجعلهم غير قادرين على فهم معناها . وتردد صداها وتردد . لقد بدا وكأن المدينة كلها قد صبت سكانها جميعا لكي يلعنوه .

وواصلت طليعة الحشد زحفها ، وواصلت وواصلت ... في سيــل من الوجوه الغاضبة جارف عنيد ،يضيئها ههنا وهناك مشعل متوهج كان يبرز كامل غيظها وانفعالها . وكانت الغوغاء قد اقتحمت البيوت القائمة على الضفة الاخرى من الخندق : كانت مصاريع النوافذ قد رفعت ، او اقتلعت اقتلاعا وكانت في كل نافذة صفوف من الوجوه متعاقبة ، وبدت فــي كــل سطح من سطوح المنازل عناقيد من الناس متراكبة . وانحنــت الجســـور الصغيرة كلها (وكان ثمة في مدى البصر ثلاثة منها) تحت ثقــل الحشــد الزاحف فوقها . وواصل السيل اندفاعه ، بحثا عن ركن او ثقب يطلق فيــه العنان لصيحاته ، وليرى الى الصعلوك ولو لحظة واحدة .

ــ « لقد اوقعوه الآن في الشرك ، » كذلك صاح رجل فــوق الجسر الاقرب . « هورا ! »

وشحب لون الحشد عندما امست رؤوس افراده حاسرة كلها . وكرة اخرى ارتفعت الصيحة الداويــة .

وصاح رجل عجوز من فوق الجسر نفسه : « ســوف ادفــع خمسين

جنيها الى الرجل الذي يقبض عليه حيا . ولسوف ابقى هنا حتى يعود ليسألني تقديم المكافأة اليه . »

واطلق الحشد زمجرة اخرى . وفي هذه اللحظة شاع بين المتجمهرين ان الباب قد كسر آخر الامر ، وان الرجل الذي كان اول من طالب بالحصول على مرقاة قد نفذ الى الحجرة . وفي الحال انعطف السيل ، فيما انتقل هذا النبأ من فم الى فم . واذ راى المطلون من النوافذ ان الواقفين على الجسور قد انكفأوا متدافعين ، غادروا مراكزهم واندفعوا الى الشارع ملتحقين بالمتجمهرين الذين عادوا الآن فاندفعوا ، وقد اختلط حابلهم بنابلهم، الى البقعة التي غادروها منذ قريب : كان كل امرىء يدفع جاره ويخاشنه ، وكانوا كلهم يلهثون من شدة التحرق الى الدنو من الباب والقاء نظرة على المجرم وقد اخرجه رجال الشرطة من المنزل . ورهيبة كانت صرخات وصيحات اولئك الذين كاد التدافع يخنقهم ، او الذين ديسوا بالاقدام في ذلك الهرج والمرج . كانت الازقة الضيقة غاصة بالناس . وفي هذه اللحظة ، بين اندفاع بعضهم للعودة الى البقعة الواقعة قبالة المنزل ، ومحاولات الاخرين العابثة للتملص من الحشد ، انصرف انتباه القوم المباشر عن المجرم ، على الرغم من ان التشوق الجماعي لرؤيته في قبضة العدالة تعاظم واشتد ، ان كان تعاظمه واشتداده امرين ممكنين .

كان الرجل قد انطرح ارضا ، وقد اوقعت ضراوة الحشد واستحالة الفرار اعظم الذعر في قلبه . حتى اذا لاحظ هذا التغير المفاجىء بسرعة لا تقل عن تلك التي حدث بها ، هب واقفا على قدميه ، عاقدا العزم على القيام بجهد اخير من اجل النجاة بنفسه من طريق الارتماء في الخندق ، ومحاولة الانسلال تحت جنح الظلام والفوضى ، ولو ادى ذلك الى موته اختناقا .

كانت قوة جديدة قد انبعثت في نفسه ، تشحذها الضجة المقبلة من داخل المنزل والمعلنة ان المغيرين قد اقتحموه فعلا . فلم يكن منه الا ان وضع قدمه على احدى المداخن ، وطوقها بواحد من طرفي الحبل تطويقا محكما ، وبيديه واسنانه صنع من طرفه الآخر ، في ثانية واحدة تقريبا ، انشوطة منزلقة متينة . وبواسطة هذه العقدة كان في ميسوره ان يهبط الى مسافة لا تبعد عن سطح الارض غير مترين اثنين على التكثير ، ولقد حمل مديته بيده استعدادا لقطع الحبل عندئذ ، والقفز الى الارض .

ولحظة رفع الانشوطة فوق راسه قبل ان يزلها تحت ابطيه ، وعندما عمد الرجل العجوز الذي سبقت الاشارة اليه (والذي كان قد تشبث بدرابزون الجسر ليقاوم ضغط الحشد ويحتفظ بموضعه) اقول وعندما عمد هذا العجوز الى تحذير من كانوا حوله تحذيرا جديا قائلا لهم ان الرجل على

وشك ان يهبط من اعلى المنزل . . . في تلك اللحظة نفسها رفع المجرم ذراعيه في الهواء ، ناظرا خلفه الى السطح ، واطلق صيحة رعب هائلة .

ــ « العيون من جديد ! العيون من جديد ! » كذلك صرخ على نحو غير بشري .

وترنح وكأنما انقضت عليه صاعقة ، وفقد توازنه ، فسقط على السور . كانت الانشوطة تطوق عنقه . لقد ارتفعت تحت وطأة ثقله ، محكمة مثل وتر قوس ، رشيقة كالسهم الذي يسرعه . وكان سقوطه من ارتفاع خمسة وثلاثين قدما . وفجأة حدثت رجة عنيفة ، واختلاج اوصال رهيب : لقد لبث مشنوقا هناك ، ويده المتصلبة مطبقة على المدية المفتوحة .

وارتعدت المدخنة العتيقة من اثر الصدمة ، ولكنها صمدت لها في شجاعة . وتأرجح القاتل في محاذاة الجدار جثة هامدة ، وراح الغلام ، منحياً الجثة المتدلية التي عطلت عليه الرؤية ، يدعو الناس الى المجيء وانتزاعها من هناك ، اكراما لله .

فلم يكن من كلب ظل مختبئا حتى تلك اللحظة الا ان راح يعدو جيئة وذهوبا فوق الحاجز الخفيض مطلقا عواء مشؤوما . ثم انه استجمع قواه للقفز ، ووثب محاولا بلوغ كتفي الرجل الميت . حتى اذا اخطأ الهدف ، سقط في الخندق ، منقلبا على ظهره خلال ذلك : لقد ارتطم راسه بحجر ، فتحطمت جمجمته .

٥١ ـ وفيه تفسير لاكثر من لغز واحد ، وطلب زواج لا مهر فيه ولا نفقة .

لم يكن قد انقضى على الاحداث المروية في الفصل السابق يومان اثنان عندما الفى اوليفر نفسه ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، في عربة خصوصية تندفع بسرعة نحو مسقط راسه . كان معه في تلك العربة مسز مايلي ، وروز ، ومسز بيدوين ، والطبيب الطيب ، وكان مستر براونلو يتبعهم في مركبة بريد يصحبه الشخص الآخر الذي لم نذكر بعد اسمه .

ولم يكونوا قد تحدثوا كثيرا خلال الرحلة . ذلك بأن اوليفر كان في غمرة من الاضطراب والقلق حرمته القدرة على استجماع افكاره ، وكادت تحرمه القدرة على الكلام . اما رفاقه فلم يبد انهم كانوا اقل تأثرا منه بكثير، اذ كان ذانك الاضطراب والقلق قد الما بهم ايضا ، بدرجة مماثلة على الاقل . وكان مستر براونلو قد اشعره ، واشعر السيدتين ، في كثير من الاحتراس ، بطبيعة الاعترافات التي انتزعت من مونكس . وعلى الرغم من معرفتهم أن الغرض من الرحلة الحالية كان اكمال العمل الذي استهل استهلالا جد بارع فان الشك والغموض كانا يحيطان بالمسألة كلها الى حد كاف لجعلهم يعانون

اشــد الحيرة والترقب .

وكان الصديــق الكريــم نفســه قــد حــال ، بمساعــدة مستــر لوزبيرن ، دون تسرب انباء الاحداث الرهيبة ـ التي حدثت منذ قريب ـ اليهم من اي طريق . وقال : « صحيح جدا انهم لا بــد ان يعرفوهــا عمــا قليل ، ولكن الظرف عندئذ قد يكون خيرا من هذا الظرف ، وليس يمكن ان يكون اسوأ بأية حال . » وهكذا واصلوا رحلتهم في صمت : كان كل منهم مستغرقا في تأملات تدور حول الموضوع الذي جمع شملهم ، ولكن ايا منهم لم يكن ميالا الى التعبير عن الفكرات التي استحوذت عليهم جميعا .

ولكن اذا كان اوليفر قد اعتصم بالصمت ، بدافــع مــن تلك المؤثرات ، فيما كانوا يرتحلون نحو مسقط راسه سالكين طريقا لم تقع عيناه عليها قط من قبل، فأن سيل ذكرياته كلها سرعان ما رده الى الايام الخوالي، فاذا بحشد من العواطف يعتلج في صدره عندما انعطفوا الى تلك الطريق التي كان قد اجتازها سيرا على قدميه : غلاما بائسا شريدا تائها من غير صديــق يعينــه او سقف يظل راســه .

ـ « انظري هناك ، هناك ! » كذلك صاح أوليفر وهو يمسك بيد روز في حرارة ويومىء الى الريف من خلال نافذة العربــة . « ذلك هو سلم السياج الذي اجتزته . وتلك هي الاسيجة التي اختبأت حولها ، خشيــة ، ان يدركني احد ويكرهني على العودة ! وهناك يمتد المجاز عبر الحقول ، ذلك المجاز الذي يفضي الى البيت العتيق حيث كنت غلاما صغيرا . اوه ، «دك» ، « دك » ، يا صديقي العزيز القديم ، لشد ما اتمنى لو استطيع فقط ان اراك اليوم كرة اخرى !»

فأجابته روز واضعة يديه المطويتين في يديها بلطف ورقة : « سوف تراه عما قريب . ولسوف تخبره عن مدى سعادتك البالغة ، ومبلغ الثراء الذي تم لك ، وان عودتك اليه لتدخل البهجة على قلبه ايضا هي السعــادة العظمى . »

فقال اوليفر : « نعم ، نعم ، ولسوف ننتزعه من هنا ، ونلبسه ونعلمه، ونبعث به الى موطن ريفي هادىء يستطيع ان ينمو فيه قويا معافى ، اليس كذلك ؟»

فهزت روز براسها ان « نعم » ، ذلك بأن رؤية ابتسامة الغلام مــن خلال دموع البهجة البالغة التي تحدرت عــلى وجنتيه سلبتها القدرة عــلى الكلام .

وقال اوليفر : « لا ريب في انك سوف تعاملينــه فــي كرم واحسان ، لانك تعاملين الناس كلهم على هذا النحو . ان سماعك ما يستطيع ان يرويه لك من قصته سوف يفجر الدموع من عينيك . انا واثق من ذلك ، ولكن لا

بأس ... لا بأس ، فسرعان ما سينقضي ذلك كله ، ولسوف تبتسمين جديد ـ انا واثق من هذا ايضا ـ عندما تفكرين في مدى تغيره ، فذلك كان موقفك بالنسبة الي .» وهنا صاح الغلام في فيض من الانفعال الحنون : « لقد قال لي (فليباركك الله) عندما هربت ، ولسوف اقول له (فليباركك الله) الآن ، واريه مبلغ حبي له .»

حتى اذا دنوا من المدينة وشرعوا آخر الامر يجتازون شوارعها الضيقة اصبح من اعسر العسير حمل الغلام على البقاء ضمن تخوم العقل والمنطق . كان ثمة دكان ساواوبيري الدفان كعهده به تماما ، الا انه بدا اصغر واقل مهابة من ذي قبل ... وكان ثمة جميع الدكاكين والبيوت المألوفة التي كانت تربطه بكل منها ، تقريبا ، حادثة ضئيلة ما ... وكانت ثمة عربة نقل غامفيلد ـ العربة نفسها التي عرفها ـ واقفة امام باب الحانة العتيقة ... وكان ثمة ملجأ الفقراء ، سجن ايام صباه الكئيب ... وكان البواب الهزيل نفسه واقفا عند المدخل ، ولم يكد اوليفر يراه حتى انكمش انكماشا غير ارادي ثم ضحك من نفسه لهذه الحماقة البالغة التي تكشف عنها ثم طفق يبكي ثم عاود الضحك من جديد ... وكان ثمة عشرات الوجوه التي عرفها ، وكانت تقف بالابواب او تطل من النوافذ ... وكان ثمة كل شيء وكأنه لم يغادره الا بالامس تقريبا ، وبدا له وكأن حياته الجديدة لم تكن غير حلم سعيد .

ومع ذلك فقد كان ذلك هو الواقع الخالص ، الحقيقي ، البهيج .

وتقدموا مباشرة الى باب الفندق الرئيسي (الذي كان من دأب اوليفر ان يحدق اليه في ذعر ، متوهما انه قصر منيف ، والذي بدا اليوم وكأن جلاله وحجمه قد تضاءلا تضاؤلا كبيرا) . وهناك كان مستر غريمويغ على أتم الاستعداد لاستقبالهم ، مقبلا السيدة الصغيرة ، والسيدة الكبيرة ايضا ، عندما ترجلوا من العربة ، وكأنه جد الجماعة كلها . لقد كان يمور ابتساما وكرما ، ولم يقسم ولو مرة واحدة ليأكلن راسه ... لا ، لم يقسم ليفعلن ذلك حتى عندما خالف مساعد حوذي هرما جدا في موضوع الطريق الاقرب الى لندن ، وذهب الى القول بأنه اعلم منه بذلك ، على الرغم من انه لم يسلك تلك الطريق غير مرة واحدة وكان في تلك المرة الوحيدة مستغرقا في النوم . كان طعام العشاء قد اعد ، وكانت حجرات النوم جاهزة ، ولقد رتب كل شيء وكأنما بمثل السحر .

وبرغم هذا كله فلم تكد جلبة نصف الساعة الاولى تنقضي حتى ساد الصمت والحصر اللذان هيمنا عليهم خلال الرحلة . ولم يشاركهم مستر براونلو عشاءهم ، بل مكث في حجرة مستقلة . ولم يكف السيدان الآخران عن الدخول والخروج وعلى وجهيهما أمارات القلق ، وكانا يتحدثان على

انفراد في الفترات القصيرة التي كانا حاضرين خلالها . وذات مرة ، دعيت مسز مايلي الى حجرة اخرى ، وبعد ان غابت ساعة او نحوها عادت وعيناها حافلتان بالدمع . كل هذا جعل روز واوليفر ، اللذين لم يطلعا على اسرار جديدة ، يستشعران الضيق وتوتر الاعصاب . لقد ظلا صامتين متعجبين ، حتى اذا تبادلا بضع كلمات تحدثا في همس وكانهما كانا يخافان ان يسمعا جرس صوتيهما .

واخيرا ، عندما اعلنت الساعة التاسعة ، وشرعوا يفكرون في انه يحسن بهم ان لا يسمعوا ايما شيء اضافي تلك الليلة دخل مستر لوزبرن ومستر غريمويغ الحجرة ، يتبعهما مستر براونلو ورجل لم يكد اوليفر يراه حتى صرخ ، او كاد ، من شدة الدهش ، ذلك بانهم قالوا له انه اخوه ، وكان هو عين الرجل الذي لقيه في البلدة التي تقام فيها السوق الاسبوعية ، والذي رآه يختلس النظر مع فاجين من خلال نافذة حجرته الصغيرة . والقى مونكس نظرة كراهية ، لم يستطع حتى في تلك اللحظة ان يكبحها ، على الغلام المنشده ، وجلس على مقربة من الباب . وتقدم مستر براونلو ، وفي يده بعض الاوراق ، الى مائدة كان اوليفر وروز جالسين غير بعيد عنها .

وقال : « انها مهمة اليمة ، ولكن هذه الاعترافات التي وقعت في لندن على مشهد من رجال كثيرين يجب ان يكرر فحواها هنا . ولقد كنت اوثر ان اوفر عليك هذا الخزي ولكن علينا ان نسمعها من شفتيك نفسيهما قبل ان نفترق ، وانت تعلم لماذا ؟ »

فقال الرجل المخاطب، مديرا وجهه : « تابع ! عجل ! لقد ارهقت ارهاقا كافيا في ما احسب . لا تبقني هنا . »

فقال مستر براونلو ، جاذبا اوليفر نحوه واضعا يده على راسه : «هذا الغلام هو اخوك من ابيك ، الابن غير الشرعي لأبيك ، يا صديقي العزيز ايدوين ليفورد ، من آغنيس فليمنغ البائسة ، التي توفيت وهي تلده . »

فقال مونكس ، عابسا في وجه الغلام المرتعد الذي كان في ميسور المرء ان يسمع ضربات فؤاده : « نعم . هذا هو ابنهما النغل . »

فقال مستر براونلو في تجهم : « ان التعبير الذي تستعمله هو تقريع لاولئك الذين تخطوا منذ زمن طويل عذل العالم الضعيف . انه لا يسربل بالعار ايما امرىء حي ، ما عداك انت الذي تستعمله . ولكن دعنا من ذلك الآن . لقد ولد في هذه المدينة . »

فكان الجواب النكد : « في ملجأ الايتام بهذه المدينة . القصة عندك مسطورة هنا » وفيما هو يتكلم اوما الى الاوراق في فروغ صبر .

ــ « يجب ان تكون عندي هنا ايضا ، » كذلك قال مستر براونلو وهو

يجيل طرفه في المستمعين .

فقال مونكس : « اسمعوا اذن ! أنتم جميعا ! لما مرض ابوه في رومة التحقت به زوجته ، أمي ، التي كان قد انفصل عنهـا منذ عهد بعيد والتي مضت تلقائه من باريس مصطحبة اياي .. ابتغاء الاهتمام بأمر ممتلكاته ، على قدر ما اعلم ، ذلك بأنها لم تكن تحبه كثيرا ، ولم يكن هو يحبها كثيرا . ولم يعرفنا البتة ، اذ كان قد فقد الوعي ، ولقد استغرق في نوم موصول حتى اليوم التالي ، عندما اسلم الروح . وبين الاوراق التي على منضدته ، كانت ورقتان اثنتان يرجع تاريخهما الى اليـوم الاول من ايام مرضتـه الاخيرة ، وكانتا موجهتين اليك انت » ، قال ذلك مخاطبـا مستر براونلو ، « ضمـن ظرف اشتمل ايضا على رسالة صغيرة اليك ، وقد كتب على ظاهره ان هذا الظرف يجب ان لا يدفع اليك الا بعد وفاته . اما احدى الورقتـين فكانت رسالة الى تلك الفتاة آغنيس ، واما الثانية فكانت وصية . »

فسأله مستر براونلو : « وماذا كان في الرسالة ؟ »

ــ « الرسالة ؟ . . . لقـد كـانت قصاصة من ورق حافلة بالكلمـات المشطوبة ، منطوية على اعتراف نادم ودعاء الى الله ان يمدها بعونه . كان قد قص عليها حكاية لغز غامض ما (لا بد ان يشرح لها ذات يوم) حال بينه وبين الزواج منها آنذاك ، وهكذا ظلت تثق به في اناة وصبر حتى ذهبت في الثقة الى ابعد مما ينبغي ففقدت ما لا يستطيع احد ان يرده اليها . وكانت، في تلك الآونة ، في الشهور الاخيرة من حملها . لقد انبأها بكل ما كان يعتزم ان يفعله لكي يمحو عارها ، لو قدر له ان يظل على قيد الحياة ، وتوسل اليها اذا ما توفي ــ ان لا تلعن ذكراه ، او تحسب ان الاثم الذي اقترفـاه سوف تحمل هي او ابنهما مسؤوليته ، لان الجريمة كلها كانت جريمته هو. وذكرها بذلك اليوم الذي اهداها فيه الحلية الذهبية الصغيرة التي يشبه شكلها شكل القلب ، والخاتم الذي نقش عليه اسمها الاول وترك فيه فراغ للاسم الذي كان يرجو ان يخلعه عليها ذات يوم .. ورجاهـا ان تحتفظ بتلـك الحليـة وتضعها دائما فوق قلبها كما قد فعلت مـن قبل . . . ثم راح يهذي مكررا الكلمات نفسها مرة ومرة ، وكأنه كان شارد اللب . وانا احسب انه كـان شارد اللب فعلا . »

ــ « والوصية ؟ » كذلك قال مستر براونلو فيما كان اوليفر يسفـح العبرات في غزارة .

فاعتصم مونكس بالصمت .

فقال مونكس متكلما بالنيابة عنه : « لقد كتبت الوصية بنفس الروح التي كتبت بها الرسالة . وفيها تحدث عن ضروب الشقاء التي أورثته اياها

زوجته ، وعن النزوع الشرير والرذائل والخبث والاهواء المبكرة التي لمسها فيك انت ولده الوحيد الذي درب على بغضه وكرهه . وترك لكل منك ومن أمك موردا سنويا مقداره ثمانمئة جنيه . اما جملة ممتلكاته فقد قسمها قسمين متساويين ـ الاول لآغنيس فليمنغ ، والآخر لولدهما اذا ما ولد وقدر له ان يبلغ سن الرشد . فاذا كان الولد انثى ورثت ذلك المال في غير قيد ولا شرط . أما اذا كان ذكرا فانه لا يرثه الا اذا لم يلوث اسمه ـ خلال حداثته ـ بأيما عمل يشتمل على عار او حقارة او جبن او ظلم . ولقد فعل ذلك ، كما قال ، ليظهر ثقته في الام وايمانه ـ الذي لم يزده وشك الموت الا

قوة ـ بأن الغلام سوف يقاسمها قلبها الكريم وطبيعتها النبيلة . اما اذا خاب ظنه في الغلام فيؤول الارث اليك . اذ يكون في ميسوره عندئذ ، وعندئذ فقط ـ حين يتكافأ الولدان ـ ان يقر بأولوية حقك في ثروته ، برغم انه لا يرى لك حقا في محبته بعد ان نفر قلبه منك ، منذ صباك الاول ، ومقتك.

فقال مونكس في صوت أعلى : « ولقد فعلت امي ما يتعين على كل امراة ان تفعله . لقد أحرقت هذه الوصية . ولم تبعث بالرسالة قط الى من وجهت اليه . ولكنها احتفظت بها ، وبغيرها من البينات ، لكي تفيد منها اذا ما حاولوا بالغش والكذب ان يمحوا وصمة العار . ثم ان امي اطلعت والد الفتاة على الحقيقة بعد أن أضافت اليها كل تهويل استطاع بغضها العنيف ان يضيفه اليها ، واني لأحبها بسبب من ذلك الان . فلم يكن منه ، وقد نخسه الخزي والعار ، الا ان فر مع اولاده الى زاوية قصية من زوايا وايلز، وبدل حتى اسمه نفسه لكي لا يكون في مستطاع اصدقائه ان يكتشفوا مقر عزلته ابد الدهر . وهناك ، بعد فترة غير مديدة ، وجد ميتا في فراشه . كانت الفتاة قد غادرت بيتها ، سرا ، قبل ذلك ببضعة اسابيع . وكان قد بحث عنها ، سعيا على القدمين ، في كل بلدة او قرية مجاورة . وفي نفس الليلة التي عاد فيها الى بيته ، واثقا من انها قد انتحرت لتخفي عارها وعاره، تفطر قلبه العجوز حزنا وأسى . »

وهنا ران الصمت فترة قصيرة، الى ان تولى مستر براونلو مهمة اكمال القصة من حيث تركها مونكس ، قال :

ـ « وبعد بضع سنوات وفدت والدة هذا الرجل ـ ادورد ليفورد ـ لزيارتي . كان قد فارقها وهو بعد في الثامنة عشرة ، وسلبها جواهرها ومالها ، وقامر ، وبدد ، وزور ، وفر الى لندن :وكان قد اتصل فيها ، طوال سنتين اثنتين ، بأحط طريدي العدالة والمجتمع . وكانت هي ترزح تحت وطأة داء عضال اليم ، وتتمنى لو توفق الى اكتشاف مقره قبل ان تلفظ انفاسها الاخيرة . وهكذا شرع في البحث عنه بحثا حثيثا . وانقضت فترة

طويلة كان البحث خلالها عقيما ، ولكنه آتى ثمراته آخر الامر ، فرجع معها الى فرنسة .

ـ « وهناك توفيت ، » كذلك قال مونكس ، « بعد داء متطاول . وحين كانت على فراش الاحتضار افضت الي بهذه الاسرار ، وببغضها القاتل الذي لا يخمد أواره لجميع اولئك الذين تتصل بهم تلك الاسرار ـ على الرغم من انها كانت في غير ما حاجة الى توريثي ذلك البغض ، لأني كنت قد ورثته منذ عهد طويل . لقد ابت ان تصدق ان الفتاة قد قتلت نفسها وقتلت الطفل معها ، بل كانت شبه مقتنعة بأن غلاما ذكرا قد ولد وانه على قيد الحياة . ولقد اقسمت لها ، اذا ما لقيته ذات يوم ان اطارده ، وان لا ادعه يعرف الراحة ، وان اتعقبه بأقسى الحقد وابعده عن الرحمة وان أصب عليه جام الغضب الذي كان يتأكلني ، وان أبصق على التبجح الفارغ الذي تكشفت عنه تلك الوصية المهينة بجره ، اذا استطعت ، الى حبل المشنقة نفسه . ولقد كانت هي على حق . فقد لقيته في طريقي ، آخر الامر . ولقد بدات تنفيذ خطتي بداية حسنة ، ولولا ثرثرة بعض المومسات ، لانتهيت كما بدات . »

وفيما كان الوغد يطوي ذراعيه طيا محكما ويرسل اللعنات على نفسه ارسالا جديرا بخبث عاجز مخيب التفت مستر براونلو الى الجماعة المروعة المحيطة به وشرح لها كيف فاز اليهودي ـ الذي كان شريكا لمونكس في الاجرام وموضع ثقته ـ بمكافأة كبيرة لقاء ابقائه اوليفر في حبائله ، وهي مكافأة كان الاتفاق بينهما يقضي باعادة جزء منها اذا ما شاءت المصادفة ان ينقذ الغلام من شركه ، وكيف ان نزاعا بهذا الصدد كان قد قادهما الى القيام بزيارتهما للبيت الريفي لتحقيق هويته .

وهنا التفت مستر براونلو الى مونكس وساله : « والحلية والخاتم ؟ »

ـ « لقد اشتريتهما من الرجل والمراة اللذين حدثتك عنهما ، واللذين سرقاهما من القابلة التي كانت قد سرقتهما بدورها من الجثة . » كذلك اجاب مونكس من غير ان يرفع بصره . « وانت تعرف ما الذي حل بهما . »

فاجتزأ مستر براونلو بالايماء الى مستر غريمويغ ، الذي غادر الحجرة في خفة بالغة ، ثم رجع بعد برهة يسيرة دافعا مسز بامبل امامه ، جارا زوجها المتمنع وراءه .

وصاح مستر بامبل في حماسة زائفة : « هل تخدعني عيناي ؟ أم ان هذا هو اوليفر الصغير ؟ اوه، اوليفر ، ليتك تعلم كم كنت اتألم من اجلك.. »

فغمغمت مسز بامبل : « اعقل لسانك ، ايها المعتوه ! »

فاحتج مدير الملجأ : « اليس طبيعيا ... طبيعيا ... يا مسز بامبل ؟ اليس لي الحق ان اتأثر ، وانا الذي نشأته تنشئة ابرشانية ، حين اراه

جالسا هنا ، بين سيدات وسادة ليس اكثر منهم انسا ولطفا ؟! لقد احببت هذا الغلام دائما ، وكأنه ... وكأنه ... جدي نفسه ،» كذلك قال مستر بامبل مترددا بعض الشيء بحثا عن تشبيه ملائم . « ايها السيد اوليفر ، يا عزيزي ، هل تذكر السيد الماجد المبرور ذا الصدرة البيضاء ؟ آه ، لقد صعد الى السماء في الاسبوع الماضي ، في تابوت سنديانى ذي مقبضين مطليين بالذهب ، يا اوليفر .»

فقال مستر غريمويغ في لهجة حريفة : « هيا ، يا سيدي ، اكبح جماح عواطفك !»

فأجابه مستر بامبل : « سوف ابذل اقصى جهدي ، يا سيدي . كيف حالك ، يا سيدي ؟ ارجو ان تكون في خير عظيم .»

وانما وجه هذه التحية الى مستر براونلو الذي كان قد تقدم نحو الزوجين المحترمين حتى امسى على قيد خطوة منهما . وسألهما وهو يشير الى مونكس :

ـ « هل تعرفان هذا الشخص ؟ »

فأجابت مسز بامبل على نحو قاطع : « لا .»

فقال مستر براونلو ، مخاطبا زوجها : « ولعلك انت لا تعرفه ايضا ؟ »

فقال مستر بامبل : « انا لم اره في حياتي قط .»

ـ « ولم تبعه ايما شيء ، ايضا ؟»

فأجابته مسز بامبل : « لا ! »

فقال مستر براونلو : « ربما لم يكن معك في ايما يوم من الايام حلية ذهبية وخاتم ؟»

فأجابت المديرة : « لا ، من غير ريب . لماذا جيء بنا الى هنا لنجيب على هراء مثل هذا ؟ »

فأومأ مستر براونلو الى مستر غريمويغ كرة اخرى . وكرة اخرى وثب ذلك السيد الماجد مغادرا الحجرة في سرعة استثنائية. ولكنه لم يرجع هذه المرة ، مع رجل وزوجة بدينين . ذلك بأنه ادخل الى الحجرة ، هذه المرة ، امرأتين مصابتين بشلل جزئي فهما ترتعشان وتترنحان في مشيتهما.

وقالت الاولى ، رافعة يدها المتغضنة : « انت اغلقت الباب ليلة توفيت سالي العجوز . ولكنك لم تستطيعي ان تحجبي الصوت او توقفي الخشخشة .»

ـ « لا ، لا ،» كذلك قالت الاخرى ، مجيلة الطرف في ما حولها هازة فكيها الادردين * . « لا، لا، لا.»

* الادرد ، الذي ذهبت اسنانه . (المعرب) .

فقالت الاولى : « لقد سمعناها تحاول ان تقول لك ما فعلت ، ورأيناك تأخذين من يدها ورقة ، وتعقبناك ايضا في اليوم التالي حين قصدت الى دكان المرابي .»

فأضافت الثانية : « اجل . وكان ما تحملين حلية على شكل قلب وخاتما ذهبيا . لقد اكتشفنا ذلك ، ورأيناك تتناولينهما . لقد كنا على مقربة اوه، لقد كنا على مقربة .»

فاستأنفت الاولى كلامها قائلة : « ونحن نعرف اكثر من ذلك . ذلك بانها كثيرا ما اخبرتنا ، منذ عهد بعيد ، ان الام الشابة كانت قد انبأتها بأنها، وقد شعرت انها لن تشفى البتة ، ماضية في سبيلها ، حين الم بها الداء ، الى الموت قرب ضريح والد الطفل .»

فسألها مستر غريمويغ ، وهو يتظاهر بالمضي نحو الباب : « هل تحبين ان تري المرابي نفسه ؟»

فأجابته المرأة : « لا ! اذا كان هو » ـ واشارت الى مونكس ـ قد بلغ به الجبن حدا جعله يعترف ، وهو شيء الاحظ ان قد فعله ، واذا كنتم قد استنطقتم جميع هؤلاء النسوة العجائز حتى عثرتم على العجوزين اللتين كنتم تبحثون عنهما ، فعندئذ لا يكون عندي ما اقوله . لقد بعت الحلية والخاتم فعلا ، وهما في مكان لا تستطيعان ابد الدهر ان تسترداهما منه . ثم ماذا ؟ »

فاجابها مستر براونلو : « لا شيء ، باستثناء انه يبقى لنا ان نحرص على ان لا يتولى اي منكما منذ اليوم اي منصب يقتضي صاحبه امانة واستقامة . في استطاعتكما ان تغادرا الحجرة .»

فقال مستر بامبل ، مجيلا الطرف حوله على نحو يثير الرثاء الى حد بعيد ، فيما كان مستر غريمويغ يغادر الغرفة مع المرأتين العجوزين : « ارجو ... ارجو ان لا تؤدي هذه الحادثة الصغيرة التعسة الى حرماني من منصبي الابرشاني ...»

فأجابه مستر براونلو : « انها سوف تفعل من غير ريب . وفي استطاعتك ان توطن النفس على ذلك ، وان تعتبر نفسك سعيدا ايضا .»

ـ « لقد كان ذلك كله من عمل مسز بامبل . انها هي التي ارادت هذا .» كذلك اكد مستر بامبل ، بعد ان اجال طرفه اولا في ما حوله لكي يستيقن من ان زوجته غادرت الحجرة .

فأجابه مستر براونلو : « هذا ليس بعذر . لقد كنت حاضرا عند اتلاف الحلية والخاتم . والواقع انك ، في نظر القانون ، اكبر المجرمين مسؤولية. ذلك بأن القانون يفترض ان زوجتك تعمل بتوجيه منك .»

فقال مستر بامبل وهو يعصر قبعته بيديه الاثنتين عصرا شديدا : «اذا كان القانون يفترض ذلك فالقانون حمار ... معتوه . واذا كان هذا هــو نظر القانون فالقانون اعزب . واسوأ ما اتمناه للقانون هــو ان تفتح عينــاه المغمضتان بالتجربة ... اجل بالتجربة .»

حتى اذا وضع توكيدا كبيرا علىهذا التكرير لهاتين اللفظتيناحكم مستر بامبل وضع قبعته على راسه احكاما بالغا ، ثم وضع يديه في جيبيه وتبع زوجته هابطا السلم .

وقال مستر براونلو ، ملتفتا الى روز : « اعطيني يدك ، ايتها الانسة . لا ترتعدي . فليس ثمة ما يدعوك الى الخوف من سمــاع الكلمــات القليلة الباقية التي نريد ان نقولها .

ـ « اذا كان فيها ... (ولست ادري كيف يمكن ان يكون فيها) اقول اذا كان فيها ايما اشارة الي... » كذلك قالت روز ، « فأرجوك ان ترجىء اسمناعي اياها الى وقت آخر . انا لا املك القوة او المزاج الان .»

فقال السيد العجوز وهو يمسك بذراعها : « لا ، انت اكثر شجاعة من ذلك ، انا واثق مما اقول . هل تعرف هذه الانسة ، يا سيدي ؟»

فأجابه مونكس : « نعم.. »

فقالت روز في صوت واهن : « انا لم ارك قط من قبل .»

فقال مونكس : « اما انا فقد رايتك في كثير من الاحيان .»

فقال مستر براونلو : « لقد كان لوالد آغنيس البائسة بنتان **اثنتان** . فما كان مصير البنت الاخرى ... الطفلة ؟»

فأجابه مونكس : « الطفلة ؟ عندما توفي ابوها في موطن غريب، وباسم غريب ، من غير رسالة ، او كتاب ، او قصاصة ورق تقدم اقل دليل يمكن الاهتداء به في البحث عن اصدقائه واقربائه ... حملت الطفلة الى بعض القرويين الفقراء ، فربوها وكأنها ولد من اولادهم .»

ـ « تابع ! » كذلك قال مستر براونلو مشيرا الى مسز مايلي ان تتقدم « تابع ! »

فقال مونكس : « انت لم تستطع ان تكتشف البقعة التي لجأ اليهــا هؤلاء القوم ، ولكن حيث تخفق الصداقة يوفق الحقد في كثير من الاحيان الى النجاح . فقد اكتشفت امي تلك البقعة ، بعد عام من البحث الماكر ... اجل ، ووجدت الطفلة .»

ـ « لقد اخذتها ، أليس كذلك ؟»

ـ « لا ، فقد كان القوم فقراء ، وبدأوا يضيقون ذرعا ـ الزوج عــلى الاقل ـ بانسانيتهم الرائعة ، وهكذا تركتها لديهم ، مقدمة اليهم مبلغا صغيرا

من المال سرعان ما نفد ، واعدة اياهم بمبلغ اضافي ، وهو وعد لم تكن تعتزم الوفاء به . بيد انها لم تتكل على استيائهم وفقرهم لضمان تعاسة الطفلة ، فروت لهم حكاية عار الاخت ، بعد ان حرفتها وفقا لاغراضها الدنيئة ، ودعتهم الى الاحتراس من الطفلة لان دما فاسدا يجري في عروقها ، وزعمت لهم انها بنت غير شرعية ، وانها لا بد ان تزل عاجلا او آجلا . وخلعت الظروف والملابسات على هذا كله مظهر الحقيقة ، وصدقه القوم ، وهناك عاشت الطفلة حياة كانت من البؤس بحيث فازت حتى برضانا نحن ، الى ان شاءت المصادفة ان ترى الطفلة سيدة ارملة كانت تقيم آنذاك في تشيستر ، فرثت لحالها ، واصطحبتها الى بيتها . وأحسب انه كان ثمة قدر ملعون يحاربنا ، اذ انها ظلت هناك برغم جهودنا كلها ونعمت بالسعادة . ومنذ سنتين او ثلاث سنوات غابت عن ناظري ، ولم أرها بعد ذلك الى ما قبل بضعة اشهر . »

ــ « هل تراهنا الان ؟ »

ــ « اجل ، مستندة الى ذراعك . »

فصاحت مسز مايلي وهي تضم الفتاة الى صدرها بعد أن كاد يغمى عليها : « ولكن هذا لا ينفي انها بنت اخي ، وانها لا تزال ولدي وأعز الناس عندي . انا لن اتخلى عنها الان ولو أعطيت كنوز العالم كلها . يا رفيقتي الحلوة ! يا ابنتي الغالية ! »

فصاحت روز متشبثة بها : « انت الصديق الوحيد الذي عرفته في حياتي . انت اكرم الاصدقاء وخيرهم . ان قلبي ليتفطر اسى . انا لا احتمل سماع هذا كله . »

فقالت مسز مايلي وهي تعانقها في حنان : « لقد احتملت اكثر من ذلك وكنت خلال هذا كله خير مخلوقة والطف مخلوقة قدر لها ان تسبغ السعادة على كل من عرفت . كفى ، كفى ، يا حبيبتي ، تذكري من هو هذا الذي ينتظر ان يضمك بين ذراعيه . يا للغلام المسكين ! انظري هنا ، انظري ، انظري ، يا عزيزتي ! »

فصاح اوليفر وهو يطوق جيدها بذراعيه : « لا ، ليست عمتي . انا لن ادعوها عمتي بعد اليوم . انت اختي ، أختي العزيزة ، التي علمني ، وعلم قلبي ، شيء ما ان احبها اعظم الحب منذ البدء ! روز ، عزيزتي ... روز ، حبيبتي ! »

فلتقدس العبرات التي سفحت والكلمات المتهدجة التي تبودلت خلال عناق اليتيمتين الطويل المحكم ! لقد وجدا ، في تلك اللحظة الوحيدة ، واضاعا ابا ، واختا ، واما . وامتزجت البهجة والاسى في الكاس ، ولكن لم يكن ثمة

دموع موجعـــة ، ذلك بان الاسى نفســه انبعث عــلى نحو مرقق جدا وانبعث مغلفا بذكريات رقيقة عذبة الى درجة امسى معها ابتهاجا وقورا ، وفقد كل صفة من صفات الالم .

وبقيا وحدهما فترة طويلة ، طويلة . ثم ان قرعة رفيقة على البـــاب اعلمتهما ان ثمة شخصا في الخارج . وفتحه اوليفر ، وانسل نائيا بنفسه ، مخليا المكان لهاري مايلي .

وقال وهو يجلس على مقربة من الفتاة الحلوة : « انا اعرف كل شيء . يا عزيزتي روز ، انا اعرف كل شيء . »

ثم اضاف بعد صمت متطاول : « انا لم اجيء الى هنـــا مصادفة . لا، ولم اسمع هذا كله الليلة ، ذلك بأني عرفتـــه امس . . امس ليس غير . هل حدست اني اقبلت لتذكيرك بوعد ؟ »

فقالت روز : « قف ، انت تعرف كل شيء في الواقع . »

ــ « كل شيء . ولقد اذنت انت لي ان اعاود بحثموضوعحديثنا الاخير في ايما وقت اشاء خلال عام واحد . »

فتابع الشاب قائلا : « لا لكي احملك عــلى تعديل قرارك ، ولكن لكي اسمعك ترددينه ، اذا شئت . لقد تم الاتفاق بيننا ، آنذاك ، على ان اضع كل ما قد املكه من جاه وثروة عند قدميك . ولقد اخذت على نفسي عهدا ، اذا لزمت قرارك السابق ، ان لا احاول تعديله بأيما كلمة اقولهـــا او عمــل اقدم عليه . »

فقالت روز في حزم : « والاسباب نفسها التي قررت موقفي آنذاك سوف تقرر موقفي الآن . واذا كنت في ايما يوم من الايام ملزمة باداء واجب الولاء الصارم نحوها ، هي التي انقذتني طيبتها من حياة عوز وعذاب ، فمتى يتعين علي ان استشعر هذا الواجب اقوى ما يكون الاستشعار ان لم افعل ذلك هذه الليلة . انه صراع ، ولكنه صراع انا فخور بخوضه . وانــه الم ، ولكنه الم سوف يحتمله قلبي . »

فاستهل هاري قائلا : « ان الاسرار التي كشف النقاب عنها الليلة. . . »

فأجابته روز في رفق : «الاسرار التي كشف النقاب عنها الليلة تتركني في نفس المركز ، في ما يتعلق بك ، الذي كنت فيه من قبل . »

فالحف العاشق : « انك تقسين قلبك علي ، يا روز . »

فقالت السيدة الصغيرة وهي تنفجر بالبكاء : « اوه ، هاري ، هاري ، لشد ما اتمنى لو استطيع ، واوفر على نفسي هذا الالم . »

ــ « اذن فلماذا تفرضين على نفسك احتمال هذا الالم ؟ » كذلك قــال هاري وهو يمسك بيدها . « فكري ، يا عزيزتي روز ، فكري في مــا سمعته

الليلة .»

ـ « وما الذي سمعته ؟ وما الذي سمعته ؟ » كذلك صاحت روز .

« ان والدي قد رزح تحت وطأة شعوره العميق بالخزي الى درجة حملته على اجتناب كل شيء .. أوه ، لقد قلنا ما فيه الكفاية ، يا هاري ، لقد قلنا ما فيه الكفاية .»

فقال الشاب وهو يصدها عن سبيلها عندما نهضت : « لا ، لا يزال ثمة بقية ، لا يزال ثمة بقية . ان آمالي ، ورغباتي ، ومطامحي ، وشعوري ، وكل فكرة من فكراتي باستثناء حبي لك قد تغيرت . انا لا أعرض عليك اليوم مركزا ممتازا في جماعة صاخبة ، ولا اسألك الاختلاط بعالم من الخبث والنميمة حيث تتضرج الوجنات الحيية الشريفة بسبب من كل شيء ما خلا الخزي والعار الحقيقيين . وانما اعرض عليك بيتا ... قلبا وبيتا ... اجل يا روز ، يا اعز الناس عندي ، وهذان وحدهما هما كل ما يتعين علي ان اعرضه .»

فتلجلجت : « ماذا تعني ؟»

ـ « انا اعني بهذا اني عندما فارقتك آخر مرة فارقتك وانا عازم ارسخ العزم على تذليل جميع الحواجز الوهمية القائمة بيني وبينك ، عاقد النية على انه اذا لم يكن في امكان عالمي ان يصبح عالمك عمدت الى جعل عالمك عالمي ، وعلى ان لا اجيز لأحد من ذوي النسب الرفيع ان ينظر اليك شزرا ، لأني قد وطنت النية على الابتعاد عن هؤلاء جميعا . وهذا ما فعلته حقا . فأولئك الذين اعرضوا بجانبهم عني بسبب من هذا قد اعرضوا بجانبهم عنك ، مظهرين بذلك انك كنت حتى الآن على صواب . والواقع ان اصحاب السلطان والانسباء المتمتعين بالنفوذ والمنزلة الاجتماعية الرفيعة الذين ابتسموا لي آنذاك اصبحوا ينظرون الي ، الآن ، في برود . ولكن ثمة حقولا باسمة واشجارا مضيافة في ريف انكلترة الاشد خصبا . وقرب احدى كنائس القرى ـ كنيستي يا روز ، كنيستي ! ـ ينهض بيت ساذج سوف يوقع في نفسي الاعتزاز اكثر مما نوقعه جميع الامال التي تخليت عنها ولو ضوعفت هذه الامال الف مرة . ذلك هو اليوم وضعي وتلك هي منزلتي، واني لأضعهما الآن عند قدميك ! »

**

ـ « من اشق الامور ان ينتظر المرء العاشقين ليتناول طعام العشاء معهم .» كذلك قال مستر غريمويغ ، بعد ان افاق من رقاده وازاح المنديل الذي كان قد وضعه على راسه .

والحق ان مائدة العشاء كانت ما تزال تنتظر منذ فترة جد طويلة. ولم

يكن لدي مسز مايلي ، او هاري ، او روز (الذين وفدوا ، آخر الامر ، كلهم معا) ما يدافعون به عن انفسهم .

وقال مستر غريمويغ : « كنت افكر جديا في ان آكل الليلة ، راسي ، بعد ان بدأت اعتقد اني لن أفوز بشيء آخر أطعمه . ولسوف أبيح لنفسي، اذا أجزتم لي ذلك ، ان اعانق عروس المستقبل . »

ولم يضع مستر غريمويغ ايما وقت ، فسارع الى معانقة الفتاة الخفرة. واذ كان المثل معديا فقد حذا حذوه في ذلك كل من الطبيب ومستر براونلو . وبعض الناس يؤكدون ان هاري مايلي كان هو اول من أقدم على ذلك الصنيع ، في حجرة مظلمة مجاورة . ولكن التفات المقدمين يعتبرون هذا فضيحة خالصة ، ذلك بأنه كان شابا وكان قسيسا .

وقالت مسز مايلي : « اوليفر ، يا ولدي ، اين كنت ولماذا تبدو حزينا الى هذا الحد ؟ ان ثمة دموعا لا تزال تتحدر على وجهك . فما المسألة ؟ »

كم من خيبة يخبئها لنا هذا العالم ! خيبة تصيبنا عادة في اقرب آمالنا الى الفؤاد ، تلك الآمال التي تضفي على طبيعتنا أعظم الشرف .

كان « دك » المسكين قد مات .

٥٢
آخر ليلة من ليالي فاجين على هذه الارض

كانت قاعة المحكمة مرصوفة ، من الارضية الى السقف ، بالوجوه البشرية . ومن كل انش مربع من المكان حدقت عيون مستطلعة لاهفة . ومن الدرابزون القائم تجاه مقعد المتهمين الى الزاوية القصوى لأصغر ركن في الشرفات كانت النظرات كلها مركزة على رجل واحد : فاجين. فأمامه ووراءه، وفوقه وتحته ، وعن يمينه وعن شماله بدا فاجين وكأنه محاط بفلك متألق كله بأعين مومضة .

لقد وقف هناك ، وسط هذا الوهج كله من الضياء الحي ، مسندا احدى يديه على اللوح الخشبي الذي امامه ، ممسكا اذنه بالاخرى ، وقد دفع راسه الى امام لكي يتلقف — في وضوح اشد — كل كلمة نطق بها القاضي الذي تراس الجلسة ، والذي كان يقدم خلاصة الاتهام الى المحلفين. وبين الفينة والفينة كان يدير عينيه نحوهم ، في صرامة ، التماسا لأيما اثر ينم عن اضأل العطف عليه . حتى اذا أعلنت التهم الموجهة اليه في وضوح رهيب ، نظر الى محاميه في مناشدة خرساء رجاة أن يقدم الى المحكمة، حتى في تلك اللحظات ، حجة ما في الدفاع عنه . وفي ما عدا مظاهر القلق هذه، لم يحرك لا يدا ولا قدما . ولم يكن قد تحرك ، الا نادرا ، منذ بدء المحاكمة .

والآن وقد امسك القاضي عن الكلام ظل هو في وضعه المتوتر نفسه ، وضع الانتباه المرهف ، مركزا نظراته عليه وكانه لا يزال يصغي .

وسرت في القاعة جلبة ضئيلة ، فانتزعتـه من ذهـوله . واذ أجال الطرف في ما حوله رأى المحلفين وقد اقبل بعضهم عـلى بعض للمداولة . وشردت عيناه نحو الشرفة فبصر بالناس وقد نهض بعضهم فوق بعض لكي يروا الى وجهه : كان فريق يسارع الى وضع النظارات على عيونه ، وكـان فريق يهمس في آذان جيرانه وعلى وجوهه سيماء المقت والبغضاء . وقلة كان اولئك الذين بدوا وكأنهم غافلون عنه ، فهم لا ينظرون الا الى المحلفين ، في دهش برم ، متسائلين كيف جاز لهؤلاء ان يترددوا في اصدار الحكم . ولكنه لم يستطع ان يلمح في اي وجه ـ حتى بين النساء اللواتي كان منهن هناك جمهرة كبيرة ـ اضأل العطف عليه ، او ايما شعور غير الرغبة الغامرة في ان يروه يدان .

وفيما هـو يلحظ ذلك كله في نظرة مشدوهـة واحدة ران السكون المأتمي كرة اخرى . والتفت الى الوراء فرأى المحلفين وقد وجهوا أنظارهم الى القاضي . هش !

كانوا يلتمسون مجرد الاذن لهم بالانسحاب .

وتفرس في وجوههم ، واحدا بعد واحد ، فيما كانوا يغادرون القاعة ، وكأنه يريد ان يرى في اي اتجاه مالت كثرتهم ، ولكن محاولته هذه ذهبت أدراج الرياح . لقد وضع السجان يده على كتفه . فتبعه على نحو ميكانيكي الى أقصى قفص الاتهام ، وقعد على كرسي كان الرجل قد هداه اليه . ولولا ذلك لكان خليقا به ان لا يراه .

ورفع بصره نحو الشرفة كرة اخرى · كان بعض الناس يأكلون ، وكان بعضهم يروحون وجوههم بالمناديل ، ذلك بان المكان المكتظ كان جد قائظ . وكان ثمة شاب يرسم وجهه على دفتر صغير . فتساءل فاجين هل كـانت الصورة تشبهه . وحين كسر الفنان راس قلمه وعاود بريه بمديته نظر اليه في لامبالاة كما ينظر ايما مشاهد بليد .

وحين التفت الى القاضي راح عقله يشغل نفسه ، هـذه المرة ايضا ، بالتفكير في زي ملابسه ، وثمن كلفتها ، وطريقة ارتدائها . وكان فـي منصة القضاء ايضا سيد عجوز بدين سبق له ان غادر القاعـة قبل نصف ساعـة تقريبا ثم عاد الآن فاتخذ مقعده . فتساءل فاجين في ما بينه وبين نفسـه ما اذا كان هذا الرجل قد مضى لتناول الطعام ، وما الذي طعمه ، واين طعمه . وواصل سلسلة أفكاره اللامبالية حتى لفت شيء جديد احدى عينيه وأثار الاخرى .

وليس معنى هدا ان عقله كان ، طوال هذه الفترة ، متحررا لحظة واحده من الشعور الغامر الماحق بان القبر ينفتح عنـد قدميه ، فقـد كانت هـذه الحقيقة ماثلة في ذهنه ابدا ، ولكن مثولا غامضا عاما ، فلم يكن في ميسوره ان يركز تفكيره عليها . وهكذا ، فحتى فيما كان يرتعد ويشتعل بدنه بمثل الحمى لتمثل فكرة الموت العاجل ، راح يعد اطراف الحاجز الحديدية الشائكة امامه ، ويعجب كيف اتفق لراس أحدها ان كسر ، وما اذا كانوا يعتزمون اصلاح الدرابزون ام تركه على حاله . وبعد ذلك فكر في اهوال المشنقـة جميعا ـ وكف عن التفكير ليراقب رجلا كان ينضح الارض بالماء ابتغاء تطرية الجو ـ ثم عاوده من جديد .

واخيرا انطلقت صيحة تدعو الى الصمت ، ونظر القوم كلهم ، حابسين انفاسهم ، الى الباب . لقد رجع المحلفون ، ومروا به عن كثب . ولكنه لم يستطع ان يستنتج من وجوههم ايما شيء ، فكأن تلك الوجوه كانت مقدودة من صخر . وران صمت كامل ، فلا نأمة ولا نفس : « مذنب ! »

وضج المبنى بصيحة هائلة ، ثم بثانية ، ثم بثالثة ، وبعد ذلك ردد صدى صرخات عالية ازدادت قوة شيئا بعد شيء ، مثل رعد غاضب . لقد كانت تفجر الابتهاج من صدور الجماهير المحتشدة في الخارج ، وهي ترحب بالنبا القائل انه سوف يلقى حتفه يوم الاثنين .

وخمدت الضجة ، وسئل ما اذا كان لديه ما يقوله انقاذا لنفسه مـن حبل المشنقة . وكان قد استأنف وضعه الاصغائي ، وانشأ يحدق الى سائله بينا كان ذلك الطلب يوجه اليه . ولكنه كرر مرتين قبل ان بدا وكأنه قـد سمعه ، ثم اجتزا بان غمغم قائلا انه رجل عجوز ... رجل عجوز ... رجل عجوز ... وهكذا استحالت غمغمته الى همس ، ثم اعتصم بالصمت مـن جديد .

واعتمر القاضي بالقلنسوة السوداء، والسجين لايزال محتفظا بسيمائه نفسها ووضعه نفسه . واطلقت امراة في الشرفة صيحة استثارتهـا تلك المهابة الرهيبة . فسارع الى رفع بصره نحو الشرفة وكأنه مغضب لهـذه المقاطعة ، ثم انحنى الى امام في مزيد من الانتبـاه والتركيز . كانت كلمـة القاضي مهيبة مؤثرة ، وكان الحكم رهيبا سماعه . ولكنه وقف ، مثل تمثال من رخام ، من غير ان ينبض فيه عصب واحد . وكان وجهه الشاحب لا يزال متلعا الى امام ، وقد تدلى فكه الادنى ، وجحظت عيناه امامه ، عندما وضع السجان يده على ذراعه وأومأ اليه بضرورة الانصراف . فحدق الى ما حوله، لحظة ، تحديقا ابله ، وامتثل الامر .

واستاقوه الى حجرة مبلطة واقعة تحت قاعة المحكمة ، حيث كان بعض

السجناء ينتظرون ريثما يجيء دورهم ، وبعضهم الآخر يتحدثون الى اصدقائهم الذين احتشدوا حول نافذة مقضبة بالحديد تطل على الفناء المكشوف . لم يكن هناك من يتحدث اليه هو . ولكن فيما كان يمر تراجع السجناء الى الوراء لكي يمكنوا المتعلقين بقضبان النافذة من رؤيته على نحو افضل : ونبزوه بالالقاب المهينة، وزعقوا وصفروا. فهز جمع كفه في وجوههم وود لو يبصق عليهم ، ولكن سائقيه دفعوه ، في قوة وعنف ، عبر مجاز مظلم لا تضيئه غير بضعة مصابيح باهتة ، الى داخل السجن .

وهنا فتش ، خشية ان يكون لديه ايما أداة يستبق بها القانون . حتى اذا أجريت هذه الشعيرة ، قادوه الى احدى زنزانات المحكوم عليهم بالموت ، وغادروه هناك ... وحيدا .

وجلس على مقعد حجري قبالة الباب كان يقوم مقام كرسي وسرير في آن معا . واذ خفض عينيه المحتقنتين نحو الارض حاول ان يجمع شتات افكاره . وبعد برهة شرع يتذكر بضعة مقاطع غير مترابطة مما قاله القاضي ، على الرغم من انه كان قد خيل اليه ، آنذاك ، انه لم يوفق الى سماع كلمة واحدة . وشيئا بعد شيء نزلت تلك الاقوال في منازلها الصحيحة، واخذت تذكره بمزيد منها ، بحيث لم تكد تنقضي فترة يسيرة حتى استحضر في ذهنه كلمات القاضي كلها ، بالحرف الواحد تقريبا . أن يوضع حبل المشنقة في عنقه ، حتى يلفظ انفاسه الاخيرة ... تلك كانت هي النهاية . ان يوضع حبل المشنقة في عنقه حتى يلفظ انفاسه الاخيرة .

وحين امست الظلمة جد حالكة ، انشأ يفكر في جميع معارفه الذين ماتوا على أعواد المشنقة ، وقد لقي بعضهم حتفه على هذا النحو بسببه هو. لقد نهضوا من اجداثهم ، في تعاقب سريع الى حد كاد يجعل من المتعذر عليه ان يحصيهم . وكان قد شهد بعضهم يموتون ... وكان قد سخر منهم ايضا ، لانهم ماتوا وعلى شفاههم صلاة . اية ضجة محشرجة احدثها السقوط المفاجيء ! وما أسرع ما انقلبوا من رجال اشداء اولي بأس الى ركام من الملابس متأرجح !

ومن يدري فلعل بعضهم كان قد نزل في تلك الزنزانة نفسها ... وجلس على هذا المقعد نفسه . كانت الظلمة دامسة ، فلماذا لم يجيئوا بمصباح ؟ وكانت الزنزانة قد بنيت منذ سنوات عديدة . ولا ريب في أن عشرات من الرجال قضوا ساعاتهم الاخيرة هناك . كان ذلك اشبه بالقعود في سرداب نثرت فيه الجثث: القلنسوة ، والانشوطة ، والاذرع المشدودة الى الاجساد ، والوجوه التي عرفها حتى تحت ذلك الحجاب الرهيب ... قليلا من النور ! قليلا من النور !

واخيرا ، وبعد ان تخدشت يداه من الضرب على الباب الثقيل وعلى الجدران برز رجلان : احدهما يحمل شمعة اقحمها في شمعدان حديدي معلق على الجدار ، والاخر يجر حصيرا لكي يمضي ساعات الليل فوقه. ذلك بأن السجين لا ينبغي له ، بعد ، ان يخلف وحيدا .

ثم هبط الليل ـ الليل الدامس ، المأتمي ، الصامت . ولقد كان خليقا بغيره من الساهرين ان يسعدوا بسماع دقات الكنيسة ، لانها تؤذن بتجدد الحياة وبوشك انبلاج الفجر . أما هو فلم تحمل اليه تلك الدقات غير اليأس. كان دوي كل دقة يطلقها الجرس المعدني مثقلا بنبرة واحدة عميقة غائرة : الموت . فأية فائدة يرتجيها من جلبة الصباح البهيج التي نفذت حتى الى ذلك الموطن ؟ كانت ضربا آخر من جرس الجنازة ، زادته السخرية بشاعة ووحشية .

وانقضى النهار . النهار ؟ لم يكن ثمة نهار . فما ان أشرق حتى توارت شمسه بالحجاب . . . واقبل الليل من جديد ، اقبل طويلا جدا ، ومع ذلك كان قصيرا جدا : فهو طويل بصمته الرهيب ، قصير بساعاته المولية فرارا . وهذى السجين وجدف حينا ، وعوى وشد بشعره حينا . واقبل رجال موقرون من اهل دينه للصلاة من اجله ، ولكنه طردهم راشقا اياهم بضروب اللعنات . وجددوا جهودهم الخيرة ولكنه أوسعهم ضربا .

السبت مساء . لم يبق من عمره ، الان ، غير ليلة واحدة . ولحظة خطر له ذلك بزغ الفجر . . . فجر الاحد .

ولم يسيطر على روحه المصوحة ذلك الشعور المذبل بوضعه اليائس سيطرة كاملة الا عشية ذلك اليوم الاخير الرهيب . وليس معنى هذا ان ايما امل محدد او وطيد في الرحمة كان قد راوده ، ولكن معناه انه لم يوفق قط الى اكثر من التفكير على نحو غامض بامكانية الموت يمثل هذه السرعة . ولم يكن قد تحدث الا قليلا الى اي من الرجلين اللذين تناوبا مراقبته ، ولم يبذلا هما ، بدورهما ، اي جهد لاثارة انتباهه . كان قد قعد هناك ، يقظان ولكنه حالم . اما الان ، فراح يثب مجفلا ، كل لحظة ، ويذرع الزنزانة جيئة وذهوبا ، فاغر الفم ، محموم الجسد ، وقد عصفت به نوبة ذعر وغيظ جعلت ذينك الرجلين نفسيهما ـ وهما المتعودان رؤية هذه المشاهد ـ ينكصان على اعقابهما في رعب منه شديد. وانتهى آخر الامر الى ان يمسي رهيبا جدا ـ رغم وخزات ضميره الشرير اللاذعة كلها ـ حتى لقد عجز احد الرجلين عن احتمال البقاء هناك ، والنظر اليه على انفراد . وهكذا انشأ الرجلان يحرسانه معا .

وجثم على فراشه الحجري ، وفكر في الماضي . كان قد جرح ببعض

القذائف التي القتها الجماهير يوم اعتقـاله ، وكـان راسه معصوبا بقماش ابيض . وتدلى شعره الاحمر على وجهه الشاحب ، وشكلت لحيته المتوفة على نحو جزئي خصلا مفتولة ، والتمعت عيناه بضياء رهيب ، وفرقع جلده غير المغسول تحت نار الحمى التي احرقته بأوارها . الساعة الثامنة ... الساعة التاسعة ... الساعة العاشرة . اذا لم تكن هذه مجرد حيلة لترويعه،

واذا كانت هذه هي الساعات الحقيقية التي يمضي بعضها في اعقاب بعض ، فأين سيكون هو عندما تدق كرة اخرى ؟! الساعة الحادية عشرة ! تلك ساعة اخرى تعلن قبل ان تكف الساعة السابقة عن الذبذبة . في الساعة الثامنـة من صباح غد سوف يكون هو المشيع الوحيد في موكب جنـازته الخاصة . وفي الساعة الحادية عشرة ...

ان اسوار نيوغايت الرهيبة هذه ، التي حجبت كثيرا من الشقاء وكثيرا من الآلام التي تمتنع على الوصف ، لا عن اعين الناس ولكن — في كثـير من الاحيان وطوال فترة مديدة — عن افكارهم ايضا ، لم تشتمل في ايما يوم من الايام على مشهد اشد هولا من ذلك المشهد . ولقد كان خليقا بأولئك النفر القلائل الذين تلكأوا عنـد مرورهم بالسجن وتساءلوا ترى مـا الذي يفعله الرجل الذي سيتأرجح غدا على اعواد المشنقة ، اقول لقد كان خليقا بهؤلاء ان يأرقوا تلك الليلة لو قدر لهم ان يروه .

ومنذ ان هبطت العتمة حتى منتصف الليل تقريبـا كـان يلم بمسكن البواب جماعات صغيرة مؤلفة من شخصين او ثلاثة اشخـاص ، ويسألون — بوجوه متلهفة — هل صدر الامر بارجاء تنفيذ الحكم ؟ حتى اذا أجيبوا بالنفي افضوا بالنبأ السعيد الى آخرين ، متعنقدين في الشارع ، فلم يكن من هؤلاء الا ان راحوا يومئون ، مرشدين بعضهم بعضا ، الى الباب الذي منـه سوف يخرج المحكوم عليه بالموت ، والبقعة التي فيها ستنصب المشنقة . ثم مشوا بخطى كارهة ، وانقلبوا عائدين لكي يحاولوا تصور المشهد . وشيئـا بعد شيء تناقص عددهم ، واحدا بعد واحد . وطوال ساعة ، في جوف الليل البهيم ، خلّف الشارع للوحشة والظلمة .

وكانت الساحة المنبسطة امام السجن قد اخليت ، وكانت بضعة حواجز قوية ، مدهونة باللون الاسود ، قد اقيمت عبر الطريق لصد ضغط الجماهير المرتقب ، عندما برز مستر براونلو واوليفر امام خادعة * الباب وابرزا اذنا يجيز لهما الدخول على السجين ، اذنا موقعا من احد حكام المقاطعات ، فادخلا الى حجرة البواب .

وقال الرجل الذي كان عليه ان يقودهما : « هـلْ سيصحبك الفتى

* الخادعة Wicket : الباب الصغير في الباب الكبير . (المعرب)

ايضا ؟ انه ليس مشهدا يحسن بالاطفال ان يروه ، يا سيدي . »
فقال مستر براونلو : « ذلك صحيح ، يا صديقي ، ولكن لهذا الطفل صلة وثيقة بالمسألة التي دفعتني الى مقابلة الرجل . واذ كان رفيقي هذا قد رآه في اوج خساسته ونجاحه فاحسب ان من الخير له ـ ولو كلفه ذلك شيئا من الالم والخوف ـ ان يراه الان . »

وانما قيلت هذه الكلمات القليلة على انفراد بحيث لا يسمعها اوليفر . ورفع الرجل يده الى قبعته . وبعد ان نظر الى اوليفر في شيء من الفضول فتح بابا آخر قبالة ذلك الذي كانا قد دخلا منه ، وقادهما خلال مجازات مظلمة ملتوية نحو الزنزانات .
وقال الرجل ، وقد كف عن السير في مجاز مظلم كان عاملان اثنان يعدان فيه بعض الترتيبات : « هذا هو المكان الذي سيمر منه ، ولو خطوت خطوة واحدة في هذا الاتجاه اذن لرايت الباب الذي سيخرج منه . »

وقادهما الى مطبخ مبلط ، مجهز بمراجل نحاسية خاصة بطعام السجناء ، واشار الى احد الابواب . كان ثمة فوقه خادعة مفتوحة انبعثت منها اصوات بشرية ، ممتزجة باصداء مطارق والواح خشبية تطرح على الارض . كانوا ينصبون المشنقة .

ومن هذا المكان اجتازوا عدة ابواب مصفحة فتحها لهم من الداخل سجانون آخرون . حتى اذا دخلوا فناء مكشوفا ، صعدوا سلما ضيق الدرجات ، انتهوا عند قمته الى مجاز كان الى يساره صف من ابواب غليظة. وهنا اومأ السجان اليهما ان يقفا حيث هما وقرع احد هذه الابواب بمجموعة مفاتيحه . فلم يكن من الحارسين ـ بعد شيء من التهامس ـ الا ان اقبلا نحو المجاز متمطيين وكانهما سعيدان بهذه الراحة المؤقتة ، واومأ الى الزائرين ان يتبعا السجان الى الزنزانة . ففعلا .
كان المجرم المحكوم عليه بالموت قاعدا على سريره ، متمايلا ذات اليمين وذات الشمال ، وقد غلبت على وجهه سيماء جعلته اقرب الى وجوه الوحوش العالقة في الاشراك منه الى وجوه بني البشر . كان ذهنه شاردا يعيش في دنيا حياته الماضية ، ذلك بانه واصل الغمغمة من غير ان يبدو انه كان يعي وجودهم الا بمقدار ما شكل ذلك الوجود جزءا من رؤياه .
لقد غمغم : « انت غلام طيب ، يا تشارلي ... لقد احسنت صنعا . واوليفر ، ايضا ، ها ! ها ! ها ! اوليفر ايضا ... انه الان جنتلمان بكل ما في الكلمة من معنى... انه الان جنتلـ... سوقوا ذلك الغلام الى فراشه !»
وامسك السجان بيد اوليفر الحرة . وبعد ان همس في اذنه ان يتشجع ولا يستسلم للذعر ، راح يراقب المشهد من غير ان ينطق بكلمة .